تاريخ الفكر المسيحي

يسوع المسيح عبر الأجيال

المجلد الأول

« من يقول الناس انى أنا ابن الانسان »

الدكتور القس حنا جرجس الخضري



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ ـ القاهرة

١٠/٣٣٠ ط ١ /٨١ (أ) ٥ ـ ٥ الترقيم الدولى : ٧ ـ ٤٢ ـ ٧٣١١ ـ ٩٩٧ رقم الايداع بدار الكتب : ٢٨٠٧ / ١٩٨١.
طبع بمطبعة : دار الطباعة القومية بالفجالة

اهـــداء

إذ أوجـد وأحيـا وأتحرك الآن ، والفضـل فى ذلـك يرجـع إلى الرب يسوع المسيح الذى وهب لى الحياة من جديد فأنا مدين لـه بهـا •

كما أننى مدين أيضا بهذه الحياة لأخى المحبـوب فرح جرجس الذى أعطى جزءا من حياته لاحيائى ولحياتى غير حاسب للخطر حسابا، فأهدى له هذا الكتاب •

كما انى أهديـه أيضـا إلى زوجتى المحبوبـة «ونبـك جرجس التى بحبها وبسهرها وتعبهـا وعنايتها ومساعداتهـا لى فى العمل وفى الخدمة ، استطعت أن أكتب هذا الكتاب •

« المؤلف »

محتويات المجلد الأول

الجزء الأول

صفحة

المسيا
في العهد القديم

٢٣

الفصل الأول : المسيا فى الأنبياء ٢٥
— المسيا كما فهمه وتكلم عنه أنبياء العهد القديم ٢٩
الفصل الثانى : تطور فكرة المسيا عند اليهود ٣٩
الفصل الثالث : المكابيون والأحلام المسيانية ٦٣
— يهوذا الميكابى ٧٣
— يوناثان الميكابى ٧٩
— سمعان بن ماتاتياس ٨٤

صفحة

ـ يوحناهركانوس أو هركان وعائلة الأسمونيين ٩١
ـ الملك أرستو بولس الأول ٩٥
ـ الملك ألكسندر جونه ٩٥
ـ الملكة ألكسندرا سالومة ٩٧
ـ هيرودس الملك ١٠١
الفصل الرابع : الحركات الثورية الشمالية ١١٠
الفصل الخامس : المعتقدات المسيانية قبيل الميلاد ١٢٧
ـ قائمة ببعض المراجع ١٣٥

الجـــزء الثانى

صفحة

ميلاد المسيح
وحياته وموته وقيامته ١٣٧

الفصل الأول : ولادة المسيح ١٣٩

ـ الأدلة الكتابية التى تتكلم عن وجود يسوع ١٤٤

ـ الأدلة التاريخية التى تتكلم عن وجود يسوع ١٤٦

أ ـ التلمود ١٤٨

ب ـ شهادة يوسيفوس فلافيوس المؤرخ
اليهودى ١٤٨

جـ ـ المصادر الوثنية ١٥٣

د ـ حركة النقد التاريخى ١٥٧

ـ مشكلة حياة يسوع فى القرن العشرين ١٥٩

ـ متى وأين ولد يسوع ١٦٤

صفحة

الفصل الثانى : الميلاد العذراوى ١٦٩
ـ الأسباب التى من أجلها رفض البعض الميلاد
العذراوى ١٧١
أ ـ صعوبات علمية ١٧٢
ب ـ صعوبات كتابية ١٧٢
جـ ـ مشكلة شجرة النسب ١٧٣
د ـ صعوبة لغوية ١٧٤
ـ الرد على الاعتراضات الخاصة بالميلاد
المعجزى ومفهوم كارل بارت للميلاد ١٧٥
الفصل الثالث : طفولة يسوع وشبابه ١٩٩
الفصل الرابع : يسوع ومعاصروه ٢١٠
الفصل الخامس : يسوع والغيورون ٢٣٢
الفصل السادس : موقف يسوع من الغيورين ٢٤٠
الفصل السابع : مفهوم التلاميذ عن يسوع ٢٦٨
الفصل الثامن : مفهوم يسوع عن نفسه ٢٧٨
ـ العصريون المتطرفون ٢٨٠
ـ الوسطيون ٢٨٢
ـ المحافظون ٢٨٣
ـ بعض المراجع الخاصة بمسيانية يسوع ٣١٠
الفصل التاسع : الفصح والعشاء الربانى ٣١١

صفحة

ـ كيف كان يعيد بعيد الفصح ٣١٤
ـ العشاء الربانى ٣٢٢
ـ الأفخارستيا أو العشاء الربانى ٣٢٥
ـ مفهوم الكنيسة الكاثوليكية ٣٢٦
ـ مفهوم لوثر للعشاء الربانى ٣٢٧
ـ مفهوم كلفن للعشاء الربانى ٣٢٩
ـ مفهوم زوينكلى للعشاء الربانى ٣٣٠

ـ الفصل العاشر : موت المسيح وقيامته ٣٣٨
ـ هل قيامة المسيح حقيقة أم أسطورة ٣٥٠
ـ ونزل إلى الجحيم ٣٦٢

الجـزء الثالث

صفحة

عقيدة الكنيسة

والهرطقات فى القرنين الأول والثانى

عقيدة الكنيسة والهرطقات فى القرنين الأول والثانى ٣٧٥

الفصل الأول : إيمان الرسل ٣٧٧
ـ عقيدة الرسل والكنيسة الأولى فى يسوع المسيح ٣٨٠
ـ المسيح فى رسائل بولس الرسول ٣٨٤
ـ المسيح فى مفهوم يوحنا ٣٩١
ـ الغنوسية ٣٩٦
ـ تعاليم سرنث ٣٩٩

الفصل الثانى : كنيسة القرنين الأول والثانى ٤٠٧
ـ ماذا رأى معلمو القرنين الأول والثانى فى المسيح ٤١٢
ـ أغناطيوس الأنطاكى ٤١٥
ـ تعاليم أغناطيوس الكرستولوجية ٤١٧

	صفحة
الفصل الثالث : أكليمندس الرومانى	٤٢٠
الفصل الرابع : بوليكاربوس	٤٢٦
الفصل الخامس : ايريناوس	٤٣١
الفصل السادس : يوستينوس الشهيد	٤٤٤
الفصل السابع : تاتيانوس	٤٥٤
ـ بعض المراجع للدراسة	٤٥٨
الفصل الثامن : اثيناغورس وثيوفيلوس	٤٥٩
الفصل التاسع : ميلتون الساردسى	٤٦٥

الجزء الرابع

صفحة

آباء الكنيسة
والهراطقة فى القرن الثالث

٤٧١

الفصل الأول : الغنوسية والماركيونية ٤٧٣

– قائمة ببعض المراجع لدراسة ماركيون وتعاليمه ٤٨٩

الفصل الثانى : البنيون ٤٩٠

الفصل الثالث : اكليمندس الاسكندرى ٥٠٠

– قائمة ببعض المراجع ٥١٣

الفصل الرابع : ترتليانوس ٥١٤

– قائمة ببعض المراجع ٥٣٥

الفصل الخامس : كبريانوس ٥٣٦

الفصل السادس : أوريجانوس ٥٣٩

– قائمة ببعض المراجع لدراسة تعاليه وحياة أوريجانوس ٥٦٣

صفحة

الفصل السابع : هيبوليتوس	٥٦٤
ــ تمهيد : ما هى عقيدة الغربيين	٥٦٤
ــ هيبوليتوس ــ حياته	٥٦٦
ــ هيبوليتوس ــ تعاليمه	٥٧٢
ــ قائمة ببعض المراجع	٥٧٩
الفصل الثامن : نوفاتيانوس	٥٨٠
ــ قائمة ببعض المراجع	٥٨٥
الفصل التاسع : ديونيسيوس الاسكندرى	٥٨٦
ــ قائمة ببعض المراجع	٥٩١
الفصل العاشر : الانتحالية	٥٩٢
ــ قائمة ببعض المراجع	٦٠٠
الفصل الحادى عشر : الأسقف بولس السميساطى	٦٠١
ــ قائمة ببعض المراجع	٦٠٩
الفصل الثانى عشر : لوقيانوس وتأسيس مدرسة أنطاكية اللاهوتية	٦١٠
ــ حياته	٦١١
ــ تعاليمه	٦١٢
ــ قائمة ببعض المراجع	٦١٦
الفصل الثالث عشر : أريوس	٦١٧
ــ حياته وتعاليمه	٦١٨
ــ مجمع نيقية	٦٢٦

صفحة

ـ قائمة ببعض المراجع ٦٤١

الفصل الرابع عشر : القديس أثناسيوس ٦٤٢

ـ مجمع صور ٦٤٦

ـ انتصار آريوس وموته ٦٤٩

ـ مجمع سارديكا ٦٥٤

ـ مجمع القسطنطينية ٦٦٤

الفصل الخامس عشر : الأسقف أبولوناريوس ٦٦٧

ـ قائمة ببعض المراجع عن آريوس وأثناسيوس ٦٧٧

ـ قائمة ببعض المراجع عن مجمع نيقية ٦٧٨

تمهيد :

ما هو الغــرض من كتابة هــذا الكتاب عن تاريخ الفكر المسيحى ؟ •

عندما يقوم كاتب بتأليف كتاب ، لابد أنه يكون مدفوعا بدوافع محددة لمعالجة بعض الأمور التى يحتــاج مجتمع ما لمعالجتها • والذى دفعنى لكتابة هذا الكتاب عن تاريخ الفكر المسيحى أو العقائد (Dogmas) هو ماكنت أشعر به وألمسه عندما كنت طالبا فى المعهد الإكليريكى الكاثوليكى بالمعادى ، ثم طالبا ومدرســا بكلية اللاهوت الانجيليــة بالعباسية ، (المعهدين اللذين أكن لهما كل تقدير ومحبــة واحترام) ، من فقر المكتبة العربية فى الكتب العقائدية ، وحتى القلة القليلة الموجودة حاليا من هذه الكتب العقائدية فى اللغة العربية ، مترجم فقط عن لغات أجنبية •

وقد يلاحظ القارىء عند اطلاعه على هذا الكتاب ، أننا سنطيل الوقوف عند بعض النقاط التى لم يتكلم عنها الكتاب المقدس إلا بالايجاز ، أو لم يتكلم عنها مطلقــا والغرض الأساسى من ذلك ، هو محاولة ايضاح بعض النقاط والمشاكل التى تخص تاريخ الفكر المسيحى عن شخص ربنا يسوع المسيح ولم يتكلم الكتاب عنها كثيرا أو لم يذكرها بتاتا • ولكن الاكتشافات الحديثة ساعدتنا على فهمها •

فمثلا فسوف نوجز فى الكلام عن الصدوقيين والفريسيين والكتبة والهيرودسيين الخ .. لأن هذه الأحزاب والطوائف الدينية والسياسية كانت موجودة ومعترف بها من اليهود فى أيام السيد ، ويسوع نفسه ذكرها كثيرا . أما عندما نتكلم عن بدء ظهور هذه الأحزاب والشيع الدينية فى التاريخ اليهودى سنتكلم عنها باسهاب نسبى . لأن العهد القديم (إلا سفرى المكابيين) لا يذكر شيئا عن نشأة هذه الأحزاب . مثل آخر : لقد تكلم المسيح عن الكتبة والفريسيين والصدوقيين ، بل وجه اليهم الويلات علانية أمام الجميع ، ولذلك سوف لا نتكلم عنهم كثيرا .

أما الغيورون ، فان المسيح والعهد الجديد لا يتكلمان عنهم إلا بالايجاز وفى أحيان كثيرة بكيفية غير مفهومة ، ولهذا السبب أيضا سوف نتكلم باسهاب عن أحزاب الغيورين ومشاكلهم وانتظاراتهم السياسية والمسيانية سنتبع أيضا نفس الطريقة عندما نتكلم عن جماعة قمران أو الأسينيين الذين لم يرد ذكرهم فى العهد الجديد ولا بكلمة واحدة رغم أنهم كانوا شيعة دينية يهودية ظهرت فى القرن الثانى ق . م . وظلت قائمة الى وقت سقوط أورشليم . فسنحاول إذن فى هذا البحث إيضاح هذه النقاط ونقاط أخرى كثيرة لم يتكلم عنها العهد القديم ولا العهد الجديد مع أنها فى غاية الأهمية بالنسبة للعهدين وخاصة فيما يتعلق بالتعاليم المسيانية والكرستولوجية * .

ومع أن مجال تاريخ الفكر المسيحى أو العقائدى (Dogmas) يختلف كثيرا عن مجال الأدب والأخلاق المسيحية (Ethics) إلا أنه يجب أن يعالج هو أيضا (أى

(*) إن الاصطلاح كرستولوجى (CHRISTOLOGIE) يعنى التعاليم المختصة بشخص المسيح .

التخصص فى مجال الفكر المسيحى) مواضيع خاصة تعترض المجتمع والوسط الذى يعيش فيهما الانسان العصرى المعاصر • وتوجد علاقة كبيرة وهامة بين الآداب المسيحية وبين العقائد المسيحية • لأن كلا منهما يعمل على تفسير وتوضيح فكرة ما أو عقيدة ما أو موقف ما معين •

وأما الذى يميز بين هذين المجالين هو أن العالم اللاهوتى المسيحى المتخصص فى الأداب المسيحية (Ethics) يحاول فى نور الكتاب المقدس شرح بعض المشاكل العقائدية العصرية التى يتعرض لها الانسان فى العصر الحالى ، أى الذى يعيش فيه وفى البيئة التى تحيط به : مثلا ما هو موقف الكنيسة من استعمال حبوب منع الحمل أو الاجهاض أو ما رأيها فى الطلاق ؟ أو تعدد الزوجات ؟ أو الخدمة العسكرية أو علاقة الكنيسة بالدولة الخ • • ؟ • وأما اللاهوتى المتخصص فى تاريخ الفكر المسيحى أو العقائد المسيحية ، فهو يحاول أيضا أن يشرح ــ فى نور الكتاب المقدس ــ كيف وأين ومتى ولدت عقيدة ما ، ثم يتتبع تطورها فى التاريخ • وهذا هو موضوع بحثنا فى هذا الكتاب •

وسنركز فى بحثنا هذا على شخص المسيا : « يسوع المسيح » • وكما سبق القول فان من يكتب فى تاريخ الفكر المسيحى أو العقائد المسيحية ، يحاول أن يتتبع تاريخيا كيف وأين ومتى ولدت عقيدة ما • وبما أن موضوع هذا الكتاب هو شخص المسيا : يسوع المسيح ، فسنحاول اذن

البحث عن أصل فكرة المسيا فى العهد القديم ومتى وأين وكيف تطورت هذه الفكرة وما هو مفهوم العهد القديم للمسيا وسنتعرض أيضا للمفاهيم المسيانية المختلفة التى كانت منتشرة فى هذه الحقبة من الزمن • على أننا لن نقف طويلا عند مفهوم العهد القديم والأنبياء للمسيا لأن كثيرين من الكتاب والمفسرين كتبوا مجلدات لا تحصى ولا تعد فى هذا المجال• ولكننا سنحاول أن نتتبع تطور فكرة المسيا والمفهوم المسيانى الذى كان يحلم به شعب اسرائيل على مر العصور ، وخاصة فى الحقبات التى يتكلم عنها الكتاب المقدس بايجاز ، ان كانت قد وردت أصلا ، كفترة ما بعد السبى والرجوع منه ثم عهد الميكابيين الى أن استولى الرومان على فلسطين فى سنة ٦٣ ق • م • وبعد ذلك أصبح هيرودس الكبير حاكما على البلاد فى سنة ٣٧ ق • م • فسنحاول إذن أن نتتبع تسلسل الحوادث من الناحية التاريخية ومن الناحية العقائدية لنفهم ما هى المفاهيم المسيانية التى كانت منتشرة ومعروفة فى وسط الشعب اليهودى فى كل حقبة من حقبات الزمن •

ثم ما هى الطوائف اليهودية التى ظهرت ومتى ظهرت :

وعندما نصل إلى العصر الأول الذى ولد فيه السيد سنتعرض أيضا لبحث المفاهيم المختلفة المتنوعة التى كانت منتشرة فى بلاد اليهود بخصوص المسيا ومجيئه • وما هى أيضا الطوائف والأحزاب الدينية والسياسية التى ظهرت فى ذلك العصر ، وما موقفها من المسيح وما هو موقف المسيح منها ؟ وبما أننا سوف لا نقف طويلا عند مفهوم العهد القديم للمسيا ، فسوف لا نقف طويلا أيضا عند مفهوم

الكتبة والفريسيين ولا عند مفهوم العهد الجديد للمسيا لأن هذه الطوائف (كتبة ، فريسيين ، هيروديسيين فى العهد الجديد) معروفة لدينا وقد كتب عنها الكثير من الكتب لكننا سنسهب فى حديثنا عن المفاهيم والأمانى المسيانية لبعض الطوائف الدينية التى لم يتحدث عنها كثيرا العهد الجديد مثل الغيورين والأسينيين ... الخ.. وما هو موقفهم من المسيا : يسوع المسيح وما هو موقف المسيح منهم ومنا . سنطرح على هذه الطوائف وعلى الطوائف الأخــرى ذلك السؤال الذى سأله السـيد لتلاميذه فى قيصرية فيلبس : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » (متى ١٦ : ١٧) هذا السؤال سيكون محور بحثنا ومركز تأملاتنا فى هذا الكتاب ، فما هو جواب كنيســة القرون الأول والثانى والثالث والرابع ؟ هل اتفق جواب هذه الأحزاب والطوائف والأجيال مع جواب بطرس : « أنت هو المسـيح ابن الله الحى » أم كانت لهم أجوبة مختلفة ؟ .

وفى دراستنا لمفهوم كنيسة القرون : الأول والثـانى والثالث والرابع لشخص المسيح سنتعرض للهرطقات التى ظهرت فى هــذه القرون التى هددت الكنيســة بأخطار جسيمة .

وفى دراستنا لتاريخ الفكر المسيحى وتطـوره على مر العصور سنتعرض لبعض المسائل الشائكة مثل : هل كان الحبل بالمسيح وولادته بطريقة طبيعية أم بطريقة معجزية ؟ ثم هل قام فعلا من بين الأموات ؟ هل كان يعرف يســوع بأنه المسيا ؟ ما هو موقف المحافظين والعصريين من هــذه المشاكل ؟ .. وغير ذلك من هذه المشاكل الصعبة .

وهناك هدف آخر لهذا الكتاب وهو التركيز على أن فكرة

المسـيا ولدت وتطورت فى المفهوم اليهـودى قبل الميلاد ، ودراسة موقف وايمان الذين كانوا ينتظرون المسيا المخلص فى كل حقبة من حقبات التاريخ التى مرت بهم •

وعندما نصل إلى ما بعد الميلاد سيكون بحثنا مركزا على القرون الأربعة الأولى وبالتحديد إلى مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ •

وسنتناول بالتحليل عقيدة وايمان الكنيسة فى كل قرن من هذه القرون الأربعة فى شخص المسيح يسوع • ومما لاشك فيـه ، أنه ليس من السـهل أن ندرس كل التعاليم والهرطقات التى ظهرت فى هـذه القرون الأربعـة لكثرتها واتساع انتشـارها ولذلك سنكتفى بالاشارة الى بعض المعلمين الذين حملوا المشـعل بشجاعة وايمـان لتوصيل الرسـالة التى تسلموها من سابقيهم • وكذلك الى بعض الهرطقات والتعاليم المضلة التى ظهرت فى الكنيسـة وخارجها • وعنـدما نتعرض للفريقين سنحاول أن نعطى نبذة تاريخية قصيرة عن كل واحد منهم ، حتى نستطيع أن نعرف،الىجانبتعاليمهالكرستولوجية (CHRISTOLOGIE) شيئا عن حياته وتاريخه وكتاباته التى تركها لنا • والغرض من هذه النبذة التاريخية عن بعض هؤلاء الأبطـال هو : أولا أن هؤلاء الآباء الذين قاموا بحمل المشـعل ونشروا انجيـل الخلاص المحرر ، أمثال : أغناطيوس الأنطاكى أكليمندس الرومانى وبوليكاربوس ايريناوس ويوستينيوس الشهيد وأكليمندوس الاسكندرى وترتليانوس وأريجانوس وأثناسيوس وأغسطينوس وآخرون هم ملك للكنيسـة العامة ، وليس لكنيسـة دون أخرى كاثوليكية كانت أم ارثوذكسية أو بروتستانية أو تفخر بهم وحدها •

والكنيسة الانجيلية ترى في هؤلاء الآباء سحابة من الشهود (عب ١٢ : ١) قدموا شهادة لامعة لشخص الرب يسوع ، بالرغم من ضعفاتهم وسقطاتهم وأغلاطهم كبشر .

ثانيا : كما نود أيضا أن يكرس بعض الدارسين في الشرق العربي جهدا ووقتا أطول في جمع تعاليم هؤلاء الآباء وتقديمها للعالم العربي . لأن الدراسة الحالية ليست شاملة لأنها تقتصر على جزء بسيط من تعاليم الآباء ، فيما يخص موضوعنا أي ما هو ايمانهم وعقيدتهم في شخص الرب يسوع المسيح .

ولهذا السبب سنعطي في نهاية بعض الفصول قائمة ببعض المراجع الهامة لمساعدة الدارس على مواصلة البحث في هذا الموضوع .

لقد قدم يسوع في الشهر الأول من حياته الى الهيكل ، وقدمت أيضا عنه التقدمة الطقسية وهناك في الهيكل يتقدم رجل شيخ ، يدعى سمعان ، ويأخذ الطفل بين ذراعيه ويقول مصليا : « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عيني قد أبصرتا خلاصك .. وباركهما سمعان وقال لأمه ها أن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في اسرائيل ولعلامة تقاوم .. » (لو ٢ : ٢٢ ـ ٣٥) .

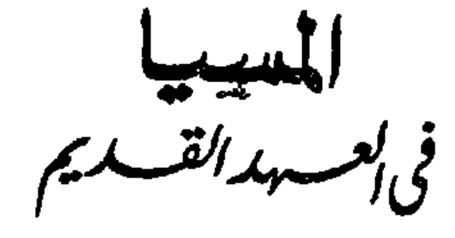
إن هذه النبوة التي نطق بها سمعان الشيخ قد لازمت المسيح في كل حياته وتحققت فيه حرفيا ، لا بل إن المسيح بعد موته وقيامته أصبح علامة تقاوم على مر العصور .

وسنرى في دراستنا لتاريخ الفكر المسيحي ، كيف أن شخص ربنا يسوع المسيح في خلال هذه القرون الأربعة

الأولى أصبح فعلا حجر عثرة •• وعلامة تقاوم •• لأنه فى كل عصر وفى كل مكان كان يطرح نفس السؤال الذى طرحه فى قيصرية فيلبس : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان » ؟ وللاجابة على هذا السؤال انقسم الناس الى كنائس وطوائف وشيع ، يعتقد كل منهم بأنه يملك الحق وكل الحق • وبدأ كل منهم يحارب ويهاجم الآخر • ولم يعلموا أنهم فىصراعهم يمزقون الكنيسة الحقيقيةالتى هى جسده والتى من أجلها صلى السيد فى أيامه الأخيرة قائلا:«ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب فى وأنا فيك ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتنى » (يو ١٧ : ٢١) •

ليساعدنا الرب يسوع لكى يكون هدفنا الأسمى هو تمجيد اسمه وامتداد ملكوته أولا، ثم العمل فى حقله ليس لرفع مستوى الانسان من الناحية الروحية فقط وقيادته للمصالحةمع اللهبل العمل أيضا على رفع مستوىالانسان المادى والاجتماعى • فان كان المسيح قد جاء لكى يخلص ما قد هلك فانه قد جاء أيضا لكى «يكونلهم حياةوليكون لهم أفضل » هنا على الأرض أيضا وليس فى الأبدية فقط •

الجــــزء الأول



الفصل الأول : المسيا فى الأنبيـــاء .

الفصل الثانى : تطور فكرة المسيا عند اليهود .

الفصل الثالث : المكابيون والأحلام المسيانية .

الفصل الرابع : ألحركات الثورية فى الشمال .

الفصل الخامس : المعتقدات المسيانية قبيل الميلاد .

الفصل الأول

السيا في الأنبياء

إن الله فى محبته التى لا توصف ، خلق الانسان الأول طاهرا نقيا ، لا عيب فيـــه ، يتمتع بطهـــارة الطبيعـــة ونقاوة الفكر وحرية الارادة والاختيار . وفى هذا الجو . جو الطهارة والقداسة ونقاوة الفكر وحرية الاختيار والتصرف ، وجد آدم . والوحى المقدس يعلمنا بأن الله أسند إلى آدم بعض المسئوليات الادارية والهامة ومنها أنه كلفـــه بأن يعطى إسما لكل حيوان من الحيوانات ولكل طير من الطيور .. وجبل الرب من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها.وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها(تك ٢ : ١٩) وهذه هى المسئولية الثانية التى كلف بها آدم . أما المسئوليـــة الأولى فكانت عنايته بالجنة وحفظها : « وأخذ الرب الاله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها » (تك ٢ : ١٥) . من هذا نرى أن الله أعطى لآدم سلطانا عظيما جدا . وكاتب المزامير يقول : « فمن هو الانســـــان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجـــد وبهاء تكلله . تسلطه على أعمال يديـــك « جعلت كل شيء تحت قدميـــه » ..

(مز ٨ : ٤ ــ ٦ ، عب ٢ : ٦ ــ ٧) • فان الله قد أعطى لآدم سلطانا مطلقا ليس على حيوانات البرية وطيور السماء فحسب بل على الخليقة كلها (تك ١ : ٢٦) • المخلوق الوحيد من كل الخلائق الأرضية الذى يتمتع بهذا الامتياز الفريد•واذا كان آدم هو الوحيد الذى انفرد بهذا الامتياز اى بأن يكون سيدا ومتسلطا على الطبيعة ؛ (لا بل يمكننا أن نعطيه أيضا لقب معاون الله : بمعنى أنه يساهم ويشترك فى عمل الله) وذلك يرجع الى أن آدم هو المخلوق الوحيد من بين كل الخلائق الذى ينطبق عليه هذا الكلام : « وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » (تك ١ : ٢٧) وهو أيضا المخلوق الوحيد الذى يتمتع بهذه الهبة التى لم تستطع أى خليقة أخرى على الأرض الحصول عليها ألا وهى النفخ فى أنفه : فان كل الخلائق خلقت بأمر الله وسلطانه بلاشك ، ولكن آدم هو المخلوق الوحيد الذى نفخ الله فى أنفه نسمة حياة • بهذين الامتيازين (أى كونه على صورة الله ، ونسمة الله فى أنفه) أصبح آدم إنسانا له روح وجسد (Psycho - Physique) وبهذين الامتيازين يختلف الانسان فى أشياء كثيرة عن الحيوان ويصبح قريبا من الله ، وبهذا أيضا أصبح سيدا على الطبيعة ومتسلطا عليها •

فعندما خرج الانسان من بين يدى الله ، كان طاهرا نقيا شفافا يستمتع بالحديث معه وجها لوجه دون خوف أو خجل أو ارتعاب كما حدث بعد السقوط (تك ٣ : ٨) • هكذا كان الانسان قبل السقوط ، فقد كان على « صورة الله وكشبهه » •

ولكن ما أن رأى الساقط الأول (الشيطان) (متى ٤ : ١ ــ ١١ ، مز ١ : ١٢ ــ ١٣ ، لو ٤ : ١ ــ ١٣ ، ١ يو ٣ : ٨ ، تك ٣ : ١ ــ ٢٤) هذه المحبة العميقة ، والروابط الوثيقة والشركة المقدسة التىيتمتع بها الانسان الأول مع الله ، إلا وامتلأ قلبه حقدا وغيظا ، وعندئذ دبر

مؤامرة بالمكر والغش والكذب ، وسقطت حواء وآدم اللذان انخدعا بكذب الكذاب (يو ٨ : ٤٤) . لقد قدم لهما نفس التجربة التى سقط فيها هو نفسه وهى : « .. الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » ، فطردا من محضره ومن جنته ، ومن ذلك التاريخ أصبح الانسان فى عداوة مستمرة مع إلهه ، الاله الذى فى محبته وفى حريته أيضا خلقه طاهرا نقيا ، يتمتع بالشركة المقدسة معه . ومن هذا التاريخ أيضا وصدى صوت الانسان يتردد على مر العصور قائلا لله : « أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر » (أى ٢١ : ١٤) وبعد ذلك « فسدت الأرض وامتلأت ظلما ورأى الله الأرض فاذا هى قد فسدت» (تك ٦ : ١١ ــ ١٢) . ان سقوط الانسان الأول كان عبارة عن الحلقة الأولى لسلسلة طويلة ثقيلة ، قيدت البشر جميعا وكانت تطوح بهم بلا رحمة الى الهلاك الأبدى الذى هو انفصال الخالق عن المخلوق . ان قصة السقوط توضح لنا أن الذى قام بأخذ المبادرة العملية للانفصال عن الله والعصيان ضده هو الانسان وان كنا نرى الحية تلعب دور المحرض المغرى والمشوق أيضا ، إلا أن الانسان كان يتمتع بحرية كاملة للرفض أو للقبول . نعم كانت الحية هى ذلك الكذاب وأبو الكذاب (يو ٨ : ٤٤) لكن الانسان هو الذى سمع وصدق وأطاع هذا الكذاب ، وبذلك فقد عصى الله وثار ضده . لقد أراد أن يصير مثل الله .

والذى يهمنا فى هذه القصة هو القول : « وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك وبين نسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه» . (تك ٣ : ١٥) . من هذه الآية نبدأ بحثنا فلقد رأى كثيرون من العلماء والمفسرين فى هذا النص وعدا بمجىء ذاك الذى استطاع وحده أن يسحق سحقا نهائيا رأس الحية . والكتاب المقدس زاخر بالآيات العديدة التى تبين لنا بوضوح أن يسوع ، نسل المرأة هو الذى سحق الرأس المسموم ، رأس الحية الذى سمم البشرية كلها . فالرسول يوحنا يقول :« من يفعل

الخطية فهو من ابليس لأن ابليس من البدء يخطىء ،لأجل هذا أظهر ابن الله لكى ينقض أعمال ابليس » (١ يو ٣ : ٨) ولكن لما جاء ملء الزمان أرســل الله ابنــه مولودا من إمرأة ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى » .. (غلا ٤ : ٤ ، رو ٨ : ٣ ، ف ٢ : ٧ ، ١ كو ١٥ : ٥٤ ، ٢ كو ٢ : ١٥ ، تى ١ : ١ ، عب ٢ : ٤١) فعندما سجل كاتب سفر التكوين هذه الكلمات ... « هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه » كان يعلن عن مجىء المخلص الفادى الذى يقول عنه القديس بولس : « وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعا » (رو ١٦ : ٢٠) فمن الواضح إذن أن هذه الآية (تك ٣ : ١٥) تتضمن وعدا بمجىء المخلص وتهديدا بسحق مملكة وسلطان الشيطان ، وهنا نلاحظ ان الانسان هو الذى كان يأخذ دائما المبادرة فى قطع العلاقات بينه وبين الله والقيــام بالثــورة والتمرد ضده وعلى العكس من ذلك كان موقف الله فانه هو الذى دائما يأخذ المبادرة لإرجاع العلاقات المقطوعة وتوطيد المحبة واعطاء السلام . فان كان آدم فى جهله وعصيانه يريد أن يكون مثل الله ، وبهذا الجهــل والعصيان والجرأة الغير الحكيمة فقد نقاوته الأولى، بل كاد يفقد جزءا كبيرا من كونه « على صورته وكشبهه » وأصبح بتصرفه وابتعاده عدوا لله ، فان الله من جانبه قد أحب الانسان محبة أبدية لايدرك لها طول أو عرض ، فهى محبة الله نفسه السرمدى ، الأزلى ، يهوه اسمه الذى له السماوات وكل ما فيها ، الذى يقول عنه القديس بولس : « الذى اذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا للــه . لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا فى شبه الناس » .. (فى ٢ : ٧) . هذا هو الاله العظيم الجبار ، المهوب ، القدوس ، الغيور ، المخيف ، والمحب أيضا الذى قدمه لنا العهد القديم بهذه الصفات ، هو نفسه يأتى الينا والى عالمنا لكى يكون معنا : عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا . « وبالاجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد تبرر فى الروح تراءى لملائكة كرز به بين الأمم أو من به فى العالم رفع فى المجد» (١ تى ٣:١٦ ، يو ٣:١٤ ،

١٦ ، ١ يو ١ : ٢) وعندما جاء الإله الحقيقى الى العالم ، لم يسلك مسلك آدم الذى أراد أن يكون مثل الله : بل هو الله صار انسانا بل أكثر من ذلك صار انسانا عبدا لكى يحرر كل عبد يقبله كسيد ومخلص .

هـذه هى المبادرة السعيدة التى اتخذها الله بعد سقوط الانسان . فقد وعده بمخلص يسحق رأس الحية ويحرره من سلطان عدوه . وعلى هذا الوعد الذى تكرر على فم الأنبياء الذين تنبأوا بمجىء هذا المخلص المحرر ، ركز المؤمنون عبر الأجيال آمالهم وأمنياتهم وأنظارهم على شخص هذا المحرر ، المخلص الذى سيدعى فيما بعد باسم المسيا .

وفى دراستنا لهذا الموضوع سنحاول الاقتراب بطريقة موجزة وسريعة من الاعلانات الالهية فى الكتاب المقدس ، أى نبوات الأنبياء ، عن المسيا ثم كيف فسرت هذه النبوات على مر العصور .

المسيا كما فهمه وتكلم عنه أنبياء العهد القديم

بعد أن سقطت البشرية فى قبضة ابليس بسقوط آدم ، اذ بسقوطه صار كل الجنس البشرى فى عداوة مع الله ، قائلين له : « ابعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر » (أى ٢١ : ١٤) . وهنا نرى الله ، الذى من عادته وفى محبته الغير المتناهية ، يأخذ دائما المبادرة بالمصالحة فيعطى هذا الوعد الثمين للانسان الساقط المبتعد عنه قائلا : «وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه» (تك ٣ : ١٥) .

وقد أعلن لنا الله أن نسل المرأة الذى سيسحق رأس الحية هو شخص الرب يسوع المسيح . هذا هو الوعد الأول الذى يشير به الوحى المقدس إلى المخلص . الوعد الذى أصبح فيما بعد وعلى مر العصور

الطويلة موضوع الرجاء والأمل ، ذلك الوعد يقول عنه كاتب الرسالة الى العبرانيين : « فى الايمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) إن هـذا الوعد « هو يسحق رأسـك » كان كالمشعل المنير الذى يضىء الطريق أمام الآباء ورجال الايمان فى العهد القديم ، كان بابا للرجاء بعد أن انقطع الرجاء بسقوط آدم • فمن المرأة التى عن طريقها دخلت الخطية ثم الموت الى العالم (رو ٥ : ١٢ — ١٣ ، ١ كو ١٥ : ٢١) سيخرج أيضا الذى سيهب الحياة الأبدية للذين يقبلونه كمخلص وفاد (رو ٥ : ١٥ — ١٩ ، لو ٢ : ١٥ ، غلا ٤ : ٤) لانه كما بمعصية الانسان الواحد جعل الكثيرون خطاة هكذا أيضا باطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارا » (رو ٥ : ١٩) • والرب فى أمانته الغير المتناهية كان يذكر شعبه بهذا الوعد العظيم مرارا كثيرة وفى ظروف مختلفة ، فهوذا موسى يلفت أنظار الشعب فى البرية الى هذا المخلص بالقول « يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى • له تسمعون» (تث ١٨ :١٥، ١٨) ولقد تحقق هذا الوعد عندما جاء المسيح ، وهذا واضح من القول : « فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع بن يوسف الذى من الناصرة » (يو ١ : ٤٥ ، أع ٣ : ٢٢ ، ٧ : ٣٧) •وهناك نبوات أخرى تشير بطريقة غير مباشرة الى المسيح وبطريقة مباشرة إلى الملك العتيد والذى من صلبه سيخرج المسيا المنتظر كقول بلعام ••أراه ولكن ليس الآن • أبصره ولكن ليس قريبـا » •• (عد ٢٤ : ١٧ — ١٩ ، ٢ صم ٧ : ١٢ — ١٦ ، ٢ : ٤) ويمكننا أن نعتبر كل هذه النصوص وحدة واحـدة إذ أنها تعبـر عن الملك داود الذى سيخرج من صلبه المسيح • وجدير بالذكر أن نبوة بلعام هذه (عد ٢٤ : ١٧ — ١٩) قد تحققت فى داود الذى جاء بعد بلعام •• فقد ظهر داود كملك عظيم انتصر على موآب وأدوم وعلى كثيرين من أعدائه (٢ صم ٨ : ٢ ، ١٤) وأسس مملكته العظيمة التى صارت فيما بعد المثال الذى

يتغنى به كل اسرائيلى ؛ والنموذج الذى يحلم به كل الملوك الذين جاؤا بعده . وفى العهد القديم نبوات كثيرة جـدا تشير إلى داود باعتباره الشخص الذى منه سيخرج المسيا المنتظر،الذى سيعطى سلاما وراحة لشعبه . ففى كتاب المزامير مثلا نجد عبارات كثيرة يمكن أن ننسبها إلى المسيا المنتظر أو الى رجال الله الأتقياء الذين عاشوا بأمانة أمام الله وتألموا واضطهدوا عن أجل اسمه . (مز ٧٢ : ٩ ــ ١٥ ، اش ٤٩ : ٧ ، مى ٧:٧؛) وبعض المزامير تتكلم عن المسيا نفسه وعن ملكه وعن كهنوته (مز ٤٥ : ٦ ــ ٧ ومز ٤٧ : ١ ، ٢ ، مز ١١٠ : ١ ــ ٢٧ ، عب ١:٨ ، ٩ ، ٥ : ٦) وأما كتاب الأمثال فيقدم لنا وصفا رائعـا دقيقـا عن الحكمة (أم ٨ : ٢٢ ــ ٣١) الحكمة الموجود عند الله « منذ البدء منذ أوائل الأرض » قبل أن يوجد القمر أو الميـاه وقبل الجبـال ، وقبل السموات وقبل كل ما هو موجود ويحيا ويتحرك . فكل ما هو موجود قد وجد لأن الحكمة كان « عنده صانعا » . وبلاشك ، عندما نقرأ هذا الفصل بتدقيق نرى التشابه الذى لايمكن انكاره ، بينـه وبين انجيل يوحنـا (١ : ١ ــ ٥) « من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت .. لما ثبت السموات كنت هناك أناء كنت عنده صانعا » .. (أم ٨ : ٢٢ ــ ٣١)، «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله..كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان» (يو ١ : ١ ــ ٥) . والعهد الجديد يستعمل كلمة «حكمة» مرارا كثيرة لكى يشير بها إلى المسيح: «وأما للمدعوين يهودا ويونانيين فبالمسيح قوة الله وحكمة الله .. ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذى صار لنا حكمة من الله وبرا وقداسة وفداء (١ كو ١ : ٢٤ ، ٣٠) فانه فيه قد خلق الكل ما فى السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى .. الكل به وله قد خلق . الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل » (كو ١ : ١٦ ــ ١٩) فالحكمة التى يتكلم عنها كاتب سـفر الأمثال هو المسيح : هو اللوغوس (الكلمة) الذى كان منذ البدء فى حضن الآب والذى به خلق كل شىء (عب ١ : ١ ــ ٢ ، ١ كو ٨ : ٦ ، كو ٣:٢) وعندما نقرأ بتمعن

سفر اشعياء النبى نجد فصولا عديدة جدا تشير بطريقة واضحة وصريحة الى المسيا • وإننا لا نجهل أن بعض المفسرين قد حاولوا نسبة معظم هذه الفصول الكتابية فى سفر اشعياء الى الأمة اليهودية كلها فى أثناء السبى وبعده (كعبد الله المتألم والمطروح ، والمذلول والمجروح والمحتقر والمخذول من الناس الذى لا صورة له ولا جمال فننظر اليه ولا منظر فنشتهيه) (اش ٥٣ : ٣ — ١٢) • وأن البعض الآخر نسب هـذه الفصـول الى بعض الأشخاص بطريقة رمزية (اش ٤ : ٢ ، إر ٢٣ : ٥ — ٧ ، زك ٣ : ٨ ، ٦ : ١٢) على أنه من الواضح البين أن هذه الفصول تتكلم عن المسيا بطريقة لا تترك للشك أو اللبث مجالا ، ومنها قوله : « ولـكن يعطيكم السيد نفسه آية : ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (اش ٧ : ١٤) ان هذه الآية تشير قطعا الى شخص الرب يسوع المسيح ولا يمكننا أن نطبقها على أى ملك أو على أى قائد سياسى فى اسرائيل•

فان اسرائيل بعد السبى كان ينتظر مخلصا : ينتظر مسيا ، وهذا المخلص أو المسيا أو الملك : (اش ٤ : ٢ ، ٤٢ : ١ ، ٢ ، ٤٣ : ١٠ و٤٩: ١ — ٣) هو انسان ابن انسان من نسل داود • ان الملك المنتظر ، بحسب المفهوم اليهودى يجب أن يكون انسانا ومولودا بطريقة بشرية ، ولم يفكر أى يهودى فى أية لحظة من لحظات تاريخه فى السبى أو بعده بأن المسيا المنتظر هو كائن سماوى أو آت من عالم آخر • بل كان الأمـر المهم بالنسبة لكل يهودى هو أن المسيا أو الملك المنتظر لابد أن يكون من نسل داود لكى يحرر الشعب من الاستعباد والاحتلال الأجنبى ويجلس على كرسى داود أبيه • فعندما يقول النبى : « ها العذراء تحبل •••» لايقصد بأن المسيا الذى سيولد من العذراء هو ملك أرضى ؛ ولكنه ملك على نظام آخر • على أية حال سوف نتكلم عن هذه الآية باسهاب عندما نناقش موضوع الميلاد العذراوى فى الفصول القادمة•وكل ما نريد أن نوضحه هنا هو سرد بعض الفصول الكتابية التى تكلمت عن المسيا ، مع ذكر بعض

التفصيلات البسيطة . ولذلك لايمكننا أن نهمل الأصحاح (٩ : ٦–٧) « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا قديرا أبا أبديا رئيس السلام ..) والنبى يعطى هنا بعض الصفات التى سيتمتع بها مولود العذراء (أش ٧ : ١٤) فان اسمه « عجيب » : وكيف لايكون اسم ذلك المولود الذى سيولد عجيبا وهو يدعى عمانوئيل (٧ : ١٤) الذى تفسيره الله معنا (متى ١ : ٢٣) فهو ذلك الشخص الذى صارع معه يعقوب الليل كله (تك ٣٢ : ٢٩) وهو أيضا الذى ظهر لمنوح وزوجته ، وقال منوح لملاك الرب ما اسمك حتى اذا جاء كلامك نكرمك «فقال له ملاك الرب لماذا تسأل عن اسمى وهو عجيب » (قض ١٣ : ١٨) . نعم ان اسمه عجيب لأنه قد تميز عن كل بنى البشر فقد مسح بزيت الابتهاج أكثر من كل شركائه (عب ١ : ٩) فهو الله نفسه الذى فى محبته غير المدركة صار عمانوئيل أى الله معنا ، الله معنا ومثلنا — صار انسانا . أليس هذا عجيبا !! فان كان هذا الابن عجيبا فهو مشير أيضا أى أنه صاحب مشورة ، ومشورته تختلف كل الاختلاف عن مشورات الشيطان والبشر فان الحية أشارت على حواء بأن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لكى تصير مثل الله ؛ والنتيجة التى حصلت عليها حواء وآدم من هذه المشورة هى أنهما صارا عريانين ومطرودين من الجنة. أما هو الذى فى حضن الآب منذ الأزل فهو صاحب المشورة الصالحة والذى يقول عنه كاتب سفر الأمثال « لى المشورة والرأى . أنا الفهم لى القدرة» (أم ٨ : ١٤) لأنه حكمة الله وعلمه (١كو ١ — ٢٤ ، ٣٠ و ٢ : ٤ ، ٢كو ٣ : ١٨ ، رؤ ٣ : ١٨)

وهو أيضا إله قدير: لا وجه للمقارنه بينه وبين الآلهة التى كانت تحيط بشعب الله : « فبمن تشبهون الله وأى شبه تعادلون به . الصنم يسبكه الصانع والصائغ يغشيه بذهب ويصوغ سلاسل فضة»

(اش ٤٠ :١٨ و٤١ و٧٠٦ و٤٤ : ٩ ــ ٢٠) ، فهو الله القدير يقول للشيء كن فيكون (تك ١ : ٦ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٧) ومع أنه إله قدير وكل الأشياء كانت بأمره وطوع أمره ، فهو ليس بالاله البعيد الذى يسكن فى أقصى السموات والذى لايمكن أن يدنو منه الانسان ، بل ان هذا الاله القدير هو أيضا أب أبدى محب .

رئيس السلام : هو نفسه سلام : مانح السلام الذى يفوق كل عقل (ف ٤ : ٧) وهو أيضا سلامنا (أف ٢ : ١٤) . والسلام الذى يمنحه هذا الرئيس يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن السلام الذى يعطيه العالم والذى حلمت به أمة اليهود . فان أمة اليهود حلمت بسلام ناتج عن تدمير وخراب الممالك الأخرى التى كانت تحيط بها وتهدد سلامها . إن هذا السلام لا يتم عن طريق سفك الدماء وقتل الأعداء وتهديم الحصون ، لأن الحرب والعدوان والعنف لاينتج عنها الا الكراهية والعداوة ، والفقر والجهل والمرض .

فلقد حاولت الأمم ولاتزال تحاول حتى الآن عبثا الحصول على السلام عن طريق العنف والتسلح . أما النبى اشعياء فيرسم لنا صورة خلابة رائعة يحاول فيها اظهار التغيير الجذرى الذى يحدث فى حياة الذين يحصلون على هذا السلام فى ملكوته الآتى : فعندما يتقابل الله مع الانسان ويقبل هذا الأخير الدعوة الموجهة اليه لكى يكون ابنا له وعضوا فى ملكوته ، يصبح الانسان خليقة جديدة وبهذا يصبح عضوا فى ملكوت الله . «اذ كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة ، الأشياء العتيقة قد مضت ،هوذا الكل قد صار جديدا » (٢ كو ٥ : ١٨) . هذا هو ملكوت الله الذى يرسمه لنا اشعياء فى هذه اللوحة الرائعة (اش ١١ : ٦ ــ ١٠) حيث يقول : « فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معا وصبى صغير يسوقها .. » .

إن هذا الفصل لايمكن تفسيره تفسيرا حرفيا كما ظن البعض ، بأنه ستأتي فترة من الزمان (الملك الألفي) حيث يجـرد الله الحيوانات من طبائعها وغرائزها الوحشية فتعيش في سـلام دون هجوم وافتراس ، فلا يأكل فيما بعد الحيوان المفترس حيوانا آخر .. الخ .. إن هـذه الأعداد واضحة وصريحة،وهي تصف لنا حال الذين يتقابلون مع المخلص بعد دخولهم في ملكوت السموات ، فالله يريد بلا شك أن الذين يدخلون الملكوت يعيشون في سلام تام ، فان رغبة الله رئيس السـلام هي أن يرى الأسود بجانب الأبيض والأصفر بجانب الاشقر ، والفقير بجانب الغني والقوى بجانب الضعيف ، يعيشون جميعا في سلام وأمان . ومما لاشك فيه أن عالمنا الحاضر مهدد في سـلامه أكثر من أي وقت مضى ، فالحروب وأخبار الحروب التي تندلع في كل مكان لاتترك في قلب الانسان وفي البيئة التي يعيش فيها الا خوفا ورعبا واضطرابا وقلقا ، خصوصا أن الوسائل التكنولوجية الحديثة المستعملة في الحروب أداة شيطانية وفعالة جدا في التخريب والتدمير والقتل . فالقوى يهجم على الضعيف وينهش لحمه وعظمه ، وهنا يسألنا الذين يؤمنون بحرفية هذا الفصل وفصـول أخرى لها اتصال بهذا الموضوع (رؤ ٢٠ : ٤ ــ ٩) قائلين : هل يمكن للمسيح أن يسمـح لأشيـاء مثل حروب أو مؤامـرات أو أمـراض الخ .. أن تحدث في ملكة الألفي ؟ والجواب على ذلك هو أن عبارة ألف سنة لا تعني ألف سنة حرفيا،والرسول بطرس يقول« .. ان يوما واحدا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد » (٢ بط ٣ : ٨) وكاتب المزمور التسعين يقول : « لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل ...) (مز ٩٠ : ٤) .

فمن الصعب أن نبني عقيدة الألف السنة حرفيا على عبارة وردت مرة واحدة في سفر الرؤيا ، وهو سفر قد امتـلأ من أوله إلى آخـره بالرموز والتشبيهات والمجازات مما يزيده غموضا .

أما بخصوص ملك السلام وتقييد الشيطان فإن هذا الملك يبدأ عندما يدخل المسيح القلب ويغير الانسان فيصير خليقة جديدة وتصبح حياته حياة جديدة • وهذا لا يتم إلا بعد أن يدخل المسيح إلى القلب ويربط الشيطان ويستولى على أمتعته (متى ١٢ : ٢٥ ـ ٢٩) ومن هذه اللحظة يسعى المؤمن جاهدا أن يحيا ويسلك ويتصرف كعضو فى ملكوت السلام، يعمل على انتشاره فى القلوب •وهنا يمكن أن يسكن الذئب مع الخروف • ولكى لانبتعد عن موضوعنا وهو المسيا كما فهمه وتكلم عنه بعض أنبياء العهد القديم ، نرجع إلى سفر إشعياء فنجد فى الأصحاح ٤٢ : ١ ـ ٤ نصا قد نسبه البعض إلى المسيا ونسبه البعض الآخر إلى عبد الرب ، وعبد الرب فى بعض أسفار العهد القديم قد يكون كناية عن شعب الله كله ، كما هو الحال فى (اش ٤٥ : ٤ ، ٤٩ : ٣ ، ٥٥ : ٣ ـ ٥) «قال لى أنت عبدى إسرائيل الذى به أتمجد» (اش ٤٩ : ٣) •

على أن كثيرين من المفسرين ينسبون نص إشعياء (٤٢: ١ ـ٤ ، ٥٣ : ١ـ٢ ، ٦١ : ١ ـ ٦) إلى المسيح • ولقد سبق القول بأن عددا لا بأس به من المفسرين يتردد كثيرا فى نسب هذه النصوص إلى المسيح ظنا منهم بأن النبى يتكلم عن إسرائيل كله كشخص محتقر مخذول ومطرود الخ •••••

ولكننا نعتقد أن الصورة التى يقدمها إشعياء هنا سواء فى أصحاح ٥٣ : ١ ـ ١٢ أو فى الأصحاح ٦١ : ١ ـ ٦ ، لا تنطبق على اسرائيل كشعب إلا بطريقة جزئية ولكنها تنطبق على المسيح بطريقة كلية • فعندما نقرأ أصحاح ٥٣ لا يمكننا بسهولة أن ننسبه إلى أمة اسرائيل وخاصة النبوات التى تشير بطريقة مباشرة إلى المسيح وهو نفسه ما ينطبق على أصحاح ٦١ وخصوصا أن السيد الرب نفسه قال عن هذا

الأصحاح فى أول عظة له فى مجمع الناصرة ، إنه اليوم قد تم هذا المكتوب فى مسامعكم » (لو ٤ : ٢١)٠

وهناك فصول أخرى كثيرةفى العهد القديم تشير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى المسيا (مثل ارميا ٢٣ : ٥ ، ٣٠ : ٩ ، ٣٣ : ١٤ ــ ١٦ ، حز ٢٦:١ ، دانيال ٣ : ٢٥ ، ٧ : ١٣ ــ ١٤ ، مى ٢:٥ ، حجى ٢ : ٢٣ ، زك ٣ : ٨ ، ٩ : ٩) ٠

لقد نطق بهذه الأقوال رجال الله الأتقياء مسوقين من روحه القدوس فى كل عصر من العصور ، فكانت كلماتهم هذه عن المسيح عبارة عن مصابيح تتلألأ فى جو مظلم مخيف ، فأنارت الطريق وفتحت باب الرجاء والأمل ٠ فإن عيون شعب الله ، وخاصة الذين كانوا ينتظرونه بالحق والاستقامة ، كانت مثبتة على هذه الوعود المختصة بمجىء المسيا المخلص ٠ والذين نطقوا بهذه الوعود وكثيرون من الذين سمعوها كانوا ينتظرون تحقيقها بفارغ الصبر ٠ ففى كل عصر من العصور كان شعب الله يترقب منتظرا أن تتحقق هذه الوعود فى عصره : « فى الايمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) « ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من إمرأة مولودا تحت الناموس ٠٠٠» (غلا ٤ : ٤) ، وهنا فقط أصبح الحلم الذى راود خيال المنتظرين مدة طويلة ، حقيقة ملموسة لا شك فيها ٠ ولقد كانت فرحة ذلك الرجل العجوز سمعان عظيمة لا يدانيها فرح ، عندما أدرك أن الوعود التى انتظرها الآباء وصدقوها وحيوها من بعيد تحققت وها هى الآن بين يديه ٠ إذ « أن أنبياء وأبرارا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ٠ وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا » (متى ١٣ : ١٦ ــ ١٧) فيهتف سمعان فرحا

بعد أن أخذ بين ذراعيه الطفل يسوع ويقـول : « الآن تطلق عبـدك ياسيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك ، الذى أعددته قدام جميع الشعوب ...» (لو ٢ : ٢٦ ـ ٣٥) . نعم لقـــد تحقق الأمل ، وأصبحت حقيقة واقعة نبوة موسى القائلـة : « يقيـم لـك الرب إلهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى . له تسمعون » .

لقد كان موسى رمزا للمسيح فى أشياء كثيرة : فقد أنقذا كلاهما من الموت فى سن الطفولة ، وترك كلاهما المجد لكى يشاركا اخوتهمـا فى المشقة والآلام (عب ٣ : ٢ ـ ٤) وكانا متواضعين يفيضـان بالحب والحنان والحلم (عد ١٢ : ٣ ، ٢٧ : ١٧ ، متى ١١ : ٢٩ ، ٩ : ٣٦) وكانا شفيعين (تث ٩ : ١٨ ، عب ٧ : ٢٥) ، وكلاهمـا عرفـا مجـد الله وأعلناه (خر ٣٤ : ٢٩ ، ٣٥ و متى ١٧ : ١ ـ ٨ ولو ٢٤ : ١٩ ، يو ١٧ : ١ ـ ٥ و ٢ كو ٣ : ٧) كان كلاهمـا أيضا وسيطى عهـــد (تث ٢٩ : ١ ، عب ٨ : ٧٦) .

فعلى مر العصور كان شعب الله ينتظر المسيا المخلص الذى تكلم عنه موسى والأنبياء . فكيف إذن انتظر شعب الله المسيا ؟

ومن هو المسيا بحسب المفهوم اليهودى ؟ ومن أى شىء سيخلص شعبه ؟ هل هو مخلص بالمعنى الدينى أو السياسى ؟؟؟ وسنحاول بنعمـة الله أن نعالج هذه الأسئلة وأسئلة أخرى فى الفصل التالى :

الفصل الثاني

تطور فكرة المسيا عند اليهود

كان الغرض من الفصل السابق هو أن نورد بعض الفصول الكتابية التي تشير إلى المسيا ، وما هو العمل الذي سيقوم به عندما يأتي الى العالم • ولقد رأينا أن معظم النبوات والأنبياء يقدمون لنا مسيا سيخلص شعبه من خطاياهم وسيحررهم من العبودية • ومما لا شك فيه أن الظروف التي اجتاز فيها الشعب قديما منذ دعوة الله لابراهيم إلى ما بعد خراب أورشليم ، شجعت كثيرا على تأويل وتحريف هذه النبوات في الأوساط اليهودية وإلباسها ثوبا سياسيا وطنيا • ومما لا شك فيه أيضا ، أن الذين تنبأوا بمجيء المخلص قد تنبأوا مسوقين من روح الله القدوس (٢ تى ٣ : ١٤ ــ ١٧ ، ٢ بط ١ : ١٩ ــ ٢١) إلا أنهم اقتبسوا أمثالهم وأقوالهم من البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، فقد كان شعب الله يعيش في وسط معاد له • وكم من المرات تعرض هذا الشعب لهجمات عنيفة وحروب شعواء ومؤامرات سوداء • في هذه الظروف العصيبة المؤلمة ، لم يترك الرب شعبه ليد الأعداء بل كان يرسل لهم مرسلا أو قائدا لكي يذكرهم أولا وقبل كل شيء بالعهد الذي قطعه معهم يهوه (تث ١٢ : ٣٠ ، ١٥ : ٤ ــ

٥ ، ١٧ : ٩ ـــ ١٠ ، ١٨ ـــ ١٩ ، ١٨ : ١٨ ، ٢٢ : ١٥ ـــ ١٧) لكى يكونوا له شعبا . والعمل الثانى الذى يقوم به المرسل أو القائد هو أن يكون أداة فى يد الله لخلاص شعبه من أعدائهم ، وهنا نرى الجو الذى ولد فيه الاصطلاح مخلص ، أو مسيح .

وقبل أن ندخل فى التفصيلات التاريخية السياسية : ومتى وكيف انتشر المفهوم الخاص بالمسيا عند اليهود ، يحسن بنا أن نعرف ما معنى «مسيا» من الناحية اللغوية . إن كلمة «مسيا» أو مشيحه (MASHIAH) عبرية الأصل ولقد ترجمت إلى اليونانية « كريستوس (CHRISTOS) وتعنى الممسوح ، فكلمة مسيا تعنى ممسوح ، وكلمة المسيح تعنى الممسوح . ثم إن كلمة يسوع تعنى فى أصلها العبرى «الله يخلص» . ولقد أعطى هذا اللقب لملوك إسرائيل بعد مسحهم ملوكا وبذلك يصبح الملك « مسيح الرب » . فنرى صموئيل النبى يمسح شاول ملكا ، فهو مسيح الرب . (١ صم ٩ : ١٦ ، ١٠ : ١) وكذلك داود (١ صم ١٦ : ١٢) ، وسليمان (١ مل ١ : ٤٥) ، ويوآش (٢ مل ١١ : ١٢) . وكانت المسحة ضرورية أيضا بالنسبة للكهنة (خر ٢٨ : ٤١ ، ٢٩ : ٧) كذلك أيضا بالنسبة للأنبياء (١ مل ١٩ : ١٦ ، اش ٦١ : ١) .

كانت المسحة لازمة وضرورية للملك ، فعن طريقها يمكن للملك أن يقوم بممارسة بعض الخدمات الدينية (٢ صم ٦ : ١٢ ـــ ١٨ ، ٢ مل ١٦ : ١٢ ـــ ١٥ ، ١ مل ٨ : ١٤) . والذى يهمنا فى هذا الأمر هو ما كان ينتظره اليهود من ممسوح الرب أو مسيح الرب . وما كان ينتظره اليهود من ملكهم واضح وصريح فى أول مظاهرة لهم فى التاريخ للمطالبة بملك عندما جاءوا إلى صموئيل النبى قائلين له : « فالآن إجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب » (١ صم ٨ : ٥) . لقد كانت رغبة قلب هذا الشعب أن يصير كباقى الشعوب ، له ملكه

فأعطى لهم الرب ملكا حسب رغبة قلوبهم ، وهو شاول الذى مسحه صموئيل النبى ملكا (١ صم ٩ : ١٥ — ١٦ ، ١٠ : ١) ٠ وصار شاول ملكا على إسرائيل من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠١٥ تقريبا٠ ووظيفة الملك واضحة كما حددها هذا الشعب بالقول : « فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا» (١ صم ٨ : ٢٠) ٠

على أن شاول لم يفلح فى ملكه بل سلك حسب هوى قلبه ، ورغبة نفسه ، ولم يعر كلام الرب أذنا صاغية ، ولذلك رفضه الرب وأقام مكانه داود : « فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته على أن يملك على إسرائيل ٠ إملأ قرنك دهنا وتعال أرسلك إلى يسى البيتلحمى لأنى قد رأيت لى فى بنيه ملكا » (١ صم ١٦ : ١ — ١٣ ، مز ٧٨ : ٧٠ ، ٨٩ : ١٩ ، ٢٠) ٠

ولقد نصب داود ملكا رسميا فى سنة ١٠١٥ ق٠م٠ وملك إلى سنة ٩٧٥ ق٠م تقريبا ، وبملك داود على إسرائيل بدأت صفحة جديدة فى تاريخ هذا الشعب ٠ فإن الوعود التى سبق الاشارة إليها من الناحية الأرضية (تك ١٢ : ٣ ، ٤ — ٥ ، ١٧ : ٩ — ١٠ ، ١٨—١٩ ، ١٨:١٨ ، ٢٢ : ١٥ — ١٧) بدأت الآن تتحقق بطريقة عملية فى ملك داود (١ مل ٨ : ٢٠ ، مز ٧٨ : ٨٠ ، مز ٨٩ : ٣ ، ٤ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧)٠

ثم جاء ابنه سليمان وملك من سنة ٩٧٥ ق٠م تقريبا ٠ بعد أن مسحه صادوق الكاهن بأمر الملك داود نفسه (١ مل ١ : ١ — ٥٣) وهو الذى قام ببناء هيكل الرب الذى أراد داود أبوه أن يبنيه ولكن الرب منعه عن ذلك (٢ صم ٧ : ١٣) ولقد تم بناء هذا الهيكل حوالى سنة ٩٦٤ ق٠م (١ مل ٦ : ٣٧ — ٣٨) ٠

بعد أن مات سليمان وانضم إلى أبائه فى سنة ٩٣٥ ق٠م انقسمت المملكة إلى قسمين مملكة الجنوب وتدعى يهوذا وعاصمتها أورشليم ولقد ملك عليها من سنة ٩٣٥ ــ ٥٨٦ عشرون ملكا وكلهم من عشيرة داود ، إذ استثنينا الملك أخزيا بن يهورام إذ أن أمه عثليا كانت بنت عمرى ملك اسرائيل (١ مل ١٨:٨ ، ٢٦) ، ولقد شمل هذا القسم كل بيت يهوذا وسبط بنيامين ٠

والقسم الثانى هو مملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها السامرة، وكان هذا القسم يشمل عشرة أسباط ٠ وأول ملك على إسرائيل بعد الانقسام فى مملكة الشمال هو يربعام الذى عمل عجلى ذهب وقال لاسرائيل : « هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ، ووضع واحدا فى بيت . إيل وجعل الآخر فى دان » (١مل ٢٨:١٢ ــ٢٩) وبذلك أراد يربعام أن يمنع شعب إسرائيل من الذهاب إلى أورشليم وتقديم الذبائح هناك حتى لايرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام ، وأن يقطع كل صلة يمكنها أن تربط شعب الجنوب (يهوذا) بشعب الشمال (اسرائيل) ، وبهذا ازدادت شقة الخلاف واتسعت الفجوة بين الشعبين الشقيقين وأصبحا كفريستين بين مخالب الأمم التى تحيط بهما ، ولقد كانت هذه الحقيقة كافية لتقوية روابط المحبة ، ودفعهما إلى الاتحاد الحقيقى ، ولكن حدث العكس ، فقد شن كل منهما حربا شعواء على أخيه ، بل حدث فى أحيان كثيرة أن انضم كل منهما إلى صف عدو كان فى الماضى عدوا مشتركا لهما ٠

وهنا تبدأ المأساة المحزنة المؤلمة والتى ستستمر حقبة طويلة من الزمن يقوم خلالها إسرائيل بحرب ضد يهوذا ويهوذا بحرب ضد إسرائيل ، ويريد كل منهما أن يفنى ويلاشى الآخر ٠

لقد كان الصراع بين هـذين الشعبين الشقيقين فى أحيان كثـيرة عنيفا حتى أنه تطور إلى حروب وقتال وتدمير وتشريد . وهـكذا نرى أن اسرائيل ويهوذا ، المملكة المنقسمة ، عاشت فى صراع وحرب وقتـال ولم تعرفا السلام إلا فى فترات قصيرة وعابرة . « وكانت حـرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام» (١ مل ١٤ : ٣٠ ، ١٥ : ٦ ، ٢ أخ ١٢ :١٥) ولقد استمرت هذه الحالة وسيطرت على المملكة المنقسمـة من سنـة ٩٣٥ إلى سنة ٧٢١ ق.م أى سنة السبى الأول لاسرائيل . وفى هـذه الفترة كان يحكم على إسرائيل ملوك وعلى يهوذا ملوك آخرون. تارة يقتربون من السيد متذكرين عهوده ووصاياه ، وتارة يبتعدون ، ولذلك أسلمهم الرب إلى أيدى أعدائهم مرات كثيرة عندما كانوا يبتعدون عنه ويفعلون الشر أمام عينيه . كما أنه أيضـا أسلم أعداءهـم لأيديهـم عندما رجعوا إليه بقلوبهم وتابوا عن خطاياهم واعترفـوا بسيادتـه المطلقة عليهم (١ مل ١٤ . ٧ — ١١،١٦ : ٣١—٣٩و٢ مل ١٧ : ٦،٢ أخ ١٢ : ١ — ٢ و ١مل ١٦ : ٢٥ و ٢ أخ ١٥ : ٢و ١مل ٢٠ : ١ — ٣٤ و٢ مل ٦ : ١ — ٣٣ ، ٧ : ١ — ٢٠ و ٢ مل ١٧ : ٧ — ٤٠ ، ١٨ : ١ — ٣٧) .

هكذا عاش هذا الشعب المتمرد فى المملكتين الجنوبيـة (يهـوذا) والشمالية (إسرائيل) يعرج بين الفرقتين (١ مل ١٨ :٢١) ولم يسمع لقول الأنبياء ، الذين كانوا يعلنون محبة الله العظيمة له ، بل سد أذنيه وأغمض عينيه وأغلق قلبه ، ولأنه كان شعبا صلب الرقبة عنيدا وقاسى القلب ، أسلمه الله إلى أيدى أعدائه . فبعـد أن ذاق مرارة الانشقاق الذى دام أكثر من مائتى عام (٩٣٥ — ٧٢١ ق.م) نراه الآن يدخل فى محنة جديدة أو بالمعنى الأصح يزج به فى معصرة تعصر لحمه وعظمـه بلا شفقة ولا رحمة . ولقد بدأت هذه الكارثـة بشعب إسرائيل أولا عندما جاء تغلثفلاسر ملك أشور وهجم على إسرائيل « وأخذ عيـون

وآبل بيت معكه ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى أشور » (٢ مل ١٥ : ٢٩) • هذا هو السبى الأول الذى سبى فيه حوالى ٢٧٢٩٠ يهودى فيما بين سنتى ٧٣٤ — ٧٣٢ق•م ولم يكن هذا السبى ، إلا فاتحة لسلسلة طويلة من السباء فى المملكتين• ثم فى سنة ٧٢٤ جاءت الجيوش الأشورية وحاصرت مدينة السامرة التى بذلت كل ما فى وسعها للمقاومة والصمود ضد العدو • إلا أن الحصار استمر حوالى ثلاث سنوات ، فلم تستطع المدينة مقاومة الأعداء الذين كانوا يحاصرونها من الخارج ، وامداد السكان بالطعام والشراب من الداخل ، فأضطرت السامرة فى نهاية الأمر أن تسلم للعدو الأشورى• وهكذا سقطت السامرة فى يد سرجون (SARGON) فى سنة ٧٢١ق•م• بعد حصار طويل ومقاومة باسلة • ولم يكتف الأشوريون بدخول المدينة وتخريبها بل سبوا الاسرائيليين وأسكنوهم فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى ، ثم قاموا بحركة عكسية فأتوا بقوم من « بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنوهم فى مدن السامـرة عوضـا عن بنى اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا فى مدنها » (٢ مل ١٧ : ١ — ٢٤)•

ولقد استطاع الأشوريون باتباعهم هذه السياسة ، سياسية طرد المواطنين من أوطانهم ، كما فعلوا مع الســامريين والبابليين أن يحكموا هذه الشعوب المختلفة المتنوعة بيد من حديد • فبعد حركة تفريغ الأرض من الاسرائيليين واسكانها بعدد كبير من الشعوب الأجنبية ، لم يتبق من هذا الشعب فى الأرض الاسرائيلية الا البعض من الفلاحين العجائز • ثم انتشرت الوثنية فى الأرض كلها ، الوثنية التى بدأ بها يربعام عندما صنع عجلى الذهب وقال : « هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحدا فى بيت إيل والآخر فى دان » (١ مل ١٢ : ٢٧ — ٢٩) • فإن هذه البذرة الصغيرة التى زرعها يربعام أصبحت بعد سقوط السامرة شجرة كبيرة ضخمة تأوى الطيور اليها وتبنى فيها أعشاشها : « فكانت كل

أمة تعمل آلهتها ، ووضعوها فى بيوت المرتفعات التى عملها السامريون • كل أمة فى مدنها التى سكنت فيها » •• (٢ مل ١٧ : ٢٩ ـ ٤٠) وهكذا سقطت السامرة ساجدة روحيا وعسكريا تحت أقـدام الأشـوريين وآلهتهم !!! فهل استطاعت مملكة الجنوب (يهوذا) أن تتخذ لنفسها عظة وعبرة من هذا السقوط المريع الذى سقطت فيه أختهـا مملكة الشمـال (إسرائيل) ؟ هل استطاعت أن تفتح عينيها وتميز صـوت الرب الذى يكلمها فى هذه الكوارث التى لحقت بأختها ؟ للأسف الشديد لقد سدت أذنيها وأغلقت قلبها وصلبت رقبتهـا ولم تسمع لصـوت ذاك الذى كان يناديها بالقول : « افتحى لى يا أختى ياحبيبتى يا حمامتى ياكاملتى لأن رأسى امتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل » •• ولكن كان جوابها : « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه • قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ••• فتحت لحبيبى لكن حبيبى تحول وعبر » (نش ٥ : ١ ـ ٨) نعم لقد تحول وعبر عن مملكة اسرائيل مسلما إياها لملك أشور الذى سباها الى أراض بعيدة ومتفرقة وها الآن يأتى دور أورشليم ، دور يهوذا (مملكة الجنوب) ، ولكن الهجوم لا يأتى هذه المرة من أشور بل من بابل التى استطاعت أن تكسر شوكة أشور وامبراطوريتها وتحل محلها ، وان كانت سياستها لا تختلف كثيرا عن سياسة أشور • ولقد انهالت عدة كوارث كانهيال المطر على يهوذا عندما ظهر فى التاريخ القـائد المحـارب المحتل نبوخذ راصر الذى غزا بلاد الأراراط

(DICITONNAIRE. BIBLIQUE J. DHEILLY. p. 796 - 797)

فى سنة ٦٠٦ ق•م (إر ٤٦ : ٢) ثم استطاع أن يهزم فرعـون نخو ملك مصر عند نهر الفرات فى سنة ٦٠٥ (إر ٤٦ : ٢) ثم قام باحتلال سوريا حتى وصل الى حدود مصرولكنه فى سنة ٦٠٤ اضطر للرجوع إلى بابل لسببـوفاة أبيه نابوبولاسار (NABOPOLASSAR) ولقـد تولى نبوخذراصر الحكم وادارة البلاد الواسعة المترامية الأطراف بيـد قوية وارادة صلبة •

ولذلك فعندما تمرد الملك يهوياقيم ملك يهوذا على بابل أرسل نبوخذ راصر بعضا من قواته العسكرية المرابطة فى المنطقة، من الكلدانيين والأراميين والموآبيين والعمونيين (٢ مل ٢٤ : ٢) فأخمدوا الثورة فى أورشليم ، على أن هذه الثورة تمخضت فولدت ثورة أخرى أعنف وأقسى فلقد حاول الحزب المؤيد لمصر فى أورشليم إثارة الشعب ضد سياسة بابل وتدخلها بطريقة مباشرة فى شئون اليهودية ، وعندئذ ثار نبوخذ راصر ثورة عارمة ، فجاء بجيوشه وقواته العسكرية وأحاط بأورشليم ولم تستطع هذه المدينة الصمود أمام قوات بابل المدربة ، أكثر من ثلاثة شهور • ففى ١٦ مارس ٥٩٧ ق • م • سقطت أورشليم تماما فى يد نبوخذ راصر • وهنا نرى القافلة الأولى من المسبيين وعلى رأسهم الملك يهوياكين وأمه وعبيده فى طريقهم الى بابل ، إلى أرض السبى (٢ مل ٢٤ : ٨ — ١٧ ؛ ٢ أخ ٣٦ : ٩ — ١٠ وإر ٢٢ : ١٨ — ١٩ ، ٢٤ : ١ ، ٢٩ : ٢ و دا ١ : ١ — ٢ ، ٥ : ١ — ٢ ، حب ١ : ٦)وعدد الذين أخذوا فى هذا السبى الأول ليهوذا حوالى عشرة آلاف شخص من أغنياء البلاد ومن ذوى البأس والصناع والعمال (٢ مل ٢٤ : ١٤ — ١٧) هذا هو السبى الأول الذى كان كضربة قاسية وقاضية على يهوذا مملكة الجنوب •

السبى الثانى :بالرغم من الخراب والتدمير والقتل والسبى الذى قاسته أورشليم وسكانها فى ٥٩٧ ق • م ، فان هذه المدينة هبت ثانية ثائرة ضد بابل ، وعندئذ جاءت القوات العسكرية البابلية وعلى رأسها نبوخذ راصر نفسه ، وحاصر المدينة وبنى حولها أبراجا • وظلت المدينة تحت هذا الحصار القاسى القاتل ثمانية عشر شهرا (من يوليو ٥٨٨ الى يناير ٥٨٦) • فاشتد الجوع وانتشر الوباء بين الشعب ، وتذمر القادة فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا• فتبعتهم جيوش الكلدانيين وأدركوا الملك صدقيا والهاربين معه• وأخذوا الملك وأصعدوه الى ملك

بابل إلى ربله وكلموه بالقضاء عليه، وقتلوا بني صدقيا أمام عينه وقلعوا عيني صدقيا، وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به الى بابل (٢مل٢٥: ١-٧ و ٢ أخ ١٣:٣٦ و إر ٢١ : ١-٩ ، ٣٢ : ١-٥ ، ٣٤ : ١-٤ ، ٢١ ، ٥٢ : ١ - ٣٤ و حز ١٢ : ١٢ - ١٤ ، ١٧ : ١١ - ٢١، ٢٣: ٢٨ - ٣٥) .

السبي البابلي الثالث :

أما السبي الثالث فقد تم على يد « نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل الذي جاء إلى أورشليم في سنة ٥٨١ ق . م . وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم ، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون .. سباهم نبوزرادان رئيس الشرط .. وأعمدة النحاس التي في بيت الرب والقواعد وبحر النحاس الذي في بيت الرب كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها الى بابل . والقدور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التي كانوا يخدمون بها أخذوها ، والمجامر والمناضح . ما كان من ذهب فالذهب وما كان من فضة فالفضة أخذها رئيس الشرطة .. (٢ مل ٢٥ : ٨ - ٣٠) .

وبعد أن سلبوا المدينة وأهلها ، وأشعلوا النيران في الهيكل وأخذوا من سبوهم وغنائمهم ، ورجعوا الى بابل لم يتركوا في أورشليم إلا الفقراء والعاجزين عن العمل والانتاج ، والفلاحين والكرامين . وحتى البقية القليلة التي بقيت بعد هذا السبي الثالث هرب معظمها الى مصر بعد حادثة اغتيال جدليا (إر ٤٣ : ٢ ، ٣ ، ٧ ، ٢ مل ٢٥ : ٨ - ٣٠ ، ٢ أخ٣٦ : ١٧ - ٢١) .ولقد تضاربت الآراء بخصوص

عدد المسبيين فى الثلاث المراحل . على أن العدد الذى اتفقت عليه الأغلبية هو حوالى ٢٢٫٠٠٠ مسبى ، غير النساء والأولاد (١) .

وهنا تتم نبوات إرميا والأنبيـاء الآخرين الذين حاولوا جاهدين بالارشادات والاعلانات والصلوات ارجاع اسرائيل ويهوذا الى صوابهما . ان إرميا النبى الذى كان معاصرا لبعض الحوادث لم يستطع الصمت أمام الكوارث التى حلت بشعبه ، وقد وعظ وعلم وتنبأ بالرغم من السـجن والضرب وطرحه فى البئر ، ولكن للأسف الشديد فقد صلب الشعب رقبته وغلظ قلبه ولم يسمع لصوت المحبة الذى كان يدعوه ، ولذلك حلت بهم هذه الكوارث وفى نهاية الأمر ترك لهم بيتهم خرابا (إر ١ : ١٥ ، ١٧ ، ٣٢ : ٢٦ — ٣٥ ، ٣٩ : ٣ ، ١٠ : ٢٢ وحز ١٢ : ٨ — ١٦ ، ١٧ : ١١ — ٢١) .

وكيف لم يترك لهم بيتهم خرابا ونحن نرى بعـد السبى أن مدن اسرائيل وقد خربت وهجرت وأصبح ساكنوها أجانب ، وأقيمت المذابح والهياكل والمعابد الوثنيـة على اختلاف أشكالها وأنواعها فى طول بلاد اسرائيل وعرضها ، وفى مملكة يهوذا بعد أن رفضت أن تأخذ من سقوط أختها اسرائيل عظة ، ووصلت هى أيضا الى نفس المصـير ، فسقطت أورشليم ، ودمرت جدرانها وهدم هيكلها الذى بناه سليمان والذى كان فخرا لكل الأمة . (هيكل سليمان بنى حوالى سـنة ٩٦٤ ق . م) . (١ مل ٥ : ٧ — ٣٨) .

لقد سبى الشعب المختار الى بلاد بعيدة وكثيرة ، وهناك فى الغربة عندما جلس الاسرائيليون على ضـفاف أنهـار بابل يتذكرون بلادهم

(١) انظر القاموس الفرنساوى D. B. ص ٢٦٧

خصوصا عندما سألهم الذين سبوهم أن يرنموا لهم ترنيمة من ترنيمات أورشليم • فأجاب هؤلاء المسبيون والحزن يقطـع أنيـاط قلوبهم : « كيف ترنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ، ان نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى ، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧ : ١ — ٦) •

فى هذه الأرض الغريبة والبعيدة عن أورشليم وعن السـامرة ، اندمج الشعب المختار فى الشعوب الأخرى ، خصوصا مسبيو اسرائيل ، الذين اختلطوا بسرعة بالشعوب التى سبوا اليها ، فأصبح وطن السبى والغربة وطنهم ، لدرجة أن الكثيرين بل الأغلبية الساحقة من شـعب اسرائيل فضلت البقاء فى مدن الغربة على العودة الى بلاد اسرائيل • وأما مسبيو يهوذا فمع أن عددا لا بأس به منهم استطاع أن يتأقلم فى الاقليم الجديد وأن يتكيف فى المجتمع الغريب بدون أية صعوبة ، إلا أن عددا لا بأس به أيضا ظل متمسكا بالهه ، لا يفكر إلا فى العودة إلى أورشليم ، حيث يستطيع أن يرنم ترنيماته الحلوة بصوت مرتفـع وبحرية كاملة• فالعودة من السبى بالنسبة للأقلية القليلة المبعثرة والمسبية « فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى » (٢ مل ١٧ : ١ — ٢٤)• أى الذين سبوا من اسرائيل ، وبالنسبة للعدد الذى لابأس به فى بابل (أى الذين سبوا من يهوذا) ، أصبحت هذه العودة الحلم اللذيذ الذى يداعب خيال هؤلاء جميعا ، وقصة الرجاء الحلوة التى فيها يرى المسبيون قبسا من النور وبابا للأمل والرجاء •

ففى فترة السبى وبسببه أيضـا ، بدأ بعض الأنبياء بالتحدث من جديد عن المسـيا المخلص ، الذى يختلف عن كل المخلصـين والمحررين السابقين الذين عرفهم يهوذا واسرائيل • ولقد عرفت هذه الأمـة منذ ولادتها قادة ، وقضـاة ، ومخلصين ، وملوكا وممالك • أن موسى قد

(م ٤ — تاريخ الفكر المسيحى)

أخرجها من مصر ، ويشوع دخل بها إلى أرض الموعد ، وقضى لها القضاة دبورة وصموئيل وغيرهم ، ثم ملك عليها شاول فداود فسليمان وحوالى أربعين ملكا ملكوا فى المملكتين الجنوبية يهوذا ، والشمالية اسرائيل ، كل هؤلاء ظهروا فى وسط شعب الله ، وقادوه خلال هذه الحقبات التاريخية ولعبوا دورا فى حياته،البعض منهم بنى والبعض الآخر هدم،البعض حاول الجمع والآخر عمل على التفريق واثارة الحروب . وانتهى الأمر بهذه الأمة الى السبى ، وهناك فى السبى بدأ الشعب يحلم بمخلص وبملك يخلصهم من سبيهم ، ويحررهم من عبوديتهم ، ويخرجهم لا من مصر كما كان يحلم الشعب قديما ، بل من بابل والمدن الأخرى التى تشتتوا فيها ، فإرميا يقول : « ها أيام تأتي يقول الرب واقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجرى حقا وعدلا فى الأرض ، فى أيامه يخلص يهوذا ويسكن اسرائيل آمنا وهذا هو اسمه الذى يدعونه به الرب برنا ، لذلك ها أيام تأتى يقول الرب ولا يقولون بعد حى هو الرب الذى أصعد بنى اسرائيل من أرض مصر ، بل حى هو الرب الذى أصعد وأتى بنسل بيت اسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضى التى طردتهم اليها فيسكنون فى أرضهم » (إر ٢٣ : ١ ــ ٨) .

ولكن كيف يستطيع هذا الشعب المشتت فى مدن كثيرة مترامية الأطراف، الشعب المحطم المسحوق ، الذى لا قوة له ولا نظام فيه ، كيف يمكن لهذا الشعب المسبى والمشتت أن يرجع الى وطنه ؟ !! ويرسل الرب جوابا الى هذا الشعب الذى كان يعيش غريبا بعيدا عن وطنه ، حزينا ومحطما ، فى الرؤية التى أعلنها الى النبى حزقيال (٣٧ : ١ ــ ١٤) (رؤية النبى للعظام اليابسة) .. « ثم قال لى يا ابن آدم هذه العظام هى كل بيت اسرائيل ، ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا ، قد انقطعنا ، لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب : هانذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى وآتى بكم الى أرض اسرائيل»(حزقيال ٣٧ : ١١ ــ

١٤) • ثم قوله « وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضى وآتى بكم الى أرضكم •• وتسكنون الأرض التى أعطيت آباءكم إياها وتكونون لى شعبا وأنا أكون لكم إلها » • • (حز ٣٦ : ٢٤ — ٣٨) • «وأصيرهم أمة واحدة فى الأرض على جبال اسرائيل وملك واحد يكون ملكا عليهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد الى مملكتين •• وداود عبدى يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد •• ويسكنون فى الأرض التى أعطيت عبدى يعقوب اياها » •• (حز ٣٧ : ١٥ — ٢٨) •

وهنا نرجع إلى السؤال الذى طرحناه سابقا : كيف يمكن لهـــذا الشعب المسبى والمشتت والمحطم الرجوع إلى وطنه ؟ !! •

ومما لاشك فيه أن نبوات الأنبياء هنا تعنى رجوع الشعب المطرود والمسبى الى وطنه : الى الأراضى التى سبى منها • ولكن من الذى يقوم بعملية الارجاع هذه ؟ أو من هو الذى يستطيع أن يخلصهم من براثن الأسد القوى الذى يقبض عليهم بمخالبه ؟ على أننا نود أن نفهم الجملة السابقة فهما جيدا ، وهى (مما لاشك فيه أن نبوات الأنبياء هنا تعنى رجوع هذا الشعب المطرود والمسبى إلى الأراضى التى سبى منها) •

ونحن لا نقصد هنا بهذا القول رجوع أمة صهيونية إلى فلسطين ، بل ما نريد أن نوضحه هو أن نبوات الأنبياء كانت موجهة إلى شعب مسبى فى بلاد بعيدة ، وفى أزمنة بعيدة أيضا عن الزمن الذى نعيش فيه حاليا • ولقد تم فعلا كثير من هذه النبوات برجـــوع الكثيرين من المسبيين إلى أرضهم قبل الميلاد •

وأما الرجوع الذى يتكلم عنه الرسول بولس أو خلاص اسرائيل (رومية ٩ — ١١) «وهكذا سيخلص جميع اسرائيل ••» (رومية ١١ :

٦) فانما يقصد به الخلاص الروحى وليس تكوين مملكة أو أمة ؛ فإن باب الخلاص أى قبول الرب يسوع المسيح كمخلص وفاد ، مفتوح ليس فقط لليهود بل للأمم أيضا : للأسود وللأصفر وللابيض وللغنى وللفقير . فالرجوع لايقصد به إذن رجوعا إلى أمة معينة أو الى أرض معينة ؛ بل الى الرب يسوع . فعندما يرجع اليهود إلى المسيح ويقبلونه كمخلص يسر بهم قلب الآب وتفرح بهم السماء . وما نريد أن نلفت نظر القارىء اليه هو أننا لانريد بهذه الكلمات القصيرة أن نتملق (نمسح جوخ) لأى دولة أو هيئة حاكمة ، بل اننا نحاول بروح الصلاة أن نشرح كلمة الرب معطين لها الأولوية ، لأنــه « ينبغى أن يطاع الله أكثر من النــاس » (أعمال ٥ : ٢٩) .

على أية حال ليس هذا موضوع بحثنا ، فلنرجع إذن إلى السؤال الذى طرحناه سابقا ، وهو من الذى سيقوم بعملية ارجاع اسرائيل الذى كان مشتتا فى أشور وبابل وفى مدن كثيرة وبعيدة ؟ .

مما لاشك فيه أن مسبى اسرائيل ويهوذا (٧٢١ ، ٥٩٧ — ٥٨٢) كانوا لايعرفون كل النبوات المختصة بالرجوع الى بلادهم ، إذ أن هذه النبوات كثيرة وعديدة جدا ، ولم نذكر منها هنا إلا البعض القليل . على أن البعض من هذه النبوات كان معروفا ولو بطريقة جزئية وغير كاملة ، خاصة النبوات التى كان ينطق بها الأنبياء شفويا ، أو بطريقــة مباشرة كعظات مثل عاموس ، هوشع ، إشعياء ، ميخا ، إرميا .. فمن هذه النبوات اكتشف المسبيون أن الله سيفتقد شعبه بارساله مخلصا لهم . وكما سبق القول فإن الأنبياء الذين تكلموا عن هذا المخلص وصــفوه بأنه سيكون رئيسا يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن كل الرؤساء والملوك الذين سبقوه فى اسرائيل ويهــوذا . (إشعياء ٩ : ٦ ، ٧ ، ١١ : ١ — ١٠) فعهــد هذا الرئيس أو الملك سيكون السلام سائدا بطريقة لم يسبق لها نظير .

على هذه النبوات ثبت البعض من المسبيين أنظارهم وكأنها شعاع نور فى ليلة مظلمة ، غير أن البعض الآخر من هؤلاء المسبيين شطوا بعيدا عن روح النبوات المقدسة ، فقد انتظروا مخلصا ومسيا سياسيا لكى يخلصهم من السبى ومن الاستعباد .

وهناك فى السبى تتبلور وتكبر فكرة المسيا عند اليهود ، فان فكرة مسيا الرب أو مسيح الرب كانت موجودة ، ولكنها بدأت تأخذ شكلا أكبر فى السبى ، ويمكن أن نقول بأن هـذا الانتظار انتظـار مخلص يخلص شعبه: هونفس الانتظار الذى كان يحلم به اسرائيل فى فترة حكم القضاة. فالشعب الذى كان يعيش مهددا من الشعوب التى كانت تحيط به ، كان ينتظر الخلاص من يهوه . وهنا فى السبى ، خصوصا عند المسبيين من مملكة الجنوب (يهوذا) بدأت فكرة المخلص أو المسيا الذى من أصـل داود ، تختمر فى أذهان المسـبيين : « ويخرج قضيب من جـزع يسى وينبت غصن من أصوله .. » (إشعياء ١١ : ١ ـــ ١٠) . هذه الفكرةـ فكرة المسيا أو مسيح الرب ـــ التى كانت موجودة عند اليهود قبل السبى كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ولحت من جديد فى الوسط اليهودى فى فترة السبى ، وستظل هذه الفكرة مسيطرة على عقول وقلوب اليهــــود عبر التاريخ . وسنرى فى المستقبل أن فكرة المسيا لعبت دورا كبيرا وهاما فى حياة الأمة اليهودية من الناحية السياسية والاجتماعية .

إن الشعب المسبى (خصوصا مسبيى يهوذا) بدأ يفـكر بطريقة جدية فى تدخل الرب فى كل ما حدث له.فقبل السبى رفض هذا الشعب أن يستمع لانذارات الأنبياء ، وضرب بها عرض الحائط ، أما الآن بعد أن تحققت كل النبوات التى تنبأ بهـا الأنبياء فقد عرف الشعب أن مصدر هذه النبوات هو الله وأنه يريد رجوعه وتوبته ، وفعـلا سمع البعض صوت الله الذى كان يكلمهم فى الغربة بطرق متعددة ، فرجع هو أيضا إليهم واستجاب لصلاتهـم .

ففى سنة ٥٥٠ ق.م. صار كورش ملكا لفارس ومادى ، وقام بالهجوم على بابل فى سنة ٥٤٠ ، وهذه المدينـة القويـة الحصون لم تستطع الثبات أمام قوات جيوش كورش أكثر من خمسة عشر يومـا فسقطت بابل فى يد ملك فارس ، فى الوقت الذى كانت الآمال والأحلام بالرجوع إلى يهوذا تملأ أذهان وقلوب اليهـود فى السبى . ولقـد كانت سياسة كورش من الناحية الدينية تختلف اختلافا كليـا وجزئيـا عن سياسة بابل ، فعندما أصبحت بابل تابعة له أصـدر منشوره الشهير فى سنة ٥٣٨ ق.م. (انظـر القامـوس الفرنسى D. B ص ٢٤٧) والذى يتضمن هذا القول : « هكذا قال كورش ملك فارس ، جميع ممالك الأرض دفعهـا لى الرب إله السماء وهـو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا . من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد الى أورشليم التى فى يهوذا ويبنى بيت الرب إله إسرائيل . هـو الاله الذى فى أورشليم » (عزرا ١ : ٢-٤) .

إن كورش كان ملكا متسامحا من الناحية الدينية مع كل الشعوب والأمـم التى كان يحكمها ، وكان لايعتبر نفسه الغازى المنتصـر على الشعوب التى دخلت تحت سلطانه ، بل كان يعتبر نفسه المحرر لهذه الشعوب . ولذلك فقد ترك للكثير من هذه الشعوب حريـة تقريـر المصـير . ولقد ظهر كورش على المسرح السياسى فى الوقت الذى كان فيه يتحرق البعض من اليهود شوقا للعودة إلى بلاد يهوذا . ولذلـك فقبل أن يصل إلى بابل ويستولى عليها يكتب عنه إشعياء هذه الكلمات: «هكذا يقول الرب«لمسيحه»لكورش الذى أمسكتبيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلـق .. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف أنى أنا الرب الـذى يدعوك باسمك إله إسرائيل . لأجل عبدى يعقوب وإسرائيل مختـارى دعوتك باسمـك ، لقبتك وأنت لست تعرفنى » (اش ٤٥ : ١ ـ ٤ ،

٤١ : ٢ – ٤ ، ٢٥) • ثم يقول أيضا : « القائل عن كورش راعى فكل مسرتي يتمم ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس» (إش ٤٤ : ٢٨ و ٢ أخ ٣٦ : ٢٢ ، ٢٣) •

وهنا يدرك إسرائيل في غربته أن كل ما حدث لهم قبل السبى وفى أثنائه ، لم يحدث لهم عفوا أو عن طريق الصدفة ، بل إن يد الله القدير كانت وراء هذه الحوادث ، فهو الذى أرسل الأشوريين بجيوشهم على السامرة فخربوها ، وهو أيضا الذى أرسل نبوخذ راصر على أورشليم فقلبها رأسا على عقب لأنهم تركوا السيد وحفروا لأنفسهم آبارا كثيرة لا تضبط ماء كما يقول النبى المعاصر لسبى يهوذا : « لأن شعبى عمل شرين ، تركونى أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارا آبارا مشققة لا تضبط ماء » (ار ٢ : ١٣) • وهو أيضا نفسه الذى يسخر كورش ملك فارس لكى يصدر هذا القرار الشهير المختص بعودة الذين يريدون العودة إلى أورشليم لأن « قلب الملك فى يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله » (أم ٢١:١)• ولم يدرك هذا الأمر إلا عدد قليل جدا من الشعب المسبى ، أولئك الذين كانت لهم العيون المفتوحة فاستطاعوا أن يروا يد الله خلف كل هذه الأحداث : « خراب السامرة وأورشليم ثم ظهور كورش على المسرح السياسى العالمى ، وقراره بعودة اليهود إلى بلادهم • لقد استطاعوا أن يفهموا ولو جزئيا بأن الله كان يكلمهم بطرق كثيرة » (عب ١ : ١)•

ومن هؤلاء الذين كانت لهم العيون المفتوحة والأذان الصاغية لصوت الله : زربابل من شالتئيل وهو من نسل يهوياكين الملك (أى ٣ : ١٦ – ٢٠ وعزرا ٣ : ٢ و حجى ١: ١ ومتى ١ : ١٢) •

فإن كان الله يسخر الملوك لكى يصدروا قراراتهم لتنفيذ ارادته فهو يستخدم أيضا عبيده لقيادة هذا الشعب روحيا وسياسيا • إن

الذى يقود هذا الشعب ليرجع به إلى أرض الموعد يجب أن يكون من هذا الشعب . فقد كان موسى الذى أخرج شعبه من مصر من هـذه الأمة ، وهو أيضا الذى تنبأ فقال : « يقيم لك الرب إلهك نبيـا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون» (تث ١٨ : ١٥) ، فمع أن هـذه النبوة تشير إلى النبى الأعظم ، المسيح ، إلا أن الكثيرين رأوا فيهـا إشارة إلى زربابل ، خصوصا أن زربابل الذى كان ينتظر بدون شـك بفارغ الصبر ، فرصة الرجـوع إلى أرض يهوذا ، انتهز فرصة هـذا القرار الصادر من الملك كورش وقام فوراً بتنظيم قافلتين للراغبـين فى الرجوع . والقافلة الأولى غادرت بابل فى سنة ٥٣١ ق.م ، والقافلة الثانية غادرت بابل أيضا فى سنة ٥٢٢ ق.م . وعندما وصل هؤلاء المسبيـون وعلى رأسهم زربابل الى أورشليم ، بدأوا حالا فى إقامـة مذبح الرب واصلاح الهيكل الذى دشن فى سنة ٥١٥ ق.م . (انظر القاموس الفرنسى ص ٥٤٣) . ولأجل هذا فقد رأى فيـه بعض العائـدين من السبى (نوعا من المسيا) . أما الأنبياء فقد شجعوه وأيدوه بقوة وحماسـة، فزكريا يقول : «من أنت أيها الجبل العظيم أمام زربابل تصير سهلا... إن يدى زربابل قد أسستا هذا البيت فيداه تتممانـه فتعلـم أن رب الجنود أرسلنى إليكم » (زكريا ٤ : ٥ ــ ١١) . ثم يقـول حجى : « فالآن تشـدد يازربابل يقول الرب وتشدد يايهوشع بن يهوصـادق الكاهن العظيم وتشددوا يا جميع شعب الأرض يقول الرب واعملـوا فإنى معكم يقول رب الجنود » (حجى ١:٢ ــ ٦ ، ١:١ ، ٢١:٢) .

فـزربابل يحقـق تبوات الأنبيـاء وآمـال الشعب الذى كـان ينتظر من مدة طويلة مخلصـا يخلصه ويخرجه من أرض السبى «لأنه هكذا قال الرب إنى عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لـكم كلامى الصالح بردكم إلى هذا الموضـع » (ار ٢٩ : ١٠).«وأجلب على تلك الأرض كل كلامى الذى تكلمت به عليها كل ما كتب فى هـذا

السفر الذى تنبأ به إرميا على كل الشعوب (ار ٢٥ : ١٢ ــ ١٤ ، ٣٣ : ١٠ ــ ١٨ ، ٢٨ : ٥ ــ ٦) ، قارن هذا مع (عزرا ٥ : ١٢ ــ ١٧ ، أر ٣٠ : ١٠ ــ ١٢ ، ٣٢ : ٣٧ ــ ٤١، ٢٣:٥ ــ ٨).

وهنا نرى زربابل كما لو كان بذرة زيتون صغيرة تنبت وتكبر وتصبح شجرة كبيرة ، تحمل بين أغصانها سلاما واستقرارا لهذه الأمة الباقية الحزينة المشتتة . ولقد بدأت أحلام المسبيين الراجعين إلى يهوذا ، بشأن مخلص أو مسيا تتبلور وتكاد أن تصبح حقيقة واقعة، عندما ينصب زربابل حاكما على يهوذا : « كلم زربابل والى يهوذا ..» (حجى ٢ : ٢٠ ــ ٢٣) . وهكذا أصبح ليهوذا وال وحاكم يهودى ، بعد ما ظلت ما يقرب من سبعين سنة (٥٩٧ ــ ٥٣٧) تغوص فى بحر من الأمم يحيط بها وتندمج فيه ويسيطر عليها . وأما الآن فقد تغيرت الأوضاع فمع أن زربابل كان خاضعا للملك كورش فإن هذا الأخير قد أقامه كحاكم مفوض على يهوذا من قبل ملك الفرس .

هذه هى نتيجة القافلتين الأولى والثانية (سنة ٥٣٧ ، ٥٢٢) اللتين قادهما زربابل إلى يهوذا للعودة من السبى. على أننا نلاحظ أنه بالرغم من المجهود الضخم الذى بذله زربابل ورفقاؤه فى اصلاح ما يمكن اصلاحه فى المدينة والهيكل ، فقد ظلت أجزاء كثيرة وعديدة فى المدينة وأسوارها والهيكل فى حالة يرثى لها . فبعد ٩٢ عاما من وصول القافلة الأولى للمسبيين من بابل إلى أورشليم ، وبالتحديد فى سنة ٤٤٥ ق.م. جاء إلى شوشن القصر بعض من رجال يهوذا على رأسهم أخو نحميا ، وهذا الأخير سأل عن اليهود وعن أحوالهم فى أرض يهوذا « فقالوا لى إن الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى البلاد هم فى شر عظيم وعار . سور أورشليم منهدم وأبوابها محروقة بالنار ..» (نحميا ١ : ١ ــ ١١) فلما سمع نحميا هذا الخبر المحزن تألم وحزن وبكى.

ولاحظ الملك أرتحتشستا (١) أن وجه نحميا مكمدا ، وسأله عن ذلك فعرف السبب . وطلب نحميا منه بأن يذهب إلى أورشليم لكى يقوم ببناء هذه المدينة . وبعد صلاة وصوم (نحميا ١ : ١ — ١١) قام نحميا برحلته الأولى إلى أورشليم سنة ٤٤٥ ق.م. (نح ٢ : ١—١٩).

وبعد أن طاف بالمدينة ورأى حالة اليهود المؤلمة المحزنة ، جمعهم وقال لهم : « ... هلم فنبنى أسوار أورشليم ولا نكون بعد عارا وأخبرتهم عن يد إلهى الصالحة على وأيضا عن كلام الملك الذى قاله لى . فقالوا لنقم ولنبن ، وشددوا أياديهم للخير » (نحميا ٢ : ١٧، ١٨) . ولقد رمموا أسوار أورشليم (نح ٣ : ١ — ٣٢) وعندما رأى الأعداء نشاطهم قاموا ضدهم وأوقفوهم عن العمل (نح ٣ :٣٣، ٤ : ١٧) ولكن نحميا استأنف نشاطه مع الشعب بعد أن أحبط حيلة الأعداء .

ولم يقم نحميا بترميم أسوار أورشليم المهدمة فحسب ، بل قام أيضا بعمل اصلاح اجتماعى ، بل يمكن أن نقول : قام بثورة اجتماعية ضد الظلم الاجتماعى الذى كان سائدا . إذ أن عددا من أغنياء اليهود كانوا يستغلون إخوتهم اليهود أيضا بأخذ الربا فطلب المصلح الاجتماعى أن يكف الشعب عن هذا العمل (نح ٥ : ١ — ١٣). وإن كان نحميا قد قام بدور المصلح الاجتماعى فإنه لم يهمل أبدا الداء الخبيث وهو الحرب ضد الخطية ، وإهمال الناموس ولذلك دعا عزرا الكاتب الكاهن ليقرأ لهم سفر شريعة موسى (نح ٨) وبعد قراءة كلمات الناموس يأتى دور الاعتراف بالخطايا ، فقد اعترف الشعب

(١) يحتمل بأن ارتحتشستا الذى يذكره نحميا هو ارتحتشستا الأول . ARTAXE RXES I LONGUEMMAIN

٤٦٥ — ٤٢٥ ق.م. (انظر القاموس الفرنسى ص ٩٥ D. B.) .

بخطيته وابتعاده عن الله (نح ٩) ولقد قام نحميا باصلاحات أخرى عديدة (نح ١٠–١٣) ، لأن الملك عينه حاكما لهذه المدينة (نح ٥:١٤) ولكن كان عليه أن يرجع إلى شوشن القصر لكى يعطى تقريرا عما فعل فى مهمته هذه (نح ٦:٢ ، ١٣ : ٦و٧)وبالرغم من المقاومات والمكايد التى حاكها أعداء هذا الرجل المصلح العظيم فقد استطاع أن يواصل البناء •

فقسم الرجال الذين كانوا يعملون معه إلى فريقين ، فريق يبنى والفريق الآخر مسلح يقوم بحراسة الذين يبنون (نح ٤ : ١٥–٢٣)• وبهذه الحماسة والعزم استطاعوا أن ينهوا بناء أسوار أورشليم المنهدمة فى أقل من شهرين •

بعد هذا الإصلاح الخارجى ، بدأ نحميا فى الاصلاح الداخلى : بنهضة روحية فيها تعهد الشعب أن يجدد عهده مع الرب • وعندما جدد الشعب عهده مع الله استراح المصلح فعاد إلى شوشن القصر لكى يعطى تقريرا للملك عما قام بعمله فى أثناء الأثنى عشرة سنة (٤٤٥ — ٤٣٣ ق•م) واضطر هذا المصلح أن يرجع ثانية إلى أورشليم بعد أن سمع بأن الحياة الروحية انخفضت وأن الشعب بدأ يبتعد عن الرب • فقام برحلته الثانية فى سنة ٤٢٣ ق•م• (نح ١٣ : ٦و٧) • (أنظر القاموس الفرنسى ص ٨٠٦) •

فعندما عاد نحميا إلى أورشليم (٤٢٥ ق•م) قام باصلاح دينى جذرى وعميق فى المجتمع اليهودى الذى كان قد إندمج فى المجتمع الوثنى ، الذى كان يعيش فى وسطه • ولقد طالب نحميا الشعب بحفظ ومراعاة الناموس والسبت • ولقد كان هذا الاصلاح شاملا وجذريا لدرجة أنه يقول : « وكان واحد من بنى يوياداع بن ألياشيب الكاهن العظيم صهرا لسنبلط الحورونى فطردته من عندى» (نح ١٣ : ٢٣ —

٣١) • لقد كان نحميا حازما شديدا فى إصلاحه ، لكى يبنى هذه الأمة المنهدمة روحيا وماديا وأخلاقيا •

لقد لعب نحميا دورا هاما وعظيما فى بناء الأمة اليهودية بعد السبى ؛ فعن طريق غيرته للرب وحماسته ونشاطه فى العمل والبناء والتجديد استطاع أن يغير شكل المدينة الحصينة والشعب المبتعد المتمرد اليائس فى أحيان كثيرة ، إلى شعب عامل نشط تملأه وتحركه من جديد الآمال المسيانية القديمة المختصة بملك يملك على إسرائيل•

إن هذه الآمال بدأت عندما قام زربابل بقيادة القافلةالأولىللعودة إلى أورشليم (٥٣٧ ق•م) ثم تثبتت حينما جاء نحميا ، ورمم أسوار أورشليم المنهدمة (٤٤٥ ق•م) • على أن هذه الآمال المسيانية تعمقت واتسعت فى أذهان هذا الشعب عندما قام عزرا بقيادة قافلة كبيرة جدا من المسبيين إلى بلاد يهوذا ، فلقد وصل عزرا الكاتب الكاهن إلى أورشليم على رأس هذه القافلة فى سنة ٣٩٨ ق• م • (أنظر القاموس الفرنسى ص ٥٤٣) إن وجود عزراالكاتب الكاهن (عزرا ٧ : ١١ ، ١٢ ، ٢١ و ٢٢) على رأس هذه القافلة العائدة إلى أرض الموعد يعتبر رمزا روحيا وماديا له قيمتهالعظيمة • فلقد سبق ورأينا زربابل الذى جاء بالقافلة الأولى والذىأصبح حاكما لأورشليم كان من نسل ملوكى وهذا تحقيق للوعود التى لاتحصى ولا تعد بخصوص ملك داود • وهنا نرى خطوةأخرى تتحقق بمجىء عزرا الكاهن الكاتب لكى يحقق أيضا الوعد الخاص بالكهنوت، فقد كان عزرا من نسل هارون • إن نحميا بذل جهدا كبيرا يحمد عليه لبناء المدينة المنهدمة ، ثم بذل جهدا جبارا أيضا لكى يدعو الشعب إلى التوبة والرجوع إلى الله ، ولكن هذه المجهودات الكثيرة والجبارة والتى تظهر غيرة الرجل للرب وحماسته ، كانت تحتاج من

الناحية الطقسية إلى الكمال • ولكى تكمل هذه المجهودات يأتى عزرا الكاهن الكاتب لكى يهتم بالناحيــة الروحية ، فقام بدعوة الشعب إلى التوبة والتقديس (عزرا : ٩) • وهنــا يبــدأ عزرا عمــلا مكمــلا لعمل نحميا ، فالأول بنى الأســوار المنهدمــة من الناحية الماديــة ، والثانى قام ببناء الأسوار المنهدمة من الناحية الروحية •

وهنا تكتمل الصورة المسيانية التى كان يحلم بها المسبيون وهم على ضفاف بابل عندما طلب منهم الأعداء أن يرنموا لهم ترنيمــة من ترنيمات بلادهم فقالوا لهم : « كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة، إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧) •

والآن لقد رجع عدد لا بأس به من الشعب إلى الأرض التى كان يحلم بالرجوع إليها فهل اتعظوا من هذه الغربة ؟ هل سمع إسرائيــل لصوت إلهه فى العاصفة (١ مل ١٩ : ١٠ — ١٨) والشــدة والسبى أم سمع لصوت إلهه المنخفض الهادىء ؟

إن الله يدعو الانسان فى كل عصر من العصور لكى يعيش معــه وبالقرب منه ، وأن يتعبد له وأن يكون أيضا نافعا وعامــلا فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فهل نسمع صوته عندما يوجه لنا هذه الدعوة ؟

قبل أن أختتم هذا الفصل أحب أن ألفت نظر القارىء إلى نقطة هامة : وهى أنه لولا وجود سفرى عزرا ونحميا لأصبح التاريخ المختص بالشعب المختار غامضا وغير واضح فى فترة السبى وما بعدها ، أى من تاريخ سقوط السامرة (٧٢١ ق•م) إلى القرن الرابع ق•م •

فالبرغم من المشكلات التاريخية والنقد الذى يتعرض له السفران،

فإنهما يقدمان لنا سجلا مفيدا عن شعب الله ، لأن الأنبيـاء الذيـن تنبأوا عن السبى والذين عاصروه تكلموا بطريقـة نبويـة وفى بعض الأحيان تنبأوا وتكلموا بأمثال وألغاز غير واضحة ومحددة ، أما هذان الكتابان فقد قدما لنا سجلا تاريخيا عن تاريخ هذا الشعب فى هـذه الحقبة من الزمـان ، خصوصـا عندما يذكران أسمـاء بعض الملـوك والممالك ، الأمر الذى سهل كثيرا عملية البحث لتحديد التواريخ التى جرت خلالها هذه الأحداث .

الفصل الثالث

المكابيون والأحلام المسيانية

فى الفصل السابق رأينا كيف أن عناية الاله القدير دبرت أن يكتب سفرا عزرا ونحميا لكي نستطيع أن نعرف عن طريقهما ما حدث لشعب الله . فإن هذين السفرين يعطيان لنا فكرة عن الفترة التى قضاها الشعب المسبى فى أرض السبى ، وما بعد السبى إلى سنة ٤٠٠ ق.م. تقريبا. ومع أن هذه الحوادث التي حاول كتابا عزرا ونحميا شرحها ليست هى كل الحوادث التاريخية ، إلا أنها واضحة وتشمل بعض الحقائق التاريخية الهامة التى بفضلها استطعنا أن نعرف ما حدث لهذا الشعب فى هذه الحقبة من الزمن . فلو كنا لا نملك هذين الكتابين لأصبحت هذه الحقبة (من سنة ٧٢١ الى ٤٠٠ ق.م) غامضة أمامنا .

ونحن لانجهل أن كثيرين من المؤرخين والكتاب سجلوا وكتبوا الكثير عن الامبراطوريات وعن الممالك وعن الأباطرة ، وعن الملوك الذين سيطروا وملكوا فى هذه العصور . إلا أن هؤلاء المؤرخين والكتاب لم يسجلوا لنا إلا بشح مفرط ما يخص هذا الشعب . ولذلك فإن كتابى عزرا ونحميا لا يعتبران وثائق تاريخية فقط ، قيمتها لا تقدر ، بل يعتبران أيضا دليلا ومرشدا للباحث المؤرخ . لأن أسماء الممالك والملوك والتواريخ

والأماكن التى يتعرض لذكرها هذان الكتابان ساعدت وتساعد أيضا كثيرا ، المؤرخين والباحثين الذين ينبشون التاريخ بحثا عن الحقيقة التى تخص هذا الشعب •

وما قلناه الآن عن كتابى عزرا ونحميا يمكننا أن نقوله عن كتابين آخرين لعبا دورا هاما جدا ، يشبه إلى حد كبير الدور الذى لعبه كتابا عزرا ونحميا فى تاريخ الأمة اليهودية • وقبل أن أذكر اسم هذين الكتابين أحب أن أنبه القارىء إلى أنهما لم يذكرا فى الكتاب العبرى ، ولا فى العهد القديم للطبعة البروتستانتية ، ومع ذلك يمكننا أن نقول إنه لولا وجود كتابى المكابيين الأول والثانى ، لجهلنا حقائق تاريخية هامة جدا مرت بها الأمة اليهودية ، وظهرت فى خلالها أحلام وأشواق وأمانى مسيانية دفعت هذ الشعب إلى أن يصارع ويناضل ويقاتل للحصول على حريته واستقلاله •

والذين يدرسون تاريخ الكتاب المقدس يعرفون جيدا ، بأنه توجد فترة صمت بدأت بنهاية الأنشطة والإصلاحات التى قام بها نحميا وعزرا فى القرن الرابع ق • م • ونحن لا نملك إلا معلومات قليلة جدا ومحدودة من الناحية التاريخية عما يخص الشعب اليهودى فى الفترة التى تمتد من سنة ٤٠٠ ق•م• إلى سنة ٦٣ ق•م• (سنة احتلال الرومان لفلسطين على يد بومبى) ، ولذلك فإننا نسمى هذه الفترة فترة الصمت • وإن كانت هذه الحقبة من الزمن تدعى فى تاريخ الكتب المقدسة فترة صمت ، إلا أنها لم تكن فترة جمود فى التاريخ • فالعالم يتحرك باستمرار ، بل إنه فى تلك العصور كان يتحرك بأسرع من المعتاد • وكان يوجد فى ذلك العالم المتحرك شعب ينتظر المسيا • كانت لهذا الشعب آماله وأشواقه ، وكانت له أيضا مشاكله وصعوباته

العديدة ، والكتاب المقدس بدون سفرى الميكابيين الأول والثانى لايعطى لنا أية معلومات عن فترة الصمت هذه .

والتاريخ يسجل لنا حوادث هذه القرون فيعلمنا بأن الفتح الفارسى اكتسح كل الشرق الأوسط تقريبا . ثم على أنقاض الامبراطورية الفارسية الضعيفة المنهارة قامت امبراطورية أخرى فتية قوية هى امبراطورية إسكندر الأكبر ، الذى استطاع أن يصل فى غزواته إلى الهند . فهذا الرجل الشاب الذى لم يتجاوز الثالثة والثلاثين عاما (١) ، استطاع خلال هذه الأعوام القليلة أن يبنى امبراطورية عظيمة مترامية الأطراف من اليونان إلى الهند ، وعندما اكتست رأس الامبراطورية اليونانية بالشعر الأبيض وشاخت هى أيضا بدورها ، خرجت امبراطورية أخرى فتية فأزاحت الامبراطورية اليونانية وتربعت مكانها على عروش الممالك الكثيرة الواسعة التى كانت تسيطر عليها هذه الامبراطورية ، ألا وهى الامبراطورية الرومانية ، أما الشعب اليهودى فقد رأى كل هذه التقلبات بل عاشها . وقد سجل لنا المؤرخون ما حدث فى خلال هذه العصور وما حدث فى كل الامبراطورية وكل مملكة فيها . ولكن الكتاب المقدس لم يسجل لنا أى شىء يخص فترة الصمت . وبلا شك : إن الكتاب المقدس ليس كتاب تاريخ وجغرافيا أو أى علم آخر ، وإن كان فى أحيان كثيرة يكلمنا عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الأخرى ، إلا أنه أولا وقبل كل شىء هو كتاب الله ، الذى يكلمنا عن الله . على أن هذا لايمنع أن الذين كانوا يعيشون فى فترة الصمت كانوا يحتاجون أيضا إلى كلمة الله . والإله الذى لايمكن أن يترك نفسه بلا شاهد فى أى عصر من العصور لابد أنه أعلن ذاته بطريقة أو بأخرى . وعلى ذلك فان كثيرين يعتقدون بأن هذه الفترة التى تدعى فترة الصمت لم تكن فى الحقيقة فترة صمت

(١) ولد الاسكندر الاكبر فى ٣٥٦ ق.م.

(م ٥ ــ تاريخ الفكر المسيحى)

بل فترة صلاة ، وحركة ونضال وحرب وسفك دماء وكفاح ونجاح واستقلال وحرية • هذا هو ما حاول أن يصفه لنا كتابا المكابيين الأول والثانى •

لقد سبق أن رأينا أن عددا لا بأس به من المسبيين رجع إلى أورشليم وإلى يهوذا ، وبدأوا فى إصلاح الهيكل وتقديم الذبائح•وهنا يتحقق الحلم الذى كان يحلم به المسبيون (مز ١٣٧) ولكن عندما رجع هذا الشعب الى بلاده التى نفى منها،وعندمابدأ فى الاستقرار وجدنفسه وسط شعوب كثيرة ومتنوعة وخاصة فى السامرة ومدن الشمال التى هجرت فى أثناء السبى الأشورى وامتلأت بأعداد كبيرة من جنسيات وبلاد مختلفة • ولقد اندمج شعب السامرة والمدن الشمالية مع الشعوب الأخرى بأكثر سرعة وبأكثر سهولة من شعب الجنوب (يهوذا) • فإن شعب الجنوب (مملكة يهوذا سابقا) حاول بقدر الامكان الانفصال عن الشعوب المحيطة به،ولكن الظروف التاريخية والتقلبات السياسية وظهور امبراطوريات وممالك على مسرح العالم عرضهم لاضطهادات عنيفة وصراعات حاولت أن تفرض تغييرا جذريا من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية فى حياة سكان المنطقة ، ومما لاشك فيه أن كثيرا من هذه التغيرات والقوانين التى فرضها الأباطرة والحكام على الشعوب تتعارض تعارضا كليا وجزئيا مع المبادىء والمفاهيم اليهودية ، ومن هنا بدأ الصراع القديم الجديد الذى يلخص لنا سببه موسى فى هذا القول والذى حاول البعض من شعب الله الأتقياء المحافظة عليه ، على مر العصور بالرغم من الظروف المضادة وهو : « أنا هو الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من العبودية ، لايكن لك آلهة أخرى أمامى لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض • لا تسجد لهن ولا تعبدهن » •• (خر ٢٠ : ١ — ٦) •

فلقد حاول البعض من الأقليـــة الموجودة والراجعـــة من السبى التمسك بالناموس وتطبيقه على حياتهم العملية ، ولهذا فقد تعرضـــوا لصعوبات كثيرة ومشاكل عديدة ، بل لاضطهادات قاسية ومريرة • ويسجل كتابا المكابيين الأول والثاني سلسلة طويلة من هذه الاضطهادات والمعارك والجهاد • وقبل أن ندخل فى بعض التفاصيل المختصة بالصراع والمعارك والحروب التى خاضها هذا الشعب من أجل الحصول على الاستقلال ، يحسن بنا أن نلقى نظرة ولو سريعة جدا على هذين الـــكتابين •

فى الحقيقة توجد أربعة كتب للميكابيين على أن الكتابين الأخيرين لم يعتبرا فى أى وقت من الأوقات ككتب أبو كريفية • فهما يحتويان على بعض الأشعار والروايات التى تتسم بالطابع الخرافى •

كتاب الميـــكابيين الأول :

وهو من الناحية التاريخية ذو أهمية عظيمة ، إذ أنه يعطى لنا حقائق تاريخية موثوق منها ، وإن كانت فيـــه بعض المبالغات فى وصفها • وهو يحتوى على ستة عشر فصلا يقص لنا فيها تاريخ ثورة الميكابيين ضـــد تدنيس الهيكل (الأصحاح الأول) يتـــكلم الأصحاح الثانى عن ثـــورة ماتاتياس (MATTATHIAS) والاصحاحات من الثالث إلى التاسع (٩:٢٢) يصف لنا حمـــلات وغزوات يهوذا الميكابى • ومن الأصحاح التـــاسع (٩ : ٢٣ ـــ ٧٣) تكلم عن يوناثان (JONATHAN) وأخيرا من الأصحاح الثالث عشر إلى الأصحاح السادس عشر تـــكلم عن سمعان • إن هذا الكتاب يعتبر وثيقة ثمينة مكتوبة كتابة حسنة ومفصلة • وهو مكتوب باللغة اليونانية ولكن يحتمل أن الأصل كتب باللغة العبرية فى حوالى سنة ١٠٠ ق • م • ويحتمل أن كاتبه فريسى ذو أسلوب سلس •

كتاب الميـكابيين الثانى :

والجدير بالملاحظة أن الميكابيين الثاني لايعتبر تكملة للكتاب الأول، إذ أن الميكابيين الثانى كتب قبل الميكابيين الأول،وفى الأصل فإن الميكابيين الثانى عبارة عن كتاب ضخم يتكون من خمسة مجلدات وقد لخصه لنا فى جزء واحد رجل يدعى (GASON) جازون القيروانى ويحتمل أن جازون قام بعملية التلخيص فى حوالى سنة ١٢٠ ق • م • ويحتوى الكتاب على خمسة عشر فصلا يصف فيها الفترة التى تمتد من سـنة ١٧٦ ـــ ١٦١ ق • م • أى أنها فترة أقصر من الفترة التى يغطيها كتـــاب الميكابيين الأول • ويشدد كاتب الميكابيين الثانى كثيرا على الاحتفال بعيد التجديد (يو ١٠ : ٢٢) ثم أنه يسجل بعض القصص التى يذكرها كاتب الكتاب الأول ، إلا أنه يقص لنا أيضا بعض القصص التى لم يذكرها الميكابيين الأول ، مثل قصة الشهيد العازار معلم الناموس (٦ : ١٨ ـــ ٣١) ثم قصة الشهداء السبعة وأمهم (٢ ميكا ٧ : ١ ـــ ٤٢) •

والكتابان (خصوصا الكتاب الأول) يصوران لنا الصراع العنيف المرير الذى خاضه هذا الشعب للحصول على الحرية الدينية والاستقلال الوطنى • فان كان هذا الشعب استطاع الرجوع إلى أورشليم ويهوذا وإلى بعض المدن الأخرى فان الظروف التى وجد فيها لم تكن مشجعة له على اقامة الشعائر الدينية • لأن الاحتلال الأشورى ، ثم الاحتلال البابلي ،فالفارسي،فاليوناني،قد تركت طابعا لم يكن من السهل ازالته حيث انتشرت فى طول البلاد وعرضها العبادات الوثنية على اختلافها ، وشيدت فى كل مدن اسرائيل ويهوذا معابد وهياكل لآلهة عديدة وكثيرة •• وأما ديانة يهوه ، فاضطهدت وضعفت ، بل فى كثير من الأحيان لم تعد كديانة من الديانات الأخرى الموجودة فى البلاد بل أصبحت ديانة مكلفة ، كان ثمنها فى بعض الأحيان حيـــاة الذين كانوا يتمسكون بهـــا ويحيونهـــا

حياة عملية . وبالرغم من هذه الظروف الصعبة القاسية ، وبالرغم من الاضطهادات المريرة العنيفة ، وبالرغم من الصمت القاتل الذى يشبه الموت ، نجد حفنة من الناس لايريدون الصمت ولا يقبلون الذل والاهانة والخنوع ، فتهب هـذه الجماعة القليلة العـدد والضعيفة : فى وجـه الاستعمار مطالبة ليس فقط بحريتها الدينية ، بل بالحرية الوطنيةأيضا. وفى حقيقة الأمر ان الذى قام بثورة الميكابيين لمتكن حفنةأو جماعةمن الناسبل هو رجل كاهنيدعى متاتياس MATTATHIAS ولعل هذاالرجل الكاهن كان يعرف تاريخ بلاده ، بل أنه عاش جزءا من المأساة . فهـو يعرف تاريخ عزرا ونحميا وما عملاه قبل وبعد السبى . وهو يعرف أيضا كيف أن شعوب هذه المنطقة ومنهم اليهـود قد رحبوا بالاسكندر الأكبر بعد أن خابت آمالهم فى الحكام السابقين وظنوا بأنه يستطيع أن يمنحهم الاستقلال ، أو على الأقل الاستقرار فى بلادهم .. ولكن بعد أن مات الاسكندر الأكبر أصبحت فلسطين من جديد فريسة ثمينة يتنازع عليها ثـلاثة من جنرالاتـه وهـم انطيخوس وسلوقيـوس وبطليمـوس (ANTIGONE, SELEUCUS, PTOLEME) ولقد مات الجنرال (ANTIGONE) فى معركة (IPSUS) عـام ٣٠١ ق . م

وأصبحت فلسطين خاضعة للسيادة المصرية فى حوالى ١٠٠ عام . وبعدها ساعد الفلسطينيون أنطيخوس الثالث على طرد المصريين من المنطقـة والحلول محلهم (١) (فى سنة ١٩٨) . وفى بدايـة الأمر كان المستعمر متساهلا ومتسامحا مع المواطنين ، ولكن عنـدما تولى الحـكم ابنـه أنطيخوس الرابع ابيفان (٢) الذى سماه السوريون آبيفـان أى المختل

---

(١) انظر Des Prophétes à Jésus : Le Monde Juif vers Le temps de Par Guignebert.

الفصل الثالث ص ٣٠ — ٤٣

(٢) لقد ملك انطيخوس الرابع ابيفان من سنة ١٧٥ — ١٦٤ ق.م.

العقل•كان ماتتياس يعرف هذه الحقائق التاريخية كما أنه لاينسى أبدا ذلك اليوم الذى أرسل فيه أبيفان أنطيخوس الرابع جيوشه إلىأورشليم فأشاعوا فيها رعبا وخوفا وسلبا وقتلا • بل ان هذا الملك المتجبر لم يكتف بقتل وتشريد الشعب فحسب ، بل قام فى عام ١٦٧ ق • م • باجراء عملية تعتبر فى عيون اليهود أبشع وأنجس عماية ، ففى ربيع ذلك العام ١٦٧ ق • م • أمر أنطيخوس الرابع باقامة تمثال يحتمل أن يكون تمثال جوبيتر الألومبى JUPITER OLYMPIEN فى المكان الذى كان فيه مذبح التقدمة (١ سيكا ١ : ٤١ — ٦٤ ، ٢ميكا ٥ : ١ — ١١) وبهذا العمل فقد نجس الهيكل وأهان الإله القدير الذى ليس له شريك أو نظير له •وقد ذكر دانيال هذه الحادثة (دا ٩ : ٢٧ ، ١٢ : ١١ و متى ٢٤ : ١٥ و مر ١٣ : ١٤ ولو ٢١ : ٢١) • ويعتقد كثيرون من المفسرين بأن نبوة دانيال تحققت فى هذه الحادثة ، كما أن بعض المفسرين اليهود يرى أن رجسة الخراب التى يتكلم عنها دانيال لا تشير إلى حادثة تنجيس الهيكل فى سنة ١٦٧ فحسب ، بل تشير أيضا إلى ماحدث فى سنة ٤٠ م • عندما أمر الامبراطور جاليجولا (GALIGULA) بوضع تمثال فى الهيكل • ويحتمل أن السيد كان يتنبأ بحادثة سنة ٤٠ م • بهذا القول : « فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة حيث لا ينبغى • ليفهم القارىء » •• (مر ١٣ : ١٤) •

ولم يكتف أنطيخوس أبيفان الرابع بأن نجس الهيكل علانية بل أصدر قرارا يمنع فيه اليهود من تقديم الذبائح أو العبادة لله • وكان هدف هذا القرار هو توحيد الديانة ، والقضاء على تنوع الديانات وتكاثرها • ولم يكن هذا الأمر ضد اليهود فقط بل ضد بعض الديانات الأخرى • والمنشور الذى أرسله الملك ينص على أن كل الشعوب الخاضعة له لاتتعبد إلا للاله الذى عينه الملك ، وكل من يتعبد أو يقدم ذبائح لآلهة أخرى يحكم عليه بالموت •

أمام هذا القرار الملكى القاسى انحنى الكثيرون ، ثم هرب البعض إلى القرى والمدن النائية لكى يستطيعوا أن يتعبدوا لله ولو فى الخفية . ومن بين الذين طردوا من أورشليم الرجل الشيخ الكاهن ماتاتياس . فقد ذهب مع أولاده الخمسة إلى مدينة مودين (MODIN) وهى تبتعد عن أورشليم بحوالى ستة كيلو مترات : ولكن الأمر الملكى لم يكن مقصورا على مدينة أورشليم ، بل كان أمرا لكل المملكة ، ولذلك فقد جاء بعض الذين كانوا يشرفون على تنفيذ قرارات الملك إلى قرية مودين وطلبوا من شعبها أن يقدم ذبيحة للاله الذى عينه الملك ، وكان ماتاتياس حاضرا وطلب منه رئيس الشرطة أن يتقدم ويقدم الذبيحة فرفض ، فقام شخص آخر يهودى لكى يقدم الذبيحة ، وعندئذ امتلأ الرجل الشيخ الكاهن بغيرة تشبه غيرة فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن الذى أخذ رمحه وقتل رجلا إسرائيليا اختلط بامرأة أجنبية . (عد ٢٥ : ١ — ١٦ ، تث ١٣ : ١١ — ١٢) .

فعندما رأى ماتاتياس الرجل اليهودى يقترب من المذبح ليقدم ذبيحة للصنم أسرع إليه وخنقه فمات بين يديه . ولما طلب منه مندوب الملك أن يقدم الذبيحة هجم عليه وقتله هو الآخر ، ثم خرج صارخا وهو يقول : « من ليهوه فليتبعنى » والتف حول ماتاتياس جماعة من الناس يزيد عددها على ستة آلاف شخص . (١ ميكا ٢ : ١٥ — ٢٨) . وعندما سمع الملك بهذا الخبر أرسل جيشا قويا لسحق هذه الجماعة العاصية التى هربت إلى الجبل ، وبمكر ، حاصر الجيش هذه الجماعة يوم السبت فرفض اليهود الدفاع عن أنفسهم يوم السبت حتى لا يكسروه ، فهجم عليهم جيش الملك وأهلك معظمهم اذ أنهم فضلوا الموت على أن يكسروا يوم السبت بالدفاع عن أنفسهم (١ ميكا ١ : ٢٩ — ٤١) . ولقد ظن الملك أنه استطاع أن يقضى على الجماعة الثائرة بهذه المذبحة الشنيعة ولم يعلم أن دماء هؤلاء الذين سقطوا كانت كالبذور الجيدة التى سقطت على أرض خصبة فأعطت ثمارا كثيرة جدا .

إن الثورة التي قام بها الكاهن ماتاثياس لم تكن إلا بداية لعـدة ثورات طويلة ومريعة ومحزنة : كلها قتل وحرب وسفك دماء ، امتدت حتى بداية القرن الأول ق٠م٠ فمن على فراش الموت ألقى ماتاثياس خطابا مماوءا بعبارات التشجيع لدفع أولاده لمواصلة الجهاد من بعده (١ ميكا ٢ : ٤٩ ــ ٧٠) ، ليحفظ اليهود الناموس ويمارسونه بدقة وأمانة ٠

يهوذا الميكابى :

كان يهوذا الابن الثالث لماتاثيـاس الكاهن ، ولقد أعطى لـه لقب الميكابى الذى يعنى مطرقة ٠ فعندما تولى قيادة الحركة الثـورية التى بدأها أبوه ، كانت ضرباته للعـدو قاضية كضربات المطرقة ٠ لما مات ماتاثياس الكاهن تولى يهوذا الميكابى فورا زعامة هذه الجماعة فى سنة ١٦٦ ق ٠ م ٠ (١ ميكا ٣ : ١ ــ ٩) وحاول تنظيم المحاربين وإعدادهم اعدادا كاملا من الناحية العسكرية ٠ ولقد انضم إليه الكثيرون من الذين كانوا يحلمون بتحرير أورشليم ، ثم تحرير اليهودية من القوانين التى فرضت عليهم ٠ وكيف لا ينضم إليه عدد كبير من اليهـود وقد ذاقوا الاضطهاد والحرمان وتاقوا إلى الحرية ٠ إن الأوامر التى أصدرها الملك ضد اليهود كانت تحرم عليهم ليس فقط العبادة لله بل عدم ممارسة أى طقوس أو شرائع دينية ٠ فقد صدر أمر بعدم ختن الأطفال، والأم التى تختن ابنها يعاق طفلها على رقبتها ويساق الإثنان إلى جبل عـال حيث تطرح الأم مع طفلها المختون (٢ ميكا ٦ : ١٠ ــ ١١) لكى تكون مثالا وعبرة لكل أم أو أب جرىء يتمسك بديانته ٠

ولقد أرغم اليهود أيضا على أكل الخنزير، ومن كان يعصى أمر الملك فالموت عقابه (٢ ميكا ٦ : ١ ــ ٣٠) كان الشعب مهددا فى حريته ، ولهذا السبب عينه التف الكثيرون حول يهوذا الميكابى ، وكان هدفهم هو ليس فقط تحرير أورشليم المدينة الغالية على قلوبهم ، بل أيضا الحصول على

الحرية الكاملة التى عن طريقها يستطيعون ممارسة شعائرهم الدينية (٢ ميكا ٧ : ١ ــ ٤١) ٠

ولا ينسى اليهود المحافظون أبدا اليوم الذى تجرأ فيه أنطيخوس الرابع ليس فقط على إرسال رسائل إلى كل بلاد اليهودية آمرا فيها بالغاء عبادة يهوه ، ثم الاحتفال وتقديم الذبائح والعبادة للاله زايوس الألومبى (ZEUN OLYMPIEN) وهو إله كونى ــ للكون كله «COSMIQUE» واله خاص للملك)، بل لاينسون أيضا يوم ٧ ديسمبر ١٦٧ ق ٠ م ٠ عندما أمر الملك باقامة تمثال الاله جوبيتر الألومبى فى نفس المكان الذى كان فيه الهيكل ٠ وتلت هذه العملية موجة عاتية قوية من الاضطهادات ضد اليهود والناموس (١ ميكا ١ : ٣٩ ــ ٦٤) ، لذلك فان اليهود المحافظين على الناموس والمتمسكين بالعبادة لله ، رأوا فى يهوذا الميكابى مخلصا ومحررا على نمط دبوره وجدعون ويفتاح وشمشون ، فجاءت إليه جماعات كبيرة ، ومنها كون جيشه ٠ ولما رأى القادة اليونان أن الجيش اليهودى يقوى ويعظم ، هاجموه عدة مرات، ولكن فى معظم هذه المناوشات والحروب كان النصر حليف الشعب المختار (١ ميكا ٣ : ٣٨ ــ ٤ : ٣٦ ، ٢ ميكا ٨ : ٨ ــ ١٥ ، ٨ : ١٦ ــ ٢٣ ، ١١ : ١ ــ ١٢) ٠

وبعد هذه الحروب والانتصارات المتوالية التى حصل عليها شعب اليهود ضد جيش أنطيخوس الرابع ، قرر يهوذا مع اخوته أن يصعد إلى أورشليم لكى يحررها ويطهرها (١ ميكا ٤ : ٣٦ ــ ٦١ و ٢ ميكا ١ ــ ٢ ، ١٠ : ١ ــ ٨ ويو ١٠ : ٢٢) فجاء بجيوشه إلى أورشليم ودخلها واستولى عليها ، وعندما رأى يهوذا والمحاربون معه حالة الهيكل مزق الرجال ثيابهم وبكوا بكاء عظيما ، لأن هيكل الرب أصبح كمغارة لصوص فبدأوا فورا فى تنظيفه واصلاحه

وبنيان ما تهدم منه ، واشتروا أوانى أخرى لخدمة الهيكل غير التى أخذها الملك أنطيخوس. ولقد قام الجيش المنتصر أو بالمعنى الصحيح الجماعة التى أخذت على عاتقها مسئولية تحرير وتطهير الهيكل ، بتنظيف ، وترميم وإعداد الهيكل والمدينة ، فهدموا المذابح الوثنية التى كانت تحيط بالهيكل وكسروا التماثيل التى أمر باقامتها الملك أنطيخوس الرابع ، وقلعوا الأشجار والشجيرات التى نمت حوله . وبعد أن قاموا بعملية الهدم والبناء والتطهير ، طلب يهوذا الميكابى من بعض الكهنة الذين ظلوا متمسكين بالناموس والوصايا ولم تغرهم الوعود ولم يرعبهم أى وعيد ، طلب من هؤلاء الكهنة أن يقوموا بالخدمة فى الهيكل (١ ميكا ٤ : ٣٦ — ٦١) .

وفى ١٤ ديسمبر سنة ١٦٤ دشن الهيكل رسميا وقدمت عليه ذبائح بعد أن انقطع تقديمها ثلاث سنوات . ومنذ ذلك اليوم الذى دشن فيه الهيكل الذى يسميه يوحنا بعيد التجديد (يو ١٠ : ٢٢) ويسميه اليهود بعيد الحانوكا (HANOUKAH) واليهود يحتفلون بهذا العيد كل عام لأنهم يعتبرونه عيدا عظيما (١ ميكا ٤ : ٥٩) . وانجيل يوحنا يدعوه عيد التجديد (يو ١٠ : ٢٢) لأن اليهود استطاعوا أن يجددوا الهيكل ، ليس فقط الهيكل المنهدم المتروك ، بل أن يجددوا أيضا عهودهم مع يهوه ، (٢ ميكا ١ — ٢) . وفى التاريخ اليهودى لايقل عيد التجديد هذا أهمية — ان لم يكن أعظم — عن اليوم الذى فيه رجع المسبيون من السبى وبدأوا فى بناء أورشليم وأسوارها وهيكلها متعهدين أن يسيروا بحسب ناموس ووصايا الرب ، فإن يوم التدشين يشبه إلى حد كبير اليوم الذى وقف فيه عزرا الكاهن الكاتب لكى يقرأ على مسامع الشعب سفر شريعة موسى التى أمر بها الرب إسرائيل ، لقد كان هذا اليوم يوم شكر وتوبة ، وتجديد عهد (نحميا ٨ : ١ — ١٨) .

ومن الملاحظ أن كتابى الميكابيين الأول والثانى يشددان كثيرا على

التمسك بالناموس • وهذا واضح كل الوضوح فى الثورة التى قام بها الميكابيون والتى كان هدفها ليس فقط تحرير البلاد من الأجنبى ، بل تطبيق الناموس تطبيقا عمليا فى حياة الشعب • ولهذا السبب قبل كثيرون من اليهود الاضطهاد والموت بشجاعة منقطعة النظير ، عندما حاولت السلطات المحلية ارغامهم على كسر أو تعدى الناموس (٢ ميكا ١٨:٦ — ٣١ ، ٧ : ١ — ٤١) • بل إن اليهود الذين كانوا يتبعون يهوذا فى فى حركته الثوريه ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فعندما كانوا يقومون بالهجوم على المدن والقرى كانوا يقتلون الوثنيين وبعض اليهودالذين اندمجوا مع الوثنيين وتعودوا عوائدهم وتقاليدهم (١ ميكا ١ : ٢٤ ، ٣ : ١ — ٩) ضاربين عرض الحائط بالشريعة والناموس • فقد كان الناموس وتطبيقه يحتلان المكانة الأولى فى فكر هذه الجماعة • ولقد نادى ماتاتياس الكاهن بهذا الأمر كل حياته بل وفى ساعاته الأخيرة وهو على فراش الموت ، حث أولاده على متابعة الجهاد ضد أعداء الناموس والشريعة (١ ميكا ٢ : ٤٩ — ٦٤) • كذلك الذين صعدوا إلى أورشليم مع يهوذا لتحريرها فى سنة ١٦٤ ، كانوا مشبعين بهذه الفكرة عينها ، وهى المحافظة على الناموس والعمل على تطبيقه بأية وسيلة وطريقة •

ولهذا السبب عينه كان الكثيرون من اليهود ينظرون إلى يهوذا — الذى حاول ويحاول الآن وخاصة بعد عيد التجديد — بعين الرضا والابتهاج بل أن البعض كان يرى فيه نوعا من المسيا ، مع أن فكرة المسيا فى هذا الوقت كانت باهتة وغير واضحة ، إلا أنها كانت منتشرة بين العامة • ولذلك فبعد عملية تطهير الهيكل وتدشينه أصبح يهوذا الميكابى بطلا له شعبيته العظيمة وشهرته الكبيرة •

إلا أن شهرة يهوذا هذه أثارت الحقد والضغينة فى قلوب أعدائه، فإن كان البعض من اليهود المحافظين رأوا فيه بطلا وربما بطلا

(مسيانيا) ، كانت الدول التى تحيط بهذا الشعب ترى فيه منافسا بل مخربا لسلطانها وقواتها • ولذلك فقد تحالفت بعض الدول ضده لكى يكسروا شوكته ويحطموا قـوته ويحولوا نصرته إلى هزيمة (١ ميـكا ٥ : ١ — ٦٨ ، ٢ ميكا ١٠ : ١٤ — ٣٣ ، ١٢ : ١ — ٣١ ، ١٢ : ٣٢ — ٤٥) وفى هـذه الفصول نرى الحروب العنيفة التى خاضهـا هذا الشعب ، والمؤامرات التى حيكت ضد يهوذا وضد اليهود للقضاء عليهم جميعا ، ولكن هذا القائد لم يعبأ بتهديدات المهددين ولم ينخدع بوعود الواعدين الكاذبة ، وكل تحالفات المتحالفين ضده لم تثن عزمه لحظة واحدة ولم تزحزحه عن موقفه قيد أنملة •

ويقدم لنا سفرا الميكابيين صورة رائعة ليهوذا المحارب المناضل ، ليس فقط ضـد الملك وقواته وجيوشه الضخمة ، وضـد الأمم التى تحالفت ضده بسبب الغيرة والحقد ، بل يقدمان لنا أيضا صورة نضاله ضد اليهود أنفسهم ، الذين كانوا يرون فى الحركة الثقافية اليونانية ، التى نادت بها السلطات اليونانية نوعا من التمدن (MODERNISME) وكانت هذه دعوة إلى تعميم اللغة اليونانية كلغة عامة ؛ وسنرى فيمـا بعد كيف أن هذه الروح : أى إتباع ما هو عصرى وجديد ، وترك مـا هو قديم ، ستسود على كثيرين من اليهـود وستكون أيضا سببا فى إنقسامهم وفى إثارة الحروب بينهم وبذلك يرجعون إلى النقطة التى بدأ بها جدارهم رحبعام ويربعام •

على أية حـال فإن يهوذا الميكابى قد ناضل ليل نهار لكى يجمع الشعب المتفرق المتشتت وأن يوحد صفوفهم وهدفهم ، ويمكن أن نقول إنه نجح إلى حد بعيد فى بث الروح الوطنية فى هذا الشعب وإنه خلق منه من جديد شعبا واعيا ولو جزئيا لمسئوليته الوطنية •

فقد ثابر يهوذا على العمل فى بنيان هذه الأمـة بالرغـم من كل الصعوبات الخارجية والداخلية التى واجهته ؛ واستطاع فى سنـوات قليلة جدا أن يكون جماعة لها وزنهـا وكيانها ، بل رأى أيضا بعينيـه سقوط ممالك ورؤساء أقوى منه وأعظم ، ثم رأى أيضا اختفاء ملوك وعظماء من على خشبـة مسرح التاريخ ، فقـد مات الملك أنطيخوس الرابع ، العدو اللدود للأمة اليهودية ، الملـك الذى حاول جاهـدا أن يلاشى هذه الأمة بالهها وديانتها وثقافتها من الوجود ، مات كما يصوره لنا الميكابيون الأول غريباً بعيدا عن وطنه (١ ميكا ٦ : ١٤ ، ٦ : ١ـ١٧) ومريضا متألما ، تركته حاشيته كما يعرفنـا بذلـك الميكابيـون الثانى (٢ ميكا ١ : ١١ ـ ١٧ ، ٩ : ١٠ ـ ١٤) ويعتقد أن الملك أنطيخوس الرابع أبيفان مات فى سبتمبر أو فى أكتـوبر سنة ١٦٤ ق٠م٠ ولم ير تدشين الهيكل كما ظن البعض خطأ حيث أن تدشين الهيكل تم فى ١٤ ديسمبر سنة ١٦٤ بعد موت الملك أنطيخوس الرابع ٠

فى بداية عهد أنطيخوس الخامس كانت الحـروب مستمرة بين إسرائيل وبين الأسرة الحاكمة الأنطيخوسية، نجد أن جيش هذه الأخيرة هاجم عدة مرات جيش يهوذا ولكنه رجع على أعقابه مقهوراً مكسورا (١ ميكا ٦ : ١٨ ـ ٥٤ ، ٢ ميكا ١٣ : ١ ـ ٢٣) ممـا اضطر معـه الملك أنطيخوس الخامس إلى أن يمد يد المصالحة لأعدائه وأن يعترف لهم بحقوقهم الدينية التى كانوا يطالبون بها ويبذلون من أجلها دماءهم، فمنح أنطيخوس الخامس اليهود حرية العبادة وممارسـة الشعائـر الدينية (١ ميكا ٦ : ٥٥ ـ ٦٣ ، ١١ : ٢٢ ـ ٢٦ ؛ ١٣ : ٢٣،٢٦) ٠

إلا أن فترة السلام التى وعد بها أنطيخوس الخامس لم تستمر طويلا وكانت كأنها طفل صغير مات فى مهـده قبل أن يعرف الخير أو الشر ٠ لأن الملك أنطيخوس الخامس قد أغتيل على ما يحتمل فى سنة

١٦٣ • وخلفه ديمتريوس الذى توج ملكا فى سنة ١٦٢ وظل على العرش إلى سنة ١٥٠ ق•م• (١) • وعندما قبض الملك ديمتريوس على زمام الحكم شن حربا شعواء ضد اليهود •بل أن بعضا من اليهود أنفسهم ، خصوصا الراغبين فى الحصول على مراكز هامة ، فى الدولة (كرئيس للكهنة ألياقيم) وشوا بيهوذا لدى الملك ، فأرسل الملك عدة حملات عسكرية هجمت على يهوذا ، وكل ما حصلت عليه فى النهاية ـ بالرغم من بعض الانتصارات القليلة جدا التى لاقيمة لها ـ هو الانكسار والتقهقر أمام جيش يهوذا (١ ميكا ٧ : ١ ـ ٥٠ و ٢ ميكا ١٤ : ٥ ـ ٣٦) ولقد أدت هذه الانتصارات التى حازها يهوذا وجيشه إلى تثبيت سلطته وتدعيمها واتساع شهرته وتقويتها فأصبح يهوذا ، فى المنطقة قائدا وزعيما مطروق الباب يرى فيه الشعب المظلوم والمغلوب على أمره مخلصا •

معركة بئر زيت وموت يهوذا :

رأينا فيما سبق الانتصارات العديدة والعظيمة التى حازها يهوذا فى أثناء السبع السنوات التى كون خلالها جيشا لاسرائيل وتزعم قيادته • إن شهرته لم تكن قاصرة على منطقة فلسطين فحسب ، بل طار صيته إلى روما فأرسل إلى مجلس الشيوخ الرومانى لكى يخلق ويكون علاقات بين شعبه وشعب روما • وكان رد فعل روما على هذه المبادرة ردا إيجابيا مشجعا (١ ميكا ٨ : ١ ـ ٣٢) ولكن الذى عمل أكثر على إتساع شهرته ، هو انتصاره العظيم على القائد المحنك نيكانور (NIKANOR) فكسر شوكته وحطم جيشه وقطع لسان هذا القائد وأعطاه لطيور السماء وقطع يده التى إمتدت مهددة الهيكل بالهدم

(١) انظر القاموس الفرنسى D. B. ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

وأخيرا علق جسده أمام الهيكل (١ ميكا ٧ : ٣٩ ــ ٥٠ ، ٢ ميكا ١٥ : ١ ــ ٣٦) ٠

وعندما سمع ديمتريوس الملك بهذا الخبر المفجع امتلأ غيظا وغضبا وثار ثورة عارمة طالبا الأنتقام العاجل السريع من يهوذا ٠ فأرسل إلى أورشليم أولا جيشا عظيما ، وتحولت هذه الجحافل الضخمة المحاربة فى شهر أبريل ومايو سنة ١٦٠ ق٠م٠ إلى بئر زيث ، وكان تعداد جيش الملك حوالى ٢٢ر٠٠٠ جنديا وجيش يهوذا ثلاثة آلاف من المختارين٠ وعندما رأى يهوذا والرجال الذين معه الجيوش المعادية ذابت قلوبهم وخارت قواهم وانكسرت روحهم ٠ لقد حاول الذين معه أن يثبطوا عزيمته حتى يعدل عن الدخول فى الحرب وعن مواجهة جيش العدو الضخم ، بعدد قليل جدا ٠ « فقال لا يمكن أن يقال عنى فيما بعد بأنى اخترت الهروب ، لنمت بشجاعة لأجل اخوتنا ولانشوه مجدنا » (١ ميكا ٩ : ١٠) وعندما رأى الإسرائيليون جيش العدو الضخم لم يبق مع يهوذا إلا ثمانمائة رجل، ودخل يهوذا الحرب بهذا العدد القليل ومات موت الأبطال ٠ فجاء أخواه يوناثان وسمعان وحملاه الى مقبرة آبائه فى مودين ، حيث بكاه الشعب بمرارة وحزن ٠ وكان الشعب يصرخ قائلا : « كيف سقط البطل الذى كان يخلص إسرائيل » (١ميكا ١٩ : ٢١) ٠ إن هذه الجملة لها معناها فى تاريخ الأمة اليهودية وخاصة فيما يتعلق بالآمال المسيانية ٠ لقد سقط الرجل الذى علق عليه الكثيرون آمالهم لكى يخلصهم من الاستعباد اليونانى ٠ ولذلك صرخوا والألم يعصر قلوبهم قائلين : « كيف سقط البطل الذى كان يخلص إسرائيل » (١ ميكا ٩ : ١ ــ ٢١)٠

يوناثان :

بعد أن اختفى البطل المحارب يهوذا فى سنة ١٦١ ــ ١٦٠ ق٠م٠ أصبح هذا الشعب فريسة شهية تنقض عليها وحوش البرية وطيور

السماء • فبدأت من جديد الاضطهادات فى المدن وفى القرى •ولقد تزعم هذه الحركة بكيدس (BAKKIDES) الذى قام بحملةشاملة ضد اليهود هادفا منها ملاشاة اليهودية من الوجود • ولقد مر أتباع يهوذا فى فترة مؤلمة عصيبة (١ ميكا ٩ : ٢٣ ــ ٢٨) •

فاجتمع أصدقاء يهوذا وجاءوا الى يوناثان أخى البطل الوطنى الراحل وطلبوا منه أن يتولى القيادة وأن يكون رئيسا لهم • فقبل يوناثان وأصبح قائدا لهذا الشعب فى سنة ١٦٠ ق•م•

كان يوناثان سياسيا أكثر منه حربيا ، فمع أنه اضطر أن يستعمل العنف وأن يخوض بعض المعارك الحربية لكى يدافع عن الشعب ، إلا أنه تفوق فى مجال السياسة أكثر منه فى ساحات القتال ، فقد كان سياسيا محنكا ودبلوماسيا بارعا • وبالرغم من ذلك فقد استطاع أن يضرب بشدة وبقبضة من حديد على الأيدى التى كانت تمتد من كل ناحية للاستيلاء على هذا الشعب واستعباده واستغلاله • فقد استطاع أيضا أن يهزم بكيدس وجيشه وأن يحرر إخوته من سلطانه واضطهاداته (١ ميكا ٩:٤٣ ــ ٥٧) خصوصا عندما تآمر بكيدس مع بعض حلفائه لابادة يوناثان وأتباعه والقضاء عليهم قضاء نهائيا ، فلم تكن نتيجة هذه المؤامرة إلا هزيمة مريرة للجيش اليونانى وحلفائه •

ولقد بدأ نجم يوناثان يلمع فى الأفق بعد هذه الانتصارات العسكرية العظيمة ولهذا فقد نظر إليه قادة المنطقة من ملوك وعسكريين بشىء من الغيرة والاعجاب والتقدير • وكرجل سياسى ودبلوماسى انتهز يوناثان الفرصة الذهبية التى سنحت له ، وهى فرصة الانقسام الذى كان يسود رؤساء المنطقة • ففى ذلك الوقت كانت آسيا كحقل واسع يتكالب عليه الكثيرون من كل ناحية ، ولقد حاولت الدول التى

كانت تريد أن توسع تخومها وأملاكها استخدام إسرائيل كطعم للصيد ، فقد كان يتصارع على السلطة كل من ألكسندر بالاس المغامر والذى كان يدعى بأنه ابن أنطيخوس أبيفان لتشابهه به (١) ، ثم الملك ديمتريوس من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان الرومان ينظرون إلى المنطقة كلها بنهم وشغف • ولذلك فقد حاولت كل جهة من هذه الجهات أن تستغل إسرائيل للإستفادة منها • وإسرائيل بدورها ، وعلى رأسها الرجل الدبلوماسي الماهر يوناثان ، أرادت هي أيضا استغلال الموقف والاستفادة منه للحصول على الاستقلال والحرية • وأول من أراد إستغلال هذا الموقف هو الملك ديمتريوس عندما رأى أن جيش الكسندر بالاس قد وصل إلى المنطقة ، فقد كتب خطابا رقيقا مملوءا بالمواعيد التى يحلم بها شعب إسرائيل ، وعندما علم بذلك الملك ألكسندر بالاس أسرع هو الآخر بإرسال رسالة أرق ومواعيد أكثر وامتيازات أعظم •

ومن هذه الامتيازات أن الملك ألكسندر سيعين يوناثان رئيس كهنة ويعتبره صديقا له ، ولقد ألبس يوناثان الملابس الكهنوتية فى ٢٥ أكتوبر ١٥٢ ق•م• إلا أن الملك ديمتريوس أرسل مرة ثانية خطابا آخر يتضمن مواعيد لا حصر لها : كالغاء بعض الضرائب ثم ترك ثلث محاصيل أرضه ونصف أثمار أشجاره لمساعدة الشعب اليهودى واعتبار أورشليم مدينة مقدسة وبناء على ذلك يجب إعفائها من كل الضرائب ، كما أعطيت قلعتها هدية لرئيس الكهنة ومنحت الحرية الكاملة لكل اليهود فى كل المملكة مثل حرية العبادة وحرية العمل وحرية الوصول إلى أى مركز فى الدولة مهما كان ••••• الخ •

---

(١) انظر المذكرات التفسيرية فى ص ٢٠٠٨

Traduction Oecumenique de la Bible Ancien Testament.

بالرغم من هذه المواعيد الكثيرة التى لم نذكر منها إلا القليل جدا ، قرر الشعب ويوناثان التحالف مع الملك ألكسندر ، لأن الشعب لم ينس بعد الاضطهادات العنيفة التى ذاقها على يد الملك ديمتريوس .

ونشبت الحرب بين ألكسندر وديمتريوس وانهزم الأول واضطر إلى الهروب . على أن ديمتريوس لم يتمتع بهذا النصر طويلا لأنـــه عندما غربت شمس ذلك اليوم غربت أيضا شمس حياة الملك .

بعد هذه الحادثة نلاحظ تغييرا جذريا فى مجرى الأحداث ، فلـم يعد هذا الشعب كرة تتقاذفها الأيدى وتلقى بها حيثما تشاء ، بل أصبح قويا له جيشه وسلاحه ، حتى وأن لم يكن قد حصل بعد على استقلاله الكامل ، فإنه كان يسير نحوه بخطوات واسعة وسريعـــة . وأصبـــح يوناثان الآن رجلا سياسيا له وزنه وكيانه ، وبناء على ذلك فهو يختـار الحليف والصديق الذى تتفق سياسته ومصالح الشعب . ولذلك نراه مرة ينضم إلى حزب ألكسندر ومرة أخرى ينضم إلى حزب ديمتريوس ومرة ثالثة يتحالف مـع أنطيخوس السادس ضـد ديمتريوس الثانى (١ ميكا ١١ : ١ ـــ ١٢ : ٣٦) .

ولكن هذا السياسى المحنك الخبير سقط بسهولة فى شباك الصياد تريفون (TRYPHON) وهو جنرال أنطاكى أرسل إلى يوناثان مدعيـا بأنه يقوم بمؤامرة لقلب الملك . وعندئذ ذهب إليه يوناثان فاستقبـله استقبالا عظيما وتظاهر تريفون بأنه يريد أن يسلم مدينـــة بتولمائيس (PTOLEMAIS) وبعض المدن الأخرى ليوناثان فاطمئن إليه وذهـب معه إلى هذه المدينة وهناك أغلقت الأبواب عليـه وعلى الألف شخص الذين كانوا معه ولم تفتح إلا لاخراج جثث القتلى . وهكذا سقط عظيم آخر فى إسرائيل سنة ١٤٣ ق.م. كانت عليه تعقد الآمال . كان موت

يوناثان كارثة تجل عن الوصف ، فقد اختفى فى الوقت الذى فيه أتاح الفرصة لهذا الشعب أن يثبت وجوده وكيانه وأن يقف على قدميه مرفوع الرأس • إن يوناثان استطاع فى الفترة التى فيهـا قاد هـذا الشعب (من ١٦٠ ــ ١٤٣ ق•م) أن يكون أمة عظيمة •وإن كان قد مات قبـل أن يصل بشعبه إلى الاستقلال الكامل إلا أنه بفضل ما قام به من حروب ومحاولات سياسية ودبلوماسية ترك خلفه أمة تسير بخطوات واسعة وسريعة نحو الاستقلال الوطنى والحرية الدينية الكاملة ، إذ أنه هـو نفسه قد تقلد منصب رئيس كهنة • وهنا نسأل هذا السؤال : عندمـا عين الملك ألكسندر بالاس يوناثان رئيس كهنة ، هل كان هذا التعيـين نجاحا أم فشلا للديانـة اليهوديـة ؟ (١ ميكا ١٠ : ١ ــ ٢١) • إن الإجابة على هذا السؤال صعبة ، ولكن يمكن أن نقول إن تعيين يوناثان رئيس كهنة يعتبر نجاحـا عظيما من الناحيـة السياسية ، لأن الذى عينه رئيس كهنة للديانة اليهودية هو ألكسندر بالاس الذى كان يدعى بأنه أنطيخوس أبيفان الذى كان يريد أن يلاشى الديانة اليهوديـة من الوجود (١ ميكا ١ : ٤١ ــ ٦٤) • فمع أن هذا التعيين أعتبر نجاحا سياسيا إلا أنه كان للأسف الشديد بداية للصراع والانشقاق وظهور أحزاب وطوائف فى الديانة اليهودية نفسها ، لأن كثيرين من اليهـود المحافظين لم يوافقوا على تعيين يوناثان رئيس كهنة ، إذ أنهم كانـوا يرون أنه لاينتسب الى العـائلة الكهنوتية ، وبناء على ذلك لايحق له أن يكون رئيس كهنة • وقائمة نسب سبط الكهنوت التى تذكرهـا مخطوطات قمـران ، تبين لنا أن ذكر عائلة يهوريايب (عائلة يوناثان) لم ترد إلا بعد وصول هذه العائلة الى الكهنوت فى عصـر يوناثان (١). وهذا يدل على إضافة هذه العائلة فيما بعـد فى الشواهـد الآتيـة

(١) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ص ١٩٨٤ لتفسير (١ ميكا ٢ : ١) ١٠.

(١ أخ ٢٤ : ٧ ، نحميا ١١ ، ١٢) .

على أية حال فإن جماعة من هـذا الشعب لم تقبـل أن يكـون يوناثان رئيس كهنة وهو لا ينتسب لسبط الكهنوت بحسب إعتقـادهم ؛ ونتيجة لذلك يظن أن ابن أونياس الثالث الذى كان يجب أن يكون عملا رئيس كهنة لم يقبل هذه الأوضاع ، فنزل إلى مصر وأسس معبداً ف ليونتوبوليس (LEONTOPOLIS) أن « سيد البر » ذهب إلى قمران واختبأ هناك (٢) . وسنرى فيما بعد الدور الذى قامت بـه جماعـة قمران عندما نتعرض للكلام عن ذلك .

وهنا نرى أن الرجل الذى استطاع بمهارة أن يكمل عمـل أبيـه يهوذا فى تكوين وجمع الشعب المشتت الممزق ، كان وصوله الى مركـز رئيس كهنة السبب فى تمزيق الشعب وانقسامه .

سمعـان بن ماتاتياس :

عندما وصل خبر ما حدث بين تريفون ويوناثان إلى آذان سمعـان ظن هذ االأخير بأن يوناثان قد سقط مع الذين سقطوا ولـم يعرف إلا مؤخرا بأن أخاه قد قتل فيما بعد على مقربة من باسكاما (BASKAMA) (١ ميكا ١٣ : ٢٠ ـ ٢٤) . ولذلك فقد قـام فور وصول هذا الخبر ؛ بالرغم من الحزن الذى كان يعصر قلبه ، خطيبا فى الشعب ومبينا له ما بذله أبوه ماتاتياس وأخوه يوناثان لأجل المحافظة على الناموس وترميم مذبح الرب . ثم وعد بأن ينتقم انتقاما مريعا لأخيه من أعداء الشعب . وعندما سمع الشعب هذا الخطاب صرخ قائلا : « أنت رئيسنا بدل يهوذا ويوناثان » (١ ميكا ١٣ : ١ ـ ١١) فتولى سمعان بن ماتاتياس وأخو

---

(٢) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ص ٢٠٠٨ للتفسير(١ ميكا ١٠ : ٢٠) .

يوناثان قيادة الشعب من هذا اليوم ، وأصبح القائد الأعلى للقــوات المسلحة والكاهن الأعظم لإسرائيل فى سنة ١٤٣ ق٠م ٠

إن السنين التى قضاها سمعان مع أخيه يهوذا كمستشار وكمرشد فنى له (١ ميكا ٢ : ٦٥) ومع أخيه يوناثان حيث كان يقوم بعمليــات حربية ناجحة ، قد صنعت منه رجلا حربيا ودبلوماسيا يخشى بأســه (١ ميكا ٥ : ١٧ ــ ٥٥ ، ١١ : ٦٤ ــ ٦٦) ٠

فحالما تولى سمعــان الحكم أرسل خطابا إلى الملــك ديمتريوس الثانى يطلب منه ان يرفع الضرائب عن البــلاد لأنهــا تعرضت لسلب ونهب تريفون ٠ وكان رد الملك ديمتريوس الثانى إيجابيا ٠ وهذا الأمر أى إلغاء ورفع الضرائب عن الشعب كان يعتبر خطوة هامة جدا للتقدم نحو الاستقلال الكامل ٠ وهناك خطوة أخرى خطاهــا سمعــان نحو الاستقلال الكامل لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى ، وهى استيلائه على قلعة أورشليم وطرد القوات الأجنبية الرابضة فيها٠وبهذا أزاح سمعان الكابوس الذى كان جاثما على صدر أورشليــم وصفى الاستعمــــار اليونانى الذى استغل هذه المدينة حوالى ٢٦ سنة (من ١٦٧ ق٠م ــ ١٤١) ٠ انتشرت أخبار سمعان بسرعة البرق فى البلاد القريبة والبعيدة ــ حتى أن الرومان كتبوا إليه لكى يجددوا عهد الصداقة الذى قطعوه مع يوناثان أخيه (١ ميكا ١٤ : ١٦ ــ ٤٩) ٠ وأما اليهــود فقــد اجتمعوا فى مجمع لكى يقدموا بطريقة عملية شكرهم إلى سمعان وإلى كل عائلته الذين بذلوا حياتهم لأجل حرية البلاد ٠ ففى ١٣ سبتمبــر سنة ١٤٠ ق٠م٠ قرر هذا المجمع أن يكرم سمعان وعائلته ، لأنه استطاع أن يواصل بجهاد وصبر وحكمة ودبلوماسية الأعمال التى بدأها أبوه وأخواه حتى وصل الشعب اليهودى إلى استقلاله الكامل وحريته التى كان ينشدها من زمن طويل ، والأمتيازات التى منحها المجمع لسمعــان

كثيرة لذلك سنذكر بعضها على سبيل المثال وليس للحصر : ١ ــ الاعتراف بأنه الرئيس العام ٢ ــ القائد الأعلى للقوات المسلحة ٣ ــ رئيس كهنة مستديم إلى أورشليم إلى أن يأتي نبى لتعيينه (١ ميكا ١٤ : ٤١) • ٤ ــ المسئول الأعلى عن كل الأعمال والإدارات والاجتماعات ••• الخ (١ ميكا ١٤ : ٢٥ ــ ٤٩) •

هذه هى بعض الامتيازات التى اعترف بها مجمع اليهود لسمعان والتى كتبوها على حجر ووضعوهــا فى الهيكل تخليــدا وشكــرا لــه ولعائلته •

والقارىء المدقق يلاحظ بأن المادة الخاصة برياسة الكهنــة تقول : « وسمعان رئيس كهنة مستديم إلى أن يأتى نبى لتعيينه » • وكما سبق القول إن جماعة من اليهود لم تقبل تعيين يوناثان رئيس كهنة لأنه لــم يكن من نسل هرون ، وبما أن هذه الجماعة المجتمعة فى مجمع سنــة ١٤٠ ق•م• كانت لاتريد كما يبدو من النص توسيع الفجوة بين الذين يقبلون سمعان رئيس كهنة والذين لا يقبلونه فانها قررت : أن سمعان يعين رئيس كهنة إلى أن يأتى نبى ليعينه أو ليمسحــه رئيس كهنــة أو بمعنى آخر أن يفصل فى أمره « نبى » (١ ميكا ٤ : ٦٤ ــ أنظر أيضــا قوانــين قمران ٩ : ١١ ، يو ١ : ٢١ ، ٢٥ يو ٦ : ١٤) ومن هــــذا نستنتج أن اليهود لم يكونوا متفقين على أن يكون سمعان رئيس كهنة• ولقد أدى عدم الاتفاق هذا إلى انشقاق ونزاع ، وإلى حرب وانقسام• فما كادت هذه الأمة الممزقة المهددة من الداخل ومن الخارج أن تسترد حريتها الوطنية والدينية ، وتستنشق هواء الحرية العليل حتى تعرضت هى نفسها وحريتها الدينية والوطنية إلى الضياع والهلاك •

إن الجماعة التى لم تقبل بأن يكون يوناثان رئيس كهنة ، ورفضت

بالتالي هذا المركز لسمعان أخيه للسبب عينه ، وانفصلت عن العائلة المالكة وأصبحت طائفة منعزلة داخل إسرائيل نفسه ، وافقت في بادىء الأمر على سياسة الميكابيين الخارجية والداخلية، الا فيما يختص برئاسة الكهنوت التي أسندت إلى شخص على درجة كبيرة جدا من الكفاءة العسكرية والدبلوماسية ، ولكنه لاينتمي لعائلة هارون ، وبناء عليه لا يمكن أن يكون رئيس كهنة بالرغم من أنه كان من عائلة خادمة للهيكل • إن القانون يحتم بأن يكون القائد الأعلى للدولة الثيوقراطية Théocrathique من نسل هارون أخي موسى ولهذا السبب انفصلت هذه الجماعة محتجة على هذا الوضع ولقب تابعوها باسم (HASSIDIM) أي «الأتقياء» (١ ميكا ٢ : ٤٢ ، ٧ : ١٣) • ويبدو أن هذه الجماعة كانت موجودة قبل وجود يهوذا نفسه إذ أن كتاب الميكابيين الأول يتكلم عنها واصفا إياها بالبسالة والشجاعة (١ ميكا ٢ : ٤٢) على أنها لم تظهر على مسرح التاريخ إلا عندما عين يوناثان رئيس كهنة فاحتجت على هذا احتجاجا شديدا وانعزلت عن اليهود•وبما أنهم اعتبروا أنفسهم «إخوة أتقياء» (HASSIDIM) فإنهم لم يشتركوا مع بقية اليهود في الاحتفالات الدينية التي كان يرأسها رئيس الكهنة الغير القانوني بحسب اعتقادهم ، ولكن مع انعزالهم عن بقية المجتمع إلا أنها كانت تعيش فيه وتتعامل معه •

ويبدو أن حادثة تعيين يوناثان رئيس كهنة ولدت حركة أو طائفة أخرى سميت فيما بعد بطائفة الفرنسيين (الانفصاليين) أي الذين فرزوا وعزلوا أنفسهم • إلا أن هذا اللقب قد ألصقه بهم أضدادهم • أما هم فكانوا يسمون أنفسهم « الأتقياء » ويظن كثيرون بأنه من هذه الطائفة ـ طائفة الإنعزاليين أو الفريسيين ـ خرجت طائفة أخرى أكثر تدقيقا وأعظم ترمتا ، فقد اعتقدوا بأن العالم المعاصر وقتئذ ضل الطريق الصحيح السليم فيجب الابتعاد عنه ، فذهبوا إلى وادي قمران

حيث كونوا جماعة تقضى معظم وقتها فى الصلاة والتأمل والانتظار • وهكذا ولدت طائفة أو جماعة الأسينيين الذين كنا نجهل الكثير عنهم قبل اكتشاف مخطوطات وادى قمران ، لأن ما وصل إلينا عن حياتهم ومعتقداتهم كان عن طريق يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودى الشهير ثم فيلون الإسكندرى وأسابيوس ثم الشيخ بلنوس • ولكن اكتشاف هذه المخطوطات فتح أمامنا بابا جديدا لمعرفتهم ، ولا نريد هنا أن ندخل فى التفاصيل الكثيرة المختصة بعقائدهم وكتاباتهم التى تزيد على خمسمائة مجلد،ولكننا نريد فقط أن نلفت نظر القارىء الى أن هذه الجماعة خرجت هى أيضا من جماعة الأتقياء لأنها لم تقبل أن يكون رئيس الكهنة من عائلة غير عائلة هارون • إن الجماعة الأولى التى أفرزت نفسها عن بقية اليهود ــ والتى ستدعى فيما بعد بجماعة الفريسيين ــ كانت تعيش فى المجتمع المعاصر حينذاك وتندمج فيه جزئيا ، أما جماعة قمران فقد انسحبت تماما من ذلك المجتمع وذهبت إلى وادى قمران فى صحراء اليهودية تحيا حياة تشبه الحياة الرهبانية فى المسيحية•وإن كانت الجماعة الأولى سمت نفسها بالأتقياء فجماعة قمران تدعى لنفسها بأنها هى البقية الأمينة فى إسرائيل • فذهبت بذلك مذهبا أبعد من الجماعة الأولى فى إنفصالها عن الأمة ، ورفضت تقديم الذبائح والاشتراك فى الخدمات التعبدية فى الهيكل لعدم شرعيتها ، لكنها احتفظت بكهنتها المختصين بها ، من البقية الباقية فى إسرائيل ومن نسل صادوق ، لكى يقدموا ذبائح الهيكل بعد تطهيره عندما يأتى اليوم الذى فيه يمسح رئيس كهنة بطريقة طقسية وتقليدية صحيحة • وبما أن هذه الجماعة أرادت أن تحتفظ بقداستها وبرها بعيدة عن العالم والكهنة الذين يخدمون فيه غير معترفين لهم بكهنوتهم ولا بسلطانهم لأنهم لا ينتمون إلى بيت صادوق الكاهن الشرعى • وبناء على ذلك لا يملكون حق الكهنوت •

ويظن أن عدد الأسينيين قد بلغ حوالى ٤٠٠٠ عضو ، كانت

غالبيتهم فى وادى قمران ، ويظن أن بعضا منهم كان فى مصر وسوريا. ويحتمل أيضا أن أعضاء هذه الجماعة اضطرت للهروب وتركت وادى قمران بسبب الحروب العنيفة التى شنها الرومان ضد الغيوريين (من ٦٦ — ٧٣ ب.م) والتى انتهت بسقوط أورشليم فى سنة ٧٠ب.م. ولكن من حسن الحظ أن بعضا من هذه الجماعة استطاع أن يخفى بطريقة محكمة وحكيمة جزءا من مكتبة هذا الدير، حيث وجد البدوى محمد الديب صدفة بعضا من هذه المخطوطات الثمينة فى ربيع ١٩٤٧ عندما كان يبحث عن إحدى نعاجه الضالة فى هذه المنطقة ، ومنذ هذا التاريخ والعلماء يدرسون هذه الوثائق التاريخية العظيمة ويحللون النتائج التى يصلون إليها .

ولنترك الآن هذه الطوائف الدينية ولنرجع إلى سمعان الذى لم يحصل على لقب ملك إلا أنه حصل على حق ضرب نقوده الخاصة ببلاده ، فتمتع الشعب فى فترة حكمه بسلام لم يعرف له نظيراً إلا فى أيام سليمان ، عندما كان يستعمل كاتب الميكابيين الأول التعبير الكتابى القديم والعزيز على قلب هذا الشعب ألا وهو : « واستراحت الأرض فى أيامه » وقد كان كل فرد مشغولا بزراعة أرضه الخصبة المثمرة . وكان الشيوخ يجلسون معا يقصون قصص النجاح والفلاح والخصب والإثمار فى هدوء وسلام .. (١ ميكا ١٤ : ١ — ١٥) . نعم كانت البلاد تتعرض من وقت لآخر لبعض هجمات من الأعداء ، ولكن سمعان كان يصدهم صدا عنيفا ويرغمهم بقوة جيشه على الرجوع إلى بلادهم (١ ميكا ١٦ : ١ — ١٠) . وقد أعتبرت هذه الحقبة أعظم الحقبات وأمجدها فى تاريخ إسرائيل بعد حكم سليمان . وسنرى فيما بعد كيف أن الشعب اليهودى نظر إلى عصر الميكابيين كعصر مجد عظيم لا يفوقه فى المجد إلا عصر داود وسليمان.ورغم أن اليهود يبالغون كثيرا فى وصف عصر الميكابيين ، إلا أن هذه الحقبة تعتبر حقيقة حقبة مجد فى تاريخ

هذا الشعب ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى عائلة يهوذا الميكابى ويوناثان وسمعان خصوصا أنه فى عهد هذا الأخير نالت البلاد إستقلالها وحريتها الدينية والوطنية ، بفضل جهاده وصبره وكفاحه • ولقد كانت خاتمة حياة سمعان كأخويه السابقين أى الموت فى سبيل الوطن • ولكن موته يشبه إلى حد كبير موت أخيه يوناثان الذى قتله تريفون بحيلة وبمكر• فقد كان زوج إبنته بطولمى أبو باس (PTOLEMEE ABOU BAS) حاكم أريحا طموحا الى الحكم بشغف عظيم ويتحين الفرص للاستيلاء عليه• ولذلك فقد انتهز فرصة مرور سمعان بأريحا مع ابنيه ماتاتياس ويهوذا، فدعاهم لوليمة عظيمة أقامها لهم وإنتهت الوليمة باغتيالهم واغتيال الرجال الذين كانوا معهم • وبعد عملية الاغتيال أرسل إلى رؤساء الجيش والقواد للحضور ليوزع عليهم الذهب والفضة • ثم أرسل رسلا لاغتيال يوحنا هركانوس بن سمعان حتى يخلو له الجو تماما •

ولكن يوحنا هذا علم بالأمر فقبض على الرجال الذين كانوا يريدون قتله • وهكذا تنتهى حياة الرجل الذى استطاع أن يبصر بعينيه ويجنى ثمار الحرية والاستقلال الذى كان يحلم به الكثيرون فى تلك البلاد • وهكذا ينتهى أيضا تاريخ عائلة حكمت تلك البلاد حوالى ثلاث وثلاثين سنة من (١٦٧ ــ ١٣٤ ق•م) • إن الفترة التى حكم فيها الميكابيون الذين أظهروا شجاعة منقطعة النظير لتحرير بلادهم ــ وكان عصرهم هو العصر الذهبى ــ ليست فقط الفترة الذهبية والمجيدة فى تاريخ إسرائيل ، بل والمثال الذى يجب أن يتبعه الشعب اليهودى ، فأصبح ماتاتياس وعائلته أبطالا وطنيين احتلوا مكانة مرموقة يفتقدهم الشعب فى كل تجربة ومحنة وطنية وسياسية ودينية ، فنلاحظ أن أبصار هذا الشعب كانت تنظر للوراء الى ماتاتياس ويهوذا ويوناثان وسمعان، كما نلاحظ أيضا أن أبصار هذا الشعب كانت تتطلع إلى يهوذا آخر لكى يخرجهم ويخلصهم من هذه الأزمات • وما يهمنا هو أن اختفاء هذه

العائلة عندما تعرضت إسرائيل لهجمات عديدة خصوصا فى فترة إحتلال الرومان عمل على نمو وترعرع فكرة مجىء المسيا،المسيا الذى تصوره البعض على مثال يهوذا الميكابى،الذى سيسحق ويحطم أعداء شعبه•ولقد حلم الشعب بعصر سلام كامل حيث « يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معا وصبى صغير يسوقها » (إش ١١ : ٦) •

كما تصور البعض الآخر أن المسيا سيظهر بارادة يهوه ، ويهلك الأشرار المقاومين وسيطهر الأرض منهم وعندئذ يملك عليها • وقد ظن فريق آخر بأن مجىء المسيا سيكون مسبوقا بحوادث وكوارث خارقة للطبيعة وأوبئة وزلازل وحروب وأخبار حروب • على أن الكثيرين خصوصا فى الأوقات الصعبة ، كانوا ينتظرون ظهور المسيا كمخلص ومنقذ لشعبه سياسيا ودينيا ، ولذلك ظهر كثيرون يدعون لأنفسهم هذا الامتياز • وسنرى فيما بعد عددا كبيرا من المسايا الكذبة الذين ظهروا وحاولوا أن يلعبوا الدور الذى قام به يهوذا الميكابى ، ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل الذريع ، وأخيرا انتهت بالكارثة العظيمة المهولة وهى سقوط أورشليم فى سنة ٧٠ ب•م•

يوحنا هركانوس : (GEAN HYRCAN)

بعد أن رأينا الإنتصارات العظيمة التى حققتها عائلة يهوذا الميكابى فى الفترة التاريخية بين ١٦٧ ــ ١٣٤ ق•م• نصل إلى الفترة التى حكم فيها يوحنا هركانوس وعائلته ، ومع أن يوحنا هركانوس هو ابن سمعان وحفيد الكاهن ماتاتياس وابن أخى يهوذا الميكابى رأس عائلة الميكابيين ومؤسسها إلا أنه (يوحنا) يعتبر آخر الميكابيين وأول عائلة الأسمونيين (LA FAMILLE ASMON EENNE)

ولقد تولى يوحنا هركانوس قيادة الحكم بعد أن اغتال بطوليمى أبو باس أباه وأخويه فى فبراير سنة ١٣٤ ق.م. فأصبح كأبيه قائدا للقـوات المسلحة ورئيسا للكهنة . وعندما تولى قيـادة البلاد قـام السوريون بهجوم عنيف عليه وحاصروا أورشليم فاضطر بأن يعترف بسيادة أنطيخوس السابع سيدتس (SIDETES) ، ولم يتحرر من سلطانه إلا عندما حارب البارطيون أنطيخوس السابع سيدتس وقتلوه فى سنة ١٢٨ ق.م. وبهذه الحادثة تحرر يوحنا هركانوس من القيـود التى كانت تعوقه عن السير إلى الأمام نحو الحرية والاستقلال .فبعد قتل أنطيخوس السابع سيدتس صار ليوحنا هركانوس سلطان كامل ، وهكذا بدأ يعمـل ويتصرف ويحكـم فأمر بهدم هيكل جرزيم ثم أجبر الأدوميين بالقوة على قبول الختان ، وبمساعدة روما استطاع أن يحصل من جديد على استقلال بلاده . ولقد حاول أن يدخل النظم الحديثة فى بلاده وينشر التمدن فيهـا فسمح بدخـول ما يسمى « بالدنيوية أو العالمية » (Secularisme) فى الديانة اليهودية وفى حياة الناس العملية ، فشجع الحركات الأدبية والرياضية والثقافية فى بلاده . فنشطت من جديد المراكز الثقافية اليونانية فى مدن كثيرة وأصبح الهلينيون منتشرين فى طول البلاد وعرضها ، بل أن بعضا من اليهود كانوا يتكلمون اليونانية بطلاقة رافضين إجادة لغة أجدادهم وذلك مشايعة « للمودة » الحديثة.

ولهذا السبب إتسعت الفجوة بين عائلة يوحنا هركانوس وبـين «الأتقياء»(أى بين (LES ASMON EENS وبين LES HASIDIMES) فإن جماعة الحاسديـم (الأتقيـاء) كانت تعتبـر إنـدماج الأمـة اليونانية بلغتها وثقافتها وعاداتها فى المجتمع اليهودى أمراً خطيرا جداً على الحياة الروحية للإنسان اليهـودى . فهم يعتقـدون بأن السبى والاضطهاد والتشرد بين الأمم والظروف القاسية والمرة التى مر بهـا هذ الشعب فى تاريخه المؤلم ، كل هذا لم يكن إلا نتيجة لاندماج واختلاط

وتزاوج هذا الشعب مع شعوب أخرى ، ولذلك فقد رفضت جماعة الحاسديم حركة التمدن واتسعت الفجوة بينهم وبين الأسمونيين (العائلة المالكة) ؛ وهى فجوة بدأبحفرها يوناثان عم يوحنا هركانوس بقبوله رئاسة الكهنوت . وعندما أظهر الحاسديم معارضتهم الشديدة ورفضهم التام لسياسة يوحنا هركانوس ، ظهرت طائفة أخرى أو حزب جديد هى طائفة الصدوقيين ، مع أن جماعة الصدوقيين كانت أقدم من يوحنا هركانوس نفسه ؛ فهم يعتقدون أن جدهم هو صادوق الذى كان كاهنا فى أيام يوناثان النبى وداود الملك وهو الذى مسح سليمان ملكا (٢ صمو ٨ : ١٧ ، ١ مل ١ : ٣٢ — ٣٩ ، حز ٤٠ : ٤٦ ، ٤٣ : ١٩) .

والكتاب المقدس يقدم لنا صادوق وأبياثار كاهنين فى أيام ملك داود (٢ صم ١٧،٨)، وقد كان صادوق الكاهن أمينا ومخلصا لداود الملك خصوصا فى الأيام الصعبة القاسية التى اجتازها داود فى أثناء الثورة التى قام بها ابنه أبشالوم(٢ صم ١٥:٢٤ — ٢٩ ، ١٧ : ١٥ — ١٩،٢٢: ١٢) . كما كان يؤيد سليمان ويقف بجانبه بينما انضم أبياثار الكاهن إلى حزب أدونيا المعارض لسليمان . وعندما جلس الملك سليمان على العرش عزل أبياثار من الكهنوت فلم يعد كاهنا للرب (١ مل ١ : ٧—٨ ، ٣٢ — ٤٠ ، ٢ : ٢٧) . ومنذ هذا التاريخ إلى أيام الميكابيين وعائلة صادوق الكاهن تتمتع بنصيب الأسد فى الكهنوت ، ونقول بنصيب الأسد لأن بعد العودة من السبى كان يوجد عدد من الكهنة من نسل أبياثار الذى حرمه سليمان من الكهنوت (عز ٨ : ٢) ؛ ولذلك يمكننا أن نقول بأن عددا كبيراجدا من الكهنة كانوا صدوقيين ،وكان حزب الصدوقيين — على النقيض من الحاسديم والأسينيين — يؤيد العائلة المالكة والحركة الهلينية ، بل أظهروا استعدادهم للتعاون مع العائلة المالكة فى اضطهاد حزب الحاسديم . واضطهدوهم فعلا فى أيام حكم يوحنا هركانوس

(١٢٧ ــ ١٠٤ب٠م) رف أيام أرستوبولس الأول وف أيام ألكسندرجونه٠ وكان هذا الحزب يتكون من العائلات الكهنوتية الارستقراطية الغنية ، ضاما ف حضنه أعضاء أرستقراطيين أغنياء واستمر هكذا إلى زمن السيد الرب على الأرض وحتى سنة ٧٠ ب٠م٠ وبعد هذا التاريخ لانسمع عنهم شيئا البتة ٠

وبما أن هذا الحزب كان يضم جماعة من أغنياء البلاد وأثريائهـا فإن مصالحهم الشخصية كانت تتطلب تعاونا كاملا مع السلطة الحاكمة ــ وطنية كانت أم أجنبية ــ فقد كانوا ف معظم الأحيان « عمـــلاء الاستعمار » (كما نقول ف تعبيراتنا الجارية) ٠ أما من ناحية عقيدتهم فإنهم كانوا يؤمنون بأسفار موسى ويرفضون كل تقليـد شفهى ، وكل الطقوس الخاصة بالطهارة ، طقوس تمسك بها الفريسيون كثيرا ، كما كانوا يرفضون أيضا قيامة الأموات (٢٢ : ٢٣ ــ ٣٣) أع ٤ : ١ ــ ٢ ، ٢٣ :٦ ــ ٨) كما إنهم لايؤمنون بالملائكة ولا بالشياطين(أع ٢٣ : ٨)ولا يؤمنون بالعناية الإلهية ، ويعتقدون بأن الانسان حر ف إختيار الخير ورفض الشر ٠

هذه هى شيعة الصدوقيين التى انتشرت ولاقت نجاحا كبـيرا ف أيام يوحنا هركانوس وأيدت الهلينية ٠ ومع أن يوحنا هركانوس شجع الثقافة اليونانية إلا أنه هاجم بشدة القوات اليونانية وضربها عـــدة ضربات قاسية مستغلا ضعفها وتمزقها من ناحية ، كما استغل صداقته للرومان ومعاهدات التعاون بينه وبينهم من ناحية أخرى ٠ فبعـد أن حصل على الاستقلال الوطنى سنة ١٢٨ ق٠م٠ بدأ ف سياسة التوسع فقام بمحاصرة السامرة وخربها ، وعندما طلـب السامريون مساعــدة الملك السلوقى (اليونانى) ، حذره الرومــان من التدخـل ف النزاع ٠ فامتنع اليونانيون عن مساعدة السامريين وبذلك إمتد سلطان يوحنـــا

هركانوس إلى السامرة فى الشمال، كما امتد سلطانه الى الجنوب عندما حارب الأدوميين وانتصر عليهم وأرغمهم على الختان وعلى قبول الديانة اليهودية • ففى عهده كادت اليهودية من الناحية الجغرافية والسياسية أن تصل إلى المجد الذى كانت عليه فى أيام ملك داود وسليمان • ومات يوحنا هركانوس ف ١٠٤ ق٠م٠ تاركا خلفه مملكة ممتدة الأطراف ، دون ملك لأنه لم يحصل على لقب ملك ، وتولى بعده ابنه أرستوبولس الأول •

الملك أرستو بولس الأول

إستطاع أرستو بولس أن يحقق ما كان يحلم به أباؤه وأجداده بعد سقوط السامرة فى أيدى الأشوريين (٧٢١ ق٠م) وسقوط أورشليم فى أيدى البابليين (٥٩٧ ق٠م) ، أى أن يقوم ملك ويملك على إسرائيل• فإن الذين سبقوا أرستو بولس من حكام بعد السبى والعودة إلى اليهودية لم يحصل واحد منهم على لقب ملك •

ولقد ملك الملك أرستو بولس فى سنة ١٠٤. ق٠م• وكانت محبته للثقافة اليونانية عظيمة جدا لدرجة أنه دعى « المحب اليونانى » (PHILHELLEN) • وهكذا اتبع سياسة أبيه فيما يخص الهلينية واضطهاده للفريسيين الذين كانوا يعارضون هذه السياسة • إلا أن الملك أرستو بولس لم يتمتع طويلا بهذا اللقب الملوكى لأن الموت اختطفه بعد سنة واحدة من ملكه (١٠٤ ـــ ١٠٣ ق٠م) وخلفه فى الملك أخوه ألكسندر جونه •

الملك ألكسندر جونه ALEXANDRE JANNEE

مات الملك أرستو بولس الأول دون أن يترك أولادا فخلفه على

عرش المملكة أخوه انكسندر جونه الذى استمر فى الحكم من ١٠٣ — ٧٦ ق.م. بعد أن تزوج من أرملة الملك الراحل سالومة ألكسندرا .

وعندما تربع ألكسندر جونه على العرش قبض بيديه على السلطتين المدنية والدينية ، كملك على الأمة اليهودية وفى نفس الوقت رئيس كهنتها . ورئاسته للكهنة أثارت المشكلة القديمة التى قامت بين العائلة الحاكمة وبين الفريسيين الذين رفضوا أيضا بأن يكون ألكسندر جونه رئيسا للكهنة . ولقد أغاظ موقف الفريسيين هذا الملك الجديد كما أغاظ سابقيه من العائلة المالكة . ومما زاد الطين بلة حادثة التفاح المتعفن . ففى أحد أعياد المظال وبينما كان رئيس الكهنة (ألكسندر) يقدم الذبيحة رماه بعض المتعصبين بتفاح متعفن ، إذ أنهم اعتبروا قيامه بهذه الخدمة المقدسة خرقا للمقدسات لأنه لم يمنح الشرف بأن يكون خادما لها . وإزاء هذا التصرف ثار الملك ثورة عارمة كان من نتيجتها أن شبت حرب أهلية شعواء بين الفريسيين والموالين لهم وبين العائلة المالكة والموالين لها وخاصة الصدوقيين . ولقد راح ضحية هذه الثورة حوالى ستة آلاف فريسى ، ولم تستطع هذه الدماء الكثيرة أن تخمد ثورة ألكسندر وتروى تعطشه لسفك الدماء . فقد حاول مرة أخرى أن ينتقم من الفريسيين بطريقة أبشع وأفظع فأمر بصلب ثمانمائة من الشخصيات البارزة منهم. وعندما كان المصلوبون يلفظون أنفاسهم الأخيرة ذبح أمام عيونهم نساءهم وأولادهم (١) . وعلى أثر هذه الحادثة هرب الكثيرون من وجه ألكسندر المضطهد للحزب الفريسى متخذين من الصحارى والكهوف مسكنا لهم . ولكن عندما اقتربت ساعاته الأخيرة أوصى زوجته ألكسندرا التى خلفته على الملك أن تترفق بالفريسيين وأن تتصالح معهم .

كان الملك ألكسندر جونه طموحا ، فلم يكتف بالحدود التى وصله

(١) انظر القاموس السابق ذكره ص ٢٩.

إليها يوحنا هركانوس بل قام أيضا بعدة غزوات ضد المدن اليونانية واستولى على الكثير منها فاتسعت مملكته وعظم سلطانه ، ولكن كانت المملكة فى الداخل منقسمة ممزقة ، فبالرغم من إنتصاراته على الأعداء فى الخارج وسقوط مدن كبيرة وكثيرة ومحصنة فى يده ، فإنه لم يستطع أن يسوى الأمور فى الداخل حيث كان الصراع بينه وبين أحزاب المعارضة شديدا عنيفا ، وكان على رأس هذه الأحزاب المعارضة حزب الفريسيين • وقد تطرف بعض المعارضين فى معارضتهم فطلبوا مساعدة وتدخل الملك ديمتريوس العدو اللدود لليهود • ويمكن أن نقول بأن العلاقات ساءت جدا بين العائلة المالكة وبين الفريسيين أكثر من أى وقت مضى وكان هذا مؤشرا إلى انهيار وسقوط هذه الدولة مرة أخرى فى الفوضى والاستعمار • فعندما مات الملك ألكسندر جونه (٧٦ ق•م) ترك دولة قوية فى سياستها الخارجية ضعيفة منقسمة على ذاتها فى الداخل مما أدى بها فيما بعد إلى الوقوع فى قبضة الاستعمار الرومانى ثم الموت •

الملكة ألكسندرا سالومة

كما سبق ورأينا أن ألكسندرا سالومة كانت زوجة للملك أرستوبولس الأول . وبعد أن مات هذا الأخير بداء السل على ما يبدو تزوجت ألكسندرا سالومه من الملك ألكسندر جونه الذى أوصى عند موته بأن تخلفه على العرش • فصارت ألكسندرا سالومة ملكة على إسرائيل فى سنة ٧٦ ق•م• وأسندت رئاسة الكهنوت إلى إبنها الأكبر يوحنا هركانوس الثانى ، وقد ملكت من سنة ٧٦ ــ ٦٧ ق•م• وحاولت فى التسع السنوات هذه أن تغير السياسة التى اتبعها سابقوها فيما يتعلق بالفريسيين ، فطلبت هى نفسها منهم أن يمدوها بالنصائح والإرشادات وأن يتعاونوا معها فى إدارة البلاد ، فكانت الفترة التى حكمت فيها فترة

هدوء إلى أن ماتت ألكسندرا سالومة ملكة إسرائيل فى سنة ٦٧ ق٠م٠

فترة الإنهيار والصراع

بعد أن ماتت الملكه ألكسندرا سالومة سقطت إسرائيل بين وحوش جائعة مفترسة ٠ فمنذ زمن طويل جدا وروما تنظر باهتمام شديد إلى اليهودية وإلى ما يحدث فيها من الداخل ومن الخارج ٠ ثم تحول هذا الاهتمام إلى مصلحة بالغة الأهمية بالنسبة للسياسة الرومانية ، ولذلك رأت روما فى موت الملكة وقيام حزبين يتصارعان على السلطة فرصة مناسبة لاتعوض للتدخل ٠ فقد تصارع على السلطة بعد موت الملكة سالومة كل من ابنيها رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثانى وأرستوبولس الثانى ٠ أما الأول الذى عينته أمه الملكة رئيسا للكهنة فى مدة حكمها (٧٦ ــ ٦٧ ق٠م) فأراد أن ينتهز هذه الفرصة بعد موت أمه لكى يكون ملكا على إسرائيل ٠ ولكن أخاه أرستو بولس الثانى كان يطمع هو أيضا فى الملك ٠ فصارت المملكة منقسمة ممزقة بها عدة أحزاب وطوائف يهاجم الواحد الآخر فيضعفون بعضهم بعضا ، وأصبحت العائلة المالكة نفسها منقسمة أيضا وممزقة إلى حزبين يرأس كل منهما أحد الأخوين ، حزب يرأسه رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثانى (GEAN HYRCAN 2e) وحزب آخر يرأسه أخوه أرستوبولس الثانى (ARISTOBULE 2e) كان يوحنا رئيس الكهنة رجلا ضعيفا ، ولقد التف حول أرستوبولس المتذمرون وغير الراضين عن الأوضاع السائدة وقتئذ وخاصة قادة الجيش والصدوقيون ٠ وكان يؤيد رئيس الكهنة الذى أصبح ملكا فى سنة ٦٧ ق٠م٠ الفريسيون والأدوميون ٠ ومع أن الفريسيين لم يقبلوا أن يكون يوحنا هركانوس رئيس كهنة إلا أنهم قبلوه ملكا ، لأنه اتبع سياسة أمه فى مد يد المصالحة لهم وفى استشارتهم فى أمور الحكم وإدارة البلاد ٠ وعندما استمرت المعارك بين الأخوين ، لجأ كل منهما إلى كل الوسائل الممكنة المباحة وغير المباحة

للوصول إلى العرش ، فيوحنا هركانوس طلب مساعدة ملك النبطيين ، وقد نصحه بذلك أنطيباتر (ANTIPATER) أبو الملك هيرودس الأكبر، وبالرغم من أن ملك النبطيين أرسل جيشا عظيما لمساعدة الملك يوحنا هركانوس ، فقد استطاع أرستوبولس قلب نظام الحكم وخلع الملك من على العرش .

وبينما كان الأخوان يتقاتلان ويتناحران ، وصلت الجيوش الرومانية إلى سوريا واستولت عليها وضمتها إلى الامبراطورية الرومانية سنة ٦٤ ،وكانت سوريا تعتبر حصنا من الحصون الأخيرة فيمملكة السلوقيين (SELEVCIDE) . وبوصول القوات الرومانية إلى المنطقة والإستيلاء على سوريا حدثت هذه المسرحية الغريبة : فلقد جاء عدد كبير من ممثلى الدول المحيطة بسوريا ليقدموا التهانى والتبجيل للقائد الرومانى بومبى (POMPEE) كان من بينهم ثلاثة وفود من اليهود يمثلون ثلاثة أحزاب: وفد عن أرستوبولس والصدوقيين وكان يطالب بومبى بالتدخل السريع. والوفد الثانى وكان على رأسه أنطيباتر (ANTIPATER) الذى كان يطالب بومبى بمساعدة يوحنا هركانوس وحزب الفريسيين . وأخيرا الوفد الثالث ، وفد من الشعب كان يطالب بومبى بالتدخل وتصفية العائلة المالكة عائلة الأسمونيين . وفى نهاية الأمر قرر بومبى مساعدة يوحنا هركانوس بعد أن حرمه من مزايا كثيرة ، منها أنه حرمه من لقب ملك وأعطاه لقب حاكم أو والى ،وحتى هذا المنصب نزع منه لسبب ضعفه فترة من الزمن ، ولكن قيصر أرجعه إلى منصبه فى ٤٧ ق.م. ثم فى سنة ٤٠ ق.م. وعندما غزى البارطيون أعداء روما الألداء سوريا خلعوا يوحنا هركانوس من الحكم وأقاموا مكانه ابن أخيه أنطيجنوس أرستوبولس (ANTIGONE ARISTOBVLE) وكان من أشد الأعداء لعمه يوحنا هركانوس لكى يغلق بطريقة نهائية أمامه الباب الذى يصل به

إلى رئاسة الكهنوت (١) ولقد قضى يوحنا هركانوس عدة سنوات أسيرا فى بلاد البارطيين ولكنه رجع أخيرا إلى اليهودية ومات هناك فى سنة ٣٠ ق٠م ٠

ومع أنه يمكن أن نقول بأن عهد الأسمونيين قد امتد إلى سنة ٣٧ ق٠م٠ أى إلى أن تولى هيرودس الملك فى اليهودية إلا أنه فى حقيقة الأمر قد انتهى سلطانهم عمليا فى سنة ٦٣ ق٠م٠ عندما دخل بومبى مدينة أورشليم واستولى عليها ، فأصبحت اليهودية منذ هذا التاريخ مقاطعة رومانية ، وسقطت من جديد فى يد مستعمر آخر وفقدت استقلالها وسيادتها الوطنية خصوصا عندما تولى هيرودس الكبير سلطان الحكم فى البلاد فى سنة ٣٧ ق٠م٠

إن عائلتى الميكابيين والأسمونيين حكمتا اليهودية مدة قرن وثلث قرن تقريبا ٠ واستطاعت العائلة الأولى (الميكابيون) بدم أبطالها المحاربين وغيرة المتحمسين أن تخلص هذا الشعب من الاستعباد والاستعمار الأجنبى وأن تسير معه طريقا صعبا طويلا شاقا شائكا ، إلى أن تصل به إلى عتبة الاستقلال ، ثم جاءت العائلة الثانية (الأسمونيون) واستطاعت أن تصل بنجاح عظيم إلى الاستقلال الذى كان يحلم به الكثيرون من إسرائيل ٠

ولكن هذا الاستقلال الكامل كان شبيها بيقطينة يونان ، فلم تر نور النهار إلا لفترة وجيزة وبعدها سقطت الأمة اليهودية تحت أقدام الرومان ٠ وهنا تبدأ فترة جديدة فى تاريخ هذه الأمة بما لها من

(١) كان الناموس يحتم ان يكون رئيس الكهنة بلاعيب من الناحية الجسمية ، فاصبح من المستحيل على يوحنا هركانوس ان يرتقى الى درجة رئيس الكهنوت بسبب العيب الجسمى (تمزيق اذنه) .

انتصارات مسيانية ؛ من كثيرين من اليهود استقبلوا الرومان بصدر رحب وقلب مفتوح • وتعاونوا معهم وسهلوا لهم مهمة الحكم فى البلاد ، أما البعض الآخر فقد اعتبروا وجود الرومان فى هذه البلاد أمراً كريها مبغوضا ويجب محاربتهم وطردهم وتحرير البلاد منهم ، ومن هذه الجماعة ظهرت أحزاب سنراها فيما بعد •

على أية حال فقد نصب هيرودس ملكا على الذين تعاونوا مع الرومان وعلى الذين لم يتعاونوا معهم •

هيرودس الملك

تولى هيرودس الأكبر زمام الحكم فى هذه البلاد سنة ٣٧ ق•م• بعد أن حكم بالموت مربوطا على خشبة ، على أنطيجنوس أرستوبولس من عائلة الأسمونيين ؛ وهكذا انتهى حكم هذه العائلة • (١)

كان هيرودس أدوميا وهو ابن انطيباتر (ANTIPATER) الذى كان وزيرا فى أيام يوحنا هركانوس الثانى • وكان لأنطيباتر ولدان فازائيل وهيرودس وقد عينهما أنطونيوس حاكمين على منطقة اليهودية• ولكن عندما استولى انطيجنوس (ANTICONE) على اليهودية ، انتحر فازائيل وأما هيرودس فقد هرب إلى روما واتصل بالقادة الرومان خصوصا بأنطونيوس وأكتافيوس (OCTAVE ANTOINE) فعين ملكاً واستطاع عن طريق المساعدات العسكرية الرومانية استرداد اليهودية من يد انطيجنوس • والجدير بالذكر أن قيصر نفسه قد اختار رجلا عربيا لكي يكون حاكما على اليهودية فى سنة ٤٧ ق•م• ولم يكن ذلك

(1) Henri Gaubert. L'Attete du Messie.
La Bible Dans L'Histoire : Mame 90 p 121.

الرجل العربى الحاكم لليهودية سوى هيرودس أنطيباتر الذى صار فيما بعد الملك هيرودس الأكبر (٢) •

كتب الكثيرون عن هيرودس وحياته وسياسته ، ومما لاشك فيه أنه كان سياسيا ماهرا ودبلوماسيا محنكا ، يعرف بسياسته ودبلوماسيته أن يكسب ثقة أصدقائه ، بل وأعدائه أيضا • وعندما كان يفشل فى كسب ثقة الأعداء عن طريق الدبلوماسية والمكر ، كان يلجأ إلى العنف والقتل والتشريد • هذه الصفات كانت خير مساعد له لتحقيق مآربه ، ففى فجر حياته السياسية استطاع بسلوكه وتصرفاته ودبلوماسيته أن يحوز إعجاب أنطونيوس واكتافيوس اللذين نصحا مجلس شيوخ روما باختياره ملكا لليهودية ، وعندما صار ملكا فى سنة ٣٧ ق•م• ظل إلى موته الحليف المخلص والصديق الوفى لروما وسياستها • وبعد هزيمة أنطونيوس فى معركة أكتيوم (ACTIUM) انضم هيرودس إلى أكتافيوس ، وهذا الأخير حصل فى ٢٧ ق•م• على لقب « أغسطس » ويعد هذا اللقب من الألقاب الدينية ، ومعناه السامى أو العظيم أو الإلهى ••• ولقد عمل هيرودس جاهدا على ارضاء أكتافيوس ومجلس الشيوخ من ناحية وعلى ارضاء الأمة اليهودية من ناحية أخرى ، الأمر الذى لم يكن سهل التنفيذ • ولكى يرضى الأوساط الرومانية اتبع السياسة الهلينية فأقام على خرائب المدن المنهدمة مدنا جديدة جميلة ، على الطراز اليونانى • ثم بنى المسارح والمسارح المتدرجة ، بل وصلت به الجرأة إلى أن وضع بعض الرموز والعلامات الرومانية فى أورشليم نفسها ، الأمر الذى إعتبره اليهود المتدينون عثرة وغير مقبول • ولقد كرس قاعة باسم القياصرة وقاعة باسم أغريباس •••الخ ولكى يرضى الأوساط اليهودية بدأ فى بناء الهيكل ، كما قام بعدة أعمال إصلاحية

(2) Ch. Guignebert : Des Prophetes A Jésus.
Le Monde Juif Vers le Temps de Jesus. 35 — 46.

آخرى لصالح اليهود حتى ينال رضاهم ، أو على الأقل يتجنب ثورتهم . وبما أن هيرودس كان هجينا ، فقد إعتبر نفسه يهوديا ولكي يقوى الروابط العائلية بينه وبين اليهود تزوج من مريم حفيدة رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثانى وأنجب منها ولدين وأرسلهما إلى روما لكى يتعلما ويتهذبا فى قصر القيصر . ومما لاشك فيه، أن نسبة هذين الولدين، ألكسندر وأرستوبولس ، إلى أم يهودية « مريم » كان لابد لها أن تلعب دورا هاما فى إختيار الملك الذى سيجلس على عرش اليهودية . ولذلك فقد حاول الابن الأكبر انطيباتر (١) أن يسمم أفكار أبيه من ناحية أخويه مما دفع هيرودس لقتلهما .

ومع أن هيرودس كان سياسيا ودبلوماسيا ماهرا ، لكن هذه الصفات لم تمنعه من استخدام القسوة والعنف والشراسة والقتل والانتقام بطريقة وحشية عند فشل السياسة والدبلوماسية ، لذلك أطلق عليه اسم هيرودس السفاح ، وقبل أن نذكر بعض جرائمه التى بالغ فيها الكثيرون وأضافوا إليها الكثير ، يجب ألا ننسى أن هيرودس كان كريما غاية الكرم .

ولقد أظهر روح السخاء والكرم عندما تعرضت اليهودية لمجاعة عنيفة فباع الصوانى الذهبية التى كان يمتلكها لكى يشترى بها قمحا للشعب الجائع ، كما أنه حاول فى مرات عديدة أن يلعب دور المصالح بين الشعب ، ولكنه لم يفلح فى القيام بهذا الدور لكثرة جرائمه التى جعلت له أعداء كثيرين . فالجرائم التى ارتكبها هيرودس عديدة ومصدرها هو شغفه الشديد بالحكم والتمسك به واعطائه الأولوية المطلقة ، ولذلك كان لا يتردد لحظة واحدة فى تصفية أى شخص مهما كان قريبا أو صديقا تحوم حوله الشبهات بأنه يريد قلب الحكم أو نزع المملكة من يديه .

(١) كان لهيرودس عدة زوجات .

فعندما بدأت الشكوك تساوره فى إخلاص ثلاثة من أبنائه ألكسندر وأرستوبولس وأنطيباتر ، أمر باغتيالهم ، كما أن زوجته المحبوبة مريم ، وأمها الكسندرا لاقتا نفس المصير ضحية لشكوكه فيهما • ولذلك قال عنه الامبراطور أغسطس (أكتافيوس) إن خنازير هيرودس تتمتع بالأمن والسلام أكثر من أولاده • ويقال إن هيرودس كان مكروها جدا من الشعب بسبب الفظائع التى ارتكبها ، ولذلك عندما اقتربت أيامه الأخيرة وعرف أن الموت يقترب منه بخطوات واسعة ، أمر بأن يسجن عدد لابأس به من العظماء ومن ذوى الجاه ؛ ثم أعطى الأمر إلى المسئولين بأنه عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة يجب قتل هؤلاء المسجونين لأنه كان متأكدا من أنه لايوجد شخص واحد سيذرف ولو دمعة واحدة على موته • ولذلك أمر بقتل هؤلاء جميعا حتى يعم الحزن والمناحة والبكاء ، وأن تذرف الدموع يوم وفاته حتى وإن لم تكن لأجله •

ولقد اضطهد أيضا الأسمونيين وأعضاء السنهدريم بطريقة بشعة ، وبلاشك أن قصة مذبحة بيت لحم تصور لنا طباع الرجل ووحشيته (مت ٢ : ١ ـــ ١٨) •

ولقد ظل هيرودس ملكا على اليهودية لمدة تزيد على الأربعين سنة (من ٣٧ ق٠م ـــ ٤ ب٠م) وللأسف الشديد ، ما أكثر الجماجم التى ضحى بها ليبنى عليها عرشه وسلطانه •

كان هيرودس مريضا بحب السلطان ، ولذلك كان لايتورع أو يتردد فى اضطهاد أو قتل من تحوم حوله الشبهات بأنه منافس له • ألم يأمر بقتل الأطفال الأبرياء فى بيت لحم عندما علم أن منافسا له فى السلطان سيخرج من وسطهم (مت ٢ : ١ ـــ ١٨) •

فى عهد هذا الرجل الذى سمى هيرودس السفاح جاء إلى عالمنا طفل

كباقى الأطفال فى الظاهر ، ولد فى بيت لحم على مقربة من أورشليم ، وعندما ولد كانت اليهودية ، بل العالم كله يعيش فى جو مظلم نتيجة لحب السيطرة والقوة ومحبة الذات والعنف والظلم الاجتماعى . جاء هذا الطفل إلى عالمنا لكى يعطيه سلاما حقيقيا ، ولذلك فقد رنمت الملائكة قائلة : « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » (لو ٢ : ١٤) . مات هيرودس فى سنة ٤ ب.م. تاركا خلفه مملكة واسعة ولكنها ضعيفة إقتصاديا . وهذا الضعف الاقتصادى مع أسباب أخرى كثيرة ـــ ساهم فى اشعال الثورات والاضطرابات الشعبية التى سنراها فيما بعد . فقد استطاع هيرودس فى حياته أن يسيطر على المملكة تارة بدبلوماسيته وسياسته الماهرة ، وتارة بقسوته وعنفه كما استطاع أيضا أن يحتفظ بثقة روما مدة طويلة ، إلا أن الشعب لم يكن راضيا عن سياسته خاضعا لها ؛ فبعد موته انفجرت البراكين التى استطاع فى حياته أن يسكتها ويخرسها ، واندلعت الثورات فى أماكن كثيرة متعددة ، وقامت أحزاب وطوائف معتدلة ومتعصبة انتهى بها الأمر إلى خراب أورشليم ودمارها فى سنة ٧٠ ب.م .

وعند موته قسم الامبراطور أغسطس المملكة بنـاء على وصية هيرودس ، على أبنائه الثلاثة . فمنح أرخيلاوس (ARCHELAUS) اليهودية والسامرة مع لقب حاكم فقط وليس لقب ملك ، إلا أن الشعب كان يدعوه ملكا (متى ٢ : ٢٢) . ثم أعطى الجزء الثانى من المملكة وهو « الجليل » لهيرودس أنتيباس مع لقب رئيس ربع ، ولكن عندما حامت حوله الشبهات فى إخلاصه لروما نفى إلى ليون فى سنة ٣٩ ب.م. أما الجزء الثالث من المملكة « تراخونيتس » والذى كان تابعا لسوريا فقد منح لابن هيرودس الثالث وهـو فيليبس بن كليوباترة . وهكذا انقسمت المملكة سياسيا ودينيا . والذى يهمنا فى هذا الأمر إلى جانب الناحية التاريخية التى تساعدنا كثيرا على فهم المكتوب ، ظهور الأحزاب

الدينية التي ظهرت فى هذا الوقت ولعبت دورا هاما جدا فى تاريخ هـذه الأمة .ومما ساعد على ظهور هذه الأحزاب الدينية هو أن الكثيرين من الشعب اليهودي قد تركوا فى ذلك الوقت التمسك بالناموس والمكتوب ، واندمج الكثيرون منهم فى الأمم واشتركوا معهم فى عاداتهم وتقاليدهم . حتى قادة الدين أنفسهم وخاصة طبقة الكهنوت تواطأت بطريقة مكشوفة وبلا حياء مع الرومان واليونان . ولهذا السبب عينه واصلت جماعة الفريسيين المناداة بالعودة إلى الناموس والتمسك به والعمل بموجبه.

وبجانب هذا الحزب القديم نجد أيضا جماعة الأسينيين الذيـن انفصلوا هم أيضا عن العائلة المالكة ، وكانوا ينتظرون « سيد البر » . ولقد مرت بنا فيما سبق قصة هذين الحزبين ، وسنرى فى الفصول الآتية الدور الهام الذى ستقوم به هذه الأحزاب الدينية السياسية وعقيدتهم فى المسيا : يسوع الناصرى . ولكن قبل أن نبدأ دراسة هذه الأحزاب التى ظهرت قبل مجىء المسيا والتى واصلت نشاطها فى أثناء حياته على الأرض ، وبعد موته وقيامته ، يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ رجل لعب دورا هاما جدا من الناحية التاريخية فى هذه الحقبة ، وهو المؤرخ المشهور يوسيفوس فلافيوس .

يعتبر يوسيفوس فلافيوس أعظم من أرخ للأمة اليهودية ، وترجع أهمية ما كتبه يوسيفوس فى التاريخ اليهودى الى أنه كان معاصراً وشاهد عيان لبعض الأحداث التى سجلها وخاصة ما يرويه عن ثورة اليهود التى اندلعت فى سنة ٦٦ ق.م .

ولد يوسيفوس فى سنة ٣٧ ب.م. فى عائلة يهودية من الأرستقراطية الكهنوتية . كان أبوه متى (MATTHAIS) كاهنا يخدم فى الفرقة الرابعة والعشرين (١ أخ ٢٤ : ١٠ ، لو ١ : ٥) أما

أمه فكانت تنتسب إلى العائلة الميكابية الملكية • وبهذين النسبين الكهنوتي والملوكي كان يوسيفوس من الطبقة الحاكمة والقريبة من روما • ألهذا السبب انتقد يوسيفوس ثورة اليهود ضد روما ؟ ولقد كان هو نفسه كاهنا ويقال إنه قضى ثلاث سنوات مع جماعة قمران ، فهو يعرف تقاليدهم وعاداتهم وتعاليمهم ، كان يوسيفوس دارسا متعمقا وسياسيا محنكا • فانخرط فى سلك السياسة ولمع فى مجالها ، ولذلك أرسله السنهدريم فى سنة ٦٤ ب•م• إلى روما لكى يدافع عن الكهنة الذين سجنهم فيلكس ، وفى طريقه إلى روما تعرف على ممثلة شهيرة قدمته إلى الأوساط الرومانية فى البلاط الامبراطورى • ولقد استطاع يوسيفوس أن يستحوذ على إعجاب الكثيرين من الذين تقابل معهم فى بلاط الامبراطورية الرومانية ، ونجح نجاحا عظيما فى دفاعه عن القضية التى بعث من أجلها إلى روما بفضل مساعدة بوبية (POPPEE) زوجة نيرون ، لقد أغدقت عليه الهدايا المادية والأدبية فى روما •

عندما رجع يوسفوس من روما وجد بلاده فى اضطراب عظيم عندما حاول تنظيم ثورى تحرير البلاد من المستعمر • ويرى كثيرون من المؤرخين فى يوسيفوس شخصا خائنا لبلاده لتواطئه وتعاونه مع العدو الأجنبى ، وفى حقيقة الأمر كان يوسيفوس يريد فى بداية الأمر تحرير البلاد ، ولكن بطريقة أخرى غير الطريقة التى كانت تتبعها الأحزاب المتعصبة فى ذلك الوقت ــ فقد انضم هو نفسه إلى قوات المقاومة والتحرير وأصبح جنرالا فى جيش التحرير(١) ولكنه غير هذه السياسة عندما هجمت القوات الرومانية على مدينة جوتابات (GOTAPATE) التى كان يقوم فيها هو نفسه بتنظيم حركة المقاومة ضد فاسبازيان (VESPASIEN) الرومانى فى سنة٦٧ب•م• فعند سقوط هذه المدينة فى

(1) Daniel M. Rhoads Israelin Revolution 6 - 74 C.E.A. Political History Bases.

Writting of Josephus Fortress Press. Philadelphia 4 - 5.

أيدى الرومان دمروها تدميرا كاملا ولم ينج من المذبحة إلا عدد قليل جدا • وكان هو من ضمن الذين أفلتوا من قبضة الموت فى هذه المذبحة المريعة •• إلا أن الجنود الرومان قرروا قتل كل الذين نجوا من هذه المذبحة وكان لابد أن يلاقى يوسيفوس نفس المصير •ولكنه عندما جاء دوره طلب أن يقابل القائد العام الرومانى لأمر سرى جدا خاص بالامبراطورية ، فقدموه للقائد العام فسبازيان وعندما رأى يوسيفوس القائد العام الرومانى تنبأ له بأنه سيكون الامبراطور الرومانى فى وقت قريب ــ الأمر الذى كان يحلم به دائما هذا القائد الرومانى وكان جواب فسبازيان ليوسيفوس : ستظل سجينا إلى أن نتحقق من صحة أو كذب هذه النبوة • وهكذا استطاع يوسيفوس أن ينجو من مخالب الموت • ومنذ هذا الوقت أصبح عميلا للرومان ومتعاونا معهم ، فقد تعاون معهم فى الترجمة ، بل أصبح المرشد والناصح للحكام الرومان فيما يختص بالأمور اليهودية مصاحبا للقائد العام ،ولذلك كان فى صحبة تيطس بن الامبراطور فسبازيان فى أثناء حصار أورشليم (سنة ٧٠) ، وبعد سقوطها رجع معه إلى روما ليتخذ منها وطنا ثانيا ، وهناك أضاف إلى اسمه اسم فلافيوس ، ومات يوسيفوس فلافيوس ، ذلك المؤرخ اليهودى العظيم ، فى نهاية القرن الأول وأقيم له تمثال فى روما اعترافا بخدماته لها •

كتاباته :

ويحتفظ لنا التاريخ بعدة كتب من كتبه ومنها :

١ ــ « تاريخ اليهود القديم » (JEWISH ANTIQUITIES) وأنهى كتابته سنة ٩٣ ب•م• ويحتوى على عشرين مجلدا وفيه بعض تاريخ اليهود من أول الخليقة إلى سنة ٦٦ ب•م •

٢ ــ « حرب اليهود » وقد كتبه بالآرامية وترجمه هو نفسه إلى

اليونانية ، ويحتوى على سبعة كتب ، وأنهى كتابته فى سنة ٧٨ ب٠م٠ ويتناول فى هذه الكتب حروب اليهود ونضالهم للحصول على الاستقلال من أول سنة ٦٦ ب٠م٠

٣ ــ «تاريخ حياة يوسيفوس» عندما كان جنرالا فى الجليل وقد أضاف هذا الكتاب كتذييل لكتاب تاريخ اليهود القديم ٠ ثم نسب إليه خطأ كتـــاب الميكابيين الرابع ٠

الفصل الرابع

الحركات الثورية الشمالية

بعد موت هيرودس الكبير فى سنة ٤ ب.م. حدثت عدة اشتباكات مسلحة بين القوات الرومانية وبين بعض اليهود ، وخاصة اليهود الحجاج الذين جاءوا لزيارة أورشليم ، إلا أن هذه الاشتباكات المسلحة لم تقتصر على العاصمة فقط بل امتدت إلى أماكن كثيرة أخرى فى البلاد ، ولم تستطع القوات الرومانية أن تسكت الأصوات الصارخة التى كانت تطالب بالحرية، إلا مؤقتا،إذ أن الثورة بدأت من جديد وعلى نطاق واسع عندما صدر أمر بالاكتتاب فى أيام حكم كيرنيوس والى سوريا، (١) وكان الهدف من هذا الاكتتاب أو الاحصاء هو معرفة الامكانات المالية للمنطقة حتى يمكن فرض ضريبة مناسبة عليها .

وعندما علم بأمر هذا القرار الخاص بالاكتتاب الذى أصدره الامبراطور أغسطس إلى الحاكم سولبيكوس كيرنيوس حاكم سوريا ، نصح رئيس الكهنة — فى ذلك الوقت وهو جوزار (Joasar)

---

(١) يجب التفريق بين هذا الاكتتاب الذى حدث سنة ٧ ب.م. تقريبا وبين الاكتتاب الذى حدث أيضا على يد كيرنيوس قبل أن يكون حاكما سنة ٦ أو ٧ ق.م فى أثناء حكم هيرودس الذى فى أيامه ولد المسيح .

الشعب بالخضوع لهذا الأمر تنفيذا لمطالب روما ، ولكن على العكس من رئيس الكهنة جوزار . ثار على هذا القرار الامبراطورى معلم يهودى يدعى يهوذا الجليلى . ولقد ساعده على القيام بالثورة وسانده فيها بكل ما أوتى من قوة وعلم الفريسى صادوق . فعندما طرق خبر الاكتتاب هذا مسامع يهوذا الجليلى ثار ثورة عارمة وبدأ يخطب فى الناس حاثا إياهم على الثورة العامة فى كل البلاد والتمرد والخروج على السلطات الرومانية ومحاربتها أينما وجدت وبكل الوسائل . والذى دفع يهوذا الجليلى إلى القيام بهذه الثورة ضد روما فى سنة ٦ ب.م. هو اعتقاده بأن دفع الضريبة لدولة أممية وقبول سلطانها والخضوع لها يعد كسرا للناموس وخطية وبالتالى رفضا لسلطان يهوه ، ولذلك طلب من كل اليهود بصفة عامة ومن أتباعه بصفة خاصة عدم دفع الضرائب ، بل القيام بالثورة ضد القوات الرومانية الموجودة فى البلاد . وعلى أثر هذا ، إلتف حول يهوذا الجليلى عدد كبير لابأس به من اليهود . وقد ذكر سفر الأعمال فى كلمات قليلة جدا هذه الثورة التى قام بها يهوذا الجليلى : « لأنه قبل هذه الأيام قام ثوداس قائلا عن نفسه إنه شىء ، الذى التصق به عدد كبير من الرجال نحو أربعمائة ، الذى قتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لاشىء . بعد هذه الأيام قام يهوذا الجليلى فى أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبا غفيرا فذاك أيضا هلك وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا » (أ ع ٥ : ٣٦ و ٣٧) .

إن يهوذا الجليلى قام بثورته هذه فى سنة ٦ أو ٧ ب.م. ومنذ هذا التاريخ ظهرت حركة (أو حزب أو طائفة) دينية سياسية جديدة تهدف إلى تحرير البلاد من الاستعمار وحكمها بحسب التوراة بطريقة متعصبة ، وقد أراد أتباع هذا الحزب أن يجعلوا من الناموس الموسوى دستوراً لأحكامهم وقضاياهم وسلطانهم على البلاد . فالله هو الإله الواحد لا إله غيره ، والبلاد يجب أن تحكم بحسب «كتابه» (الناموس)

ويجب معاقبة وطرد من يخالف هذا الأمر ، وهكذا ظهرت بظهور هذه الحركة السياسية الدينية طائفة جديدة أو مذهب دينى سياسى جديد يضاف إلى المذاهب السابقة والتى كانت معروفة (مذاهب) الفريسيين والأسينيين والصدوقيين) ولقد كتب يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودى الشهير الكثير عن هذه الجماعة ، فقد قال عن مؤسس هذا الحزب : «... إن يهوذا الذى يدعى الجليلى قد بث فى نفوس اليهود روح الثورة وعدم دفع الجزية للرومان لأنه بدفعهم الجزية للرومان يساوون الانسان بالله. وبذلك أسس يهوذا طائفة جديدة تختلف عن المذاهب الثلاثة الأخرى (الفريسيين ، الصدوقيين والاسينيين) » (حرب اليهود ٢:١١٨). ثم كتب مؤخرا عن نفس الجماعة فقال : إن يهوذا الذى تكلمنا عنه سابقا كان هو المؤسس للطائفة الرابعة . وهذه الطائفة تتفق فى كل شىء مع الفريسيين ...» (يوسيفوس تاريخ اليهود ١٨ : ٣ ــ ٦ ، ٢٣). وفى فصل آخر كتبه أيضا مؤخرا حاول فيه أن يبين أن يهوذا الجليلى هو الجد لحركة « السيكر » (SICAIRES) : « إن العازر حامل الخنجر (SICAIRE) أو القاتل كان هو الذى يتولى قيادة الجماعة التى هجمت على قلعة ماسادا (MASSADA) وهو من نسل يهوذا الذى حاول قديما اقناع اليهود بعدم الخضوع لأمر الاحصاء الذى قام به كيرنيوس ... والذين لم يسمعوا له ، عاملهم معاملة الأعداء فسلبت أموالهم وأخذت مواشيهم وأحرقت منازلهم ... (يوسيفوس حرب اليهود ٧ : ٢٥٣ ــ ٢٥٥) .

إن الثورة التى قام بها يهوذا الجليلى وصادوق كانت لاتهدف إلى تحرير البلاد من المستعمر الرومانى فقط بل إلى اعادة النظام الثيوقراطى (يعنى دولة الحاكم فيها هو الله) (Une Nation Theo Cratique) ولاعادة هذا النظام الثيوقراطى إلى البلاد كان من الضرورى وكخطوة أولى وأولية أن تسيطر على البلاد فى ذلك الوقت ، ولاشعال نار الثورة

فى البلادقام كل من يهوذا الجليلى وصادوق بالقاء العظات والخطب الحماسية ضد الرومان ويقول يوسيفوس : « لقد كانت لهذه الخطب التأثير العميق لدرجة أنها دفعت الجماهير إلى الثورة، إن هذين الرجلين استطاعا أن يلقيا الاضطراب والفوضى فى وسط الشعب بطريقة غير معقولة » (يوسيفوس حرب اليهود ١١ : ١١٨) •

ومما لاشك فيه أن روما كان لايمكنها أن تقف مكتوفة الأيدى أمام هذه الثورة التى كانت تريد طردها من البلاد والاستيلاء على السلطان والحكم ، ولذلك فقد ضربت الجيوش الرومانية هذه الحركة الجديدة ضربات قاسية بل قاضية فى بعض الأحيان ، إذ هجمت على التجمعات الشعبية اليهودية والصدوقية فشتتتها وقضت على الزعيمين قضاء شنيعاء وهكذا انتهى أمر يهوذا الجليلى وصادوق كما يذكره سفر الأعمال : «بعد هذا قام يهوذا الجليلى فى أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبا غفيرا فذاك أيضا هلك ، وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا » (أع ٥ : ٣٧) •

والسؤال الذى نسأله الآن : ماذا حدث لهذا الحزب الجديد بعد موت قائده يهوذا الجليلى ؟ إن كتاب الأعمال يقول : « وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا •••» إن السلطات الرومانية قضت على المتمردين بطريقة وحشية قاسية ولكنها لم تستطع أن تقضى عليهم قضاء نهائياء ولذلك فقد تشتت أفراد هذا الحزب الجديد ى البلاد ، وخاصة فى الجليل مسقط رأس يهوذا الجليلى ، وكان هذا الحزب يقوم بأنشطة سياسية وبعمليات هجومية ضد الرومان وضد أتباعهم ولكن بطريقة سرية جداء وبهذا استطاع الحزب الجديد أن يواصل نشاطه بهذه الطريقة الخفية إلى ان جاء اليوم الذى أمكنه فيه من جديد اعلان تمرده وعصيانه وثورته على الرومان ، وعلى أعوان الرومان •

ولكن ما هو هذا الحزب الجديد؟إن المصادر التى تكلمنا عن هذاالحزب الجديد قليلة جدا ، فالمصدر الأول الذى ذكر كثيرا عن هذا الحزب هو مصدر متحيز وهو المؤرخ اليهودى يوسيفوس فلافيوس ،كما أن الكاتب المسيحى هيبوليتوس ذكره أيضا فى كتاباته ، كذلك بلينوس الشيخ . ولكن بالرغم من أن يوسيفوس مصدر متحيز إلا أنه يعطى لنا تفصيلات كثيرة ومطولة عن هذه الجماعة التى سماها باسم « حملـة الخناجر » (SICHIRES or SICAIRE) والكلمة المستعملة هنا كلمة لاتينيـة تعنى حامل الخنجر أو السكين ، فان هذا الحزب قد تبنى كوسيلة من الوسائل التى استعملها لتحرير البلاد ــ العنف والهجوم والقتل ،فهذا الاسم «سيكر» يعنى الشخص الذى يحمل سكينا أو خنجراً ويستعمله بطريقة خاطفة وسريعة . والسؤال الذى يجب طرحه الآن هو : « هل هذا الحزب «سيكر» هو حزب يختلف عن حزب الغيورين أم هو نفس الحزب ؟ ..... »

إن الرأى السائد حاليا والذى يؤيـده كل من هنجل وبرانـدون (M. HENGEL, S.G.F. BRANDON) هـو أن حركـة المقاومـة كانت حركة مستمرة ، وتدعى حركة الغيورين وعندما يذكر يوسيفوس هذه الحركةيسميها جماعة اللصوص أو(حملة الخناجر (SICAIRES) وكان المثل الأعلى لحركة الغيورين فينجاس بن العازار (عد ٢٥:٦ــ١٥). كذلك ماتاتياس اللذين غـارا غيرة الرب (١ ميكا ١ و ٢) . ويعتقـد كل من هنجل وبراندون أنه بالرغم من أن أصل الحركة الغيورية يرجع إلى فينجاس وماتاتياس الميكابى ، ولكنها لم تبدأ على نطاق واسـع ومنظم إلا فى سنة ٦ ب.م. عندما قام يهوذا الجليلى بثورته ضـد الرومان . والأغلبية الساحقة التى تؤيد هذه النظرية تعترف بأن كتابات يوسيفوس فلافيوس والكتابات الأخرى لاتحتوى إلا على القليل جدا من المصادر التى تكلمنا عن نشاط الغيورين من سنـة ٦ ــ ٦٦ . فإن

يوسيفوس يعطى فى معظم الأحيان لهذه الحركة اسم لصوص «حاملى الخناجر » ففى هذه الفترة أى من سنة ٦ ـــ ٦٦ لم تظهر كثيرا كلمــة «غيور» فى كتابات يوسيفوس ، وعلى الرغــم من ذلك فان يوسيفوس نفسه يذكر حادثة صلب اثنين من اتباع يهوذا الجليلى على يد الحاكم طيباريوس ألكسندر (فى سنة ٤٦ ـــ ٤٨) •• كما يذكر لنا أيضا حادثة أخرى فى بداية حرب سنة ٦٦ وهى حادثة ابن أخ ايهودا يدعى مناحيم (MENAHEM) الذى استولى على قلعــة ماسادا (MASSADA) بعد أن قتل جيوش كثيــة رومانيــة وسلــح رجالــه بسلاحهــم • ثم اتجه إلى أورشليم على رأس هذه الجماعة مدعيا بأنه المسيا • على أن الكهنة الذين قاموا بالثــورة هجموا على مناحيم (١) وقتــلوه مع عدد كبير من أتباعه وبعد اغتيال هذا الزعيم الذى كان يدعى بأنه المسيا ظهرت الانقسامات فى حركة الغيورين ، وهنـــا يظهر شخص آخر من نفس عائلة يهوذا الجليلى يدعى ألعازر بن يائير الذى كان يرأس جماعة من الغيورين فى قلعة ماسادا • ولقد ظلت هذه الحركة الغيورية وشبه الغيورية تقوم بأنشطــة مختلفة وعمليــات حربيــة تخريبيــة تحت قيادات مختلفة متنوعة إلى سنة ٧٠ عندمـــا سقطت أورشليم بعــد أن أحرقت أبوابها وهدمت أسوارها وقتل وسبى سكانها • أما الذين لجأوا إلى قلعة ماسادا فقد اختبأوا فيها ودافعــوا عنها ببسالة عظيمة حتى سقطت فى سنة ٧٣ أو ٧٤ عندما أدركوا بأنه لا أمل فى الانتصار ففضلوا الانتحار الجماعى مع عائلاتهم وأطفالهم على التسليم ليد العدو (١) •

إن نظرية هنجل وبراندون تحاول اثبات أن حــزب الغيورين هو الحزب الذى ، وإن كان يرجع فى الأصل إلى فينحاس والمكابيين ، إلا أنه ظهر فعلا بطريقة عملية وعلى نطاق واسع فى سنة ٦ ب•م• أى عندما

(١) فى نهاية هذا الفصل سنعطى قائمة بالكتب التى اقتبسناها هنـــا ، وكتب اخرى تساعد الدارس على التوسع فى هذا الموضوع •

ظهر يهوذا الجليلي . وبالرغم من أن يوسيفوس لا يتكلم عن الغيورين بطريقة واضحة إلا بعد سنة ٦٦ ، فإن الحوادث التي يذكرها من سنة ٤٦ ــ ٦٦ لا يمكن نسبتها إلا إلى الغيورين .

ولدحض نظرية هنجل وبراندون هذه قامت جماعة أخرى تعترف أيضاً بأن يوسيفوس مؤرخ متحيز ولكنها تفسر كتاباته بطريقة تختلف عن هذين الكاتبين ، فهي تعتقد في وجود بعض الأسباب التي من أجلها لم يستعمل يوسيفوس كلمة غيور إلا مؤخراً ، ومن هذه الأسباب ، أن الفلاحين لعبوا دوراً هاماً في هذه الثورات ، لأن الحلم بدولة ثيوقراطية والغيرة على نقاوة الهيكل حدتا بالفلاحين إلى القيام بعدة ثورات في أماكن مختلفة وفي فترات متباعدة . ولقد ظهر في أثناء هذه الثورات بعض الأشخاص الذين كانوا يدعون القيام بعمل المعجزات المسيانية . فهذه الاضطرابات والثورات التي قام بها الفلاحون أدت في نهاية الأمر إلى ظهور كل من جماعة السيكر والغيورين . ومؤيدو هذه النظرية يعتقدون بأن الذين لجأوا إلى قلعة ماسادا بعد ظهور مناحيم كمسيا واغتياله هم جماعة « السيكر » (SICAIRES حاملى الخناجر) وليسوا من الغيورين لأن هذه القلعة كانت ملجأ لجماعة حاملى الخناجر وليس لجماعة الغيورين ، إذ أن حزب الغيورين لم يظهر إلا بعد حزب السيكر (سنة ٦٦) ويحتمل أن هذا الحزب (الغيورين) قد خرج من جماعة الأسينيين أو على الأقل كان على صلة وثيقة بهم.وهذا واضح من اتفاقهما في بعض المبادئ : فإن الغيورين كانوا يحاربون بعنف لتطهير الهيكل والوصول به إلى درجة النقاوة الكهنوتية التي حلم بها حزقيال (٤٠ ــ ٤٨) . ولهذا السبب عينه فقد عينوا كاهنا ريفيا من نسل صادوق ، وكانوا يتبعون في اختيار رئيس الكهنة العادة القديمة وهي القاء القرعة . والغيورون لايتفقون أيضاً وسياسة مناحيم وادعاءاته المسيانية . «ومورتن سميث» (MORTON SMITH) يظن أن حزب

الغيورين لم يظهر كحزب على مسرح النضال إلا فى شتاء سنة ٦٧ــ٦٨ أى بعد اغتيال مناحيم بسنة ، وكان معظم أعضاء هـذا الحـزب من الفلاحين الأتقياء وليس من كهنة الدرجة الثانية (١) كما يظن بومباخ • (BAUMBACH) وكان هذا الحزب يبغض أغنياء المدينة وكهنة الدرجة السامية ، كذلك كان يكن بغضة شديدة للرومان المستعمرين •

من هذه اللمحة التاريخية يمكننا أن نرى أنه توجد عدة نظريـات بخصوص ظهور الغيورين ، يمكن أن نلخصها فى نظريتين : ١ ــ لقـد ظهر حزب الغيورين بظهور المعلم يهوذا الجليلى فى سنة ٦ أو ٧ ب•م• ٢ ــ إن حزب الغيورين لم يظهر إلا بعد سنة ٦٦ ب•م• والذين يتمسكون بهذه النظرية الأخيرة يستشهدون بصمت المؤرخ اليهـودى يوسيفوس فلافيوس عن الكلام عن هذا الحزب •

على أننا نعتقد بأن جماعة الغيورين قد ولدت فى التاريخ اليهودى بعد المبادرة التى قام بها فينحاس بن ألعازار (عدد ٢٥: ٦ ــ ١٥) وبدأت تنتشر الحـركة الغيورية فى أيام حـكم أنتيخوس أبيفـان الرابـع بطريقة فردية أو جماعية ، قوية وفعالة فى بعـض الأحيان ، وضعيفـة وهزيلـة فى أحيان أخرى • هـكذا ظلت هـذه الحركة قائمة تظهـر

(١) إن الكهنة وعلى رأسهم رئيس الكهنة كانوا يشكلون جماعة الكهنـة الارستقراطية وهذه الجماعة كانت قريبة من الطبقات الارستقراطية الغنية ، ولهذا السبب تواطأت مع الطبقة الغنية ذات المصالح ومع المستعمر الرومانى ، ومع أن هاتين الطبقتين لم ترحبا بالاستعمار الرومانى الا أنها تعاونتا وتبادلتاه حارسا على مصالحها وأملاكها •
على أن جماعة من الكهنة لم تقبل هذا الخداع الاجتماعى ورفضت التعاون كليا وجزئيا مع الرومان ومع رئيس الكهنة وكان معظـم هؤلاء الكهنة من الطبقات الفقيرة فانضمـوا الى حـزب الغوريـن وناضلوا جنبا إلى جنب معهم •

تارة وتختفى تارة أخرى ، إلى أن جاء يهوذا الجليلى وقام بثورته ضد الرومان وضد الارستقراطية الكهنوتية ، ومنذ هذا التاريخ أصبحت هذه الحركة منظمة دينية سياسية • ومع أن هجوم الرومان على هذه الجماعة وقتلهم لقائديها يهوذا الجليلى وصادوق الفريسى وتشتيتهم لأفرادها فى سنة ٦ أو سنة ٧ ب•م• كان ضربة قاسية مريعة لحياة هذه المنظمة ، فقد ظل الغيورون بالرغم من هذه الضربة متمسكين بغيرتهم الدينية والسياسية ، والعمل على تنفيذ أغراضهم والوصول إلى أهدافهم التى وضعوها نصب أعينهم • فإن الذين أفلتوا (كما سبق القول) من أيدى الرومان الذين هجموا على يهوذا وصادوق ، تشتتوا فى البلاد خصوصا فى الجليل مسقط رأس يهوذا الجليلى وكونوا نواة للمقاومة ، وكانت هذه النواة تعمل بطريقة خفية وسرية جدا حتى لاتراها أعين الرومان أو أعوان الرومان ، ولهذا السبب ظن البعض أن هجوم الرومان على يهوذا وأتباعه كانت وثبة قاضية ونهائية ، ولكن حقيقة الأمر هى غير ذلك فإن هذه النواة ظلت تنمو بطريقة خفية إلى أن استردت قوتها وحيويتها وعندئذ استأنفت مرة أخرى نشاطها السياسى والدينى بطريقة فعلية وعملية •

ومن حركة الغيورين هذه خرجت عدة حركات أو أحزاب دينية وسياسية يعوزنا الوقت لو تعرضنا لذكرها وتحليل أهداف كل منها بطريقة مطولة ، ولذلك نكتفى هنا بذكر بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

١ — الحزب الذى يمكننا أن نسميه الحزب الشمالى المعتدل : وهذا الحزب يؤمن بأن البلاد فى حاجة ماسة وشديدة إلى الاصلاح والتغيير السريع الكلى والجزئى • وهذا التغيير يشمل العبادة فى الهيكل والكهنوت والحياة العملية وطرد المستعمر •

٢ ــ أما الحزب الثانى فيمكننا أن نسميه الحزب الشمالي : وهــو يؤمن بنفس المبادىء وينادي بها ولكنه لايقف عند هذا الحد ، ولكي يصل إلى الأهداف لابد من استعمال القوة ضد الأجنبى فقط ثم الاعتماد على السلاح للتعاون مع يهوه لتحرير البلاد .

٣ ــ أما الحزب الثالث والذى يمكننا أن نسميه الحزب الشمالى المتطرف جدا ، فهو حزب « السيكر » (SICAIRES) . وهو يهــدف إلى تطهير الهيكل وتحرير البــلاد من المستعمــر ثــم تأسيس دولــة ثيوقراطية . ولكى يصل هذا الحزب إلى هــذه الأهداف التى قبلتهــا كل الأحزاب المتطرفة والمعتدلة ، فقد استعمــل كل الوسائل الممكنــة والغير الممكنة للحصول على هذا الاستقلال وتأسيس الدولة الثيوقراطية (أى الدولة التى يحكمها ويديرها الله) .

ولقد سمى هذا الحزب « بالسيكر » (SICAIRE) نسبة إلى السكاكين أو الخناجر التى كانوا يستعملونها فى هجومهم على الرومان ، وكانت ضحاياهم من الرومان ومن اليهود المتعاونــين مــع الرومــان (أى المستعمرين وأعوان المستعمرين) ، واتبعوا نفس السياسة التى اتبعها من قبلهم يهوذا الميكابى، وهى الهجوم وقتل المستعمر والمتواطىء معه . ولقد اتخذوا من الجبال والمغاير مساكنا وملاجئا لهم وللهروب والاختفاء بعيدا عن السلطة الرومانية ، كما أنهم اتخذوا من الاحتفالات الدينية والوطنية والتجمعات الشعبية بصفة عامــة ميدانا لنشاطهــم العملى . وبما أن اسمهم (SICAIRES) أى الذين يحملون الخناجــر ويستعملونها بسرعة وبطريقة مفاجئة فقد كانوا يندسون وسط الجماهير ويهجمون بطريقة سريعة ومفاجئة على ضحيتهم المعينة ، وبعد قتلهــا كان يصرخ القــاتل قائلا : « النجــدة » لكى لا تتــجه إليه أنظــار

الجمهور (١) • واعتقد الغيورون بأن الله هو السيد المتسلط على الكون وله وحده يجب السجود والعبادة والطاعة ، فالطاعة لأى سلطة أخرى مهما كانت مكانتها وعظمتها لا تتفق ووصية الله ، والخضوع لأى ناموس أو قانون آخر غير ناموس وقانون يهوه يعتبر مخالفا وكسرا لوصيته واهانة لشخصه • ولذلك اعتبروا أن وجود روما والنسر الرومانى فى هذه البلاد اهانة ليهوه ، خصوصا الضريبة التى فرضتها الرومان والتى كان يجب أن تدفع للهيكل لا للأمم الغلف • وكانوا يعتقدون أيضا بأن إله اسرائيل الذى أخرجهم من مصر وسار معهم عبر التاريخ وخلص آبائهم من الظلم والاضطهاد سيخلصهم هم أيضا من ظلم الرومان وسيطرتهم القاسية ، على شرط أن يستعملوا هم أيضا كل الوسائل التى يملكونها من قتل وغدر وسفك دماء للوصول إلى هذا الغرض وهو التخلص من المستعمر وأعوانه ، وكانوا على استعداد أن يضحوا بأموالهم وحياتهم وحياة ذويهم ليحققوا حلم الاستقلال وحرية العبادة وسلطان الله المطلق ، أى الثيوقراطية (THEOCRATIE) • وكانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن الله الذى تدخل بطريقة معجزية مع شعبه وخلصهم من يد الأعداء سيتدخل أيضا بطريقة إلهية وسيخلصهم من يد الرومان مهما كانت قوتهم وعظمتهم لأن يهوه أقوى من كل الأقوياء وأعظم من كل العظماء ، على أن يواصلوا جهادهم وحروبهم ونضالهم المسلح •

ويقدم لنا يوسيفوس جماعة الغيورين كعصابة لصوص (شلة حرامية) متعصبة دينيا وسياسيا تشيع فى البلاد الاضطراب وترتكب الجرائم التى تقشعر منها الأبدان ، كالسرقة والتخريب والقتل • وهو يحمل هذه الجماعة مسئولية رد الفعل الذى قام به الرومان ضد جرائمهم ، فهم المسئولون ليس فقط عما حدث من ثورات على يد يهوذا

(١) يوسيفوس « حرب اليهود » ٢ : ٢٥٤ — ٢٥٦ •

الجليلى وأتباعه بل ما حدث أيضا من سرقة وتخريب وقتل منذ قيام « هذه العصابة » خصوصا ما حدث فى ثورة ٦٦ ب٠م٠ وأدى إلى خراب أورشليم ، فهو يلقى مسئولية ثورة سنة ٦٦ ب٠م٠ وخراب أورشليم على الغيورين الذين استفزوا الرومان بتصرفاتهم المتطرفة وجرائمهم الكثيرة (١) ٠

ومع أن حركة الغيورين قد لزمت الصمت بعد موت يهوذا مؤسسها ، إلا أنها ظهرت من جديد واضعة أمامها نفس الأهداف التى كان يسعى يهوذا الجليلى وصادوق للوصول إليها كما أشرنا إلى ذلك سابقا ٠ والجدير بالذكر أنه يبدو أن أتباع يهوذا الجليلى قد بايعوه وعائلته لقيادة هذا الحزب كما حدث فى تاريخ يهوذا الميكابى وعائلته ، ولذلك نرى أعضاء هذه العائلة فى مقدمة المحاربين والمصارعين والمضحين بحياتهم ٠ ويوسيفوس فلافيوس يشهد بأن الحاكم ألكسندر طيباريوس (٤٦ ـــ ٤٨ ب٠م) غد حكم بصلب اثنين من أولاد يهوذا الجليلى(٢) ٠

فمن الواضح إذاً، أن هذه العائلة قد لعبت دورا كبيرا وهاما جدا فى حزب الغيورين لدرجة أن الجليل مسقط رأس يهوذا أصبح ملجأ للغيورين ٠ وإنجيل لوقا يذكر لنا قصة هؤلاء الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم ، « وكان حاضرا فى ذلك الوقت قوم يخبرونه عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم ٠٠» (لو ١٣ : ١ ـــ ٢) ٠

ومن المحتمل أن جماعة من الغيورين أو من المؤيدين لهم قد

(1) Joseph flavius. antiquite. 18 - 1.6.

S. G. Brandon. gesus et les zelotes. flammarion idees et recherches.

Traduit de l'anglais par georges et beatrice formentelli.

(٢) راجع كتاب (Brandon) ص ٧١ ـــ ٧٤

جاءت إلى أورشليم لتقديم ذبائح كعادة اليهـود وعندما رأت هـذه الجماعة الأوضاع القائمة هناك والقوات الرومانية بالقرب من الهيكل ثم النسر الرومانى لم تستطع أن تحتمل إهانة كهـذه فثارت وسببت هيجانا مما اضطـر بيلاطس إلى أن يرسل قـوة عسكرية لتقضى على هؤلاء الثوار ، وعندما وصلت القوة العسكريـة إلى الهيكل لم تترك الثوار إلا جثثا هامدة اختلطت دماؤهم بدماء الذبائـح التى كانـوا يقدمونها • ومع أن يوسيفوس لايذكر شيئا عن هذه الحادثة إلا أنـه يعرفنا بأن الجليل كان فى ذلك الوقت فى حالة هيجان وثورة •

وهكذا واصلت هذه الحركة القتال والصراع المستمر ضد القوات الرومانية وضد الارستقراطية الكهنوتية وضد كل مؤيد للحكومة القائمة، ولقد اتخذوا فى جهادهم هذا كمثل أعلى لهم ماتاتياس الكاهن وأولاده •

ولذلك فقد اعتبروا هـذه الحقبة من الزمن كالعصر الفضى إن لم يكن الذهبى بعد عصر داود وسليمان • ولقد حاول الغيورون والمؤيدون لهم أن يبذلوا كل غال ورخيص لكى تعيش إسرائيل هذا المجد الضائع• ولهذا السبب اشتعلت النيران واندلعت الثورات بين الرومان الذيـن كانوا يريدون حكم البلاد وضبطها والبقاء فيها مهما كلفهم الأمر ، وبين هذه الأحزاب والمؤيدين لها الذين كانوا لايقبلون أى سلطة مهما كانت إلا سلطة يهوه نفسه ولايقبلون أى اختلاط أو اندماج مع هذا الشعب الأغلف النجس ، ولايقبلون أيضا أية مساومة فى حقوق الله والوطـن فهم يطالبون بالجلاء الكامل والسريع •

ومما عجل باندلاع الثورة أو بالمعنى الأصح الثورات ضد الرومان أسباب يعوزنا الوقت إذا دخلنا فى تفصيلاتها ، فنذكر اذاً بعضها على

Josephe : Fl. Antiquité 17, 9,3 ; Vita, 171.

سبيل المثال فقط لا على سبيل الحصر : إزدياد سوء التفاهم بين اليهود والسلطات الرومانية عندما قام بيلاطس البنطي ببناء مجرى ماء لكي يمد المدينة والهيكل بمياه صالحة للشرب ، لأنه مول هذا المشـــروع من صندوق الهيكل وأخذ المال المكرس للهيكل ولخدمتـــه ودفعـــه للعمـــال وللقائمين على هذا المشروع ، فغضب اليهود لهذا الأمر حتى المعتدلـــين منهم • ثم هناك أمر آخر وسع الفجوة بين الفريقين : إن بعض الحكام الرومان جرحوا أحاسيس ومشاعر اليهود الدينية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ظهور عدد لابأس به من اليهود يدعى كل منهم بأنه المسيا المنتظر ومنهم ثيوداس الذى قتل بأمر الحاكم فادوس (٤٤ ـــ ٤٦ب•م) ولا ننسى قسوة فيلكس الوالى ومعاملته الوحشية للوطنيين الثوار • ثم هناك أيضا مشكلة النزاع الذى قام بين يهود قيصرية والأمم بخصوص بعض الامتيازات المدنية•وعندما فشل فيليكس فى البت فى الأمر ، أرسل ممثلين من الفريقين إلى روما وعندئذ منح الامبراطور هذه الامتيازات المدنية للأمميين (٥٩ ب•م) الأمر الذى زاد من حقد اليهود على السلطات الرومانية وعجل بثورة سنة ٦٦ ب•م •

هذه الأسباب مع أسباب أخرى عديدة دفعت كثيرين من اليهـــود وخاصة أحزاب الغيورين إلى الثورة والعنف ، ولذلك عندما أمر العازار بن حنان القائد العام لحرس الهيكل بأن لاتقدم فيما بعد الذبيحة اليومية التى كانت تقدم فى الهيكل لأجل رفاهية وسعادة الامبراطور الرومانى ، فقد كان هذا الأمر كشعلة نار ألقيت على بحيرة من البترول فاشتعلت نيرانها وكان اشتعالها عظيما•فعلى أثر هذا القرار اشتبكت القوات الوطنية مع القوات الرومانية ، ولقد سيطرت القوات الوطنية فى بدايـــة الأمر على الموقف بالرغم من الجحافل الرومانية والمساعدات العسكرية التى جاءت من مناطق أخرى لاخماد الثورة وسحقها، فإن القوات الرومانية نكصت على أعقابها متقهقرة منكسة الرأس (نوفمبر ٦٦) • وقد كان لهـــذا

النصر تأثير عميق فى نفسية اليهود خصوصا فى نفسية أحزاب الغيورين الذين اعتبروا أن النصر جاء من فوق ، ولابد أن الله سيتدخل لكى يحرر شعبه من الاستعمار .

أما روما فلم يكن من السهل عليها أن تقبل هزيمة مثل هذه ولذلك فقد كلف فسبازيان (VESPASIEN) بإخماد هذه الثورة ، فجاء إلى الجليل وضرب بشدة وعنف بدون رحمة . ولم يستطع الثائرون الثبات أمام قوته فسقط الكثيرون وهرب البعض الآخر خصوصا قادة الحركة الوطنية إلى أورشليم (٦٧ ب.م) لكى يواصلوا نضالهم هناك . وكان فسبازيان ينوى مطاردتهم وحصرهم فى أورشليم وفعلا أعد العدة للذهاب إلى هناك ، وبينما كان يقترب من المدينة وصل إليه خبر خلع واغتيال الامبراطور نيرون فى صيف ٦٨ ق.م .ففتح هذا الخبر أمام طموحه العريض بابا واسعا للمجد والعظمة . وفعلا أصبح فسبازيان امبراطورا على روما وترك ابنه تيطس لاخماد الثورة اليهودية . ولقد استطاع تيطس القضاء على الثورة فى كل اليهودية فى سنة ٦٩ إلا فى أورشليم وبعض الحصون الموجودة بالقرب من البحر الميت .

وفى مايو سنة ٧٠ كانت نصف مدينة أورشليم فى يد الرومان . وفى ٢٩ أغسطس سنة ٧٠ سقطت المدينة إلا أجزاء منها فى يد الرومان فحرقوا المذبح . وفى آخر سبتمبر سقطت المدينة كلها فى يد المحتل الرومانى ، فقلبوها رأسا على عقب ولم يبق منها قائم إلا جزء من الحائط الغربى بأبراجه الثلاثة .

ولقد استخدم الرومان هذا الحائط الباقى من قلعة هيرودس ثكنة بعض القوات الرومانية التى كانت تشرف على المدينة الخربة ، ومنع اليهود من الرجوع إليها واعادة بنائها . وأمر تيطس بأن تحرث

المدينة كلها بمحرات ماعدا هذه الأبراج الثلاثة ٠

وسقوط مدينة أورشليم فى يد الرومان لم يكن بالأمر السهل الهين ، فبالرغم من أن القوات الرومانية كانت تحيط بها مع القوات الاضافية التى أرسلت إليها من الأقاليم الأخرى التى كان يحتلها الرومان ، فلقد استطاعت هذه المدينة البائسة أن تظهر شجاعة نادرة النظير ومقاومة عظيمة باسلة فى أثناء حصارها ، فإن سكان أورشليم دافعوا عنها دفاعا يعجز القلم عن وصفه ، إذ أنهم بذلوا فى الدفاع عنها أرواحهم وأجسامهم بسخاء عظيم وشجاعةمدهشة، وكان يتزعم حركة الدفاع هذه الغيورون وأحزاب أخرى ولكن الغيورين لعبوا دورا هاما جدا فى المقاومة ، كما لعبوا دورا هاما أيضا قبل حصار أورشليم عندما حاولوا التخلص من أعوان الرومان بالهجوم على كثيرين من رؤساء الكهنة والأغنياء والرومان فى بيوتهم وفى المجامع وفى مجمع السنهدريم نفسه ٠ وبذلك أضعفوا بل شلوا حركة اليهود العملاء بارعابهم وتخويفهم باستعمال القوة والعنف والذبح ٠ كانت سياسة العنف والقتل والذبح موجهة ليس فقط ضد الرومان الذين يحتلون البلاد بل كانت متبعة أيضا مع اليهود العملاء والمتواطئين مع الأجانب ، ومع أن هذه السياسة سببت انقساما فى الشعب ، إلا أن المدينة بصفة عامة دافعت دفاعا عظيما حتى آخر أيام الحصار عندما استطاع جنود الرومان بعد حصار دام وقتا طويلا هلك فيه من الجوع والعطش آلاف مؤلفة من اليهود ــ دخول المدينة والاستيلاء عليها وإشعال النار فيها وفى هيكلها العظيم ، الذى كان يعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمان ٠ (١)

(١) اقرأ سقوط أورشليم بقلم ح.د كالنج تعريب د. عزت زكى (صدر عن لجنة النشر المسيحى ص.ب ٤٣ الفجالة . مصر . فمع أن الكتاب يعتبر قصة روائية إلا أن المؤلف يسرد فيه بعض الحقائق التاريخية التى لها قيمتها (ص ٢٣٥ ــ ٣٣١) ٠

وبعد أن ذاقت أورشليم الحصـار المرير والآلام التى لاتوصف سقطت مرة أخرى فى يد الأجنبى وسبى عدد كبير من سكانها (حوالى تسعين ألف) وهكذا تحققت نبوة السيد فيها عندما قال : « ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ إعلموا أنه قد اقترب خرابها • حينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال والذين فى وسطها فليفروا خارجا والذين فى الكورة فلا يدخلوها ، لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب ••» (لو ٢١ : ٢٠ ــ ٢٢ ، متى ٢٤ : ١٥ ــ ١٩) •

الفصل الخامس

المعتقدات المسيانية قبل الميلاد

لقد رأينا فى الفصول السابقة كيف أن الله فتح باب الرجاء أمام الانسان الساقط الخاطىء آدم ، ووعده بمخلص يخلصه من خطاياه ، وكما أن الحية قادت المرأة إلى الابتعاد عن الله المحب ، فمن نسل المرأة سيأتى من يخلص نسلها من الخطية ويصالح الانسان الساقط المتمرد فعن طريق المسيح المخلص تمت المصالحة بين الله وبين الانسان ، وتحرر الانسان من قيود الخطية والاستعباد . ثم رأينا كيف تنبأ الأنبياء بهذه الحقيقة الإلهية ونادوا بها وكيف أن الاجيال التالية فهمت هذه الاعلانات الإلهية الخاصة بالمسيا . وعرفنا أيضا كيف أن كثيرين من شعب إسرائيل فهموا هذه النبوات كما لو كانت أقوال مختصة بخلاص مادى وسياسى ، أى خلاص من الاستعمار والاستعباد الأجنبيين والحصول على الاستقلال الوطنى وتأسيس أمة وطنية . بهذه الروح عينها قام زربابل بقيادة القافلة الأولى للرجوع إلى أورشليم (٥٣٧ق.م) وبنفس الروح قام أيضا نحميا بترميم أسوار أورشليم المنهدمة فى سنة ٤٤٥ ق.م. كانت هذه الأهداف ، أى إقامة أمة يهودية مستقلة ، هى التى دفعت عزرا أيضا للرجوع من السبى على رأس قافلة عظيمة فى سنة ٣٩٨ ق.م ، وهذه

الأهداف عينها هى التى دفعت ماتاتياس وأولاده إلى القيام بالثورة ضد الملك أنطيخوس الرابع أبيفان ١٦٧ ق٠م٠ وهى أيضا نفس الأهداف التى أراد الوصول إليها كل من الميكابيين والأسمونيين والغيورين ٠

والغرض من كل ما ذكرناه فى الفصول السابقة هو محاولة شرح العقيدة الخاصة بالمسيا على مر العصور وكيف أن شعب الله كان ينتظر المسيا المخلص المنقذ المحرر ٠٠ الخ من الأزمة التى كانوا فيها روحيا وماديا وسياسيا ٠٠ كانت العقيدة المسيانية فى بداية الأمر باهتة وغير واضحة فى ذهن الشعب ولكن عندما كان يمر هذا الشعب بتجربة قاسية أو محنة مؤلمة تمس حريته وسيادته الوطنية كان يبحث عن مخلص ومنقذ من يد أعدائه ، فقد رأى مخلصا فى موسى وفى يشوع وفى القضاة وفى الملوك وفى الميكابيين وفى الأسمونيين وفى الغيورين ٠ وعلى مر العصور والأجيال ولكثرة المحن والتجارب التى قاساها هذا الشعب ولحاجته المستديمة والملحة لمخلص ، فإن عقيدة المسيا المخلص والمنقذ من الأعداء رسخت فى قلوب الشعب وتأصلت فى أذهانهم ٠ وبلا شك عندما أقول الشعب ، لا أريد أن أعمم لأنه فى كل عصر من هذه العصور وجدت جماعة من الناس لاتقبل الأفكار المسيانية الشعبية ، ولكنه فى كل عصر من العصور أيضا وجدت جماعات كثيرة ومتنوعة كانت تنتظر المسيا بحسب مفاهيمهم المختلفة المتنوعة ٠ ولقد حاولت كل جماعة من هذه الجماعات التى كانت تنتظر المسيا وتؤمن بمجيئه أن ترسم صورة لمسياها ، فقد رآه البعض كالمخلص لشعبه إسرائيل محطما بقوته سلطان الأعداء ومعطيا النصرة لشعبه ، ورآه البعض الآخر كسيد للبر ، ثم رآه آخرون كالمطهر والمخلص أى الذى يطهر ليس الأمم فحسب بل شعبه أيضا من خطاياهم ومن اختلاطهم بالشعوب الأخرى ٠

هذه العقائد وعقائد أخرى كثيرة كانت منتشرة وسائدة فى العصور

التى سبقت مجىء المسيح وفى أيامه أيضا • كما سبق القول فإن العقائد المسيانية كانت فى بداية الأمر باهتة وغير واضحـة فى أذهان الشعب ، ولكنها تأصلت وتعمقـت وتبلورت فى أذهانهم بمرور الزمن • ولقـد انتشرت هذه العقائد المسيانية انتشارا عظيما وعلى نطاق واسع جدا بين اليهود فى آخر حكم هيرودس ، أى قبل ميلاد المسيح ببضع سنوات، ووصلت هذه العقائد المسيانية إلى ذروتها فى الإنتشار فى أيام المسيح نفسه ، ففى هذا الوقت كان الشعب اليهودي ينتظر بفارغ الصبر مجىء المسيا • ولهذا السبب عينه فقد جـاء كثـيرون من المسايا الكذبة قبل المسيح وبعده يدعون لأنفسهم هذا الحق ، وكانت التربة مهيأة ومعدة لذلك • فالشعب اليهودى الـذى كان يئن متألمـا تحت نير الرومـان القاسى الظالم كان ينتظر مخلصا يخلصهم من الاستعمار فى ذلك الوقت• وساعد على انتشار هذا اعتقاد بين اليهود عدة عوامل منها : أن الزمـان فى المفهـوم اليهودى ينقسم إلى قسمـين : ٢٠٠٠ سنة بـدون ناموس و ٢٠٠٠ سنة تحت الناموس وبعدها يأتى المسيا • وعلى هذا فقد اعتقد البعض أن المسيا قد ولد فعلا فى ذلك الوقت فى بيت لحم ولكن لايعرف أحد أين هو بالضبط ولا من هو ، ولكنه منتظر اللحظة المناسبـة التى يعلن فيها ذاته فى الوقت المعين (يو ٧ : ٢٧) • عامل آخر : فقد اعتقد اليهود بأنه لو استطاع شعب الله حفظ السبت وتنفيذ مطالبـه مرتين فقط ، فيأتى المسيا وينقذ شعبه • ثم هناك عامل آخر مهم هو أن ضغط الرومان وظلمهم دفعا اليهود للانغماس فى الأحلام المسيانية الحلـوة التى حلم بها آباؤهم •

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى أيضا ظهر عدد لابأس به قبل وفى أثناء وبعد مجىء المسيح ، إدعى كل منهم بأنه المسيا المنتظر والمخلص الذى سيحطم قوات الرومان ويحرر شعب الله من السلطان العاتى •

(م ٩ — تاريخ الفكر المسيحى)

ألم يحاول سمعان الجليلي في ثورته أن يحرر البلاد من الرومان لكي يحكمها حكما ثيوقراطيا ؟ ألم يتبع أيضا كثيرون من الذين جاءوا بعده نفس السياسة ونفس المنهج ؟ ألم يحاول الغيورون حكم البلاد بحسب التوراة ، حتى لو تطلب الأمر القوة والعنف والقسوة ؟ ولهذا فقد كان النزاع بين الرومان وبين بعض الأحزاب اليهودية صراعا مستمرا وعنيفا وداميا ولم تتردد القوات الرومانية لحظة واحدة في أن تضرب بقضيب من حديد وبشدة على رأس كل من كان يدعي بأنه مسيا أو منقذ أو مخلص لهذا الشعب . لأنه بهذا الادعاء كان يحاول أن يفرض سلطانا آخر على إسرائيل غير سلطان قيصر . ألم تضرب القوات الرومانية بشدة المصري الذي كان يتزعم حزبا يزيد أعضاؤه على أربعة آلاف عضو وكانت له نفس الأهداف والأطماع المسيانية التي كان ينتظر شعب ذلك الوقت تحقيقها بفارغ الصبر ؟

ولقد أشار سفر الأعمال إلى هذا الرجل (أع ٢١ : ٣٨) كما أنه أشار إلى حوادث أخرى مماثلة (أع ٥ : ٣٦ — ٣٨) . ويوسيفوس المؤرخ اليهودي يتكلم عن هذا الرجل المصري الجنسية الذي جمع حوله ما يقرب من أربعة آلاف شخص وصعد إلى جبل الزيتون ووعد الشعب بأنه سيعمل بأورشليم ما عمله يشوع باريحا عندما أسقط جدرانها ، ووعد الشعب أيضا — الذي خرج وراءه — بأنه عند سقوط أسوار أورشليم والاستيلاء عليها سيقتل الرومان ويحرر المدينة منهم . وعندما عرف الوالي فيلكس بهذا الأمر طلب من الجيوش ملاحقة هذا الرجل والجمهور الذي سار معه ، وبدأت المعركة بين جيوش فيلكس وبين هذا الرجل المصري واليهود الذين كانوا يؤمنون بمسيانيته ، وانتهى الأمر بأن قتل عدد كبير من أتباعه ، وأما الرجل فقد هرب ولم يستطع فيلكس ولا جيوشه القبض عليه (١) . ولقد كان هذا الرجل عضوا

(١) انظر S.G. Brandon ص ١٣١—١٣٢
كان فيلكس واليا من سنة ٥٢ — ٥٩ ب.م.

نشطا عاملا فى حزب السيكر (SICAIRES) • وكما سبق القول فإن هذا الحزب وأحزاب أخرى يهودية كانت تؤمن بأن المسيا العتيد أن يظهر سيحرر البلاد من الاستعمار الرومانى ، وبه سيبدأ بملكوت الله • ويوسيفوس المؤرخ اليهودى يقدم لنا سلسلة طويلة لعدد كبير من الأشخاص الذين ادعى كل منهم بأنه المسيا المنتظر الذى يجب أن يخلص شعبه من قبضة المستعمر • فهو يذكر لنا أيضا قصة ذلك الرجل المصرى ثم فى أثناء حكم فادوس (CUSPIDIUS FADUS) ظهر ثوداس الذى ادعى نفس هذا الادعاء ، ولكنه لقى حتفه مع أربعمائة رجل (أ ع ٥ : ٣٦ - ٣٨) (١) وفى حكم كومانوس (VENTIDIUS CUMNUS) ظهرت جماعة ألعازار •

ودارس التاريخ اليهودى يلاحظ أنه منذ آخر حكم هيرودس إلى حوالى سنة ٧٤ ب•م• قد شاهدت البلاد ظهور عدد كبير من الثوار والأشخاص الذين إدعوا بأنهم مسايا • ولقد ازداد عدد هؤلاء فى الأربعين سنة الأخيرة أى من سنة ٣٠ ب•م• إلى سنة ٧٠ ب•م• ولقد كانت هذه الحركات المسيانية السياسية سببا من الأسباب الهامة التى أثارت غضب الرومان وجعلتهم ينظرون اليها كحركات عدائية ومقاومة للرومان ولقيصر نفسه • ومما لاشك فيه أن القادة الرومان فى هذه البلاد كانوا يعرفون عقائد وأهداف هذه الحركات ، فإن بعض هذه الحركات كان ينادى بقرب مجىء ملكوت الله ، ومعنى ملكوت الله على الأرض بالنسبة لبعض هذه الحركات لايعنى أن تحرر البلاد من الاستعمار الرومانى فقط بل إن كل الأمم ستصير هى نفسها خاضعة لإسرائيل وتأتمر بأمرها وتدين بديانتها (اش ٩ : ٢ - ٧ ، ١١ : ١ - ١٢ ، حز ٣٢ : ٧ ، ار ٤ : ٢٤ ، اش ٣٠ : ٢٧ ، ٣٤ : ٥ - ١٠ ، ١٠ : ١٤ - ١٩ ، ٦١ : ١٥ - ١٦) •

---

(١) يوسيفوس التاريخ اليهودى ٢٠ ، ٥٠ ، ١ •

ولكى تتحقق هذه الأمنية لابد أن يهوه نفسه سيدخل فى الأمر ، فهو الذى قاد شعبه فى القديم وأعطاه الإنتصارات الباهرة العظيمة على أعدائه ، فهو يهوه نفسه الذى سيؤيد هذا الشعب ضد الرومان لطردهم من هذه البلاد . كانت بعض هذه الحركات تؤمن بأن المسيا سيخضع الأمم تحت قدميه ، لأن عمله سيمتد إلى الأمم أيضا . ألـم يكن هذا هو الشرك الذى مده الشيطان للمسيح فى التجربة على الجبل ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له إبليس لك أعطى هذ السلطان كله ومجدهن لأنـه الى قد دفع وأنا أعطيـه لمن أريد .. » (لو ٤ : ٥ ــ ٦) . ألم يـكن هذا هو ما يسعى إليه ويريد الحصول عليه كل غيـور ؟ على أيـة حال سنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد .

ولقد تشبعت الجماهير اليهودية بالأفكار المنتشرة فى ذلك الوقت بخصوص المسيا . ثم أن بعض الكتب الأبوكريفية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ساعدت على انتشار الأفكار المسيانية : فإن الذين قاموا بالثورات ضد المستعمر كانوا فى معظم الأحيان يتخذون كمثل لهـم فى نضالهم وصراعهم أبطال الميكابيين والأسمونيين .. الخ . ولذلك نلاحظ أن كتابى الميكابيين كان لهما تأثير عميق جدا فى النضال . كذلك أيضـا كتاب أخنوخ الذى لعب دورا هاما جدا فى التأثير على اليهود ، بل إن تأثير هذا الكتاب امتد إلى كاتب منكتاب العهد الجديد فاقتبس منه وهو يهوذا (يهوذا ١٤) .

وكتاب أخنوخ ــ دون الدخول فى التفاصيل ــ عبارة عن رؤيـة رأى فيها الكاتب تاريخ البشرية كلها . وفى وسط هذه البشريـة رأى الرائى قطيع غنم ، وهذا القطيع الذى يمثل أمة اليهود ، مر تحت حكم ونير ٧٠ راعيا أى تحت حكم ونير ٧٠ ملكا وثنيا فأساءوا معاملته جدا .

ولكن من وسط هذا القطيع المغلوب على أمره خرجت بعض الخراف ذو شجاعة وبأس وهم الميكابيون والموالون لهم ، فقاموا بحروب عنيفة ضد الغربان التى كانت تنهش لحم الخراف . وكادت الغربان أن تتغلب على الميكابيين وعلى رأسهم يوحنا هيركانوس ؛ فاستغاث هذا الأخير بالله وعندئذ فتح الملاك السفر الذى سجل فيه فظائع هؤلاء الملوك (٧٠ملكا) فاغتاظ الرب وامتلأ غضبا ، ولذلك فقد فتحت الأرض فاها وابتلعت الغربان التى كانت تهدد الشاب يوحنا هيركانوس وقطيعه الأبيض ، وانتصر الشاب بالسيف الذى أعطاه له السيد لقتل الأمم أعداء الرب . وهكذا قضى الرب على أعداء قطيعه ، وأصبح هذا القطيع طاهرا نقيا ودخل الهيكل الجديد الذى أحضره الله من السماء لهذا الغرض ، ثم يقوم الوثنيون الذين لم يهلكوا بخدمة هذا القطيع والسهر على راحته ، وبعد هذا يظهر المسيا كثور بقرون سوداء كبيرة .... (١)

كانت هذه القصص وقصص كثيرة أخرى شعبية معروفة ومنتشرة بين الشعب اليهودى عن المسيا . ولقد قدمت هذه الروايات شخص المسيا كمنقذ من الظلم والاستعمار وكالمحرر والمخلص وكالمعلم والمرشد الذى يعلم شعبه ويرشده إلى الحق الإلهى . ألم تقل المرأة السامرية للمسيح : «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شىء» (يو ٤ : ٥ ؛ تث ١٨ : ١٨) .

لقد احتلت هذه القصص والروايات المسيانية مكانة مرموقة فى الثقافة وفى التعاليم اللاهوتية اليهودية فى ذلك العصر . ولهذا السبب فإن كثيرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور المسيا القريب والمفاجىء،

(1) Jesus - Christ et les Croyances Messianiques de son temps. Deuxième édition revue et angmantée. Strasbourg. Treutiel et Wurtz Librairie. Edétion 1864.

المسيا الذى سيحرر شعبه من النير الرومانى القاسى والظالم • ولهذا السبب أيضا كانت القوات الرومانية تضرب بلا رحمة وبلا شفقة كل ادعاء مسيانى ، إذ كانت تعلم جيدا أن كل حركة مسيانية سياسية خطر على سياستها ووجودها ، ولذلك فقد كان الصراع بين الرومان وبين قوات التحرير الوطنية صراعا مستمرا وعنيفا ، ووصل هذا الصراع أشده فى السنوات السابقة واللاحقة لميلاد يسوع •

بعض المراجع الهامة عن الغيورين وعن تلك الحقبة من الزمان :

1. S.G.F. Brandon. **Jesus And the Zealots : A Study of the Political Factor In Primitive Christianity, New York, 1968.**

2. Oscar Cullmann. **Jesus et Les Revolutionnaires de Son Temps.** Neuchatel, 1970.

3. Georges R. Edwards. **Jesus and the Politics of Violence** New York, 1972.

4. Comtantin Daniel. **"Esseniens, Zelotes et Saicaires et leur mention par paronymie dans le N.T.** (in Numan 13, 1966. pp. 88 — 115).

5. H. Kingdon **"Who were the Zealots and their leaders in A.D. 66 ?"** In New York testament studies 17 (1970) pp. 68 ff.

6. Morton Smith **"Zealots and Sicarii, their Origins and Relations"** in Harvard theological Review 64 (1971) pp. 1 — 19.

7. Walter Wink **"Jesus and Revolution. Reflections on S.G.F. Brandon's "Jesus and the Zealots"** in Union Seminary Quarterly Review 25 (1969) pp. 37 — 59.

8. **Dict. of the Bible** (J. Hasting, 5th vol., Edim., 1897 — 1904.

9. Alfred, Bertholet. **Histoire de La Civilisation d'israel, Trade** Jacques Marty. **Paris Payot 1929.**

10. Louis De Porte. **La Mesopotamie. Les Civilization babylonienne et Assyrienne.** Paris.

11. Charles F. Jean, **Les Milieu Biblique Avan ler** Vol. 1922. 2em 1923.

12. Jean Juster. **Les Juifs dans L'empire Romains, Leurs Condition Juridique, Economique et Sociale, 2 vols.,** Paris Geuthner, 1914.

13. M. J. Lagrange. **Le Judaisme Avant Jesus Chirst.** Paris 1931.

14. Ad. Lods Israel, **des Origines au milieu du 8 Siecle,** Paris.

15. S. Matthews. **The History of The New Testament Times in Palestine.** New York, 1910.

16. Johs, Pedersen. **Israel, its Life and Culture** 1 — 2 Londre Milford, 1926.

17. CH. Guignebert. **des Prophetes a Jesus Le Monde Juif. Vors Le Temps de Jesus.**

18. Cecil Roth. **Histoire du Peuple Juif des Origines a 1962** (Ed. de La Terre Petrouvee. 12 R. de La Victoire, 12. 1963.

19. Henri Caubert. **L'Attente du Messie La Bible dans L'Histoire.** Mame. Paris 21. 2. 1968.

20. Marcel Simon. **Les Sectes Juives Au de Jésus.** Press Universitaires **de France.**

21. S.G. Brandon. Jésus et **Les Zélotes Flammarion idees et Recherches.** Trod.

22. C. Kittel. **Theological Dictionary of the N.T. Grand Rapids,** from 1964 Onwards : **Articles sur Zelotes** (Stumpff) vol. 2 pp. 877 — 888 **Sur Lestes (Rengstorf)** Vol. IV pp. 257 — 262. et Sur Sikarios (Betz) Vol. 7 pp. 278 — 282.

23. F M. Abel. **Histoire de La Palestine depuis La Conquete d'Alexandre Jusqu'a L. Invasion** Arab 2 Vol. (Coll. Etudes bibl. Paris, 1952).

24. Joachim Jeremias. **Jerusalem au Temps de Jesus.** Recherches d'Histoire Economique et Sociale. Trad de L'all 525 p. Paris 1967.

25. Daniel M. Rhoads. **Israel in Revolution 6 - 74 C.E A Political History.**

26. T. Colan. Jesus - Christ el Les Esperance Messianique de son temps.

27. W. Trilling. Jesus devant L. Histoire tr. Par Joseph Schmit. Les Editions du Cerf.

الجزء الثانى

ميلاد المسيح
وحياته وموته وقيامته

الفصل الأول : ولادة المسيح •
الفصل الثانى : الميلاد العذراوى •
الفصل الثالث : طفولة يسوع وشبابه •
الفصل الرابع : يسوع ومعاصروه •
الفصل الخامس : يسوع والغيورون •
الفصل السادس : موقف يسوع من الغيورين •
الفصل السابع : مفهوم التلاميذ عن يسوع •
الفصل الثامن : مفهوم يسوع عن نفسه •
الفصل التاسع : الفصح والعشاء الربانى •
الفصل العاشر : موت المسيح وقيامته •

الفصـــل الأول

ولادة المسيح

إن كل ما قلناه فى الفصول السابقة عن « المسيا » كما يقدمه لنــا العهد القديم ، المسيا كما رآه وانتظره اليهــود قبل الميــلاد ، ثم فترة الميكابيين وما بعدها ، وأخيراً .. المعتقدات التى كانت سائدة عن المسيا من قبل وبعد مجيئه. كل هذا لا يعد إلا تمهيدا للدخول فى صلب الموضوع الذي نريد دراسته دراسة عقائدية ، وحتى نعرف كيف فهم التلاميــذ والكنيسة الأولى ، والمدافعــون (APOLOGISTES) والعصــور اللاحقة شخص ربنا يسوع المسيح ، كان من الــلازم والضرورى أن نلقى نظرة تاريخية سريعة على مفهوم المسيا عند اليهود وأى نوع من المسيا كانوا ينتظرون . فبعد أن رأينا الآمال الروحيــة والسياسيــة والاقتصادية التى كان اليهود يعلقونها عن مجىء المسيا ، لنتقدم الآن للدخول فى موضوع دراستنا : « يسوع المسيح على مر العصور » ، وسنحاول بنعمة الله أن نتناول بالتحليل مفهوم كل حقبة مبتدئــين من سنة ٤ ق.م. إلى العصر الحاضر ، أو بعبــارة أخرى : ما هــو جواب الكنيسة أو الكنائس أو الشعوب والطوائف سؤال الرب يسوع نفسه، الذي سأله لتلاميذه فى قيصرية فيلبس قائلا : «من يقول الناس إنى أنا

ابن الانسان ؟ » (متى ١٦ : ١٣) . إن الرب يسوع الذى طرح هذا السؤل على تلاميذه ، طرحه أيضا على كل جيل وعصر مرت به كنيسته . وكما أن التلاميذ كانوا ملزمين باعطاء جواب على هذا السؤال، فالكنيسة أيضا ملزمة فى كل عصر وفى كل مكان بأن تعطى جوابا واضحا وصريحا عن عقيدتها فى شخص المسيح يسوع . فالدراسة التى سنقوم بها الآن تتركز على مفهوم الكنيسة لشخص الرب يسوع المسيح . وكيف فهمت الكنيسة على مر العصور شخص المسيح . وبناء على ذلك فسنضطر للدخول فى تفصيل وشرح بعض العقائدالكرستولوجية (CHRISTOLOGIE) (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) وبعض الهرطقات التى ظهرت فى كل حقبة من حقبات الزمان وموقف الكنيسة منها ، والصراع العنيف القاسى المرير والمحزن الذى مرت به كنيسة الفادى ، جسد المسيح . هذا الصراع الشنيع بدأت بوادره تظهر بين التلاميذ أنفسهم ، ثم ازداد فى الكنيسة الأولى ، وللأسف الشديد ، فإن دارس تاريخ العقائد يلاحظ أنه على قدر ما كانت الرسالة تنتشر فى العالم على قدر ما كانت تظهر انشقاقات وبدع وهرطقات ، لأنه حيثما بشر بالمسيح ، كان سؤاله يطرح نفسه : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » وكان الذين يسمعون هذه الرسالة المفرحة ملزمين بإعطاء جواب على : « من هو يسوع المسيح ؟ أهو يوحنا المعمدان ، أهو إيليا ، أهو إرميا أو واحد من الأنبياء ... » أو كما اعترف بطرس ملهما من الآب نفسه : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » . والكنيسة المسيحية حاولت على مر العصور الاجابة على هذا السؤال :من هويسوع المسيح ؟ أهو نبى ، أهو مصلح إجتماعى ، أهو مصلح دينى ، أهو انسان غير عادى وخارق للطبيعة أم هو ابن الله الحى : الله الذى ظهر فى الجسد ؟ ... والناس فى إجاباتهم على هذا السؤال : « من هو يسوع المسيح ؟ » انقسموا إلى أحزاب وطوائف وكنائس ، وتحققت كلمات سمعان التى نطق بها عندما أخذ الطفل يسوع بين يديه وقال :

« إن هذا (يسوع) قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) . نعم لقد جاء المسيح لسقوط وقيام كثيرين ليس فقط فى إسرائيل،بل فى الكنيسة كلها وفى العالم كله . «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله،وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه » (يو ١ : ١١ و١٢) . هنا يبدأ الإنقسام والصراع بين الذين قبلوه سيدا ومخلصا لحياتهم وتصرفاتهم وإيمانهم وبين الذين رفضوه أو لم يعطوه المكان اللائق به كرب وسيده لقد جاء المسيح — المسيا — الذى كان شعب اليهود ينتظره بفارغ الصبر ، جاء إلى خاصته لخلاصها وتحريرها ، فهل عرفته خاصته وقبلته كمخلص وكسيد ؟ إن النبى إشعياء يقول : « الثورة يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه ، أما إسرائيل فلا يعرف شعبى لا يفهم ... » (اش ١ : ٣) .

إن جواب هذه الأمة على سؤال المسيح : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » كان أنه بعلزبول ، وأنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين » (مر ٣ : ٢٢) . ولذلك فقد طلبوا كهنة وشعبا ، من بيلاطس أن يصلب يسوع وأن يطلق لهم باراباس : « فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ أطلق لهم باراباس ، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب » (متى ٢٧ : ٢٥) .

منذ هذا التاريخ ، أى بعد أن أعلن الشعب اليهودى أن دم المسيح عليهم وعلى أولادهم وأنه ليس لهم ملك إلا قيصر (يو ١٩ : ١٥) تحول المسيح عنهم وعن أمتهم وترك لهم بيتهم خرابا ، وجردت هذه الأمة من كل الإمتيازات التى كانت تتمتع بها لأنها هى نفسها التى طلبت بأن تجرد من هذه الامتيازات عندما أنكرت سيدها وربها طالبة سيادة قيصر . بهذا الجواب : « دمه علينا وعلى أولادنا » أصبحت الأمة اليهودية كباقى الأمم وأصبحت الكنيسة المسيحية شعب الله المختار إذا

تمسكت بدعوتها واحتفظت بمقامهاالذى منحه لها الرب فى فرط محبته. على أن هذا لايعنى أن الباب أغلق نهائيا أمام هذه الأمة ، بل إذا قبلت المسيح كالمخلص والفادى تصبح بدورها عضوا فى كنيسته المنتشرة فى الأرض كلها . إن هذا « يسوع » قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم .

ولكى لانبتعد عن موضوع دراستنا : « من هو يسوع المسيح » سنحاول أن نتبع نفس الطريقة التى اتبعناها فى الفصول السابقة من الناحية التاريخية . فالسؤال الأول الذى يفرض نفسه هو :

١ ــ هل يمكننا أن نثبت من الناحية التاريخية وجود المسيح ؟ ومتى ولد ؟

قبل أن نبدأ البحث فى السؤال الأول : « هل يمكننا أن نثبت من الناحية التاريخية وجود يسوع » ، نريد أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى أمر مهم جدا ، وهو أن إيماننا بالمسيح يسوع الذى ولد من عذراء فى بيت لحم وعاش فى أرض فلسطين وصلب ومات وقام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله الآب وسيأتى من هناك ليدين الأحياء والأموات ، إن إيماننا هذا بالرب يسوع لايتوقف على ما يقوله المؤرخون سلبيا أو إيجابيا ، لأن الايمان بشخصه الكريم هو هبة الله ، وكما يقول الرسول : « لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم . هو عطية الله » (أف ٢ : ٨) فحتى الإيمان الذى نؤمن عن طريقه بالمسيح هو عطية من الله . وهذ الإيمان يولد فى قلب الانسان عندما يتقابل الرب يسوع المسيح معه . فعن طريق هذا اللقاء بين يسوع المسيح وبين الانسان ، يولد الايمان ويصبح الانسان خليقة جديدة .

فإن كنا سنحاول فى الصفحات التالية البحث عن بعض النصوص والوثائق التاريخية التى تتكلم عن يسوع وعن وجوده التاريخى ، فإن هذا لايعنى أن إيماننا بالمسيح متوقف على هذه الأدلة التاريخية ، لأن إيماننا بالمسيح راسخ على صخر صلب وعلى أدلة أعظم وعلى شهود أكثر أمانة وإخلاصا . لأن مسيح الايمان الذى عمل ويعمل الآن فى كنيسته بالروح القدس يستطيع بمقابلته للانسان أن يقنعه بوجود يسوع التاريخى . فمع أن « يسوع التاريخ » وجد فعلا ، ولد وعاش وتألم وفرح وأخيرا صلب ومات وقاوم ، إلا أن هذه الحوادث التاريخية لايمكن أن تصبح حقيقة مقنعة لها تأثيرها وفاعليتها إن لم يصبح مسيح الايمان حقيقة واقعية يحيا به الانسان ويحيا فيه ، فأساس إيماننا فى وجود يسوع التاريخ لايرتكز إذن على ما قاله أو يقوله المؤرخون بل يرتكز على « يسوع الايمان » الذى يشهد بروحه القدوس لنفسه ، ثم على أقوال الكتب المقدسة التى تشهد له : « فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهى التى تشهد لى » (يو ٥ : ٣٩) .

هذا لايعنى أن دراسة التاريخ والبحث العلمى والتنقيب فيه لاقيمة لها بالنسبة للمسيحى أو للايمان المسيحى ، كلا ، فإن كان المسيحى الحقيقى لايبنى إيمانه على ما يقدمه التاريخ، إلا أن ما يقدمه التاريخ عن يسوع من الناحية الايجابية يغذى ويقوى إيمان المؤمن فى يسوع، وبذلك تصبح دراسة التاريخ ومعرفته وما يرويه عن يسوع مهمة جدا وضرورية لكل دارس وباحث . ولهذا السبب فمن واجبنا أن ننقب ونبحث التاريخ باحثين بأمانة وإخلاص عن بعض النصوص والكتابات التى تتكلم عن وجود يسوع التاريخى . ولكن قبل أن نتكلم عن بعض هذه الأدلة التاريخية يجدر بنا أن نذكر الأدلة الكتابية .

الأدلة الكتابية التى تتكلم عن وجود يسوع :

إن الأدلة الكتابية التى تتكلم عن وجود يسوع لا حصر لها ولا عدد ، ولذلك لانذكر أقوال الأنبياء التى نطقوا بها معلنين مجىء المسيا المخلص ، ونكتفى فقط ـ على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ـ بسرد بعض الأدلة الكتابية :

إن أول الأدلة الكتابية التى تكلمنا عن يسوع ، هى رسائل القديس بولس الرسول ونذكر أولا رسائل بولس لأنهـا كتبت وأرسلت إلى الكنائس قبل أن تكتب الأناجيل • فهذه الرسائل تكلمنا عن أصل يسوع (رومية ١ : ٣ و غلا ١ : ١٩ ، ٣ : ١٦) وعن حياته (١ كو ١١ : ١ ، ٢ وكو ٥ : ٢١ ، ١٠ : ١) ، وتكلمنا أيضا عن موته (١ كو ٢ :٢ وغلا ٢ : ٢٠ وف ٢ ٨) وعن قيامته (١ كو ١٥) إن أقدم رسالة من هذه الرسائل كتبت حوالى سنة ٥٢ ب•م •

المصدر الثانى الذى منه نستقى معلوماتنا عن يسوع ، هو الأناجيل•فإن الأناجيل الثلاثة الأولى التى كتبتبين ٧٠،٨٥ ب•م• ثم إنجيل يوحنا الذى كتب فيما بين سنة ٩٠ ، ١٠٠ ب•م• تروى لنا قصة ميلاد وحياة ومعجزات وجهاد ، وصلب ودفن وقيامة وصعود يسوع •

كل هذه الرسائل : رسائل بولس الرسول والرسائل الأخرى وكذلك الأناجيل الأربعة ، موضوعها الأساسى هو شخص يسوع المسيح • فهى من ناحية تقدم لنا يسوع الناصرى : كان إنسانا ولد من إمرأة وعاش بين الناس مشتركا معهم فى أفراحهم وأحزانهم ، وكان عرضة للعطش والجوع والآلام وللموت • ومن ناحية أخرى تقدم لنا يسوع المسيح ابن الله ، الذى ولد من امرأة عذراء وعمل المعجزات ، وأقام الموتى وقام هونفسه من الأموات وصعد إلى السماء•هذه هى شهادة

الكتاب المقدس عن يسوع المسيح .وبهذه الصورة المزدوجة يقدم لناالعهد الجديد شخص يسوع المسيح ، معطيا لنا شهادة عن أصله وعن سبب وجوده على أرضنا . ومن الواضح أن العهد الجديد لم يحاول أن يعطى لنا قصة حياة كاملة (LA BIOGRAPHIE DE JESUS) عن يسوع ،إذ أن هدف الأناجيل لم يكن هدفا روائيا ، لأن الذين كتبوا هذه الكتب وخاصة الانجيليون لم يحاولوا أن يقدموا قصة حياة يسوع لكى يشبعوا رغبة محب الاستطلاع فى علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجنس وعلم البيولوجيا ، بل قدموا لنا بعض الحوادث وبعض القصص التى تروى لنا ما قام بعمله يسوع الناصرى ، دون أن يدخلوا فى التفصيلات التى يهتم بها عالم النفس ، وعالم الاجتماع وعالم الجنس وعالم البيولوجيا . فعلى سبيل المثال نحن نعرف أن يسوع لم يكن عابسا كئيبا ، رغم ذلك فإن العهد الجديد لا يذكر ولو مرة واحدة أن يسوع ضحك أو ابتسم . نعم إنه يقول ... «وفى تلك الساعة تهلليسوع بالروح وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض ... » (لو ١٠ : ٢١) ومع ذلك فلم يقل ضحك يسوع أو ابتسم يسوع ، مع أنه هو مصدر السرور والفرح الحقيقين .

ظاهرة أخرى : العهد الجديد لا يذكر ولو مرة واحدة أن يسوع كان يقوم كأى انسان آخر بمطالب جسده الطبيعية .

من هذه الأمثال وأمثال أخرى يتضح لنا بأن كتاب العهد الجديد لم يكن فى قصدهم تقديم قصة كاملة عن حياة يسوع تشمل كل تصرفاته الداخلية والخارجية ، بل أرادوا أن يصفوا لنا الانسان يسوع الناصرى الذى تقابل معه بعضهم فى أثناء حياته على الأرض ، فرأوا فيه ليس فقط الانسان يسوع الناصرى ابن مريم ، بل رأوا فيه أيضا المسيح ابن الله الحى . إن الرسل والانجيليين يقدمون لنا شهادة

(م ١٠ — تاريخ الفكر المسيحى)

حية حقيقية لا يمكن رفضها أو انكارها عن وجود يسوع على الأرض ويمكننا أن نلخص هذه الشهادة فى كلمات القديس يوحنا القائلة : « الذى كان من البدء ، الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ... الذى رأيناه وسمعناه نخبركم به لكى يكون لكم أيضا شركة معنا ... » (١ يو ١ : ٣) .

الأدلة التاريخية التى تكلمنا عن وجود يسوع :

كما سبق القول أن ايماننا فى المسيح لا يرتكز بأى حال من الأحوال على ما يقوله المؤرخون ايجابيا أو سلبيا عن يسوع ، بل إن إيماننا الذى هو هبة وعطية من لدنه ، يرتكز أولا وقبل كل شىء على شخصه الكريم ، صخر الايمان ومنبعه الحقيقى . ثم يرتكز أيضا على وحيه الصادق أى الكتاب المقدس . وهذا الأخير يستمد سلطانه ونفوذه وتأثيره من الله المثلث الأقانيم .

فإن كنا ننبش التاريخ باحثين عن بعض الأدلة التاريخية التى تتكلم عن يسوع ، فاننا لا نريد بذلك ، البحث عن أساس لايماننا بالمسيح فى التاريخ ، إلا أن التاريخ بوثائقه وأدلته التاريخية يمكن أن يكون عاملا فى تقوية إيماننا بالمسيح ، وليس مصدرا له . ولهذا السبب ، أى لتقوية الايمان ولأسباب أخرى يتحتم على كل دارس ، وخاصة الذى يريد دراسة العقيدة المسيحية فيما يتعلق بشخص الرب يسوع أن يعطى اهتماما كبيرا لدراسة التاريخ .

والسؤال الأول الذى يفرض نفسه فرضا على الباحث فى التاريخ هو السؤال الذى سأله الأستاذ جوجل (MAURICE GOGUEL) الذى كتب عدة مؤلفات عن حياة يسوع ، محاولا الاجابة على السؤال

الآتى : هل يسوع هو شخصية حقيقية لحما ودما ، وهل عاش فعلا فى منطقة ما على الأرض ؟ وفى وقت معين ؟ أم هو مجرد حقيقة روحية رمزية ، أسطورة عن طريقها استطاعت الكنيسة الأولى أن تعبر عن آمالها وأحلامها وعبادتها(١) • هذا هو السؤال الذى سأله جوجل والذى نسأله ويسأله الكثيرون من المؤرخين ، هل يسوع الناصرى حقيقة أم خيال ؟ وللاجابة على هذا السؤال نقول إنه لا يوجد مؤرخ واحد جاد ينكر وجود يسوع التاريخى ، فمع أن الأدلة التاريخية التى يتكلم عن وجوده نادرة جداً الا أن المؤرخين اتفقوا على أن وجود يسوع حقيقة لايمكن أنكارها كما يقول الكاتب الألمانى ترلنج (W. TRILLING) فى كتابه المعنون : « يسوع أمام التاريخ » • وإن كان البعض رفض فكرة وجود يسوع التاريخى وعلى رأسهم (P. VOLNEY) ثم دوبوى (CH.F. DUPUIS) فى سنة ١٧٩١ ، فإن حقيقة وجود يسوع التاريخية حقيقة ثابتة ، وانكارها يعنى انكار حقيقة تاريخية لا شك فيها ؛ كما لو قلنا إن الامبراطور أغسطس قيصر ونابليون لم يوجدا فى التاريخ • ولدحض هذه الادعاءات التى لا أساس لها ، يواصل الكاتب شرحه بالقول : « يكفى اثبات حادثة واحدة تكون قد حدثت فعلا مع يسوع على المستوى التاريخى لاثبات وجوده التاريخى • ونحن نملك أكثر من

(١) كتب مسيو Goguel عدة مؤلفات عن حياة يسوع ومنها
(A) La Vie de Jésus. Payot. Paris. 106 Boul. St. Germain 1932, 164, 174.
(B) Jèsus : Histoire des vies de Jésus - les temoigange Paulinien, les Evangiles - les origines des Jésus.
(C) Jésus de Nazareth. Mythe ou Histoire. Payot. Paris 106 Boul. St. Germain W. Trilling : Jésus devant l'histoire. Traduit de P'Allemand par Joseph Schmit. Les edition du CGRB 29 Bl. Latour Maukourg Paris, 1986 p. 15 - 18.

حادثة تثبت وجود يسوع التاريخى (١) • وهنا نسأل هــذا السؤال : ما هى المصادر التاريخية التى تتكلم عن يسوع ؟

١ ــ التلمــود (٢)

إن التلمود يعتبر من أهم المصادر التاريخية القديمة التى تكلمنا عن يسوع الناصرى•ولقد حاول كلاوزن (KLAUSNER) جمع كل النصوص التلموديةالتى تتكلم عن يسوع•ومن أهم هذه النصوص التى ذكرها التلمود (LA BARAITA) والتى حفظت فى كتابات السنهدريم فى التلمود البابلى ، النص الآتى : « لقد علق يسوع الناصرى على خشبة فى عشية عيد الفصح ، فمدة أربعين يوما كان يتقدمه منــاد صارخا : لقد استعمل السحر وأغوى إسرائيل وجره إلى العصيان ، فهو إذن مستحق الرجم ، فإن كان يوجد من يدافع عنه لكى يبرر موقفه فليدافع، ولكن لم يوجد من يدافع عنه أو يبرره ولذلك قضى عليه فى عشية عيــد الفصح » • ثم يقول جوجل إنه يوجد تقليد يهودى قديم يرجــع إلى العصر الأول وبداية القرن الثانى ، يقول هذا التقليد إن : « يسوع ابن عسكرى رومانى • وهدف هذا التقليد هو استبعاد يسوع من النســل الداودى » • كما أن التلمود يذكر أيضاً بأن الإسرائيليين اعترفوا ليس فقط بوجود شخص يسوع الناصرى بل بالمعجزات التى عملهــا ، إلا أنهم نسبوا معظم هذه المعجزات إلى الشيطان •

ب ــ شهادة يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودى :

فى معرض حديثه عن هيرودس أنتيباس يقول : « فى نحــو ذلــك

(١) اقتبســه Goguel فى كتابا ص ٥١ ، ٥٢

(٢) التلمود عبارة عن مجموعة التقاليد اليهودية وتفاسير للشريعة •

الزمان جاء يسوع ، إنسان حكيم ، لو أمكن أن ندعوه إنسانا ، لأنه كان يقوم بعمل معجزات عجيبة ويعلم الحق للباحثين عنه ، فتبعه عدد كبير من اليهود ومن الأمم ، فهو المسيح ، ولكن زعماء أمتنا وشوا به لدى بيلاطس فحكم عليه بالصلب ، وأما الذين اتبعوه فظلوا على حبهم له ، ولذلك فقد ظهر لهؤلاء حيا فى اليوم الثالث من موته مثبتا أقوال الأنبياء المختصة به وبمعجزاته التى لاحصر لها •وتوجد حتى الآن جماعة باقية تدعى باسم « مسيحيين » نسبة له » • (١)

ونفس المؤرخ (يوسيفوس) يتكلم عن حادثة أخرى ويذكر فيها إسم يسوع فيقول : لقد دعا حنانيا السنهدريم للانعقاد وقدم له يعقوب أخا يسوع الذى يقال له المسيح مع آخرين ، ولقد إتهموهم بكسر الناموس فحكم عليهم بالرجم ونفذ هذا الحكم فى عيد الفصح فى سنة ٦٢ ب•م » • وسفر أعمال الرسل يشير إلى هذه الحادثة بالقول : « فى ذلك الوقت مد هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة، فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف » (أع ١٢ : ١ ، ٢) •

بالنسبة للنص الأول المنسوب ليوسيفوس المؤرخ يقول جوجل (GOGUEL) إن أريجانوس استشهد بهذه الشهادة دون أن يذكر المرجع بالضبط • (٢)

قبل أن ننتقل إلى المصادر الغير المسيحية التى تكلمت عن يسوع يجب أن نقف قليلا عند النص الأول المنسوب ليوسيفوس ، لأن الأمانة العلمية تتطلب من الباحث المدقق لا البحث والتنقيب عن النصوص القديمة والحديثة التى تؤيد وجهة نظره أو النتيجة التى يريد أن يصل إليها

(١) انظر كتاب تاريخ اليهود ليوسيفوس فلافيوس (كتاب ١٨ : ٣٠٢)
(٢) انظر كتاب جوجل Goguel حياة يسوع ص ٥٦

فحسب ، بل يجب عليه أيضا أن يبحث بدقة فيما إذا كانت هذه النصوص صحيحة أو غير صحيحة ، ثم يدرس الآراء المعارضة لها ، ولذلك يجب أن نلفت نظر القارىء إلى أن النص الأول الذى يتكلم عن يسوع: « إنسان حكيم .. فهو المسيح .. » ، قد تعرض هذا النص لبعض النقد ، والنقد الذى وجهه الكثيرون من المتخصصين فى النقد التاريخى هو أن هذا النص أدخلته يد مسيحية فى كتابات يوسيفوس فلافيوس . وتوجد عدة أسباب دفعت النقاد إلى أن يفترضوا هذا الفرض .

١ — إن يوسفوس لم يتكلم أبدا فى كتاباته العديدة والكثيرة (انظر ص ١١٥) عن يسوع إلا فى هذين النصين ، فكيف يمكن أن مؤرخا عظيما كيوسيفوس كتب عن تاريخ اليهود من بدء الخليقة إلى سنة ٦٦ ب.م. (٢٠ مجلد) ، ولا يتكلم عن يسوع بشىء من التفصيل ، وقد كرس صفحات كثيرة لأحداث وأشخاص تقل كثيراً جدا فى أهميتها عن شخص يسوع ؟ ! !

٢ — يقول النقاد أيضا إن اعتراف يوسيفوس بأن يسوع هو المسيح يعنى أنه يعترف بمسيانيته ، وهذا الأمر لايمكن قبوله بسهولة . ذلك لأن يوسيفوس كان من الطبقة اليهودية المتعاونة مع الأجنبى الرومانى، وسياسة الرومان كانت ضد كل الحركات المسيانية.ولقد لقب يوسيفوس نفسه هذه الحركات « بجماعة اللصوص » .

٣ — إن اعتراف المؤرخ اليهودى بمسيانية يسوع يعنى أنه تجدد أو قبل المسيحية الأمر الذى لم يذكره فى أى كتاب من كتبه . ولذلك يجد كثيرون من النقاد أنه من الصعب قبول هذا النص الذى يعترف فيه بأن يسوع هو المسيح .

وهنا يجب أن نطرح السؤال الآتى : إذا كان يسوع الناصرى

حقيقة تاريخية فعلية ، فلماذا لم يتكلم عنه بالتفصيل هـذا المؤرخ اليهودى العظيم والمتخصص فى تاريخ أمته ؟ والـذى عاش فى نفس القرن الذى عاش فيه يسوع ، وخاصة أن يوسيفوس كتب الكثير عـن سياسة وتاريخ الحركات المسيانية ومقاومتها لروما ولسياستها ؟

إن النقاد ودارسى التاريخ يتساءلون باندهاش عظيم عن صمت يوسيفوس وعدم ذكره ليسوع فى كتاباته ، ولماذا التزم هـذا الصمت الذى يكاد أن يكون صمتا كاملا ، إذا استثنينا النصين اللذين اقتبسناهما أعلاه .

والأمر فعلا مدهش جدا عندما نعرف بأن يوسيفوس لم يكن مؤرخا مشهورا وعارفا بتاريخ الأمة اليهودية فقط بل كان أيضا سياسيا محنكا ومسئولا كبيرا فى السياسة اليهودية . بل أصبح فيما بعد مستشـاراً للامبراطور الرومانى فيما يختص بالأمور السياسية اليهودية . وبهذه الصفات الثقافية والسياسية والدبلوماسية والدينية كان يوسيفوس على صلة وثيقة بكل ما يحدث فى فلسطين فلماذا إذاً كان يوسيفوس شحيحا فى اعطائه المعلومات التاريخية المختصة بيسوع ؟ ! !

عندما ندرس ما كتبه يوسيفوس عن فترة الثورات والاضطرابات التى قام بها بعض اليهود من سنة ٦ الى ٧١ ب.م. نلاحـظ عداوتـه ومقاومته الشديدة للحركات المسيانية بطريقة عامة ثم مقاومته وعداوته لحزب الغيورين بصفة خاصة. ونرى أيضا كيف أن يوسيفوس حمل اليهود الثوار مسئولية الخسائر الجسيمة فى الأرواح والأموال، الخسائر التى سببوها بثوراتهم ضد الرومان من سنة ٦٦ إلى ٧٠ ، وخاصة فى سنة ٧٠ عندما سقطت أورشليم محروقة الأسوار ، منهدمة البناء ، بسبب تعصبهـم الدينى الأعمى غير الحكيم . ولقد وصف يوسيفوس هذه الحركات التى كانت تدعى بأنها حركات مسيانية « باللصوص والقراصنة » ... ولذلك

فقد أعتبر الرومان أن هذه الحركات وقادتها تمثل خطرا حقيقيا وعظيما عليهم ، وبناء عليه كانت القوات الرومانية المحتلة للبلاد فى ذلك الوقت تعمل جاهدة وبلا تهاون على تنظيف البلاد من كل هذه الشيع الغيورية وأمثالها التى لاهدف لها إلا تصفية الرومان من البلاد وعودة الحكم الثيوقراطى . وقد تعرضت بلاد فلسطين من سنة ٥ ق ٠م٠ إلى سنة ٧٠ ب٠م٠ لحركات مسيانية كثيرة ، مما اضطر الرومان إلى الضرب بشدة لأى حركه تصطبغ بهذا اللون المسيانى .

وعلى ما يبدو كان يوسيفوس يرى فى يسوع وفى تلاميذه نوعا آخر يختلف تماما عن كل المسايا وعن كل الحركات المسيانية التى وصفها فى كتاباته ، لذلك فإن يوسيفوس الدبلوماسى والسياسى حاول أن يتجنب الكلام عن قرب أو عن بعد عن يسوع أو تلاميذه٠ فقد كان يخشى أن الكتابة عنه وعن تلاميذه ، تجذب نظر الرومان إلى جماعة المسيحيين واعتبارهم شيعة أو حزبا من الأحزاب السياسية المسيانية المشابهة للأحزاب الأخرى ، مما كان يجلب عليهم عداوة الرومان ومقاومتهم لهذه الجماعة المسيحية . فلو مدح أو تكلم عن يسوع أو عن تلاميذه بطريقة حيادية ، لعرض نفسه لخطرين مهمين : (١) لاعتبره الرومان واحدا من أتباع هذا الحزب الذى قد يظن الرومان بأنه يمثل خطرا عليهم . (٢) لاعتبره الحزب الكهنوتى الأرستقراطى واحدا من أتباع طريق الناصريين٠ ونحن لانجهل أن يوسيفوس انتهى من كتابة « تاريخ اليهود » (٢٠ كتاب) فى حوالى سنة ٩٣ ب٠م ، فكان إذن لايخشى أى خطر من جانب حزب الارستقراطية الكهنوتية الذى قضى عليه كما قضى على كل الأحزاب اليهودية الأخرى سنة ٧٠ ب٠م ، ولكن لا يفوتنا أيضا أن اليهود الذين تشتتوا بسبب سقوط أورشليم والذين تشتتوا من قبل ذلك كانت لهم كلمتهم ومجامعهم حيثما وجدوا فى كل الامبراطورية الرومانية٠هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لو كتب يوسيفوس عن يسوع

وحياته وأعماله وتدرفاته وكذلك عن تلاميذه فلابد له أن يتكلم عن اليهود وانتظاراتهم المسيانية وآمالهم المعلقة على المسيا الذى سيأتى لكى يقلب الأوضاع الراهنة ويقيم على أنقاض الامبراطورية الرومانية ملكوت الله. إذاً فقد كان صمت يوسيفوس (أو شبه الصمت) ما هو إلا صمتاً سياسيا دبلوماسيا لأنه لم يرد أن يسىء إلى علاقته بالسلطات الحاكمة الرومانية التى منحته إمتيازات كثيرة ، ولا إلى علاقاته مع اليهود أبناء شعبه . وفى الوقت نفسه لايريد أن يعرض أتباع يسوع لبطش الرومان .

لهذه الأسباب يعتقد الكثيرون بأن يوسيفوس فضل أن يسدل ستارا على شخصية يسوع . ولهذه الأسباب أيضا إعتقد البعض بأن النص الذى ذكرناه آنفاً عن يسوع بأنه إنسان حكيم .. فهو المسيح.. الخ ..والذى ارتكزت عليه الكنيسة وقتا طويلا ؛ قد يكون مصدره مسيحيا أو على الأقل امتدت إليه يد مسيحية فغيرت الكثير منه ، ولكن هذا لايغير شيئا من إيماننا بالمسيح يسوع .

جـ ـ المصادر الوثنية :

إن المؤرخ الرومانى الوثنى « تاسيت » الذى كان معاصرا لبعض الرسل (٥٥ ـ ١٢٠ ب.م) ، يذكر فى حديثه عن حريق روما اسم المسيح فيقول : « إن المسيحيين لقبوا بهذا الأسم بسبب نسبتهم إلى المسيح الذى فى عهد طيباريوس ، حكم عليه بالموت بيلاطس البنطى ، ومع أن هذه الخرافة الشنيعة قضى عليها فى وقتها ، بالقضاء على الذى بدأ بها ، إلا أنها انتشرت من جديد ليس فقط فى اليهودية مهد هذا الشر بل فى روما نفسها . ولهذا فقد اضطر الحكام إلى مطاردة من يعتنقون هذه الديانة ، ليس فقط لأنهم أحرقوا روما بل لأنهم أعداء

الجنس البشرى » (١) • إن أسلوب هذه الشهادة يبعد عنها كل الشبهات بأنها دخيلة على التاريخ أو من عمل يد مسيحية لأنها تلقى جريمة حرق روما على المسيحيين ، وهى التهمة التى أتهم بها نيرون المسيحيين ، كما أن المؤرخ يصفهم بأعداء البشرية ••» ثم هناك شهادة أخرى لاتقل أهمية عن هذه الشهادة وهى خطاب بلينوس الصغير الحاكم الرومانى لبيثينيا ، إلى الامبراطور تراخاموس فى سنة ١١١ ب•م• ويقول فى هذا التقرير : « إن هذا المذهب انتشر فى كل مدينة وفى كل قرية ، فقد هجرت هياكل آلهتنا مع مذابحها ، ولهذا فقد ألقيت الشماسات فى السجون لتعذيبهن ، وكان رد الفعل هو صلواتهن الحارة • وعادة يجتمع المسيحيون قبيل الفجر فى يوم محدد لاكرام المسيح إلههم بالترانيم » (٢) •

توجد أيضا شهادة أخرى ، هى شهادة طاليس السامرى الذى يتكلم عن خسوف الشمس الذى حدث فى أيام طيباريوس ، ويعلق يوليانوس الأفريقى على هذا الحدث بالقول بأن طاليس أخطأ عندما قال إنه قد حدث خسوف طبيعى للشمس ، لأنها كانت معجزة • على أننا كنا نتوقع — كما يقول الأستاذ جوجل GOGUEL أن يوليانوس الأفريقى يضيف موضحا بأن هذه الظاهرة التى حدثت فى ذلك التاريخ بالذات والتى يعتبرها طاليس ظاهرة طبيعية هى معجزة لأن يسوع صلب فى هذا التاريخ ، وهو الخسوف الذى تتكلم عنه الأناجيل (متى ٢٧ : ٥ ، مر ١٥ : ٣٣ . لو ٢١ : ٤٤ — ٤٥) (٣) •

---

(١) انظر كتاب بورنكام (G. Bornkamm) ص ٣٤ ، ٣٥
(٢) انظر كتاب الأب بولس الياس اليسوعى « يسوع المسيح شخصيته وتعاليمه » ص ١٢ ، ١٣ .
(٣) انظر كتاب جوجل (La Vie de Jésus) ص ٧٠ — ٧٥

إن الوثائق اليهودية والوثنية التى سبق أن أشرنا إليها تثبت بطريقة لاتترك للشك مجالا ، وجود يسوع التاريخى على أرضنا • ومع ذلك فلابد أن القارىء يندهش كثيرا جدا لضآلة وقلة هذه الوثائق التاريخية التى تتكلم عن يسوع وكيف أن رومية التى كان يمتد سلطانها على دول كبيرة وعديدة فى الشرق وفى الغرب ، لاتحتفظ بهذه الوثائق خصوصا أن يسوع قد حكم عليه بالصلب على يد بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى ؟

مما لاشك فيه أن المؤرخين الوثنيين لم يسجلوا لنا عن يسوع إلا القليل الذى رأيناه ويرجع ذلك إلى أن تاسيت وبلينوس الشاب وبليفوس العجوز ، وسوتيون وآخرون ، بل المجتمع الرومانى بأسره فى القرن الأول إلا القلة القليلة جدا (الكنيسة الرومانية) ـ لم يعتبروا المسيحية إلا خرافة من خرافات الشرق ، وبناء عليه لم يعيروها إهتماما كبيرا ، إلا فى الوقت الذى كان يشعر فيه هذا المجتمع بأن هذه الخرافة (المسيحية) تمثل خطرا على الدولة أو تشيع اضطرابات سياسية فيها، هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى فقدظن كثيرون أن المسيحيةهى شيعة أو طائفة يهودية جديدة وليست ديانة جديدة ، ولذلك لم يهتم المؤرخون الوثنيون فى بادىء الأمر بتاريخ ميلادها ونشأتها وتطورها •

أما بخصوص غياب إسم يسوع من التقارير المرفوعة إلى روما بالرغم من محاكمته فى محكمة رومانية على يد حاكم رومانى ، فصحيح أن إسم يسوع لايوجد فى التقارير الموجودة ، وبالرغم من ذلك فإن يوستينوس الشهيد (JUSTIN MARTYR) يشير فى إحدى عظاته إلى أن السجلات الرومانية تحتوى على قضية محاكمة يسوع ، كذلك أشار ترتليانوس إلى هذا التقرير ، وفى حقيقة الأمر فإن السجلات الرومانية لاتحتوى على قضية محاكمة يسوع • ويوستينوس الشهيد كان يظن

أن قضية مثل هذه لابد وأن تكون مسجلة فى السجلات الرومانية ، وهو لم يقل بأنه إطلع على قضية محاكمة يسوع فى السجلات الرومانية،بل كان يعتقد بأن قضية مثل هذه لابد وأن تكون قد سجلت فى التقارير التى رفعت إلى الامبراطور .

والسؤال الذى يجب طرحه الآن هو : لماذا إذن لايوجد أى أثر فى السجلات الرومانية لقضية محاكمة يسوع ؟

إن كنا لانجد حتى الآن أى أثر لاسم يسوع فى التقارير الرسمية المرفوعة إلى روما فإن ذلك يرجع إلى عدة حقائق .

١ — كان بيلاطس شخصا قاسيا وله عدة سوابق مع روما ومع الشعب اليهودى ، ومن هذه السوابق أنه حكم بقتل كثيرين دون محاكمة رسمية ، ولقد ذكر هذا أغريباس فى أحد تقاريره ضد بيلاطس .

٢ — إذا كان بيلاطس لم يرسل تقريرا مفصلا أو لم يرسل أى تقرير إلى روما بخصوص محاكمة يسوع ، فذلك لأنه ربما كان يعتبر أن يسوع لايتمتع بالجنسية الرومانية فلا داعى إذن لإرسال تقرير عن هذه الحالة .

٣ — ربما إعتبر بيلاطس أيضا أن محاكمة يسوع قضية محلية ولا تخص إلا النظام والبوليس المحلى فلا داعى إذاً لابلاغ روما . هذا فى حالة عدم وجود أى وثائق تاريخية مرفوعة من بيلاطس إلى روما بخصوص محاكمة يسوع ، لأن علم الحفريات يقدم لنا فى كل يوم مفاجآت علمية سارة ، فربما يقدم لنا المستقبل حلا سليما ومنطقيا لهذه المشكلة .

د ـ حركة النقد التاريخى :

مما سبق يتضح لنا جيدا أن وجود « يسوع التاريخ » حقيقة لاشك فيها ، ولقد قامت فى القرنين الماضيين حركات متنوعة ومختلفة وموضوع بحثها هو : « يسوع التاريخ » • فقد بدأ النقد التاريخى لحياة يسوع فى القرن الثامن عشر ، على أنه لم يبدأ بطريقة جديدة وعلمية إلا فى القرن التاسع عشر عندما قام ريتشارد سيمون (RICHARD SIMON) بتقديم بحث شامل ودقيق عن حياة يسوع • وكان هذا النقد وليد الحركة التى سميت بحركة التحرر والتى قام بها النقاد فى انجلترا وفرنسا ، ثم مدرسة العقليين والتنوير فى ألمانيا • ومن مشاهير الذين قاموا بحركة النقد التاريخى فى ألمانيا أحد أساتذة اللغات الشرقية فى مدينة همبورج وهو هرمان صموئيل ريماروس (HERMANN SAMUEL REIMARUS) (١٦٩٤ — ١٧٦٨) الذى ترك خلفه حوالى ٤٠٠٠ صفحة ، تعتبر دفاعا عن الديانة الطبيعية• ويعتقد ريماروس (REIMARUS) بأن يسوع كان وظل يهوديا ولم يفكر فى أن يخلق ديانة جديدة • وكل ما أراد أن يفعله هو الحصول على الاستقلال الوطنى ، وأن يفهم الشعب أنه ابن الله بمعنى الملك المسيا • ويواصل ريماروس بحثه بالقول إن يسوع كاد يصل إلى تحقيق غرضه أو برنامجه فى حادثتين أولاهما : عندما أرسل تلاميذه إثنين إثنين فى إرسالية • ثانيتهما : عندما جاء هو نفسه مع تلاميذه إلى أورشليم ودخل إليها دخول الملك المنتصر • ولكن هذه المحاولة كما يقول ريماروس ساقت يسوع إلى الموت ، وأما التلاميذ الذين لم يريدوا العودة إلى العمل بعد موته فإنهم إخترعوا من عندياتهم فكرة قيامته من الأموات وكذلك فكرة الفداء •

وجاء بور (BAUR) بعد ريماروس الذى وإن كان قد ناقش مشكلة يسوع وحياته ، إلا أنه نبر كثيرا على الناحية التفسيرية • وبعد

ذلك جاءت المدرسة العقلية التى تعتبر يسوع إنسانا ذا تعاليم سامية ، فهو معلم عظيم ، حكيم ، مصلح ... الخ ، والذى فيه يتحد العقل والدين، والممثل لهذه المدرسة هو جوتاب بولس (SCHLEIER MACHER)
ويظهر بعد هذه المدرسة شلير مخر (K.H VENTURINI)
الذى ركز جهوده على الانجيل الرابع • فإن كان العقليون قد وجدوا فى يسوع رسولا لديانة معقولة وحديثة فإن شلير مخر يرى فى يسوع معلم العقيدة •

ثم جاءت طائفة أخرى من الكتاب يمكننا أن نسميها الرومانسية •وعلى رأس هذه الطائفة فنتنينى (١٨٤٨٩-١٧٦٨) (K.H. VENTURINI)
ثم باهرد (١٧٩٢ - ١٧٤١، K.F. BAHRD) ويظن كل منهما بأن يسوع كان عضوا فى شيعة الأسينيين (ESSENIENS) وقد تعلم وتدرب على يد معلمى هذه الشيعة • ونظريتهما عن قيامة يسوع تقول : إن يسوع أنزل من على الصليب فاقد الوعى وعالجه أطباء أسينيون إلى أن استرد قوته وظهر لتلاميذه الذين اعتقدوا أنه مات •

وبعد هذه الطائفة من الكتاب والنقاد ظهر فى سنة ١٨٣٥ كتاب كل له تأثير كبير جدا فى الأوساط العلمية واللاهوتية • وهو كتاب ستراوس (DANIEL FRIEDRICK STRAUSS) وكان محور بحث استراوس فى هذا الكتاب هو أن الديانة لاترتكز على حقائق أو على أحداث بل على أفكار والأفكار تحتاج إلى ظواهر لكى تلعب دورها • فلا يهم ما إذا كانت القصص الانجيلية تاريخية أو غير تاريخية ، ولكن المهم الفكرة • وهنا يدخل استراوس فكرة الأسطورة (MYTHE) لشرح حقيقة سامية ولقد أثارت أفكاره فى ذلك الوقت نقاشا حادا حول النقاط الثلاثة الآتية :

١ ـ الأسطورة •
٢ ـ العلاقة بين يسوع التاريخ وبين المسيح •
٣ ـ موضوع تأليف الأناجيل •

ثم فى سنة ١٨٤٩ ظهر كتاب رينان (RENAN) الذى كتبه فى سوريا • والذى يقدم لنا فيه صورة ليسوع كشاب حلو حالم ، يتجول فى قرى الجليل وهو باسم للحياة ، ولقد صنع منه أتباعه صانع معجزات ومسيا ، الأمر الذى قاده فى نهاية الأمر إلى الموت (١) •

مشكلة حياة يسوع فى القرن العشرين

إن السؤال المختص بحياة يسوع التاريخية كان موضوع نقاش وفى أحيان كثيرة كان موضوع نقاش شائك ، إلا أنه لم يكن من المواضيع التى لها أولويتها فى النقاش والبحث • ولم يأخذ هذه الأولية إلا فى القرن التاسع عشر عندما ظهرت كتابات ولها وزن (WELL HAUSEN) ثم ويز (WREDE JOHANNES WEISS) وآخرين• ولقد حاول هؤلاء بكتاباتهم أن يبينوا أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل الأربعة الموجودة لدينا ، وأن هذا الانجيل عبارة عن أجزاء متفرقة ، يتكلم عن حقبات مختلفة من الزمن • ولقد حمست هذه الأجزاء تحت تأثير بعض الأفكار اللاهوتية • وهذا يعنى أن قصة مرقس المختصة بحياة يسوع قد مرت ببعض التصحيحات والتكملة • وبناء على ذلك فإن متى ولوقا بل ويوحنا قد استقوا من هذه المعلومات الصحيحة •

ولقد كان لهذه الكتابات تأثيرها العميق ، فهزت معظم الأوساط العلمية واللاهوتية •

(١) راجع كتاب Goguel «La Vie de Jésus» من ص ١ ـ ٣٩

ثم جاء بعد ذلك ألبرت شويتزر الذى أشاد بالجهود التى بذلها كتاب القرن التاسع عشر لايجاد حل لمشكلة يسوع التاريخية دون جدوى . وعلق على هذه المجهودات بالقول : « إن كل جهد للوصول إلى تأليف أو « بناء » حياة ليسوع من الناحية التاريخية لا يقودنا إلا إلى سلسلة من المتناقضات التى لا يمكن حلها » . وبعد إثنتى عشر سنة من ظهور كتاب شويتزر « يسوع » ظهرت مدرسة أخرى ألمانية يمكننا أن نلخص تعاليمها عن يسوع فى النقاط التالية :

(١) إن قصص الأناجيل عبارة عن عناصر متناثرة لا تتبع تسلسلا عضويا تكوينيا وأنها سطحية .

(٢) عدم اعتبار الأناجيل كمستندات تاريخية بحتة لأنها لم تؤلف وتحفظ لكى تعطى فكرة عن يسوع ، الذى عاش وعلم فى الجليل واليهودية والذى مات فى أورشليم ، بل هى مستندات دينية لشرح من هو يسوع بالنسبة للايمان أى أن الأناجيل لم تكتب كوثائق تاريخية بل كرسائل دينية وتقوية لتثبيت إيمان المؤمنين .

(٣) إن مواد الأناجيل تبدو كأنها كتبت لتملأ الوظائف المتنوعة المختلفة فى حياة الكنيسة الأولى وحاجاتها . ولذلك فإنه من الصعب التمييز بين العناصر التاريخية وبين العناصر الغير التاريخية الخاصة بحياة يسوع فى الأناجيل . ولقد كتب بولتمان يقول : « إنه ليس فى استطاعتنا أن نعرف سمات يسوع وحياته الشخصية ... إذ لا يمكن أن نثبت صحة أى كلمة من كلامه . وكل ما يمكن لنا أن نقواه عن حياة يسوع وعن شخصيته هو ألا نقول شيئا ... يرجع ذلك إلى عدم التأكد من الوثائق التى لدينا وخصوصا أنها قليلة ، فمن الصعب التأكد مما إذا كانت هذه الأقوال هى فعلا أقوال المسيح أم هى

اضافات من الكنيسة الأولى » (١) •

ويتساءل جوجل مستغربا عن النتيجة التى وصل اليها البحث العلمى التاريخى بالرغم من الجهود التى بذلت منذ أيام ريماروس إلى المدرسة الألمانية فى القرن العشرين ، ويعلق بالقول : « إن كانت جهود الباحثين قد ادت إلى هذه النتيجة السلبية فربما يرجع ذلك الفشل وعدم التأكد إلى أن الانسان يريد أن يحصل على تأكيد ١٠٠ ٪ الأمر الذى ليس فى استطاعة التاريخ أن يقدمه للانسان » (٢) •

وحول هذا الموضوع دار حوار حاد وجاد فى سنة ١٩٢٣ بين هرنك وبين كارل بارت وكانت وجهة نظر هرنك أستاذ تاريخ العقائد المشهور فى ألمانيا هى أن البحث العلمى والتاريخ والنقد التاريخى هى الأدوات التى بها وعن طريقها يجب الوصول إلى تكوين عقيدة منطقية وصحيحة عن المسيح، يمكن أن يقبلها الانسان العصرى ، والتى بها يجب شرح الكتاب المقدس الغامض والتمييز بين يسوع الأحلام ويسوع الحقيقة• أما كارل بارت فقد رفض رفضا باتا فكرة هرنك ، لأنه كان يؤمن بأن العلم الأكيد والصحيح لا يأتى إلا عن طريق الايمان الذى يعطيه الله نفسه ، لأننا لا نعرف المسيح حسب الجسد كما يقول الرسول : « إذا نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد • وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد » (٢ كو ٥ : ١٦)• وهنا نلاحظ أن كارل بارت يضع على رأس القائمة الوحى الالهى وليس البحث العلمى والنتدى للتاريخ للوصول إلى معرفة المسيح(٣) ، لأنه

(١) راجع ص ٣٨ من كتاب جوجل La Vie de Jésus
Rudolf Bultmann. Jésus 33 — 36, 39

(٢) انظر كتاب جوجل ص ٣٩ Goguel. La Vie de Jésus

(٣) Jean Robinson, pp. 44 — 46.

إن لم يعلن المسيح نفسه بالروح القدس للجاهل والباحث فيظل كلاهما فى ظلام دامس لأنه هو النور الذى بنوره نرى نوراً •

ولا نريد أن نستطرد فى الحديث واقتباس أقوال الكتاب واللاهوتين وتفنيد آراءهم بخصوص هذا الموضوع وإلا لأفردنا له مجلدا خاصا • إلا أنه من واجبنا لفت نظر القارىء إلى حقيقة هامة هى : لقد ظهرت ، نتيجة الحوار والنقاش والمجادلات التى تحولت إلى صراع عنيف ومرير ليس فقط فى القرون الثلاثة الأخيرة بل على مر العصور منذ أن ولدت الكنيسة ، عدة اتجاهات ونزعات لاهوتية مختلفة يمكننا أن نسميها ، الاتجاهات اللاهوتية المحافظة والاتجاهات اللاهوتية المتحررة • وتحت هذين الاسمين : « المحافظة •• •• والمتحررة » نجد اتجاهات لاهوتية أخرى كثيرة • ولكى لا ندخل فى التفاصيل ، لنكتفى إذا بهذين الاسمين (الاتجاهات المحافظة) و (الاتجاهات المتحررة) وموقفهما من يسوع •

والاتجاهات اللاهوتية المتحررة كما تدعى لنفسها هذا الاسم ، ترى فى يسوع إنسانا حكيما ومعلما عظيما ومصلحا إجتماعيا لايقارن • ولقد رفعته هذه الحركة إلى درجة لم يرتفع إليها أى انسان فى الوجود من قبله، على أنها لم ترتفع به إلى درجة أعلى من إنسان، فهو إنسان ومازال إنسانا بالرغم من سموه فوق كل إنسان • فهى لاترى فيه إلا يسوع المثال الحى المحب والحنان والتضحية ، يسوع الذى كان يطوف كل الجليل يعلم ويكرز ببشارة الملكوت • لقد تزعم هذه الحركة البعض من الذين ذكرنا أسماءهم فى مجال الحديث عن يسوع وحركة النقد التاريخى •

أما الاتجاهات اللاهوتية المحافظة فقد رأت فى يسوع الناصرى مارأته

الاتجاهات اللاهوتية المتحررة من أن يسوع الناصرى إنسان حكيم ومعلم عظيم ومصلح إجتماعى لايقارن ، ولكن كل هذه الأوصاف ليست هى كل أوصاف يسوع ، فإن يسوع الناصرى ابن مريم هو أيضا وقبل كل كل شيء ابن الله . ومن اللاهوتيين الذين تمسكوا بشدة بهذا الأمر ، كارل بارت ، فقد ظل يدافع طوال حياته ضد « حركة التحرر » .وستكون لنا الفرصة فيما بعد للرجوع إلى كتاباته العديدة ، فهو من الكثيرين الذين يعلنون أن يسوع الناصرى قبل أن يكون يسوع الناصرى هو المسيح ، ابن الله ، بل هو الله نفسه . فإن يسوع الناصرى لم يرتفع إلى درجة سامية وعالية وعظيمة لم يصل إليها إنسان ، لم يرتفع إلى درجة الألوهية أو منح صفة إلهية لم تكن من حقه ومن صفاته الطبيعية من قبل ، بل قبل أن يكون إنسانا محبا ، حنونا ، وديعا ، مضحيا ، عظيما ، .. الخ هو الله ، وكل الأعمال التى قام بها يسوع والمعجزات التى عملها : قام بها وعملها بصفته الله ، « اللوغس » الساكن فى يسوع الناصرى .

والله هو الذى يعلن نفسه على مر العصور بطرق مختلفة متنوعة . فعندما يتقابل «يسوع الايمان» مع الإنسان فإن هذا الأخير (الإنسان) لايستطيع ببحثه وتنقيبه الوصول إلى يسوع التاريخ . وهذا يذكرنا بقول القديس انسلم: «أؤمن لكى أفهم ولست أفهم لكى أؤمن».. وأنا لا أريد أن أقول إنه لا داعى للبحث العلمى والنقد التاريخى ،ولكن ما أريد قوله هو أن المقابلة الشخصية مع الرب يسوع كالمخلص وكالمسيح بالإيمان ، هى الخطوة الأولى التى يجب على كل باحث ودارس القيام بها ، هى قبول المسيح الذى شهدت له الكتب المقدسة الصادقة ، قبل البحث عن الأدلة التاريخية سلبية كانت أم إيجابية عن وجوده ، فبدون المقابلة مع يسوع الإيمان ستكون أبحاثنا ودراستنا عبارة عن نقر آبار مشققة لاتضبط ماء كما يقول النبى : « تركونى أنا ينبوع المياه الحية

لينقروا لأنفسهم آبارا آبارا مشققة لاتضبط ماء (إر ٢ : ١٣) ٠

فمسيح الايمان كان ومايزال وسيظل حجر عثرة أمام الأجيال وأمام الشعوب على مر العصور فى كل مكان وستظل نبوة سمعان صادقة ومطبقة فى كل زمان ومكان ، النبوة القائلة : « إن هذا (يسوع) قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم » (لوقا ٢ : ٣٤)٠ «٠٠ من له أذنان للسمع فليسمع ٠٠٠ فانظروا كيف تسمعون » (لو ٨ : ٨ ، ١٨) إفتح أذهاننا يارب لكى نؤمن ونفهم ٠٠

متى ولد يسوع ؟

رأينا فى الصفحات السابقة أن يسوع الناصرى حقيقة واقعية لاشك فيها ، فإن مرور يسوع على أرضنا لم تشهد به الكتب المقدسة فحسب ، حيث الشواهد فى العهد الجديد التى تشير إلى يسوع عديدة جدا ، بل إن التاريخ العالمى اليهودى والوثنى قدم لنا أدلة ووثائق تاريخية ، وإن كانت قليلة ومحدودة جدا ، إلا أن معظمها مؤكد وصحيح لا شك فيه ، فإن كان يسوع الناصرى الذى تشهد له الكتب المقدسة حقيقة تاريخية واقعية ، فأين ولد ، وما هو تاريخ ميلاده ؟

اين ولد يسوع ؟

إن الأناجيل تعلمنا بأن يسوع الناصرى ولد فى بيت لحم اليهودية ، « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق جاءوا إلى أورشليم» ،(متى ٢ : ١ ، ١ : ١٨ ــ ٢٤) ، فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ٠٠٠ وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد ٠٠٠» (لو ٢ :٤ ــ ٧)٠

متى ولد يسوع ؟

لقد اعتقد ويعتقد الكثيرون بأن التقويم الحالى يحدد لنا سنة ميلاد يسوع • فعندما نقول على سبيل المثال سنة ١٩٧٩ يظن البعض أن هذا التاريخ يحدد لنا تاريخ الميلاد : ففى عرفهم أن يسوع ولد فى بيت لحم منذ ١٩٧٩ • وحقيقة الأمر تختلف عن ذلك ، إذ أن التقويم الحالى الذى نستعمله الآن لايدل على ميلاد يسوع أو التاريخ الحقيقى لميلاده • ويرجع عدم الصواب فى ذلك أو بعبارة أصح عدم التأكد من حقيقة هذا التاريخ إلى الطريقة التى استعملها الراهب دينسيوس الصغير الأرمنى ((DENIS LE PETIT) • بدأ الراهب دينسيوس الصغير فى وضع تقويمه فى بداية القرن السادس متخذا التقويم الرومانى قاعدة لحسابه • ومن المعروف أن التقويم الرومانى يبدأ بسنة ٧٤٥ ق•م• (١) وعليه فقد ظن بأن عملية التجسد حدثت فى سنة واحد، وبذلك تصبح سنة واحد هى سنة التجسد ، والسنة الفاصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد •

ونعرف من التاريخ أن الكنيسة لم تبدأ فى الاحتفال بعيد الميلاد قبل القرن الثالث ، وكان يحتفل به فى السادس من يناير (٦ يناير) • على أن الآب هولز مشتين (HOLZ MEISTEN) حاول جمع بعض الوثائق التاريخية الخاصة بميلاد يسوع والتى منها يستنتج بأن الميلاد حدث فى الفترة ما بين سنتى ٥ ق•م — ٢ ب•م•(٢)

على أن البعض الآخر من المؤرخين يظن أن سنة الميلاد تقع بين سنتى ٧ ق•م وسنة ٣ ب•م•

---

(١) السنة التى تأسست فيها روما •

(٢) راجع كتاب ص ١٥٠ — ١٦٣
(Goguel. Jésus, Histoire de vies de Jeans)

ولكن عندما ندرس الأناجيل والتاريخ بطريقةواعية يمكننا الوصول إلى تحديدتاريخ تقريبى لميلاديسوع •فان إنجيلى متى ولوقا يسجلان أنا أن حادثة التجسد والميلاد تمتا فى آخر أيام هيرودس الملك (متى ٢ : ١ ، لو ١ : ٥ ، ٢٦) •ونحن نعلم أن هيرودس الملك (هيرودس الكبير) مات حوالى سنة ٧٥٠ رومانية، أى بين سنتى ٤،٦ ق•م• ويحتمل أنه مات بعد ميلاد المسيح بعدة شهور وقبل الفصح أى فى حوالى شهرى مارس أو أبريل وهذا واضح من كلام الملاك ليوسف فى مصر •

فلما مات هيرودس الملك إذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا : « قم وخذ الصبى وأمــه واذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى»• (متى ٢ : ١٩ — ٢٠) وبما أن تاريخ موت هيرودس معروف لنا ، وهو حوالى سنة ٤ ق•م• حسب التقويم الرومانى فالذى نجهله هو تاريخ التجسد أو الميلاد ، وهو لايمكن أن يتعدى السنتين قبل موت هيرودس ، وهذا واضح من قصة المجوس : « حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدا • فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذى تحققــه من المجوس » (متى ٢ : ١٦) •

على أن لوقا من جانبه يعطى لنا بعض التفصيلات التى تساعدنــا كثيرا على تحديد تاريخ الميلاد • ففى الأصحاح الثانى يقول : « وفى تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة •••» (لو ٢ : ١ — ٦) • لقد ظل المؤرخون مدة طويلة يرفضون هذه الآيــة وحجتهم فى ذلك أن التاريــخ الرومانى لم يسجــل هــذا الاكتتاب أو الاحصاء الذى يتكلم عنه الإنجيل ، وظنوا أن لوقا أخطأ خطأ تاريخيا شنيعا • ولكن علم الحفريات قدم لنا مؤخرا جوابا يؤيد قول لوقا ، فإن

الحفريات التي أجريت فى بعض القري وفى بعض المدن والصحاري المصرية كشفت لنا عن بعض أوراق البردي التي تحتوي على وثائق تاريخية يذكر فيها أمر الاحصاء فى بلاد مصر وبلاد الغال وسوريا . وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن أمر الاحصاء نفذ أيضا فى فلسطين . وكانت عملية الاحصاء كما تصفها لنا الأوراق البردية تجرى كل أربعة عشر عاما . ولقد بدأت عمليات الاحصاء هذه من سنة ٢٠ ق.م. إلى سنة ٢٧٠ ب . م . (١) فإذا كان الاحصاء الأول تم فى سنة ٢٠ فالاحصاء الثاني (٢) تم إذاً فى سنة ٦ ق.م. ويحتمل أن يكون فى آخر السنة ، وعلى ذلك يكون ميلاد المسيح بين سنتي ٦ و ٤ ق.م. (قبل الميلاد) . وهناك شاهد آخر فى إنجيل لوقا يساعدنا على تحديد ميلاد المسيح : « وفى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر ، إذ كان بيلاطس البنطى واليا على اليهودية وهيرودس رئيس ربع .... كانت كلمة الله على يوحنا ابن زكريا فى البرية » (لو ٣ : ١ - ٢) ، ومن التاريخ الروماني نعلم بأن طيباريوس قيصر كان ثاني أباطرة الرومان ، وكان الامبراطور الأول يدعى أغسطس ومات فى يوم ١٩ أغسطس سنة ٧٦٧ أي سنة ١٤ ب.م. (بعد الميلاد) . ومع أن طيباريوس كان يحكم مع الامبراطور أغسطس منذ سنة ١١ أو ١٢ ب.م. إلا أنه لم يصبح امبراطوراً إلا سنة ١٤ ب.م. وبناء على ذلك يمكننا أن نستنتج الآتى :

امتد حكم أغسطس قيصر إلى سنة ١١ أو ١٤ ب.م. وهى بداية حكم طيباريوس الذى فى السنة الخامسة عشرة من عهده ظهر يوحنا المعمدان . فإذا جمعنا ١١ سنة تقريبا ب.م. قبل بداية حكم طيباريوس +

---

(١) راجع تفسير Lagrange لانجيل لوقا ص ٦٥ - ٦٦ (باللغة الفرنسية) .

(٢) نقصد بالاحصاء الثاني : اى الاحصاء الذى تم فى أيام حكم أغسطس قيصر ولكنه الاحصاء الاول بالنسبة لحكم كيرينيليوس والى سوريا .

١٥ سنة لغاية ظهور يوحنــا فالمجموع = ٢٦ سنة ب٠م٠ ونحن نعلم أن يوحنا ويسوع ولدا فى نفس السنة ، وأن يسوع بدأ خدمته العلنية فى سن الثلاثين ، « ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثــين سنة ٠٠٠ » (لو ٣ : ٢٣) فميلاد المسيح تم إذاً فى حوالى السنة الرابعة قبل الميلاد أو الســنة الخامسة قبل الميلاد (هذا من الناحية التاريخية) ٠ ولكن السؤال الذى يعترضنا الآن هو : كيف ولد يسوع ؟

وهى مشكلة التجسد أو الميلاد العذراوى ، وهى مشكلة حيويــة أثارت نقاشا حادا وجدلا طويلا على مر العصور ، ولذلك يحسن بنــا أن نفرد لهذا الموضوع فصلا خاصا به ٠:

الفصل الثانى

الميلاد العذراوى

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الموضوع الخاص بميلاد يسوع يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى عدة نقاط هامة :

١ - إن المسيحى المؤمن الحقيقى عميق الايمان لايستمد إيمانه أو يثبته على مايقوله العلماء أو المؤرخون عن يسوع،مع أن مايقوله العلماء والمؤرخون هام وفى بعض الأحيان فى غاية الأهمية ، ولكنه يستمد إيمانه من شخص المسيح الصخرة الحقيقية ، ولذلك فمرجع المسيحى الحقيقى ليس ما يقوله المؤرخون والعلماء عن يسوع ، بل ما يقوله يسوع نفسه عن نفسه ، وما تقوله الكتب المقدسة التى تشهد له .

٢ - فالمؤمن الحقيقى يشكر الله من أجل النتائج الايجابية والمؤيدة لبعض الحقائق ، التى يتوصل إليها العلم والعلماء ، ولكنه لايخاف ولا يهتز إيمانه عندما تظهر بعض الآراء السلبية المضادة لبعض الحقائق الكتابية والمسيحية ؛ وذلك لأنه يعلم أن الكتاب المقدس ، كتاب الله ، ليس كتابا علميا أو موسوعة علمية كتبها مجموعة من المتخصصين فى مواد مختلفة ، وكل همهم تجنب الأخطاء العلمية فى مواد تخصصهم ، فى التاريخ ، أو الجغرافيا ، أو الطب أو الهندسة أو الميكانيكا أو

التكنولوجيا ... الخ . بل هو كتاب الله والوحى المقدس ، أو بالمعنى الأصح هو رسالة الله المحب للانسان الخاطىء . فالكتاب إذاً هو خطاب أو رسالة قبل أن يكون كتابا علميا ، وهدفه ليس شرح القواعد العلمية بطريقة صحيحة ؛ بل هدفه هو توصيل الرسالة للانسان .فالكتاب المقدس هو موحى به من الله (وهو ما يختلف عن التنزيل).

٣ ـ من واجب المسيحى الذى يريد الدرس والتعمق ، ليس فقط أن يعرف ويدرس آراء الذين يؤيدون أفكاره ومعتقداته الشخصية ؛ بل أن يتعرف أيضا على آراء المعارضين وما هى وجهة نظرهم . ولذلك فمن واجبنا أن ندرس آراء ومعتقدات الذين لايقبلون عقيدة الحبل العذراوى .

٤ ـ إن العصر الذى نعيش فيه الآن يتميز بسرعة الاتصال والمواصلات، فالسيارة والقطار والطائرة والتليفون والتلغراف والراديو والصاروخ والعقل الالكترونى ، كل هذه الوسائل ووسائل أخرى كثيرة سهلت على الانسان مهمة الدرس والبحث والأطلاع ، ليس فقط على ما يحدث وما يصل إليه العلماء محليا بل عالميا أيضا . فمن المؤسف إذن عدم الاطلاع ودرس الآراء التى يطلع عليها فى الخارج ، العلمانى البسيط وليس فقط دارسو اللاهوت . فعلى دارس ومعلم اللاهوت المحافظ أن يدرس هذه الآراء ، محافظة كانت أو متطرفة ، وأن يحذر الشباب وغير الشباب من الأخطاء التى يدسها اللاهوتيون المتطرفون . وخصوصا أنه ليس من السهل بل من المستحيل وغير المرغوب أن نضع أسوارا على كنائسنا أو على كليات اللاهوت حتى لا يدخل فيها المتطرفون بآرائهم ؛ لأنه حتى لو لم يستطع هؤلاء المتطرفون الدخول إلى كلياتنا فإننا نحن ندخل كلياتهم ومجتمعاتهم ولنا اتصالات عديدة ومتنوعة معهم .

ولهذا فقد فكرنا أنه من الواجب بل من المفيد أن نتعرض ولو جزئيا فى دراستنا لهذا الموضوع الخاص بالتجسد، لبعض الأفكار والآراء التى ترفض هذه العقيدة ،وعلى أى أساس يضرب هؤلاء عرض الحائط بالعقائد المتعلقة بالتجسد وبالميلاد العذراوى أو بعبارة أصح ما هى العقبات أو الصعوبات التى وقفت فى وجه هذه الجماعة حتى ترفض هذه العقيدة ؟ ثم ما هو الأساس الذى عليه يرتكز الذين لايقبلون هذه العقيدة ، عقيدة التجسد والحبل بدون أى اتصال أو علاقة جنسية بين مريم ويوسف أو أى شخص آخر ؟

وعندما ندخل فى دراسة هذا الموضوع (أى موضوع الميلاد العذراوى) يجب أن نعترف بعجزنا الكامل سواء فى العلم أو التعبير ، لأنه ليس من السهل ، بل يكاد يكون مستحيلا ، إن لم يكن روح الله عاملا ، أن يتكلم الانسان عن الله ، لأن التكلم عن المسيح هو التكلم عن عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا • فلنخلع نعالنا إذن لأن الأرض التى سنسير عليها هى أرض مقدسة ولا يمكن أن نسير عليها إلا بروح الصلاة والايمان والخشوع والتواضع ، وعندئذ يعلن لنا الرب نفسه : « أهيه الذى أهيه » •

الأسباب التى من أجلها رفض البعض الميلاد المعجزى أو الميلاد العذراوى

إن الذين يرفضون عقيدة الميلاد العذراوى أو الحبل بدون أى علاقة جنسية ، ينتمون إلى جماعة المتحررين والبروتستانتية الحديثة (المودرن) وطوائف أخرى •••• والأسباب التى من أجلها يرفض هؤلاء عقيدة الميلاد العذراوى بدون أى علاقة جنسية هى :

أ ــ صعوبات علمية :

إن هذه الجماعة ترفض رفضا باتا كل ما هو خارق للطبيعة وكل ما لا يمكن تفسيره أو تحليله أو التأكد منه بطريقة علمية ، وبما أن الميلاد العذراوى ظاهرة لا يمكن تحليلها أو التأكد منها بطريقة علمية فلا يمكن قبولها • إن غياب العامل الذكرى هو استحالة بيولوجية لا يمكن بأى حال من الأحوال حلها ، إلا عن طريق الانجاب الصناعى، الأمر الذى لم يكن معروفا فى ذلك الوقت • وحتى فى الانجاب الصناعى فعامل الذكر موجود ؛ وعن طريقه يتم الانجاب • وبرونر (BRUNNER) [1] يظن بأن الميلاد العذراوى ينفى عمل العامل الذكرى ، وبناء عليه فهو يقلل من ناسوت المسيح ، فوجود الرجل فى هذه العملية أمر هام جدا • لهذا السبب البيولوجى والطبيعى رفض هؤلاء الميلاد العذراوى •

ب ــ صعوبات كتابية :

إن الذين يرفضون الميلاد العذراوى لا يرفضونه لأنه ضد القواعد البيولوجية والطبيعية فحسب ، ولكنهم يعتقدون أن الكتاب لم يشدد عليه كثيرا • ولقد قالوا إن مرقس ويوحنا لايذكران شيئا عن قصة الميلاد العذراوى • فمع أن يوحنا يتكلم عن الكلمة الذى كان من البدء والذى كان عند الله ، إلا أنه لم يشرح لنا بوضوح أن هذا الكلمة جاء إلينا متجسدا فى بطن مريم بدون تدخل أى عامل ذكرى ، ويقول أضداد فكرة الحبل العذراوى المعجزى : إنه ممكن أن «تتم هذه العملية بطريقة طبيعية ، باتحاد رجل وإمرأة ويكون المولود هو ابن الله (اللوغوس) ••• » هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن بولس

(1) Emile Brunner. Tome 2 . p. 392 — 399.

الرسول فى كل رسائله لا يتكلم عن هذا الموضوع بتاتا إلا فى عدد واحد، قد يكون فى صالح أضداد هذه العقيدة أكثر مما هو ضدهم وهو : «ولكن لما جاء ملء الزمـــان أرسل الله ابنه مولـــودا من امرأة مولودا تحـــت الناموس » (غلاطية ٤ : ٤) •

كذلك سفر أعمال الرسل وباقى الرسائل لاتتكلم عن قصة الميـــلاد العذراوى • فاذا استثنينا قصتى (متى ١ : ١٨ ـــ ٢٥ ؛ لوقا ١ : ٢٦ ٤٥) • فالكتاب المقدس لايتكلم عن ميلاد عذراوى فى كل الأسفـــار الباقية •

جـ ـــ مشكلة شجرة النسب :

عندما ندرس العهد الجديد بتدقيق نلاحظ أن كتابه أكدوا بشدة أن يسوع هو ابن داود • فالمسيا الموعود به والذى يجب أن ينقذ الشعب من خطاياه وعبوديته يجب أن يكون من نسل داود • وهذا الأمر ، أى نسب المسيح لداود مهم جدا ليس فقط بالنسبة للعهد القديم،بل بالنسبة للعهد الجديد أيضا • ففى المسيح ابن داود تتحقق للكنيسة المسيحية الوعود الروحية التى كان ينتظرها شعبه فى القديم ، كما يقول « فبهت كل الجموع وقالوا ألعـــل هذا هـــو ابن داود ؟ » (متى ٢١ : ٩ ، مر ١٠ : ٤٧ ، ١٢ : ٣٥ ، يو ٧ : ٤٢ ، رو ١ : ٣ ، ٢ تيمو ٢ : ٨) •فمن هذه الشواهد وشواهد أخرى كثيرة جدا يتضح أن نسب المسيح لداود فى غاية الأهميـــة ، والاعتراض الذى يقدمه الذين يرفضـــون الميـــلاد العذراوى هو الآتى :

سلسلتا النسب فى (متى ١ : ٢ ـــ ١٦ ، لو ٣ : ٢٣ ـــ ٣٨) يذكرأن شجرة نسب يوسف وليس شجرة نسب مريم • فحتى يصل متى إلى هدفـــه

أى لكى يبين بأن المسيح هو من نسل داود ، يعطى لنا سلسلة طويلة من الأسماء التى تنتهى بالقول : « ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح » (مت ١ : ١٦) • وأما لوقا فلكى يصل إلى نفس الهدف أى بأن يسوع هو ابن يوسف وابن داود فيقول : ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف ابن هالى •••• بن داود •••• ابن آدم ابن الله » (لو ٣ : ٢٣ — ٣٨) •

وبناء على ذلك فإن لم يكن يوسف هو الآب الشرعى ليسوع فلا يمكن أن يكون يسوع هو ابن داود • فإن الهدف الذى من أجله سجلت هاتان السلسلتان هو اثبات بنوية يسوع لداود ، إن يسوع ابن يوسف ابن هالى : هو ابن داود • فإذا كان المسيح قد ولد بطريقة معجزية دون أى اتصال جنسى بين مريم ويوسف فإن يسوع يفقد نسبته لداود، الأمر الذى يتمسك به عدد كبير من كتاب العهد الجديد • ولكى يدعم هؤلاء نظريتهم هذه : أن يسوع هو ابن يوسف ، اقتبسوا بعض النصوص الكتابية مثل : « هوذا أبوك وإنا كنا نطلبك معذبين » (مت ٣ : ٥٥ ، لو ٢ : ٤٨) • « وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون أليس هذا ابن يوسف » (لو ٤ : ٢٢) • « وقالوا أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذى نحن عارفون بأبيه وأمه » (يو ٦ : ٤٢) • من هذه الآيات ومن سلسلتى النسب اللتين تشيران إلى آباء وأجداد يوسف وليس آباء وأجداد مريم، استنتج البعض ممن يرفضون الميلاد العذراوى ،أن يسوع هو ابن يوسف وولد ولادة طبيعية •

د — صعوبة لغوية :

لقد ظن أيضا الذين يرفضون عقيدة الميلاد العذراوى أن هذه

الفكرة بنيت على مفهوم خاطىء وعلى ترجمة غير صحيحة للنص الكتابى القائل : « ولكن يعطيكم السيد نفسه آية ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (اش ٧ : ١٤) ويقول الأحرار ، بحق ، بأن كلمة عذراء هنا فى هذا النص (اش ٧ : ١٤) ترجمة غير صحيحة مأخوذة من الترجمة السبعينية اليونانية التى ترجمت كلمة « علمه » العبرية الأصل والتى تعنى سيدة شابة إلى كلمة « بارثينوس » PARTHINOS اليونانية والتى تعنى عذراء فإن الاصطلاح العبرى الصحيح لكلمة عذراء أى فتاة لم تعرف رجلا ، هو « بتوله » ، (مثل الاصطلاح العربى « بتول ») وفى هذا الصدد يقول (THE INTERPFETER'S BIBLE) إن كلمة « بارثينوس » المستعملة فى إشعياء (٧ : ١٤) تعنى عادة عذراء . والكلمة العبرية «علمه» تعنى شابة . وقد استعمل مترجمو السبعينية فى بعض الأحيان كلمة « بارثينوس » لكى يصفوا بها فتاة فقدت عذراويتها (تك ٣٤ : ٢) والتعبير سيدة شابة هو أصح ترجمة لكلمة « علمه » العبرية ... فمتى اقتبس النص فى ١ : ٢٣ من الترجمة اليونانية السبعينية وليس من الأصل العبرى .... (١) .

وبناء على ذلك ظنت جماعة المودرن أن المحافظين قد أخطاوا عندما تمسكوا بنص إشعياء ٧ : ١٤ وبنوا عليه (المحافظون) عقيدتهم فى مشكلة الميلاد العذراوى، اذ أن هذا النص ترجم بطريقة غير صحيحة فى الترجمة السبعينية .

الرد على الاعتراضات الخاصة بالميلاد المعجزى :

رفض العصريون عقيدة الميلاد العذراوى للأسباب التى ذكرناها

(1) Interpreter's Bible. The Gospel According to St. Matthew Page 255.

آنفا وسنحاول أن نتناول هذه الصعوبات واحدة بعد الأخرى •

مما لا شك فيه أن عملية التناسل تتطلب ذكرا وأنثى صالحين للانجاب ، فمن الناحية البيولوجية والعلمية لا يمكن أن تتم عملية الانجاب إن لم تتوفر هذه الأسباب • هذا من الناحية العلمية ولكن ماذا حدث بالنسبة ليسوع ؟ سنجيب على هذه النقطة بعد الرد على الصعوبات الكتابية التى يتمسك بها الأحرار • فالاعتراض الثانى الذى يقدمه العصريون لكى ينفوا به الميلاد العذراوى هو أن الكتاب المقدس لم يشدد على الميلاد المعجزى •

إننا لا ننكر أن الفصول الخاصة بالميلاد العذراوى فى الكتاب المقدس قليلة وقليلة جدا ، وإننا لاننكر أيضاً أن إنجيلى مرقس ويوحنا لم يذكرا موضوع الميلاد العذراوى ، كما لا أثر له فى سفر أعمال الرسل ، وكذلك كل رسائل بولس ، والرسائل الأخرى بجملتها لا تشير إليه لا من بعيد أو من قريب • لهذه الأسباب توجد مجموعة من اللاهوتيين العصريين والمتحررين ترفض عقيدة الميلاد العذراوى ، وعلى رأسهم هرنك وبولتمان وبرونر وساباتيه وآخرون كثيرون • ولكن توجد أيضا مجموعة أخرى تتمسك بهذه العقيدة وتدافع عنها بكل ما أوتيت من قوة ومعرفة ودراسة ، وعلى رأس هذه المجموعة اللاهوتى السويسرى كارل بارت (KARL BART) وآخرون •

وللرد على هذا الاعتراض الخاص بأن العهد الجديد لم يتكلم عن الميلاد المعجزى إلا فى متى ولوقا ، وبالتالى فإن هذا يقلل من قيمته وأهميته ، نقول : إننا نتفق تماما مع العصريين بأن معجزة الميلاد العذراوى لا توجد إلا فى متى ولوقا ، ولكن هذا لا يقلل بأى حال من الأحوال من قيمة هذه الحقيقة الواقعية ولا من صلاحيتها ،

فإن هذه الحادثة ـ الميلاد العذراوى ـ سجلهما الانجيلان بطريقة واضحة وصريحة ، ووضوح وصراحة هذين النصين تكفيان عن عدم تكرارهما فى الفصول الكتابية الأخرى . وكما يقول كارل بارت (١) : « باستثناء حادثتى الآلام والقيامة ، فاننا نتساءل فيما إذا كان من الضرورى أن كل حادثة ، مهما كانت أهميتها فى حياة يسوع المسيح ، تصبح عنصرا هاما يجب أن يكرره الرسل والوعاظ فى الكنيسة الأولى

---

(١) ولد كارل بارت فى ١٠ مايو سنة ١٨٨٦ فى مدينة بازل السويسرية ، وكان والد كارل أستاذا فى كلية اللاهوت ، وهو الطريق الذى سلكه فيما بعد كارل والبعض من أولاده أيضا . ومع أنه من بازل فقد درس اللاهوت فى مدينة برلين وفى عدة مدن ألمانية أخرى . وهناك عاملان هامان لعبا دورا أساسيا فى حياته فى دراساته فى ألمانيا :

١ ـ ألمانيا المضطربة المنزعجة القلقة تحت شبح الحرب المخيف .

٢ ـ أساتذته العصريون الذين درس على أيديهم أمثال هرنك (A. HARNACK) وهرمان (HARMANN) وغيرهما .

تعين راعيا لكنيسة فى جنيف سنة ١٩٠٩ ، هى كنيسة سافونيل وبدأ بعد ذلك فى تدريس اللاهوت النظامى فى جامعات ألمانيا فى سنة ١٩٢٢ وعندئذ بدأ فى كتابة مجموعته اللاهوتية التى تزيد على أكثر من خمسة وعشرين مجلدا عن اللاهوت النظامى أو العقائدى (DOGMATIQE) وأكثر من عشرين كتابا آخر . تزعم بارت فى أثناء اقامته فى ألمانيا حركة الكنيسة المعترفة التى وقفت وقفة مشرفة ضد هتلر والنازية . وهو الذى كتب مع الكنيسة المعترفة «الاعتراف الكنسى» (L'Eglise Confessante) الذى قدمه ضد النازية ، وهو من القرارات الجريئة ضد هتلر والحكومة النازية . قام بارت أيضا بحرب شعواء ضد الحركة اللاهوتية التحررية الحديثة أو العصرية التى تهدف فى تعاليمها اللاهوتية الى رفع الانسان وتمجيده على حساب الله ، فالانسان هو كل شيء ، ويسوع هو إنسان سام عظيم وكفى ... فمع أن بارت الشاب سلك سبيل العصريين فى بادىء الأمر إلا أنه غير اتجاهه بعد ذلك وترك العصريين لعصريتهم ، وبدأ يعلم ويكتب معلنا بأن يسوع الناصرى ولد بطريقة معجزية من العذراء مريم ، ثم

بطريقة واضحة ومنظمة فى كل عظاتهم وكتاباتهم» (١) • وكارل بارت يعتقد بأن هدف الأناجيل الثلاثة الأولى هو الرد على السؤال الآتى :

١ ـ من هو يسوع الناصرى :

ولذلك نتد حاولت الأناجيل الثلاثة الأولى الرد على هذا السؤال وخاصة متى ولوقا ، بالتحدث عن الميلاد العذراوى • وهذا الأمر لم يشغل باقى كتاب العهد الجديد الذين كتبوا عن أشياء كثيرة أخرى لم يكتب عنها متى ولا لوقا • فإن كانت الكتب الأخرى فى العهد الجديد لم تتكلم عن هذا الميلاد العذراوى بوضوح أو لم تتكلم عنه بتاتا ، فإن هذا الصمت لا ينفى بأى حال من الأحوال الشهادتين الواضحتين والصريحتين عن الميلاد العذراوى فى متى ولوقا ، فإن كان العهد الجديد يقدم لنا شهادتين واضحتين وصريحتين تؤيدان الميلاد العذراوى فانه على عكس ذلك لايقدم نصا واحدا ينفى هذه المعجزة ، ولذلك فإن الميلاد العذراوى يعتبر جزءا هاما من الايمان المسيحى •

عاش فى الجليل ، وصنع المعجزات ، ثم صلب ومات ودفن وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث، الأمر الذى انكره الكثيرون من العصريين.وللأسف الشديد ان كارل بارت غير معروف فى العالم العربى . وكم نود أن كليات اللاهوت فى الشرق ، بروتستانتية أو غير بروتستانتية ، تهتم بتدريس افكار هذا الرجل العظيم واللاهوتى الدارس المتعمق . إن دراسة تعاليم كارل بارت لاتعنى اقتباس بعض السطور أو صفحة من تعاليمه ، بل إن دراسة أفكار بارت تحتاج الى وقت طويل ودراسة عميقة ومعرفة كافية ، فانه من الصعب الحكم على ١٠,٠٠٠ صفحة كتبها بارت بقراءة صفحة واحدة من كتاباته ، وإن كان قد مات بارت فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٨ ولكنه يتكلم بعد.

(1) K. Barth. Dogmatique tome Deuxieme p. 162
(الترجمة الفرنسية)

ب ــ الرد على مشكلة شجرة النسب :

لقد قال العصريون ، وعن حق ، إن قائمتى النسب المذكورتين فى متى ١ : ٢ ــ ١٦ ولوقا ٣ : ٢٣ ــ ٣٨ لا يؤديان فى نهــاية الأمــر إلى مريم بل إلى يوسف فهما يذكران سلسلة نسب يوسف وليس سلسلة نسب مريم • وبناء على ذلك فإن لم يكن يسوع هو ابن يوسف ، فــلا تصيب إذا هاتان الشجرتان الهدف الذى كتبتا من أجله وهو بيان أن يسوع الناصرى من عائلة داود ومن النسل الملوكى ، ولقد شدد على هذا الأمر عدد كبير من كتاب العهد الجديد •

وللرد على هذا الاعتراض يجدر بنا أن نلفت نظر القارىء إلى حقيقة هامة : وهى أن الكاتبــين الوحيدين اللذيــن كتبا عن الميــلاد العذراوى بطريقة واضحة وصريحة هما متى ولوقا وهما أيضا الكاتبان الوحيدان اللذان سجلا لنا هاتين السلسلتين اللتين تــؤديان فى النهاية إلى يوسف وليس إلى مريم •

وهنا نسأل السؤال الآتى : كيف يمكن أن يرتكب متى ولوقا هذا الخطأ الظاهر ؟

لقد أثار نفس المشكلة قديما أضداد المصلح الفرنسى فى جنيف « جون كلفن » ، وكان رده على هؤلاء المعترضين هو : « فإذا كان متى لايعطى لنا جدولا بأسماء آباء وأجداد مريم بل جدولا بأسماء آبــاء وأجداد يوسف ، فذلك لأنه كان يعالج مشكلة معروفة من الكبار والصغار وهى أن يوسف من نسل داود ، ومريم هى أيضا من نسل داود لأنهما من عائلة واحدة » • (١)

(١) ص ٢٣٥. Jean Calvin. L,Institution Chrétienne. 2 Livre

ثم يتكلم عن شجرة النسب التى ذكرها لوقا فيقول : إن لوقا يبين بهذا النسب أن الخلاص الذى يقدمه المسيح هو خلاص شامل للكون كله ، ولذلك يصعد بشجرة النسب إلى آدم وهو آب للخليقة كلها (١) • وإذا قبلنا رأى كلفن ، أى أن مريم ويوسف كانا من نفس العائلة وبذلك فإن شجرة نسب يوسف هى نفس شجرة نسب مريم ، فإن المشكلة تحل ، لأن يسوع ينتسب إلى عائلة داود عن طريق أمه مريم ، وبذلك تتحقق به وفيه المواعيد (متى ١٢ : ٢٣ ؛ ٢١ : ٩ ، مر ١٠ : ٤٧ ، ١٢ : ٣٥ ، يو ٧ : ٤٢ ، رو ١ : ٢ — ٣ ، تيمو ٢ : ٨) •

ومع أن هذا الحل الذى قدمه كلفن يبدو حلا سليما إلا أنه لم ينج من الاعتراضات ، والسؤال الأول : هل كانت مريم فعلا من عائلة يوسف وكيف نثبت ذلك ؟ وإن كانت مريم من نفس عائلة يوسف فلماذا لم يشر إلى ذلك من قريب أو بعيد ، متى أو لوقا؟وللاجابة على هذين السؤالين نقول : إن انجيل متى ولوقا كتبا فى فترة ما بين ٧٠ و ٨٥ ب•م ، وعلى ذلك فكان كل منهما يكتب حقائق معروفة للكبار وللصغار كما يقول كلفن • والأمر واضح جدا من طريقة كتابة القصتين، فان متى ولوقا ، باعطائهما هاتين السلسلتين للكنيسة الأولى التى كان بعض أعضائها ما زالوا على قيد الحياة وربما كانوا يعرفون جيدا نسبة القرابة التى تربط بين مريم ويوسف ، الأمر الذى كان من السهل التحقق منه ، يريدان أن يبينا أن يسوع الناصرى ابن مريم هو أيضا ابن داود، إذ أن مريم ويوسف من عائلة واحدة • وإن لم يكن الأمر كذلك ، فكيف إذن يشدد متى ولوقا على حقيقة الميلاد العذراوى ، وفى الوقت نفسه أن يوسف هو الآب الشرعى ليسوع ؟

(١) ص ٢٣٥ Jean Calvin L. Institution Chrétienne. 2 Livre

وأما بارت فيعتقد بأن يوسف قد أصبح أبا ليسوع بالتبنى ويقول إن الاصطلاح اليونانى (EGGENYSEN) «اجنسن» ولد يمكن أن يستخدم بمعنى آخر غير المعنى البيولوجى (١) . ومما لاشك فيه أن إنجيلى متى ولوقا لايريدان بهاتين السلسلتين التشكيك فى حقيقة نسب المسيح لداود بل العكس هو الصحيح . ثم إن القصتين ترويان لنا الميلاد المعجزى ، وتتمسكان بالميلاد العذراوى ويقدمان لنا يوسف كأب بالتبنى ليسوع .

مما تقدم يتضح أن يسوع الناصرى ابن مريم كان هو أيضا ابن يوسف أدبيا سواء عن طريق نسبة القرابة العائلية التى تربط مريم بيوسف أو عن طريق التبنى . ومن حسن الحظ أن الكاتبين متى ولوقا اللذين سجلا لنا قصة الميلاد العذراوى هما اللذان ذكرا سلسلتى الأنساب ، فمن الواضح إذن أن المشكلة التى نثيرها الآن لم يفكرا فيها قط ، وكانت غائبة تماما عن أنظارهما ، وهذا يعنى أنها كانت غير موجودة وكان الأمر واضحا تماما بالنسبة لهما.وكما يقول كارل بارت: « إن فكرة أن نسب المسيح لداود تتضمن الغاء المعجزة ، أو وجود المعجزة يتضمن الغاء النسب الى داود ، كانت هذه الفكرة غائبة تماما عن ذهن متى» . ولكى يوضح بارت فكرة تبنى يوسف ليسوع ، يظن أن الأمر قد أوحى ليوسف بأن يتحمل مسئولية الصبى « قم وخذ الصبى وأمه وأهرب الى أرض مصر » (متى ٢ : ١٣) .

هذا الأمر يعتبر وحيا من قبل الله ليوسف، وعن طريق هذا الوحى الآمر بأن يأخذ يوسف على عاتقه مسئولية العناية بالطفل ، أصبح أبا له بالتبنى . وبناء على هذا الاعلان الخاص الذى أوحى به الله

(١) الطبعة الفرنسية ص ١٦٣
K. Barth. Dogmatique tome 2 E.

ليوسف ، اندمج يسوع فى سلسلة العائلة الداودية ، وأصبح بهذا التبنى ابنا لداود [1] • أليس هذا ما يريد أن يقوله بولس : « عن ابنه الذى صار من نسل داود من جهة الجسد » (رومية ١ : ٢) •

ومع أنه يوجد اختلاف بسيط بين المصلح الفرنسى جون كلفن وبين اللاهوتى السويسرى كارل بارت على مشكلة نسب المسيح لعائلة داود ، إذ أن الأول يعتقد بأن مريم ويوسف من عائلة واحدة وعلى ذلك فإن سلسلة نسب يوسف هى نفسها سلسلة نسب مريم فيسوع إذن من عائلة داود ، أما الثانى فيظن أن يوسف أصبح أبا ليسوع بالتبنى وعن طريق وحى خاص من الله ، وبموجب هذا الوحى الخاص يصبح يوسف أبا ليسوع • بالرغم من هذا الاختلاف البسيط بينهما ، فإنهما يؤمنان إيمانا ثابتا بعقيدة الميلاد العذراوى ، وقد علم به كلاهما وبوضوح وصراحة •

ملاحظة أخيرة بالنسبة لشجرة النسب : إن متى ولوقا يسجلان لنا سلسلة شجرة نسب يوسف ولايذكران بطريقة واضحة نسب مريم، وذلك لأن هذا الأمر كان أمرا طبيعيا إذ ان العهد القديم لايعطى لنا فى أشجار النسب إلا التسلسل الذكرى ، والنساء اللاتى يذكرن فى سلسلتى (متى ولوقا) يذكرن لسبب أهمية القصص التى حدثت معهن وليس لأهميتهن بالنسبة لشجرة النسب •

جـ ـ الرد على الاعتراض الخاص بالصعوبات اللغوية :

قال الذين يؤيدون نظرية أن المسيح ولد بطريقة طبيعية ، إن عقيدة الميلاد العذراوى بنيت على مفهوم خاطىء وعلى ترجمة غير

(١) انظر نفس المجلد لبارت ص ١٦٣ ـ ١٦٤ •

صحيحة للنص الكتابى القائل : « ولكن يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (اش ٧ : ١٤) .

صحيح أن النص العبرى القديم لإشعياء (٧ : ١٤) لايذكر كلمة عذراء « بارثينوس » ولكن « علمه » العبرية التى تعنى سيدة شابة. صحيح أيضا أن الذى ترجم « علمه » العبرية (سيدة شابة) إلى اليونانية بالكلمة « بارثينوس » هى الترجمة السبعينية ، وهى ترجمة غير صحيحة لغويا . وعلى هذ الأساس فقد اتبع كثيرون فى الترجمات الحديثة النسخة العبرية وبدل أن يقولوا ... ها العذراء تحبل وتلد ابنا .... يقولون « ها السيدة الشابة تحبل .... » وحتى الترجمة المسكونية الحديثة التى قام بترجمتها الكاثوليك والبروتستانت ، وظهرت فى سنة ١٩٧٥ تقول هى أيضا « ها السيدة«LA JEUNNE FEMME» الشابة[١] وكما قيل فى تفسير INTERPRETERS BIBLE إن أحسن ترجمة لكلمة «علمه» هى (سيدة شابة وليست عذراء) فإن العبرانيين يستعملون كلمة أخرى لكى يصفوا بها العذراء التى لم تعرف رجلا، وهى كلمة «بتوله»، وهى نفس الاصطلاح أو الكلمة العربية«بتول». كل هذا صحيح ، فهل بنى المتمسكون بالميلاد العذراوى عقيدتهم هذه على خطأ فى الترجمة وبالتالى لايوجد ميلاد عذراوى ؟

إن الميلاد العذراوى حقيقة إلهية ثابتة ويتضح لنا ذلك من الآتى:

١ ـ إن اشعياء ٧ : ١٤ ـ كما يقول «BONNARD» ـ (٢) « ليس

---

(١) Traduction Oecumenique de la Bible A. T.
تنظر ايضا الترجمة الانجليزية Revised Standard Version

(٢) تفسير انجيل متى باللغة الفرنسية ص ٢١ .
Kommentar. Zum. N.T. Nach. Talmu und Midrasch Vol. I. 1922. P. 49. Bonnard.

ثم راجع كارل بارت مجلد ٢ ص ١٦٥ .

هو مصدر قصة الميلاد ولكنه شرح لها » • وهذا القول صحيح لأن متى لايبحث عن مادة لكى يؤلف بها قصة غير واقعية فيرجع إلى إشعياء لكى يثبت روايته ويدعمها بهذا النص (اش ٧ : ١٤) ، ولكن عندما وجد متى نفسه أمام هذه الحقيقة الواقعية (أى الميلاد العذراوى) حاول تفسير أو شرح هذه الظاهرة الحقيقية بنص من النبوات •

ومن المسلم به أن متى كتب إنجيله إلى الكنيسة الأولى ف فلسطين أى إلى كنيسة أغلبيتها من اليهود ، واليهود ام ينتظروا فى كل تاريخ انتظاراتهم المختلفة المتنوعة مسيا فائقا للطبيعة بل كانوا يتوقعون ظهور المسيا وولادته كانسان بطريقة طبيعية ، فقوله « ••• لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس » (متى ١ : ١٨) يعتبر جديدا بل غريبا جدا على الفكر اليهودى• وبالرغم من غرابة هذا الأمر وبالرغم من أن الكنيسة الأولى التى كتب لها هذا الإنجيل كانت متأثرة تأثيرا كبيرا بالفكر اليهودى الذى خرجت منه ، بالرغم من هذا كله يكتب متى قصة الميلاد العذراوى لأنها حقيقة متأكد من صحتها وحدوثها •

٢ ـ هناك أمر آخر لايجب إغفاله ، صحيح أن « علمه » تعنى سيدة شابة « وبارثينوس » تعنى عذراء لم تعرف رجلا ، وهنا نتساءل : من يستطيع أن يثبت لنا أن كل سيدة شابة غد عرفت بالضرورة رجلا ؟ فمع أنه يمكن القول (مع التحفظ •••) بأن العذراء هى الفتاة التى لم تعرف رجلا بالمعنى الذى يقصده سفر التكوين (٤ : ٢) « وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين » ، فإنه لايمكن القول بأن كل سيدة شابة هى من عرفت رجلا • فهل يمكننا أن نجيب بالتأكيد بأن كل « العلمات » عرفن رجالا ؟

٣ ــ لقد اتفق المفسرون على أن كلمة « علمه » المستعملة فى إشعياء (٧ : ١٤) تعنى سيدة شابة ، وليست عذراء • على أن معظمهم بل الأغلبية الساحقة منهم اتفقت على أن مفتاح هذه الجملة وهدفها هو كلمة آية : « ولكن يعطيكم السيد نفسه آية ••• » • وكأنى بإشعياء النبى يقول إن السيد سيعمل معجزة بينكم ، سيصنع آية • والمعجزة هى أن سيدة شابة (عذراء) ستحبل وستلد ابنا ، أنه أمر غير طبيعى ، ولكن السيد نفسه هو الذى سيعمل هذا العمل ، هو نفسه مصدر هذه الآية ، وما دام الله هو العامل وهو المصدر فهو الذى يملك هذا السلطان بأن يقول للشىء كن فيكون ••• « وقال الله ليكن نور فكان نور ••• » (تكوين ١ : ٣) •

بسبب هذه الصعوبات المذكورة سابقا وبسبب صعوبات أخرى تفسيرية ولاهوتية ، نادى بعض اللاهوتيين بالميلاد الطبيعى ، فالبعض من هؤلاء اللاهوتيين أعلنوا بصراحة ووضوح عدم موافقتهم على هذه العقيدة ، أما البعض الآخر فقد تبنى تقريبا نفس الأفكار ونادى بها ولكن بطريق غير مباشر ومن بين هؤلاء الكاتب الانجليزى المعاصر وليم باركلى • ويبدو لنا أنه من المهم أن نلقى نظرة على مفهومه بخصوص هذه المشكلة ، خصوصا أن باركلى أصبح مقروءا ومعروفا فى مصر • ووليم باركلى لا يرفض بصراحة ووضوح الميلاد العذراوى ولكن فى شرحه لمتى ولوقا يشعرنا بأنه يفضل الميلاد الطبيعى وهذا واضح فى شرحه لمتى (١ : ١٨ ــ ٢٠) • فهو يعطى لنا فكرة عن المفهوم اليهودى للروح القدس ، فاليهود يعتقدون بأن الروح هو الذى يعلم الناس الحق ، وهو الذى يلهم الأنبياء بما يقولونه وهو الذى يكلمنا عن فمه ؛ ويسوع هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يكلمنا عن الله • فقبل مجيئه كان وقت التخمين ، إذ كان الناس يخمنون

من هو الله ، أما الآن فهو وقت التأكيد لأن يسوع عرفنا من هو الله .. « من رآنى فقد رأى الآب » (يو ١٤ : ٩) . فالروح يعطى أيضا الحياة ويسوع يعطى الحياة . ولكى تكون لدينا صورة متكاملة عن شرح باركلى لهذه المشكلة لنقرأ ما كتبه فى شرحه لإنجيل لوقا فهو يعطى لنا الأسباب التى تؤيد الميلاد العذراوى والأسباب التى تدحضه . فهو يرى سببين يؤيدان الميلاد العذراوى .

١ ــ إن متى (١ : ١٦ ــ ٢٥) ولوقا (١ : ٢٦ ــ ٤٥) يثبتان حرفيا الميلاد العذراوى .

٢ ــ بما أن المسيح شخص فريد يجب أن يكون دخوله للعالم فريدا من نوعه .

أما الأسباب التى من أجلها لا يقبل الميلاد العذراوى فهى :

١ ــ مشكلة النسب التى تؤدى إلى يوسف وليس إلى مريم .
٢ ــ ذكر يوسف كأب ليسوع (لو ٢ : ٤٨ ، متى ١٣ : ٥٥ ، يو ٦ : ٤٢) .

٣ ــ إن باقى العهد الجديد لا يذكر شيئا عن الميلاد العذراوى . وبعد أن سرد باركلى المفهوم اليهودى للروح فى إنجيل متى ، وبعد أن عدد الأسباب التى تؤيد والأسباب التى ترفض الميلاد العذراوى ، يجهر بالقول : فماذا ينتج لو لم نأخذ قصة الميلاد العذراوى بطريقة حرفية؟

يوجد قول شائع عند اليهود يقول : هناك ثلاثة عوامل تعمل معا لولادة أى طفل : الأب ، الأم ، وروح الله . ولقد ظن اليهود بأنه لا يمكن أن يولد أى طفل بدون الروح ،ويحتمل بأن قصص العهد الجديد التى تتكلم عن الميلاد العذراوى بطريقة شعرية ، هدفها أن تعلمنا بأنه حتى ولو كان للمسيح أب بشرى فإن الروح القدس كان يعمل فى ميلاده بطريقة فريدة وخاصة . ويترك باركلى فى النهاية كل منا يسلك الطريق

الذى يفضله(١) • وهنا نلاحظ عدم وضوح موقف باركلى ، فى عدم اتخاذه قراراً واضحا وصريحا بخصوص هذه العقيدة •

وهنا نرى الفرق بين موقف باركلى وبين موقف كارل بارت (٢) ، فبارت يسأل هذا السؤال : هل الإيمان المسيحى يتطلب منا قبول الميلاد العذراوى ؟ ويواصل بارت شرحه فيقول : قد يجوز أن يكون للانسان إيمان صحيح دون الاعتقاد بالميلاد العذراوى • ولكن هذا الأمر يتوقف على الله وعلى مشيئته ، فإذا أراد الرب أن يعلن ذاته لأحد وأن يعرفه بسر يسوع المسيح ، فإن هذا الانسان يملك الايمان المسيحى الصحيح حتى ولو كان خارج الكنيسة المنظورة • ولكن هذا لايعنى أن للكنيسة الحرية أن تجعل من عقيدة الميلاد العذراوى تعليما يتفق مع أهواء الناس ، ضعفاء أو أقوياء • فالكنيسة تدرك جيدا معنى ما عملته عندما وضعت هذه العقيدة كحارس على عتبتها ، فهى لاتسمح إذاً لأحد أن يدعى لنفسه هذا الحق وأن يعبر هذه العتبة على عجل دون أن يعرف بأنها محروسة ، وأن الذى يدعى لنفسه هذا الحق يخاطر بنفسه مخاطرة عظيمة • فواجبها إذاً أن تدعو المؤمن لقبول هذه العقيدة والايمان بها ...(٣)

وبهذا يحمل بارت الكنيسة مسئولية التعليم بهذه العقيدة ، فهى الحارس الذى يجب أن يعلن باستمرار وبلا ملل عقيدة الميلاد العذراوى • والفرق شاسع أيضا بين موقفه فيما يخص هذه العقيدة

(١) راجع تفسير وليم باركلى انجيل متى ١ : ١٦ — ٢٥ ، لوقا ١ : ٢٦ — ٤٥ (الطبعة الانجليزية) •

(٢) انظر كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه صفحة ١٦٨ — ١٦٩ (فرنسى) •

(٣) انظر كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه صفحة ١٦٥ — ١٦٦ (النص الفرنسى) •

وموقف كنيسة كنتربرى • فقد عين أساقفة كنتربرى • لجنـة للبحث فى بعض العقائد المسيحية ، وكانت اللجنة تضم رجالا مكرسين وقدمت هذه اللجنة فى سنة ١٩٢٢ تقريرها الذى يحتوى على إتجاهين :

١ ـ إن كثيرين من أعضاء هذه اللجنة يرون فى عبارة « الكلمـة صار جسدا » ارتباطا بالميلاد العذراوى ويعترفون به •••

٢ ـ أما الآخرون فقد رأوا فى التجسد عملية تاريخية قد حدثت بطريقة طبيعية • •نقد قبـل هذان الاتجاهان من الكنيسة كما قدمتهما اللجنـة(١) •

ونلاحظ أن هذين الاتجاهين موجودان عند عدد كبير من المفسرين واللاهوتيين • ومع أنه ليس من حق الـكنيسة ولا فى سلطانها أن ترغم أحدا على قبول أو رفض هذه العقيدة ، وبارت نفسه لايريد أن الكنيسة ترغم المؤمنين على قبولها أو رفضها ، ولكن من واجبها أن تعلن عن هذه الحقيقة بوضوح • ولهـذا السبـب عينه فهـو ينتقد اميـل برونر (E. BRUNNER) ولا يتفق معه فى كتاباته ضد الميلاد العذراوى • ولقد أصيب بخيبة الأمل التى سيطرت أيضا على نفس بردياف BERDIAFF عندما بدأ فى التهام كتب برونر بشغف واهتمام عظيمين ، ولكن عندمـا وصل إلى الفصل الذى يتكلم الكاتب (برونر) عن عقيدتـه فى مسألـة الميلاد العذراوى أصبح كل شىء ـ فجأة ـ بالنسبة له بلا فائدة كمـا لو كان قد مسح كل ما قرأه سابقا(٢) •

والآن لنلق نظرة على مفهوم كارل بارت لمشكلة الميلاد العذراوى

(١) راجع تفسير Interpreter's Bible انجيل لوقا صفحة ٣٩ •
(٢) راجع كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه ص ١٧٢ •

وسيساعدنا ذلك على حل الاعتراض الأول الذى يعترض به الذين يرفضون هذه العقيدة ، وهو الاعتراض الذى تركناه معلقا إلى الآن بدون جواب • إن جماعة المتحررين ترفض رفضا باتا كل ما هو خارق للطبيعة وكل ما لايمكن تفسيره أو تحليله أو التأكد من صحته بطريقة علمية • وبما أن الميلاد العذراوى ظاهرة لايمكن تحليلها أو التأكد منها بطريقة علمية فلا يمكن قبولها ؛ لأن غياب العامل الذكرى هو إستحالة بيولوجية لايمكن بأى حال من الأحوال حلها •••

يجيب بارت على هذا الاعتراض فيقول : إن عملية التجسد أو الميلاد العذراوى حقيقة واقعية حدثت فعلا فى عالمنا وفى أرضنا بالطريقة التى يصفها لنا الإنجيليون • ويرفض بشدة قول القائلين بأن النصوص الخاصة بالميلاد العذراوى ما هى إلا أساطير خلفتها لنا الديانات البوذية والمصرية واليونانية ، وديانات أخرى • ويعتقد بارت بأن الفصول الكتابية التى تتكلم عن الميلاد العذراوى تختلف كل الاختلاف عن هذه الأساطير القديمة ، لأن مصدرها وإتجاهها يختلفان إختلافا تاما عن هذه الأساطير • أما بخصوص إمكانية تحليل وقبول هذه العقيدة علميا ، فيقول : إن عقيدة الميلاد العذراوى مثلها مثل الوحى ، وهذه كلها حقائق روحية وليست حقائق عقلية منطقية وعلمية فى إمكاننا أن نشرحها شرحا علميا ومنطقيا وعن طريق هذا الشرح العقلى والمنطقى والعلمى يمكننا أن نفهمها ونقبلها بأذهاننا ، بل هذه حقائق روحية نقبلها بالإيمان فقط •

ولقد اتخذ بارت كأساس من الأسس التى بنى عليها عقيدة الميلاد العذراوى ، الجملة الثانية من قانون الايمان والتى تقول : « المولود من العذراء ••• » فهذا القول (المولود من عذراء) يعنى بأن ميلاد يسوع تم بطريقة تختلف اختلافا كليا وجزئيا عن ميلاد أى طفل آخر • إلا أنه ولد كما يولد أى طفل آخر ، فقد كان طفلا مثل كل طفل ، وولد

من جسد ولحم ودم أمه مريم العذراء . وعلى هذا فقد كان إنسانا بما تحمله كلمة إنسان من معنى ، وكان ميلاده ميلادا بشريا صحيحا ، على أن هذا الميلاد البشرى الصحيح تم بدون اجتماع جنسي سابق بين رجل وامرأة ، وغياب الاتحاد الجنسى فى هذا الميلاد الفريد من نوعه يميز ميلاد المسيح يسوع عن كل ميلاد آخر . فإن هذا الميلاد يعتبر سراً من أسرار الله ، كسراً لقوانين الطبيعة ، وبداية جديدة فى البشرية (١). وميلاده من عذراء يعني أيضا ادخال أو ادماج يسوع المسيح الذى هو الله نفسه فى الوجود البشرى . فمع أن هذه المعجزة لاتقدم لنا برهانا على ضرورة وجودها إلا أنها يجب أن تفهم وتقبل هكذا كما هى ، لأنها آية تعلن لنا الله ، ولذلك يجب أن يكون دخول هذا المعلن إلى عالمنا مختلفا عن دخول الآخرين ، يجب أن تكون نه طريقة خاصة تفرده وتميزه عن كل الذين سبقوه . وهذه الطريقة الخاصة التى تفرده فى دخوله إلى عالمنا هى أن المسيح المعلن يولد من عذراء بطريقة لايمكن شرحها أو فهمها بطريقة علمية أو بيولوجية ، لأن المولود من عذراء هو الله ، الذى فى ملء حريته ومحبته أصبح طفلا رضيعا ، ولكنه ظل ما كان عليه قبل أن يوجد فى بطن مريم العذراء ، أى الله الذى ما زالت نواميس الطبيعة خاضعة له وطوع أمره وليس العكس . وبهذا السلطان ولد المسيح من العذراء . والسؤال الذى يفرض نفسه فرضا الآن هو السؤال الآتى :

لماذا ولد المسيح بدون اجتماع جنسى ؟ وهل ولد يسوع بدون علاقة جنسية بين رجل وامرأة لأن الجنس خطية ؟ وهل ولد يسوع بهذه الطريقة المعجزية دون علاقة جنسية لكى يحرر من الخطية الأصلية ؟

فى عرف بارت أن الجنس فى حد ذاته ليس خطية وأن ما يقوله مزمور (٥١ : ٥) « .. هانذا بالاثم صورت وبالخطية حبلت بى أمى»

(١) راجع كارل بارت نفس المجلد المذكور سابقا ص ١٧٣ .

لا يعنى بأى حال من الأحوال إدانة الجنس ، فحتى العصور الوسطى الكاثوليكية التى كانت ترى فى العذراوية قيمة كبيرة ، والتى كانت تميل إلى نسب الخطية للجنس ، لم تعلن قط بأن الجنس خطية • فإذا كان يسوع غير مدين للجنس فى تكوينه البشرى ، فليس لأن الجنس خطية بسبب ما فيه من أشياء طبيعية ، ولكن لأن الخطية أفسدته • فليس بسبب الجنس أصبح الانسان خاطئا منذ ولادته ، ولكن لأن الانسان منذ ولادته خاطىء ويعيش فى العصيان والتمرد ، وبذلك فالحياة الجنسية ليست خطية بل هى مرتبطة بالخطية (١) •

وهنا نأتى للسؤال الذى سبق أن سألناه وهو : هل ولد يسوع بطريقة معجزية لكى يحرر من الخطية الأصلية ؟ إن عبارة « مولود من عذراء » تبين لنا أن يسوع ، مع أنه مولود من عذراء ، إلا أنه مولود مثلنا ، وفى مثل أجسادنا ، بل يمكن أن نقول فى جسد حلت عليه لعنة الخطية لدرجة أن هذا الجسد نفسه جعل خطية من أجلنا • فهو الذى فى حياته العلمية لم يعرف خطية فى موته النيابى خطية من أجلنا (رو ٨:٣ ، ٢ كو ٥ : ٢١) • وصحيح أن الانسان عن طريق قانون التضامن والنيابة أصبح مسئولا بتضامنه مع آدم عن غلطته (آدم) وبهذا التضامن أصبح الانسان عبداً «لا حرية له فى الاختيار (SERVUM ARBITRIUM) ولكن عبارة « مولود من عذراء » تعلن لنا شيئا آخر جديدا ، فهى تعلن لنا وجود شخص مثلنا فى جسد مثل جسدنا ، تحت لعنة الخطية ، لكنه لم يسلم نفسه للخطية لأنه الله • ولذلك فان « يتمتع بحرية الاختيار » (SERVUM LIBERUM) حلت فيه محل « لا حرية له فى الاختيار » (SERVUM ARBITRIUM).

(١) راجع نفس المجلد من كارل بارت ص ١٧٧ — ١٧٨ (النص الفرنسى) •

وهناك اعتراض يقول : ولو سلمنا بأن المسيح قد ولد من عذراء وبطريقة معجزية ، فإنه مرتبط ارتباطا مباشرا ووثيقا بالبشرية الساقطة بسبب أمه مريم • وبارت يجيب بأن هذا الكلام صحيح وقانونى • لأن العذراوية لم تعف من الخطية ، بل هى أيضا مشتركة فيها ، ولكن الأمر المهم جدا وهو أنه لايجب أن يغيب عن بالنا أن عبارة « مولود من عذراء » تعلن لنا بداية جديدة ، فيها كسرت قوانين الطبيعة ، وبها أيضا تغيرت طبيعة التضامن الذى أشرنا إليه سابقا • فإن كان يسوع المسيح طاهرا وبدون خطية فلا يرجع الفضل فى ذلك إلى أنه ولد بدون أب بشرى ، وأن غياب العامل الذكرى هو السبب الأساسى فى خلوه من الخطية ، بل أن السبب الأساسى والجوهرى فى عصمة السيد من الخطية هو أن «الكلمة صار جسدا» • فإن معجزة الميلاد العذراوى ما هى إلا المؤشر الذى يشير إلى أن حدثا خارقا للطبيعة وكاسرا لقوانينها قد حدث • فالمعجزة ليست هى « الكسر » ، وليست المعجزة هى الجوهر ، بل هى علامة أو إشارة تشير إلى شىء أهم وأسمى وأعظم ••• ولكى يكون الأمر واضحا فى أذهاننا فلننظر إلى معجزة شفاء المفلوج (مرقس ٢ : ١ ــ ١١) • فإن شفاء هذا المفلوج جسديا كان بمثابة المؤشر الذى يدل على حقيقة أخرى أكثر عظمة وأهمية وهى غفران الخطايا •

ويشير بارت إلى أمر قد غاب عن أذهان المعلمين فى الكنيسة القديمة وهو أن عبارة « مولود من عذراء » لايعنى بأنه يوجد عامل فنى ساعد(١) يسوع على الانتصار على الخطية ، فإن الكتاب المقدس وقانون الايمان يعرفنا أن الميلاد العذراوى ما هو إلا علامة تظهر لنا طهارة المسيح وليس السبب فى طهارته وقداسته •

(١) راجع كتاب كارل بارت نفس المجلد المذكور اعلاه ص ١٧٧ .

وجدير بالذكر أن أضداد كلفن أثاروا نفس المشكلة ولكن بطريقة أخرى . فلقد اعترض هؤلاء بالقول بأن يسوع كان طاهرا لأنه ولد من أمه فقط وزرعها غير مدنس . والمصلح الفرنسى يرفض هذا الكلام بالقول : « نحن لا نقول بأن المسيح معصوم من كل عيب رعدوى أصيلة لأنه ولد من أمه بدون اتحاد ذكر ، ولكن لأنه قدس من الروح القدس » (١) . ومن هذا الجواب نلاحظ اتفاق بارت مع كلفن ، فكلاهما يعتقد بأن قداسة يسوع لم تأت من الميلاد العذراوى أو من غياب الأب الجسدى ، ولكن هذه القداسة نابعة من يسوع نفسه ، من داخله . فمصدرها « الكلمة صار جسداً » . فلا يوجد إذاً عامل فنى أو نقص طبيعى فى تكوين يسوع ، عن طريقهما كان يتجنب الخطية ، فلا الظروف التى وجد فيها ومر بها ، ولا تكوينه الطبيعى فيما يختص بغياب الأب الجسدى ، عملت على أن يكون يسوع بارا وقديسا ، بل إن هذه الظروف وهذا التكوين البيولوجى ما كانت إلا براهين ومؤشرات أظهرت قداسته فميلاده العذراوى ما هو إلا المؤشر الدال والمعلن على أنه آدم الثانى .

وفى مجال الكلام عن العذراوية يتعرض بارت لمشكلة مريم : هل اختار الله مريم لكى تكون أم يسوع بسبب قداستها وعذراويتها ؟ وهل يعتقد بأن الذى دفع الله لاختيار هذه السيدة لكى تكون أما ليسوع ولكى تحمل هذه المسئولية العظيمة ، مسئولية أم عمانوئيل هو لأنها عذراء أو لأن العذراوية أو البتولية مقبولة لدى الله ؟ إن الأساس الوحيد لاختيار هذه الفتاة لهذه المهمة هو مجرد نعمة الله ومحبته وحريته . لهذا ولهذا فقط اختار الله هذه الفتاة العذراء لكى تكون أم يسوع . والتبتل هو أبعد من أن يكون سببا فى الحصول

Jean Calvin. Institution Chrétienne Livre II p. 236.

على نعمة الله • ويحذرنا بارت من التطرف الذى وصلت إليه الكنيسة الكاثوليكية فى اعتبارها أن العذراء مريم كانت تمثل النافذة أو الباب المفتوح أمام الله ، لأنها حفظت من السقوط الذى سقطت فيه البشرية كلها • وبارت يعتقد بأنه لا يوجد فى البشرية كلها باب أو نافذة استطاع الله عن طريقها الدخول إلى العالم فكل الطبيعة البشرية محكوم عليها بالهلاك بسبب الخطية لأنه كما يقول الكتاب : « الجميع زاغوا وفسدوا معا ، ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد ••• » (روميه ٣ : ١٢) • ولا يمكن استثناء أحد من هذا الحكم إلا شخص يسوع • ومع أن مريم كانت تحت الحكم عينه ، إلا أن الله ، فى فرط محبته ، قد أنعم عليها ، وكما يقول لها الملاك : «السلام عليك أيتها المنعم عليها» (لو ١ : ٢٨) ، فإن هذا الاختيار بأن تكون أما ليسوع ، ما هو إلا نعمة ، إنعام من الله عليها • فاختيار الله لها ليس مبنيا على قداستها وبرها الذاتى،أو لأنها كانت بدون خطية ولذلك استحقت هذا الشرف العظيم ، بل سبب اختياره لها هو نعمته ومحبته • والعذراء مثلها مثل البشرية كلها • فالبشرية امام الله بلا قوة وبلا ارادة وبدون أى سلطان خلاق ، وكل ما تستطيع أن تقوم بعمله هو أن تقبل ما يقدم لها • هكذا كان موقف مريم ، فاختيارها لم يكن إذن نتيجة قداستها ، أو لاستعداد طبيعى فيها ، أى لأنه حبل بها بطريقة معجزية كما حبل بالمسيح ، وهو ما تسميه الكنيسة الكاثوليكية : « الحبل بلا دنس » (١) ، بل كان اختيارها

---

(١) إن عقيدة الحبل بلا دنس كما تعلمها الكنيسة الرومانية تعنى بانه ليس مريم وحدها التى حبلت بيسوع بطريقة معصومة من وصمة الخطية الأصلية ، بل هى (مريم) أيضا حبل بها بنفس الطريقة ، ولقد اصبحت هذه العقيدة قاعدة من قواعد الايمان الكاثوليكي بعد أن اصدر البابا بيوس التاسع فى ٨ ديسمبر ١٨٥٤ منشوره الخاص بالعصمة البابوية . فهذا المنشور يقرر بأن مريم نجت من وصمة الخطية الأصلية من طريق نعمة خاصة ، فلقد ظن البابا بيوس حيث أن مريم قد حبلت يسوع بطريقة معجزية ولكونها أم يسوع ويسوع يعيش فى احشائها ، يتغذى بما يتغذى به ، فيجب

وفقا على حرية الله وارادته • ولا نريد بهـذا أن نقلل بأى حـال من الأحوال من مكانة مريم عند الله فهى التى يقـول لها الملاك : « لأنك وجدت نعمة عند الله » ، صحيح أن هذه النعمة التى وجدتها مريم عند الله ما هى إلا هبة من لدنه لها ، ولكن هذه النعمة لاتنفى بأن مريم كانت العذراء الفاضلة القديسة ، التى ستكون فيما بعد موضوع تطويـبـه الأجيال كلها : « فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى » (لوقا ١ : ٤٨) • على أن اختيار الله لها لكى تكون أما ليسوع لم يكن مؤسـسـا على قداستها أو على طهارتها بل على محبة الله وحريته • وعندما يختار الله إنسانا بناء على محبته ، فإن هذا الاختيار أضمـن وأقوى من أن يختار هــذا الانسان على أساس قداسته وفضائله وأعماله ، التى هى ضعيفة وغير ثابتة ، وعلى ذلك لاضمان فيها أو بها • وأما عندما يختار الله الانسان على أساس محبته لهذا الانسان فستظل هذه المحبة إلى الأبد لأنها مؤسسة على الله وأمانته ، وهـو أمين وسيظل أمينـا إلى الأبد ولا يمكن أن ينكر أمانته •

ولنرجع الآن إلى مفهوم بارت فيما يختص بالميلاد العذراوى ، فبعد شرح عبارة : « مولود من عذراء » • يتنـاول الجزء الأول من قانون الايمان القائل : « وحبل به من الروح القدس » ، إن الروح القدس ليس مجرد صفة من صفات الله كتأثيره أو لطفه أو محبته ولكن هو الله نفسه لأن الله مثلث الأقانيم : أب وابن وروح قدس ، هؤلاء الثلاثة الأقانيم ما هم إلا إله واحد •

ان تكون هى ايضا معصومة من الخطية الاصلية ومن اللعنة التى لحقت بآدم ويكل نسله ، وإلا لوصلت ليسوع عن طريق أمومتها ، نفس اللعنة ونفس الوصمة • فلكى تكون طبيعة يسوع طاهرة وخالية من كل خطية اصلية كان لا بد أن مريم تخلو هى ايضا من الخطية الأصلية ويحبل بها بطريقة معصومة من هذه الخطيه الاصلية التى لحقت بآدم وجنسه •

انظر الموسوعة الفرنسية المذكورة فى قائمة الكتب ـــ المجلد الخامس تحت عنوان : .(Conception Immaculee)

فالأقنوم الثالث من الثالوث ، أى الروح القدس حل على مريم العذراء ، وبقوة الله صارت مريم حاملا • ويحذر بارت من التفكير فى وجود توافق أو تشابه بين ميلاد المسيح العذراوى وبين الأساطير التى تتحدث عن مواليد عذراوية أخرى فى التاريخ ، لأن هذه الأخيرة ما هى إلا خيالات بشرية وأساطير منسوجة من خيوط العنكبوت التى لا يمكن أن يكتسى بها إنسان ، ويؤكد بشدة أيضا على أنه ليس من حقنا أسطرة (MYTHOLOGISEN) هذه القصة لأن موضوعها هو الله نفسه ، وهو المصدر لصحتها • وما دام الله هو المصدر أو الضامن فليس من حقنا أن نبحث عن بعض العوامل الطبيعية أو البيولوجية التى تؤيد هذه المعجزة ، لأن هذا التدخل : التدخل الإلهى — حلول الروح — حمل مريم بقوته ، أشياء لا يمكن أن نفهمها بعقولنا ، بل علينا أن نقبلها بالايمان الذى يمنحه لنا السيد • وأعتقد بأن بارت مصيب كل الصواب عندما يشدد على حقيقة أن الميلاد العذراوى وقيامة المسيح من الأموات ، كل هذه المعجزات أشياء روحية ، ولا يمكن أن نفهمها بعقولنا ، لأن المتحررين لا يريدون التمسك إلا بما يمكن اختباره وتحليله والتأكد منه علميا • وفى هذه العملية — عملية حلول الروح القدس على مريم العذراء وحبلها بقوته — أشياء لا يمكن اختبارها والتأكد منها علميا ، مهما كانت دقة مخابير معاملنا ، ومهما تقدم العلم فى اكتشافاته العظيمة ، لأن هذه الحقائق روحية ولا يمكن أن تفهم الروحيات إلا بروحه القدس •

ويحذرنا بارت من خطر آخر خاص بمفهوم حلول الروح القدس على مريم العذراء لكى تتم عملية التجسد ••• « الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك ••» (لوقا ١ : ٣٥) • إن النصوص الكتابية فى العهد الجديد التى تتكلم عن الميلاد العذراوى ، وعن التدخل الإلهى

بخصوص هذا الموضوع ، لاتشير من قريب أو بعيد عن زواج مقدس بين الله ومريم ، فهذه الفكرة لاتستحق إلا أن ترفض رفضا كليا وجزئيا لأنها فكرة وثنية ، فالله يعمل كخالق وليس كعشيق (١) • والواضح كل الوضوح أن العهد الجديد والكنيسة لايشيران ، من قريب أو من بعيد ، إلى أن علاقة الروح القدس بمريم كانت علاقة زواج على طريقة الأساطير القديمة ، مثل الزواج المقدس ••• كذلك لايوجد أى لاهوتى مسيحى جاد علم بأن الروح القدس هو أب ليسوع بحسب هذا المفهوم • فعبارة : « حبل به من الروح القدس » تعنى بأن الله تدخل فعلا ، ولكنه تدخل بطريقته الخاصة كخالق ، وليس بالطريقة البيولوجية ، أى أن المسيح ولد بيولوجيا من الروح القدس• « حبل به من الروح القدس » تعنى أيضا بأن روح الله نفسه ، وليس أى روح آخر ، هو الذى عمل ، وليس أى انسان آخر ، وبأى طريقة كانت ، قام بهذ العمل •

مما سبق يتضح أن كارل بارت تمسك ودافع بشدة وإصرار عن عقيدة الميلاد العذراوى ، فإنه بالرغم من أن النصوص الكتابية التى تتكلم عن الميلاد العذراوى قليلة جدا ، وهى موضوع نقاش كثير ، إلا أن الميلاد العذراوى أمر هام جدا ، لدرجة أنه لايمكن اعتباره أسطورة أو قبول شرح غير الشرح الذى يقدمه لنا إنجيلا متى ولوقا بخصوص هذا الأمر •

ففى حياة المسيح نجد أمرين هامين جدا وفى غاية الخطورة ، وهما : الميلاد العذراوى فى بدء حياته ، فبهذا دخل المسيح إلى عالمنا بطريقة تختلف اختلافا تاما ، كليا وجزئيا ، عن ميلاد أى إنسان آخر • فبميلاده العذراوى هذا أصبح عمانوئيل ، الذى تفسيره الله معنا ،

(1) راجع كارل بارت نفس المجلد من ص ١٨٣ — ١٨٩ (النص الفرنسى)

حاضرا فى عالمنا ، حاضرا معنا بطريقة ملموسة محسوسة ومرئية . إن الكلمة صار فعلا وعملا جسدا ـ صار الله جسدا ـ يمكن لأيدينا أن تلمسه ولأعيننا أن تراه . أما الأمر الثانى الهام فهو حادث القيامة الذى ستكون لنا الفرصة أن نتكلم عنه فى حينه . فقط نقول هنا إن حادث القيامة الذى كلل فى نهاية الأمر حياة المسيح ، حادث يفوق أيضا كل تفكير بشرى ، ولا يمكن تفسيره أو قبوله علميا . وبالرغم من هذه الاستحالات العلمية فإن الكتاب المقدس يقدم لنا المسيح مولودا من عذراء بطريقة غير طبيعية ، كما يقدم لنا المسيح مقاما من الأموات بطريقة لا يمكن شرحها أو فهمها بعقولنا البشرية . فهكذا بدأت حياة المسيح الأرضية بطريقة معجزية ، وانتهت من الأرض أيضا بالقيامة بطريقة معجزية ، متخطية كل العوائق الطبيعية ، لأنه رب الطبيعة وسيدها . ومع أنه يحترم قوانينها لأنه هو واضع هذه القوانين ، إلا أنها خاضعة له ومنفذة لأوامره . فلا عجب إذن ، إذا كنا نرى أن قوانين الطبيعة تكسر فى هذين الحادثين ـ الميلاد العذراوى والقيامة ـ وعلى ذلك فليس من حقنا بأى حال من الأحوال اعتبار هذين الحادثين كأساطير (MYTHES) كما ظن رودلف بولتمان وآخرون . بل إن حقيقة الميلاد العذراوى التى تبدأ بها حياة المسيح ، وحقيقة القيامة التى تختتم بها أيضا حياة المسيح ، هما حقيقتان هامتان لايمكن انكارهما ، ولا يمكن أيضا قبولهما إلا بالإيمان . فأعن يارب ضعف إيماننا .

الفصل الثالث

طفولة يسوع وشبابه

لقد حاولنا فى الفصول السابقة أن نبحث عن تاريخ لميلاد يسوع ، وعرفنا بأنه ولد فيما بين سنة ٤ وسنة ٥ قبل الميلاد . وبعد ذلك تعرضنا لمشكلة الميلاد العذراوى ورأينا أن يسوع الناصرى ابن مريم ، هو يسوع المسيح ابن الله ، « الكلمة صار جسدا » ، وهذا الكلمة الذى صار جسدا هو الله نفسه . إذ أنه « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » . وهذا يعنى بأن الميلاد العذراوى هو ميلاد معجزى لا يدين بشىء ، لا للجنس ولا للطبيعة . فقد كان الميلاد العذراوى خرقا لقوانين الطبيعة لأن الطفل ، الذى ولد فى بيت لحم اليهودية فى حوالى سنة ٤ ق.م. ، هو «عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا » . الله الذى يملأ بجلاله وعظمته السموات والأرض ، الله المعبود من الملائكة ، يصبح إنسانا لا بل طفلا صغيرا يولد فى بيت لحم فى مزود.

ومن هنا نريد أن نتقدم فى بحثنا خطوة أخرى ، والخطوة التى نريد أن نخطوها الآن تختص بطفولة وشباب يسوع الناصرى . لقد رأينا فيما سبق أن ميلاد يسوع تم فى نهاية حكم هيرودس الكبير ، وأن متى ولوقا ، بذكرهما أسماء الحكام ، ساعدا المؤرخين كثيرا على

تحديد بعض التواريخ الهامة المختصة بميلاد وموت يسوع المسيح •
فلو لم يذكر كتاب العهد الجديد أسماء بعض الأباطرة والحكام ، الذين كانوا يحكمون فى ذلك العصر ، لأصبح أمر تحديد تورايخ الميلاد والقيامة أمرا عسيرا • على أن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا لنا عن ميلاد يسوع وموته وقيامته ، لا يتكلمون عن حياة يسوع كطفل وشاب • حتى كتاب الأناجيل الذين يسردون بعض القصص الخاصة بميلاده ومعجزاته وأعماله ، يسدلون ستارا ، يكاد يكون ستارا كثيفا لانرى من خلفه إلا خيوطا باهتة جدا ، على طفولة وشباب يسوع • فالفصول الكتابية التى تتكلم عن هذه الفترة من حياته قليلة جدا لدرجة أنه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نرسم عن طريقها صورة متكاملة ولو نسبيا لطفولة وشباب يسوع •

إن الأناجيل لاتذكر لنا عن طفولة يسوع إلا حادثتين : أولا ــ الذين جاءوا من المشرق ليسجدوا له • ويمكننا أن نقول بأن زيارة المجوس ليسوع يحتمل أن تكون قد تمت فى السنة الأولى أو الثانية بعد ولادته حوالى سنة ٥ أو ٤ ق•م• ، أى قبل موت الملك هيرودس • « حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدا ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذى تحققه من المجوس » (مت ٢ : ١٦) • أما الحادثة الثانية التى يتكلم فيها متى عن طفولة يسوع ، فهو الحلم الذى أوحى فيه الرب ليوسف قائلا : « قم خذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ••• فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس ••• » (متى ٢ : ١٣ ــ ١٤) •

غير هاتين الحادثتين ، لاتذكر الأناجيل شيئا عن طفولة يسوع •

وحتى فى هاتين الحادثتين ، فإن متى لايتكلم عن الطفل يسوع بل يصف الجو الذى وجد فيه هذا الطفل ، وما يدور حوله ، وما يحاك ضده ، وما تدبره العناية الإلهية لخلاصه من مؤامرات هيرودس .

أما لوقا فنجد كتب عن طفولة يسوع بطريقة مباشرة تلمس حياته نفسها ، وليس كما فعل متى ، الذى يصف الأحداث التى تدور حوله ، دون أن يكلمنا عن الطفل يسوع نفسه . فإن الأصحاح الثانى من إنجيله يسجل لنا عدة حوادث : أولا عن ميلاد يسوع (لو ٢ : ٨ ــ ٢٠)، ثم يسجل لنا الإنجيل حادثة الختان التى تتم بحسب الناموس الموسوى فى اليوم الثامن (لو ٢ : ١ ، تك ١٧ : ١٢) كما أن الانجيل لايهمل أيضا عملية تطهير الأم التى تعد من الطقوس اليهودية الموسوية الهامة (لو ٢ : ٢٢ ــ ٤٠) .وبعد اتمام هذه النواميس يقول لوقا : « ولما أكملوا كل شيء حسب ناموس الرب رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة ، وكان الصبى ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة وكانت نعمة الله عليه » (لوقا ٢ : ٣٩ ــ ٤٠) .

وفى نفس الأصحاح يقص لنا لوقا قصة لم ترد فى أى إنجيل آخر، وهو النافذة الوحيدة التى فتحت لنا فى الأناجيل، والتى من خلالها يمكننا أن نلقى نظرة على شباب يسوع . فلوقا هو الوحيد الذى يسجل لنا قصة الشاب يسوع الذى صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم لكى يؤدى فريضة الفصح التى كان على كل شاب يهودى متدين تجاوز الثانية عشرة من عمره أن يؤديها . وفى نهاية هذه القصة يختم لوقا الأصحاح الثانى بهذا القول : « ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما ، وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها ، وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (لوقا ٢ : ٥١ ــ ٥٢) .

من هذه الأعداد التى سبق أن أشرنا إليها (لوقا ٢ : ٤٠ ، ٥١ ، ٥٢) نلاحظ أن الطفل يسوع كان ينمو نمـوا عاديا متقويـا بالروح وممتلئا حكمة ، ونعمة الله كانت عليه • وفى سن الثانية عشرة يقدم لنا لوقا صورة عن تصرفات الشاب يسوع : فى تلك السن يشعر الشـاب بنزعة الاستقلال عن الأبوين وعدم الخضوع لهما ، فيقول لوقا : وكان خاضعا لهما • وكان الشاب يسوع « يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » •

إن لوقا هو الوحيد الذى استطاع بهذه الأعداد القليلة جدا أن يقدم لنا الشاب يسوع بهذه الصورة التى سيكون لنا فيما بعد مجال للحديث عنها •

خارجا عن هذه الشواهد التى سبق أن أشرنا إليها ، لا نجـد فى العهد الجديد أية إشارة أو قصة تصف لنا حياة يسوع من طفولتـه إلى أن بدأ ما نسميه الخدمة العلنية • صحيح أن اليهود قالوا عنـه « أليس هذا ابن النجار » (متى ١٣ : ٢٣) ، وصحيح أيضا أن كاتب رسالة العبرانيين أراد أن يؤكد بشدة على ناسوته فقال : « من ثم كان ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شىء » (عب ٢ : ١٧ ، ١٨) إن هذه الأعداد المبعثرة والمتناثرة لا تسمح لنا بأن نؤلف قصة حياة يسوع منذ ولادته إلى أن بدأ خدمته ، ولذلك فإن هذه الفترة أى من ولادتـه إلى أن بدأ التبشير ، تعد فترة مجهولة وغير معروفة لدينا ، ولولا وجود هذه الأعداد القليلة جدا التى ذكرناها ، لأصبح العهد الجديد كله خاليـا تماما ، جزئيا وكليا ، من كل ما يخص طفولة يسوع وشبابه •

ولقد اندهش كثير من الكتاب لصمت العهد الجديد عن الإفضـاء لنا بالمزيد عن حياة يسوع الداخلية والخارجية فى هذه الفترة ، وسألوا

البعض أسئلة كثيرة وعديدة عن طفولة يسوع ، كيف كان يعمل ويتصرف ويحيا ؟ هل كان يذهب إلى المدرسة ويتعلم كباقى الناصريين ؟ وما هى تصرفاته كطفل وكتلميذ وكشاب ثم كرجل نجار ، وما هى تصرفاته كعامل ؟

إن العهد الجديد لا يعطى لنا جوابا على هذه الأسئلة وعلى أسئلة كثيرة أخرى يمكن أن تطرح • إن كتاب العهد الجديد لم يحاولوا أن يكتبوا لنا قصة مفصلة عن حياة يسوع وعن ولادته إلى بداية التبشير• وذلك يرجع إلى أن الرسل لم يكن همهم كتابة قصة عن حياة يسوع الأرضية،يصفون فيها كيف كان الطفل يسوع يأكل ويشرب وينمو وينام، ويلعب ويدرس ويتصرف مع رفقائه ••• الخ ، بل كان هدف كتاب العهد الجديد هو أن يشرحوا لنا أن يسوع الناصرى الذى ولد من مريم العذراء هو يسوع المسيح ، المسيا المنتظر ، المخلص الذى يخلص العالم من خطاياه •

إن هدف الأناجيل والرسائل هو تبيان حقيقة روحية هامة : هى أن يسوع الناصرى ابن مريم ، هو المسيح ، المسيا الذى تنبأت عنه الكتب المقدسة • ولهذا السبب لم يحاول كتاب العهد الجديد وصف حياة يسوع الداخلية والخارجية ، هذه الأمور التى تهم عالم النفس والاجتماع والجنس ••• الخ ولكنها لاتشغل عند كتاب العهد الجديد إلا حيزا صغيرا جدا على الهامش •ولذلك لم يسجل لنا هؤلاء الكتاب عن حياة يسوع فى فترة الثلاثين السنة الأولى إلا أعداداً قليلة جدا •

ولهذا السبب حاولت الكتب الأبوكريفية ،أو بعبارة أصح الأناجيل المزيفة ، أن تنسج من الخيال قصة بل قصصا عن حياة يسوع • فمنذ القرن الثانى الميلادى إلى القرن الخامس ظهرت عدة أناجيل ورسائل مزيفة نسبوها إلى بعض التلاميذ والرسل • ولقد حاولوا أن يقصوا

فى هذه الرسائل والأناجيل بعض القصص والحوادث التى يدعى هؤلاء أنها حدثت مع المسيح ومع أمه ويوسف • ومن هذه الكتابات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر : إنجيل توما ، إنجيل يعقوب ، إنجيل المصريين ، تاريخ يوسف النجار ، الإنجيل العربى ، وإنجيل بطرس•• الخ •

وكل هذه الأناجيل مزيفة ، ونسب معظمها إلى بعض الرسل والتلاميذ لكى يسهل توزيعها وانتشارها • ولقد حاول كتابها أن يصفوا حياة يسوع ومعجزاته ، ليس فقط المعجزات التى سجلتها لنا الأناجيل الأربعة المعروفة والمعترف بها ، بل معجزات أخرى كثيرة تلونت بالطابع الخراف • وكان هدفهم من ذلك ، ملء الفراغ الذى تركه العهد الجديد بصمته عن التكلم عن طفولة وشباب يسوع •

ولقد انتشرت هذه الأناجيل فى كنيسة القرون الأولى بطريقة سريعة وعلى نطاق واسع • بل أن بعضا من هذه القصص الخيالية الخرافية المذكورة فى هذه الأناجيل أصبح تسلية المسافرين للأغراض التجارية والسياسية والحربية ، فإن المسافرين على ظهور جمالهم وخيلهم وعرباتهم القديمة البطيئة السير ، كانوا يقصون على بعضهم فى أثناء هذه السفريات الطويلة ، قصصا مسلية يميل معظمها إلى الخيال الخصب المشوق ، إلى ما هو خارق للطبيعة • ولقد جذبت هذه الأناجيل المزيفة الكثيرين ، ليس فقط المسافرين فى رحلات طويلة ، بل الآخرين أيضا إذ أنها تحتوى على قصص مسلية ، خصوصا القصص التى تتكلم عن طفولة يسوع والمعجزات التى كان يقوم بعملها وهو بعد ولد صغير• وخلط البعض قصص هذه الأناجيل المزيفة مع قصص الأناجيل القانونية (الأناجيل المعترف بصحتها وقانونيتها وهى الأربعة الأناجيل الاولى) (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) ، ظنوا أن هذه الأناجيل والكتابات

المدسوسة وسط الأناجيل وكتابات العهد الجديد القانونية ، هى أيضا جزء من العهد الجديد . وكان تفكيرهم : كيف لاتكون جزءا من العهد الجديد وهى تصف لنا طفولة يسوع الطفل ، ثم تحكى أيضا المعجزات والخوارق التى عملها هذا الطفل ؟ فبعض هذه الأناجيل حاول أن يصف لنا طفولة يسوع وكيف كان يعمل ويتصرف فى طفولته ، فالمعجزات كانت تصحبه أينما حل ، وتخرج من بين يديه أينما امتـدتا . وتحكى لنـا هذه الأناجيل أن يسوع عندما كان ولدا صغيرا كان يأخذ من الطـين الذى يلهو فيه وبه رفقاؤه ، ويصنع منه شكلا لعصفور وينفخ فى هذه القطعة التى صنعها من الطين فتصبح عصفورا يطير . وكان فى استطاعته أيضا أن يخبر أصدقاءه بما أكلوا وشربوا دون أن يراهم يأكلـون أو يشربون .

هذه القصص انتشرت وذاعت بين الناس ، وظن البعض أنهـا جزء من الأناجيل . وفى حقيقة الأمر ما هى إلا قصص وردت فى الأناجيل المزيفة (١) مثل إنجيل توما ، والانجيـل العربى وإنجيـل الطفولة ، وإنجيل المصريين . (٢)

من هذا يتضح لنا أن هذه الأناجيل كانت مقروءة ومعروفـة فى بعض الأوساط التى كانت تعيش فيها الكنيسة ، ولقد حاول كتاب هذه الأناجيل كما سبق القول ، بأن يكتبوا قصة عن طفولة وحياة يسوع ، الأمر الذى لم يعره كتاب العهد الجديد اهتماما خاصا . لأن هـدف العهد الجديد ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، هو أن يقدم لنا يسوع

(١) Jesus Selons le Coran. H. Michand Cahier. ص ٣٠ — ٣٢ . Theologiques 46 Edition De Cachaux et Niestlé, Suisse. p. 30-32.

(٢) راجع كتاب الأب بولس الياس اليسوعى : يسوع المسيح شخصيته وتعاليمه ص ٣٥ — ٤٢ .

الناصرى ابن مريم كالمسيح وكالمسيا وكالسيد ، يســوع الناصرى هو الله نفسه . هذه هى رسالة العهد الجديد والموضــوع الأساسى الذى تحدث عنه الانجيليــون وكتاب الرسائل . أما ما يخص حياة يســوع الأرضية فى طفولته وشبابه وعلاقته مع أطفال قريته وعصره ، كل هذه اعتبرها الانجيليون وكتاب العهد الجديد أمورا ثانوية . بل إن معظمهم فضل الصمت بل الصمت المطلق فيما يختص بطفولة وشباب يسوع . لهذا السبب لانجدشيئافىالعهدالجديد يكلمنا عن طفولته غيربعضالشواهد القليلة جدا المذكورة آنفا . ولهذا السبب كتب المبتدعون بعض الكتب التى تتكلم عن طفولة يسوع وشبابه ونسبوها إلى التلاميذ والرسل ، حتى تستطيع عن طريق هذه العناوين والأسماء المزيفة ، مثل إنجيــل توما ، وإنجيل المصريين ، إنجيل بطرس .. الخ ، أن تدخل إلى الكنيسة فتقرأ وتدرس وتقبل كأناجيل قانونية رسولية ، ولكن الكنيسة علمت بأن هذه الأناجيل لا تمت بصلة للرسل إذ أن معظم تعاليمهــا يختلف وروح أسفار العهد الجديد . فالتعاليم الغنوسية تسيطر على كثير من هذه الأناجيل ، وكما هو معروف فإن التعاليم الغنوسية تنكر ناسوت المسيح ولذلك فهى لاترى فى يسوع إنسانا حقيقيا بل هيئة إنسان يأكل ويشرب وينام ، وليس إنسانا حقيقيا يجــوع ويعطش ويحتــاج إلى النوم ، بل كان يأكل ويشرب وينام متظاهرا تحت هيئة بشرية غير حقيقية ولقد شبهوا جسد يسوع بالنور أو شعاع الشمس ، فإن النور وشعاع الشمس يمكن لهما أن يخترقا لوحا من الزجاج دون أن يكسرا هــذا اللوح . وهذا ما حدث (بحسب تفسيرهم) لمريم العذراء التى احتفظت بعذراويتها (بالمعنى الحرفى للكلمة) ، وهذا ما حدث أيضا ليسوع فى حادثة موته . فالمسيح لا يمكن أن يموت لأنه غير قابل بأى حــال من الأحوال للآلام .

وإنجيل بطرس (إنجيل مزيف) يصف لنا حادثة موت المسيــح

فيقول: «فجاءوا بلصين وصلبوا السيد بينهما ولكن السيد كان صامتا كانسان لايشعر بأى ألم ..» (١) . فقد رفض الغنوسيون عقيدة الصليب لأنها لاتتفق ولاهوت المسيح . ولكى يفسروا عقيدتهم هذه إزاء مشكلة صلب المسيح ، يقتبس الكثيرون منهم قصة سمعان القيروانى ، ليس كما يذكرها الانجيليون (متى ٢٧ : ٣٢ ، مرقس ١٥ : ٢١ ، لوقا ٢٣ : ٢٦) ، فلوقا يقول : «ولما مضوا به أمسكوا سمعان رجلا قيروانيا كان آتيا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع » (لو ٢٣ : ٢٦) ، بل يقتبس الغنوسيون الأناجيل المزيفة التى تجعل من سمعان القيروانى الشخص الذى أخذ مظهر يسوع الناصرى وهيئته ، ولذلك وضع اليهود أيديهم عليه وصلبوه بدلا من المسيح لأنه شبه لهم بانه المسيح(٢) . ويوحنا فى أعماله(٣) يصف لنا الشخص المعلق على الصليب والذى قال : « لست أنا يسوع المعلق على الصليب » (٤). ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة بالقول : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل الله رفعه إليه وكان الله عزيزا حكيما » (سورة النساء ١٥٦ — ١٥٧) .

على أية حال لانريد أن نحخل فى تفاصيل هذه المشكلة ، بل نود فقط أن نقول إن هذه الأناجيل المزيفة كانت معروفة ومقروءة فى بعض المجتمعات التى كانت تعيش فيها الكنيسة . ولكن البعض من

(١) راجع كتاب Jèsus Selon le Coran ص ٦٨ — ٧٠ (النص الفرنسى) .
(٢) راجع كتاب Jésus Selon le Coran ص ٦٧ — ٧٠ (النص الفرنسى) .
(٣) كتاب مزيف منسوب ليوحنا .
(٤) راجع كتاب الأب بولس الياس اليسوعى ٣٦ — ٤٢ .

الذين سمعوا قصص هذه الأناجيل المزيفة واطلعوا عليها لم يميزوا بينها وبين الكتب القانونية المعترف بها ، ولذلك استندوا عليها كجزء صحيح من الإنجيل • وفى حقيقة الأمر فإن كل هذه الكتب والأناجيل ، ما هى إلا كتبا وأناجيل مزيفة أدخلها المبتدعون تحت أسماء التلاميذ والرسل، لكى يشيعوا تعليما أو عقيدة خاصة • ويعوزنا الوقت لو تكلمنا عن كل هذه الأناجيل والكتب بالتفصيل وعن محتوياتهـا • وفى القرن الخامس عشر والسادس عشر ظهر إنجيل جديد من صنع هذين العصرين « يدعى إنجيل برنابا » • (١)

فإن كانت الأناجيل الأربعة وبقية كتب العهد الجديد لم تحـاول أن تعطى لنا وصفا تاريخيا كاملا أو حتى جزئيا ، عن طفولة يسـوع وشبابه ، فذلك لأن رسالة هذه الكتب كانت مركزة على إعلان حقيقـة أن يسوع ابن مريم : هو ابن الله • إن هـذه الكتب أرادت أن تعرفنا كما سبق القول بأن يسوع الناصرى هو نفسه يسوع المسيح ابن الله ؛ ولذلك لم يحاول كتابها أن يبحثوا عن البيئة التى نشأ فيها يسوع ولا عما كان يعمل فى طفولته وشبابه ، بل كان همهم هو أن يعلنوا أن يسوع هو المسيح ، غير باحثين عن معرفة يسوع حسب الجسد كما يقـول الرسول بولس : « اذاً نحن من الآن لانعرف أحداً حسب الجسـد ؛ وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لـكن الآن لانعرفه بعـد » (٢ كو ٥ : ١٦) •

وفى نهاية هذا الفصل نحب أن نلفت نظر القارىء إلى نقطتين :

(١) راجع كتاب Jésus Selon le Coran ص ٦٦ — ٦٧ ثم راجع أيضا كتاب M. Hayek Le Christ de L'Islame. Paris, 1959. ص ٢٢٤ — ٢٣٠ ثم كتاب الأب بولس الياس اليسوعى ص ٣٦ — ٤٢ •

١ ـــ ما سبق أن قلناه لايعنى بأى حال من الأحوال عدم البحث والتنقيب فى التاريخ وفى العلوم المختلفة عما يقوله التاريخ والعلوم عن يسوع •

٢ ـــ إن ما قلناه أيضا عن الأناجيل والكتب المزيفة لايعنى أنها لازمة وضرورية وموحى بها ، لأنها تتكلم عن طفولة وحياة يسوع وعن أشياء أخرى كثيرة لم تتكلم عنها الكتب القانونية ، بل إن هذه الكتب، كتب مزيفة قد نسبت إلى بعض التلاميذ وإلى بعض الرسل ، والتلاميذ أبرياء منها • إلا أن هذه الكتب بالرغم من الأخطاء الكثيرة التى تنتشر فى معظم صفحاتها والتى تذل على أنها من صنع البشر ، مفيدة لفهم التيارات المختلفة التى كانت تحاربها كنيسة المسيح •

هذه لمحة خاطفة سريعة عن حياة يسوع عندما كان طفلا وشابا ، ولنتقدم الآن إلى بحث نقطة هامة أخرى فى حياة يسوع على الأرض وهى فترة خدمته العلنية •

الفصل الرابع

يسوع ومعاصروه

(خدمة المسيح العلنية)

فى الفصل السابق اتضح لنا أنه من الصعب ، بل من المستحيل كتابة تاريخ عن طفولة وشباب يسوع،بما تعنى كلمة تاريخ من معنى علمى ، وذلك لأن الأناجيل القانونية الأربعة وأعمال الرسل ، والرسائل كلها ، قد أسدلت ستارا كثيفا جدا على مدة الثلاثين السنة الأولى من حياته • فالمراجع الانجيلية القليلة جدا التى تتكلم عن طفولته وشبابه هى عبارة عن ثقوب صغيرة وضيقة فى ستارة ، لاتسمح لنا أن نكتب قصة كاملة عن طفولة يسوع وشبابه لأن هذه الآيات القليلة جداً ، أو الثقوب الضيقة جدا والتى ننظر من خلالها إلى حياة المسيح ، لا تسمح لنا . لقلتها أو لضيقها ، بأن نكون صورة كاملة واضحة عن المسيح كطفل وكشاب • ولهذا السبب فإننا نجهل الكثير عن يسوع ، من طفولته إلى سن الثلاثين • فلما بلغ يسوع سن الثلاثين ، أزيح جزئيا الستار الذى كان يخفى خلفه يسوع • ويعطى لنا الانجيليون وكتاب الرسائل ، عن الفترة الثانية من حياته ، أى من سن الثلاثين إلى موته على الصليب ، بعض التفصيلات التى

يمكن أن نعتبرها كثيرة ووافرة بالنسبة لما كتبوه عن الفترة الأولى من حياته ، إذ أننا نلاحظ هذا الصمت الكامل وكأنه صمت متفـق عليه من كل كتاب العهد الجديد عن الفترة الأولى من حياة يسوع . أما فى الفترة الثانية فالانجيليون يقدمون لنا السيد ، ليس كالشخص الغير المعروف والذى يقضى اليوم كله فى حانوت نجارته أو عمله اليومى ، أيا كان هذا العمل ، دون شهرة أو صيت ، بل يقدمونه لنا كالشخص الذى ذاع صيته وطارت شهرته إلى أماكن بعيدة . ومتى يقول : « وكان يسوع يطـوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب . فذاع خبره فى جميع سورية ... فتبعتـه جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » (متى ٤ : ٢٣ — ٢٥) .

والفترة الثانية من حياة السيد أو خدمته العلنية تبدأ عنـدما بلغ الثلاثين من عمره كما يقول القديس لوقا : « ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة ...» (لوقا ٣ : ٢٣) . ونلاحظ هنا اتفاق التاريخ العالمى مع ما سجله لنا الوحى المقدس عن سن المسيح عندما بدأ خدمته العلنية. والتاريخ يعلمنا بأن حكم الامبراطور أغسطس أول أباطرة روما إمتـد إلى سنة ١١ ب.م ، وبعد ذلك تولى الحكـم بطريقة رسميـة وفعالـة الامبراطور طيباريوس الذى فى السنة الخامسة عشرة من سلطنته ظهر كل من يوحنا ويسوع (لو ٣ : ١) . ولكى نعرف سـن المسيح بطريقة صحيحة بحسب التواريخ العالمية نقول : امتد حكم أغسطس إلى سنة ١١ ب.م + ١٥ سنة من حكم طيباريوس = ٢٦ سنة ، وبما أن المسيح ولد سنة ٤ تقريبا قبل الميلاد فيكون سن المسيح عندما بدأ خدمته العلنية هو حوالى ٣٠ سنة كما يسجله لنا لوقا البشير . (١)

(١) فى الجزء الثانى والفصـل الاول راجع ما كتبناه بخصوص هـذا الموضوع ص ١٦١ — ١٦٨ .

وقبل أن يظهر يسوع ، جاء الذى قيل عنه بإشعياء النبى القائل : « صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب ، أصنعوا سبله مستقيمة » (اش ٤٠ : ٣ ، ٥٧ : ١٤ ، ٦٢ : ١٠ ، متى ٣ : ٣، مر ١ : ٢ ــ ٥ ، لو ٣ : ٤ ــ ٦ ، يو ١ : ٢٣) ، فإن مهمة يوحنا كانت اعداد الطريق أمام المسيا ، ولذلك فقد قال هو نفسه عندما سأله عن شخصيته الفريسيون قائلين : « من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال أنا صوت صارخ فى البرية قوموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى .. ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هو الذى يأتى بعدى الذى صار قدامى الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » (يو ١ : ٢٢ ــ ٢٨) وفى هذا الاعلان الذى أعلن فيه يوحنا عـن نفسه بأنه ليس هو المسيا المنتظر ، وما هو إلا ذاك الذى يعـد الطريق أمام المنتظر ، يقدم لنا المسيا الذى انتظرته الأجيال : « وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلا إليه فقال هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩). وهنا يتقابل صاحب الصوت الصارخ فى صحراء اليهودية والمعلن عـن قدوم المسيا القريب ، مع المسيا نفسه . إن هذه اللحظة ، لحظة مقابلة يوحنا للمسيا يسوع ، تعد من أعظم وأمجد اللحظات فى تاريخ البشرية. ذلك لأنه فيها قد تقابل ذاك الذى كان يعـلن مجىء الأعظم ، والأعظم نفسه : يوحنا الذى يمثل أنبياء العهد القديم وخاتمهم ، الذين تنبأوا وانتظروا أجيالا طويلة مجىء المسيا ولم يروه ، والمسيا نفسه . ففى لقاء يسوع ويوحنا يتقابل وجها لوجه الصوت الصارخ والموعود به ، النبى والمتنبأ عنه : يوحنا ويسوع . وعندما تقابل آخـر نبى من أنبياء العهد القديم وأعظمهم ، كما يقول عنه يسـوع نفسه : « لأنى أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبى أعظم من يوحنا المعمدان ..» (لو ٧ : ٢٨) . مع المسيا المنتظر والموعود به ، لم يسع هذا النبى إلا أن يقول بسرور عظيم : « إذاً فرحى هـذا قد كمـل ، ينبغى أن ذاك يزيد وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٢٩ ــ ٣٠) .

لقد حدثت هذه اللحظة التاريخية العظيمة بين رب الأنبياء يسوع، وأعظم الأنبياء وخاتمهم فى العهد القديم يوحنا ، فى اليهودية • وكانت اليهودية كبقية بلاد فلسطين قدوقعت تحت الحكم الرومانيوسيطرته سنة ٦٣ ق م ، التاريخ الذى فتح فيه بومبى هذه البلاد واستولى عليها • ولقد سبق أن رأينا أنه عند ميلاد السيد كان هيرودس ملكا على اليهودية (متى ٢ : ١) ، وترك الملك هيرودس وصية للامبراطور أغسطس بأن تقسم مملكته بعد موته على أولاده الثلاثة ، وفعلا نفذ الامبراطور وصيته ، فأعطى لأرخيلاوس اليهودية والسامرة كما أنه منح الجزء الثانى من المملكة وهو الجليل لهيرودس أنتيباس مع لقب رئيس ربع أما الجزء الثالث من المملكة والذى كان تابعا لسوريا فقد أسنده إلى الابن الثالث وهو فيلبس ابن كليوباترا •

وعندما بدأ المسيح فى خدمته العلنية ، كان باقيا من أولاد هيرودس فى مناصبهم كحكام ، فيلبس كرئيس ربع على أيطورية وكورة تراخونيتس ثم هيرودس أنتيباس كرئيس ربع على الجليل (لو ٣ : ١)•

وعندما نرجع إلى تاريخ الأمة اليهودية نرى أن الفترة التى بدأ فيها يسوع التبشير : كانت فترة اضطراب وقلق وعدم استقرار من الناحية السياسية والدينية ، فاذا رجعنا الى الوراء نرى أنه بعد موت هيرودس الكبير (سنة ٤ ق م) تعرضت البلاد لعدة ثورات وهيجان شعبى ضد السلطات الرومانية ، وخاصة الثورة التى قام بها يهوذا الجليلى فى سنة ٦ ب م ، فبالرغم من أن تاسيت يقول بأنه فى أيام طيباريوس كان كل شيء هادئا ، فاننا نعتقد بأن هذا الهدوء لم يكن إلا نسبيا • ومع أن هذه الثورة أخمدت الا أنها كانت الأم لثورات أخرى قامت بعدها أقوى منها وأشد فتكا وخرابا ودمارا ، لأن الثورات التى قام بها المتعصبون دينيا ومعظمهم من الغيورين ، قد أطاحت فى

نهاية الأمر بأورشليم فى سنة ٧٠ ب م (١) ٠

وفى الفترة التى بدأ المسيح تبشيره ، كان الصراع بين الرومان ، الدولة الحاكمة المستعمرة ، وبين اليهود ، الدولة المحكومة المستعمرة ، صراعا قويا وحربا شعواء لا هوادة فيها ٠ ونتيجة لهذا الصراع المسلح العنيف بين السلطات الرومانية المستعمرة وبين الشعب المستعمر المغلوب على أمره ، تجددت الأحلام المسيانية ، ونشطت الأحزاب الدينية والسياسية القديمة والحديثة ، فكلما كان يزداد الضغط والظلم الرومانى على هذا الشعب كلما كان يزداد اشتياقه لظهور المسيا وتكثر أحلامه بمخلص لتخليصه من قبضة هذا الرومانى العاتى الظالم٠فاذا استثنينا شيعة الصدوقيين التى كانت تضم عددا كبيرا جدا من طبقة الكهنة الارستقراطية ، والتى كانت متعاونة مع المستعمر ومؤيدة لسياسته التى ترعى مصالحهم إذا استثنينا هذا الحزب ، يمكننا أن نقول بأن كل الأحزاب والشيع الأخرى كانت ضد الحكم الرومانى وكانت تنتظر بفارغ الصبر مخلصا على مثال موسى ويشوع ودبورة وجدعون ويفتاح وشمشون وماتاتياس ويهوذا وناثان سمعان ٠٠٠ الخ ، فان حزب الفريسيين وحزب الغيورين بنوعيه معتدل ومتطرف ، كانا ضد الرومان وكانا ينتظران ظهور المسيا ٠ كذلك جماعة الأسينيين التى كانت تعيش فى منطقة قمران ، كانت هى أيضا تنتظر بدورها تغييرا فى الحياة الدينية ٠ فان حركه الغيورين ، التى بدأت سنة ٦ ب م على يد يهوذا الجليلى ، عرفت فى أيام المسيح نجاحا عظيما ، وقد اتخذت من الجليل مركزا لنشاطها ، وهو مسقط رأس يهوذا المؤسس لهذا الحزب ٠ فمن الجليل كان يرسل المخربون والمدمرون الى نواحى الجليل واليهودية والسامرةلكى يقوموابعمليات الهجوم والتدمير والقتل

(1) David M. Rhoads. Israel. In Revolution. 6 - 74 C.E.A. Political History Based Writing of Josephus. Fortress Press P. 65.

والتخريب . والعمليات التخريبية التى قام بها الغيورون كانت موجهة ضد الرومان الذين يحتلون البلاد وضد أعوان المستعمرين ، خصوصا الطبقة الارستقراطية الكهنوتية التى تواطأت ، بل ومدت يد المساعدة والتعاون للمستعمر الرومانى الوثنى . على أنه يجب التمييز كما سبقت الاشارة الى ذلك بين الحزب الغيورى المتطرف والحزب الغيورى المعتدل . فان الأول (الحزب المتطرف) قد أباح لنفسه استعمال كل الوسائل من غدر وقتل وسرقة للوصول الى هدفه المنشود وهو الوصول الى طرد الرومان من البلاد والحصول على الاستقلال الكامل لتأسيس المملكة أو الأمة الثيوقراطية — أى التى يحكم فيها الله بحسب المكتوب . أما الحزب الثانى (الحزب المعتدل) فكان يعمل هو الآخر على تحرير البلاد وحكمها حكما ثيوقراطيا ، الا أنه لم يتفق ولم يشترك مع الحزب الأول فى استعمال كل الوسائل الاجرامية وخاصة ضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع المستعمر (عملاء الاستعمار) ، وعلى هذه النقطة انقسم حزب الغيورين الى قسمين : الحزب المتطرف والحزب المعتدل وهذا الأخير كان قريبا فى بعض اتجاهاته السياسية من حزب الفريسيين .

وبما أن حزب الغيورين المتطرف استعمل فى سياسته أسلوب القتل والغدر والهجوم ضد الرومان وأعوانهم ، فان المستعمر لم يقف مكتوف الأيدى ازاء هذه السياسة والذين يتزعمونها ، ولذلك قام الرومان بقمع هذه الحركات بكل الوسائل الممكنة ، ولم يترددوا فى ضربها بقوة ووحشية أينما وجدت . ويوسيفوس بن فلافيوس ، المؤرخ اليهودى ، يتكلم كثيرا عن الغيورين وعن الصراع المستمر بين الغيورين والرومان ، ومن الطبيعى أن يوسيفوس كان يلقى دائما المسئولية على الغيورين فى عمليات الهجوم التى كان يقوم بها الرومان ضد هذا الحزب ، لأنه كان من أعوان وأتباع المستعمر الرومانى . ومع أن كتاب العهد الجديد تحاشوا أن يتكلموا باسهاب عن هذا الحزب ، الا أنهم تكلموا عنه بطريقة موجزة ، وستكون

لنا فيما بعد الفرصة للتحدث عن ذلك • ولكن المهم هو أن نعرف أن هذا الحزب كان يحارب ويصارع ليس بدافع وطني فقط بل بدافع ديني أيضا، ولهذا فان كثيرين من هذا الحزب قد ادعوا أنهم المسيا المنتظر ، وبهذه الصفة حاربوا الرومان وغدروا ببعض اليهود العملاء للرومان • ولقد ظن هؤلاء المسايا الكذبة بأن مجيء ملكوت الله متوقف على سيوفهم وخناجرهم ومكرهم ، فأمعنوا في استعمالها باسم المسيا والملكوت ، كما فعل يهوذا الجليلي وأتباعه (اع ٥ : ٣٦ ، ٢١ : ٣٨) •

ولذلك فان السلطة الرومانية كانت تضرب بيد من حديد وبلا رحمة كل الحركات الوطنية والحركات المسيانية التي كانت تعتبرها عدوها الأول • ومن هذا الموقف السياسي الذي اتخذته روما ضد الحركات المسيانية ، سنفهم أيضا فيما بعد لماذا لم يتكلم المسيح كثيرا عن مسيانيته ، بل وفي بعض الأحيان كان يمنع تلاميذه من أن يتكلموا عن ذلك (مر ١ : ٢٤ ــ ٢٥ ، ٣٤ ، ٣ : ١١ ــ ١٢ ، ٩ : ٨) وهذه السياسة الرومانية تشرح لنا أيضا موقف المؤرخ يوسيفوس فلافيوس (فيما بعد)، وكيف أنه لم يتكلم عن المسيح كثيرا حتى لا تخلط السلطات الرومانية بعد سقوط أورشليم بينه وبين المسايا الذين ظهروا في تلك الفترة •

مما سبق يتضح لنا أمران هامان جدا : الأمر الأول ، هو أنه عندما بدأ المسيح في الخدمة كان معظم الشعب اليهودي ينتظر بفارغ الصبر ظهور المسيا • والأمر الثاني : أن السلطات الرومانية كانت تعتبر أن كل حركة مسيانية حركة معادية للسلطات الرومانية وللامبراطورية كلها • ولذلك استعمل الرومان كل الوسائل في محاربتها والقضاء عليها أينما وجدت • فمن الأمر الأول ، نلاحظ أن الشعب اليهودي كان معدا ومهيئا لمجيء المسيا ، فالقصص الشعبية التي كانت تتكلم عن المسيا وأعماله وكيف أنه سوف لا يخلص شعبه من الاستعمار والاستعباد الروماني فحسب ، بل بنوة يهوه ستصبح الأمم الوثنية مستعبدة للشعب اليهودي

ومتعبدة لالهه ، وأن هذا سيتم عند مجيء المسيا الذى سيقوم بعمل المعجزات فتحل المشكلات السياسية والاقتصادية والدينية • ونستطيع أن نلاحظ هذا المفهوم ، الذى كان منتشرا بين الشعب اليهودى ومسيطرا عليه ، فى الحوار الذى دار بين السيد والشيطان فى التجربة على الجبل • فالأناجيل الثلاثة تسجل لنا هذه القصة التى تشرح لنا بطريقة دقيقة المفهوم الشعبى السائد فى ذلك العصر بخصوص المسيا والانتظارات التى كان يحلم بها الحالمون من اليهود • فليس عن طريق الصدفة أن الأناجيل الثلاثة تسجل لنا قصة التجربة (متى ٤ : ١ — ١١ ، مر ١ : ١٢ — ١٣ ، لوقا ٤ : ١ — ١٣) ، بل وتفرد لها المكان الأول بعد حادثة العماد فى حياة المسيح • وطريقة الحوار التى دارت بين يسوع وبين الشيطان تصور لنا بدقة آمال اليهود وأحلامهم فى المسيا الذى سيأتى ليحرر شعبه • والقصة كما سجلها لنا القديس لوقا تحتوى على ثلاث تجارب حاول بها إبليس أن يجرب يسوع ، والتجربة الأولى هى •••• « إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا » (لو ٤ : ٣) كان يسوع ناصريا أى من منطقة الجليل (لو ٤ : ١٦) ، وهى المنطقة التى ولدت فيها الحركة المسيانية ، بل وكانت تعتبر مركزا من المراكز المسيانية الهامة • فلا بد أن يسوع فى أيام شبابه وفى أثناء عمله اليومى فى هذه المدينة كان يتناقش مع شعبها ، فهو يعرف كانسان انتظارات هذا الشعب فى المسيا وأحلامهم ، ولا بد أنه سمع بأخبار الثورات التى قامت فى الجليل وفى أماكن أخرى ، فعندما قام يهوذا الجليلى بثورته ضد الرومان وحث اليهود على عدم دفع الجزية ، كان المسيح قد بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من عمره • ولقد اعتبر البعض يهوذا الجليلى أنه مسيا أو على الأقل المهيىء لطريق المسيا •

ومن الأعمال التى كان لا بد أن يقوم بها المسيا المنتظر ، حل المشاكل الاقتصادية • فيهوذا السيد الذى عاش فى زمن طفولته فى

منطقة معروفة بانتشار النشاط الغيورى فيها يوجد الآن فى الصحراء وجهاً لوجه أمام هـذه التجربة التى يجتـاز فيها الشعب ، المسـيا المنتظر والمشكلة الاقتصادية • ومما لا شك فيه أنه كان يعرف بل كان متأكدا من مسيانيته ، أنه هو ابن الله ، فماذا يعمل ، كمسيا وكابن الله الوحيد ، ازاء هذا المفهوم السائد بأن المسيا يستطيع أن يحل المشاكل الاقتصادية بمعجزة عند مجيئه • مما لا شك فيه أن السؤال كان هدفه أن يزعزع إيمان يسوع فى أبيه : « إن كنت ابن الله ••• » • ولكن عندما ندرس الظروف التى كان يمر بها الشعب اليهودى فى ذلك العصر نلاحظ أن للسؤال هدفاً آخر ، وهو الانتظارات اليهودية التى كان ينتظرها هذا الشعب من المسيا المنتظر • كان الشعب المغلوب على أمره ينتظر حـلا اقتصاديا لشعبه ولو بطريقة معجزية ، إن المسيا لا يقل بأى حال من الأحوال عن موسى الذى استطاع أن يحل مشاكل الشعب الاقتصـادية والمادية فى الصحراء ، ألم يعط موسى، بقوة الله وتدخله لهذا الشعب، طعاما فى الصحراء القفر ؟ فقد أرسل لهم السلوى التى صعدت وغطت المحلة فأكل الشعب وشبع (خر ١٦ : ١ ــ ٣٦) • ألم يعمل موسى معجزة إرواء هذا الشعب العطشان ؟ (خر ١٧ : ١ ــ ٧) • ألم يعمل موسى هذه المعجزات ومعجزات أخرى كثيرة حلت بعض مشاكل هـذا الشعب، من الناحية الاقتصادية المـادية ؟ (خر ١٥ : ٢٢ ــ ٢٧) •

فالمسيا هو أعظم من موسى وحلوله للمشكلة حلول صحيحة جذرية، وإنجيل يوحنا يذكر لنا حادثة ، بعد أن أجرى المسيح معجزة الخمسة أرغفة والسمكتين تعبر بطريقة واضـحة ودقيقة عن الآمال التى كانت تجول فى خواطر هذا الشعب بخصوص المسيا المنتظر : « فجمعوا وملأوا اثنتى عشرة قفة من الكسر من خمسـة أرغفـة الشعير التى فضلت عن الآكلين ، فلمـا رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا إن هـذا هو بالحقيـقة النبى الآتى إلى العالم ، وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون

أن يأتوا ويخطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضــا الى الجبل وحده » (يو ٦ : ١٣ ـــ ٢٥) ٠

كان الشعب اليهودى فى ثورة وغليــان ، وفى ثورته وغليانه كان يبحث عن المسيا ليحل لهم المشكلة المادية الاقتصادية ٠ وهنا يتقــدم المجرب من السيد قائلا له: «إن كنت أنت فعلا ذلك الذى يجب أن يحرر هذا الشعب ويخلصه ، إن كنت أنت المسيا ، فاثبت مسيانيتك بأن تحل لهم هذه المشكلة الاقتصادية ، فهم فى حاجة ماسة لحل هذه المشــكلة ، وظروفهم تشبه الظرف الذى تجتاز أنت فيه الآن ، فان كنت أنت المسيا، فقل لهذا الحجر الذى يشبه فى شكله قطع الخبز بأن يصير خبزا ، وبذلك تعرف أن أباك السماوى معك ويسمع لك وبذلك أيضا تستطيع أن تخدم هذا الشعب وتحل مشاكله المادية والاقتصادية » ٠ والمسيح الذى يعرف خطورة هذا الحل المــادى وخبث المجرب يقول له : « ليس بالخبــز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله » (لو ٤ : ٤) ٠

أما التجربة الثانية ، أو الانتظار الثانى الذى كان يتوقعه كثيرون من اليهود عند مجىء المسيا ، فهو عمل المعجزات الخارقة للطبيعة ، وهنا أريد أن أتبع النظام الذى اتبعه متى ، فهو يسجل لنا التجربة الثــانية بدلا من الثالثة فى إنجيل لوقا ، فيقول : « ثم أخذه إبليس الى المدينــة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ٠ وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل » (متى ٤ : ٥ ـــ ٧) ٠

إن المسايا الذين جاءوا قبل وفى أثنــاء وبعد زمن يسوع ، كان معظمهم يدعى عمل ما يبهر العين وما يستولى على المشاعر ، ألم يحاول ثوداس نفس المحاولة عندما خرج على رأس عدد كبير من اليهود واعدا إياهم بأنه بكلمة واحدة من فمه سيشق نهر الأردن الى شطرين ؟ (١)

---

(١) راجع تفسير انجيل متى لوليم باركلى ٤ : ٥ ـــ ٧ ٠

ألم يحاول أيضا الغيورى المصرى الثائر نفس المحاولة عندما وعد الشعب بأن أسوار أورشليم الشامخة ستسقط سجودا تحت أقدامهم ، عندما يعطى أمره بذلك ؟ وماذا أقول عن سمعان ماجوس الذى حاول أن يطير فى الهواء ، طارحا نفسه من على الهيكل ، فسقط ومات فى أثناء التجربة ؟ فان كثيرين من المسايا الكذبة اتبعوا هذا الطريق الذى يستحوذ على ألباب الناس ومشاعرهم •

ويسوع كان يعرف قصصا كثيرة مماثلة لهذه الحوادث ، ويعرف المفهوم الذى كان سائدا ومسيطرا على عقول الناس ، ولذلك يتقدم اليه المجرب قائلا : « إن كنت أنت فعلا هذا المسيا المنتظر ، فالق الآن بنفسك من على جناح الهيكل » • ففى جناح الهيكل كانت توجد زاوية تطل على وادى قدرون وارتفاعها أربعمائة وخمسون قدما عن الأرض ، وكأنى بالمجرب يقول له : « إذا كنت أنت ذلك المسيا المنتظر ، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة ؟ وبما أنه مكتوب يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك •• » فلن يصيبك شىء من الضرر ، بل عندما يراك الشعب نازلا عليهم طائرا سوف يهللون لك وتصبح أنت المسيا المنتظر • فان كنت المسيا الحقيقى ، فلماذا لا تلقى بنفسك لكى يؤمن بك هذا الشعب ، فأنت تختلف تماما عن سمعان ماجوس » •
وكان جواب المسيح على هذه التجربة التى كان يريدها إبليس والشعب اليهودى : •••• لا تجرب الرب إلهك » ، فان الشعب اليهودى كان ينتظر مسيا قويا يبهر العقل والعين بأعماله ومعجزاته : الأمر الذى تجنبه المسيح فى كل حياته • فكم من المرات عمل فيها المعجزات الخارقة للطبيعة ! » نراه يقف أمام إنسان مفلوج مريض ، فيقول له مغفورة لك خطاياك ، قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك (مر ٢ : ٥ ، ١١) ، ثم أمام أعمى فيعطى له البصر ، فيبصر (يو ٩ : ٦ — ٧) ، وهكذا كان المسيح يعمل المعجزات بسخاء عظيم لمن كانوا فعلا فى حاجة لهذه

المعجزات ، ولكن كم من المرات رفض المسيح أن يعمل المعجزات للذين كانوا يريدون أن يجربوه ، لأنهم لم يكونوا فى حاجة لهذه المعجزات ، بل أرادوا أن يعرفوا هل هذا الشخص ، يسوع الناصرى ، هو المسيا المنتظر الذى يجب أن يضع اسرائيل رجاءه الاقتصادى والسياسى فيه؟ فكم من المرات سأله الكتبة والفريسيون هذا السؤال : .... « يا معلم نريد أن نرى منك آية ، فأجاب وقال لهم جيل شرير وفاسق يطلب آية ولاتعطى له آيــة ...» (متى ١٢ : ٣٨ ،متى ١٦ : ١، لو ١٢ : ٢٩) . وكان جواب المسيح انقاطع المانع على هذه الأسئلة التى سألها الشيطان واليهود لكى يروا قوته : « لا تجرب الرب إلهك » .

أما التجربة الثالثة أو الانتظار الشعبى الذى كان يتوقعه اليهودى عند مجىء المسيا فهو أن هذا الشعب المضطهد المغلوب على أمره ، لن ينال الاستقلال والحرية فقط بمجىء المسيا ، بل سيتسلط بدوره على أمم وشعوب . ولقد رجــع الكثيرون من اليهود الى بعض الفصـــول الكتابية التى تتكلم عن سلطان المسيا الروحى وفسروها تفسيرا حرفيا ماديا ، مثل مزمور ٧٢ « أمامه تجثوا أهل البرية وأعداؤه يلحســـون التراب ... ويسجد له كل الملوك ، كل الأمم تتعبد له ... » (٧٢ : ١ ـــ ٩ ، اش ٤٩ : ٢٣ ، ٤٠ : ١ ـــ ٢ ، ٥٥ : ٥ ، ٦١ : ١) . بهذا المفهوم الذى كان سائدا فى وسط الشعب فى تلك الفترة عن المسيا وعن عمله وعن مجيئه ، يتقدم المجرب بهذه التجربة للسيد وهى أن يعطى له ممالك العالم ومجدها على شرط أن يسجد له .

والتجربة فى حقيقة الأمر مغرية جدا لمسيا غيورى (من حزب الغيورين) ، فإن هدف الغيورى هو أن يحرر البلاد من المستعمر الأجنبى بأية وسيلة ، حتى باستعمال القوة والعنف والذبح والقتل والــكذب والخداع ... كل هذا جائز فى تحرير الوطن . وهنا يتقدم الشيطــان

للسيد عارضا عليه عرضا يختلف تمام الاختلاف عن طريق عمل المعجزات لحل بعض المشاكل الاقتصادية : « إن كنت ترفض أيضا عمل بعض الخوارق للطبيعة ، التي عن طريقها يمكنك أن تظهر مسيانيتك ، بقي أمامك أمر واحد ، به تصبح مسيا بل وعن طريقه تحصل على المجد والعظمة والقدرة ، هو السجود لي . فلكي تخضع هذه الممالك والسلطات تحت قدميك ، يجب عليك أن تستعمل العنف والقوة والسيف والحرب وسفك الدماء ، كما فعل الذين قاموا ويقومون وسيقومون باحثين عن المجد والعظمة والسلطان ، إنه لا تحرير لهذه البلاد إن لم تستعمل السيف وكل وسائل الحرب الحديثة ، عليك إذن أن تنضم لحزب الغيورين المتطرف ، اجمع شملهم حولك وكون منهم جيشا حربيا قويا » .

والمسيح ، الذي تربى في مدينة الناصرة، يعرف بلا شك مراكز التدريب التي كانت تدرب الشباب وغير الشباب في مدن الجليل لكي يستطيعوا في يوم ما أن يحرروا الأراضي المحتلة وأن يمتد سلطان هذا الشعب ليسيطر على شعوب أخرى كثيرة . وهنا يقترح المجرب على المسيح السجود له ، أي طريق العنف والقتل والتخريب وإسالة الدماء للوصول الى المجد .... وأي مجد ! !

إن معاصري يسوع كانوا يعرفون هذه الأفكار المنتشرة والمعروفة عن المسيا ، المسيا الذي سيسحق الأعداء ويحرر البلاد ، أما المسيا الحقيقي فينظر الى هذه الوعود الكاذبة الغاشة ، فلا يرى فيها إلا سما قاتلا لكل من اتبعها وأغرى بها ، ولا ينخدع بها إلا ضعفاء النفوس الذين يبحثون عن المجد الأرضي بأية وسيلة ، ولذلك فهو يقول للمجرب : « للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» . فلو أطاع المسيح الشيطان في هذه التجربة ، وسلك طريق العنف والسيف لتحرير هذا الشعب من قبضة

المستعمر الرومانى ، فكيف كان يمكنه فى المستقبل أن يحرر العالم كله من قبضة العدو العام — أى إبليس — الذى يريد أن يسجد المسيح له ، أى أن يصير عبدا له يخضع لسلطته وينفذ أمره ؟ إن إبليس كان يريد بتجربته الأخيرة هذه أن يسلك المسيح كما سلك فى الماضى كل الذين يضعون المجد الذاتى والملك الأرضى والنجاح والعظمة ... الخ فى المكانة الأولى . فالذين يضعون فى المكانة الأولى المجد الذاتى والملك الأرضى والنجاح ، لا يتورعون عن استعمال كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة ، والكريمة وغير الكريمة ، للوصول الى المكانة المرموقة . فلو سجد المسيح لابليس ، أى لو أطاع التجربة باستعماله القوة والعنف ، فكيف كان يمكنه فيما بعد أن يقول لبطرس : « ... رد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (متى ٢٦ : ٥٢) .

إن المسايا الكذبة ظهروا فى هذه الحقبة من الزمان ، أى قبل وفى أثناء وبعد ظهور يسوع ، كان معظمهم إن لم تكن أغلبيتهم الساحقة من الذين استعملوا السيف لكى يحرروا به البلاد المستعمرة . واستعمال السيف والقوة تجربة قديمة كقدم الانسان . ففى كل عصر وفى كل مكان يتقدم إبليس إلى الانسان مجربا إياه بنفس التجربة التى جرب بها السيد ،وهى استعمال العنف « ... اسجد لى ... فأعطيك جميع ممالك العالم ومجدها ... » أليست هذه هى التجربة التى تجرب بها الدول الصغيرة والضعيفة والفقيرة من الدول الكبيرة والقوية والغنية ؟ ألا تقترح هذه الدول الكبيرة التى تملك أسلحة فتاكة وحديثة وقنابل ذرية ونووية وهيدروجينية وطائرات حربية أسرع من الصوت ، على الدول الصغيرة الفقيرة بأن تمنحها على شكل قروض أو هبات ، أدوات الموت هذه إذا سجدت لها ... ؟ وبهذا الاقتراح السخى الغنى « فأعطيك ممالك العالم ومجدها » ، انقاد كثيرون من المسايا الكذبة فى العالم الحاضر ، وخروا وسجدوا تكبيرا عند أقدام هذه الدول الكبيرة الغنية القوية ،

فأصبحوا يأتمرون بأمرها ويخضعون لسلطانها • إن هذه التجربة انتى تجرب الدول الفقيرة والصغيرة فى وقتنا الحالى ، أى الحصول على الأسلحة وعلى الطائرات والمعدات الحربية ، جرب بها السيد كمسيا : « فأعطيك جميع ممالك العالم ومجدها » •

فالمسيح على جبل التجربة كان فى صراع عنيف مع الشيطان ، لأن الأفكار المسيانية انتى سبقت الاشارة إليها ، والتى كانت منتشرة ومعروفة فى ذلك الوقت ، تقدم لنا المسيا كالشخص الذى سيحرر اسرائيل من الأزمات الاقتصادية والسياسية ، ولهذا السبب نرى المسيح على جبل التجربة وجها لوجه أمام هذه الأفكار والمعتقدات والانتظارات اليهودية الخاصة بالمسيا • إن هذه التجارب الثلاث تعكس لنا بطريقة واضحة الانتظارات التى كان اليهود يتوقعون تحقيقها عند مجىء المسيا • ويسوع الناصرى ، المسيا الحقيقى ، كان واعيا كل الوعى بهذه المعتقدات والأفكار والانتظارات اليهودية ، ولقد رفضها رفضا باتا كما هو واضح من إجابته على تجربة الشيطان •

وبما أننا رأينا التجربة التى واجهت المسيا على جبل التجربة قبل أن يبدأ خدمته العلنية ، يحسن بنا أيضا ، لكى تكتمل الصورة فى أذهاننا ، أن نلقى نظرة سريعة على أول عظة ألقاها يسوع • والانجيل يعرفنا بأن يسوع جاء بعد هذه الفترة التى قضاها على الجبل فى التجربة الى الناصرة حيث كان قد تربى (لو ٤ : ١٦) ، وهناك فى المجمع ألقى عظته الأولى • والنص الكتابى الذى قرأه يسوع وعلق عليه ، كان من سفر إشعياء النبى الاصحاح (٦١ : ١ — ٣) • ومما لا شك فيه ، أن هذا النص كتب لكى يحيى الرجاء فى قلوب البقية الباقية من المسبيين بعيدا عن بلادهم ، ولكى يبعث فى قلوبهم المنكسرة والحزينة المتألمة ، بسبب السبى المرير ، الأمل الذى سيحققه المسيا بمجيئه • والمسيا الذى يتكلم عنه

هو المسيا الحقيقى . وذلك الشخص الذى كان يقرأ فى المجمع هذا الفصل المذكور (اش ٦١ : ١ ــ ٣) كان هو نفسه ذلك المسيا الحقيقى ، والذى يختلف جزئيا وكليا عن المسايا الذين يتصورهم كثيرون من اليهود . فان هذا المسيا يتميز بصفاته الفردية عن كل المسايا الكذبة الذين سبقوه ، وعن كل المسايا الذين سيأتون بعده ، مغتصبين ، لأنفسهم هذا الشرف . وكيف لا ينفرد المسيا الحقيقى ، يسوع ، بهذا الامتياز ! ! ولوقا يقدمه لنا قبل التجربة ، وبالتحديد فى لحظة المعماد ، كالشخص الذى نزل عليه الروح القدس بطريقة وحيدة وفريدة ، والآب نفسه يشهد له بالقول : « أنت ابنى الحبيب بك سررت » (لو ٣ : ١٥ ــ ٢٢) . فهنا يؤكد لوقا نزول الروح القدس بطريقة مرئية وملموسة : « ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة » . ثم يقتبس لوقا الفصل الذى يتكلم عن المسيا والذى يبدأ بهذه الكلمات : « روح الرب على » ، فهذا الروح الذى نزل عليه بهيئة مرئية ملموسة ؛ هو نفسه الروح الموعود به فى إشعياء . فرسالة المسيا الحقيقى هى رسالة بشارة للمساكين ، رسالة شفاء لمنكسرى القلوب ، رسالة انطلاق وتحرير للمأسورين والمنسحقين ، رسالة بصر للعمى . وملخص رسالة المسيا الحقيقى هو اعلان سنة الرب المقبولة ، أى اعلان عهد جديد ، عالم جديد . ويستعمل اليونانيون للتعبير عن هذه الحالة كلمة « أون » (عالم) ، فان العالم القديم مضى ويبدأ الآن عالم جديد . إن المسيا الحقيقى جاء وبمجيئه حل عالم جديد ، فالانسان يدخل الآن فى عصر جديد . وهذا العصر هو سنة الرب المقبولة التى يبدأ بها عصر المسيا . وسنة الرب المقبولة التى يتكلم عنها سفر اللاويين ، هى سنة الغفران والتحرير من الديون ومن العبودية (لا ٢٥ : ٩ ــ ٢٢) . فبهذا العصر ، أى سنة الرب المقبولة ، ليس فقط الأشياء القديمة قد مضت وتلاشت ، ولكن « هوذا الكل قد صار جديدا » . وكيف لا يصير الكل جديدا وقد فتح المسيا أبوابا جديدة بمجيئه ، وبعض هذه الأبواب

الجديدة التى فتحها المسيا الحقيقى هى : « أن الخلاص يقدم للجميع ». صحيح أن المسيح فى بداية رسالته وارساله للتلاميذ الى اسرائيل أعطى الأولوية لليهود ، حيث قال لهم هذه الكلمات : « الى طريق الأمم لا تمضوا والى مدينة للسامريين لاتدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠ : ٥ — ٦) . إن متى الكاتب اليهودى يشدد كثيرا على أهمية شعب الله ، وهذا لا يعنى إقصاء الشعوب الأخرى عن الخلاص ، فان الأمر الذى أعطاه السيد هنا لتلاميذه انما يبين الأولوية المعطاة لهذا الشعب ، فان المسيح أراد فى بداية خدمته أن يهتم التلاميذ فى تبشيرهم بشعب الله وذلك لعدة أسباب :

١ — إن التلاميذ يهود ، فمن السهل عليهم فى بداية خدمتهم — لأن هذه الحملة التبشيرية التى أرسلوا فيها كانت الحملة الأولى — أن يبشروا يهودا مثلهم .

٢ — إن المسيح جاء أولا إلى خاصته ، لكى يمنح هذه الخاصة الخلاص ولكى تكون هى أيضا بدورها مبشرة بهذا الخلاص للأمم ، كما يقول لوقا : « نور اعلان للأمم ومجدا لشعبك إسرائيل » (لو ٢ : ٣٢) . ولكن مجيئه الى خاصته لا يعنى أنه لم يأت إلا لخاصته ، بل يريد متى أن يثقل المسئولية على هذا الشعب الذى منه جاء المسيح، وكأنى به يقول : « المسيح جاء منكم وإليكم أولا لكى تكونوا أنتم أيضا السابقين فى قبوله وقبول رسالته واعلانها للأمم التى تحيط بكم » .

ولكن للأسف الشديد : أن هذا الشعب الذى منه جاء المسيا لم يقبله . ويوحنا يقول : « إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله ، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه» (يو ١ : ١١ ، ١٢) .

فمجىء المسيا فتح الباب أمام الشعوب ، وهذا واضح كل الوضوح من طريقة كتابة إنجيل لوقا ، الانجيل الذى يقدم لنا المسيا « المسيح »

مخلصا لكل الشعوب « ابن آدم » (لو ٣ : ٣٨) • والجدير بالذكر أن لوقا عندما يقتبس النص المذكور فى إشعياء ، يسقط بطريقة اختيارية وعمدا جملة لها معناها ، فنص إشعياء يقول : « لأنادى بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لالهنا ••• » أما لوقا فيقول : « واكرز بسنة الرب المقبولة ! » • لأن يوم الانتقام لالهنا ، كان فى مفهوم اليهود هو اليوم الذى ينتقم فيه الرب من أعداء شعبه ، وأعداء شعب اسرائيل هم أولا الذين سبوا هذا الشعب ، ثم كل الشعوب التى لا تقبل يهوه كإله • من هذه الشعوب سينتقم الله لشعبه ، أى من الأمم ، الأمر الذى يمكن تطبيقه على الرومان واليونان • ولهذا السبب يحذف لوقا هذه الجملة من النص المقتبس لكى لا يقفل الباب أمام الأمم ، ومما يؤيد قولنا هذا ، موقف اليهود من أول لفظة ألقاها السيد فى مجمعهم • فماذا كان موقفهم من هذا الشخص ومن عظته ؟ : « فامتلأ غضبا جميع الذين فى المجمع حين سمعوا هذا فقادوا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به الى حافة الجبل الذى كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه الى أسفل » (لو ٤ : ٢٨ — ٢٩) • والسؤال الذى يطرح نفسه أمام هذا الموقف الغريب هو لماذا هذا الشعب وهذه الثورة ؟ ماذا قال المسيح فى عظته الأولى حتى ثار شعب مدينته ومسقط رأسه ضده ؟ إن ما أثار غضب هذا الشعب هو أن المسيح فتح الباب أمام الأمم • بل والأكثر من ذلك ، أنه قد بين لهم أنه بينما كان اسرائيل كله يئن من الجوع والعطش بسبب اغلاق السماء ثلاث سنوات ونصف ، لغضب الله على هذا الشعب ، أرسل الله نبيه إلى امرأة أجنبية بعيدة عن رعوية إسرائيل لكى تعوله وتقوته ، وهذا يعنى أنه فى الوقت الذى كان غضب الله معلنا على إسرائيل • قد فتح نعمته لأرملة صرفة صيداء لكى تكون مثلا لنعمة الله المجانية المقدمة ليس فقط لاسرائيل بل للأمم أيضا • ويواصل السيد عظته فيقتبس مثلا آخر وهو مثل نعمان السريانى ، ونعمان السريانى لم يكن أجنبيا عن رعوية اسرائيل فحسب ، بل كان من قواد الجيوش التى تهاجم اسرائيل (ألم يتخذ نفسى

الشعب نفس الموقف تجاه عظات عاموس ١ : ١ — ١٥ ، ٢ : ١ — ١٦) .

وبهذين المثلين أراد المسيح أن يفتح الباب على مصراعيه أمـام الأمم ، ولهذا السبب حذف لوقا عمدا من الاقتباس الذى سبقت الاشارة إليه عبارة : « بيوم انتقام لالهنا » ، كما أنه سجل لنا بتدقيق مثل أرملة صرفة صيداء (١ مل ١٧ : ٨ — ١٦) ، ومثل نعمان السريانى (٢ مل ٥ : ١ — ١٩) لكى يعرفنا أن سنة الرب المقبولة هى سنة جديدة وأن المسيا الحقيقى هو مسيا عالمى ، رسالته موجهة الى كل شعب وكل جنس وكل أمة وكل انسان . فمع أنه يهودى ، وولد فى بيت لحم اليهودية ، لكنه لم يأت لليهود ولليهودية فقط بل جاء الى العالم كله ، وهو نفسه الذى يقول فيما بعد : « ولى خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغى أن آتى بتلك أيضا فتسمع صوتى وتكون رعية واحدة وراع واحد » (يو ١٠ : ١٦) . ومن الغريب العجيب أن لوقا ويوحنا يسجلان لنا رد فعل متشابه بعد أن سمع الشعب هذا الاعلان بخصوص فتح الباب للامم ، فلـوقا يعرفنا بأن الذين كانوا فى المجمع أرادوا أن يطرحوه من حافة الجبل ، ويوحنا يقول : « فتناول اليهود أيضا حجارة ليرجموه » (يو ١٠ : ٣١). وكيف لايثور هؤلاء اليهود الذين كانوا يسمعونه ، عندما يدركون أن يسوع يعلم بأن الله ينظر بعين الرضا الى مثل هذه التعاليم فى مجتمعهم الذى كانت تسيطر عليه القوات الرومانية ؟ ألا تعتبر هذه خيانة لاسرائيل وتعاونا مع العدو ؟ ولهذا فقد ثار اليهود عند سماعهم لأول عظة لمعلم الناصرة ، وأرادوا أن يتخلصوا منه محاولين أكثر من مـرة أن يقتلوه (مر ٨ : ٥٩ ، ١٠ : ٣١ ، لو ٤ : ٢٨ ، ٢٩) .

ومما لا شك فيه أنه توجد أسباب كثيرة أخرى عقائدية لم يتفق فيها يسوع واليهود ، دفعت هؤلاء لمناصبته العداء والبحث عن طريقة لقتله والتخلص منه . فلا يمكننا القول بأن السبب الوحيد الذى دفـع اليهود الى مقاومة يسوع وصلبه فى نهاية الأمر أنه لم يكن مسيا على

مثال الغيورين ، ولهذا السبب وحده ناصبه اليهود العداء . ولكن هـذا السبب مهم جدا ومن الأسباب التى دفعت كثيرين من اليهود أن يقفوا ضده ، بل أن بعضهم ضم صوته مع رؤساء الكهنة عندما صرخوا قائلين : « اصلبه ، اصلبه » .

إن الأناجيل ركزت كثيرا على أن العداء الذى كان قائما بين يسوع واليهود يرجع سببه الى أن السيد نادى بتحرير الانسان من حرفيــة الناموس (لو ٦ : ١ ــ ١٦) والطقوس البالية القديمة التى هى من صنع الانسان والتى أصبحت قيودا ثقيلة عليه . والأناجيل تكلمنا عن الويلات التى صبها المسيح على رياء الكتبة والفريسيين (متى ٢٣ : ١ ــ ٣٧) ، وتكلمنا أيضا عن مقاومته لسياسة الصدوقيين ومعتقداتهم . ولـكن هذه الأناجيل لا تذكر لنا الا القليل جدا ، وبلا تفصيل،عن جماعة الغيورين، كما أن هذه الأناجيل لا تذكر لنا ولا كلمة واحدة عن جماعة قمران ولا عن معتقداتها وطريقة عبادتها ونظامها ، ومع ذلك فان هذه الجماعة كانت معروفة فى ذلك الوقت . صـحيح أن أعضاء هـذه الجماعة لم يتعدوا الأربعة آلاف عضو فى أيام المسيح ، إلا أن أربعة آلاف عضو يمكن أن تكون جماعة لها تأثيرها وكيانها وقوتها ودستورها ، الأمر الذى كنا نجهل الكثير عنه الى سنة ١٩٤٧ . فكل ما كنا نعرفه عن جمـاعة الأسينيين هى بعض الكتابات الموجزة جدا التى كتبها فيلو الاسكندرى (٥٤ ب م) وفلافيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير (٣٧ ـــ ٩٥ م) عن هذه الجماعة(١) .

هذه هى المعلومات الضحلة التى كنا نملكها عن جماعة قمران من الناحية التاريخية والتى لم يتكلم عنها الانجيليون ، لا من قريب ولا من

(١) لقد ظهرت جماعة الاسينيين فى حوالى ما بين سنة ١٦٠ وسـنة ١٣٠ ق . م ومؤسسها «معلم الحق » ، ولقـد حاول القيام باصلاح اخلاقى اجتماعى عن طريق التمسك بالشريعة . ولقد حاولوا مع الفريسيين تحرير

بعيد ، كما لو كانت هذه الجماعة غير موجودة ، إلى أن ضل خروف من قطيع الراعى الشاب محمد الديب ، فأخذ فى البحث عن هذا الخروف الضال ، وفى بحثه عنه وجد فتحة فى الجبل فبدأ يلهو بالقاء بعض الأحجار فيها ، ولكنه فوجىء بسماع صوت تكسر إناء فى الداخل ، فأسرع إلى داخل الكهف حيث وجد هناك هذه المخطوطات العظيمة . حوالى ٥٠٠ مخطوطة تضم عددا كبيرا من أسفار العهد القديم . ويحتمل أن كتابة هذه المخطوطات يرجع تاريخها الى القرن الثانى قبل الميلاد (فيما بين ١٦٠ — ١٣٠ ق م.) منذ هذا التاريخ أى سنة ١٩٤٧ والعلماء يحاولون دراسة هذه المخطوطات وتفسيرها . فكما أن الأناجيل لا تذكر لنا شيئا عن هذه الجماعة اليهودية التى كانت معاصرة ليسوع ، فإنها لا تذكر أيضا إلا القليل جدا عن الغيورين ، وهم جماعة أخرى سبق أن ألقينا نظرة سريعة على نشاطها ومعتقداتها الدينية واتجاهاتها السياسية . وجماعة الغيورين كانت معاصرة ليسوع ومنتشرة فى بلاد كثيرة فى فلسطين وخاصة فى الجليل . ولكن الفرق واسع وشاسع بين هاتين الجماعتين ، فإن جماعة قمران كانت تنتظر فى صمت وصلاة وتأمل مجىء «معلم البر» . أما جماعة الغيورين ، خصوصا الغيورين المتطرفين الذين كان هدفهم تحرير البلاد من المستعمر الرومانى ، فقد أباحوا لأنفسهم كل الوسائل

البلاد من قبضة المستعمر الهلينى ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق هذا الامر . ولذلك فقد لجأوا الى دير قمران واسسوا هناك جماعة تنتظر فى صلاة وصبر ظهور «معلم البر» . كان يعيش الأسينيون فى جماعات صغيرة او كبيرة فى المدن والقرى ، وكان كل شىء بينهم مشتركا ، كان يمكن للعضو فى الجماعة ان يكون متزوجا او ان يظل بتولا إن رغب فى ذلك . كان ايضا على العضو أن يظل عامين تحت الاختبار فاذا نجح بعدهما يسمح له بالاشتراك مع الآخرين فى بعض الفرائض والشعائر الدينية . وبعد الامتحان والقسم كان يسمح له أن يتناول الطعام على المائدة مع الاخوة . تمسك الاسينيون كثيرا بحفظ السبت والطهارة الخارجية ، الايمان بالثواب والعقاب ، ثم الامتناع عن تقديم الذبائح الدموية .

(راجع كتاب الأب بولس الياس اليسوعى ص ١٤٠ — ١٤٥) .

المتاحة المشروعة وغير المشروعة من قتل وسرقة واغتيال فى سبيل تحرير البلاد من يد الرومان • ولهذا السبب ، كان هذا الحزب ــ حزب الغيورين المتطرف ــ فى صراع مستمر ودام مع السلطات الرومانية التى كانت تطاردهم وتريد القضاء عليهم قضاء نهائيا ، لأنها كانت تدرك جيدا بأن هذا الحزب منبع الاضطرابات السياسية والدينية والاجتماعية • ومع أن حزب الغيورين المتطرف كان ، على ما يبدو ، فى أهميته العددية أقل من حزب الفريسيين وأقل أيضا من حزب الصدوقيين ، إلا أنه استطاع أن يحتل مكانة هامة فى الحياة اليومية للرومان واليهود الذين كانوا يتعاونون معهم ، بسبب هجماتهم المسلحة المفاجئة ، فردية كانت أم جماعية • وكانت القوات الرومانية دائما على أهبة الاستعداد لقمع وضرب الغيورين أينما وجدوا فكم من المرات هجم الجيش الرومانى على البيوت والأماكن التى لجأ اليها هؤلاء الغيوريون بعد قيامهم بوثبات هجومية على الرومان• وكم من المرات أيضا صلب فيها الرومانيون أعدادا كبيرة من الغيورين الثوار • وفلافيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودى كتب بافاضة عن هذا الموضوع(١) •

من هذا يتضح أن حزب الغيورين لم يكن حزبا مجهولا غير معروف، بل على العكس كان هذا الحزب موضوع الأحاديث اليومية فى أيام المسيح ولكن بالرغم من شهرته وبالرغم من الثورات التى قام بها تحت اسم الدين ولأجل الدين اليهودى ، نلاحظ صمت يسوع عن هذه الجماعة • ألم يوجه بعض النقدوالويلات الى جماعة الكتبةوالفريسيين والصدوقيين ولكنه لم يتكلم عن الغيورين • ومع ذلك فقد قبل المسيح بعضا من الغيورين كتلاميذ له • وهنا أمام صمت يسوع والانجيليين على هذه الجماعة نتساءل : لماذا هذا الصمت ؟ هل كان يسوع ضد هذا الحزب أو مؤيدا له ؟

(١) انظر كتب S. G. Brandon بعنوان Jésus et le Zelotes ص ٤٢ ــ ٧٤ •

الفصل الخامس

يسوع والغيورون

قبل أن نبدأ البحث فى السؤال الخاص بموقف يسوع إزاء الغيورين، نود أن نذكر القارىء الكريم بأن هذا الحزب كان يحتوى على حزبين أو أكثر كما سبق أن أشرنا • ويمكن تلخيص الكلام عنهم فى الآتى : (١) الحزب الشمالى (٢) الحزب الشمالى المتطرف جدا (٣) الحزب الشمالى المعتدل ، وهو الحزب الذى كان يتفق على طول الخط ، من الناحية الدينية والعقائدية ، مع جماعة الكتبة والفريسيين فيما يختص بالعقيدة الدينية والانتظارات المسيانية ، إلا أنه لم يتفق مع المتطرفين فى استعمالهم العنف والقوة وخاصة ضد اليهود الذين يتعاونون مع الرومان، ومع أن هذا الحزب المعتدل كان يساند ويدافع عن المتطرفين إلا أنه لم يشترك معهم فى عملياتهم الهجومية •

أما الحزب الغيورى المتطرف أو حزب السيكر (SICAIRES) فهو حزب دينى وطنى اتخذ كمثال له فى نضاله وحربه ضد العدو الرومانى، فينحاس (عد ٢٥ : ٦ — ١٣) وماتاتياس الكاهن الميكابى (١ ميكا ٢ : ١ — ٧٠) • وكان برنامجه يحتوى على عدة نقاط يمكن تلخيصها فى الآتى :

(١) جلاء المستعمر جلاء كاملا وعاجلا عن الأراضى المحتلة .
(٢) جعل الأمة اليهودية أمة ثيوقراطية (أى دولة ، الحاكم فيها هو الله) .

(٣) الاصلاح الدينى اصلاحا جذريا بتغيير الأوضاع القائمة ، وخاصة تغيير طبقة الكهنة الارستقراطية المتعاونة مع المستعمر . وهنا يتفق الغيورون مع جماعة الأسينيين (جماعة قمران) التى انفصلت عن بقية اليهود ولم تقبل الاشتراك فى الخدمات الدينية ، التى كانت تقام فى الهيكل ، ولا فى تقديم الذبائح ؛ بل ومنعت تقديم الذبائح لأنها كانت تعتقد بأن الذين يقومون بممارسة هذه الفرائض غير أكفاء من الناحية الروحية والقانونية ولا ينتسبون الى سبط الكهنوت الحقيقى ، ولذلك فقد انعزلت جماعة قمران فى ذلك الوادى منتظرة قلب الأوضاع الراهنة .

وحملة الحفريات التى قامت بها جماعة من العلماء الاسرائيليين فى سنة ١٩٧٣ كشفت لنا عن أنه كانت توجد علاقة وثيقة بين الغيورين وبين الأسينيين . كما أن بعض العلماء يعتقدون بأنه كانت توجد أيضا علاقة بين الغيورين والمسيحية فى نشأتها الأولى (١) ، وسنرجع الى هذا الأمر فى حينه . ولكن الذى يهمنا هو أن نبين أن حزب الغيورين حاول استعمال التوراة والسيف فى آن واحد لمحاربة اليهود الفاترين أو المسالمين ثم الرومان المستعمرين(٢) .

---

(١) راجع كتاب
Le Judaism et le Christianism — M. Simon et A. Beniot.
ص ٢١٢ — ٢١٥ .

(٢) Jésus et les Revolutionnaires de son Temp Oscar Cullmann 2. Mythe : Guignebert.
ص ١٧١ — ٢٠١ .

كانت هذه الأحزاب كلها:حزب الفريسيين وحزب الأسينيين وحزب الغيورين ، معتدلين ومتطرفين ، ينتظر تغييرا دينيا وسياسيا المجتمع . وكانت هذه الأحزاب خصوصا حزب الفريسيين وأحزاب الغيورين تنتظر مسيا، المسيا الذي سيخلص إسرائيل من هذا الذل والاستعمار . فالغيورون خصوصا الغيورون المتطرفون كانوا ينتظرون المسيا ، ولم يكونوا ينتظرونه وهم مكتوفو الأيدى ، بل استعملوا قوتهم وخططهم السياسية والهجومية لكى يعجلوا بمجيئه .

من هذا يتضح لنا أن حزب الغيورين كان حزبا معروفا وله أهميته وثقله وتأثيره على الرومان وعلى اليهود أنفسهم ، ليس فقط من الناحية السياسية بل أيضا من الناحية الدينية ، بل أن الذى دفع هذا الحزب إلى الوجود ، كان الرغبة القوية فى الدفاع عن الدين . ألم يكن المؤسس له هو يهوذا الجليلى الذى رفض أن يدفع للرومان الجزية وجال فى طول البلاد وعرضها مناديا بأن دفع الجزية للأجنبى المستعمر يعتبر كسرا لناموس موسى ، لأن الخضوع للأجنبى يعتبر خيانة ليهوه ؟ فلكى تظل الأمة اليهودية خاضعة ومتعبدة ليهوه وحده صاحب السلطان المطلق على إسرائيل يجب ألا تدفع هذه الجزية . وهكذا تبع هذا الحزب، منذ ولادته سنة ٦ ب م الى يوم القضاء عليه فى خراب أورشليم سنة ٧٠ وفى ماسادا ، سياسة عدم الخضوع للأمة الرومانية وعدم إطاعتها.

وعندما نتكلم عن الغيورين يعترضنا هذا السؤال : ما هو سبب صمت يسوع عن التكلم عن الغيورين بطريقة واضحة وصريحة كما تكلم عن الكتبة والفريسيين ؟

إن الأناجيل الثلاثة الأولى تذكر لنا اسم سمعان الذى يلقبه متى ومرقس باسم سمعان القانوى (متى ١٠ : ٤ ، مر٣ : ١٨) ولوقا يعطى له لقب سمعان الغيور « وسمعان الذى يدعى الغيور » ، وأعمال الرسل

الذى كتبه لوقا الانجيلي يقول أيضا « وسمعان الغيور » (لو ٦ : ١٥ ، أع ١ : ١٣) • إن بعض المفسرين ، وهم قلة قليلة جدا ، يظن بأن كلمة غيور لاتعنى بأنه كان من حزب الغيورين ، بل هى صفة أضيفت إلى سمعان لكى تصف غيرته هو وحماسته لعمل الرب ، كما يقول بولس الرسول واصفا نفسه وغيرته للرب « وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى إذ كنت أوفر غيرة فى تقليدات آبائى » (غلا ١ : ١٤) « وكنت غيورا لله كما أنتم جميعكم اليوم » (أع ٢١ : ٢٠ ، ٢٢ : ٣) • والذين يتمسكون بهذا الرأى يظنون أن حركة الغيورين الثورية لم تعرف فى فلسطين إلا فى سنة ٦٦ ب م(١) • وهـذا الفكر غير صحيح من الناحية التاريخية لأن لقب غيـور قد أعطى ليهـوذا الجليلى • صحيح أن الثورة الكبرى التى قام بهاالغيورون إندلعت فى سنة ٦٦ ب م ، ولكن : لم تكن هذه الثورة هى السبب فى إطلاق اسم « غيور » على الثوار بل ان الغيورين ، وهم أحفـاد وأتبـاع يهـوذا الجليلى الغيور ، قد لقبوا بهذا اللقب من سنة ٦ ب م • ولذلك يرى الكثيرون من المفسرين أن سمعان الغيور الذى يذكره لوقا فى انجيله (٦ : ١٥) كان فعلا من حزب الغيورين ، بل يحتمل ، كما ظن هؤلاء المفسرون ، أن سمعان الغيور الذى كان قبلا عضوا فى هذا الحزب ••• قد رأى فى يسوع المسيا الروحى وفى الوقت نفسه المسيا السياسى الذى سيخلص اسرائيل من الاستعمار الأجنبى • وبما أن كثيرين من اليهود كانوا ينتظرون مجىء المسيا فى ذلك الوقت فقد ظن سمعان أنه وجد فى يسوع المسيا الذى يبحث عنه • والذين ينادون بهذا الرأى ، يعتقدون بأن سمعان لم يكن التلميذ الوحيد الغيور ، بل رأوا فى يهوذا غيـورا قد خابت آماله فى سيده • على أية حال سنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد • والسؤال الذى يجب أن نطرحه الآن هو الآتى :

ما هو موقف الغيورين من يسوع ؟

---

(1) The Interpreter's Bible, Luke 6, 15.

عند دراستنا لتاريخ الفكر المسيحى ، نلاحظ أن البعض من الكتاب اعتقد بأن كثيرين من الغيورين رأوا فى يسوع الناصرى شخص المسيا السياسى المنتظر . والذين يتبعون هذه النظرية يرون فى سمعان الغيور واحدا من هذا الحزب ، انضم إلى تلاميذ يسوع . كما أن هؤلاء رأوا أيضا فى يهوذا الاسخريوطى غيورا من الحزب المتطرف . ولقد حاولوا أن يقدموا لنا صورة سوداء جدا ليهوذا ، حتى يجعلوا هذه الصورة مطابقة لصورة غيور متطرف . ولكى يثبتوا نظريتهم هذه رجعوا كثيرا إلى إنجيل يوحنا الذى يقدم لنا صورة أكثر سوادا ليهوذا من الأناجيل الثلاثة الأولى ، لأن يوحنا ، فى كل مرة تقريبا يذكر اسم يهوذا ، يذكره بتعليق سىء مشين . ونلاحظ هذا بعد عظة السيد فى مجمع كفر ناحوم وكيف أن يسوع أشار إلى قوم لا يؤمنون بكلامه : « ولكن منكم قوم لا يؤمنون » ويفسر يوحنا قصد يسوع بالقول : « لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذى يسلمه ... أجابهم يسوع أليس انى أنا اخترتكم الاثنى عشر وواحد منكم شيطان . قال عن يهوذا سمعان الاسخريوطى . لأن هذا كان مزمعا أن يسلمه وهو واحد من الاثنى عشر » (يو ٦ : ٦٤ ـ ٧١) . وعلى ما يبدو ، كما يعتقد البعض ، أن الشكوك فى مسيانية يسوع الناصرى ، الذى حلم به كثيرون من اليهود خصوصا الغيورين . بدأت تساور يهوذا الاسخريوطى بعد أن سمع فى كفر ناحوم عظة السيد عن خبز الحياة الذى سيكون طعاما للآخرين . فكيف يمكن أن يكون المسيا ذبيحة ، ونحن نريد مسيا عسكريا قويا يحرر من العدو ؟ ولقد ازدادت شكوكه فى مسيانية يسوع عندما سمعه يأمر بطرس بدفع الجزية للمستعمر (متى ١٧ : ٢٤ ـ ٢٧) ، ومن هذا الوقت بدأ يفكر يهوذا فى هجرة يسوع . ويوحنا يقول لنا عنه عند مناسبة العشاء : « فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يو ١٣ : ٢٧) ، فبالرغم من وجوده مع يسوع ، ظل على ما كان عليه قبل مقابلته ، فقد ظل ذلك الشخص السارق واللص ، وتظهر هذه الروح فى حادثة مريم

عندما دهنت قدمى الرب بالطيب ، « فقال واحد من تلاميذه وهو يهوذا سمعان الاسخريوطى المزمع أن يسلمه لماذا لم يبع هذا الطيب بثلثمئة دينار ويعطى للفقراء • قال هذا ليس لأنه كان يبالى بالفقراء بل لأنه كان سارقا وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقى فيه » (يو ١٢ : ٥ — ٦)•

فعندما أدرك يهوذا أن يسوع ليس هو المسيا السياسى المنتظر بحسب المفهوم الغيورى ، أى ذلك الذى يتزعم حزب الغيورين حاملا سلاحه وقائدا جيشه لتحرير البلاد من الاستعمار ، بدأ يفكر فى طريقة أخرى يحصل بها ، على الأقل ، على مبلغ من المال لمساعدة حزبه السياسى أو لنفسه • وكان يطمع فى مبلغ كبير •

لذلك عندما عرف بأن الكهنة يتصيدون الفرص لكى يلقوا أيديهم على يسوع ، ذهب هو نفسه وعرفهم بأنه على استعداد بأن يسلمه لهم • وقال لهم : « ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه اليكم • فجعلوا له ثلاثين من الفضة ••• » (متى ٢٦ : ١٤ — ١٦) • فبعد أن خابت آمال يهوذا فى يسوع المسيا السياسى ، أراد أن ينتهز هذه الفرصة عينها ليحصل على المال • ولكن عندما سمع بالمبلغ الذى اقترحه عليه رؤساء الكهنة ، زادت خيبة أمله وأصبحت الصدمة عارمة وقوية ، فإن الثلاثين من الفضة التى يقترحها رؤساء الكهنة كانت المبلغ الذى يدفعه اليهودى فى شراء عبد بحسب ناموس موسى (خر ٢١ : ٣٢) • ولما وجد نفسه أمام الأمر الواقع ، لم يستطع يهوذا إلا أن يسير فى الطريق الذى اختاره هو بنفسه لنفسه ، وأسلم سيده ليدهم (مرقس ١٤ : ٤٣ — ٤٦) وبعد أن أسلم يسوع ، شعر بخطيته وجرمه العظيمين ، وبدل أن يمضى كما فعل بطرس باكيا معترفا بخطيته ، ذهب وشنق نفسه (مت ٢٧ : ٣ — ٥ ، أع ١ : ١٦ — ١٩) •

مما لا شك فيه أننا ، عندما نتأمل الصورة التى رسمها يوحنااليهوذاء نجد ملامح كثيرة من هذه الصورة فى كثيرين من الغيورين المتطرفين (يو ٦ : ٦٤ — ٧١ ، ١٢ : ٥ — ٨ ، ١٣ : ١٠ — ١١ ، ٢١ — ٢٦ ، ٢٧ — ٣٠ ، ١٨ : ٢) .

وعلى ما يظن ، أن كثيرين من الغيورين قد رأوا فى يسوع عند ظهوره ، المسيا السياسى المنتظر ، خصوصا عندما سمعوا عظاته عن ملكوت الله ، لأنهم نادوا هم أيضا بملكوت الله ، وكانوا يؤمنون بأن ملكوت الله قريب وقريب جدا . إلا أن الملكوت الذى نادى به الغيورون هو ملكوت ثيوقراطى لأمة اسرائيل ، بينما الملكوت الذى علم به السيد هو ملكوت الله فى قلوب الناس ، فى قلوب الذين يتجددون من كل أمة ومن كل شعب ومن كل لسان ، لأن هذا الملكوت لا يعرف حدوداً ولا جنساً .

ولقد ظن البعض بأن الذين جاءوا بعد حادثة كسر الخبز لإشباع الجموع ليختطفوا يسوع ويجعلوه ملكا ، لم يكونوا إلا جماعة من الغيورين : « وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضا إلى الجبل وحده » (يو ٦ : ١٥) ، فاننا نشتم من أسلوب يوحنا هنا (فى هذه الآية) رائحة الهجوم والخطف ، وليس طريقة التفكير السليم والنقاش . فإن جماعة الغيورين كانت تنتظر المسيا السياسى ، وعندما رأت يسوع الذى يعظ بملكوت الله القريب ، ظنت أنه هو فعلا ذلك المسيا السياسى ، ولذلك أرادت أن تختطفه وتنصبه ملكا على حزب الغيورين لكى يكون زعيما لهم فيجمع شملهم ويدعم صفوفهم . ولكن المسيا يسوع ينصرف وحده إلى الجبل ، لأن ملكوته ليس من هذا العالم ، ولا يريد هذا الملك الذى يتقاتل ويتحارب عليه الناس .

وهنا نطرح السؤال الذى سأله كثيرون من المؤرخين واللاهوتيين : لمــاذا صمتت الأناجيل عن التحدث عن الغيورين ؟ وهل صمتت هــذه الأناجيل عن ذكر الغيورين ؟

وهذا ما سنحاول شرحه فى الفصل التالى ...

الفصل السادس

موقف يسوع من الغيورين

سبق أن رأينا فى الصفحات السابقة شيئا عن موقف الغيورين من يسوع ، وما كانوا يأملون فيه وما يرجونه منه . فعندما ظهر يسوع الناصرى وبدأ ينادى بملكوت الله العتيد ، وأن ملكوت الله قريب جدا على الأبواب : عندئذ ظن فيه الغيورون مسيا سياسيا يخلص اسرائيل من الاستعمار الرومانى القاسى ، وخاصة أن رسالة قرب ملكوت الله ، التى نادى بها السيد ، تشبه إلى حد كبير بعض الشعارات التى تمسك بها الغيورون ، ولهذا السبب عينه جاء بعضهم لكى يختطفوه وينصبوه ملكا عليهم » (يو ٦ : ١٥) . فيحتمل أن بعض الغيورين رأى فى المسيا غيورا أو على الأقل قائدا روحيا سياسيا يمكن كسبه لجانب الغيورين . والسؤال الذى يعترض بحثنا الآن هو الآتى : ما هو موقف يسوع من الغيورين ؟ وهل تكلم المسيح عنهم ، وأين وكيف ؟

عندما نرجع إلى تاريخ الأمة اليهودية ، فى الفترة التى عاش فيها السيد على الأرض ثم الحقبة التى لحقتها بعد موته وقيامته الى سنة ٧٣ — ٧٤ ب م ، نلاحظ ظاهرة هامة جدا فى تاريخ هذه الأمة ، وهى النشاط الضخم الذى قام به الغيورون ضد القوات الرومانية . ولقد

استعملت هذه الحركات الوطنية التحررية كل الوسائل الممكنة والارهابية لطرد المستعمر وتحرير البلاد منه • فقاموا بعمليات هجوم وقتل وتخريب فى معسكرات العدو الرومانى وفى أملاك اليهود الذين كانوا يتواطئون معه • ولذلك فقد نشروا الذعر والخوف والاضطراب ، ليس فقط فى قلوب الرومان العدو الأول الذى يجب طرده وتطهير البلاد منه ، بل وفى قلوب بعض اليهود أيضا الذين تعاونوا مع المستعمر وخاصة البعض من طبقة الكهنوت الارستقراطية • وحركة الغيورين الوطنية التحررية تشبه إلى حد كبير ـ مع أنه توجد أيضا بعض الاختلافات الجوهرية ـ الحركات الفدائية فى حركات المقاومة الوطنية • فحركات المقاومة الغيورية استعملت وسائل البطش والارهاب والقتل ••• الخ فى سبيل تحرير البلاد • ولهذا السبب كانت هذه الحركة موضوع أحاديث الناس ونقاشهم لأنها كانت تحاول جذب أنظار المواطنين وغير المواطنين إلى حقيقة وجودها ، وإلى ضرورة اجلاء القوات المستعمرة عن البلاد التى يجب أن يحكمها أصحابها وليس الأجنبى • وكما سبقت الاشارة فإن جماعة الغيورين ، بجميع أحزابها الفرعية ، كانت تعمل على تحرير البلاد باسم الدين ، وباسم يهوه ، وهدفها الأسمى وغايتها العظمى هما الوصول إلى تكوين حكومة ثيوقراطية تحكم بحسب الناموس الموسوى •

ومع أن معظم قادة وأعضاء هذه الحركات كانوا يعيشون ويعملون فى الخفاء خوفا من أن تبطش القوات الرومانية بهم ، إلا أن أعمالهم الهجومية والتخريبية كانت كثار على علم ، لا يمكن إخفاؤها • فحركات التحرير الوطنية (أى الغيورون) كانت معروفة ، على الأقل بأعمالها التى اتخذت طابع الهجوم والعنف الشديد والتخريب والتدمير • ولقد تكلم المؤرخون عنهم ، ومع أن البعض يظن أن طائفة أو حزب الغيورين

(م ١٦ ـ تاريخ الفكر المسيحى)

لم يظهر إلا بعد سنة ٦٦ ، أى السنة التى اندلعت فيها الثورة اليهودية ، وقد سبق أن رأينا خطأ هذه النظرية ، وكيف أن حزب الغيورين المتطرف ظهر إلى حيز الوجود بظهور يهوذا الجليلى فى سنة ٦ ب م . وبعد القضاء على هذا الزعيم الثورى تشتت أعضاء هذا الحزب فى كل البلاد بسبب الضغط ومطاردة الرومان له ، لأنهم أرادوا ملاشاة جماعة الغيورين من الوجود ملاشاة كلية وجزئية . ولذلك فقد اضطر الغيورون إلى أن يهربوا إلى الجبال والمغاير والكهوف والصحارى والأماكن البعيدة عن القوات الرومانية حتى يستطيعوا مواصلة جهادهم فى مقاومة الرومان . فإن الهجوم الرومانى على حركة المقاومة الغيورية فى سنة ٧ ب م ، لم يقض عليها تماما . وبقيت لهم بقية استطاعت استئناف المقاومة ضد الرومان . وهذه البقية كبرت وعظم شأنها واتسع نشاطها، وفى أيام المسيح أصبحت حركة مقاومة عظيمة وضخمة ، كان الرومان يحسبون لها ألف حساب .

إن الشىء الغريب العجيب ، بل المدهش هو صمت الأناجيل الظاهرى عن الغيورين . والغيورون كما سبق أن أشرنا كانوا يشكلون ليس فقط جماعة المقاومة ضد المستعمر الأجنبى ، بل وكانوا يكونون حزبا دينيا ينادى بسيادة يهوه المطلقة وعدم الخضوع لأى سلطان آخر أو لأية قوة أخرى مهما عظمت وقويت . إن الغيرة الدينية لهذا الحزب الوطنى التحررى (الغيورين) كانت تفوق كثيرا غيرة الكثيرين من الفريسيين والكتبة ، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور ملكوت يهوه وانتشاره (طبعا ظهور ملكوت يهوه بحسب مفهومهم الخاص لهذا الملكوت ...) .

ومن المحتمل أن الناس قد تكلموا كثيرا فى عهد المسيح عن الغيورين بسبب الأعمال الهجومية التى كانوا يقومون بها ، أكثر مما تكلموا عن

الفريسيين والكتبة . والأمر المدهش والغريب هو أن المؤرخين تكلموا عن هذه الجماعة ، وأن معاصرى السيد تكلموا عنها أيضا ، وأما المسيح والأناجيل فقد التزموا ، بحسب الظاهر ، الصمت عن التكلم عن هـذا الحزب . ومع ذلك فإن المسيح والأناجيل لم يلتزموا الصمت بخصوص الأحزاب الأخـرى الموجودة فى اليهودية فى ذلك الوقت مثل حـزب الفريسيين ، وحزب الصدوقيين ، وحزب الهيرودسيين ... الخ .

ألم ينطق المسيح نفسه بالويلات على الكتبة والفريسيين ، ثم حذر الجماهير من مكرهم وخبثهم ؟ (متى ٢٣ : ١٣ — ٣٩ ، مر ١٢ : ٤٠ ، لو ١١ : ٣٨ — ٥٢) «ولكن ويل لـكم أيهـا الكتبة والفريسيـون المراؤون ... » .

وهنـا نطرح نفس السؤال الذى سألناه سابقا : لمـاذا لم يتكلم إذاً المسيح عن هذه الطائفة ، التى وإن كانت تقوم بأنشطة سياسـية لتحرر البلاد ، فهى أولا وقبل كل شىء طائفة دينية ، حزب دينى ؟ ولماذا لا تتكلم الأناجيل عن مقابلة المسيح لبعض قادة هذا الحزب ، مثـل مقابلته لبعض معلمى الناموس ، التى تكلم عنها الإنجيليون كثيراً ، مثل مقابلته لرئيس المجمع الذى أقام ابنته من الموت (لو ٨ : ٤١) أو مقابلته السرية لنيقوديموس رئيس اليهود ، أو نقاشه مع رئيس شباب (متى ١٩ : ١٦ — ٣٠) .

فالمسيح والإنجيليون يتكلمون عن هـذه الأحزاب ، أى حـزب الفريسيين ، والصدوقيين ، والهيرودسيين والكتبة بدون أى تردد . ومع ذلك فإن الأناجيل لا تذكر لنا ولا مرة واحدة أن غيورا قام ليجربه ، أو جاء إليه غيـور لا فى العلانية ولا فى الخفـاء ... فلماذا إذن هـذا الصمت ؟ ولـماذا لم يتكلم المسيح ولا الانجيليون عن الغيورين بطريقة

واضحة وصريحة كما تكلم عن الطوائف الأخرى الموجودة فى فلسطين فى ذلك الوقت ؟

إن بعض المفسرين ظنوا أن المسيح والأناجيل لم يتكلموا عن هذه الطائفة ، لأنها لم تظهر إلى حيز الوجود إلا بعد سنة ٦٦ ب م • ولكن الأبحاث الحديثة تعرفنا كما أشرنا إلى ذلك سابقا بأن جماعة الغيورين ظهرت فى سنة ٦ ب م لا بل تجسدت فى حركة غيورى العهد القديم • فلماذا إذن لم تتكلم عنها الأناجيل ولماذا هذا الصمت ؟

إن صمت الأناجيل عن طائفة أو حزب دينى أو سياسى ليس بالدليل القاطع على عدم وجوده • فالأناجيل لا تذكر كلمة واحدة عن جماعة قمران التى ظلت أخبارها مخفية عنا إلى سنة ١٩٤٧ • ومع أن يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودى العظيم وفيلو الاسكندرى وبلينوس العجوز يعطون لنا فكرة محددة عن جماعة الأسينيين ، إلا أن هذه الفكرة كانت محدودة وموجزة جدا • ومما لا شك فيه أن مخطوطات قمران ستفتح الباب أمام الباحثين لمعرفة الكثير عن هذه الجماعة التى كانت معاصرة للمسيح ، ومع ذلك فالمسيح لم يتكلم عنها • والسبب الأساسى فى صمت المسيح والانجيليين عن الكلام عن جماعة الأسينيين هو أن هذه الجماعة كانت تعيش فى الخفاء والمسيح لم يتكلم عنها لكى لا يلفت الأنظار إليها(١) • فكل هذه الجماعات الأسينية : جماعة قمران ، حزب الغيورين ، خصوصا هذه الجماعة الأخيرة ، كانت تعيش بطريقة خفية وبعيدة عن الأنظار ، بل كانت مطاردة ومراقبة من السلطات الرومانية المستعمرة للبلاد ، على عكس أحزاب الفريسيين والكتبة ،

(١) Constantin Daniel (Esséniens, Zelotes Et Sicaires Et leur. Par Parony Mie dans le Nooveau Testament in Numene 1966, pp. 88 - 115.

والصدوقيين والهيرودسيين المعترف بهم من السلطات اليهودية والرومانية • ولهذا السبب فقد تكلم السيد عن هذه الطوائف دون أن يعرضها لأى مشكلة سياسية • ولكنه تجنب ، فى بعض الأحيان ، الكلام عن بعض الطوائف والأحزاب الدينية السياسية التى كان يمكن أن تتعرض بسبب إشارته إليها بطريقة صريحة ، الى أخطار عظيمة من قبل الرومان •

وبالرغم من هذه الحقيقة فإن السيد تكلم مرات عديدة جدا عن الغيورين خصوصا الحزب المتطرف فيه والذى يسمى حزب « السيكر » (SICAIRE) ، ولكن لكى لا يعرض هذا الحزب لخطر الهجوم الرومانى أو لبعض المتاعب والمشاكل السياسية الأخرى فقد استعمل فى أحيان كثيرة ، فى الاشارة إلى جماعة الغيورين ، ألغازا وبعض الكلمات التى تحمل عدة معان ، ففى حقيقة الأمر ، إن العهد الجديد يحتوى على شواهد كثيرة تشير إلى الغيورين والدليل الأول :

١ — إن المسيح قبل فى جماعته بعضا من الغيورين كتلاميذ ، فإن اسم يهوذا وأعماله وتصرفاته تدل ، بطريقة تكاد تكون مؤكدة ، على أنه كان من جماعة الغيورين ، فأولا اسمه الاسخريوطى ، ولقد ظن البعض أن كلمة الاسخريوطى هى نسب لاسخريوط ، أى يهوذا الذى هو من بلدة اسخريوط • وهذا التفسير غير صحيح • وأما التفسير المحتمل الذى يمكن استنتاجه بعد التحليل اللغوى لهذا الاسم : « اسخريوط » فهو أن كلمة « سيكر » أو « سيكرى » التى تعنى فى اليونانية سكين أو خنجر أو حامل السكين أو الخنجر ، تشبه إلى حد كبير كلمة اسخريوط ، لا بل يبدو أن كلمة اسخريوط أو اسخريوطى مشتقة منها • وعلى هذا يمكن القول بأن عبارة يهوذا الاسخريوطى لا تعنى نسبة يهوذا إلى بلدة اسخريوط بل تدل على نسبته لجماعة

حاملى الخناجر أو السكاكين (١) أى أنه كان عضوا فى حزب الغيورين المتطوف الذى كان يستعمل السيف والقسوة والعنف لتحرير البلاد . هذا فيما يختص باسمه .

٢ ــ إن تصرفات وحياة يهوذا ونهايته تدل كلهـا على أنه كان عضوا فى هذه الجماعة ويحتمل أنه عندما أدرك تمام الادراك وفهم كل الفهم أن يسوع ليس هو المسيا السياسى الذى سيقود جيوش الغيورين لتحرير البلاد ؛ بل وظن أن المسيح يتعاون مع المستعمر فى قبوله دفع الجزية التى يرفضها كل غيور (متى ١٧ : ٢٤ ــ ٢٧ ، يو ١٣ : ٢٧) ، عندئذ دخل الشيطان فى قلبه ، فسلم سيده إلى أيدى الأعداء (يو ١٣ : ٢٧ ، متى ٢٦ . ١٤ ــ ١٦ ؛ ٤٧ ــ ٥٠) .

هناك شواهد أخرى يحتمل أنهـا تشير إلى أن بعض تلاميذ المسيح كانوا أيضا غيورين ، فإن قائمة أسماء التلاميذ (مت ١٠ : ٢ ــ ٤) لا تحتوى على يهوذا الاسخريوطى فقط بل تحتوى على اسم سمعان القانوى أيضا (سمعان القانوى غير سمعان بطرس) فمن هو سمعان القانوى ؟ (مت ١٠ : ٤ ؛ مرقس ٣ : ١٨) يقولان سمعان القانوى ، أما لوقا فيقول : « سمعان الذى يدعى الغيور » (لو ٦ : ١٥) وكاتب سفر الأعمال (لوقا) عندما يذكر جدولا بأسماء التلاميذ يقول أيضا : « سمعان الغيور » (أعمال ١ : ١٣) . وفى حقيقة الأمر إننا عنـدما نرجع إلى أصـل الاصـطلاح الذى اسـتعمله كل من متى ومرقس : « القانوى » ــ فهو لا يعنى أنه كان من « قانا » والكتابة الصحيحة لهذه الكلمة الأرامية هى « سمعان الكاننى أو الكانونى » وليس « سمعان

(١) Constantin Daniel (Esséniens, Zelotes Et Sicaires Et leur Par Parony Mie dans le Nooveau Testament in Numene 1966, pp. 88 — 115.

القانوى » ، فالكتابة الصحيحة إذن لهذه الكلمة الأرامية هى الكانانى ، أو الكانونى ، ومعنى هذا الاصطلاح فى اللغة الأرامية « غيور » ، كما ترجمها لوقا فى (٦ : ١٥ ، أع ١ : ١٣) • ومن المحتمل بأن متى ومرقس قد حاولا نسخ الكلمة الأرامية كما هى من اللغة الأصلية وهى (QANA) حتى لا يعرضا التلميذ سمعان لبعض المشاكل والمضايقات السياسية ، كما أنهما لا يريدان تذكير شريكهما فى الخدمة بانتسابه القديم لجماعة الغيورين ، وأما لوقا فحرص على الأمانة العلمية فذكر لنا الاسم مترجما ترجمة صحيحة[1] •

مما سبق يتضح لنا أن السيد قد قبل بعض الغيورين كتلاميذ له • ومن هنا ننتقل إلى سؤال مهم وهو السؤال الذى طرحناه سابقا : لماذا لم يتكلم المسيح بطريقة واضحة وصريحة عن الغيورين • لقد سبق أن قلنا بأن السيد كان مضطرا إلى أن لايتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن الغيورين لكى لا يعرضهم لبعض المشاكل والمضايقات السياسية • وبالرغم من ذلك ، فإن السيد قد تكلم فى مناسبات عديدة عن الغيورين بل وجه إلى بعضهم تعنيفا قويا شديدا لا يقل فى صرامته عن الويلات التى وجهها إلى الفريسيين والكتبة •

إن السيد تكلم فى مناسبات كثيرة عن حزب الغيورين ، ولكن بما أن هذا الحزب لم يكن معترفا به ومقبولا لدى السلطات الرومانية الحاكمة ، مثل حزب الفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين ، كان المسيح مضطرا أن يتكلم عنه بطريقة غير مباشرة باستعمال الألغاز أو الكلمات ذات المعانى الكثيرة •

---

(1) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس باللغة الفرنسية وتفسيره لانجيل متى ١٠ : ٤ ثم ١٧ : ٢٤ — ٢٧ ، لو ٦ : ١٥ ، مرقس ٣ : ١٩ •

ولنتقدم الآن لكى نرى أين ومتى تكلم السيد عن الغيورين ، فمثلا فى كلامه للجماهير يقول : « ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ، أقصبة تحركها الريح...؟» (مت ١١ : ٧ ــ ٩) . ماذا يقصد المسيح بهذا الكلام ... « قصبة تحركها الريح » ... ؟ إن القصب لا ينمو فى الصحراء لأنه يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه وبصفة مستمرة ، والقصب (ليس قصب السكر الموجود فى مصر) ينمو ويكبر على جانبى الأردن وليس فى الصحراء ، وعادة لا يوجد قصب فى الصحراء ، ولكن بالرجوع إلى الظروف السياسية التى كانت تحيط بهذه البلاد ــ اليهودية ــ وبتحليل هذا الاصطلاح الذى استعمله السيد فى مخاطبته للجماهير يتضح لنا معنى هذه الآية . فمن ناحية الظروف السياسية كان الغيورون الذين يشكلون هيئة المقاومة ضد المستعمر يستعملون كل وسائل العنف والغدر والقتل ضد الرومان . ولذلك فقد طاردتهم هذه السلطات أينما وجدوا ، فاضطروا إلى الهروب إلى الصحارى وإلى البرارى وإلى الجبال ، فاتخذوا منها مسكنا وملجأ لهم للاختفاء بعيدا عن الجنود الرومانية التى كانت تتعقب آثارهم . هذا من الناحية السياسية ، وأما من الناحية اللغوية فإن الاصطلاح الذى استعمله السيد « قصبة » وباللغة العبرية (QANE) من الكلمات التى تسمى HOMOPHONE أو PARONYME أو HOMONYMES أى أن الكلمة الواحدة تنطق نطقاً واحداً ولكنها تحمل عدة معان ، كأسلوب التورية فى اللغة العربية . فمثلا عندما نقول : « أكلت الخبز بالجبن » ، فإن هذه الجملة أو بعبارة أصح كلمة « جبن » تحمل المعنى القريب وهو الجبن نتاج اللبن ، وأما المعنى البعيد فهو الذل أو العار .. الخ . فان نفس الكلمة « جبن » تحمل عدة معان ، والاصطلاح الذى استعمله السيد هو (QANE) « كان » « قصبة» تحمل عدة معان مثل كلمة جبن ، فإن « كان » (QANE) تعنى قصبة ثم تعنى أيضا « غيورا » وتلفظ بنفس الطريقة ، فالاختلاف ليس فى اللفظ بل فى المعانى

التى تكمن تحت هذا اللفظ . فالمعنى الظاهر لكلمة « كان » هو « قصبة » تحركها الرياح وأما المعنى الخفى والمقصود ، فهو « غيور » . وكما سبقت الاشارة فإن الغيورين كانوا يسكنون الصحارى لأنهم كانوا مطاردين من الرومان . وهنا يجب البحث عن المعنى الذى أراده المسيح بهذه الآية : «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ، أقصبة تحركها الريح». وكأنى بالسيد يقول للجماهير التى خرجت لتسمع يوحنا المعمدان ماذا خرجتم لتنظروا فى البرية ؟ أخرجتم لتنظروا « كانا » شخصا غيورا قد اتخذ من الصحراء مسكنا له ومجالا لعملياته الاجرامية من قتل وذبح واغتيال ؟ كلا ، فان هـذا النبى يوحنا الذى كان يسكن فى الصحراء يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن كل الغيورين (QANES) . فإن كان المسيح لا يشير هنا بكلمة « قصبة » (التى تعنى فى العبرية غيور) إلى الغيورين ، والمقارنة بينهم وبين يوحنا ، لما أصبح لهذه الآية معنى أو مغزى . والمسيح يواصل كلامه ذاكرا طرفى النزاع ، أى السلطة الحاكمة من ناحية والغيورين الذين كانوا يقاومون هذه السلطة من ناحية أخرى، فيقول : « لكن ماذا خرجتم لتنظروا أإنسانا لابسا ثيابا ناعمة . هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك ... » .

فمن الواضح البين أن المسيح استعمل إذن هذا الاصطلاح «كان» الذى يحمل معنيين لكى يشير به إلى جماعة الغيورين . وهذه الآية التى استعملها المسيح بهذا الأسلوب ليست يتيمة فريدة فى الكتاب . فلقد استخدم المسيح مرة أخرى الكلمات ذات المعنيين (PARONYMES) للاشارة إلى الغيورين فى حديثه مع نثنائيل : « ورأى يسوع نثنائيل مقبلا إليه فقال عنه هوذا اسرائيلى حقا لا غش فيه . قال له نثنائيل من أين تعرفنى ؟ أجاب يسوع وقال له : قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك . أجاب نثنائيل وقال له : يا معلم أنت ابن الله . أنت ملك اسرائيل ... » (يو ١ : ٤٧ ـــ ٥١) .

عندما نقرأ بطريقة سطحية الكلمات التى وجهها السيد لنثنائيل قائلا : « هوذا إسرائيلى حقا لاغش فيه ••• قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » • نشعر بأن هذه الكلمات غامضة ، بل لا تستحق هذا الاعتراف العظيم الذى يشبه الى حد كبير اعتراف بطرس «أنت هو المسيح ابن الله الحى» (متى ٦ : ١٦) فما هى المعجزة أو الغرابة فى أن السيد رأى نثنائيل تحت التينة ، حتى أنه (نثنائيل) يندهش ويستغرب استغرابا عظيما فيقول : « أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل » •

إن المسيح يبدأ حديثه مع هذا الرجل الوطنى المتحمس بالقول : « هوذا إسرائيلى حقا لا غش فيه » • ويندهش نثنائيل لهذا الاعلان ، لأنه لم يتقابل قبل ذلك مع المسيح ولم تتح له الفرصة بأن يتناقش معه لكى يعرفه بأفكاره واتجاهاته السياسية • ولذلك يسأل نثنائيل السيد قائلا له من أين تعرف أنى رجل وطنى ومتحمس لوطنيتى ؟ وهنا يستعمل المسيح كلمة ذات معنيين لكى يعلن بها لهذا الرجل الوطنى المتحمس ، بل لهذا الغيور بأنه يعرف عنه أكثر مما يظن • فقال له : « قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » ، وهنا يستعمل المسيح نفس الأسلوب الذى استعمله فى مخاطبته للجماهير بخصوص يوحنا وغيورى الصحراء ، أى أنه يختار كلمة تحمل معنيين ، فكلمة « تين » باللغة الآرامية التى يتكلمها المسيح « سوكو » (SUKO) وباليونانية « سيكا أو سيكة » SIKA أو SIKAH • فالمعنى القريب لهذه الكلمة هو « تين » ، ولكن المعنى البعيد أو المعنى الثانى هو « سكين » أو خنجر أو حامل الخنجر •

وكأنى بالمسيح يقول لهذا الرجل الغيور : يا نثنائيل أنا أعرفك قبل أن يدعوك فيلبس عندما كنت تحت « التينة » ، أى عندما كنت تحت « السيكو » ، يعنى عندما كنت فى خدمة جيش السيكر الارهابى • وهنا يستعمل المسيح كلمة مغطاة ذات معنيين لكى يعلن لنثنائيل أنه ينتمى

إلى جيش السيكر جيش الارهابيين • فإن انتساب نثنائيل إلى حزب السيكر كان خفيا وسريا ، ولكن المسيح استطاع أن يعلنه له بطريقة غير مباشرة ، لهذا السبب اندهش نثنائيل ووجد نفسه فى حضرة شخص خارق للطبيعة ، ولذلك قال للمسيح : « يا معلم أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل » • لأنه استطاع أن يعرف ما هو خفى وما هو سرى •

وكما أن المسيح وجه توبيخا مكشوفا وانذارا واضحا وصريحا للأحزاب المعترف بها من السلطات القائمة وتتخذ مثل الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين ، فهكذا فصل أيضا مع حزب الغيورين المتطرف جدا ، حزب « السيكر أو السيكريين » ، أى حزب الارهابيين الذى كان يحمل أعضاؤه خنجرا أو سكينا للهجوم على الرومان وأعوان الرومان ، ولقد وجه إليهم ويلاته وتوبيخاته بطريقة خفية وغير مكشوفة• وهذا واضح فى مثل التينة التى لم تعط ثمراً (لو ١٣ : ٦ — ٩) ، فالمسيح يوجه انذاره إلى هذا الحزب (التينة غير المثمرة) أى حاملى الخناجر ، مبينا لهم بهذا المثل أن الله فى لطفه ينتظر سنة بعد سنة توبة هذه الجماعة ورجوعها عن القتل والغدر وإسالة الدماء ، لأن الله يريد أن تثمر هذه الشجرة أثمارا تليق بالتوبة • وهنا أيضا يستعمل المسيح كلمة « تين » التى تعنى تين أو سكين أو خنجر لكى يوبخ بها أولئك الذين سلكوا فى هذا الطريق •

والمسيح الذى حذر وأنذر الأحزاب المعترف بها من الهيئات الحاكمة وأنزل بهم الويلات علنا وبطريقة واضحة ومباشرة (متى ٢١ : ٣٣ — ٤٤ ، ٢٣ : ١٣ — ٣٩ ، لو ١٢ : ١ — ٢) ، استعمل نفس الطريقة مع حزب الغيورين المتطرفين حاملى الخناجر أو السكاكين ، بطريقة غير مباشرة أو عن طريق كلمة تحمل معنيين (HOMONYME) ولقد ظن العارفون باللغة الأرامية والذين يؤيدون هذه النظرية ، أن كلمات

السيد ف (مت ٢١ : ١٨ ـــ ٢٠ ، مر ١١ : ١٢ ـــ ١٤) موجهة إلى جماعة الغيورين وليس لشجرة التين الطبيعية ، وخاصة هذه الكلمات : «فنظر شجرة تين ••• فأجاب يسوع وقال لها لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد • وكان تلاميذه يسمعون » (مر ١١ : ١٣ ـــ ١٤) •

فكما سبق أن أشرنا بأن كلمة « تين » من الكلمات التى تحمل ف اللغة الأرامية معنيين ، المعنى القريب المعروف والظاهر هو ثمرة «التين» التى تؤكل ، والمعنى البعيد الذى قصده السيد وهو خنجر أو سكين أو حامل الخناجر • وبناء على ذلك فلقد ظن كثيرون من العلماء أن هذه الفصول (مت ٢١ : ١٨ ـــ ٢٠ ، مر ١١ : ١٢ ـــ ١٤) تحتوى على إنذار للغيورين بوجه عام ، وليهوذا ، الذى يحتمل أنه كان عضوا عاملا ف هذه الجماعة ، بوجه خاص • ولقد سبق أن عرفنا أن يهوذا كان من حزب الغيورين ، الحزب المتطرف • ولهذا السبب فإن الرب يوجه له هذا الانذار كعضو ف هذه الجماعة الارهابية (سيكر ، حاملى الخناجر) ، فإن اللعنة التى نطق بها السيد كانت موجهة للغيورين بوجه عام وليهوذا الاسخريوطى بوجه خاص ، وليست للتينة • والجدير بالذكر أن مرقس يضيف إلى هذه القصة المذكورة ف متى ، جملة تعتبر ف غاية الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع ، فهو يقول : « لأنه لم يكن وقت التين » (مر ١١ : ١٣) • والمسيح ليس بالشخص المتغطرس المتجبر الذى يطلب تينا من شجرة التين ف الوقت الذى لا يثمر فيه التين • وكل ما ف الأمر هو أن السيد انتهز هذه الفرصة لكى يستخدم كلمة التين التى تعنى « تينا أو حاملى الخناجر » لكى ينذر جماعة الغيورين ويهوذا ، الذى أعطى له السيد فرصا عديدة للتوبة وللرجوع ولكنه لم ينتهز هذه الفرص الثمينة ، ولهذا السبب عينه فإن المسيح يستعمل نفس الطريقة المغطاة مستخدما كلمة تينة ـــ سيكر أو سيكو ـــ لكى ينذربها يهوذا وكل الغيورين (مت ٢١ : ١٨ ـــ ٢٠ ، ٢٦ : ٢٤ ، مر ١١ : ١٢ ـــ ١٤ ، ١٤ : ٢١ ،

لو ٢٢ : ٢٢) • فهل سمعوا صوته وقبلوا دعوته للتوبة ؟ ! !

ويوجد نص آخر يشير إلى الغيورين وهو (لوقا ٢٣ : ٥ ، ١٤) • وحقيقة الأمر أن هذين النصين يشيران إلى يسوع كغيور ، فلا يفوتنا أن السيد قد قدم للمحاكمة وحكم عليه كواحد من الثوار ، أو كواحد من الغيورين • فإن اليهود قدموه إلى الحاكم الرومانى كمتهم بإثارة الشعب ، لأنهم كانوا يعلمون تمام ما هو موقف الحكام الرومان من الغيورين ، ولذلك كانوا يشددون قائلين : « إنه يهيج الشعب ••• » (٢٣:٥)، «قد قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب» (٢٣:١٤)• والعادة التى اتبعها الرومان فى حكمهم على أحد هؤلاء الثوار الغيورين، أنهم كانوا يضعون قصبة فى يده ، وكانت القصبة كما سبق أن أشرنا تعنى « الغيور » • وكان اثبات هذه التهمة ، أى تهمة انتساب أى شخص إلى حزب الغيورين المتطرف ، كافيا لأن يحكم عليه بالموت • فمع أن بيلاطس كان مقتنعا ببراءة يسوع من كل التهم التى ألصقها اليهود به،فإن الجند ظنوه واحداً من هؤلاء الثوار الذين يحاكمون كل يوم بتهمة إثارة الشعب وادعاء اتهم السيانية • ولذلك فقد وضعوا فى يمينه « قصبة » لكى يدلوا بها على نوع الجريمة التى يحاكم من أجلها ، أى أنه «غيور»، « وضفروا إكليلا من الشوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود » (مت ٢٧ : ٢٩) • من هذا يتضح أن الجند عاملوا يسوع كما لو كان غيوراً ، ولهذا السبب فقد صلب أيضا بين إثنين من اللصوص (QANAS) (١) •

من النصوص التى سبق أن أشرنا إليها يمكننا أن نستنتج أن السيد تكلم عن هذه الجماعة (جماعة الغيورين) ، التى كان لهـا نشاطها السياسى والدينى ، وإن كان المسيح قد تكلم عنها بهذه الطريقة الغير

(١) للتوسع فى دراسة هذا الموضوع ارجع الى المصدر المذكور سابقا وهو
C. Daniel Numene. Vol. 13 Fasc. z. August 1966 P 80 - 100

المباشرة ، فذلك يرجع إلى حقيقة أنها كانت تعيش فى الخفاء بعيدا عن أعين السلطات الرومانية .

فإن كانت هذه النصوص التى أشرنا إليها سابقا ، تدل على وجود هذا الحزب الغيورى فما هو موقف يسوع منه ؟ هل كان مؤيدا لهذا الحزب أم معارضا ؟ هل كان المسيح فى صراع مستمر مع هذا الحزب كما كان فى صراع مستمر مع حزب الكتبة والفريسيين والصدوقيين... الخ ؟ ما هو موقفه منهم ؟

لقد حاول كولمان (O. CULLMANN) أن يقدم لنا تلخيصا لما سجلته الأناجيل عن موقف يسوع من الغيورين فيقول : إن الأناجيل تحتوى على نوعين من الشهادة بخصوص هذه المشكلة ، فإذا حاولنا جمع كل الشواهد الكتابية التى تتكلم عن موقف يسوع الايجابى من الغيورين لرأينا فيه غيوريا .ولكن لو حاولنا جمع الشواهد التى تتكلم عن موقف يسوع السلبى ازاء الغيورين لوجدنا أنه لا يتفق وتعاليمهم . وإن علم التفسير وأبسط قواعده لا تسمح لنا بأى حال من الأحوال الاستناد على بعض الآيات التى تؤيد وجهة نظر معينة دون الأخذ فى الاعتبار للآيات الأخرى التى تؤيد وجهة النظر المعارضة ، وليس من حقنا فصل هذه الآيات عن قرينتها(١) .

ويواصل كولمان (O. CULLMANN) شرحه بالقول : مثلا الذين يرون فى يسوع مسيا سياسيا غيورا ، يرجعون إلى عظاته الخاصة بملكوت الله ، وكيف أنه علم كما علم الغيورون بأن ملكوت الله على الأبواب وقريب جدا ، وأنه مرسل من قبل الآب لكى يتمم رسالة إلهية قد كلف بها من قبل الله . وهذا أيضا ما كان يعلمه الغيورون ، وهو بأن

(١) راجع كتاب كولمان (الطبعة الفرنسية)

Oscar Cullmann
Jèsus Et Les Revolutionnaires P. 10 — 20.

المسيا سيأتى حاملا رسالة دينية وسياسية • فهنا نرى أن يسوع يؤيد موقف الغيورين ، بل أكثر من ذلك ، ألم يعلم المسيح بطريقة واضحة وصريحة بأنه ضد هيرودس معطيا له لقب ثعلب : « فقال لهم امضوا وقولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفى اليوم وغدا وفى اليوم الثالث أكمل ••• » (لو ١٣ : ٣١ — ٣٥) ، وهيرودس كان يمثل السلطة الرومانية الحاكمة التى يقاومها الغيورون بكل ما أوتوا من قوة ووسيلة •

إن هذا التصريح يعتبر إذاً ضد هيرودس وضد السلطات الرومانية التى تسيطر على البلاد ، وبناء عليه يمكن القول بأن المسيح كان مؤيدا ومساندا للغيورين ، بل كانت له ميول واتجاهات وتصرفات غيورية • والذين يظنون بأن المسيح كانت تسيطر عليه نفس الميول التى كانت تسيطر على الغيورين ، يقتبسون هذه الكلمات : « فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لو ٢٢ : ٣٦) • إن السيف أو الخنجر أو الـ «SICAIRE» كان له الفعل القوى والعملى فى نشاط الغيورين • من هذه الآية استنبط الذين يظنون أن المسيح كان غيوريا ، بل وكان مسيا سياسيا ، إنه فى تلك اللحظة الحاسمة طلب من تلاميذه أن يتسلحوا وأن يدافعوا حتى يحصلوا على النصر ضد العدو • فإن كان دخوله إلى أورشليم لتطهير الهيكل ، وهتاف الذين كانوا يهتفون له ، لم يؤد إلى النتيجة المطلوبة أى تمليكه ملكا ، فإنه يحاول الآن من جديد أن يسلح تلاميذه لكى يصل إلى هدفه ، أى الهجوم على الرومان وتحرير الأمة اليهودية فتصبح أمة ثيوقراطية •

من هذه الآيات السابقة الذكر ، ظن البعض أن موقف المسيح كان موقفا ايجابيا بالنسبة للغيورين ، بل كان هو نفسه غيورا • وهذا بلا شك هو الخطر الداهم فى علم التفسير ، عندما يتخذ الانسان بعض

الآيات منفردة ومنعزلة ويسلخها من قرينتها لكى يدعم بها نظريتـــه وفكره ، لأنه ما أكثر الآيات التى يمكن أن نحملها ما لا تحتمله وأن نقولها ما لا تقــوله ، عندما نفصلها عن قرينتهـــا ، وعندما لا ندرس الظروف والأماكن التى قيلت لأجلها وفيها • على سبيل المثال ، الظرف الذى قيلت فيه الآية الآتية : « فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك • ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترسيفا» •لكى نشرح هذه الآية يجب معرفة الظروف التى قيلت فيها ولأجلها • فعنـــدما قال الرب هـــذه الآية كان لا يفصل بينه وبين الموت إلا خطوة واحدة قصيرة ، يوم واحد • ولذلك فهو ينظر إلى التلاميذ الذين سيكونون ، بعد أن يتركهم بالجسد ، كغنم فى وسط ذئاب خاطفة (مت ١٠ : ١٦) • وكأنى به يقول لهم : يا أولادى « أنا معكم زمانا قليلا بعد » (يو ١٣ : ٣٣) • فأنا الآن أهتم بأموركم وأحل مشاكلكم وأدافع عنكم عندما يحاجكم اليهود فى معتقداتهم • ولكن حضورى الجسدى هذا معكم ما هو إلا لوقت قصير ومحدود ، وبعد قليل لا تروننى (يو ١٦ : ١٩) • صحيح أنى سوف « لا أترككم يتامى • إنى آتى اليكم » (يو ١٤ : ١٨) ، سأرسل لكم الروح المعزى من عند الآب • ولكن غدا ستشعرون بالوحدة عندما أرتفع عنـــكم • ستتجمع عليكم قوات الظلام ، ستدخلون فى حرب فاستعدوا الآن لكى تحملوا المشحن والمسئولية التى ألقيت الآن على أكتافكم • « من أجـــل ذلك احملوا ســـلاح الله الكامل لكى تقـــدروا أن تقاوموا فى اليـــوم الشرير ••• » (أف ٦ : ١٣ ـــ ٢٠) •

فالمسيح لا يحض تلاميذه هنا على حمل السيف والحرب لتخليصه من أعدائه ، وإنقاذه من الموت إذ أنه يقول فى الآية التاليـــة للآية التى تتكلم عن حمل السيف : « لأنى أقول لكم إنه ينبغى أن يتم فى أيضا هذا المكتوب وأحصى مع أثمة ، لأن ما هو من جهتى له انقضـــاء » (لو ٢٢ : ٣٧) •

فالأمانة فى التفسير ليست هى البحث عن الآيات والنصوص التى نظن أنها تؤيد رأينا وعقيدتنا أو بالمعنى الأصح والأدق ، التى نريدها أن تؤيد رأينا وعقيدتنا ، بل الأمانة فى التفسير تتطلب أن نأتى إلى النص الكتابى لكى نتعلم منه ما يريد أن يعلمه لنا • فهو إذن الذى يعلمنا العقيدة ، ومنه العقيدة ولدت وبه تتغذى وتكبر وليس العكس •

ففى مشكلة موقف يسوع من الغيورين ، لو أخذنا هذه الآيات السابقة الذكر منفصلة عن الظروف التى قيلت فيها ولأجلها ، فإنها توحى للقارىء كما لو كان يسوع واحدا من الغيورين أو على الأقل كان يتوخى موقفا ايجابيا ازاءهم • فإن كانت الأمانة فى التفسير تتطلب دراسة الظروف التى فيها ولأجلها قيل النص ، فإنها تتطلب شيئا آخر لا يقل أهمية عن الأول ، وهو الأخذ فى الاعتبار ، النصوص الأخرى التى تتكلم عن نفس الموضوع • ومن هنا نرجع مرة ثانية إلى كوللمان (O. CULLMANN) الذى يتابع شرحه بخصوص مشكلة موقف يسوع من الغيورين ، فيقول بالرجوع إلى تعاليم المسيح ، نلاحظ أنه شدد كثيرا على عدم الهجوم وعلى عدم استعمال السيف ، ألم يقل لتلميذه بطرس « ••• رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (متى ٢٦ : ٥٢) •

وكيف يمكن أن نوفق بين هذا الفكر وبين تعاليم السيد فى التطويبات التى تحث ليس فقط على محبة الأصدقاء بل الأعداء أيضا (متى ٥ : ٣٨ — ٤٤) • فإنه بحياته ومثاله أعطى لنا وصية جديدة ، وصية المحبة (يو ١٣ : ٣٤ ، ٣٥ ، ١٥ : ١٢ ، ١٧ ، ١ يو ٢ : ٧ — ١٠) • والنصوص التى تتكلم عن تعاليم المسيح المختصة بالمحبة والتضحية كثيرة جدا فى الأناجيل ، ولكن المهم فى كل هذا ليس فقط هذه الفصول

التى تتكلم عن تعليم المسيح بخصوص المحبة والتضحية ومقاومته للعنف بل حياة المسيح نفسه ومثاله ، فقد أحب الانسان محبة ليس لها مثيل ، والرسول يقول : « ولكن الله بين محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨ ، ١ يو ١٣ : ١٠ — ٢٠ ، ٤ : ٧ — ١٢ ، يو ٣ : ١٦) •

مما لاشك فيه أن تعاليم يسوع وحياته لا تسمح لنا بأى حال من الأحوال بأن نقول بأنه كان غيورا أو مشجعا لحركة الغيورين المتطرفة التى كانت تستعمل العنف والقوة للوصول إلى أهدافها الدينية والسياسية وكيف يمكن للمسيح أن يكون غيورا ، يشترك أو على الأقل يشجع عملياتهم الهجومية لسفك الدماء وتيتيم الأطفال وترمل النساء وإثكالهن ، وهو الذى يقول عن نفسه « وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » (يو ١٠ : ١٠) ويقول عنه الكتاب : « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) • « لأن ابن الانسان أيضا لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (يو ١٠ : ٤٥) •

فإن الذين يدافعون عن فكرة أن يسوع كان غيورا ، أو على الأقل اتخذ موقفا ايجابيا منهم ، يتمسكون بفكرة أن سمعان أحد تلاميذ المسيح كان غيورا ويدعى سمعان الغيور (لو ٦ : ١٥) • كذلك أيضا يهوذا الاسخريوطى ، فمع أنه لم يلقب باسم غيور ولكن تصرفاته وسلوكه ونهايته تدل على غيوريته • وأما بخصوص سمعان الغيور ويهوذا الاسخريوطى فيحتمل أنهما كانا من حزب الغيورين كما سبقت الاشارة إلى ذلك • وهذا لا يغير شيئا فى موقف يسوع من ناحية هذا الحزب ، فالمسيح فى محبته قدم الدعوة للجميع دون النظر إلى الأحزاب السياسية والطوائف العقائدية ، وكل الذين قبلوا دعوته هذه التى تتضمن انكار

الذات وحمل الصليب واتباعه أينما يذهب صاروا تلاميذاً له (متى ١٦ : ٢٤ ــ ٢٦) ولهذا السبب عينه ، فإن جماعة التلاميذ لا تشمل سمعان الغيور ويهوذا الاسخريوطى فحسب ، بل تشمل أيضا عشاراً يدعى متى (٩ : ٩ ، ٢ : ١٤ ، لو ٥ : ٢٧) ، فإن كان الغيور المتطرف يمثل فى تلك الحقبة من الزمان ما نسميه نحن الآن باليسارى المتطرف ، فإن العشار كان يمثل الطبقة اليمينية والحاكمة ، مما يعنى قبول السلطة الحاكمة القائمة • ومن هذا يتضح لنا أن اختيار السيد لتلاميذه لم يكن وقفا على انتسابهم إلى حزب سياسى معين أو إلى طائفة عقائدية معينة ، بل كان وقفا على مدى استجابة كل شخص بطريقة واعية وحرة لهذه الدعوة المقدمة له • وإن الدعوة التى قدمها المسيح لتلاميذه وللجميع تحتوى ، ليس فقط على إنكار الذات وحمل الصليب واتباعه أينما يذهب ، بل كانت تحتوى أيضا على أن يصبح الانسان خليقة جديدة ، أو بتعبير آخر أن يولد من فوق (يو ٣ : ٣) ، أى أن تتم عملية التجديد فى الداخل أولا ، فى داخل الانسان ، وعندئذ تظهر ثمار هذا التجديد فى الخارج ، فى عمل وتصرفات وحياة الانسان المولود من فوق •

وهنا نرى أن المسيح لم يرد قلب الأوضاع القائمة رأسا على عقب كما حاول الغيورون المتطرفون قلبها وملاشاتها تماما من الوجود ، بل كانت رغبة قلبه أن هذه الأوضاع القائمة تتغير وتصلح ، فالمسيح لم يرد إذاً القضاء على العبادة كما ظن الغيورون بتفسيرهم لقوله فى مرقس (١٣ : ٢ ، ١٤ : ٥٨) ، بل أن يولد الانسان من فوق • وعندئذ ، وعندئذ فقط يستطيع أن يحقق العدل الاجتماعى الذى نادى به الغيورون وعلم به المسيح (لو ٦ : ٢٤ ، ١٦ : ١٩ ، ١٢ : ٧ ، ١٦) • إن هدف المسيح هو أن يصبح قلب الانسان خاليا من الأنانية ومن الكره ومن الكذب ومن الظلم بكل أنواعه ، وهذا لا يتم بالسيف ولا بالقانون ولكن بتغيير علاقة الانسان بالله ، وعندئذ تتغير علاقة الانسان بأخيه الانسان ، فيستطيع

بنعمته أن ينفذ أمره القائل : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن قدرتك ومن كل فكرك وقريبك كنفسك » (لو ١٠ : ٢٧) •

هذه هي الأوضاع التي كان يريد السيد تغييرها ، تغيير القلب والحياة(١) وليس الانتماء إلى حزب سياسي أو خلق حزب سياسي جديد • هذا هو موقف المسيح من الغيورين وموقف الغيورين منه كما بدا لكثيرين من الباحثين •

ومما لا شك فيه أن الذين يريدون البحث لتوضيح موقف يسوع ازاء الغيورين أو موقف الغيورين بالنسبة ليسوع ، سيجدون صعوبات كثيرة لا تحصى ولا تعد : وذلك يرجع إلى صمت الأناجيل الظاهر عن هذا الموضوع ، على العكس تماما فيما يخص علاقة يسوع وموقفه من جماعة الكتبة والفريسيين والصدوقيين الذين ناصبوه العداء وقاموا ضده بحرب شعواء منذ بداية رسالته ، فلقد هب البعض من هذه الطوائف اليهودية يحاربون يسوع ورسالته ، وحاولوا في مرات كثيرة أن يمدوا له شراكا شائكة لاصطياده في حبالها • وكانت هذه الشراك التي نصبها له هؤلاء القوم خبيثة كل الخبث وخطيرة كل الخطر ، طعمت بالسم الذي ظنوا نتيجته الموت المحتم مهما كانت براعة الجواب وقوة المنطق والحجة • وتسجل لنا الأناجيل عددا كبيرا من هذه الشراك ، ومنها ذلك الشرك الديني السياسي • ففي الأسبوع الأخير من حياة السيد أرسل الفريسيون تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين « يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس • فقل لنا ماذا تظن • أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ••• » (متى ٢٢ : ١٥ — ٢٢ ، مر ١٢ : ١٣ — ١٧ ، لو ٢٠ : ٢٠ — ٢٥) •

---

(١) لمعرفة راى OSCAR CULLMANN الرجا الرجوع الى كتابه المذكور سابقا ص ١ — ٦٠ •

إن القارىء المدقق يلاحظ خطورة السؤال والموقف ، فلقد جاء الفريسيون مع الهيرودسيين لكى ينصبوا له الشبكة . ومن الغريب والعجيب أن نرى الفريسيين جنبا إلى جنب مع الهيرودسيين لكى يحيكوا معا مؤامرتهم السوداء ضد المسيح . ودارس التاريخ اليهودى يعرف أن الفريسيين انفصلوا عن بقية الشعب اليهودى عندما اندمج هذا الشعب فى الأمور السياسية العالمية ونصب رؤساء للكهنة أشخاصا لم يكن لهم الحق فى الارتقاء إلى هذه الرتبة ، ولذلك انفصلوا عن بقية الشعب وأعطوا لأنفسهم اسم « حاسيديم » أى الأتقياء . وهنا نرى هؤلاء الاخوة الذين يدعون التقوى ، يدبرون ضد يسوع ، مؤامرة مع فريق آخر من الشعب كان يعتبر عدوا لهم وهم الهيرودسيون ، ولكن هذين الفريقين وجدا فى يسوع عدوا مشتركا يجب الاتحاد ضده . ولقد جاء الفريقان إلى يسوع بسؤال فى غاية الخطورة من الناحية السياسية وهو : « أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ » . ولكى نعرف خطورة هذا السؤال الذى يشبه السيف ذا الحدين ، يجب أن نتذكر موقف الغيورين من دفع الجزية، وكيف أن يهوذا الجليلى الذى قام بثورة سنة ٦ ب م ، قام بها لأنه لم يرد أن يدفع الجزية للدولة المحتلة ، وأصبح ــ من هذا التاريخ ــ دفع الجزية أمراً مهيناً للغاية فى أعين اليهود الأتقياء وأمراً مرفوضاً لا نقاش فيه بالنسبة للغيورين الذين كانوا يقومون بتحصيلها ، ويقتلونهم معا لأن دفع الجزية إلى خزينة أخرى غير خزينة الهيكل يعتبر كسرا لناموس يهوه .

وكما سبق أن عرفنا ، أن الغيورين أخذوا كمثال لهم فى نضالهم وحروبهم فينحاس وماتاتياس اللذين استعملا السيف عندما غارا غيرة للرب . وعلى ذلك كان الغيورون المتطرفون دائما على استعداد لقتل ، ليس فقط من يعلم أو ينادى بدفع الجزية ، بل إن الشخص الذى يدفع الجزية كان معرضا لضياع حياته إذا تقابل مع غيور متطرف متعصب .

فالخطر إذن لم يكن كامنا فى سخط اليهود وغضبهم على المسيح إذا أجاب اجابة مرضية للسلطات الحاكمة ، بل كانت خطورةالسؤال كامنة فى رد الفعل الذى سيقوم به الغيورون ضد المسيح • ومن هو الغيور المتطرف الذى يسمع بأن يسوع يعلم بأن تعطى الجزية لقيصر ويتركه يعيش يوما واحدا بعد هـذا التصريح ؟ • فالمؤامرة التى دبرهـا الفريسيون مع الهيرودسيين بسؤالهم هذا السؤال ليسوع لم تكن لاثارة اليهود عامة ضد المسيح فحسب ، بل دفع الغيورين لاغتياله إذا كان جوابه يحرض على دفع الجزية للرومان • وأما إذا كان جواب السيد على هذا السؤال بالنفى (أى أنه يمنع دفع الجزية للرومان) فالخطر الذى كان يحدق بيسـوع هو أن تتهمه السلطات الرومانية بأنه ليس فقط غيورا ثائرا ، بل هو ضد قيصر نفسه وضد السلطات الرومانية بتحريضه الشعب على عدم دفـع الجزية • وتهمته بتحريض وحث الشعب على عدم دفع الجزية هى تهمة كبيرة وخطيرة عقابها الموت • لقـد كانت المؤامرة ، مؤامرة « محبوكة حبكة » جيدة ، ولذلك فقد أتوا بشهود معينين أى الهـيرودسيين الذين يسهرون على سلامة الدولة الرومانية ومصالحها ونجاحها ، ثم الفريسيين الذين يسهرون على سلامة الدين اليهودى وعلى سلطان يهوه • وكان كل من الفريقين يتوقع أن المسيح لا بد وأن يسقط فى هذا الشرك على أى حال سواء من ناحية أو من الأخرى •

هذا المثليوضح لنا جانبا واحدا من الصراع الذى عاشه يسوع مع الفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين ، وموقف يسوع من هذه الطوائف معروف جيداً ، كما أن موقف هذه الطوائف ازاء يسوعمعروف أيضا فى الأناجيل ، فلقد سجل لنا الإنجيليون أسئلة الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين التى كانت تحتوى على شراك لكى يصطادوا بها يسـوع لمحاكمته ، كمـا أنها سجلت لنـا أيضـا ردود يسوع على هذه الشراك المنصوبة ، وصب الويلات على هذه الطوائف • فلا داعى إذن بأن نطيل

الوقوف عند هذه النقطة الواضحة والمعروفة فى الأناجيل • ولكن قبل أن نتقدم لنبحث نقطة أخرى ، نحب أن نلفت نظر القارىء إلى أمر يستحق أن نقف عنده ولو قليلا ، وهو أن الكنيسة الأولى بالغت فى عداء ومقاومة الفريسيين ليسوع • فمما لا شك فيه أن الفريسيين والكتبة قاوموا السيد ووقفوا وقفة العداء من تعاليمه ، ولكننا لا يمكن أن نعمم هـذا الموقف السلبى الذى تبناه الكثيرون من الكتبة والفريسيين على الجميع • فإن كان إنجيل متى ومرقس يقدمان لنا صورة سوداء عن موقف هذا الحزب من يسوع ، فإن لوقا ويوحنا يقدمان فى بعض الأحيان صورة أخرى عن بعض الكتبة والفريسيين الذين أظهروا فى بعض الأحيان روح التعاطف بل المحبة ليسوع • فلوقا هو الوحيد الذى يكلمنا عن دعوة الفريسيين ليسوع لتناول الطعام على مائدتهم (لو ٧ : ٣٦ ، ١١ : ٣٧ ، ١٤ : ١) ولوقا أيضا هو الوحيد الذى يسجل لنا بعض الكلمات التى تدل على محبة بعض الفريسيين ليسوع وحرصهم على نجاته من الموت : « فى ذلك اليوم تقدم بعض الفريسيين قائلين له اخرج واذهب من ههنا لأن هيرودس يريد أن يقتلك ••• » (لوقا ١٣ : ٣١)(١) • وهنا نلاحظ تأثير بولس على لوقا ، فإن بولس بالرغم من تجديده وقبوله المسيح ، ظل يفخر بنسبته للفريسيين (أع ٢٣ : ٦ ، ٢٦ : ٥ ، فى ٣ : ٥) • ويوحنـا يسـجل لنـا قصـة نيقوديموس الذى جاء إلى السيد ليلا وتحدث معه طويلا ولم تكن هـذه المقابلة مع الرب المقابلة الوحيدة لهذا الرجل ، بل نفس الانجيل يعرفنـا بأنه جاء مع يوسف الرامى لأخذ جسد يسوع (يو ٣ : ١ ـــ ١٣ ، ٧ : ٥٠ ، ١٩ : ٣٨ ــ ٤٢) • من هذا يتضح بأن بعضا من الفريسيين كانوا يميلون إلى يسوع ويؤيدونه بالرغم من مقاومة الكثيرين منهم لتعاليمه •

---

(١) بخصوص موقف بعض الفريسيين من يسوع راجع الترجمة المسكونية وملاحظاتها باللغة الفرنسية لانجيل لوقا (٧ : ٣٦ ، ١١ : ٣٧، ١٣ : ٣١ ، ١٤ : ١) •

وإن كنا نرى من هذه الصورة أن البعض والبعض القليل من الكتبة والفريسيين كانوا ينظرون إلى يسوع وجماعة التلاميذ بعين العطف بل حاولوا مساعدة يسوع : فإن الأغلبية الساحقة من الكتبة والفريسيين كانوا يقاومون السيد كل المقاومة • وذلك يرجع إلى حقيقة أن هذه الطائفة كانت تنتظر هى الأخرى مثل الغيورين مسيا سياسيا ، ويسوع الناصرى لم يستطع أن يحقق لهم أحلامهم وأمانيهم المسيانية • وبما أن جماعة الفريسيين كانت تعتبر الجماعة الكتابية للكتب المقدسة ، فقد حاول البعض تقديم المسيا فى صورة مشوقة جذابة لليهودى الذى كان يرى الجنود الرومان منتشرين فى طول البلاد وعرضها ، يحتلون السلطة الوثنية النجسة المحتلة للبلاد المقدسة ، ولذلك فقد قدمه بعضهم تحت الصور الآتية :

١ ــ المحرر ، فهو المحرر لهذا الشعب اليهودى المظلوم المسحوق المضروب ، فالمسيا سوف يحرر لا شعبه فقط من الاحتلال الأجنبى كما تنبأ به الأنبياء ، بل إنه سيسحق أعداء إسرائيل تحت أقدامهم ويملكهم عليهم فيصبح إسرائيل هو السيد المتسلط على العالم (مز ٢ : ٤ ــ ١٢ ، ٣٠ : ٦ ــ ٨ ، ٢١ : ٨ ــ ١٣ ، ٤٥ : ٤ ــ ٥ ، ٧٢ : ٩ ــ ١٩ ، ١٠١ ، ١١٠ ، اش ١١ : ٣ ــ ٥ ، زكريا ٩ : ٩ ، اش ٣٢ : ١ ــ ٥ ، صفنيا ٣ : ١٧ ــ ٢٠ ، إر ٢٣ : ٥ ، ٣٠ : ٩ ــ ١١ ، ٢٨ : ٢٤ ، خر ٢١ : ٢٧ ، ٢٤ ، ٣٧ : ٢٤ ، ٢٥ ، اش ٦٣ : ٦ ، ١٥ : ١٤ ، ٢ : ٢ ــ ٣ ، ٤٥ : ٢٠ ــ ٢٣ ، ٤٩ : ٦ ، ٥١ : ٥ ، ٥٥ : ٥) •

(ا) وقد رأى كثيرون من الكتبة والفريسيين الذين كانوا معاصرين للسيد ، فى الفصول المذكورة آنفا ، اشارات إلى المسيا الذى سيحرر الشعب من الاحتلال بعد أن يسحق أعدائه ويحطم قواهم ، بل إن إسرائيل نفسه سيصبح سيدا ومتسلطا على الشعوب ، هذا ما سيتم فى عصر المسيا • بل إنهم رأوا فيه ليس فقط المحرر من المحتل والذى سيقود

شعبه ليسيطر بدوره على الشعوب والأمم ، بل رأوا فيه أيضا المسيا الذى فى عهده يتحقق وعد الرخاء والرفاهية .

(ب) مسيا الرخاء والرفاهية : اعتقد بعض الفريسيين بأن المسيا سيحقق وعد يهوه الذى وعد به شعبه فى القديم ، الوعد الذى يتضمن عصر الرفاهية والعز ، (خر ٣ : ٨ ، ١٧ ، ١٣ : ٥ ، ٢٣ : ٣ ، لاو ٢٠ : ٢٤ ، عد ١٣ : ٢٧ ، ١٤ : ٨ ، ١٦ : ١٤ ، تث ٢٦ : ٩ ، ١٥ ، ٢٧ : ٣ ، يش ٥ : ٦ ، إر ١١ : ٥ ، ٣٢ : ٢٢ ، حز ٢٠ : ٦ ، ١٥) .

فعندما يأتى المسيا الذى تنبأ عنه الأنبياء ، ستعطى الأرض كل قوتها (أى تفيض لبنا وعسلا) ، وستكون السماء سخية فى أمطارها ، والطبيعة غنية فى انتاجها لدرجة أنه : « يكون فى ذلك اليوم أن الانسان يربى عجلة بقر وشاتين . ويكون أنه من كثرة صنعها اللبن يأكل زبدا ، فإن كل من أبقى فى الأرض يأكل زبدا وعسلا » (اش ٧ : ٢١ — ٢٢) بل أكثر من ذلك ، فعند مجىء المسيا « سيجلس كل واحد تحت كرمته وتحت تينته ، ولا يكون من يرعب ... » (ميخا ٤ : ١ — ٥) . فالأشجار والكروم ستنتج فى عصر المسيا كميات لا يمكن للعقل أن يتخيلها . ولقد تركت تعاليم بعض الفريسيين الذين كانوا يحلمون بعصر مسيانى ذهبى تأثيرا عميقا فى الكنيسة الأولى بخصوص المجىء الثانى للمسيح ، إذ أن البعض من أعضاء الكنيسة المسيحية الأولى كان ينتظر بفارغ الصبر رجوع السيد السريع إلى الأرض ، وبرجوعه يسود الرخاء والرفاهية والعز . وبما أنهم كانوا ينتظرون هذا الرجوع بطريقة سريعة ومباشرة ، فقد امتنع البعض منهم عن العمل مما اضطر الرسول بولس معه أن يكتب لهم موبخا على بطالتهم وحاثا إياهم على العمل (٢ تس ٢ : ١ — ٢ ، ٣ : ١٠ — ١٧) .
ولقد انتشرت فى الكنيسة الأولى بعض التعاليم الأبوكريفية الموروثة عن الأحلام المسيانية اليهودية ، ومنها أن السيد نفسه علم قائلا :

« ستأتى أيام تنتج فيها الكرمة عشرة آلاف فرع ، وكل فرع يحمل عشرة آلاف غصن ، وكل غصن يحمل عشرة آلاف عنقود من العنب ، وكل عنقود به عشرة آلاف حبة ، وكل حبة عنب تعطى (25 METRETES) (١) خمسة وعشرين رزقا » .

(ج) مسيا السلام : إن الأحلام المسيانية التى انتشرت قبل وفى أثناء مجيء السيد إلى الأرض ، فى الأوساط اليهودية وفى بعض الأوساط المسيحية فى الكنيسة الأولى ، كانت أحلاما حلوة لذيذة . لأنها لم تبعث فى قلوب اليهود المستعمرين المضطهدين الرجاء فى تحرير بلادهم واسترجاع سيادتهم عليها فحسب ، بل إن اسرائيل نفسه سيكون مسيطرا وسيدا على العالم فى العصر المسيانى الذى سيعم فيه السلام ، ليس الجنس البشرى فحسب ، بل أيضا الطبيعة كلها ستتخلص من طبائعها وغرائزها الوحشية . فالانسان المولع بالحروب وبصناعة الأسلحة لكى يقتل ويهلك ويفنى أخاه الانسان ، سيحول معداته الحربية إلى أدوات زراعية وصناعية نافعة لبناء المجتمع فى عصر المسيا : عصر السلام التام. وإشعياء يقول : « ويكون فى آخر الأيام ... فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ». (اش ٢ : ١ ـ ٤ ، مز ٤٦ : ٨ ـ ١١ ، ٧٢ : ٦ ـ ٧ ، ميخا ٤ : ١ ـ ٥) لأن المسيا المنتظر يدعى « رئيس السلام » ، ففى عصره لا يسمح بأن تندلع الحروب وتسفك الدماء (اش ٩ : ٥ ، أف ٢ : ١٧ ، كو ١ : ١٥) . وهذا السلام الذى كانوا يحلمون به ، لن يكون قاصراً على الجنس البشرى فقط بل سيكون سلاما عاما يسود ويسيطر على الطبيعة كلها .

(١) Metretes = اناء تكال به السوائل ويسع حوالى ٤٠ لتر من السوائل .

اقتبس عن H. Causse ص ٢٣٤ (راجع قائمة الكتب) .

فالذئب لا يهجم فيما بعد على الخروف بل « يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معا وصبى صغير يسوقها . والبقرة والدبة ترعيان ، تربض أولادهما معا والأسد كالبقر يأكل تبنا ، ويلعب الرضيع على سرب الصل ، ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان ... » (اش ١١ : ٦ — ١٠ ، ٦٥ : ٢٥) .

لقد فسر بعض الفريسيين هذه النبوات الروحية تفسيرا حرفيا ، فانتظروا مسيا سياسيا يعطى لهم كل هذه الامتيازات المادية ، كما فسر ويفسر أيضا الكثيرون الآن هذه الأقوال وأقوالا أخرى من الكتاب المقدس (رؤ ٢٠ : ٥ — ٧) تفسيرا حرفيا ماديا . وبناء على هذا التفسير الحرفى المادى ، تمسك البعض بفكرة أن المسيح سيأتى وسيملك ألف سنة بطريقة حرفية حقيقية .

إن حقيقة مجىء المسيح الثانى إلى الأرض أمر لا شك فيه ، لأن الكتاب المقدس يكلمنا عنه بوضوح وفى أماكن مختلفة ، أما موضوع ملكه الألفى على الأرض ، فإن الآيات القليلة التى سجلها الكتاب بخصوصه لا تسمح لنا بأن نصل إلى هذا الاستنتاج . وهذا يوضح لنا خطورة التفسير الحرفى الذى اتبعه الفريسيون فى تفسير العهد القديم وبعض تقاليد الآباء . وبما أنهم تشبعوا بهذه الفكرة ، فكرة أن المسيا الحقيقى له السلطان أن يمنح فعلا السلام الحقيقى والروحى ، لم يقبلوه لأنهم نظروا إليه من خلال عقائدهم الشخصية ، فلم يروا فيه اللون الذى كانوا يبحثون عنه — أى التحرير من المستعمر والسيادة على الشعوب الأخرى ، والرخاء والرفاهية ، ولذلك فقد ضموا صوتهم إلى الأصوات الأخرى مع الصدوقيين والهيرودسيين قائلين : « اصلبه ، اصلبه ... »

لدراسة هذا الموضوع الخاص بالغيورين والحركات السياسية ، الرجاء الرجوع إلى المراجع التى ذكرناها فى الصفحات ١٧٨ — ١٨٠ .

الفصل السابع

مفهوم التلاميذ عن يسوع

بعد دراستنا لشخصية المسيح ، رأينا ماذا كانت عقيدة الغيورين وعقيدة الفريسيين فى شخص يسوع ، وماذا كان موقف يسوع من هذه الطوائف المعاصرة له ، والآن يجب أن نسأل هذا السؤال : ماذا كانت عقيدة التلاميذ فى المسيح ؟ هل كان للتلاميذ نفس الآمال والأحلام والانتظارات الروحية والسياسية التى كانت تملأ عقول اليهود الذين كانوا معاصرين ليسوع ؟ أم أن التلاميذ فهموا من أول الأمر أن يسوع الناصرى هو المسيا المنتظر ، المسيا الذى سيخلص الشعب من خطاياه ، أى أن رسالته رسالة روحية وليست رسالة سياسية ؟ أو بعبارة أصح : هل فهم التلاميذ من أول مقابلة لهم مع يسوع أو فى أثناء المدة التى عاشها معهم ، بأنه « المسيح » ... لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين ؟ (مر ١٠ : ٤٥) ماذا رأى التلاميذ فى يسوع ؟

عندما ندرس الفصول الكتابية التى تكلمنا عن عقيدة التلاميذ فى يسوع ، نلاحظ أنهم فى بادىء الأمر وفى أثناء الفترة التى قضاها السيد معهم على الأرض ، بل وبعد موت المسيح وقبل صعوده إلى السماء ، لم يختلفوا كثيرا فى معتقداتهم وآرائهم عن معتقدات وآراء الكثيرين من

اليهود معاصريهم • وذلك لأن هؤلاء التلاميذ كانوا يهودا ، شـاركوا اليهود فى كثير من الأحيان فى آمالهم وأحلامهم ومعتقداتهم • وكم من المرات سأل التلاميذ المسيح أسـئلة تدل على أن المفـاهيم اللاهوتية اليهودية ، بل والمفاهيم الشعبية كانت تسيطر عليهم كما كانت تسيطر أيضا على بقية اليهود : « فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ » (يو ٩ : ٢) •

وعندما يقـول أندراوس لسمعان أخيه : « وجـدنا مسيا الذى تفسيره المسيح » (يو ١ : ٤١) ، فإنه لا يقصد بهذه العبارة إلا ما كان يقصده اليهودى المتدين الذى كان ينتظر مجىء المسيا الذى سيخلص ويحرر إسرائيل من العبودية الأجنبية ثم ينعش الحياة الروحية •

مما لا شك فيه أننا لا يمكن أن ننسى الاعلان العظيم الذى نطق به بطرس فى قيصرية فيلبس عندما سأل السيد قائلا : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ فأجاب بطرس وقال أنت هو المسيح ابن اللـه الحى ••• » (متى ١٦ : ١٣ ــ ٢٠) • إن هذا الاعلان العظيم السامى يعد أساسا متينا للكنيسة ، ولكننا لا ننسى أيضا أن هذا الاعلان الذى نطق به بطرس لم يكن نتيجة لتفكيره الشخصى ، بل هو إعلان الآب لبطرس : « طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات ••• » (متى ١٦ : ١٧) • إن هذا الاعتراف أو قانون الإيمان الذى نطق به بطرس هنا لم يكن إلا وحيا خاصا من الله الآب لبطرس • إن بطرس الذى نطق بهذا الاعلان العظيم كان هـو أيضا كبقية التلاميذ تسيطر عليه نفس الأفكار ونفس المعتقدات التى كانت تسيطر على كثيرين من اليهود • بل وفى كثير من الأحيان استحوذت الأحلام والأمانى المسيانية على التلاميذ ، الأحلام والأمانى المسيانية التى كان يحلم بها ويشتاق إليها كثيرون من اليهود • ولكى تكون هـذه

الفكرة واضحة فى أذهاننا لنرجع إلى هذا الاعلان الذى نطق به بطرس كما سجله لنا القديس مرقس ، إن هذا الاعلان كان إعلانا سماويا من قبل الآب ، الآب نفسه هو الذى أعلن لبطرس هذه الحقيقة • والفرق شاسع واسع بين هذا الاعلان الموحى به من الآب لبطرس وبين عقيدة وإيمان بطرس الشخصى فى يســوع الناصرى • فإن إيمــان بطرس الشخصى فى يسوع كان شبيها بمعتقدات كثيرين من اليهود فى عصره الذين كانوا يؤمنون بأن المسيا سيأتى ، لا لكى يتألم ويموت بل لكى يخلص شعبه من الذل ويمجدهم • ولقد قال الدكتور فهيم عزيز عن حق : « فالتلاميذ لم يكونوا مستعدين أن يتقبلوا هذا الاعلان • إنهم كانوا ينتظرون ابن الانسان صاحب السلطان ، أما عبــد الرب الذى يموت ، فلم يحلموا به »(١) • ولهذا السبب عينــه فإن بطرس الذى يعترف بأن يسوع هو المسيح ابن الله الحى ، هو نفسه الذى ينتهـر المسيح بشدة عندما يتكلم عن آلامه وموته • وعندما نقرأ هذا الفصل (مرقس ٨ : ٢٧ ــ ٣٨) بشىء من التدقيق نلاحظ تحولا عظيما وعجيبا فى تعليم السيد ، ، فيسوع يصل إلى قيصرية فيلبس حيث شيد أربعه عشر مذبحا للآلهة المختلفة ، وهنا يسأل السيد سؤاله العظيم : « من يقول الناس إنى أنا ؟ ••• هل أشبه واحدا من هذه الآلهة التى نصبت تماثيلها فى هذه المدينة ؟ » • وكان جواب بطرس الذى أوحاه إليه الآب : « أنت المسيح ابن الله الحى » • فبعد هذا الاعلان الذى أعلنه الآب لبطرس ، نلاحظ هذا التحول الغريب العجيب فى تعليم المسيح ، فقبل هذا الاعلان لم يتكلم المسيح كثيرا عن آلامه وموته • وأما الآن ، أى بعد هذا الاعلان ، فإن السيد بدأ يتكلم بوضوح وصراحة عن موته • ومتى يقول : « من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبــة

(١) راجع كتاب ملكوت الله للدكتور فهيم عزيز ص ١٧٤ (صدر عن دار الثقافة المسيحية) سنة ١٩٧٠ •

ويقتــل وفى اليوم الثــالث يقوم ٠٠٠ » (متى ١٦ : ٢١) « من ذلك الوقت » ، أى من الوقت الذى فيه أعلن الآب على فم بطرس هـــذه الحقيقة العظيمة ، حقيقــة أن يسوع هو ابن الله الحى ، بدأ يســوع يعلن لهم طريقا آخر وهو أن هذا الاعلان الذى نطق به بطرس هــو إعلان صحيح ، وأنه فعلا ابن الله الحى ، ولأنه فعلا ابن الله الحى ، سيقبل أن يتألم ويموت بدلا من شعبه ٠ والسيد له المجد كان يرى الخطر الكامن والتجربة القاسية وراء هذا الاعتراف ٠ فلقد عرف أن التلاميذ ، وعلى رأسهم بطرس نفسه الذى نطق بهذا الاعلان ، سوف يفسرون هذا الاعلان تفسيرا جسديا ماديا مثلما فعل الفريسيون ، ولهذا السبب عينه بدأ من هذا الوقت يظهر لهم أنه ينبغى أن يتألم ويموت ٠ وهنــا يعلن يسوع بدوره أيضــا إعلانا هاما لا يقــل أهمية عن إعلان الآب لبطرس ، وإعلان المسيح هذا يتضمن أنه لا بد أن يتألم ويموت ٠ وكأنى بهذا الإعلان يقطع عليهم الطريق الذى يوصلهم إلى مسيا سياسى ٠ وهنا نلاحظ رد فعل بطرس ، الشخص الذى أعلن من لحظات فقط بأن يسوع هو المسيح : « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره » (مر ٨ : ٣٢) ٠ وهناك سببان دفعا بطرس لانتهار المسيح :

١ ـــ مع أن بطرس هو الذى نطق بهذه الحقيقة العظيمة التى أوحى له بها الآب إلا أنه لم يفهمها فى بادىء الأمر إلا بطريقة جسدية مادية ، أى أنه ابن الله الحى الذى يمكن أن يخلص اسرائيل من الاستعمار ويرد له حريته ٠

٢ ـــ إن الذى دفع بطرس لانتهار المسيح هو أن يسوع تكلم علانية عن موته : « وقال القول علانية » (مر ٨ : ٣٢) ، وكأنى ببطرس يقول للمسيح منتهرا إياه : « يا يسوع ألا تعلم أنك تعثر الشعب ، بل أنك

تحطم آمالهم عندما تقول هذا الكلام أمام الجميع الذين ينتظرون أنك تخلصهم وترد لهم الملك وترجع لهم السلطان والسيادة على بلادهم ؟ » ومرقس يواصل قصته بالقول : « فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلا : اذهب عنى يا شيطان » (مر ٨ : ٣٣) • والتلاميذ كلهم كانوا يشاركون بطرس فى هذا اللوم الموجه للسيد لأنهم كانوا يشاركونه نفس الآمال والأحلام • ولهذا السبب يوجه السيد هذه الكلمات القاسية على مسمع ومشهد منهم ، وهى نفس الكلمات التى وجهها للشيطان الذى جاء إليه مجربا على الجبل • فإن التجربة التى جرب بها الشيطان السيد هى بأن يكون مسيا سياسيا ، ولقد رفض يسوع هذا الطريق ، ولكن الشيطان لم يفشل فبالرغم من أنه حاول تجربة السيد بثلاث تجارب ، إلا أنه بعد آخر تجربة يقول القديس لوقا : « ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » (لو ٤ : ١٣) • فإن إبليس لم يترك السيد بعد التجربة على الجبل إلا إلى حين • وهنا نراه الآن وقد رجع إليه فى شخص بطرس ، وسيرجع إليه فيما بعد فى ظروف مختلفة متنوعة وفى أشخاص كثيرين •

والجدير بالذكر أن سؤال المسيح : « من تقول الجموع إنى أنا » وإعلان الآب لبطرس : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » ، هذا السؤال وهذا الاعلان قد حدثا بين التلاميذ والمسيح ، ولم تسمع الجموع السؤال والجواب • فلوقا يسجل لنا هذا الأمر بالقول : « وفيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه ، فسألهم قائلا من تقول ••• » (لو ٩ : ١٨) • وهذا الأمر يلفت أنظارنا الى حقيقة فى غاية الأهمية ، وهى أن يسوع كان يحاول جاهدا أن يخفى نفسه كمسيا عن الجماهير ، لذلك عندما كان يلاحظ وجود بعض الثغرات التى من خلالها كان يمكن للجماهير أن تراه كمسيا ؛ كان يسرع لاغلاقها ، ولهذا السبب فقد سأل المسيح تلاميذه على انفراد حتى لا تسمع الجماهير إجابة بطرس بأنه

ابن الله ، ولهذا السبب أيضا يعلن المسيح ليس على انفراد لتلاميذه فقط بل للجميع : « وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى ... » (لو ٩ : ٢٣ ـ ٢٧) . وكأن السيد يريد بهذا التصريح أن يحول أنظار تلاميذه أولا ، وأنظار الجماهير ثانيا إلى حقيقة هامة : وهى أنه ليس هو المسيا الذى نسجه خيال وأحلام اليهود : أى المسيا السياسى ، وأن الطريق الذى يريد لشعبه أن يسلك فيه ، طريق وعر صعب ، يختلف تمام الاختلاف عن كل الطرق التى نادى بها المسايا الكذبة الذين جاءوا قبله . فإن المسايا الكذبة الذين جاءوا قبله وعدوا الشعب بالاستقلال والحرية وإرجاع الملك لاسرائيل ، وأما يسوع فمن أول الطريق يعلن للذين يريدون أن يتبعوه بأن الطريق الذى سيسيرون فيه طريق ضيق وكرب (متى ٧ : ١٤) بل وطريق حمل الصليب وإنكار الذات ، بل أكثر من ذلك أنه طريق الموت . إن هذا الاعلان الذى أعلنه يسوع علانية للتلاميذ وللجماهير أيضا كان سبب عثرة ليس فقط للجماهير بل للتلاميذ أيضا . لأن الجماهير كانت تتوقع ظهور المسيا قريبا . وأما التلاميذ فقد رأوا فيه المسيا الذى حلموا به ، أى المسيا الذى سيحطم قوة العدو ويرجع السلطان لأمة إسرائيل ، وليس المسيا الذى يتكلم عن ضعفه وصلبه (يو ١٢ : ٣٤) . ولهذا السبب أيضا ينتهر بطرس يسوع عندما يتكلم عن ضعفه وعن موته ، لأن التلاميذ فى أحيان كثيرة كانوا ينظرون إلى يسوع كالمسيا الذى توقعته الجماهير ، وبمجيئه سيأتى ملكوت الله ، وفى هذا الملكوت سيحتلون مراكز القيادة والعظمة ، لدرجة أنه فى بعض الأحيان كانوا يتشاجرون عندما كانوا يثيرون مشكلة القيادة والعظمة واحتلال المركز الأول فى ملكوت الله : « وكانت بينهم أيضا مشاجرة من منهم يظن أنه يكون أكبر ... » (لو ٢٢ : ٢٤ ، ٩ : ٤٦ ـ ٤٨ ، مر ٩ : ٣٣ ـ ٣٧) . ألم تطلب أيضا أم يعقوب ويوحنا من السيد بأن يكون ابناها فى صدارة

مكان العظمة والقيادة فى ملكوته ؟ : « قل أن يجلس ابناى هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار فى ملكوتك ... » (متى ٢٠ : ٢٠ — ٢٨).

وهذا الأمر واضح جلى فى النقاش الذى دار بين تلميذى عمواس وبين السيد نفسه ، عندما قالا له : « ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى اسرائيل ... » (لو ٢٤ : ١٣ — ٢٧) فلقد كانت آمال الرسل فى يسوع تتشبه إلى حد كبير آمال اليهود فى المسيا السياسى . ولهذا فعندما مات يسوع على الصليب ولم يصل إلى تحقيق هذه الآمال التى كان يحلم بها اليهود (لو ٢٤ : ٢١) خابت آمالهم وتحطمت نفسيتهم لدرجة أن أشجعهم قال : « أنا ذاهب لأتصيد ، قالوا له نذهب نحن أيضا معك ... » (يو ٢١ : ٣ — ٦) . ومن هذا يتضح كيف أن بعض التلاميذ قرروا الرجوع إلى بعض الحرف القديمة مثل الصيد ، بعد أن تحطمت آمالهم على خشبة صليب الجلجثة (لو ٢٤ : ٢١ ، ١ : ٦٨ — ٦٩) .ومن العجيب أن هذا المفهوم الخاص بمسيانية المسيح وإرجاعه الملك لاسرائيل ، كان متسلطا ومسيطرا على التلاميذ بعد موته وقيامته، ويمكننا أن نستنتج ذلك من سؤالهم الذى طرحوه على يسوع بعد قيامته وقبل صعوده : « أما هم المجتمعون فسألوه قائلين يا رب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ » (أع ١ : ٦) .

مما سبق يتضح لنا مفهوم التلاميذ الخاص عن يسوع كان يشبه الى حد كبير مفهوم كثيرين من اليهود معاصريهم . والسؤال الذى يجب أن نسأله الآن هو : « هل تمسك التلاميذ بهذا المفهوم وعلموا به على طول الخط ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أن نلاحظ ثلاث مراحل فى حياة التلاميذ والرسل :

المرحلة الأولى : هى التى فيها تقابلوا وعاشوا وتناقشوا مع الرب فى أثناء وجوده على الأرض .

المرحلة الثانية : هى الفترة التى نسميها فترة التيتم ، أى فترة الخمسين يوما التى قضاها التلاميذ من بعد قيامة المسيح إلى حلول الروح القدس .

المرحلة الثالثة : هى فترة الامتلاء والاعلان ، فترة القوة .

لقد سبق أن رأينا مفهوم التلاميذ فى المرحلة الأولى أما فى المرحلة الثانية ، مرحلة التيتم ، فهى الفترة التى استطاع خلالها التلاميذ أن يفكروا ويتأملوا جديا فى كلمات يسوع وعظاته وتعاليمه التى نطق بهنا والتى سمعوها . لقد كانت الفترة ما بين صلبه وحلول الروح القدس ، هى فترة صلاة . وتأمل وتفكير فى العلية . إنها فترة الاجترار . ففى هذه الفترة التى شعروا فيها بأنهم أيتام فعلا بعد صعود المسيح وقبله حلول الروح القدس ، استطاعوا أن يفكروا بتعمق فى شخصية يسوع الناصرى . وتختم هذه الفترة بالحادثة العظيمة المجيدة — أى باتمام الوعد الذى وعد به السيد تلاميذه ، بأنه لن يتركهم يتامى (يو ١٤ : ١٨) بل سيرسل لهم روح الحق ، الروح الذى يسكن فيهم ، ويبكت العالم أيضا على خطية وعلى بر وعلى دينونة (يو ١٦ : ٨) فهو الذى سيعلمهم الحق وكل الحق (يو ١٥ : ٢٦ ، ٢٧ ، يو ١٦ : ٥ — ١١) . فعندما حل الروح القدس على الرسل يوم الخمسين ، غير ونظف عقول الرسل من المفاهيم العتيقة الخاصة بالمسيا الأرضى . هذه المفاهيم التى كانت تسيطر على عقول اليهود وعلى عقول الرسل ، تغيرت تماما ، كليا وجزئيا ، عندما نزل الروح القدس عليهم : « ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معا بنفس واحدة ... وامتلأ الجميع من الروح القدس ... »

(أع ٢ : ١ ــ ٤) • ولم يحدث هذا التغيير الشامل إلا بعد حلول الروح القدس •

ومن الغريب المدهش أن هذا التغيير لم يشمل فقط الناحية التعليمية، أى أن مفهوم الرسل الخاص بالسيد هو الذى قد تغير فحسب ، بل أن سلوك التلاميذ نفسه قد تغير أيضا • فبعد نزول الروح القدس عليهم بدأوا فى المرحلة الثالثة ، مرحلة الامتلاء والاعلان ، أو مرحلة القوة والنشاط العملى • والتغيير الذى حدث فى تعاليمهم عن المسيح وفى مفهومهم ، له مظاهر واضحة ، فهم لا يعلمون بعد بمسيا سياسى سيخلص إسرائيل من الاستعمار ، بل بمسيا حقيقى سيخلص الشعب من خطاياه وأحماله الثقيلة : « فليعلم يقينا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم ربا ومسيحا » (أع ٢ : ٣٦ ، فى ٢ : ١١ ، أف ١ : ٢١) « هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليعطى اسرائيل التوبة وغفران الخطايا ، ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضا الذى أعطاه الله للذين يطيعونه » (أع ٥ : ٣٠ ــ ٣٢) • ما أعظم هذا التغيير الذى حدث فى حياة الرسل بعد حلول الروح القدس ! ! فقبل أن يحل الروح القدس عليهم نسمع أشجعهم يقول مرتعبا أمام جارية وهو « يلعن ويحلف أنى لا أعرف هذا الرجل الذى تقولون عنه » (مر ١٤ : ٦٦ ــ ٧٢) بل إن التلاميذ كلهم تركوه وهربوا (مر ١٤ : ٤٨ ــ ٥٢) • وبعد موته بحثوا لأنفسهم عن مكان آمن يختبئون خلف أبوابه التى كانوا يغلقونها بإحكام لسبب الخوف من اليهود (يو ٢٠ . ١٩) ، أما بعد نزول الروح القدس فقد تحول ضعفهم إلى قوة ، وجبنهم إلى شجاعة وخوفهم إلى ثبات ، وشكوكهم الى ايمان عميق وشهادة لامعة • فبطرس الذى أنكر سيده أمام جارية ، يعلن أمام الرؤساء والشيوخ بأن يسوع الذى صلبوه هو رب ومسيح (أع ٤ : ١٠ ــ ١٢ ، ٥ : ٣٠ ــ ٣٢) • فليس هو المسيا الذى ابتدعه الخيال

اليهودى ، بل هو ابن الله الحى مخلص العالم . هو حجر الأساس الذى يجب أن يوضع عليه كل أساس (أع ٤ : ١٠ — ١٢ ، رو ٩ : ٣٣ ، أف ٤ : ١ ، ١ بط ٢ : ٥ — ١٠ ، لو ٢٠ : ١٧) .

مما سبق يظهر واضحا أن مفهوم التلاميذ تغير تغييرا كليا وجزئيا، بعد حلول الروح القدس . وستكون لنا الفرصة بأن نرجع إلى هـذا الموضوع عندما نتكلم عن مفهوم الرسل لشخص المسيح يسوع وماذا رأوا فيه .

الفصل الثامن

مفهوم يسوع عن نفسه

عندما جاء المسيح مع تلاميذه إلى قيصرية فيلبس سألهم السؤال الآتى : « من يقول الناس إنى أنا ؟ فأجابوا يوحنا المعمدان وآخرون ايليا ... فأجاب بطرس وقال له : أنت المسيح » (مر ٨ : ٢٧ — ٢٩).

فى الصفحات السابقة حاولنا أن نبين أن هذا السؤال الذى طرحه السيد على تلاميذه على انفراد فى قيصرية فيلبس ، كان مطروحا أيضا على الجماهير بطريقة غير مباشرة ، لأنها عندما وجدت وجها لوجه أمام المسيح ، حاولت هى أيضا بدورها أن تجيب على هذا السؤال . ولقد سبق أن رأينا جواب الغيورين وموقفهم من يسوع ، فإن هؤلاء رأوا فى المسيح فى بادىء الأمر المسيا السياسى الذى سيحرر الأرض المحتلة، الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن ، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ (متى ٣ : ١٢) . ثم رأينا جواب الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين على سؤال يسوع السابق . وبما أننا ندرس تاريخ الفكر المسيحى وتطوره أو بالمعنى الأصح ، تاريخ العقيدة المسيحية بخصوص شخص الرب يسوع المسيح ، وبما أننا وصلنا أيضا إلى هذه الحقبة من الزمان ، أى الوقت الذى ظهر فيه السيد

على الأرض ، وبعد أن عرفنا شيئا عن التيارات السياسية والدينية التى كانت تسيطر على المجتمع حينذاك وما هى الطوائف الدينية والسياسية المنتشرة فى فلسطين فى تلك الفترة وما هو جوابها على سؤال يسوع الناصرى فى قيصرية فيلبس ، وبعد أن درسنا أيضا مفهوم التلاميذ أنفسهم عن المسيا ، نجد من الضرورى أن نردد السؤال الذى أثاره كثيرون من اللاهوتيين : « ما هو مفهوم يسوع الناصرى عن المسيا ؟ وهذا السؤال يقودنا إلى عدة أسئلة أخرى :

(أ) هل كان يسوع يشارك اليهود فى المفهوم العام والمنتشر عن المسيا ؟

(ب) هل كان يسوع يعرف بأنه هو نفسه المسيا ؟

(ج) ومتى أدرك هذا الأمر ، أى هل توجد لحظة معينة استطاع فيها أن يتأكد من حقيقة مسيانيته ؟

(د) وهل حاول أن يعلن مسيانيته للشعب أم أن يخفيها عنه ولماذا ؟

هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى يثيرها الذين يدرسون حياة وتعاليم المسيح .

ويمكننا أن نلخص هذه الأسئلة فى هذا السؤال : « ماذا يقول يسوع الناصرى عن المسيح ، المسيا ؟ » .

ولكن قبل أن نحاول الاجابة على هذه الأسئلة وخصوصا السؤال الأخير ، يحسن بنا أن نلقى نظرة ولو سريعة على التيارات اللاهوتية المختلفة وموقفها من شخصية يسوع الناصرى . أو بعبارة أخرى ، ما هو جواب التيارات اللاهوتية على هذا السؤال: «من يقول الناس إنى أنا ؟» . إن هذا السؤال احتل المكانة الأولى فى حياة الكنيسة وتعاليمها على مر

العصور ، ولذلك فقد ظلت تردده على الذين انتموا إليها • ولكن أجوبة هؤلاء تنوعت واختلفت باختلاف وتنوع التيارات اللاهوتية التى انضموا إليها وساروا فى مجراها • ولكى نتحاشى الدخول فى التفصيلات الصغيرة والبسيطة ، يمكننا أن نلخص الاتجاهات اللاهوتية المختصة بمسيانية يسوع فى ثلاث اتجاهات لاهوتية :

١ — العصريون المتطرفون :

فى الفصل الذى تكلمنا فيه عن حركة النقد التاريخى ، رأينا موقف بعض اللاهوتيين المتطرفين الذين يظنون بأن يسوع كان يهوديا وظل يهوديا ، ولم يفكر فى أن يخلق ديانة جديدة ، وكل ما كان يسعى إليه هو الحصول على تحرير فلسطين من الاستعمار الرومانى • ولقد حاول جاهدا أن يفهم الشعب بأنه ابن الله ، أى المسيا ، ولكن خطته فشلت ، بل أودت به إلى الموت (رأى ريمارس (REIMARUS) ولقد سلك هذا الطريق أيضا رينان الذى قدم لنا يسوع كالشاب الحلو الحالم الذى كان يجول فى قرى الجليل وهو باسم للحياة ، وقد خلق منه أتباعه صانع المعجزات ، أى المسيا : الأمر الذى قاده فى نهاية المطاف إلى الموت • ثم جاءت طائفة ، بل طوائف أخرى حاولت الاجابة على سؤال يسوع : « من يقول الناس إنى أنا » فقالوا : إن يسوع يعتبر مصلحا اجتماعيا عظيما ، بل حكيما ومعلما قديرا ، يفوق كل المعلمين والحكماء الذين سبقوه (رأى GOTTOL POULUS) •

ويقول بولتمان فى كتابه (يسوع (JESUS)) ص ٣٣ — ٣٦ : « إن يسوع لم يعتبر نفسه المسيا ••• » • إلا أنه يتساءل فى كتاب آخر (١)

---

(١) نرجو ملاحظة أن بولتمان يستعمل هنا كلمة Legende وليس كلمة Mythe ص ٢٦ بنفس الكتاب Theology of the N. T. V.I P. 25-32

قائلا : « هل كان يسوع يعلم بأنه هو المسيا ؟ » ثم يواصل بولتمان شرحه بالقول : « يمكننا أن نقبل عقيدة الكنيسة الأولى المختصة بمسيانية يسوع إذا كان يسوع نفسه دعا إلى ذلك وعلم به ، أو على الأقل أعلن مسيانيته لتلاميذه » • ولكن هل هذه الحجة صحيحة ؟ لأنه يحتمل أن مفهوم التلاميذ لمسيانية يسوع يشبه مفهومهم لقيامته • وبولتمان يظن أن كلا من اعتراف بطرس : « أنت المسيح » ، وحادثة التجلى والعماد والتجربة فى الصحراء ما هى إلا قصصا فيها نوع من الخرافة(١) • ولكى نوضح النص السابق الذى يتكلم فيه بولتمان عن عدم التأكد مما إذا كان يسوع قد علم بمسيانيته أم لا ، نقتبس نصا آخر لنفس الكاتب : « إنه ليس فى استطاعتنا أن نعرف سمات يسوع وحياته وشخصيته ••• إذ أنه لا يمكن أن نثبت صحة أى كلمة من كلامه • وكل ما يمكن لنا أن نقوله عن حياة يسوع وعن شخصيته هو ألا نقول شيئا ••• وذلك يرجع إلى عدم التأكد مما إذا كانت هذه الأقوال هى فعلا أقوال المسيح أم هى اضافات من الكنيسة الأولى » •

والذين درسوا حركة النقد التاريخى يعرفون أن كثيرين من العصريين يقولون بأن الأناجيل الأربعة التى بين أيدينا الآن ، تحتوى على اضافات كثيرة أضافها الرسل من عندياتهم ، ونسبوها للمسيح ولا يوجد لها أصل حقيقى فى أقوال يسوع • وقد أضاف الرسل أنفسهم هذه الأشياء من معجزات وأحداث وقصص ••• الخ • لكى يشرحوا بها وعن طريقها عقيدة الكنيسة الأولى فى المسيا وسلطانه المطلق • فالعصرى (المودرن) عندما يقرأ فصلا من الفصول الإنجيلية ، يسأل هذا السؤال : « هل هذا الفصل هو فعلا وحقيقة أقوال المسيح التى نطق بها فى حياته على الأرض ، أم هو فصل من صنع الكنيسة الأولى التى أرادت أن تعبر

(١) راجع كتاب بولتمان R. B. Bultmann.. Jésus. 33 - 36.

به عن إيمانها وعقيدتها فى المسيا ؟ » لذلك ظن كثيرون من العصريين ، كما يشير إلى ذلك الأسقف برنار بارثمان ، بأن يسوع لم يعتبر نفسه المسيا بل أن التلاميذ هم الذين أعطوه هذا اللقب بعد موته وقيامته من الأموات، الأمر الذى كان يرفضه بشدة أثناء حياته على الأرض(١) •

مما سبق يتضح لنا أن العصريين يرفضون حقيقة أن يسوع كان يعتبر نفسه مسيا ، وذلك لعدم التأكد مما إذا كانت هذه النصوص الخاصة بمسيانيته ، هى نصوص قد نطق بها فعلا السيد أم نسبت إليه من الكنيسة الأولى •

٢ ــ الوسطيون :

أما الاتجاه اللاهوتى الثانى فيمكننا أن نسميه موقف الوسطيين • فما هو جواب الوسطيين على سؤال يسوع السابق : « من يقول الناس إنى أنا ؟ » •

إن الوسطيين يقدمون لنا يسوع كانسان كامل فى تكوينه البيولوجى والنفسى ، كان ينمو نموا طبيعيا بعد ميلاده الطبيعى • ولوقا يقول : « كان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (لو ٢ : ٥٢)• وهناك شواهد كثيرة تدل على ناسوت المسيح مثل (لو ١٠ : ٢١ ، يو ١٢ : ٢٧ ، مر ١٤ : ٣٤ ، عب ٢ : ١٧ ، ١٨ ، عب ٥ : ٧) • ويعترف هذا الفريق من اللاهوتيين بأن يسوع قد قام بأعمال عظيمة وسامية جدا ، وقد عاش فى حياته حياة البر والقداسة ، بل حياة الطاعة الكاملة لله • وبهذه الروح ، روح الطاعة الكاملة والخضوع المطلق لله ذهب المسيح ليس فقط إلى أورشليم ثم إلى الصليب ، بل قبل بشجاعة منقطعة النظير

(1) MGR. Barthmann Précis de Theogie Dogmatique. pp. 352 – 254.

الموت ، ولهذا السبب قد رفعه الله إلى منصبه كإله • ويقتبس الوسطيون (ف ٢ : ٥ ـ ١١) • ومما لا شك فيه أن الوسطيين يرتكبون خطأ شنيعا فى تعليمهم بأن يسوع رفع إلى درجة إله ، وستكون لنا الفرصة لنتحدث عن ذلك عندما نتكلم عن طبيعتى المسيح •

أما بخصوص مسيانيته ، فهم يقولون بأن يسوع كان يشعر بدعوة داخلية تدفعه للعمل • ولقد رافقه هذا الشعور وهو صبى صغير فى الثانية عشرة من عمره ، ألم يقل لمريم ويوسف فى عيد الفصح عندما صعدوا إلى أورشليم : « لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فيما لأبى » (لو ٢ : ٤٩) • ويقول المتمسكون بهذه النظرية بأن هذا الشعور كان ينمو ويزداد عند يسوع كل يوم إلى أن جاءه الصوت الذى أعلن له هذا الأمر فى حادثة العماد ، فإن هذا الصوت الذى جاء من السماء كان غرضه أن يؤكد ليسوع أنه ابنه الحبيب : « أنت ابنى الحبيب » (لو ٣ : ٢١) • ففى هذه اللحظة أعلن الله ليسوع أنه هو الشخص الذى سيقوم بتأدية الرسالة الخطيرة والسامية التى يشعر بعظمتها فى داخله • فإن الصوت الذى كان يتكلم داخل يسوع هو البرهان المرسل من الله لكى يقنعه بصلاحيته وحقيقة هذا الشعور بأنه ابن الله ، المسيا • ونزول الروح القدس على هيئة حمامة (أى بصورة منظورة) كان برهانا محسوسا منظورا وعمليا لكى يبرهن بطريقة واضحة على مسيانيته ، ليس فقط له بل وللذين كانوا ينظرون الروح نازلا عليه فى هيئة حمامة • وهنا فى حادثة العماد ، يتحقق يسوع من الأمر الذى لم يكن متأكدا منه من قبل وهو مسيانيته وبنويته لله • فبحسب هذه النظرية ، فإن يسوع تأكد بطريقة واضحة من رسالته التى سيقوم بها كمسيا وكابن لله ، بعد العماد فقط •

٣ ـ المحافظون :

ولقد أجاب المحافظون بدورهم على هذا السؤال : « من يقول الناس

إنى أنا » باقتباس اعتراف بطرس : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٦) إن جماعة المحافظين تعتقد بأن يسوع الناصرى ابن مريم هو أيضا المسيح ابن الله . وهذا يعنى بالنسبة لهم أن يسوع لم يكن بطلا أو عالما أومصلحا اجتماعيا ، أو معلما عظيما فاق كل أقطاب عصره ، بل هو أعظم من ذلك بكثير . ويمكننا أن نقول بأن يسوع كان معلما عظيما ، مصلحا اجتماعيا ... الخ . ولكن لا يمكننا أن نقول إن يسوع قد ارتفع إلى درجة العظمة والألوهية لأنه كان رجلا عظيما حكيماً عالما ، مطيعا لله : كما يعتقد الوسطيون . بل إذا كان يسوع حكيما ومعلما ممتازا ومصلحا اجتماعيا ... فذلك يرجع إلى حقيقة أنه كان أولا وقبل كل شيء الله الذى ظهر فى الجسد : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) . عمانوئيل « الذى تفسيره الله معنا » حل بمجده ولاهوته فى أرضنا ، لأنه فيه « يحل كل ملء اللاهوت جسديا» لأن « الكلمة صار جسدا » . (كو ٢ : ٩ ، يو ١ : ١٤ — ١٦) . وهنا يظهر الاختلاف الشاسع بين فكرة العصريين والمحافظين ، فالعصريون يظنون أن يسوع كان إنسانا عظيما ساميا ومصلحا اجتماعيا ، أما المحافظون فيؤمنون بأن يسوع المسيح هو الله الذى حل فى الجسد . كذلك أيضا يظهر الفرق العظيم بين ما يعتقده الوسطيون وما يؤمن به المحافظون . فالوسطيون يظنون أن يسوع ارتفع إلى درجة الألوهية ، بينما يؤمن المحافظون بأن الله نفسه حل بملء لاهوته فى الانسان يسوع الناصرى ، كما يعلم الكتاب المقدس ، الدستور الوحيد للايمان والأعمال.

ومع أن التيارات اللاهوتية الثلاثة التى ذكرناها آنفا تمثل بصفة عامة الاتجاهات اللاهوتية المختلفة الموجودة حاليا فى العالم ، إلا أن كل تيار من هذه التيارات اللاهوتية يضم تحته أيضا تيارات أخرى فرعية ، ويعوزنا الوقت لو دخلنا فى تفصيلاتها الدقيقة . وفى هذه المذاهب اللاهوتية الثلاثة ، رأينا كيف أجاب ويجاوب كل مذهب لاهوتى على

سؤال يسوع الناصرى فى قيصرية فيلبس : « من يقول الناس إنى أنا » . ومما لا شك فيه أن كل مذهب من هذه المذاهب اللاهوتية المختلفة حاول بقدر الإمكان الرجوع إلى المكتوب لكى يؤيد نظريته . فالعصريون أنفسهم ، الذين يظنون بأن التلاميذ نسبوا أقوالا كثيرة إلى يسوع ، قد رجعوا هم أيضا إلى الكتاب لكى يؤيدوا فكرتهم . وعلى أية حال إن مشكلة النصوص التى نطق بها السيد والنصوص التى نسبت اليه مشكلة معقدة شائكة : حتى أن علماءهم لا يستطيعون أن يبتوا بكيفية صحيحة وأكيدة فى الفصول التى نطق بها السيد ، والفصول التى لم ينطق بها . ومن هذا يتضح أن العلماء العصريين غير متأكدين هم أيضا من صحة حكمهم هذا . وهنا يتساءل بيبنبرج (C. PIEPENBRING) قائلا : « هل يجب أن نقبل ما يقوله مرقس (٨ : ٢٧ — ٣٠) والفصول الأخرى الإنجيلية التى تعلمنا بأن يسوع كان يعتقد فى مسيانيته ، أو نقبل النقد الحديث الذى يقدم لنا حلا آخر ، وهو أن كل التصريحات الخاصة بمسيانية يسوع قد نسبت إليه عن طريق الكنيسة الأولى ؟[1] » ثم يحث الكاتب على بحث هذه المشكلة مع التمسك حاليا بما هو لدينا .

بعد هذه المقدمة السريعة عما يقوله الناس عن يسوع ، لنرجع إلى سؤالنا الرئيسى وهو « هل كان يعرف يسوع الناصرى أنه المسيا ؟ » .

إن هذا السؤال فى صيغته هذه ، يخفى لنا تيارا عصريا أو وسطيا ، وفى حقيقة الأمر إن كثيرين من العصريين والوسطيين يطرحون هذا السؤال بهذه الصورة ، ولذلك فمن الضرورى قبل أن نتقدم فى بحث هذا السؤال يجب أن نغير صيغته فنقول : « كيف يمكننا أن نعرف أن يسوع الناصرى هو المسيا ؟ ثم ماذا يقول يسوع الناصرى عن يسوع المسيا ؟ »

(1) C. Pieperbring. Jèsus Historique.

وإذا كنا قد غيرنا صيغة هذا السؤال الذى يسأله المصريون والوسطيون ، فذلك لأنه لا ينطبق إلا على إنسان يبحث عن شخصيته ، فالانسان طوال حياته يبحث وينقب لكي يعرف نفسه على حقيقتها ، ولكى يعرف أيضا بعض الشخصيات التى تحيط به وتتعامل معه ، أما يسوع فلا ينطبق عليه هذا القول لأنه كان يعرف نفسه جيدا ، يعرف من أين أتى وإلى أين يذهب كما يقول هو نفسه للفريسيين : « ••• وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتى حق لأنى أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب ••• » (يو ٨ : ١٤) •

ولكى يكون الأمر واضحا فى أذهاننا يجب أن نميز بين يسوع المسيا الحقيقى والمسيا الذى كان ينتظره اليهود ، فإن المسيا الذى كان ينتظره اليهود هو مسيا سياسى دينى يخلص الشعب من الاستعمار الرومانى ويصبح قائدا سياسيا على رأس دولة ثيوقراطية مستقلة • الأمر الذى رفضه يسوع رفضا باتا فى كل حياته وتصرفاته (يو ٦ : ١٥) •

ومن هذا يظهر بأن يسوع لم يشارك معاصريه فى مفهومهم للمسيا ، فإن هؤلاء كانوا ينتظرون مسيا يحطم أعداء شعب الله ويسحقهم سحقا، كما أنه لم يشارك معاصريه أيضا فى تخيلاتهم المسيانية بخصوص سلطان شعب الله على الأمم واتساع ملك داود ••• الخ(١) •

وهنا نرى الفرق الشاسع بين مفهوم الشعب اليهودى وانتظاراته الخاصة بالمسيا ، وبين مفهوم المسيح يسوع نفسه عن المسيا ، أى عن نفسه • ولا يليق بنا أن نسأل فيما إذا كان يسوع الناصرى يعرف أم لا بأنه المسيا ، وذلك لأن العهد الجديد يقدم لنا شهادات وشواهد عديدة تثبت حقيقة هذا الأمر •

المسـيا :

(١) ومن هـذه الشهادات التى تعترف بمسيانية يسوع ، قول

---

(١) أنظر كتاب بولتمان بعنوان Jésus ص ١٩ — ٢٦ الطبعة الفرنسية

أندراوس : « قد وجدنا مسيا الذى تفسيره المسيح . فجاء به الى يسوع، فنظر إليه يسوع وقال أنت سمعان بن يونا ، أنت تدعى « صفا الذى تفسيره بطرس » (يو ١ : ٤٢) . « أنت هو الآتى أم ننتظر آخر» (متى ١١ : ٣) . « فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٦) . هذه الاعترافات والتساؤلات توضح لنا حقيقة هامة جدا ، فبغض النظر عن مفهوم السائل فيما يخص المسيا ، فإن النقط الهامة والأساسية التى يجب أن نبنى عليها عقيدتنا المسيحية هى جواب المسيح على السائل . ولقد أجاب السيد بطريقة إيجابية على هذه الأسئلة وعلى أسئلة أخرى فى أماكن أخرى بخصوص شخصيته ومسيانيته . فعندما جاء بطرس مع أخيه أندراوس إلى السيد لم يوبخه ولم ينتهره يسوع على اعترافه هذا ، مما يدل على أنه قبل هذا اللقب حتى وإن كان أندراوس فى هذا الوقت لم يكن يفهم بالضبط الأبعاد الشاملة لهذا اللقب . وفى إجابته على التلميذين المرسلين من قبل يوحنا ، شرح لهما بطريقة واضحة وصريحة دون أن يذكر كلمة مسيا ، بأنه هو فعلا ذلك المسيا . بل أكثر من ذلك ، فإن يسوع طوب بطرس عندما اعترف بوحى من الآب بمسيانيته وقال له : « طوبى لك يا سمعان بن يونا ... » فإن دلت هذه الكلمات الموجهة إلى بطرس على شىء فإنها تدل على مسرة قلب يسوع بهذا الاعتراف العظيم وقبوله له . فالمسيح لم يقبل فقط هذا اللقب . بل قبله بسرور عظيم . وإن كنا نلاحظ فى دراستنا للكتاب المقدس بأن السيد منع التلاميذ والجماهير والشياطين من أن يتكلموا عن مسيانيته علانية ، فهذا لا يعنى أنه رفض لقب المسيا .

وبما أننا ندرس موضوع مسيانية يسوع ، يحسن بنا أن نرجع إلى ثلاثة فصول تعتبر من الفصول الهامة جدا بخصوص هذه المشكلة (متى ٢٦ : ٥٩ — ٦٨ ، مرقس ١٤ : ٥٣ — ٦٥ ، لوقا ٢٢ : ٦٦ — ٧٠) . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الفصول (مر ١٥ : ٢ — ١٥) . والذى يهمنا

من هذه النصوص المذكورة أعلاه هو سؤال رئيس الكهنة وجواب يسوع عليه . وهذا هو السؤال الذى طرحه قيافا على يسوع : « أأنت المسيح ابن المبارك » (مر ١٤ : ٦١) .

إن هذا السؤال سؤال خبيث شيطانى ، يحمل فى طياته شركا لا مفر منه سواء أكانت إجابة يسوع عليه بالايجاب أو بالنفى ، وهو يذكرنا بالسؤال الذى قدمه له الهيرودسيون والفريسيون ، عندما سألوه قائلين: « أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا » (متى ٢٢ : ١٧) . وهنا يمد رئيس الكهنة نفس الشرك الذى مده الهيرودسيون والفريسيون للايقاع بيسوع : « أأنت المسيح ابن الله المبارك » .

ولقد ذكر الإنجيليون الثلاثة (متى ٢٦ : ٦٣ ، مر ١٤ : ٦١ ، لو ٢٢ : ٦٧) كلمة المسيح أى المسيا . ففى هذه الكلمة (المسيح أو المسيا) يخفى رئيس الكهنة سمه القاتل ، فلو أجاب المسيح بنعم ، لأصبح متهما أمام السلطات الرومانية بأنه مثير شغب يسعى لتأسيس مملكة يهودية لا تخضع لسلطان قيصر ، وهذا ما كان يرمى إليه قيافا من سؤاله : « أأنت المسيح .. » . فإذا ثبتت هذه التهمة على يسوع ، لتولى الرومان محاكمته وصلبه . ويحتل عندئذ رئيس الكهنة نفس المكانة التى احتلها بيلاطس عندما أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا : « إنى برىء من دم هذا البار » (متى ٢٧ : ٤) . ثم لو أجاب المسيح بالنفى أى بأنه ليس المسيا فإنه بهذا الجواب يخيب آمال اليهود الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إعلانا من هذا القبيل . وبهذا الاعتراف يصبح يسوع فى أعين الشعب مسيا كاذبا لا أمل فيه ولا رجاء منه فى أن يخلص الشعب من الاستعمار ، بل لأصبح عثرة للجماهير ، يجب التخلص منه والقضاء عليه . هذا هو الهدف الذى كان رئيس الكهنة يريد إصابته بسؤاله هذا السؤال .

ولقد رأى بعض المفسرين فى النص الذى يسجله لنا متى نوعا من الغموض والابهام وعدم الوضوح فى إجابة يسوع لرئيس الكهنة فسؤال رئيس الكهنة ليسوع هو : « هل أنت المسيح ابن الله ، قال له يسوع أنت قلت » (متى ٢٦ : ٦٣ — ٦٤) .

ويقول العارفون باللغة الأرامية ، إن جواب المسيح يحتمل الايجاب والنفى . فكأن المسيح يجاوب رئيس الكهنة على هذا السؤال بالقول : أنت الذى تقول إنى المسيح ، ولست أنا الذى يقول ذلك . ومن هذا يتضح كما يعتقد هؤلاء المفسرون أن جواب المسيح كان جوابا ملتبسا .

ولكن عندما نرجع إلى النص الذى سجله لنا القديس مرقس نرى أن إجابة المسيح واضحة صريحة لا تحتمل أى نوع من اللبس أو الغموض : « فقال يسوع أنا هو » (مر ١٤ : ٦٢) . فهذا الجواب واضح كل الوضوح ، ففى هذه الساعات الأخيرة يعلن يسوع لليهود بأنه هو المسيح « المسيا » ولكن لكى يميز نفسه عن المسايا السياسيين الذين يدعون بأنهم سيحررون إسرائيل من الاستعمار الرومانى ، يقول : « وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا فى سحاب السماء » ، فانه هو المسيا الذى جاء من فوق والذى سيصعد أيضا إلى فوق ، وكما يقول فى حديثه إلى نيقوديموس : « وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذى نزل من السماء ابن الإنسان الذى هو فى السماء » (يو ٣ : ١٣) . وكأنى بالمسيح يجاوب رئيس الكهنة على سؤاله المسموم الذى يريد به أن يلقى المسيح حتفه ، سواء على أيدى أمته أو على أيدى الرومان : « أنا هو المسيا » ، ولكنى أختلف كل الإختلاف عن المسايا الكذبة الذين انتحلوا لأنفسهم هذا اللقب ، لأنى جئت من فوق وسأذهب أيضا إلى فوق ، فإن الذين اغتصبوا لأنفسهم

هذا اللقب ، ما هم إلا سراقا ولصوصا : « جميع الذين أتو قبلى هم سراق ولصوص » فى هذا الاتجاه •

يجب فهم نص يوحنـــا (١٠ : ٨) ، كما يجب أيضا فهم مرقس (١٤ : ٦٢) لأن يسوع يريد بهذا القـــول أن يعلن لرئيس الكهنـــة وللسلطات الرومانية بأنه فعـــلا المسيا ، إلا أن ارساليته ومسيانيتـــه تختلفان كل الاختلاف عن المسيانيات السابقة ، فإنه جاء لا لكى يسرق ويخطف ويحمل سيفا ويقتل كل من يخالفه فى الرأى والعقيدة كما كان يفعل الغيورون ، بل على النقيض من ذلك : « لأن ابن الإنسان أيضا لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مر ١٠:٤٥) « وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » (يو ١٠:١٠)• فبهذا القول أراد يسوع أن يبين لرئيس الكهنة أنه فعلا المسيا ، ولكنه ليس المسيا السياسى الذى يريد أن يسلمه مقيدا ليد الرومان • ولهذا السبب عينه تندهش كل الاندهاش من موقف بيلاطس وإعلانه الصريح بالقول : « إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان » (لو ٢٣ : ٤) •

ولقد كان من واجب بيلاطس كحاكم رومانى أن يسهر على مصالح روما وإخماد الثـــورات والضرب بشدة على كل الادعـــاءات المسيانية• وبالرغم من ذلك نراه يقف مكتوف الأيدى ، بل ويعلن براءة يسوع ، فهل كان بيلاطس يرى فى يسوع شيئا آخر ، لم يستطع رؤساء الكهنة أو الكهنة أن يدركوه ؟ هل فهم بيلاطس بأن هـــذا الشخص ، يســـوع الناصرى ، يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن كل المسايا الذين ادعوا ذلك؟ هل فهم بأن يسوع هو المسيا ، هو الشخص البار كما حلمت به زوجته: « إيـــاك وذاك البار لأنى تألمت اليـــوم كثيرا فى حلـــم من أجلـــه » (متى ٢٧ : ١٩) إن موقف بيلاطس ، الرجل الذى كان مكلفا من قبل السلطات الرومانية بقمع كل ثورة أو مظاهرة أو إدعاءات مسيانية ،

يدفعنا لطرح الأسئلة التي سبق أن طرحناها • إننا لا نعرف بالضبط لماذا تبنى بيلاطس هذا الموقف ؟ ولكننا نعرف بأنه لو كان متأكداً من أن يسوع كان مسيا سياسيا على نمط المسايا السابقين كما أمكن لـه أن يعلن براءته علانية •

على أية حال ، إن يسوع أعلن بصراحة ووضوح أنه هو المسيا ؛ ولكنه مسيا يختلف اختلافا جزئيا وكليا عن المسيا الذى انتظره الكثيرون من اليهود ، وخاصة الغيورون • والألقاب أو الأسماء التى أعطاهـا يسوع لنفسه أو التى لقبه بها الشعب ، تدل أيضا على مسيانيته • ومن هذه الألقاب •

ابن الانسان (لقد ذكرت فى الأناجيل الثلاثة الأولى ٦٩ مرة ثم ذكرت ١٢ مرة فى الإنجيل الرابع) •

ابن الله ــ ابن داود ــ النبى ــ المسيح ــ الكاهن ــ الملك ــ السيد ــ العبد ــ حمل الله ••• الخ •

ونحن لا نريد أن ندخل فى تفاصيل وشرح كل لقب من هـذه الألقاب ، ولكننا نود أن نقول : إن هذه الألقاب والصفـات التى نعت بها السيد فى العهد الجديد ، ليست هى التى جعلت من يسوع الناصرى ابن مريم ربا ومسيحا ، بل العكس فإن يسوع الناصرى ، ابن مريم ، هو أولا وقبل كل شىء ، وقبل أن يكون ابن مريم ، كان ربا وسيـداً ، الله الذى ظهر فى الجسد•ولهذا السبب عينه فإن هذه الألقاب والصفات التى لقب بها السيد تستمد قوتها وسلطانها من الشخص الذى نسبت إليه ، « اللوجوس » أو « المسيح » •

ونلاحظ أن الأمر هنا يختلف تماما عما يحدث عـادة فى الحيـاة

العملية ، فإن الحاكم يستمد قوته وسلطانه من الدرجة أو المركز او الوظيفة التى أسندت إليه ، والأمير يمنح سلطانا أعظم بعد أن يصبح أميرا ، والملك يزداد نفوذه وسلطانه بعد أن يصبح ملكا ، كذلك الامبراطور يتسع سلطانه أكثر ويعظم مجده ، ويكبر نفوذه عندما يجلس على عرش الامبراطورية . كل هؤلاء يستمدون سلطانهم ونفوذهم وقوتهم من الدرجة أو اللقب الذى يحصلون عليه ، لكن فى حالة يسوع فإن هذه الألقاب : « ابن الانسان » ، « ابن داود » ، « ابن الله » ، « الملك الكاهن » ، « السيد » ، « العبد » ... الخ .

تمجدت ، بل حصلت على شرف عظيم عندما نسبت إلى يسوع . فبانتسابها إليه أصبح لهذه الألقاب والصفات معنى خاص وممتاز . فلم تكن هذه الألقاب بأى حال من الأحوال هى السبب فى مجد وسمو ورفعة يسوع الناصرى ، والتى عن طريقها وبها أصبح ما هو عليه الآن . فقبل أن يعطى لنفسه بعضا من هذه الألقاب ، وقبل أن يمنحه الآخرون ألقابا أخرى ، كما أولا وقبل كل شىء هو « الله الذى ظهر فى الجسد » ، وأمام هذا الأمر العظيم السامى تتصاغر كل الألقاب مهما كان شأنها وعظمتها وشرفها ونفوذها .

من هذا يتضح جليا أن يسوع الناصرى كان يعرف جيدا أنه هو المسيا . ومع أننا قلنا سابقا بأن هذه الصيغة لا تتفق وتعليم الكتاب المقدس ولكننا نستعملها لكى نبين للعصريين أن يسوع كان واعيا ومدركا تماما لمسيانيته . فيسوع كان يعرف ذلك تمام المعرفة وكان هذا الادراك ينمو ويكبر فيه كلما كبر ونما . ألم يرد يسوع على مريم ويوسف اللذين كانا يبحثان عنه فى أورشليم : « فقال لهما لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فى ما لأبى » (لو ٢ : ٤٩) .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :

لماذا لم يؤكد يسوع بشدة مسيانيته ، بل فى كثير من الأحيان منع تلاميذه والجمهور وكذلك الشياطين من أن تعلن ذلك ؟

وعندما ندرس الأناجيل بالتدقيق نلاحظ أن يسوع أمر تلاميذه والجماهير وحتى الشياطين بأن لا تظهره . وهذا لايعنى أنه رفض لقب المسيا لأنه لم يكن المسيا الحقيقي ، بل لأنه أصر على أن يكون أمر مسيانيته خفياً . « آه مالنا ولك يايسوع الناصرى ، أتيت لتهلكنا ، أنا أعرفك من أنت قدوس الله . فانتهره يسوع قائلا : اخرس واخرج منه .... فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة ولم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه » (مر ١ : ٢٥ ، ٣٤ ، ٣ : ١١، ١٢ ، ٤٣ ـ ٤٥ ، ٥ : ٤٣ ، ٧ : ٣٦ ، ٨ : ٣٠) . « وكانت شياطين أيضا تخرج من كثيرين وهى تصرخ وتقول أنت المسيح ابن الله فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح » (لو ٤ : ٤١ ، متى ٨ : ٤ ، ٩ : ٣٠ ، ١٢ : ١٦ ، ١٦ : ٢٠ ، مر ٩:٩ ـ ١٠، لو ٩ : ٣٦) .

وهنا نسأل لماذا كان يسوع فى أحيان كثيرة ، بل فى معظمها ، يحاول بلا تردد ، بل فى اصرار وعزم ، أن يسكت الأصوات التى كانت تنادى بمسيانيته وأن يخرس الشياطين الذين كانوا يريدون أن يظهروه؟ ألم يقل لبيلاطس فى يوم محاكمته عندما سأله هذا السؤال : « أفأنت اذا ملك .... » فأجاب : « لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق ، كل من هو من الحق يسمع صوتى » (يو ١٨:٣٧) . فإذا كان يسوع قد جاء لهذا الغرض ، أى لكى يكون المسيا ، الملك المنتظر ، لماذا كان يحاول اذن فى فترة خدمته العلنية أن يخفى حقيقته عن التلاميذ فى بعض الأحيان وعن الجماهير فى معظمها ... ؟ ألم يقبل

اعتراف بطرس بسرور ورضى ؟ الاعتراف الذى جـاء بوحى من الآب والخاص بمسيانيته : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » • ألم يقل له مشجعا ومهنئا على هذا الاعلان العظيم : « طوبى لك ياسمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات » (متى ١٦ : ١٧)•

من الواضح الجلى أن يسوع لم يرفض لقب المسيا ، فهو لهـذا قد جاء ولهذا ولد • ولكن إذا كنا نرى يسوع يرفض فى أحيان كثيرة بل فى معظمها المظـاهرات والاعلانات والهتافات التى تهدف إلى إعـلان مسيانيته ، فذلك يرجع إلى بعض الحقائق الهامة • وأولى هـذه الحقائق هى :

١ ــ التمييـز :

فعندما تبنى يسوع هذا الموقف ــ أى موقف السرية والخفاء ــ أراد بذلك أن يميز نفسه عن كل الذين ادعوا لأنفسهم هـذا الشرف • فكل الذين سبقوه فى هذا المضمار ، أى الذين نادوا بمسيانتهم والذين وعدوا الشعب بتحريره من الاستعمـار الأجنبى الذى كان جاثما على صدر الامة اليهودية ، لم يكونوا إلا سراقا ولصوصا (يو ١٠:٧ ــ ٨)• ولذلك فقد أراد يسوع أن يميز الشعب بينه (المسيا الحقيقى) وبين كل الحركات والأحزاب السياسية وخاصة الحركات المسيانية المنتشرة فى ذلك الوقت ، والتى منها خرج عدد لا بأس به ، يدعى بأنه المسيا المنتظـر • والمسيا الذى كان ينتظره الشعب فى ذلك الوقت يختلف كل الاختلاف عن شخص الرب يسوع وعن مفهومه للمسيا الحقيقى ، المسيا المخلص للشعب من خطاياه •

فالشعب اليهودى المستعمر كان ينتظر مسيا سياسيا وعسكريـا يستطيع بسيفه وقوته أن يخلص الشعب من براثن الرومان ، ويقـود

الأمة اليهودية كلها لا إلى الاستقلال الوطنى والحكم الذاتى فحسب، بل إلى نصر عظيم شامل ، أى أن الأمم التى كانت تستعبد وتحكم وتسيطر على الأمة اليهودية ، تصبح هى بدورها وبفضل المسيا مستعبدة لأمة إسرائيل ، إن كثيرين من اليهود كانوا ينتظرون مسيا من هذا النوع، مسيا سياسيا وعسكريا • وهذا الاعتقاد لم يسيطر على اليهودى العامى فقط ، بل سيطر أيضا على كثيرين من علماء اليهود ، بل سيطر أيضا على كثيرين من التلاميذ • ولهذا السبب كان سؤال رئيس الكهنة ليسوع : « أأنت المسيح ابن المبارك ؟ » شركا أراد به أن يخيب آمال اليهود الذين وضعوا آمالهم فيه كمسيا وكمحرر لهذه الأمة • وهذا ما أراد يسوع أن يتجنبه ، فمع أن يسوع كان واعيا ومدركا تمام الوعي والادراك بمسيانيته ورسالته الخطيرة ، إلا أنه كان يحاول جاهدا أن يخفى هذا الأمر عن الجماهير وعن التلاميذ فى بعض الأحيان ، لأنه كان يدرك ويعرف الفرق الشاسع والهوة العميقة بين شخصيته (المسيا الحقيقى) وبين مفهوم الجماهير للمسيا المنتظر • وإننا نرى هذا الأمر واضحا كل الوضوح فى الحوار الذى بين يسوع وبطرس بعد أن اعترف هذا الأخير بمسيانية يسوع (متى ١٦ : ١٣ ــ ٢٨ ، مر ٨ : ٢٧ ــ ٣٨ ، لو ١٩ : ١٨ ــ ٢٧) •

إن الدارس المدقق لهذه الفصول المذكورة أعلاه ، يلاحظ تحولا جوهريا وظاهرا فى تعليم يسوع ، فقبل هذا الاعتراف لم يتكلم يسوع بطريقة واضحة وصريحة عن آلامه وصلبه وموته • ولكن بعد أن اعترف بطرس بوحى من الآب بأن يسوع هو المسيح « المسيا » ، يأمر تلاميذه بأن لا يكلموا أحدا عن مسيانيته ، « حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح » (متى ١٦ : ٢٠) فيسوع يأمر تلاميذه باخفاء هذا الأمر •

« من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه ، أنه ينبغى أن

يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وفى اليوم الثالث يقوم • فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلا حاشاك يارب ، لا يكون لك هذا • فالتفت وقال لبطرس اذهب عنى ياشيطان • أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢١ - ٢٣) •

فبعد أن أعلن بطرس هذا الإعلان : أى أن يسوع هو المسيح «المسيا» • « من ذلك الوقت •• » أى من تلك اللحظة التى فيها أوحى الآب لبطرس هذا الوحى الخاص بمسيانية يسوع ، وبعد أن قبل يسوع برضى وسرور هذا الاعتراف مطوبا بطرس من أجله ، بدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ، لا لكى يكون ملكا بل لكى يتألم ويموت • هذا التعليم يعد جديدا على التلاميذ ، فيسوع قد عمل المعجزات أمام أعينهم ، شفى المرضى وحمل رسالة تعزية وتشجيع للمتألمين والحزانى ، بشر بالإنجيل ، ولكنه لم يتكلم قبل ذلك بطريقة واضحة وصريحة عن آلامه وصلبه وموته •

ولقد اندهش ، بل غضب التلاميذ كلهم لهذا التعليم الجديد ، وعلى رأسهم بطرس نفسه الذى اعترف بمسيانية يسوع ، ولذلك فقد « أخذه إليه وابتدأ ينتهره قائلا حاشاك يارب ، لا يكون لك هذا » •

إن بطرس يترجم هنا بسلوكه هذا ، المفهوم العام والمنتشر فى تلك الفترة ، الخاص بالمسيا • فلقد رأى التلاميذ ، كما رأى كثيرون من اليهود ، فى المسيح ، المسيا الذى سيخلص إسرائيل من الاستعمار الرومانى (او ٢٤ : ٢١ ، يو ٦ : ١٥) • أما يسوع - المسيا الحقيقى - فكان يحاول بصبر وطول أناة أن يعلن لهم هذه الحقيقة بطريقة صحيحة ومختلفة عن المفهوم الشعبى الخاص بالمسيا • وعندما أوحى الآب

لبطرس هذه الحقيقة ، حقيقة مسيانية يسوع ، « من ذلك الوقت ... » بدأ يسوع يعلن لتلاميذه أمر آلامه وصلبه وموته . ولقد كان هذا الأمر غريبا كل الغرابة على التلاميذ لأنهم كانوا لا ينتظرون موت المسيح بل انتصاره وملكه ، فكم من المرات حلم بعض التلاميذ بان يحتل أحدهم الكرسى الذى على يمينه وأن يحتل الآخر الكرسى الذى على يساره فى ملكوته العتيد (متى ٢٠ : ٢١) . ألم يتشاجر أيضا التلاميذ فيما بينهم لكى يعرفوا من هو الأكبر ؟ (لو ٢٢ : ٢٤ ـ ٣٠) . لأجل هذه الأسباب أراد المسيح أن يحول أنظار التلاميذ بل الجماهير أيضا ، بعد اعتراف بطرس ، إلى حقيقة سامية عظيمة غابت عن أذهان التلاميذ والجماهير وهى أنه فعلا المسيا ، ولكنه مسيا يختلف الاختلاف كله عن كل الذين سبقوه من المسايا الكذبة ، إنه يتميز عن هؤلاء جميعا بأنه هو الذى سيتألم بدل الشعب ، بل أكثر من ذلك إنه سيموت . وإنجيل مرقس يوضح لنا هذه الحقيقة بالقول : « ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم من أراد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى .. » (مر ٨ : ٣١ ـ ٣٨) .

إن اعتراف بطرس بمسيانية المسيح ، يبدو أنه كان فى حيز ضيق واطار محدود وهو دائرة التلاميذ ، ولكن إعلان يسوع عن موته كان علانية ، « ودعا الجمع مع تلاميذه » . وهذا الأمر أى اعلان يسوع عن آلامه وصلبه وموته ، بطريقة جهارية أمام الجمهور ، أثار غضب بطرس ، « فأخذه إليه وابتدأ ينتهره » أى أن بطرس أخذ المسيح على انفراد وبدأ ينتهره على هذا الاعلان الذى لا يتفق مع المسيانية ومع مستقبله الشخصى ومستقبل ملكوت الله . وكأنى به يقول للمسيح : « ياسيد إن كلامك هذا عثرة عظيمة جدا فى نظر اليهود ، لأن هذا الشعب

المستعمر المذل لايريد ملكا ضعيفا يحمل صليبه ويدعو الجمهور لقبول الصليب وحمله ، بل يريد مخلصا سياسيا وعسكريا ودينياً •

وينظر المسيح إلى بطرس ويرى كل الاحلام المسيانية وأمجادها التي كانت تجول بخاطره (بطرس) وعندئذ يقول : «اذهب عني ياشيطان ، لأنك لاتهتم بما لله لكن بما للناس » (مر ٨ : ٣٣) ، فالمسيح بدوره ينتهر بطرس واصفا إياه بشيطان ، لأنه لايهتم بما لله ولكن بما للناس•

وماذا يعنى المسيح بهذه الجملة ؟ ما هو عـدم الاهتمام بما لله والاهتمام بما للناس ؟ لقد عرف المسيح أن بطرس ، حتى بعـد اعترافه بمسيانيتـه ، كان يشارك معاصريـه فى أفكارهم ومفهومهـم الخاص بالمسيا ، أى أن المسيح أو المسيا يجب أن يكون قويا جبارا محاربـا محنكا يناضل لتحرير البلاد من الاستعمـار ، لكى ترجـع السلطـة والسيادة إلى إسرائيل (إرجاع الملك الى اسرائيل) (أ ع ١ : ٤ ـ ٦)• وهـذا يعنى أن أفكاره وأفكار الشعب الخاصة بالمسيا لاتهتـم بما لله ولكن بما للناس ، لأن كل هم اسرائيل كان منصبا فى ذلك الوقت ليس فقط على تحرير بلادهم من العـدو المستعمر الرومانى ، بل أيضا على اتساع ملك اسرائيل وسيطرتـه على الأمم المحيطـة به • هـذه هى الطموحات والآمال والأحلام التى كانت تسيطر على الشعب اليهودى فى ذلك الوقت • إنها أحلام مادية جسديـة وسياسية ، أحلام أنانيـة لاتبحث إلا عن الفائدة الشخصية : تحطيم وإزالة أعداء اسرائيل ، ثم البحث عن مجد وعظمة واتساع ملك اسرائيل • والمسيح يرى بعينيـه الثاقبة ، فى موقف اليهود عامة وموقف بطرس خاصة نفس التجربـة التى حاول المجرب أن يوقع فيها السيد عندما أراه جميع ممالـك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها •••• والمسيح ينظر إلى بطرس ويرى فيه نفس المجرب الذى جربه فى الصحراء بتجربة العظمة والغنى

والجاه والسلطان ، وهنا نرى بطرس يقوم بنفس الدور الذى قام بــه مجرب الصحراء ، فلقد جاء هذا المجرب بعد تجربة الصحراء إلى السيد لكي يجربه بطرق مختلفة عديدة ، ألم يقل لوقا فى نهاية قصة التجربة : « ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » • فلم يكن فراق الشيطان للمسيح إلا إلى حين • وهنا نراه وقد عاد إليه بأساليب مختلفة لكى يمد له شراكا جديدة،لهذا السبب رفض السيد اقتراح الشيطان (متى ٤:١٠) واقتراح بطرس والأمة اليهودية كلها (مر ٨ : ٣٣) بقوله لكليهما : « اذهب عنى ياشيطان » • فالغرض الأساسى والمهم من الطريقة التى اتبعها يسوع فى إخفاء حقيقتــه ومسيانيتــه ، فى بعض الأحيان وفى أغلبها ، عن الشعب يرجع إلى حقيقة أن المسيح أراد أن يميز نفســه أو بعبارة أصح أن يعزل نفسه عن المسايا الكذبة ، حتى لايخلط الجمهور بينه — المسيا الحقيقى — وبين المسايا الكذبة الكثيرين الذين ظهــروا على مر العصور ، والذين كانوا معاصرين أيضــا له ، أراد يسوع أن يخفى نفسه وأن يظل غير معروف إلى أن يأتى الوقت بعد قيامته من الأموات ، حيث يتعين « ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات ؛ يسوع المسيح ربنا •••• » (رو ١ : ٣ ، ٤) •

٢ — لقد اخفى يسوع مسيانيته لكى يتجنب ثــورة الجماهــير والاضطرابات السياسية :

فإن كان السبب الأول الذى دفــع يسوع إلى أن يخفى مسيانيته عن الجماهير كما يبدو لنا هو أنه كان يخشى أن يخلط الشعب بين المسيا الحقيقى والذين يدعون المسيانية ، فإن هناك سببا مهما آخر ، وهو أن السيد كان يخشى قيام ثورة بين اليهود ضد الرومان • فاننا نتفق تماما مع الزميل المحبوب والدارس العــالم المنقب الدكتور القس فهيم عزيز فى قوله : « إن يسوع طلب من تلاميذه ومن غيرهم أن لا يظهروه لوجود

الفرق والهوة السحيقة بين ما كان يعتقده اليهود عن المسيا وبين ما يعلمه هو ... ؟ .

هذا صحيح ، لأن مفهوم اليهود الخاص عن المسيا يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن حقيقة يسوع الناصرى . إذ أن آمال اليهود وانتظاراتهم كانت مشدودة نحو مسيا سياسى وطنى يحرر إسرائيل من الاستعمار محطما قوى القوى . أما يسوع فقد جاء لا لكى يحطم ويكسر ويهدم، بل لكى يحرر من عبودية الخطية ، ولكى يبنى ملكوتا جديدا يسود فيه السلام والبر الروحى والعدل الاجتماعى أيضا . هذا هو المسيا الحقيقى .

والفرق بين هذا المسيا وبين الأنبياء والرسل واسع ، شاسع . فإن الأنبياء والرسل كانوا يعملون ويتصرفون بطريقة وساطية ، وكانوا يطلبون بصلاة ودموع أن تستجاب صلواتهم وتضرعاتهم لأن العمل الذى كانوا يقومون به عمل مرسلى ، أى أن يهوه نفسه قد وشحهم بقوة من لدنه ، ولذلك فإن القوات والمعجزات التى كانوا يقومون بعملها وإجرائها ، كانو يقومون بها باسم يهوه وبقوته ، وليس باسمهم أو بقوتهم أو بسلطانهم « .... كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشى» (أع ٣ : ١٢) . والفرق بين المسيا الحقيقى والذين سبقوه والذين جاءوا بعده أيضا ، هو أن هؤلاء كانوا يطلبون من الله أن يمنحهم القوة والنعمة والسلطان لعمل المعجزات ، أما يسوع ، فمع أنه كان يصلى قبل أن يقوم بعمل المعجزات والآيات التى كان يقوم بعملها ، إلا أنه كان يقوم بهذه الأعمال من معجزات ، شفاء المرضى وإقامة الموتى .. ، بقوة داخلية نابعة منه ، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يقول للطفلة التى لفظت أنفاسها الأخيرة : « ياصبية قومى » (لو ٨ : ٥٤) ثم للعازر : « لعازر هلم خارجا » (يو ١١ : ٤٣) .

والدكتور فهيم لا يتفق مع الرأى القائل ، بأن المسيح كان يخشى ثورة الجماهير ، ونحن نأسف لعدم اتفاقنا مع الزميل المحبــوب فى هذه النقطة والتى سنرجع إليها فيما بعد (١) ، على أننا نكتفى هنا بالقول بأن المسيا قد قام بأعمال المسيا لأنه كان فعلا المسيا ، وكان مدركا كل الادراك لهذه الحقيقة الهامة • فإن كان يسوع قد قام بأعمال مسيانية، فذلك لأنه أولا وقبل أن يقوم بهـذه الأعمال ، كان المسيا ، صحيح أن العمل مهم ومهم جدا لاظهار مسيانية يسوع ، ولكن الأهــم من ذلك كله هو أن هذا الشخص يسوع ، كان يعمل هذه الأعمال (من المعجزات الخارقة للطبيعة وعمل قوات) لأنه كان المسيا ولأنه لهــذا قد ولد ، ولهذا قد جاء إلى العالم •

وكما سبق القول إن الأنبياء والرسل كانوا يعملون هذه المعجزات بطريقة وساطية ، أما يسوع فكان يعملها بسلطــان منه ، فقــد كانت معجزاته وتصرفاته وأعماله بسلطان داخلى نابع منه ، وليس عن طريق هبة خاصة أو نعمة قد منحت له • ولهذا فقد اندهشت الجماهــير من طريقة تعليمه قائلة : « ما هو هذا التعليم الجديد ، لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه » (مر ١ : ٢٧) • فقــد كان يســوع هو المسيا لأنه لهذا قد جاء ولهــذا قد ولد •

ولذلك فقد قام بهذه الأعمال المسيانية ، وهو الوحيد الذى استطاع أن يقول : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل •••• وأما أنا فأقــول لكم •••• » ، وهنا يوضح يسوع سلطانه ، بأنه سلطان نابع من الداخل، أنه مساو تماما لذلك الذى قال لا تقتل •••، فإن سلطان يسوع سابق لأعماله وكما يقول المثل الفرنسى : « ليس الأعمال الصالحة هى التى تصنع قديسين ، بل إن القديسين يعملون الأعمال الصالحة » • فلنبحث

(١) انظر كتاب الدكتور فهيم عزيز ـــ ملكوت الله ص ١٦٨ •

الأعمال التى قام بها يسوع هى التى جعلته مسيا ، بل لأن يسوع ، قبل أن يقوم بهذه الأعمال ، كان المسيا الذى تنبأ عنه الأنبياء والذى هو فى حضن الآب ، ولذلك فقد عمل هذه الأعمال المسيانية .

ولنرجع الآن إلى النقطة التى تركناها معلقة آنفا ، وهى أن يسوع كان يخفى مسيانيته لكى يتجنب ثورات الجماهير والاضطرابات السياسية . لقد سبق أن أشرنا إلى أن يسوع حاول أن يخفى مسيانيته لكى لا تخلط الجماهير بينه هو المسيا الحقيقى والمسايا الآخرين ، ولكن يسوع أخفى مسيانيته عن الجماهير لسبب آخر ، لتجنب الاضطرابات السياسية التى كان يمكن أن تحدث نتيجة لهذا الخلط وعدم التمييز بين المسيا الحقيقى والمسايا الكذبة .

لقد سبق أن أشرنا أكثر من مرة فى الفصول السابقة إلى الصراع العنيف والدامى الذى شنته الحركات اليهودية وخاصة المسيانية ضد القوات الرومانية المستعمرة ، ولقد رأينا أيضا كيف ردت القوات الرومانية على الهجمات التى قام بها بعض اليهود ضدهم . فقد قام يهوذا الجليلى بثورة دامية فى سنة ٦ ب.م بسبب الاحصاء الذى قامت به روما والتى كانت تنوى من ورائه فرض ضرائب على اليهود . ولقد رأى يهوذا الجليلى مع جماعة من أصحابه أن قبول هذه الضرائب ودفعها لأمة وثنية مثل روما ، إهانة عظمى وخيانة شنيعة فى حق يهوه . ولذلك فقد نظم حملات توعية ومقاومة ضد الرومان وضد عملية الاحصاء ، وحاولت روما اخماد هذه الثورة بالعنف والقتل والتشريد . وبذلك اتسعت الفجوة وازداد الخلاف حتى وصل أشده بين اليهود والرومان ، خصوصا الذين كانوا يتزعمون أو ينتمون إلى حركات وطنية تحريرية استقلالية.ولا يمكننا أن نقول بأن اليهودية كلها ثارت ضد الرومان ، بل إن الذى حدث هو ما يحدث عادة كما نلاحظ فى تواريخ الاستعمار ، أى أن جماعة من

الوطنيين تنضم إلى المستعمر وتتعاون معه لحساب مصالحها الشخصية، وقد انضمت إلى القوات المستعمرة الرومانية ، بعض الطبقات الغنية التى كان لها تأثيرها مثل جماعة الكهنة الارستقراطية • على عكس ذلك فقد ازدادت الحركات التحررية الاستقلالية الوطنية التى كانت تهدف إلى تحرير البلاد بطرد المحتل الرومانى وقلب النظام الراهن فى الهيكل• ومن هذه المنظمات التحريرية منظمة أو جماعة الغيورين • وجماعة الغيورين هذه تنقسم إلى حزبين كما سبقت الاشارة إلى ذلك : حزب الغيورين المعتدلين والحزب المتطرف (SICARII) (SICAIRES) وهذا الحزب الأخير كان فى صراع وحرب مستمرة ، ليس فقط مع الرومان المستعمرين بل أيضا مع أى يهودى يمد يد المساعد والتعاون إلى أعوان الاستعمار ، ولقد استعمل هذا الحزب كل وسائل العنف من سرقة ونهب وقتل ، للوصول إلى الغاية المنشودة وهى تحرير البلاد من الاستعمار •

ولقد قام هذا الحزب بالحملات الهجومية والقتل ضد الرومان وأعوانهم باسم يهوه ، وكان أتباع هذه الحركة ينتظرون ظهور المسيا ، وأنه ربما يظهر المسيا المنتظر والمحرر فى وسطهم • وبهذه الغيرة ــ أى الغيرة المسيانية ــ حاربوا وناضلوا ضد الرومان وأعوانهم • وأما الرومان فلم يقفوا مكتوف الأيدى ازاء هذه الحركات المسيانية ، بل تتبعوها أينما وجدت ، وحاربوها بكل قوتهم وجيوشهم • ولقد ظهرت فى أيام المسيح عدة حركات مسيانية قامت كالعادة ضد الرومان • وازدادت هذه الحركات المسيانية فى العدد وفى القوة فى أيام السيد وبعده وخصوصا فى سنة ٦٦ ، السنة التى اندلعت فيها الثورة المفتوحة والاضطرابات العامة الموجهة ضد الرومان واستمرت إلى سنة ٧٠ عندما قضى على أورشليم بسقوطها وحرقها بمحراث •

ودارس التاريخ اليهودى يلاحظ كم كان لهذه الحركات المسيانية الغيورية من تأثير على الرومان ، لأنها كانت منظمات فدائية ، تهجم على العدو الرومانى ببسالة وشجاعة . ومعظم هذه المنظمات كانت تقوم بهذه الأعمال الهجومية التخريبية باسم يهوه . ولأنها حركات مسيانية، فانها كانت تحلم ليس فقط بالاستقلال والتحرير بل بالسيطرة أيضا . ولهذا السبب كانت السلطات الرومانية يقظة واعية مفتوحة العينين على كل حركة مسيانية . فعند ظهور أى شخص أو أى منظمة أو حركة من هذا النوع ، لم تتأخر عن الضرب بشدة ، والقضاء على هذا الشخص أو هذه المنظمة أو الحركة ، لأنها كانت تعلم الخطر الداهم الذى يمثله هذا الحزب على سلامة روما واستمرارها فى المنطقة .

ولقد سجل لنا يوسيفوس المؤرخ اليهودى الكثير من الحوادث التى جرت فى هذه الحقبة من الزمن خصوصا الأحداث التى دارت بين الحركات المسيانية وبين السلطات الرومانية ، وكيف أن هيرودس قد حاول أن يخمدها بل أن يسحقها سحقا نهائيا عندما أمر بأشد العقوبات وأقساها على الشباب الذين تجرأوا وأنزلوا النسر الرومانى من على مقدمة الهيكل وسحقوه . ولقد كان هذا التدخل المسلح سببا فى إثارة سلسلة طويلة من الاشتباكات المسلحة بين القوات الوطنية والقوات الرومانية ثم يقص لنا قصة الجماعة المسيانية التى قامت فى أيام أرخيلاوس (ARCHELAUS) والتى حاولت هى بدورها أن تنتقم لدماء الذين حكم عليهم بالموت لثورتهم ضد الطبقة الحاكمة ، ولكن لم يكتب لهذه الحركة أى نوع من الفلاح . وجاء بعد ذلك يهوذا الجليلى وسيمون (سمعان) ثم الغيورون .

وفى ذلك العصر المضطرب سياسيا واجتماعيا ودينيا ، ظهر على جانب الأردن نبى يدعى يوحنا المعمدان وقد تبعه الكثيرون وكانوا

يطلبون الاعتماد بمعموديته . ومع أن يوحنا المعمدان لم يصطبغ بالصبغة السياسية التى اصطبغ بها الكثيرون من أتباع الحركات المسيانية السابقة الذكر ، إلا أن كثيرين من اليهود والسلطات الرومانية اعتبروه واحدا من هؤلاء القادة المسيانيين » وقام هيرودس باعدامه كواحد من هؤلاء الثوار العديدين الذين قاموا ضد الحكم الرومانى » . (١)

وهنا نرى الخطر العظيم ، بل الموت المؤكد الذى كان يتهدد كل من يدعى بأنه مسيا . والآن يمكننا أن نفهم لماذا كان يسوع يحاول دائما أن يخفى مسيانيته . فيسوع لم يحاول أن يخفى مسيانيته خوفا من العذاب أو الموت ، بل كان يخفى مسيانيته لأنه لم يكن هو المسيا الثوري المثير للشغب والفوضى فى وسط الشعب . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، كان يعرف جيدا أن كلامه عن مسيانيته سيجد تربة جيدة صالحة ومهيأة ، ليس لقبول المسيا المخلص من الخطايا ، بل للترحيب والهتاف للمسيا الحربى الذى سيطرد المستعمر الرومانى من البلاد . ألم يحاول هذا الشعب أن يختطفه لكي يجعله ملكا ؟ (يو ٦ : ١٥) . فلو نادى المسيح علانية بمسيانيته لفهم الجمهور كلامه هذا على أنه المسيا السياسى المحرر لاسرائيل والمعادى لروما ، أى أنه يصبح فى أعينهم محررا سياسيا وحربيا على مثال ماتاتياس وأبنائه ويهوذا الجليلى وآخرين .

كان هذا الأمر لابد وأن يدفع الرومان إلى اخماد هذه الثورة ، كما فعلت بلا تردد مع ثورات شعبية عديدة فى فلسطين . ولأجل هذا تحاشى السيد بكل وسيلة ، الاحتكاك بهذه القوات الحاكمة وعدم

(١) هذه النصوص مقتبسة من كتاب R. Bultmann. Jésus Mythologie Et Démythologisation ص ٣٦ — ٤٧ .

الاصطدام بها ، ليس لأنه كان يخشى قوتها وبأسها وبطشها ، بل لأنه كان لا يريد أولا وقبل كل شىء ، أن تخلط القوات الرومانية أو أن يخلط أيضا الشعب اليهودى بينه — المسيا الحقيقى — وبين المسايا الكذبة . كما كان لا يريد بأى حال من الأحوال أن تكون مسيانيتـه وإعلانهـا سببا فى إثارة الثورات والهيجانات وإسالة الدماء .

وكم من المرات حاول اليهود المضادين ليسوع الايقاع به فى يد الرومان وتقديمه لهم كمسيا على نمط يهوذا الجليلى الذى قام بثورته ضد الرومان حاثا اليهود على عدم دفع الجزيـة لقيصر . ألم يتقـدم إليه فى يوم من الأيام الفريسيون والهيرودسيون وسألوه هذا السؤال : « يامعلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولاتبالى بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن . أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ . فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربوننى يامراؤون.. أعطوا إذا مـا لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢ : ١٥ — ٢٢) . لقد سبق أن شرحنا هذا الفصل فى صفحات سـابقة ولـكننا نريد أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى تصرف يسوع إزاء هذا السؤال الخطير.

فالشرك الذى نصبه هؤلاء لاصطياد يسـوع مكشوف معروف ، ولكنه كسيف ذى حدين ، ومن المقدمة نشتم رائحـة الكذب والخبث والمكر والدهاء ، وأن الهدف منه هو دفع يسوع إلى أن يجاوب بالنفى . فقولهم له : « يامعلم نعلم إنك صادق وتعلم طريق الله بالحـق ولا تبالى بأحد لأنك لاتنظر إلى وجوه الناس » ، أى إنك تستطيع أن تقول الحق حتى ولو كان هذا الحق ضد السلطات الرومانية نفسها . لأنك تعلم الحق ، فأنت ابن الله الذى لايخشى ولايخاف السلطات الأرضية الزمنية مهما كانت قوتها وعظمتها . ومع أن الذين سألوا هذا السؤال — أى الهيرودسيون والفريسيون — كانـوا لاينتظـرون من الاجابة إلا

نتيجتها وآثارها على يسوع ، فإن الغيورين كانوا يتوقعـون اجابـة واضحة صريحة وثورية ، أى بالنفى . أما الهيرودسيون والفريسيون ، فقد خططوا بسؤالهم هذا لتسليم يسـوع إلى الموت . فلو أجـاب يسوع على هذا السؤال بأنه لايجب دفع الجزية لقيصر ، لاعتبرته السلطات الرومانية زعيما من زعماء حزب الغيورين الذين كانت تطاردهم الجيوش الرومانية وتقاتلهم أينما وجدوا . ولو أجاب المسيح بأنـه يجب دفع الجزية لقيصر ، لطارده الغيورون وقتلوه . هذه هى النتيجة التى كان يسعى الهيرودسيون والفريسيون للوصول إليها . أما يسوع فكان يرى خطرا أهم وأشمل : فإن اجابتـه بالنفى أو بالايجاب كانت لابد وأن تثير أشتباكات حربية بين الغيورين وبين الرومان . إن السؤال شرك سياسى خبيث .

ولوقا يقول : « فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربوننى يامراؤون.. أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ... » وبهذه الاجابة استطاع يسوع أن يتجنب الثورات الشعبية التى كان يمكن أن تنتج من اجابة أخرى.. ولقد ظن الذين سألوا هذا السؤال بأن اجابة يسوع ستكون بالنفى ، أى عدم دفع الجزية لقيصر ، لأنهم ظنوا بأنه سيدعى بأنه المسيا .

حاول يسوع هنا أيضا أن يخفى مسيانيته للأسباب السابقة الذكر، أولا : لأنه ليس هو المسيا الذى نسجته المخيلة اليهـودية والغيورية . وثانيا : ليس هو المسيا الذى يسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية والدينية ، بل هو المسيا الذى يمنح السلام للنفوس المضطربة سياسيا واجتماعيا ودينيا .

وقبل أن نترك هذه المشكلة نود أن نلفت نظر القارىء إلى نقطـة هامة فى إجابة السيد على هذا السؤال المسموم ، فإنه بهذه الاجابـة :

« أعطوا اذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله » أراد السيد أن يوضح علاقة الانسان بالدولة التى ينتمى إليها ، فإن كان المؤمن ليس من العالم إلا أنه يعيش فى العالم . والمسيح فى صلاته الوداعية يقول : « لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير » (يو ١٧ : ١٥ ـ ١٦). فالمؤمن بعد قبوله المسيح يصبح مواطنا سماويا وتابعــا لملكوت الله . وهذه العضوية الجديدة تتطلب بأن يسلك الانسان بحسب الدعوة التى دعى بها ، أى بتدقيق وأمانة ، سالكا فى حياة البر والقداسة ، القداسة التى بدونها لايرى إنسان الله . ولكن هذه الحالة الجديدة ، أى انتسابه إلى الملكوت الجديد ، ملكوت الله ، لا تتطلب منه بأى حال من الأحوال أن يترك العالم الذى يعيش فيه ، ولا أن يثور ضد السلطات الحاكمــة القائمة مادامت لاتعترض طريقه ولا تمنعه عن عبادة الله . « أعطــوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . يعنى أن المسيح يريد من المؤمن ، الذى يعيش فى العالم والذى يجبر على أن يعيش فى العالم لكى يــكون نوراً للعالم ، أن يؤدى واجبه نحو الوطن كأى مواطن صالح يسعى دائما لتقدم وطنه ، والقيام بالتزاماته المادية والأدبيــة وأن يكون خاضعــا لقادته ولرؤسائه (رو ١٣ : ١ ـ ٢) . فمع أن المسيحى مواطن سماوى « لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة » (عب ١٣ : ١٤ ، فى ٣ : ٢٠) فهو مازال مواطنا أرضيا أيضا ، يعيش فى العالم ويتعامل معه . ولهذا يجب أن يخضع لقوانينه وأحكامه وقادته الذين من واجبهم أن يحكموا الشعوب بعدل وحكمة . فواجب المؤمن المسيحى ازاء الحكام فى المجتمع ، هو الخضوع والطاعــة للحكام ، الذين يحكمون البــلاد بالعدل والاستقامة . أما إذا ابتعد الحاكم عن قوانين العدل ولجأ إلى للغطرسة والظلم وعدم المساواة بين المواطنين ، فعلى المسيحى المؤمن فى هذه الحالة الالتجاء إلى الله بالصلاة والصوم ، لأن الله فى محبتــه وحكمته ، يستطيع أن يرشد المؤمن فى هذه الظروف حتى يكون مواطنا عاملا نشيطا يسعى لبنيان وتقــدم الوطن . فالمسيــح لايريد أن يكون

المؤمن سلبيا بل ايجابيا • والايجابية تتطلب الحركة والعمل والاشتراك فى المشاريع السماوية والوطنية • فلا خوف إذاً من الاشتراك فى مشاريع الوطن الذى نعيش فيه ، ولكن الخوف هو أن يصبح المؤمن مواطننا أرضيا ، ومواطننا أرضيا فقط • إن المؤمن ملزم بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ••• أى أنه ملزم أن يعيش فى هذا العالم ولكنه كنور للعالم • ويعطينا القدير الحكمة والشجاعة لكى لا ننعزل عن هذا العالم • ونعيش فى الصحارى ، بل لنعيش فى هذا العالم لكى نؤدى له الرسالة التى وضعها السيد علينا ، لأنه عندما جاء إلى عالمنا لم يكن منعزلا عن الناس ، فى صحارى وقفار بعيدا عن العالم وما فيه ، بل عاش وسط الناس ، صار مثلنا تماما مجربا فى كل شىء ماعدا الخطية •

بعض المراجع الخاصة بمسيانية يسوع

١ ــ الدكتور القس فهيم عزيز ــ ملكوت الله ــ صدر عن دار الثقافة المسيحية •

2. R. Bultmann : **Jesus. Mythologie et demythologisation. Ed. du Seuil.**
3. R. Bultmann : **Theology of the N. T.** Volume 1. & Vol. 2
4. W. Bousset : **Jesus Tr. by Janet P.** Trevelyan, 1906.
5. R. Bultmann : **Jesus and the Word, Tr. by Louise p. Smith and Erminie Huntress.** 1934.
6. F. C. Burkitt : **Jesus Christ,** 1932.
7. Maurice Goguel : **The Life of Jesus.** Tr. by Olive Wyon 1933.
8. A.C. Headlam : **Jesus Christ in History and Faith** 1929.
9. A. Schweitzer : **The Quest of the historical Jesus** 1910.
10. G. Bornkamm : **Oui est Jesus de Nazareth ? Ed. du Seuil.**
11. **Rend Marie Bultmann et P, interpretation du N. T. Aubies** Ed. Montagne.
12. MGR. Barthmann : **Precis de Theologie Dogmatique.**
13. O'cuimann : **Christologie du N. T. Neuchatel, 1958** (surtout p. 97 -- 117).
14. O'Culmann : **Dieu Et Cesar.**
15. Taylor : **The Names of Jesus 1953.**
16. A Causse : **L'Evolution de L'Esperance Messianique dans Le Chrestianisme Primitive.**
17. C. Piepenbring : **Jesus Historique.**
18. O. Cullmann : **Jesus Et Les Revolutionnaires de Son Temps** (dela chaux & Niestle).
19. Emile Brunner : **Dogmatique Tome 2 pp. 305 - 424.**
20. Karl Bart : **Dogmatique Premier Vol. La Doctrine de La Parole de Diuv : Prolegmene a la Dogmatique.** Tome Deuxieme. Ed. Labor Et Fides. Geneva).

الفصل التاسع

الفصح والعشاء الربانى

فى هذا الفصل الذى سنتحدث فيه عن آلام المسيح وصلبه وموته ثم قيامته ، ستعترضنا أسئلة كثيرة مختلفة ومتنوعة . والسؤال الأول الذى يطرح نفسه هو : كيف يمكن القول بأن المسيح تألم ومات ، كما يتألم ويموت أى إنسان آخر ، وهو الله الذى ظهر فى الجسد . وهل الله يشعر بالآلام ويموت ؟ والسؤال الثانى هو : لماذا هذه الآلام ؟ ما هو موقف المصريين من آلام وموت المسيح ؟ هل موت المسيح كان ضروريا ، وهل جاء لكى يموت ؟ وأمام مشكلة القيامة فقد تساءل أيضا اللاهوتيون وغير اللاهوتيين . فالأسئلة لا يمكن حصرها أو عدها ، ولذلك فسنكتفى ببعض الأسئلة ليس على سبيل الحصر بل على سبيل المثال فقط .

هل الإيمان بقيامة المسيح المصلوب عرف طريقه إلى أذهان وأفكار التلاميذ قبل أن تحدث حادثة القيامة ، أم أن القيامة حدثت قبل أن يعرف الايمان بقيامة المسيح طريقه إلى أذهان التلاميذ وعقولهم ؟ هل قيامة المسيح حادث تاريخى حقيقى كأى حقيقة تاريخية أخرى قد حدثت فى زمان ومكان معينين ؟

هل الأناجيل والرسائل التى تتكلم عن قيامة المسيح من الأموات ،

نتكلم عن قصة حقيقية واقعية أم نتحدث عن قصة خرافية أو أسطورة؟

وقبل أن نحاول الاجابة على هذه الأسئلة أو على بعضها ، وقبل أن ندخل إلى بستان جثسيمانى حيث صارع المسيح صراعا عنيفا فتحول عرقه إلى دم ، وقبل أن نتحدث عن مثوله أمام قيافا فبيلاطس ، فهيرودس فبيلاطس مرة أخرى ، وقبل أن يخوض المسيح فى التيارات الجارفة ، وقبل أن يقاسى الآلام المبرحة العنيفة ، قبل هذا كله نود أن نلبى رغبة له قد رغبها هو نفسه عندما قال لتلاميذه معبرا عن هذه الرغبة التى كان يريد أن ينفذها قبل موته : « وقال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم » (لو ٢٢ : ١٥) .

أود إذن أن نقف ولو قليلا أمام حادثة الفصح التى أصبح فيها المسيح الكاهن المقدم للذبيحة ، وفى نفس الوقت كان هو الذبيحة نفسها . بهذه « الشهوة » أراد المسيح أن يدشن فصحا جديدا يختلف اختلافا كليا عن الفصح الذى أمر به يهوه شعبه فى مصر (خر ١٢ : ١ ـــ ٥١) ، والذى كان اليهود وما يزالون يحتفلون بممارسته . وفى نهاية حياة السيد على الأرض أمر إثنين من تلاميذه بإعداد ما يلزم لعمل الفصح (لو ٢٢ : ١ ـــ ١٣) وعلى ما يظهر فان السيد قد سبق واتفق مع واحد من أصدقائه أو أتباعه ، قد يكون نيقوديموس أو يوسف الرامى أو يوحنا مرقس بأن يدعوهم عنده لممارسة فريضة الفصح . وينطلق بطرس ويوحنا إلى المدينة وعند اقترابهما منها يجدان رجلا يحمل جرة ، وعلى ما يبدو كان خادم صاحب البيت الذى سيجرى فيه السيد الفصح ، ويقودهما الخادم إليه ، وعندئذ يصعد صاحب البيت معهما ويريهما علية كبيرة مفروشة ، وهناك أعدا الفصح . وإن كنا نلاحظ فى هذه القصة نوعا من السرية والتكتم فى حديث الرب عن الرجل المضيف وعن مكان الضيافة ، فذلك يرجع إلى أن السيد كان يريد أن

يظل الأمر خفيا غير معروف حتى لا يتمكن اليهود أن يلقوا عليه الأيادى قبل أن تأتى ساعته وقبل أن يتمم هذه الشهوة التى اشتهاها ، ألا وهى أن يأكل هذا الفصح الأخير مع تلاميذه قبل آلامه وموته .

وعند التحدث عن العشاء الأخير تعترض سبيلنا مشكلة تاريخيــة خاصة ، هى سنة موت المسيح ويوم هذا العشاء الأخير . وعلى مــا يعتقد فإن يسوع قد مات فى ســنة ٢٨ ب.م. ولقد سبق أن رأينا أن يسوع ولد حوالى سنة ٥ أو ٤ ب.م. فتكون المــدة التى قضاها الرب يسوع على أرضنا هى حوالى ٣٢ أو ٣٣ سنة .

أما المشكلة الثانية التى نواجهها فى بحثنا لهذا الموضـــوع فهى : هل العشاء الأخير أو العشاء الوداعى يعتبر فصحا ؟ أى هل عندمــا تناول السيد هذا العشاء الأخير مع تلاميذه ، كان يعتبر أن هذا الطعام الذى يتناونه فى هذا الوقت بالذات هو احتفال بعيد الفصح [illegible] قوله : « وقال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ؟ » (لو ٢٢ : ١٥) .

وقبل الخوض فى بحث هذه المشكلــة يحسن بنا أن نلقى نظــرة سريعة على هذا العيد اليهودى . فعيد الفصح عيد عظيم عند اليهود، فيه يتذكرون ذلك اليوم الذى فيه أنقذهم الرب ليس فقط من ضربة الملاك المهلك الذى ضرب كل ذكر من أبكار المصريين (خر ١٣ : ١ — ٥١) ، بل أنقذهم أيضا من العبودية وحررهم تحريرا كاملا . ولقد كان أمر الرب فى تلك الليلة التاريخية التذكارية ، بأن كل عائلة إسرائيلية تريــد النجاة من ضربة المهلك ، يجب أن تنحر خروفا وتأكل لحمه مشويا على أعشاب مرة بعــد أن تضع من دمه عــلامة على البيوت . ولقــد عيــد الاسرائيليون أول عيد فصح فى أرض مصر . ومن هذا التاريخ أصبح عيد الفصح عيدا دينيا يحتفل به الاسرائيليون .

كيف كان يحتفل اليهود (ويحتفلون حتى الآن) بعيد الفصح ؟ إن كل يهودى كان يقوم فى آخر يوم ١٣ وأول يوم ١٤ نيسان بتنظيف منزله من كل خبز مخمر بخميرة (تث ١٦ : ٤) وبعد عملية تطهير البيت من الخبز المخمر ، تأتى عملية أخرى ، وهى القيام بذبح خروف الفصح ، ولكن هذه العملية لاتتم إلا قبل غروب شمس يوم ١٤ (تث ١٦ : ٦) • فهاتان العمليتان (عزل الخبز العادى المخمر وذبح الخروف) ، كانتا تتمان فى يوم ١٤ نيسان ، ثم تتبع هاتين الفريضتين فريضة أخرى وهى أكل الفصح • ولكن هذه العملية لاتبدأ إلا فى اليوم الخامس عشر من نيسان ، يعنى فى مساء يوم ذبح الخروف ، فالخروف كان يذبح عادة يوم ١٤ قبل غروب الشمس فيما بين الساعة الثالثة والساعة السادسة ، ويؤكل خروف الفصح فى نفس المساء عند ظهور القمر الذى يعلن بداية اليوم الخامس عشر من الشهر (١) • وفى الليلة التى كان يأكل فيها اليهود خروف الفصح يبدأ عيد الفطير ، الذى يستمر سبعة أيام (خر ١٢ : ١٤ — ٢٠) والذى فى خلاله لايأكل اليهود إلا فطيرا لأن الخمير قد عزل من بيوتهم فى نهاية اليوم الثالث عشر وبداية اليوم الرابع عشر • ولهذا السبب سمى بعيد الفطير •

كيف كان يعيد بعيد الفصح

يمكننا أن نسمى هذا العيد بعيد العائلة أو الخدمة التعبدية العائلية ، لأن العائلة كلها كانت تجتمع لكى تحتفل بهذه المناسبة التاريخية العظيمة ، التى فيها يذكرون عمل الرب معهم وكيف أخرجهم بذراع قوية ويد ممدودة من أرض مصر ، أرض العبودية والذل والهوان •

(١) فى الحساب اليهودى ينتهى اليوم فى الساعة السادسة مساء . فمثلا يوم ١٣ نيسان يستمر الى الساعة السادسة بعد الظهر ، ومن بعد السادسة مساء يبدأ يوم ١٤ نيسان .

والذى كان يرأس الخدمة التعبدية فى ذلك اليـوم ليس الكاهن بل رب العائلة • فيجلس على المائدة ويحيط به أفراد عائلتـه وأمامه على هـذه المائدة خروف مشوى على أعشاب مرة وفطير • فيبدأ رب العائلة بصلاة فيها يشكر الله على إحساناته وبركاته ، وبعدها يأخذ كأسا من الخمـر ويجيزها على الحاضرين ، وعندئذ يشرح للعائلة تاريخ العيد وما يرمز إليه • وبعد أن ينتهى من شرح رمز العيد ، يرنموا معـا مزمورى ١١٣ ، ١١٤ • وبعد الترنيم يوزع عليهم الأعشاب المرة لكى يذكرهم بالأيام القاسية المرة التى كانوا فيها عبيدا فى أرض مصر ، وعندما ينتهى من توزيع الأعشاب المرة يقدم لهم الكأس الثانية ، وهنا يبدأ فى الأكل من خروف الفصح ، ثم يتناول فطيرتين ويغمس نصف إحداهما فى عصير الفواكه ويأكل ، وهكذا يفعل كل أفراد العائلـة • بعـد ذلك يشربون الكأس الثالثة التى تسمى كأس البركة ، وتتلو هـذه الكأس ، كأس أخرى رابعة بعدها تسبح العائلة بترنيم المزامير ١١٥ ــ ١١٨ • هذا هو النظام الذى كانت تقوم به العائلة اليهودية فى احتفالها بعيد الفصح•

بعد أن رأينا ما هو الفصح اليهودى وكيف كان يمارس ، نطرح الآن من جديد السؤال الذى سبق أن سألناه ، وهو : هل عندما تناول السيد طعام العشاء الأخير مع تلاميذه كان يعتبر أن هذا الذى يقوم فى ذلك الوقت بالذات هو احتفال بعيد الفصـح اليهودى ؟ لقد حاول كثيرون من المؤرخين واللاهوتيين الاجابة على هذا السؤال ولكنهم وجدوا كثيرا من الصعوبات • ومنها :

١ ــ إن الأناجيل الأربعة متفقة كلها على أن يوم موت المسيـح كان يـوم الجمعـة (متى ٢٧ : ٦٢ ، مر ١٥ : ٤٢ ، لو ٢٣ : ٥٤ ، يو ١٩ : ٣١ ، ٤٢) • ولكن هـذه الأناجيل تختلف فى تحديد اليوم الذى احتفل فيه المسيح بعيد الفصح •

فمتى يستعمل عبارة غامضة وغير واضحة وغير محددة لليوم : « وفى أول أيام الفطير تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين له أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح » (متى ٢٦ : ١٧) • أما مرقس ولوقا فيحددان بدقة اليوم الذى قام فيه السيد بالاشتراك فى هذا العشاء الأخير وهو يوم الفصح • « وفى اليوم الأول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه أين تريد أن نمضى ونعد لتأكل الفصح» (مر ١٤ : ١٢) • ولوقا يقول : « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح » (لو ٢٢ : ٧) •

ولكى تكون المشكلة واضحة فى أذهاننا نسأل هذا السؤال : هل المسيح تناول مع تلاميذه العشاء الأخير يوم الخميس أم يوم الجمعة ؟

مما لاشك فيه أن السيد لم يتناول هذا الطعام الأخير يوم الجمعة لأنه كان معلقا على الصليب • فالعشاء الأخير تم يوم الخميس ، كما هو واضح من الاقتباسات السابقة الذكر • فبالرجوع إلى النصوص الكتابية فى الأناجيل نلاحظ بأن السيد أرسل يوم ١٣ نيسان إثنين من تلاميذه (بطرس ويوحنا) إلى أحد أصدقائه الذى عنده كان يريد أن يتناول العشاء الأخير ، لأن الاستعدادات للفصح تبدأ من أول اليوم الرابع عشر وخروف الفصح لا يذبح إلا فى نهاية يوم ١٤ نيسان • فالمسيح وصل إلى بيت صديقه مع تلاميذه لتناول هذا العشاء الأخير فى مساء يوم ١٤ نيسان •

وهنا نسأل هل كان المسيح يعتبر هذا العشاء الوداعى فصحا ؟

إن مرقس ولوقا يشددان على أن هذا العشاء الذى قام به المسيح مع تلاميذه هو الفصح (مر ١٤ : ١٢ ، لو ٢٢ : ٧ ، ١٥) • وهنا تبدأ المشكلة ، فكيف يمكن أن يعتبر العشاء الوداعى فصحا والفصح لم

يكن قد بدأ من الناحية القانونية • فإن الفصح الذى عمله السيد يسبق الفصح اليهودى بأربع وعشرين ساعة • وربما يسأل سائل : لماذا لا يكون اليوم الذى عمل فيه المسيح كان فعلا هو اليوم الرسمى للفصح•إذ أن مرقس يقول : « وفى اليوم الأول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه أين تريد أن نمضى ونعد لتأكل الفصح » (مر ١٤ : ١٢) ، « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح » (لو ٢٢ : ٧) • إن هذه المحادثة دارت بين المسيح وبين تلاميذه فى نهاية يوم ١٣ نيسان وجلس المسيح على المائدة فى بداية يوم ١٤ نيسان ، وبداية يوم ١٤ نيسان يعتبر الاستعداد للفصح • وهذا ما يوضحه إنجيل يوحنا بقوله عن يوم الفصح : « وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة • فقال لليهود هوذا ملككم » (يو ١٩ : ١٤ ، ١٨ : ٢٨ ، ١٩ : ٣١ ، ٤٢) •

وهنا نجد أنفسنا بين مجموعتين من الشهادات الإنجيلية • المجموعة الأولى هى شهادات ما نسميه (بتوافق الاناجيل) أو على الأقل شهادة مرقس ولوقا اللذين يشددان على أن العشاء الذى قام به السيد فى تلك العشية كان فصحا • ثم شهادة يوحنا الذى يسجل لنا بأن اليهود لم يكونوا بعد قد أكلوا خروف الفصح عند صلب المسيح (يو ١٨ : ٢٨ ، ١٩ : ١٤ ، ٣١ ، ٤٢) •

فإن كان اليهود لم يكونوا بعد قد أكلوا الفصح يوم الخميس ١٤ نيسان فى المساء وهذا ما قد سجله لنا بطريقة واضحة وصريحة إنجيل يوحنا ، وما تشير إليه الأناجيل الثلاثة الأخرى ، السبب الذى من أجله سيضطر اليهود أيضا إلى تعجل الأمور للقبض على يسوع ومحاكمته قبل حلول عيد الفصح وقبل أن تشل الحركة القضائية • هذا يعنى بأن الفصح الذى عمله يسوع غير قانونى لأنه يسبق ميعاد الفصح

الرسمى بيوم كامل • ولهذا السبب فإن معظم المفسرين والمؤرخين متفقون على وجود هذا اليوم الكامل بين ما يقوله كتاب الأناجيل الثلاثة الأولى وبين ما يقوله يوحنا • ولقد حاول كثيرون إيجاد حل لهذه المشكلة • ومن الدراسة التى قام بها كل من (بيلربيك وشودسن (BILLERBECK & CHWDSON) تبين أنه عندما كان يوم ١٥ نيسان (أى يوم أكل الفصح) يقع يوم سبت ، أو عند وجود اختلاف جدى فى تقدير اليوم الذى بدأ به الشهر ، ففى هذه الحالة كان الفريسيون والصدوقيون لايعيدون عيد الفصح فى يوم واحد ، بل كان كل فريق من هذين الفريقين يعيد عيد الفصح فى اليوم الذى يظن أنه هو اليوم الصحيح ، ويحتمل أن الفريسيين والصدوقيين اختلفوا فى ذلك العام على تحديد يوم الاحتفال بعيد الفصح مما اضطر الفريسيون معه الى الاحتفال به مثلا يوم الخميس • وهنا يحتفل المسيح بهذا الفصح الفريسى ، وفى الغد احتفل الصدوقيون بنفس العيد الذى يتكلم عنه يوحنا (١) •

والمفسر العالم الكاثوليكى لاجرانج (LAGRANGE) يقول إن المشكلة واضحة فيوحنا يعرفنا بأن يوم موت المسيح (أى يوم الجمعة) كان يوم الاستعداد للفصح ، واليهود لم يكونوا قد أكلوا الفصح بعد (يو ١٨ : ٢٨ ، ١٩ : ١٤ ، ٣١ ، ٤٢) • وبينما كتاب الأناجيل الثلاثة يقولون بأن المسيح كان قد أكل الفصح فى عشية موته فإذا اتخذنا إنجيل يوحنا كأساس للرجوع إليه فى هذا الموضوع ، وهذا ما يجب عمله ، لا يوجد أمامنا إلا حل من إثنين :

١ — إما أن(توافق الأناجيل) أى الأناجيل الثلاثة الأولى لا تعلم

(١) انظر الكتاب Mawrice Goguel. La Vie de Jèsus ص ٤١٧ — ٤٢٢ •

بأن يسوع أكل الفصح ، الأمر الذى لايمكن انكاره •

٢ ــ إما أن يسوع عمل فصحا مسبقا •

وهنــا يتساءل الآب لاجرانج ، لمــاذا إذن تتشــدد هــذه الأناجيل الثلاثة على أن اليوم الذى عمل فيه المسيح الفصح كان فعــلا يــوم الفصح أى اليوم القانونى ، بالرغم من أن الأمر واضح بأن اليوم الذى قام فيه المسيح بهذا العمل لم يكن يوم الفصح ، وبالتالى فالفصح الذى عمله المسيح لم يكن فصحا قانونيا ، والانجيليون الثلاثة يعتبرونه يوم الفصح ؟

ويضيف الآب لاجرانج قائــلا : يجب أن نعترف بجهلنا ، لعــدم معرفة السبب الذى من أجله أعتبر توافق الأناجيل أن اليوم الذى فيــه عمل المسيح الفصح ، كان فعلا يوما قانونيا لعمل الفصح ••• ثم يشير إلى مشكلة مهمــة وهى تحديد اليوم ، فلوقا يقــول « وجــاء يــوم الفطير ••• » فلوقا كتب لغير اليهود ، فعنــدما يقول « وجاء يــوم الفطير » ، هل جاء يــوم الفطــير بحسب التوقيت اليهودى أم بحسب التــوقيت اليونانى ــ الرومانى الــذى يختلف عن التوقيت الأول ؟ فبحسب التوقيت اليهودى كان غروب شمس ١٣ نيسان هــو بدايــة يوم ١٤ نيسان أى الفصح ، ولكن بحسب التوقيت اليونانى الرومانى لايمكن بأن نعتبر غروب شمس يوم ١٣ نيسان هو يوم الفصح (١) •

وبما أننا فى معرض الحديث عما يظنه بعض اللاهوتيين والباحثين عن هــذا الموضــوع ، يليــق بنا أن نــذكر رأى الآنسة جــوبرت (A. JAUBERT) التى قــامت بدراسة بعض المستنــدات

(1) Evangile Selon St. Luc. Par Le P.M.J. Lagrange. Librairie Lecoffre P. 538 — 544.

والوثائق التى اكتشفت فى خرائب قمران (سنة ١٩٤٧) والتى تقدم لنا حلا آخر لهذه المشكلة • فمن دراساتها لهذه الوثائق ، تظن بأنه من المحتمل بأن يسوع وتلاميذه كانوا يتبعون التقويم الأسينى (ESSENIENS) حسب هذا التقويم كانت السنة تحتوى على ٥٢ أسبوعا ، وكانت الأعياد تقع اضطراريا فى نفس اليوم من الشهر ونفس اليوم من الاسبوع • ولقد نظم هذا التقويم على أن يقع عيد الفصح دائما يوم أربعاء • وبناء على ذلك فالمسيح تناول العشاء الأخير مع تلاميذه فى مساء يوم الأربعاء ، ثم صلب عشية الفصح الرسمى اليهودى الذى كان يقع فى هذه السنة يوم السبت (أى الجمعة بعد الظهر) • وفى هذه الفترة أى من يوم الأربعاء مساء إلى يوم الجمعة صباحا دارت الأحداث المؤلمة : خيانة يهوذا والقبض على السيد فى جثسيمانى ، والمثول أمام حنان ، قيافا ، بيلاطس ، هيرودس ، ثم بيلاطس(١) ثم الصلب فى نهاية المطاف •

هذه هى بعض الأراء التى أثيرت والاقتراحات التى قدمت كحلول لهذه المشكلة التى ما زالت إلى الآن مفتوحة للنقاش والبحث •ويبدو لنا أن الذين ناقشوا ودرسوا هذه المشكلة ناقشوها ودرسوها من الناحية التاريخية والفنية والقانونية ، من حق ومن واجب كل باحث مدقق ، أن يتساءل عن صحة اليوم الذى تم فيه الفصح وعن قانونيته ، وعن توافقه التقويمى ،••• الخ • ولكنهم أهملوا نقطة هامة جدا ، وهى التحدث عن الذبيح نفسه : خروف الفصح • أى عن يسوع • ومما

---

(١) انظر بخصوص هذه النظرية Bonnard انجيل متى ص٣٧٥
A. Jaubert. La date de la Céne. 1961.
ولدراسة هذا الموضوع انظر (الطبعة الفرنسية) من
Dictionnaire Biblique P. 852.

لاشك فيه أن السيد نفسه قال : « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبيـاء ما جئت لأنقض بل لأكمـل ... » (متى ٥ : ١٧ ـ ٢٠ ، رو ٣ : ٣١) . وهنـا نسأل ما هو دور المكمل ؟ إن الدور الذى قام به المسيح كمكمل يعتبر دورا عظيما جدا لايمكن مقارنتـه بالدور الذى قام به الأنبياء الذين كمل أحدهم الآخر . بل إن الدور الذى قام به يسوع ، وإن كان يعتبر دورا مكملا ، فإنه دور أساسى ولازم وحتمى . والأهمية الكبرى والعظمى لا تنتج فقط من حقيقـة أن هذا الدور ، دور المكمل ، هو دور عظيم وهام ، بل تنتج أيضا من حقيقة أن الشخص الذى سيقوم بتنفيذ هذا الأمر هو أهم وأعظم من كل الأنبياء الذين سبقوه . فهو ليس واحدا من الأنبياء والمحـافظين على الناموس ، بل هو نفسه رب الأنبياء . ولهذا السبب عينه فهـو الوحيد فى كل تاريخ اليهودية الذى استطاع أن يقول ، وأن يقول عن حق وجدارة : « قد سمعتم أنه قيل للقدمـاء لا تقتل ... لا تزنى ... وأما أنا فأقول لكم ... » وبهذه «الأنا» يضـع المسيح ، له المجد ، نفسه ليس فى مقام السابقين « قيل للقدماء » أى قال موسى بوحى من الله للقدماء بل فى مقام أعظم : وأما أنا الذى له السلطان المعادل لسلطان الذى أوحى لموسى فأقول لكم ...

ولقد برهن المسيح على أنـه كان يتمتع بسلطان سام وعظيم مثل سلطان الله نفسه عندما قال : « ... إن ابن الانسان هـو رب السبت أيضا » (لو ٦ : ٤ ، مرقس ٢ : ٢٨) . ومن هذا يتضح بأن دور ـ بل سلطان « المكمل » (أى يسوع) لا ينجصر فى الخضوع لبعض القوانين البالية الجامـدة ، بل أن يتخطاهـا ، لأن ابن الإنسان هو رب السبت أيضا ويستطيع أن يقول : « وأما أنا فأقول لكم ... » بهـذا السلطان عينه يستطيع المسيح أن يأمر تلاميذه بأن يعدوا له الفصح مسبقا قبل

أن يحل قانونا يوم تقديم الخروف لأنه هو رب الفصح أيضا • بل هو نفسه الخروف الذى قدم نفسه عن كثيرين • فمن المفيد ومن المهم أن نبحث من الناحية التاريخية عن متى وكيف تم فصح المسيح الأخير ولكن الأفيد والأهم هو البحث عن من هو المسيح الذى قام بهذا الفصح الأخير الذى صنع يوم صلبيه خلاصا أبديا لكل الذين يقبلونه سيدا ومخلصا •

العشـــاء الربانى :

يحتمل أن يسوع اتبع فى أثناء العشاء الربانى نفس نظام العبادة (RITE) الذى كان يتبعه رب العائلة اليهودية عندما كان يقوم بنفسه بخدمة العبادة الفصحية ، ولهذا السبب نجد بعض العبارات والكلمات التى كانت تستعمل فى الخدمة التذكارية لذبيحة الفصح مثل ، كأس ، بارك ، خبز •• الخ • ولقد ظن بعض اللاهوتيين بأن الخبز الذى استعمله المسيح فى العشاء هو الخبز العادى (ARTON) ، وليس الفطير الذى كان لا يؤكل إلا فى اليوم الخامس عشر من نيسان(١) •

على أية حال وسواء أكان خبزا عاديا (ARTON) أم فطيرا (AZYME) ذلك الخبز الذى تناوله السيد مع تلاميذه ، فأهم من هذا كله هو أن يسوع فى آخر حياته على أرضنا قال لتلاميذه : « ••• شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم » (لو ٢٢ : ١٥) • وبهذا الفصح أراد المسيح قبل أن يترك عالمنا أن يرسم لنا فصحا جديدا ، لأنه عندما قام بهذا العشاء الأخير مع تلاميذه أراد أن يعبر لنا عن هذه الرغبة الشديدة : « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح » ، بتأسيسه فصحا

---

(١) انظر كتاب Piepenbring. Jésus Historique.
ص ١٥١ — ١٥٨ •

جديدا يصبح فيه هو الكاهن (رب المائدة) المقدم لهذا الذبيح والخروف نفسه ، فهو المقدم والمقدم فى نفس الوقت . وكما يقول الرسول : « لأن فصحنا أيضا المسيح قد ذبح لأجلنا » (١ كو ٥ : ٧) . وبهذه العملية ، أى عملية الذبح على الصليب ، استطاع المسيح بدمه أن يقطع عهدا جديدا مع الناس والله ، إذ أنه دخل إلى الآب بدم صليبه لكى يكفر عن العالم وعن خطايا العالم (عب ٩ : ١٢ — ٢٧) .

إن العهد الجديد الذى قطعه السيد مع العالم بموته على الصليب يختلف اختلافا كبيرا عن العهد القديم ، فإن هذا الأخير كان يحتوى على طقوس وفرائض كلها ناقصة ومعمول بها لوقت معين (عب ٩ : ١ ، ١٠) ، أما المسيح « فليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبديا ... » (عب ٩ : ١٢ ، ١٤) . ففى تلك الليلة يظهر المسيح رغبة قوية فى القيام بعمل هذا العهد الجديد ، فهو الشخص الذى جاء لا لكى يلغى الناموس بل ليكمله . وهنا نرى الكمال الذى يصل إلى قمته عندما يقدم نفسه كخروف بلا عيب وبلا دنس . إنه حمل الله الذى رآه يوحنا فقال : « هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) . أليس لهذا السبب أراد يوحنا أن يكتب مشددا على أن يوم الفصح كان يوم الجمعة الذى رفع فيه المسيح على الصليب ، ففى الساعة التى كان يذبح فيها عادة الخروف وهى بين الساعة الثالثة والساعة الخامسة بعد الظهر من يوم ١٤ نيسان ، ففى ذلك الوقت أى من الساعة الثالثة كان المسيح معلقا على الصليب « وكانت الساعة الثالثة فصلبوه » (مر ١٥ : ٢٥) .

فإن كنا قد لاحظنا فى دراستنا لمشكلة يوم صلب المسيح والعشاء الربانى أن الأناجيل الثلاثة الأولى حاولت أن تبين أن السيد قام بفريضة العشاء الربانى فى أثناء عيد الفصح ، بينما حاول يوحنا توفيق حادثة موت

المسيح على الصليب مع تقديم خروف الفصح ، فإن يوحنا يريد أن يبرز هذه الحقيقة السامية العظيمة وهى أن المسيح المرموز إليه بهـذا الحمل الذى كان يقدمه الاسرائيليون كل عام ، قد أصبح هو نفسه ذلك الحمل ، فالحقيقة قد حل محل الرموز ، ولهذا السبب فقد أشار يوحنا فى إنجيله إلى أن المسيح مات يوم الفصح ١٤ نيسان ، أى اليوم الذى كان يقـدم فيه خروف الفصح • ومع أن يوحنا يتكلم عن «العشاء» لكنه لا يعطى له نفس الصبغة الطقسية والأهميـة الفصحية التقليدية التى وصفه بهـا الإنجيليون الثلاثة (يو ١٣ : ١ ــ ١١) • ففى هذا العشاء لا يتكلم عن خبز أو عن كأس كما فعل كتاب الأناجيل الثلاثة ، وربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن يسوع تكلم عن الخبز الحى النازل من السماء عندما قال لهم : « ••• الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم » (يو ٦ : ٤١ ــ ٥٩) •

فبالرغم من سمو كلمات المسيح وعمقها فى كل من الفصلين المذكورين (٦ : ٤١ ــ ٧١ ، ١٣ : ١ ــ ١١) • فإنهما لا يشيران بطريقة واضـحة وصريحة الى ممارسة طقسية ورسمية لفريضة العشاء الربانى ، على عكس ما نلاحظه فى الأناجيل الثلاثة الأولى عنـدما تتكلم عن العشـاء الربانى فإنها تصبغه بصبغة طقسية فريضية ، فهناك الخبز والـكأس ، وكأس البركة •••

ومن هذه الفصول نستنتج أن المسيح أسس فعلا تلك العشية ، فى أثناء هذا العشاء الوداعى فريضة العشاء الربانى ، فإن كان الإنجيليون الثلاثة (متى ، مرقس ، لوقا) قد ذكروا أن هذا العشاء تم فى يوم ١٤ نيسان أى فى يوم الفصح ، فإنهم أرادوا بذلك بأن يحل العشاء الربانى محل الفصح ، لأنه الفصح الجديد ، لعمل عهد جديد مع المفديين ، كمـا

يقول هو نفسه : « لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد ، الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (مت ٢٦ : ٢٨) •

الافخارستيا أو العشاء الربانى :

وبما أننا نتكلم عن العشاء الأخير الذى نسميه نحن الإنجيليون بالعشاء الربانى والذى يسميه الاخوة الكاثوليك بالافخارستيا ، يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على عقائد بعض الطوائف الرئيسية فى الافخارستيا أى العشاء الربانى •

والغرض من تعرضنا لهذه المشكلة الحساسة ، هو أولا وقبل كل شيء ، أن الكتاب يذكرها ويتكلم عنها • وثانيها لا نهدف من ذلك بأى حال من الأحوال إلى تجريح الاخوة الذين لا يشتركون معنا فى نفس الفكر والعقيدة • وثالثا هى فرصة ذهبية فيها نستطيع بروح الصلاة والايمان ، ثم بروح التفهم الذكى المعقول وغير المتعصب أن نناقش المكتوب ، الأمور التى كنا نخشى قبلا مناقشتها والتحدث فيها •

فإن الشخص الذى تشبع بالروح المسكونية الحقيقية لا يسعى إلى كيف يمكنه أن يقنع الآخرين بمذهبه وأفكاره ومعتقداته ، بل عليه أن يحاول جاهدا أن يفهم أولا مذهب وأفكار ومعتقدات الآخرين ، وعندما تحاول المذاهب كلها مخلصة أن تفهم معتقدات بعضها بعضا ، وتضعها أمام المكتوب بنفس الروح ، تاركة لروح الله الفرصة للعمل والإقناع بالحقيقة الكاملة التى لا يملكها إلا روح الله لأنه روح الحق ، فعندئذ ، وعندئذ فقط نستطيع أن نقول : « يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ » (اع ٩ : ٦) «قد أقنعتنى يا رب فاقتنعت» (إر ٢٠ : ٧) •

وبما أن هذا الموضوع واسع وشائك ، ويعوزنا الوقت إذا أردنا

الدخول فى تفصيلاته الدقيقة ، فسنكتفى بالاشارة إلى بعض المعتقدات الرئيسية فقط .

مفهوم الكنيسة الكاثوليكية :

إن الكنيسة الكاثوليكية ، وتشاركها فى نفس العقيدة ـــ مع اختلاف بسيط ـــ الكنيسة الأرثوذكسية ، تؤمن بأن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد المسيح الحقيقى وإلى دمه الحقيقى ، بعد أن ينطق الكاهن بالعبارات الخاصة بالاستحالة . فإن الخبز والخمر اللذين كانا خبزا وخمرا قبل الصلاة التى تدعى الصلاة الجوهرية ، تحولا بطريقة معجزية وسرية إلى جسد المسيح (دمه ولحمه) وهـذه العملية تسمى بعملية الاستحالة (TRANSSUBSTANTIATION) . وهذا الاصطلاح يمكن ترجمته إلى العربية بالآتى : «استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم يسوع المسيح». وبتحليل هذا الاصطلاح تحليلا لغويا يمكننا أن نقول بأن مادة الخبز والخمر تحولتا جزئيا وكليا إلى جسد يسوع . فمع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزا وخمرا ولا يفقدان أى شىء من خواصهما الطبيعية ، لا فى الطعم ولا فى اللون ، إلا أنهما استحالا بطريقة سرية معجزية إلى دم ولحم يسوع المسيح . فالاستحالة التى حدثت هنا هى استحالة كلية ، فإن عقيدة الاستحالة (TRANSSUBSTANTIATION) لا تعنى أن يسوع حاضر بطريقة ما فى هذا الخبز وهذا الخمر ، ولا تعنى أيضا أن يسوع حاضر بطريقة حقيقية واضحة وفعلية فقط فى الخبز والخمر ، بل أن هذا الخبز وهذا الخمر قد تحولا فعليا وحرفيا إلى جسد المسيح . فجسد المسيح كله حل محل هذا الخبز وهذا الخمر . فبعد أن ينطق الكاهن بالكلمات الجوهرية ، لا يعد الخبز خبزا ولا الخمر خمرا ؛ بل إن هاتين المادتين أصبحتا فعلا وعملا جسد المسيح يسوع . فالشخص المشترك يتناول أو بالمعنى الأصح يأكل بطريقة فعلية وحقيقية جسد

المسيح فى شكل الخبز والخمر . هـذا هو المفهوم الكاثوليكى لعقيـدة « الافخارستيا » .

المفهـوم اللوثرى :

يقول لوثر : « بما أنه لا توجد نصوص كتابية تقول بأن الخبـز ليس جسد المسيح ، يجب علينا إذن قبول كلام السيد بطريقة بسـيطة كما نطق به : فلا يجب إذن تغيير هذا الكلام بل قبول حقيقة أن الخبـز هو جسد المسيح » . ويواصل كلامه فيقول .. « إننى واثق تماما بأن الله لا يكذب وبما أن كلمته تعرفنا بأن جسد ودم يسوع موجودان فى هذا السر[1] . فيجب تصديقها » . وفى مصـاهدة سنة ١٥٢٧ يقـول لوثر : إن كلمات السيد : « هذا هو جسدى » كلمات صحيحة لأنها تبرهن على أن يسوع يريد أن يثبت بطريقة واضحة وصريحة عندما قدم الخبز ، أنه أعطى جسده للأكل . وعلى هذا الأساس فنحن نؤمن ونعترف بأننا نأكل ونشرب بطريقة حقيقية وحرفية جسد المسيح فى أثناء تنـاول العشـاء الربانى .

من هذه الاقتباسات السابقة ومن نصوص كثيرة أخرى كتبها لوثر فى هذا الموضوع نرى بطريقة لا تدع مجالا للشك ، بأن المصلح الراهب الأغسطينى الألمانى كان يؤمن إيمانا ثابتا بحضور جسد المسيح الحقيقى فى الخبز والخمر ، وهذا الحلول أو حضور المسيح فى الخبـز والخمـر ليس حضورا روحيا كما سنرى فيما بعد فى عقيدة كلفن ، بل هو حضور حقيقى وفعلى .

(١) انظر كتاب Suss بعنوان La Communion au Corps du Chirst ص ١٤٨ — ١٥١ .

والسؤال الذى يتسلل إلى ذهن القارىء هو : ما هو الفرق إذن بين عقيدة لوثر وعقيدة الكنيسة الكاثوليكية إذا كان الاثنان يؤمنان بحضور المسيح الحقيقى فى الخبز والخمر ؟ وبالرغم من التشابه الكبير بين العقيدتين ، لكنه يوجد اختلاف وهو أن لوثر رفض رفضا باتا استعمال الاصطلاح الكاثوليكى الاستحالة (La Transsubstantiation) واستعمال بعض الاصطلاحات الأخرى مثل « الوجود المزدوج » (CONSUBSTANTIATION, IMPANATION) فهذه الاصطلاحات لا تعنى استحالة الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ؛ بل حضور يسوع المسيح بطريقة حرفية وصحيحة فى هذا الخبز وهذا الخمر .

فحلول المسيح فى الخمر وفى الخبز لا يلغى وجودهما ، كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية ، بل هو حضور مزدوج . ويمكننا أن نشرح فكرة لوثر والأفخارستيا بالرجوع إلى عقيدة التجسد مع بعض الاختلاف . فالإله قد حل فى جسد الانسان يسوع ، فالله الحال بملء لاهوته فى جسد يسوع ، لم يلاش أحدهما الآخر ، بل كان الله الانسان يسوع ، الاثنان معا ، وكل منهما احتفظ بمميزاته اللاهوتية والبشرية .

وهذا ما يحدث فى سر الافخارستيا ، فإن الخبز يظل خبزا والخمر يظل خمرا ، ولكن فى هذا الخبز وفى هذا الخمر يحل يسوع بجسده كاملا. فالذى يفرق عقيدة لوثر عن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية هو أن لوثر يؤمن بالوجود المزدوج ، بينما الكنيسة الكاثوليكية تؤمن بأن حلول يسوع فى الخمر والخبز بعد صلاة التقديس ، يزيل العناصر المادية . ويحل جسد المسيح كله محل هذه العناصر . وهذا ما نلاحظه فى قرارات مجمع « ترانت » : عندما قال المسيح فادينا بأن ما يقدمه فى شكل الخبز كان فعلا جسده الحقيقى . فعند تقديس العناصر الافخارستية تنفصل مادتى الخبز والخمر عن خواصهما المحسوسة ويحل محلهما جسد

المسيح . فبعد التقديس لم يعد عنصرا الخبز والخمر خبزا وخمرا لكنهما يصبحان جسد ودم المسيح تحت مظهر الخبز والخمر (راجع كتاب SUSS ص ١٨٦ ـــ ١٩٠ ـــ النص الفرنسى) .

لقد حاول لوثر أن يتخلص من عقيدة الاستحالة ، فقبل عقيدة الحلول أو الوجود المزدوج ، لأنه كان يؤمن فعلا بالحضور الحرفى للمسيح فى الافخارستيا . وقبل أن نترك لوثر نلخص عقيدته فى الآتى :

١ ـــ إن عقيدة الوجود المزدوج اللوثرية هى تخفيف لعقيدة الاستحالة الكاثوليكية .

٢ ـــ وجود العناصر المادية بدون تغيير .

٣ ـــ حلول المسيح فعليا فى هاتين المادتين .

مفهوم كلفن :

لقد حاول كلفن أن يقوم بدور الموفق العقائدى بين لوثر وزوينكلى ، فهو يعتقد بأن المسيح يحضر فعلا فى العشاء الربانى ولكن حضوره حضور روحى ، ولقد شدد كثيرا على حضور المسيح الروحى فى العشاء الربانى ، ثم شدد أيضاً على عطية الروح القدس ، فالروح القدس هو الذى يعمل فى الانسان المشترك لكى يقنعه بأن المسيح موجود فعلا ولكن بطريقة روحية ، غير ملموسة أو محسوسة ، فى العشاء الربانى . فوجود السيد فى هذا العشاء حقيقة روحية لا يمكن إنكارها ، فالخبز الذى نكسره والخمر الذى نشربه عند الاشتراك فى المائدة ، هما علامة ملموسة محسوسة يشيران إلى وجود يسوع بالروح . وهما يمثلان أيضا جسد المسيح المكسور ودمه الذى سال . أى أن المسيح يقدم نفسه

كالطعام الحقيقى الحى الذى يجب أن نأكله بطريقة روحية . فالأكل من جسد المسيح والشرب من دمه لا يعنيان الأكل والشرب بطريقة ملموسة ومادية وجسدية ، بل المسيح يصبح الطعام الروحى . هذا ما يعنيه بقوله : « لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق ... » (يو ٦ : ٥٥ ـ ٥٩) . وهنا ينتحى كلفن ناحية التفسير المجازى وليس التفسير الحرفى لكلمة الله ، وفى حقيقة الأمر لا توجد أية علاقة بين جسده الحقيقى وبين العشاء الربانى ، ففى العشاء الربانى يجب أن نتذكر موت وقيامة السيد ، ولكن لا نأكل فى أثناء العشاء الربانى جسد السيد إلا بطريقة روحية رمزية . ولقد شدد كلفن كثيرا على حقيقة وجود المسيح بطريقة روحية فى العشاء الربانى ، وبهذا أراد أن يتجنب الخطأ الذى وقع فيه لوثر وهو اعتقاده بأن المسيح يحضر فعلا بطريقة حقيقية فى الخبز والخمر . ثم أراد أيضا أن يتجنب مسلك زوينكلى الذى بدا له خطيرا . ولذلك فقد تبنى هذا الطريق الوسط . ومما لا شك فيه أن كلفن قد انتقد بشدة عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وتمسكها الشديد بحرفية بعض النصوص الكتابية ثم تهاونها فى بعض نصوص أخرى كان يجب عليها أن تتمسك بها بأكثر شدة وأن تسهر على تطبيقها بأكثر أمانة(١) .

مفهـوم زوينكلى :

إن زوينكلى يرفض رفضا كليا وجزئيا مفهوم الكنيسة الكاثوليكية ، كذلك مفهوم لوثر وكلفن بخصوص حضور المسيح فى العشاء الربانى ، سواء بطريقة حقيقية أو بطريقة روحية . إن ممارسة العشاء الربانى تعنى بالنسبة للمصلح السويسرى ، ذكرى لموت ولقيامة المسيح . فإن

(١) لدراسة هذا الموضوع راجع كتاب
Jean Calvin. L'Institution Chrétienne. Livre 4.
ص ٣٤٧ ـ ٤٠٢ ثم كتاب Suss وكتاب Max. Thurain

زوينكلى وأتباعه ، مثل كار لوستتاد بيتر وأكولامپاد ، لا يرون فى العشاء الربانى إلا مجرد ذكرى ، فإن الخبز المكسور والخمر المصبوب يذكران بموت الرب الذى قدم نفسه لأجلنا . وفى كل مرة يجتمع الاخوة لممارسة هذه الفريضة يتذكرون هذه الحادثة التاريخية العظيمة وينادون بها .

هذه هى المذاهب الأربعة الرئيسية وعقائدها فيما يختص بموضوع العشاء الربانى . ولقد حاول أتباع كل مذهب من هذه المذاهب أن يجدوا نصوصا كتابية تؤيد قولهم ومذهبهم ، وفعلا وجد كل مذهب من هذه المذاهب بعض الآيات التى إذا نظرنا إليها منفردة ومنفصلة عن قرينتها ، لأيدت الغرض الذى من أجله اقتبست . ولهذا السبب يجب الرجوع إلى الكتاب بجملته وليس إلى آية منفردة هنا وإلى آية منفردة هناك . ولقد ذكر العشاء الربانى فى الفصول الآتية : (متى ٢٦ : ٢٦ ، ٢٩ ، مر ١٤ : ٢٢ ـ ٢٥ ، لوقا ٢٢ : ١٥ ـ ٢٠ ، ١ كو ١١ : ٢٣ ـ ٢٦ كما يجب دراسة يوحنا ٦ : ٣٢ ـ ٧١) .

إن أقدم فصل من هذه الفصول المذكورة أعلاه قد كتب فى حوالى سنة ٥٥ ب م . (رسالة كورنثوس) وأحدثها كتب حوالى سنة ١٠٠ ب م (انجيل يوحنا) . فمعظم هذه الفصول تعبر إذن عن عقيدة الكنيسة الأولى فى موضوع فريضة العشاء الربانى ، ونقول بأن معظم هذه الفصول ، وليس كلها ، لأن يوحنا ٦ لا يتفق أسلوبه وطريقة ممارسة الفصح فى الأناجيل الثلاثة الأولى . ولقد سبق أن رأينا فى دراستنا لعيد الفصح ، أن الأناجيل الثلاثة الأولى توفق يوم تأسيس العشاء الربانى مع هذا العيد ، وهنا نسأل هذا السؤال : هل أراد كتاب هذه الأناجيل الثلاثة التوفيق بين عيد الفصح وبين العشاء الربانى حتى يحل العشاء الربانى محل عيد الفصح ؟ ...

تتفق معظم الطوائف المسيحية وأقدمها ، على أن العشاء الربانى حل محل الفصح ، كما أن العماد حل محل الختان . إننا نتفق أيضا مع هذه الأغلبية من الطوائف فى هذا الأمر ، واتفاقنا معها لا يرجع سببه إلى أغلبيتها وأقدميتها ، لأن التاريخ يعلمنا غير ذلك ، ولكن إن كنا نتفق معها فى هذا الأمر ، فلأننا نعتقد بأنها على حق فى هذا الأمر . فكما يبدو لنا أن محاولة كتاب الأناجيل الثلاثة لتوفيق الفصح اليهودى مع العشاء الربانى كانت تهدف إلى الوصول إلى هذه النتيجة : وهى أن المسيح الذى حل محل خروف الفصح أسس لنا ليلة العشاء الربانى فصحا جديدا ، قطع عهدا جديدا مع شعب جديد ...

وهنا ينتهز هذه الفرصة الاخوة الذين يؤمنون سواء بالاستحالة أو بالحلول المزدوج ، فيقولون إذا كان العشاء الربانى حل فعلا محل الفصح، فالمسيح يقدم نفسه فى كل مرة نقيم فيها فريضة العشاء الربانى لأن « المسيح هو فصحنا الذى ذبح لأجلنا » (١ كو ٥ : ٧) ، أو على الأقل بما أن الأفخارستيا حلت محل خروف الفصح ، وبما أن يسوع نفسه قال : « خذوا كلوا هذا هو جسدى ... اشربوا منها كلكم ... » (مت ٢٦ : ٢٦ — ٢٨) ، فإن الاستحالة أو على الأقل الحضور المزدوج فى الافخارستيا أمر يجب قبوله والإيمان به .

ويقتبس الذين يؤمنون بالاستحالة والحضور المزدوج بعض الفصول التى تبدو للقارىء لأول وهلة بأنها تؤيد هذا الرأى ، وخاصة أقوال يوحنا التى لا تمت بأية صلة فى حقيقة الأمر إلى العشاء الربانى ، إذ أن هذه الأقوال التى سجلها يوحنا هى عبارة عن عظة ألقاها السيد على الجماهير لكى يبين فيها الفرق بين المن الذى أكله الإسرائيليون فى الصحراء وماتوا ، وبين الخبز الحى ، شخصه الكريم : « أنا هو الخبز

الحى الذى نزل من السماء • إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد • والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) • إن يوحنا يسجل لنا عبارات كثيرة من هذا النوع : « من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية ••• لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق ••• » (يو ٦ : ٣٢ ـــ ٧١) • على هذه العبارات التى تدل فى ظاهرها على أن المسيح يتكلم عن الاستحالة أو الحلول المزدوج ، بنى الكثيرون عقيدتهم فى موضوع العشاء الربانى •

وهنا نريد أن نلفت نظر القارىء إلى أمر هام ، وهو أن المسيح لم ينطق بهذه الأقوال التى اقتبسناها من يوحنا ، فى أثناء العشاء الربانى ، بل كما سبق أن أشرنا ، أن السيد تكلم بهذه الكلمات فى مسامع الجماهير كعظة ، وليس لممارسة فريضة العشاء ، ومن الغريب والعجيب أن يوحنا لا يذكر شيئا ، لا من قريب ولا من بعيد ، عن جسد الرب المكسور أو دمه الذى سال على الصليب ، عند تناول الطعام الذى يمكننا أن نعتبره عشاء وداعيا (يو ١٣ : ١ ـــ ١١) • فلو كان المسيح يريد أن يعلمنا بأن جسده ودمه سيتحولان أو يحلان فى الخبز والخمر ، لكان لا بد له أن يشير إلى هذا الأمر عند تناول العشاء الذى يتكلم عنه القديس يوحنا (ف ١٣ : ١ ـــ ١١) ، والذى يشير فيه أيضا إلى أن ساعته قد جاءت لينتقل إلى الآب • ولكن كل أقوال المسيح الواردة فى الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا والتى يستخدمها المؤيدون لنظريتى الاستحالة والحلول المزدوج ، قد نطق بها قبل عيد الفصح بمدة لا بأس بها •

ولقد كان الغرض من هذه الأقوال هو إظهار الفرق الشاسع بين الخبز الذى أعطاه الله لاسرائيل والخبز الحى أى يسوع نفسه • وإنجيل يوحنا يمتاز بالاستعارات والتشبيهات ، فكم من الصفات والألقاب التى

أعطاها المسيح لنفسه والتى لقبه بها الآخرون ، فيوحنا قد أشار إليه بالقول : « هوذا حمل الله » (يو ١ : ٢٩ ، ٣٩) • وكانت الرؤيا يقول : « مستحق هو الخروف المذبوح » (رؤيا ٥ : ١٢) • ولقد قال السيد عن نفسه : « أنا هو خبز الحياة » (يو ٦ : ٣٥ ، ٤٨) ، « أنا هو الباب » (يو ١٠ : ٩) ، « أنا هو الطريق » (يو ١٤ : ٦) ، « أنا هو الراعى الصالح » (يو ١٠ : ١١) ، « أنا هو نور العالم » (يو ٨ : ١٢) ، « أنا هو الحق » (يو ١٤ : ٦) ، « أنا هو الكرمة » (يو ١٥ : ١) ••• الخ• فهل يمكننا القول بأن السيد قد تحول إلى هذه المواد التى وصف نفسه بها ؟ ! ! هل يمكننا القول بأن السيد بعد أن قال : « أنا هو الطريق » ، أصبح فعلا طريقا ماديا ملموسا محسوسا ، أو أصبح بابا ، أو كرمة ، أو قطعة من الخبز ••• ؟ ! !

فكلنا نتفق على أن هذه الأسماء ما هى إلا صفات وصف السيد بها نفسه ، ولم يتحول ، بأى حال من الأحوال ، إلى أى مادة من هذه المواد التى تشير إليها هذه الصفات • فلماذا إذن نحاول أن نطبق هذه الصفات التى نطق بها السيد فى الأصحاح السادس ، والتى لا تمت بأية صلة إلى الأفخارستيا ، بطريقة حرفية ؟ فالكلام الذى نطق به يسوع هو كلام مجازى إذن وليس كلاما حرفيا • وكأنى بالمسيح يخشى من المادية والحرفية القاتلتين ، فيقول فى نفس الأصحاح السادس : « الروح هو الذى يحيى وأما الجسد فلا يفيد شيئا والكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة » (يو ٦ : ٦٣) والمسيح نطق بهذه الكلمات أى بأن كلامه « روح وحياة » عندما أدرك أن اليهود فهموا عظته هذه عن الخبز الحى بطريقة حرفية مادية ، ولذلك قالوا له : « يا سيد أعطنا فى كل حين هذا الخبز » (يو ٦ : ٣٤) • وهذا هو نفس ما حدث مع السامرية عند بئر يعقوب التى فهمت كلام المسيح عن الماء الحى بطريقة حرفية مادية ، فقالت له المرأة : « يا سيد أعطنى هذا الماء لكى لا أعطش ولا آتى إلى هنا

لأستقى » (يو ٤ : ١٥) . والأمر لا يحتاج إلى توضيح أكثر أو شرح أطول ، إذ أن يوحنا معروف بأنه يستعمل فى كتاباته كثيرا من المجازات والتشبيهات ؛ فلا يمكننا قبول كل أقوال المسيح بطريقة حرفيـــة : « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيى » (٢ كو ٣ : ٧) .

فإن كان يوحنا يحب الاستعارة والتشبيه ، واستعمل هذا الأسلوب فى الكتابة عن شخص المسيح ، ولا يمكننا أن نفسره تفسيرا حرفيا ، فما هو موقفنا من أقوال الأناجيل الأخرى والرسالة الأولى لأهل كورنثوس ؟ ألم يقل السيد : « خذوا كلوا هذا جسدى .. اشربوا منها كلكم .. » (مت ٢٦ : ٢٦ ، ٢٧) ، « خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم ..» (١ كو ١١ : ٢٤) .

لقد سبق القول بأن كثيرين يميلون إلى فكرة أن العشاء الربانى حل محل الفصح ، ويحتمل صحة هذا الفرض ، ولكن فى أثناء العشاء الربانى كان المسيح يشير إلى جسده الذى سيكسر ، صحيح أن الصيغة المستعملة فى الكتاب هى صيغة المــاضى ، وأما فى حقيقـــة الأمر فهى تشــير إلى المستقبل ، « الغد » الذى فيه سيكسر جسد المسيح . وسواء أكان يظن أن المسيح قد قام بالعشاء الربانى قبل صلبه بيومين ، أو فى الليلة التى أسلم فيها (١ كو ١١ : ٢٣) ، فهذا يدل على أن السيد بعد أن قــال لتلاميذه : « خذوا كلوا هذا هو جسدى » بقى معهم حيــا وخرج إلى بستان جثسيمانى ، الأمر الذى لا يتفق مع عقيدة الاستحالة ، الذى يقول بأن الخبــز والخمر يتحولان بطريقة سرية ومعجزية إلى جســد ودم المسيح .

فماذا يريد إذن المسيح بهذه الكلمات : « خــذوا كلوا هذا هــو جسدى » ؟ . إن المسيح لا يريد بهذا القول أن يعطى جسده حرفيا للأكل

ودمه حرفيا للشرب ، بل أراد أن يعبر عن الموت الذى سيجتازه بعد ساعات قليلة ، إذ أن ساعته قد جاءت وكان لا بد له أن يبذل نفسه ليس فقط عن خاصته الذين أحبهم ، بل عن العالم كله ، وبنظرة ولو سطحية دون الدخول فى التفصيلات التفسيرية نلاحظ أن الرسول بولس يعتبر أن كسر الخبز هو شركة جسد المسيح (١ كو ١٠ : ١٦) ، ويقول الراحل المحبوب الدكتور ابراهيم سعيد : « فضلا عن هذا ، فإن بولس الرسول يؤكد أن الخبز بعد حلول البركة عليه ، لم يزل بعد خبزا » ، « الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » ؟ فإذا قد اعتبره الرسول «شركة» جسد المسيح لا « جسد » المسيح بالذات » (١) • وحتى فى اللحظات الأخيرة من هذا العشاء التذكارى ، يتكلم المسيح عن « الخمر » الذى كان أمامهم فى الكأس ، على أن الخمر ما زال خمرا والخبز ما زال خبزا حتى بعد صلاة السيد نفسه •

وهنا نريد أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى نقطة هامة : لقد قام السيد بإجراء معجزات عظيمة وخارقة للعادة ، وهذه المعجزات التى أجراها الرب من شفاء الأمراض المستعصية ، إقامة الموتى ، تهدئة العواصف ... الخ ، لم تكن معظم هذه المعجزات ضد العقل البشرى ، بل كانت تفوق إدراك البشر • فعلى سبيل المثال ، لو قامت لجنة طبية بالكشف على الرجل الذى فتح المسيح عينيه قبل أن تجرى له هذه المعجزة لقررت بأنه أعمى ، ثم لو قامت نفس اللجنة بالكشف على هذا الرجل بعد الشفاء ، لقررت بأنه يبصر.(نفس المثل يمكن أن يطبق على اقامة لعازر ومعجزات أخرى) • هنا تقف اللجنة الطبية عاجزة عن أن تعطى تفسيرا علميا لهذه الحادثة ، ولكنها تستطيع فى نفس الوقت أن تقرر علميا بأن الرجل الذى كان أعمى ، أصبح يبصر : أمر يفوق ادراك العقل ولكنه ليس

(١) انظر شرح بشارة لوقا للدكتور القس ابراهيم سعيد ص ٥٤٦ •

ضد الحقيقة أو ضد العقل ، لأن الرجل الذى كان أعمى شفى فعلا • فالواقع هو برهان على حقيقة المعجزة•وهذا ما لا نراه فى سر الأفخارستيا فالخمر يظل خمرا ، والخبز يظل خبزا بعد صلاة التقديس ، وكل الحواس من بصر ولمس وشم وذوق تشهد كلها بعدم وجود أى تغيير •

ولكن إن كان لا يوجد تغيير جوهرى فى الخبز والخمر اللذين نتناولهما فى العشاء الربانى ، فاننا نشترك مع المسيح نفسه الذى قدم نفسه كذبيحة حية مرضية أمام الله ، لكى نصير بفضل هذه الذبيحة الكاملة والخالية من كل خمير ، قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة ، فنحن أى شعب الله كله كهنة : « لأنه جعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه ••• » (رؤ ١ : ٦ ، ١ بطرس ٢ : ٩) ، يجب علينا أن نشترك فى هذه الفريضة بروح التعبد والخشوع ، لأن المسيح كاهننا الأعظم ، يشترك معنا وحاضر بطريقة روحية وغير منظورة أو ملموسة • فكل من يقترب من هذه المائدة باستخفاف واستهتار أو بعدم الاحترام اللائق بحضور المسيح ، فإن ذلك الشخص « يأكل ويشرب دينونة لنفسه » •

الرسول بولس يقول : « فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجىء » • وإنى أعتبر هذه الكلمات جوهرية وفى غاية الأهمية ، ففى الوقت الذى تتعرض فيه المسيحية فى العالم كله لهجمات قاسية عنيفة ، هجمات من الداخل ، تيارات لاهوتية وسياسية فى داخل الكنيسة نفسها ، وتيارات إلحادية مادية من الخارج ، فى هذا الوقت تحتاج كنيسة المسيح إلى أن تخبر بموت وقيامة الرب إلى أن يجىء • هذه هى رسالة الكنيسة اليوم ، أن تنادى بالخبر السار ، تنادى بانجيل المسيح ، فلننادِ كلنا إذن بهذا الخبر العظيم : يسوع مخلص العالم • ولنترك التعصب الذى يؤدى الى الهدم والانقسام •

(م ٢٢ — تاريخ الفكر المسيحى)

الفصل العاشر

موت المسيح وقيامته

لقد حاولنا أن نشرح فى الصفحات السابقة قضية العشاء الربانى وارتباطها بالفصح • وكيف أن إنجيل يوحنا يشدد على أن حمل الله الذى جاء لكى يرفع خطية العالم صلب يوم الجمعة • وعندما نتكلم عن صلب المسيح لا يمكننا أن نهمل الناحية التاريخية ، خصوصا أن الأناجيل الأربعة التى تسجل لنا حادثة محاكمة وموت السيد ، تذكر لنا أسماء بعض الشخصيات الرومانية واليهودية التى سجلها التاريخ الرومانى واليهودى • والسؤال الذى يطرح نفسه الآن بخصوص موضوع موت المسيح هو : هل توجد أدلة تاريخية موثوق فيها ، تتكلم عن موت المسيح ؟ هل بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى الذى على يده صلب المسيح ، قدم تقريرا رسميا إلى الامبراطور يشرح فيه قضية محاكمة يسوع والسبب الذى من أجله حكم عليه بالموت ؟ •••

إن الأناجيل الأربعة تذكر لنا مؤامرة القبض ومحاكمة يسوع وموته (متى ٢٦ : ٤٧ ، ٢٧ : ٦٦ ، مر ١٤ : ١ — ١٥ ، ٤٧ ، لو ٢٢ : ٣٩ ، ٢٣ : ٤٩ ، يو ١٨ : ١ — ١٩ ، ٤٢) • كما أنها تذكر أيضا أسماء رؤساء الكهنة اليهود والحاكم الرومانى (أو الحاكمين الرومانيين : بيلاطس وهيرودس ،

الذين اشتركوا فى محاكمة السيد • ولكن الوثائق التاريخية ، غير الانجيلية ، التى تتكلم عن يسوع وموته قليلة جدا • والأمر الذى أدهش المؤرخين كثيرا ، بل يعتبر حجة وعثرة بالنسبة لهم ، أن الأناجيل تسجل لنا بوضوح قصة القبض على يسوع ومحاكمته وموته ، وأن الذين قاموا بالحكم فى هذه القضية هم اليهود والرومان ، رؤساء الكهنة الذين كانوا يمثلون السلطة الدينية اليهودية ، وبيلاطس البنطى الذى كان يمثل السلطة الحاكمة الرومانية المستعمرة لتلك البلاد فى ذلك الوقت • وبالرغم من ذلك فإن السجلات الرومانية المعروفة حاليا لا تذكر لنا شيئا عن محاكمة يسوع ولا عن موته ؟ وهنا يتساءل بعض المؤرخين واللاهوتيين : كيف يمكن أن يصدر بيلاطس البنطى حكمه باعدام شخص فى أمة خاضعة لسلطة روما دون أن يرسل تقريرا مفصلا أو حتى موجزا عن هذه القضية • خصوصا أن رؤساء الكهنة والكتبة قدموه إلى الحاكم الرومانى كمفسد للأمة ، وكإنسان ثائر ضد روما والسلطة الحاكمة • « وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلا إنه هو مسيح ملك ••• فكانوا يشددون قائلين إنه يهيج الشعب ••• » (لو ٢٣ : ١ ـ ٧) •

فالتهمة التى أراد اليهود إلصاقها بالسيد ، هى تهمة سياسية وخطيرة جدا ، فلم يتهموه أمام بيلاطس بأنه نبى كذاب أو مجدف ، أو هرطوقى•• لأن كل هذه الأوصاف التى يمكن لليهود أن يصفوا بها هرطقة يسوع ، لا قيمة لها فى عينى بيلاطس الحاكم الرومانى • فإن مهمته ليست حفظ الدين اليهودى معصوما من الغلط والهرطقة ، بل السهر على سلامة المصالح الرومانية ، والضرب بشدة على رأس كل من يقاوم سلطان قيصر• وبما أن اليهود يعرفون ذلك جيدا ، فلقد اتهموا السيد بأنه يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر ، بل أنه يدعى بأنه مسيح ملك ، أى مقاوم

لسلطان قيصر ويريد أن يحرر إسرائيل • فكان من المنتظر إذن أن يعير بيلاطس الأمر اهتماما أكثر وأعظم ، وكان من الواجب أن يكتب إلى قيصر تقريرا مفصلا يشرح فيه كيف استطاع أن يصلب الشخص الذى ادعى لنفسه سلطان المسيا • ولكننا لا نجد فى السجلات الرومانية أى أثر لهذه القضية ، أى قضية محاكمة السيد أمام بيلاطس •

لماذا إذن هذا الصمت الذى يكاد يكون كاملا بخصوص قضية محاكمة يسوع ؟ فى حقيقة الأمر إن الصمت لم يكن كاملا • فإن تلمود اليهود يقص علينا رواية ، وإن كانت لا تتفق ورواية الأناجيل لأنها تهدف إلى تبرير موقف اليهود من يسوع ، إلا أنها تسجل لنا شيئا عن قضية محاكمة يسوع • وتقول قصة التلمود : « لقد علق يسوع الناصرى على خشبة فى عشية عيد الفصح ، فعلى مدى أربعين يوما كان يتقدمه مناد صارخا : لقد استعمل السحر وأغوى اسرائيل بالعصيان ، فهو إذن مستحق الرجم • فإن كان يوجد من يدافع عنه لكى يبرر موقفه فليدافع ، ولكن لم يوجد من يدافع عنه أو من يبرره • ولذلك قضى عليه فى عشية الفصح » • فإن كان هدف هذه الشهادة التى سجلها التلمود هو تبرير اليهود فى صلب المسيح ، إلا أنه يقدم وثيقة حية قوية عن أن يسوع صلب فعلا ، وأن اليهود هم صالبيه •

وأما فيما يخص قلة الوثائق الرومانية والصمت الذى التزمه المؤرخ اليهودى المعروف يوسيفوس فلافيوس بخصوص حياة وموت المسيح ، فقد سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع(١) ، فمع أن يوسيفوس كان شحيحا جدا فى المعلومات التى أعطاها لنا عن يسوع ، إلا أن بعض المؤرخين الوثنيين سجلوا شهادات واضحة وصريحة عن يسوع ، فتاسيت الذى سجل حادثة

(١) انظر هذا الكتاب من ص ١٤٤ — ١٥١ .

حريق روما (١) يقول إن المسيحيين لقبوا بهذا الاسم بسبب نسبتهم إلى المسيح الذى فى عهد طيباريوس ، حكم عليه بالموت بيلاطس البنطى ... كذلك شهادة بلينوس الشاب وشهادة طاليس السامرى ، هؤلاء الكتاب يتكلمون عن موت المسيح • ولكن ما زال السؤال الخاص بمحاكمة يسوع معروضا : لماذا لا يوجد أى تقرير فى السجلات الرومانية عن موت المسيح ، وقد حكمت عليه محكمة رومانية ؟

وهنا نشير إلى ما سبق أن قلناه بخصوص هذا الموضوع وهو إن كنا لا نجد حتى الآن أى أثر لاسم يسوع فى التقارير الرسمية المرفوعة إلى روما ، فان ذلك يرجع إلى عدة حقائق :

١ ــ كان بيلاطس شخصا قاسيا متغطرسا ذا سوابق مع روما ومع الشعب اليهودى ، ومن هذه السوابق أنه حكم بقتل كثيرين دون محاكمة رسمية ودون كتابة أى تقرير عنهم لروما ، ولقد ذكر هذا أغريباس فى أحد تقاريره ضد بيلاطس •

٢ ــ كما أنه يحتمل أيضا أن بيلاطس لم يرسل تقريرا مفصلا أو موجزا إلى روما بخصوص قضية يسوع لأن يسوع لم يكن من الذين يتمتعون بالجنسية الرومانية ، فلا داعى إذن لارسال تقرير إلى روما عن هذه الحالة التى تختص بشخص يهودى •

---

(١) لقد ظن البعض خطأ بأن نيرون قام بحرق روما لكى يلصق هذه التهمة بالمسيحيين ، وحقيقة الأمر هى أن الامبراطور نيرون أراد التخلص من الأحياء القذرة ، وبناء مدينة جديدة تليق بالامبراطور الرومانى ، فأمر باشعال النيران فى بعض أحيائها . ويظن بأن البعض قد شاهده وهو ينظر الى النار المشتعلة التى تسبب عنها موت وتشريد وخراب المدينة وتدميرها ، وكان يضحك ضحكات هستيرية عالية ، فلكى يخلص نفسه من هذه الجريمة اتهم المسيحيين بحرق روما •

٣ ــ كما يحتمل أيضا أن بيلاطس اعتبر محاكمة يسوع قضية محلية لا تخص إلا البوليس المحلى ، فلا داعى لابلاغ روما بهذه القضية •

٤ ــ وهناك احتمال آخر ، لقد كان اليهود وبيلاطس فى صراع مستمر وعدم انسجام • فعندما قدم اليهود يسوع ، ظن بيلاطس أنهم يمدون له شركا لكى يوقعوا به أمام الامبراطور ، ولذلك فقد حاول بيلاطس بكل الوسائل الممكنة أن يتجنب الحكم على يسوع لأنه كان يخشى أن يدبر اليهود له مؤامرة بهذه القضية • ولهذا السبب فقد طلب بيلاطس من اليهود أن يحكموا على يسوع بحسب ناموسهم : « فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدا » (يو ١٨ : ٣١ ، ٣٢) • ولهذا السبب أيضا طلب بيلاطس ماء وغسل يديه أمام الجميع لكى يعلن أنه برىء من دم هذا الانسان (متى ٢٧ : ٢٤) •

أراد بيلاطس بعملية غسل يديه أمام الجميع وإعلانه براءة يسوع أن يتجنب المؤامرة التى كان يظن أن اليهود يحيكونها له ليرفعوا شكوى ضده لدى الامبراطور • وبما أن اليهود لم يقدموا فعلا شكوى ضده لدى الامبراطور بخصوص هذه القضية ، فإن بيلاطس لم يكتب لروما عنها ، وهكذا ظل الأمر غير معروف لدى روما ولم يسجل فى سجلاتها القانونية •

لقد فرضت كل هذه الاحتمالات لعدم وجود وثائق رسمية فى السجلات الرومانية التى تتكلم عن هذه القضية ، ولكن ربما المستقبل القريب يطالعنا بمفاجآت طيبة ، لأن علماء الحفريات ينبشون الآثار لكى يستخرجوا من بطون الأرض جددا وعتقا • فإن الاكتشافات الحديثة

التى وصل اليهـا علماء الآثار ، حلت لنـا مشاكل كثيرة كانت صـعبة ومعقدة ، مثل مخطوطات وادى قمران التى ظلت أسيرة سجينة فى كهف إلى أن حررها عن طريق الصدفة ، الراعى محمد الديب وسلمها للعلمـاء لفك رموزها •

فإن كانت السجلات الرومانية المعروفة لدينا حتى الآن تجهل قضية محاكمة يسوع ، إلا أن الأناجيل الأربعة بلا استثناء تسجل لنـا بأمانة هذه القضية (متى ٢٦ : ٤٧ ، ٢٧ : ٦٦ ، مر ١٤ : ١ ــ ١٥ ، ٤٧ ، لو ٢٢ : ٣٩ ، ٢٣ : ٤٩ ، يو ١٨ : ١ ــ ١٩ ، ٤٢) وتذكر لنـا أسماء الذين اشتركوا فى محاكمة يسوع ، ويجوز للأسباب التى سبق ذكرها أن هذه القضية لم تسجل فى سجلات الامبراطورية ، أو يجوز أيضا أن السجل الخاص بهذه القضية فقد ، وربما سيكتشف فيما بعد فتكون مفاجـأة للتاريخ وللعلماء •

وقبل أن ننهى الكلام عن محاكمة يسوع ، نود أن نقف ولو قليلا عند هذه القضية ؛ إن الشىء الأول الذى يلفت النظر ، هو سرعة البت فيها ، وتبعا لمـا ذكر فى الأناجيل لم تستمر محاكمة يسوع أكثر من ٢٤ ساعة من وقت القبض عليه إلى أن رفع على الصليب • وأمام هـذه السرعة تساءل الكثيرون قائلين : كيف يمكن أن تتم هذه العملية بهـذه السرعة ؟ وكيف يمكن قضائيا وعمليا أن يقوم يسوع بعمل العشاء الربانى فى العلية والذهاب إلى جبل الزيتون ، والصلاة ثلاث مرات ، ثم حضور يهوذا مع الجند للقبض عليه ، ثم احضاره إلى رئيس الكهنة حنان واستجوابه ، ثم احضاره إلى رئيس الكهنة قيافا ، واستجوابه ، ثم احضاره أمام بيلاطس وبيلاطس يرسله إلى هيرودس ، وهيرودس يرجعه إلى بيلاطس • وهذا الأخير يقدمه إلى الشعب مقترحا عليهم اسم باراباس ، وأخيرا يسـلمه للصلب فيصلب •

كل هذه الأحـداث ، بما تتضمنه من مناقشات وأسئلة ومداولات قضائية وغير قضائية تمت فى أربع وعشرين ساعة • والمشكلة التى تعترض سبيلنا فى هذه القضية هى : هل يمكننا من الناحية القضائية والنـاحية العملية تنفيذ هذه الأحداث الكثيرة فى مدة أربع وعشرين ساعة ؟

ولقد اقترحت عدة حلول منها :

١ ـ لقد سبق أن أشرنا فيما سبق بخصوص الفصح إلى نظـرية الآنسة جوبرت ، التى تعرفنا بوجود تقويم أسيني والذى بحسبه كان يوم الفصح يقع دائما يوم أربعاء ، وبناء على هذا التقويم ، فالمسـيح يكون قد تناول العشاء الأخير مع تلاميذه فى مساء يوم الأربعاء ثم صلب عشية الفصح الرسمى اليهودى الذى كان يقع فى تلك السنة فى يوم السبت (أى يوم الجمعة بعد الظهر) وفى هذه الفترة من يوم الأربعاء مساء إلى يوم الجمعة صباحا دارت أحداث الآلام والصلب ، فالآنسة جوبرت تعتقد أن هـذه الأحداث قد حدثت فى مـدة تزيد على اليـوم ، وتلخصـها كالآتى :

فى ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء : تم القبض على يسوع والذهاب به إلى رئيس الكهنة حنان (مر ١٤ : ٥٣ ، لو ٢٢ : ٥٤ ، يو ١٨ : ١٣) ثم أسئلة رئيس الكهنة ليسوع (يو ١٨ : ١٩ ـ ٢٣) ثم ارساله إلى قيافا (يو ٢٨ : ٢٤) •

يوم الأربعاء : الجلسة العظمى لمحاكمة السيد (مر ١٤ : ٥٥ ـ ٦٤)•

يوم الخميس : جلسة مشاورة ومؤامرة (مت ٢٧ : ١ ، مر ١٥ : ١) • ثم احضار يسوع أمام بيلاطس ، وبيلاطس يرسله إلى هيرودس (لو ٢٣ : ٦ ـ ١٢) •

يوم الجمعة صباحا : يمثل مرة ثانية أمام بيلاطس (لو ٢٣ : ١٣) ثم الحكم عليه وصلبه • هذا هو البرنامج الذى تقترحه الآنسة جوبرت بخصوص المحاكمة •

على أن الذين يتمسكون بفكرة أن كل هذه الحوادث تمت فعلا كما ترويها الأناجيل فى مدة أربع وعشرين ساعة ، يعتقدون بأن البت السريع فى هذه القضية كان ضروريا ولازما لعدة أسباب :

١ ــ التمسك بالنص الكتابى الذى يفهم منه أن هــذه الأحداث حدثت فى أربع وعشرين ساعة •

٢ ــ كان يجب الحكم على يسوع بسرعة قبل حلول العيد لتجنب كل شغب وهيجان من ناحية الشعب •

٣ ــ خوف رؤساء الكهنة من أن تظن السلطات الرومانية أن يسوع هو واحد من المسايا الذين يظهرون ويؤيدهم عدد كبير من اليهود ، فتجنبا لهجمات الرومان وضرباتهم القاتلة ، فضلوا الاسراع بتسليم يســوع لأيدى الرومان لكى يبرهنوا على أنهم لا يؤيدونه ولا يشاركونه أفكاره الثورية • ألم يعط قيافا هذه المشورة بالقول : « إنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب » ؟ ألم يقرر أيضا رؤساء الكهنة فى مجمع لهم بعد أن أقام يسوع لعازر ، بأن يسلموا يسوع للموت عملا بمشورة قيافا : « إن تركنــاه هــكذا يؤمن الجميع به فيأتى الرومانيون ويأخــذون موضعنا وأمتنا ••• » (يو ١١ : ٤٥ ــ ٥١) • وليت هذه الآية الأخيرة تــكون واضحة فى أذهاننا : « فيأتى الرومان ويأخذون موضعنا وأمتنا » •

وحقيقة الأمر ، أن الرومان كانوا محتلين للأمة اليهودية والموضع ، فلماذا يقول اليهود فى المجمع هذه العبارة ؟

إن اليهود كما سبق القول كانوا يخشون أن يشك الرومان فى أن الأمة اليهودية ورؤساءها يؤيدون يسوع وحركته كما حدث فى الحركات المسيانية التى جاءت قبله والتى ضربها الرومان بشدة • وكأنى بهم يقولون : «قبل أن يصل الأمر إلى آذان الرومان ، وقبل أن يأتى هؤلاء لتخريب أمتنا وشعبنا وموضعنا هذا لكى يخمدوا حركة يسوع وأتباعه، كما فعلوا بالحركات المسيانية السابقة ، لنسلمه إلى أيديهم ، فإنه « خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب » • ولقد أسلموه فعلا إلى أيدى الرومان ، الأمر الهام فى تسليم يسوع والحكم عليه بالموت ، لا يتمثل فى أن هذه القضية قد استمرت يوما أو يومين أو أن الأمور سارت فيها قانونية أو غير قانونية ، بل الأمر الأهم من ذلك كله ، هو أن يسوع المسيح قبل الموت ليس فقط لأجل الانسان بل بدلا من الانسان • أى أن ذلك القدوس البار الخالى من كل خطية وعيب ، وهو الوحيد الذى استطاع أن يتحدى اليهود بالقول : « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦)، صار هو نفسه كما يقول الرسول خطية لأجلنا : « لأنه جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه » (٢ كو ٥ : ٢١) •

فعملية النيابة التى قام بها المسيح لم تكن عملية تمثيلية ، كما يقوم الممثل بلعب دور على المسرح ، فلا يحدث فى حقيقة الأمر قاتل ولا مقتول ولكنه قبل فعلا وحقا أن يموت لأجلنا وبدلا عنا ، والغرض من هذا الموت هو أن يأخذ يسوع مكاننا كخطاة أمام الآب ، أى أن يصبح هو نفسه ، الذى لم يعرف خطية ، خطية لأجلنا • فعلى الصليب أخذ المسيح مركز الانسان الخاطىء المتمرد والمجرم والعاصى والمبتعد عن الله ، وبالتالى الانسان المرفوض من الله • وعندما احتل المسيح مكان هذا الانسان الخاطىء المرفوض ، وشرب الكأس إلى نهايتها وذاق مرارتها وعلقمها القاسيين ، « صرخ بصوت عظيم قائلا : إيلى إيلى لما شبقتنى ، أى إلهى إلهى لماذا تركتنى » (مت ٢٧ : ٤٦) • والمسيح عندما قام بعملية

النيابة هذه ، لم يقم بها كشخص يريد أن يفعل الخير لأجلنا أو يحسن إلينا بصنيعه ، بل قام بها لأنه أراد أن يأخذ مكاننا ، أي مكان البؤس والحزن والسجن والرفض والقضاء والموت . ولهذا الغرض عينه صار الله إنسانا لكى يوجد فى نفس الظروف التي نوجد فيها . لقد جرب، تألم ، بكى ، عرف العطش والجوع والفراق : « لأنه فى ما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجربين » (عب ٢ : ١٨) . فإلهنا ليس بالإله البعيد عنا الساكن فى سموات لا يدنى منها ، بل هو الانسان يسوع المسيح الذى يعرف ظروفنا ، يعرف تجاربنا مهما كان نوعها ، لأنه فى أيام جسده جرب هو نفسه بكل هذه التجارب : « لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثى لضعفاتنا بل مجرب فى كل شيء مثلنا بلا خطية » (عب ٤ : ١٥) . هو نفسه الذى يقول عنه كاتب رسالة العبرانيين : « الذى فى أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع وطلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت ، وسمع له من أجل تقواه ، مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به » (عب ٥ : ٧ ــ ٨ ، لو ٢٢ : ٣٥ ــ ٤٦) . فالمسيح مع كونه « الله الذى ظهر فى الجسد » فهو إنسان كامل بكل ما تحمل كلمة إنسان من معنى ، وهذا الأمر الذى يعزى قلوب المؤمنين ويطمئنهم ، ذلك أن المسيح يسير معهم فى تجاربهم وآلامهم وأحزانهم واضطراباتهم وخوفهم وانزعاجهم أمام مشاكل الحياة ، لأنه هو نفسه مر فى هذه المراحل كإنسان ، بل انه تحمل الموت وقبله طوعا لأجل البشرية كلها .

والذى قام بهذه العملية النيابية ، هو الله نفسه متجسدا فى الإنسان يسوع المسيح ، هذا هو الأمر الذى يعطى لهذه العملية أهميتها وعظمتها . ويقارن كارل بارت آلام المسيح بالآلام التى تحملها عدد كبير من الشهداء فى تاريخ البشرية ، ويرى أن الأناجيل لا تقول بأن آلام السيد كانت فريدة ووحيدة من نوعها ، فكم من شهداء تألموا بطريقة أكثر وحشية مما تألم السيد . وقد ذاقوا العذاب لفترة أطول من الفترة التى ذاق فيها

الرب الآلام ، إذ أن كل ما حدث له حدث فى يوم واحد ، فإن كثيرين من هؤلاء الشهداء والأبطال أقبلوا على الموت بسرور وشجاعة ، وموتهم غير أيضا أشياء كثيرة فى مجتمعهم • ولكن الذى يجعل آلام المسيح مختلفة عن آلام هؤلاء جميعهم ، ليس نوع الآلام التى اجتازوا فيها ولا حتى طريقتها ، ولكن الذى يميز آلام السيد عن كل الآلام التى أذاقها البشر بعضهم لبعض ، هو الشخص المتألم نفسه ، والغرض من هذه الآلام • فالشخص الذى قاسى هذه الآلام هو المسيح ، الله الأزلى فى شخص ابنه يسوع المسيح ، أراد أن يكون إنسانا وبذلك تحمل هذه الآلام • وكارل بارت يؤمن بأن هذه الآلام التى قاساها السيد لم تحدث له عن طريق الصدفة ، بل أن هذه الآلام كانت معروفة فى علم الله السابق ، والمسيح لم يكن واعيا ومدركا فحسب أن هذه الأحداث المريرة القاسية ستحدث له ، بل أنه قبلها أيضا برضى وبسرور(١) •

والسؤال الذى نسأله الآن هو الآتى : لماذا هذه الآلام ؟ إن الغرض من الآلام التى اجتازها السيد هو المصالحة • « أى أن الله كان فى المسيح مصالحا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعا فينا كلمة المصالحة » (٢كو ٥ : ١٩) • هذا هو السبب الذى من أجله صار الله إنسانا وتألم ، إنه أراد أن يضع يده فى يد الانسان الخاطىء • فعلى الصليب علق المسيح كخروف الفصح ، حمل الله الذى يرفع خطية العالم • وبهذه الذبيحة وبهذا الموت استطاع المسيح أن يصالح الله القدوس العادل من الانسان الشرير الخاطىء • لأن الانسان كان فى عداوة مستحكمة مع الله • فبالسقوط أعلن الانسان حربا شعواء ضد الله وضد وصاياه ، ولكن الله فى محبته التى لا تقاس ، جاء إلى الانسان فى شخص يسوع المسيح ، ومد يده طالبا المصالحة • لأن الله منذ الأزل وقبل

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٧ ص ٢٥٠ — ٢٦٠ النص الفرنسى Dogmatique.

تأسيس العالم ، قد أحب الانسان وأحبه إلى المنتهى . وبما أننا فى مجال الكلام عن المصالحة والسقوط والخطية يحسن بنا أن نلقى نظـرة على ما يعتقده بارت بخصوص هـذه العقيدة ، فلقد ظـل معلمو اللاهوت التقليديون يتبعون فى دراساتهم العقائدية وبطريقة منظمة ، البدء بمعالجة عقيدة مشكلة السقوط والخطية ثم عقيدة المصالحة .

ولقد اتبع التقليديون هذا النظام لأنهـم اعتقدوا بأن الخطية هى السبب الأساسى الذى اضطر الله معه إلى القيام بعمـل المصالحة ، أو بتعبير آخـر ، لقد ظـن التقليديون (بروتستانت ، وكاثوليك وطوائف أخرى) أن دخول الخطية إلى العالم هو السبب الأساسى الذى دفع الله لعمل المصالحة ولموت المسيح أيضا . وأما بارت فيعتقد بأن الخطيـة ودخولها إلى العالم لم تكن السبب الأساسى والجوهرى فى المصـالحة ولا فى موت المسيح على الصليب ، ولكن الذى دفع الله إلى أن يبـذل ابنه الوحيد لكى يموت ويحتمل هذه الآلام ، هو المحبة التى عن طريقها قطع الله عهدا مع الانسان ، لأنه محبة أبدية قد أحبه : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به » (يو ٣ : ١٦) . فالخطية إذن لم تكن السبب الأساسى فى المصالحة ، ولكنها كانت فرصة عن طريقها أظهر الله محبته . والله لم يكن مجبـرا أو ملزما أو مضطرا ، بسبب الخطية ، التى هى ناحية سلبية ومن عمل الشيطان ، بأن يقوم بالمصالحة مع الانسان ، لكن ما دفع الله لكى يتخذ هـذه الخطوة الايجابية وأن يمد يده لكى يصالح الانسان ، ليس الخطية ولا حتى الخطية الخاطئة جدا ، بل هى محبة الله التى لا يمكن قياسها . صحيح أن الخطية هى كسر العهد وتعدى الوصايا ، ولكن ما دفع الله لعمل المصالحة ليس هو أن الانسان كسر الوصايا فحسب ، بل أن الله أحب ويحب الانسان وقطع معه عهدا ، ولأجله كانت هذه المحبة ، وبسببها نراه الآن معلقا على الصليب لكى يتمم هذا العهد الذى كسرته الخطية والانسان ، فعندما قال

يسوع على الصليب : « قد أكمل » ، أراد بذلك أن يقول : إنه قد أكمل تجديد العهد الذى قطعه الله مع الانسان والذى كسره هذا الأخير(١) .

فرسالة الكنيسة اليوم هى رسالة محبة الله وإعلان هذه المحبة ، وليس غضب الله . وما أحوج العالم الحالى إلى هذه الرسالة ، رسالة المحبة المضحية الباذلة التى لا تطلب ما لنفسها بل ما للآخرين .

هل قيامة المسيح حقيقة أم أسطورة ؟

إن قيامة المسيح من الأموات مشكلة من المشاكل اللاهوتية التى أثارت عبر التاريخ جدلا حارا ومناقشات طويلة مختلفة ومتنوعة ، وأسئلة لا حصر لها . ومن الأسئلة التى طرحها اللاهوتيون وغير اللاهوتيين ، بخصوص قيامة السيد من الأموات : هل قيامة المسيح من الأموات هى حقيقة واقعية أم أسطورة ؟ هل يسوع الناصرى ، ابن مريم الذى صلب على يد بيلاطس البنطى ومات على الصليب ، قام حقيقة من الأموات ؟ وهل يمكننا أن نعتبر حادثة القيامة حادثة وقعت فعلا كحادثة موته على الصليب ؟ وهل يسوع الناصرى قام بجسده البشرى ؟ ...

كما أن كتاب الأناجيل الأربعة كتبوا لنا بشىء من التفصيل عن موت يسوع ، فإنهم سجلوا لنا أيضا حادثة القيامة (متى ٢٨ : ١ — ٢٠) (مرقس ١٦ : ١ — ٨ ، لو ٢٤ : ١ — ١١ ، يو ٢٠ : ١ — ١٨) وإن كانوا فى تسجيلهم لهذه الحادثة قد كتبوا بأسلوب قد يظهر للبعض أن فيه شيئا من عدم الانسجام والتوافق ، فإن الأمر الأساسى هو أن كل كاتب من هؤلاء الكتاب الأربعة يروى قصة القيامة كما فهمها . ولا نريد أن نناقش هنا التفصيلات الدقيقة والكثيرة الخاصة بقصة القيامة كما سجلها لنا الإنجيليون ، ولكن لنبحث هذا الموضوع كحادثة : أعنى هل

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٧ من ص ١٦٥ — ١٨٠ Dogmatique.

هذه الحادثة حدثت فعلا فى زمان ومكان معينين فى عالمنا هذا ؟

لقد تكلم كثيرون من اللاهوتيين عن هذه الحادثة كثيرا ، وعندما نتكلم عن اللاهوتيين وعن ما كتبوه عن قيامة المسيح ، لا يمكننا أن نجهل موقف كارل بارت الذى يقدم لنا مفهوم العهد الجديد بخصوص هذه الحادثة ، فهو يعتقد بأن العهد الجديد يروى لنا قصتين فى غاية الأهمية ، حدثت القصة الثانية منها عقب الأولى مباشرة ، وعلى وجه التحديد فى اليوم الثالث ، وهى قصة القيامة . والذين يقصون لنا هذه الرواية هم شهود عيان قد رأوا وسمعوا ولمسوا المسيح المقام (١ يو ١ : ١ — ٤) ، فالذين يروون لنا هذه القصة هم الرسل أنفسهم ، ويقصونها كقصة حقيقية حدثت فعلا فى زمان معين وفى مكان معين أيضا(١) .

وهنا يظهر الخلاف الأساسى بين كارل بارت وبولتمان ، فإن بولتمان أراد أن يجعل من القيامة أسطورة . وهذا ما يعترض عليه كارل بارت بشدة قائلا : إن بولتمان جعل من حادثة القيامة أسطورة مفسرا إياها كميلاد الايمان فى يسوع المقام ، إيمان يرجع أصله الى الوعظ . وبولتمان لا يريد أن يعتبر هذه الحادثة وحوادث الأربعين يوما التالية لها من الحقائق التاريخية إذ أنها لا تخضع للتاريخ ، أى لا يمكن إثباتها تاريخيا .

وكيف يمكن اثباتها تاريخيا؟إن القيامة شىء حدث فى إيمان التلاميذ . ولكن بارت يرفض بشدة هذه الفكرة شارحا أن إيمان التلاميذ فى يسوع المقام ولد من عدم الايمان . فليس إيمان التلاميذ فى يسوع المقام هو الذى جعل التلاميذ يعلنون هذه الحقيقة وينادون بها ، بل العكس هو

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٢ من ص ١٢٠ — ١٢٧ Dogmatique (النص الفرنسى) .

الصحيح ، أى أن يسوع الذى قام من بين الأموات هو السبب فى ميلاد الايمان فى قلوب التلاميذ الذين كانوا لا يؤمنون بقيامته • فشخص المسيح يسوع الذى قام من الأموات هو موضوع إيمانهم وسببه • إن الإيمان بقيامة يسوع لم يعرف طريقه إلى قلوب التلاميذ إلا بعد أن قام فعلا من بين الأموات وجاء إليهم فلمسوه وأكلوا معه وسمعته أذانهم ورأته عيونهم ، وتأكدوا من أنهم لا يرون خيالا بل لحما ودما ، يسوع الناصرى الذى صلب ، وعندئذ فقط آمنوا بقيامته ونادوا بهذه الحقيقة لأنهم رأوه حيا (١ يو ١ : ١) • إن بولتمان يعتبر أن ميلاد الإيمان فى قلوب التلاميذ بقيامته ، يعتبر قيامة(١) •

وأما بارت فإنه يؤكد بأن يسوع المسيح الذى صلب هو نفسه الذى قام ، وقيامته هذه كانت السبب فى ميلاد الايمان فى قلوب التلاميذ • ويواصل بارت شرحه لهذه المشكلة بالقول : فعلى المستوى النقدى يتساءل البعض : ماذا رأى التلاميذ بعد القيامة ؟ إنهم لم يروا إلا قبرا فارغا ، ثم رأوا أيضا المنديل الذى كان على رأسه وليس موضوعا مع الأكفان بل ملفوفا فى موضع وحده • هذا ما رآه التلاميذ ، وفى هذه الحالة يمكننا أن نقول بأنه سرق • ثم أن بولس يقول : « وانه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر • وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ أكثرهم باق إلى الآن ، ولكن بعضهم قد رقدوا » (١ كو ١٥ : ٥ ، ٦) • وعلى نفس المستوى النقدى أيضا يمكننا أن نتساءل : إن بولس لا يقول كيف أو متى حدثت هذه الحادثة بالضبط وماذا رأوا • بولس يقول : « وأنه ظهر » فهل رأوا رؤية أم خيال ••• ؟ وهنا يقول بارت إنه صحيح أن بطرس ام ير إلا قبرا فارغا والسيد لم يكن هناك • ولكن بكل تأكيد

(١) راجع كارل بارت المجلد ١٢ من ص ١٢٠ — ٣٠٢ وخاصة ١٢٠ — ١٤٢ (النص الفرنسى) •

لم يكن هذا كل ما رأوه . فإن كان القبر فارغا ، فقد رأوا بعد ذلك المسيح الذى قام من الأموات . ثم أن بولس فى (١ كو ١٥ : ٤ — ٥) يتكلم عن يسوع الذى مات ودفن وقام . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يقدم لنا بولس الشهود الذين رأوه بعد القيامة . فهؤلاء الشهود لم يروا خيالا أو شبه إنسان أو انسانا يشبه يسوع ، لكن الرسول يحدد أن الشخص الذى رأوه هو يسوع المسيح الذى صلب ومات ودفن . هذا ما قد رآه التلاميذ وما أرادوا أيضا أن يبشروا به . فإذا كان المسيح لم يقم من الأموات فالرسل إذاً شهود زور (١ كو ١٥ : ٤) ، لأن المسيح لم يقم من الأموات وهم يقولون بأنه قام . كلا ، فإن المسيح قد قام من الأموات . إن القصة التى يقصها علينا الرسل هى قصة حقيقية ، إذ أنهم شهود حقيقيون . إنهم شهود قد عاينوا موته وقيامته ، وهذه القيامة قد حدثت فعلا وحرفيا ، وليست أسطورة خيالية يرويها الرسل لكى يشرحوا عن طريقها إيمانهم فى عقيدة القيامة بالمسيح . فعلى العكس فى ذلك ، إن المسيح الذى قام من الأموات هو أساس ومصدر هذا الايمان . فلأنهم رأوه عيانا ولمسوه بأيديهم وتكلموا معه وجها لوجه ، ولد الايمان فى قلوبهم . فإن الايمان بحقيقة قيامة المسيح لم يولد فى قلوب التلاميذ بل لم يفكروا فيه من قبل ، إلا بعد أن قام المسيح فعلا ، كاسرا شوكة الموت المخيفة . فبعد القيامة جاء إلى تلاميذه حيا ، وأكل وشرب معهم وأكلوا وشربوا معه . لقد تقابل بعد القيامة الطرفان وجها لوجه : التلاميذ الأحياء الذين كانوا يسيرون نحو الموت ، مع ذاك الذى قام من بين الأموات والموجود أيضا منذ الأزل وهو الحى . هنا فقط يولد الايمان فى قلوب التلاميذ لأنه يأتى إليهم فى شكوكهم وعدم إيمانهم ، بصورة ملموسة محسوسة ومنظورة حتى يستطيع أن يلمسه ويراه من يقول : « إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير وأضع إصبعى فى أثر المسامير وأضع يدى فى جنبه لا أؤمن » (يو ٢٠ : ٢٥ ، ٢١ : ٢ — ٥) . والمسيح الذى

قام من الاموات يظهر نفســه لهم ويطلب منهــم أن يلمسوه بأيديهم : « أنظروا يدى ورجلى ، إنى أنا هو • جسونى وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى » (لو ٢٤ : ٣٩) • وهنا يتغــير كل شىء بالنسبة للتلاميذ لأنه من هذه المقابلة الحقيقية والفعلية ، مقابلة المسيح الذى قام من الموت مع التلاميذ ، ولد الايمان فى قــلوب التلاميذ بــل أصبحت هذه الحقيقة من الحقائق الأساسية والراسخة والتى من أجلها كان الرسل على استعداد ، ليس فقط لقبول الاضطهاد والعــذاب ، بل حتى للموت • إن قصة القيامة بعيدة كل البعد عن الأساطير ولها اتجــاه آخر يختلف الاختلاف كله عن الأحاديث والقصص الخرافية والأساطير • وذلك لأن هذه الحادثة خاصة بيسوع المسيح •••

وبارت لا ينكر أنه ليس من السهل ، بل أنه من الخطورة أن نضع هذه الحادثة على المستوى التاريخى ، بل ليس من السهل أيضا أن نضعها على نفس الدرجة أو المكانة التى تحتلها حادثة الصلب ، لأن هذه يمكن إثباتها تاريخيا وفهمها أيضا ، وأما القيامة فهى تختلف نوعا عن حادثة الصلب • وبارت لا يعنى بهذا القول ، أن يهدم ما سبق أن قاله عن القيامة ، بــل ما يريد أن يقوله هو أنه ليس من السهل أن نثبت حادثة القيامة تاريخيا ، ولكننا نؤمن بأنها حدثت فعلا وحرفيا فى التاريخ • ومما لا شك فيه أن حادثة القيامة حدثت فى التاريخ كما حدثت عمليتا الصلب والموت تماما • ولكن من الناحية التاريخية فنحن نقف هنا على أرض أخرى تختلف عمــا حدث فى القيامة •

إن القيامة من الناحية التاريخية ، تختلف نوعا عن حادثة الصــلب والموت ، لأن الذى ينقص حادثة القيامة من الناحية التاريخية ، هو عدم ذكرها فى التاريخ من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن شهود هذه الحادثة

شهود منحازون • وهذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن هذه الحادثة لم تحدث ، لأنه كما سبق القول إن إيماننا بالمسيح لا يتوقف على ما يقوله الناس والتاريخ عن يسوع وقيامته ، بل ما يقوله يسوع نفسه والتلاميذ وشهود العيان •

ومن هنا تأتى إليك السؤال الثانى الذى سبق أن سألناه : وهو إذا كان المسيح قام فعلا ، هل قام بالجسد ؟

ولنرجع إلى بارت الذى يصرح بطريقة حاسمة وواضحة بأن يسوع الناصرى الذى ولد من مريم العذراء ، قام بجسده ، ولقد كتب يقول : « لقد حدث تغيير بعد القيامة ولكن هذا التغيير لم يكن انفصال أو نزع أو طيران الروح بعيدا عن الجسد ، بل على العكس فى ذلك ، فقد قام المسيح جسدا وروحا ، وهكذا جلس عن يمين الله ، وهكذا أيضا سيأتى من هناك(١) » • وبارت يشدد كثيرا على هذه الحقيقة أى أن المسيح قام روحا وجسدا • فإذا لم يكن المسيح قد قام بالجسد ••• بهيئة منظورة ومسموعة وملموسة كما مات ، فإن عظاتنا وإيماننا كمسيحيين فارغان وباطلان ، ونحن ما زلنا فى خطايانا(٢) • وبهذا القول يقفل بارت الباب أمام الذين يعتبرون أن قيامة المسيح خرافة أو أسطورة لأنه لا يمكن قبول حقيقة أن المسيح هو الله دون أن نقبل فكرة قيامته من الأموات ، فهو الذى مات بجسده وقام بجسده وجلس عن يمين الآب ولذلك فهو حى •

إن الله الذى له السلطان المطلق هو الذى أقام يسوع من الأموات، لقد تدخل الله بطريقة مباشرة لكى يقيم ابنه من الأموات • وناسوت

(١) انظر كارل بارت مجلد ١٢ ص ٤ ومجلد ١٧ ص ٣٧٢ •
(٢) انظر كارل بارت ص ٣٧٠ — ٣٧٥ Dogmatique المجلد ١٧ •
(النص الفرنسى)

المسيح ليس له أى دخل فى هذه العملية (غل ١ : ١ ، رو ٦ : ٤ ، أف ١ : ٢٠)فـإن اعطاء الوجود أو الحياة إلى الانسان بعد الموت لا يتوقف على الانسان ومقدرته ، ولا على ما يرغب فيه ، ولا على ما يعمله ، ولكنه يتوقف كليا وجزئيا على الله • لأن كلمة موت أو يموت تعنى عدم الوجود، عدم الرغبة ، وعدم العمل ••• الخ • هنا ، وهنا فقط يظهر التدخل الالهى • الله يهب الحياة للمائت ، وهذا الشيء مستحيل أن يعمله الانسان ولكنه ممكن لله فقط (عب ١١ : ١٩ ، ٢كو ١ : ٩ ، رو ٤ : ١٧) • وهنا تختلف أيضا حادثة موت المسيح عن حادثة قيامته • إذ أن موت السيد على الصليب كتائب عنا ، كان إرادة الله المحتومة ، ولكن هذا الموت من حكم وجلد وصلب ••• الخ ، قام بتنفيذه البشر(١)• وهنا نرى الأيدى البشرية عاملة ومساهمة فى حادثة الصلب • أما فى حادثة القيامة فنرى الله وحده المنفذ والعامل • فهو يعمل كالسيد المطلق ، وهو يقوم بنفس الدور الذى قام به فى بدء الخليقة ، إنه الخالق والمعطى الحياة • ولهذا السبب يظن بارت بأنه لا يمكن أن ننسب هذه الحادثة إلى سجلات الحوادث التاريخية ، أو أن نعطيها الطابع التاريخى الذى نعطيه للحوادث التى سجلت فى التاريخ وأصبحت وثائق تاريخية ، كما هو الحال فى حادثة صلب وموت المسيح ، فمع أن موته قد نفذ بلا جدال بناء على إرادة الله ، ولكن كان للانسان دور قام به ، وهنا نجد المستندات التاريخية •• لتدخل الانسان فى العملية ، وأما قيامة المسيح من الأموات، فالذى قام بكل العملية هو الله الذى أقامه من الأموات بدون آية مشاركة من جانب البشر ، وهنا نقص المستند التاريخى ، ولكن هذا لا يعنى بأية حال كما سبق القول ، أن هذه الحادثة لم تحدث فى الزمان والمكان كما يظن البعض(٢) ؛ فإن كانت هذه الحقيقة تفوق ادراكنا فهذا لا ينفى حدوثها • لأن ما يفوق ادراكنا فى هذا الأمر هو العمل أو التدخل الالهى•

---

(١) انظر كارل بارت مجلد ١٧ ص ٣١٦ — ٣١٩ النص الفرنسى •
(٢) انظر كارل بارت مجلد ١٢ ص ١٣٠ •

فعملية قيامة المسيح من الأموات تعنى أن الله تدخل بنفسه • وكلمة قيامة فى مفهوم بولس موازية لكلمة « الالهى » ، إنها تفسير الكلمة «الله» وما دام « الله » هو العامل ، هو المتدخل ، فكل شيء مستطاع سواء أكان الميلاد العذراوي الذى هو علامة حلول الله فى عالمنا ، أو كان القيامة من الأموات التى تعتبر تدخل الله فى إقامة يسوع المسيح من بين الأموات •

وبارت يفرد لهذه الحادثة مكانة خاصة ومرموقة فى تعاليمه ، لأنه عن طريق هذه الحادثة قد ثبت أن يسوع هو المسيا ، ابن الله • لأنه فى أثناء إقامة الرب على الأرض بيننا كان لاهوته محتجبا فى الناسوت وأصبح ابن الله فى خلال هذه المدة،غير معروف كابن الله إلا من الآب، ولكن بالقيامة وعن طريقها ينزاح الحجاب ، فنرى لاهوته ومجده ويصبح معروفا ومعترفا به كابن الله • فحتى التلاميذ الذين كانوا يشاركونه الحياة لم يستطيعوا أن يدركوا هذا الأمر العظيم إلا بعد القيامة (رومية ١ : ٤) • وبهذه الحادثة أيضا وعن طريقها أعلن المسيح بطريقة ظاهرة ما كان عليه من قبل أى السيد KUNIOS ولا أقول أصبح المسيح « السيد » KUNIOS ، لأنه كان وما زال « السيد » KUNIOS حتى فى أيام تجسده التى صار فى خلالها خادما وعاش بين الناس كإنسان وذلك لأنه أخلى نفسه من كل مظهر إلهى • فإن الذين عرفوه قبل قيامته ، عرفوه معرفة تختلف تماما عن معرفتهم له بعد قيامته من الأموات ، وحادثة تلميذى عمواس تعطى لنا صورة واضحة شفافة لهذه الحالة (لو ٢٤ : ١٣ ــ ٤٣) ، فالمسيح يقترب من التلميذين ويبدأ فى التكلم معهما ، وبعد وقت من الحديث يعرفانه ويقول الكتاب : « فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما » • إنهما عرفاه بأنه هو يسوع نفسه الذى كان معهم قبل القيامة ، ولكن فى هذه المرة عرفاه بطريقة أخرى • صحيح أنه هو يسوع نفسه الذى كان معهم ، والذى مات والذى دفن ،

ولكنهم يرونه فى هذه المرة بصورة أخرى وفى هيئة مختلفة • إنهم يرونه الآن كالسيد، كالمسيا الذى يختلف الاختلاف كله عن عقيدتهم وعن عقيدة اليهود المسيانية ، كما قالا له : « ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل » (لو ٢٤ : ٢١) • لقد رأوا فيه بعد القيامة ما لم يروه فيه قبل قيامته من الأموات ، إذ أنهم رأوا فيه قبل القيامة مسيا على نمط مسايا اليهود •

بالقيامة تغيرت المفاهيم تغيرا كليا وجزئيا ، فالتلاميذ سوف لا يتشاجرون ، فيما بعد بسبب من سيكون الأول أو الثانى ، أو من سيكون على يمينه أو على يساره فى ملكوته العتيد ، ولكنهم يحملون الآن المشعل وينطلقون إلى العالم حاملين هذا الخبر السار السعيد بأن المسيح بالحقيقة قام وسيقيمنا أيضا معه •

ويرى بارت فى حادثة القيامة من الأموات جواب الله الايجابى أو « النعم » التى نطق بها الله لصالحنا أو لأجلنا • فالمسيح على الصليب أخذ مكان الانسان الخاطىء ، وبالتالى فقد تحمل هذه الآلام ومنها غضب الله عليه ، فقد كان جواب الله ليسوع المعلق على الصليب هو جواب نفى : أى «لا» ، أو بمعنى أصح لقد حول الله وجهه عن هذا البديل حتى يجرع الكأس إلى نهايتها ، ولذلك فقد صرخ قائلا : « إيلى إيلى لما شبقتنى أى إلهى إلهى لماذا تركتنى » (متى ٢٧ : ٤٦) • ان هذه الصرخة تعلن لنا الحقيقة المرة المظلمة ، وهى غضب الله الذى انصب على يسوع كممثل للبشرية الخاطئة المحكوم عليها بالموت • فإن الله الآب حول وجهه عن ابنه ، وفى هذه اللحظة يقول : «لا» SON NON ولذلك يسلمه للموت حتى ينتصر الموت عليه هذا الانتصار ، أى أن انتصار الموت على المسيح أصبح انتصارا على البشرية كلها • لقد مات

المسيح بهذا الحكم ، عندما نطق الله SON NON جوابه بالنفى(١) •

ولكن شكرا لله لأن القصة لا تنتهى هنا « بلا » النفى والقضاء على المسيح ، بل أن الله الذى قال « لا » ليسوع ، وبهذا أسلمه إلى الموت ، قد أقامه من بين الأموات ، لقد خلصه من الموت • وفى إقامته للمسيح قد أقام معه البشرية كلها • لقد مات لأجل خطايانا ، ولقد دفن هذه الخطايا فى القبر ، وعندما قام من قبره منتصرا على الموت ترك هناك خطايانا فى قبرة معلنا بأننا لسنا بعد خطاة بل أبرارا فيه وبه (رو ٤ : ٢٤ ، ٢ كو ٥ : ١٥) • إن قيامة المسيح كانت هى التاج الذى توجت به كل الأعمال التى قام بها المسيح ، فبالقيامة أراد الله أن يخلق خليقة جديدة ، إذ أن الأشياء العتيقة لم تمض فحسب ، بل أصبحت أيضا جديدة • فإن الله باقامته للمسيح يريد أن يقيم عالما جديدا عالما نغفر فيه الخطايا ويسيطر عليه السلام ، وتنتشر فيه المحبة الحقيقية(٢) وكما أن الله قد قال « نعم » ليسوع وأعلن جهارا سيادته على الكون KUNIOS (فى ٢ : ٥ — ١١) ، لأن المسيح كان الشخص الذى أطاع الآب طاعة كاملة حتى الموت ، موت الصليب والعار ، فهو أيضا يريد أن نطيعه كما أطاعه المسيح وأن نكرس نفوسنا وحياتنا لشخصه الكريم ، لأنه قد أقامنا معه وبذلك يريدنا أن نسلك معه فى جدة الحياة • إن قيامة المسيح من الأموات لا تعنى انتصاره هو فقط على الموت بل انتصارنا نحن أيضا عليه ، فلقد كسر شوكته وصولته ، قائلا له : « أين شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية ••• » (١ كو ١٥ : ٥٥) •

وقبل أن نختتم هذا الفصل عن قيامة المسيح من الأموات نود أن نشير إلى نقطة قد ذكرها « ألثاوس » ALTHAUS لاهوتى آخر تكلم

---

(١) انظر كارل بارت مجلد ١.٧ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ النص الفرنسى •
(٢) انظر كارل بارت مجلد ١.٧ص ٣٣٢ — ٣٦٩ النص الفرنسى •

عن (قيامة المسيح) • لا نريد أن نبحث هنا فى كل ما قاله اللاهوتيون فى هذا الموضوع وإلا لأصبح الأمر مستحيلا لكثرة ما قيل وكتب فيه •

إن ألثاوس (A. ALTHAUS) يدافع عن هذه الحقيقة فيقول : إن خبر قيامة المسيح من بين الأموات قد انتشر بعد القيامة مباشرة ، فلو كان هناك أدنى تزوير فى هذا الخبر لافتضح الأمر سريعا ، إذ أن هذا الخبر قد انتشر فى نفس المكان الذى فيه يمكن التحقق منه بطريقة عملية• على أن هرش (E. HIRSCH) يعترض على هذه الحجة بقوله إن فتح القبور والتحقق من الجثة أمر غير سهل بل محرم ، الأمر الذى فات ألثاوس (A. ALTHAUS) فى بحثه لهذه النقطة(١) • فإن اعتراض هيرش ، وإن كان من الناحية الدينية اليهودية صحيحا ، وهو عدم استخراج الجثث للتأكد منها ، إلا أنه فى هذه الحالة بالذات لا وزن له • فإن اليهود الذين عملوا كل ما فى وسعهم وما فى سلطانهم ، مستخدمين الكذب والمكر والخيانة والغش لكى يصلوا إلى مآربهم من صلب المسيح وازاحته من على المسرح ، كانوا على تمام الاستعداد أيضا لأن يذهبوا إلى القبر وأن يستخرجوا جثة يسوع للتحقق منها ، حتى لو كان هذا الأمر محرما ، فأى حرمة قد راعوها فى صلب المسيح ؟ وأى قانون قد طبق فى محاكمته ؟ لقد كان أمر التحقق من قبر المسيح أمرا سهلا ، وخاصة أن يسوع لم يوضع فى مقبرة عامة حيث كانت تدفن جثث المجرمين ، بل أن جسده قد وضع فى قبر جديد • « ••• وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط » (لو ٢٣ : ٥٣) فاعتراض هيرش إذن لا محل له والثاوس على حق فى هذا الأمر ، وكما سبق القول إننا لا نريد سرد ومناقشة كل ما قيل فى هذا الموضوع ، فقط نود أن نقول إن السيد نفسه قد تنبأ قبل موته بقيامته محددا اليوم الثالث لهذه القيامة (متى ١٢ : ٤٠ ، ٢٠ : ١٩ ، ٢٣ : ٦٣ ، مر ٨ : ٣١ ، ٩ : ٣٠ ، ١٠

(١) W. Pannenberg. Esquisse d'une Christologie les Editions du Cerf. النص الفرنسى ص ١١٧ •

٣٤ ، ١٥ : ٦ ، لو ١٣ : ٣٢ ، ١٨ : ٣٣ ، يو ١١ : ١٩ ، ١٦ : ١٦ - ٢٢) •
ثم حقيقة أخرى يجب عدم اغفالها هى القبر الفارغ ، فإن هذا الأمر لا يذكره التلاميذ وبعض النساء فقط (متى ٢٨ : ٥ - ٨ ، مر ١٦ : ١ - ٨ ، لو ١٤ : ١ - ٩ ، يو ٢٠ : ١ - ٢) ، بل يظهر أيضا فى محاولة اليهود إخفاء قيامة يسوع (متى ٢٨ : ١١ - ١٥) ، وهناك دليل آخر على قيامته من الأموات وظهوره •

وهناك نوعان من الظهورات : ١ - ظهورات فى أورشليم • ٢ - ظهورات فى الجليل (متى ٢٨ : ٨ - ١١ ، ٢٨ : ١٦ - ٢٠) ويذكر مرقس حادثة الظهور ثلاث أو أربع مرات إذا حسبنا الصعود (مر ١٦ : ٩ - ١١ ، ١٦ : ١٢ ، ١٦ : ١٤ ، ١٦ : ١٩) ، ولوقا يذكرها أربع مرات (لو ٢٤ : ٣٤ ، ٢٤ : ١٣ - ٢٥ ، ٣٦ - ٤٢ ، ٤٤ - ٥١) ، ويوحنا أربع مرات (يو ٢٠ : ١١ - ١٨ ، ١٩ - ٢٣ ، ٢٤ - ٢٩) ، وبولس يشدد عليها فى (١ كو ١٥ : ١٥) •

إن هذه الشواهد الكتابية السابقة وشواهد أخرى تتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن قيامة الرب يسوع من الأموات • وبلاشك أن حقيقة قيامة المسيح من بين الأموات أمر يفوق ادراكنا ، ولا نستطيع أن نفهمه بعقولنا البشرية المحدودة ، ولكن يجب قبوله بالايمان • وكما يقول إميل برونر : ••• أما حقيقة قيامته من الأموات فلم يدركها أو لم يعاينها إلا المؤمنون • إن حادثة القيامة ليست حادثة تاريخية بالمعنى الذى تحمله كلمة تاريخ ، لأن ما هو تاريخى يجب أن يكون معروفا من الجميع ، أما حادثة القيامة فهى من طبيعة أخرى ، فهى ليست بتاريخية إلا للمؤمن لأنها تفوق التاريخ •

فبالرغم من الاعتراف العظيم : « أنت المسيح » ، ظل الرسل

أنفسهم جاهلين لهذه الحقيقة إلى أن غير المسيح المقام هذا المفهوم بقيامته(١) •

إن هذه الحقائق الروحية لا يمكن قبولها إلا بالايمان فإن الله العظيم الذى جاء إلى أرضنا ودخل تاريخ عالمنا بطريقة معجزية ، بميلاده من عذراء ، ثم خرج من بطن القبر ظافرا منتصرا على الموت وعلى الهاوية ، يستطيع أن يعطينا الايمان الذى ينير العقل والذهن وعندئذ نقول مع توما : « ربى وإلهى » (يو ٢٠ : ٢٨) •

ونـزل إلى الجحيـم

بما أننا فى معرض الكلام عن الأيام الأخيرة التى قضاها الرب يسوع المسيح بالجسد على أرضنا ، وبما أننا قد سبق أن تكلمنا عن صلبه وموته ، ثم عن قيامته من بين الأموات وكيف أنه قام ظافرا منتصرا ، يحسن بنا قبل أن ننتقل إلى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، أن نلقى نظرة سريعة جدا على عقيدة نزول المسيح إلى الجحيم • ففى الصفحات السابقة رأينا السيد الذى أسلم إلى الموت ثم قام فى اليوم الثالث من بين الأموات كاسرا شوكة الموت وغلبة الهاوية ، فالقيامة حدثت فى صباح يوم الأحد فجرا ، ولكن صعود السيد وجلوسه عن يمين الآب لم يتم فورا بعد موته على الصليب • بل توجد فترة من الزمان تفصل بين حادثة الموت وبين حادثة الصعود وتقدر بحوالى أربعين يوما • ولوقا يقول فى كتاب الأعمال : « ••• إلى اليوم الذى ارتفع فيه بعد ما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم ، الذين أراهم أيضا نفسه حيا ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم أربعين يوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله » (أع ١ : ٢ ، ٣) •

---

(١) El. Brunner. La doctrine Chretienne de la Redemption. dogmatique tome 2 P. 362 - 367.

والسؤال الذى يطرح نفسه أمام هذا النص وأمام نصوص أخرى متشابهة هو : أين ذهب المسيح بعد الموت والقيامة ... وإذا كان لوقا يسجل لنا أنه توجد فترة أربعين يوما تفصل بين موته وصعوده إلى الآب، فماذا كان يعمل المسيح فى هذه الفترة .

قبل أن ندخل فى دراسة هذا الموضوع ، يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء إلى نقطة هامة ، هى بعض التعبيرات الكتابية التى تظهر وكأنها لا تتفق وعلم الفلك والفضاء الحديثين ، فإن معظم التعبيرات الكتابية تقدم لنا الكون كما لو كان مكونا من عدة طبقات . ولقد اعتقدت الشعوب القديمة بصفة عامة والشعب السامى (اليهودى) بصفة خاصة ، بأن الكون يتكون من عدة طبقات ، السماء من فوق والأرض تحت السماء ، وما تحت الأرض ، أو الشيول Schéol أى السماء والأرض والجحيم . كان هذا المفهوم منتشرا بين شعوب كثيرة وخاصة بين شعب إسرائيل (تك ١٧ : ٢٢ ، ٣٠ : ١٣ — ٢٧ ، أى ٢٢ : ١٢ ، مز ٢ : ٤ ، ١٨ : ١٠ ، ١٠٣ : ١٩ ، ١٠٤ : ٣ ، ١٤٤ : ٥ ، ٢ كو ١٢ : ٢ — ٤ ، أف ١ : ٢ — ٢٣ ، ٤ : ٨ — ١٠ ، فى ٢٤ : ٥ — ١١ ، ١ تيمو ٣ : ١٦) .

من هذه الشواهد ومن شواهد أخرى كثيرة يتضح لنا أن الذين كتبوا ، بإرشاد الله ووحيه ، الكتاب المقدس بعهديه ، كانوا يشاركون معاصريهم فى المفهوم الخاص بالفلك والفضاء . ومما لا ريب فيه أن هذا الأمر لا يعنى بأى حال من الأحوال نقصا أو عيبا فى الوحى المقدس ، بل إننا نعتبر أن هذه التعبيرات التى لا تتفق وعلم الفضاء الحديث ، تعبيرات فى غاية القوة لأن هدف الرسالة التى كان ينطق بها الله على فم الأنبياء والرسل ، هى التوبة والرجوع إلى الله بقلب منكسر وروح منسحق ، ولكى يرجع الانسان إلى الله تائبا نادما على خطيته مجددا عهده معه ، يجب أن تكون الرسالة الموجهة إليه رسالة مفهومة . ولهذا السبب فيه

كانت كلمة الله التى نطق بها قديسوه فى كل هذه العصور ، كلمات تتفق مع كثير من المفاهيم الفلكية والكونية القديمة التى كانت منتشرة ومعروفة، ومفهومة بهذه الصورة . فلو تكلم الله فى أنبيائه ورسله مستعملا تعبيرات علمية دقيقة ، فمن كان يمكنه أن يفهم هذه الاصطلاحات والتعبيرات التى كانت مجهولة وغير معروفة بالمرة فى تلك العصور ، التى كان فيها الناس يعتقدون بأن الأرض مسطحة وفاصلة بين السماء من فوق حيث عرش الله وبين الهاوية من تحت حيث يوجد الشيول . فالله استعمل إذن فى توصيل رسالة الخلاص ، المفاهيم السائدة المنتشرة ، لكى يفهم النـاس هذه الرسالة ، وهنا نرى ليس ضعف كلمة الله كما يظن البعض لأنهـا لا تتفق والعلم الحديث ، بل قوة هذه الكلمة وعمقها لأن الله استعمل الأسلوب الذى يفهمه الانسان لكى يوصل عن طريقه رسالته . وواجبنا نحن الذين نعيش الآن فى القرن العشرين هو البحث عن هذه المفـاهيم المختلفة التى كانت منتشرة بين الشعوب الكثيرة ، لا لكى نثبت أو نقول بأن الكتاب المقدس ملآن بالأغلاط العلمية ، بل لكى نعرف نحـن الذين توفرت لدينا الآن كثير من المعلومات الفلكية والكونية التى كانت مجهولة وغير معروفة تماما لهذه الشعوب ، بأن القصد من هذه التعبيرات هـو توصيل الرسالة إليهم بالأسلوب الذى يفهمونه . فالحصيلة العلمية التى نتمتع بها الآن والتى تشرح لنا المفاهيم القديمة عن الكون تسـاعدنا على فهم لمـاذا استعملت هذه التعبيرات التى لا تتفق والعلم الحديث ، إذ أن هذا الأخير أصبح الآن ملما بكثير من المعلومات والمفاهيم التى كانت سائدة ومنتشرة فى العالم القديم . إننا لا نجهل أن الذين يحاولون توفيق الاصطلاحات الكتابية مع العلم الحديث فى هذه المشكلة ، يرجعون إلى بعض الآيات التى تتكلم عن كروية الأرض مثل قول إشعياء : « الجالس على كرة الأرض وسكانها ... » (اش ٤٠ : ٢٢ ، أيو ٢٢ : ١٤ ، ٢٦ : ٧)، فمع أن إشعياء يتكلم عن كروية الأرض ، فهو فى حقيقة الأمر لا يصف بهذه الآية (٤٠ : ٢٢) الأرض الكروية المعروفة لنا ، بل يصف للفضـاء

الذي يغطى الأرض ، فهو يرى كما نرى الآن بالعين المجردة ما نسميه « قبة السماء » • على هذه القبة الكروية ، يرى إشعياء الله جالسا ، فما يريد إشعياء أن يقوله هــو أن الله لا يجلس على الأرض بل على قبــة الأرض ، أى على الفضاء أى الفضاء الذى يغطى كل الأرض المسطحة •

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه لا يوجد تناقض بين العلم والدين، إذا رجعنا إلى مفاهيم الشعوب والأمم التى وجهت إليهم رسالة الكتاب فى تلك العصور • فإن هذه الشعوب لم يكن ممكنا لها أن تفهم رســالة الكتاب لو أنه كتب بلغة علمية حديثة تفوق ادراكهم وعلمهم • فالكتاب المقدس ليس بكتاب علمى بل هو كتاب روحى همه الأول هو توصــيل رسالة محبة الله إلى الانسان بالطريقة التى يفهمها الانسان حتى ولــو كانت هذه الطريقة التى يستعملها خاطئة بحسب مفهوم العلم الحــديث •

لهذا السبب استعمل كتاب الكتاب المقدس الأسلوب الذى كــان « يتمشى » وعقلية الذين كتب لهم الكتاب •

فعندما يحاول كتاب الكتاب المقدس أن يصفوا لنا عملية صــعود المسيح إلى الآب كما لو كانت عملية صعود إلى العلاء ، أو عملية نزوله إلى طبقات الأرض السفلى كما لو كانت عملية نزول إلى قاع الأرض أو ما تحت الأرض ، فهذا الوصف يتفق تماما ومفهوم للكون فى ذلك الوقت•

ولنرجع الآن إلى السؤال الذى تركناه معلقا وهو السؤال الخاص بنزول المسيح إلى طبقات الأرض السفلى ، فكما أشرنا سابقا بأن المسيح لم ينطلق إلى الآب بعد الموت مباشرة ، بل انقضى على ذلك حوالى أربعين يوما • فماذا كان يعمل السيد خلال هذه الفترة ؟ هل كان مع الآب ؟ أو مع الملائكة أو مع الذين رقدوا سابقا ؟ ؟ أين كانت روح المسيح فى خلال الفترة التى كان فيها الجسد موضوعا فى القبر ؟

وعندما حاول اللاهوتيون الاجابة على هذه الأسئلة الشائكة انقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول : يعتقد هذا الفريق من اللاهوتيين بأن روح المسيح بعد انفصالها عن الجسد وتركه فى القبر ، ذهبت إلى الجحيم لتبشير المسجونين فيه(١) . والذين يتمسكون بهذه العقيدة يرجعون إلى عدة فصول كتابية وإلى بعض أقوال الآباء لكى يؤيدوا نظريتهم هذه ، فلقد ظن هؤلاء بأن الفصول الكتابية الآتية : « وأما أنه صعد فما هو إلا إنه نزل أيضا أولا إلى أقسام الأرض السفلى ... » (أف ٤ : ٨ — ١٠ ، رو ١٠ : ٦ ، أع ٢ : ٢٤ — ٣١ ، متى ١٢ : ٣١ ، ٣٢ ، ١ بط ٣ : ١٨ ، ١٩) ، « فإنه لأجل هذا بشر الموتى لكى يدانوا حسب الناس بالجسد ولكن ليحيوا حسب الله بالروح » (١ بط ٤ : ٦) تشير إلى نزول المسيح إلى الجحيم .

على هذه الشواهد السابق ذكرها أعلاه ، يبنى كثيرون من اللاهوتيين عقيدة نزول المسيح إلى الهاوية أو إلى الشيول أو الجحيم ، فلقد ظن بعض هؤلاء اللاهوتيين بأن روح المسيح بعد انفصالها عن الجسد ، ذهبت إلى الهاوية ، المكان الذى فيه حفظت أنفس الذين رقدوا فى الايمان ، لكى تعلن لهم الخبر العظيم بقيامة المسيح من الأموات . وأما البعض الآخر من نفس هذا الفريق فيؤمن بأن روح المسيح ذهبت إلى الجحيم لكى تبشر ، ليس فقط الأبرار الذين رقدوا فى الايمان ، بل ذهبت إلى الجحيم نفسه ، إلى الذين تفصلهم عن الأبرار هوة عظيمة لا يمكن عبورها (لو ١٦ : ٢٦) ففى تلك الفترة التى كان جسد يسوع موضوعا فى قبر جديد ، وفى الفترة التى تلتها ، كانت روح المسيح تقوم بعملية التبشير فى الهاوية أو فى الجحيم .

(١) انظر قاموس
Dict. de théologie Catholique Tome 4e Premier Partie
(تحت مقام ونزل الى الجحيم)

ولقد وجـد هؤلاء اللاهوتيون فى أقوال بعض الآباء سـندا يؤيد عقيدتهم هذه . فقد كتب عن نزول المسيح إلى الجحيم كل من هـرمس الـراعى ويوستنيوس وترتليانوس وإيرينـاوس . فـإن يوستنيوس وترتليانوس وإيرناوس اعتقدوا بأن المسيح قد وعظ فى أثناء إقامته فى الهاوية ، ولكن لم يستفد من عظاته فى الجحيم إلا آباء العهد القديم فقط الذين كانوا ينتظرون تحقيق المواعيد النبوية . وأما معلمو الاسكندرية فقد ظنوا بأن تبشير المسيح فى الهاوية أو فى الجحيم كان موجها إلى كل الأموات يهودا كانوا أم أمما . ولقد ذهب كل من هرمس وأكليمندوس الإسكندرى إلى أبعد من ذلك ، فلقد نادى كل منهما بأن الرسل أنفسهم قد بشروا بعد موتهم وأثناء إقامتهم فى الشيول Schéol برسالة الخلاص ، وعمدوا كل الذين قبلوا الخـلاص وأحضروهم معهـم إلى السماء(١) .

ومـع أن موقف الكنيسة الإنجيلية يختلف عن موقف الـكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية ، إلا أن أحد أساتذة علم العقائد فى الكنيسة الانجيلية الفرنسية وهو فرانسوا بونيفاس FRANÇOIS BONIFAS قد نادى فى القرن التاسع عشر بهـذه العقيدة ، أى نزول المسيح إلى الجحيم : وهـو يرجع فى تأييد هذه العقيدة كما رجـع الكثيرون ، إلى الفصـول الكتابية التى ذكرناها آنفا ، كما إلى أقـوال الآباء وقوانين الايمان ، وخاصة أن قوانين الايمان التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع تذكر نزول المسيح إلى الجحيم . ولقد نادى بونيفاس فى تعليمه بنفس العقيدة التى نادى بها هرمس وأكليمندوس ، وذهب إلى أبعـد منهما ، فان هرمس وأكليمندوس قد علما بأن الرسل قد بشروا بالمسيح فى أثناء اقامتهم فى الشيول وعمدوا الذين قبلوا رسالة الخلاص وأحضروهم معهم

(١) François Bonifas. Histoire des dogmes. Tome 1. pp. 351 - 360.

الى السماء ، أما فرانسوا بونيفاس فقد علم فى القرن التاسع عشر بأن المؤمنين الذين يرقدون الآن فى المسيح سيواصلون عملهم التبشيرى فى العالم الآخر ، لكى يوصلوا رسالة الخلاص إلى كل الذين لم يسمعوا بهذه الرسالة ، وأن بوق الله الأخير لن يبوق إلا بعد أن تصل رسالة الخلاص إلى كل مخلوق حياً كان أو ميتاً . فإن الذين لم تتح لهم الفرصة لسماع إنجيل المسيح ، ستتاح لهم الفرصة بعد الموت . ويقول الكاتب بأن هذه الفرصة التبشيرية ستتاح فقط للذين لم يسمعوا قط عن المسيح ، أما الذين سمعوا به وغلظوا قلوبهم وسدوا آذانهم فلن تجدد لهم هذه الفرصة فى العالم الآخر . ويقتبس الكاتب نفس الآية التى كان يقتبسها بعض اللاهوتيين الكاثوليك ، لتأييد عقيدة المطهر : « ... وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (متى ١٢ : ٣١ ، ٣٢) .

ويقول بونيفاس ، بأن المطهر فى عرف الكنيسة الكاثوليكية هو المكان الذى يجتاز فيه المؤمنون الذين لم يستطيعوا أن يطهروا حياتهم وأن يحتفظوا بملابسهم بيضاء نظيفة فى أثناء حياتهم على الأرض إذ لا بد لهم أن يجتازوا فى مطهر لكى يكفروا عن الزلات والخطايا التى ارتكبوها. وهو يرفض هذه العقيدة رفضا كليا وجزئيا ، ولكنه يؤمن بأن الله سيقدم فرصة أخرى فى العالم الآخر حتى يوصل رسالة الخلاص إلى كل الذين لم تتح لهم فرصة سماع إنجيل المسيح على الأرض فى أثناء حياتهم ، لأن مسرة قلب الله الآب هى خلاص كل البشر ، « الذى يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ تيمو ٢ : ٤) .

ولكن كيف يقبل الناس شخص الرب يسوع المسيح كسيد وفاد إن لم يسمعوا بشارة الانجيل ؟ وكما يقول الرسول بولس : « فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به . وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به . وكيف يسمعون بلا كارز ... » (رو ١٠ : ١٤ ــ ١٦) .

وبما أنه لا خلاص بعيدا عن المسيح بحسب قول الرسول : « وليس بأحد غيره الخلاص ، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص » (أع ٤ : ١٢ ، ١ يو ٥ : ١٢) ، فلا بد إذن من أن رسالة الخلاص هذه تصل إلى كل الناس فى حياتهم هنا على الأرض أو فى الحياة الأخرى للذين لم يسمعوا عن المسيح فى حياتهم الأرضية . وإلا فكيف يحاكم الله العادل القدوس الناس الذين لم يسمعوا بهذه البشرى العظيمة ؟

يعتقد فرانسوا بونيفاس بأن محبة الله وعدله يدفعانه إلى ايجاد طريقة محبة وعادلة لكى يعلن بها رسالة الخلاص للأموات الذين لم يسمعوا بهذه الرسالة . ويقول فكما ذهب المسيح قديما وبشر الأرواح التى كانت فى السجن ، فإنه يستعمل الآن قديسيه الذين يرقدون لنشر رسالة الخلاص بين الراقدين ، فإن فرصة وقت الرقاد أو الموت هى وقت عمل وتبشير أيضا بالنسبة للمؤمن ، ولذلك فالمسيح نفسه ذهب بعد موته مباشرة إلى هذه النفوس المسجونة لكى يعلن لها رسالة الخلاص (١ بط ٣ : ١٨ — ١٩) ويقول إنه يمكن شرح هذه الآية بطريقتين :

١ — بأن العظات التى كانت تلقى فى أيام نوح كانت مصحوبة بروح المسيح ، أى أن المسيح نفسه كان هو الذى يتكلم فى الذين يتكلمون .

٢ — أو أن المسيح نفسه هو الذى وعظ الأموات ، أى بعد موته . وهو يؤيد هذا القول الأخير(١) .

---

(١) راجع كتاب F. Bonifas ص ٣٥١ — ٣٦٠ .
(م ٢٤ — تاريخ الفكر المسيحى)

إن تبشير الموتى بعد الموت نظرية مغرية ولذيذة ولكنها تحتاج إلى درس أعمق . وكما يبدو لنا أن الأمر الذى فات فرانسوا بونيفاس هو أن الذين ستوجه إليهم رسالة الخلاص لا يحتاجون بعد إلى براهين ووعظ وإقناع لأن كل شيء سيكون مكشوفا واضحا أمامهم ، لا بل أن هؤلاء أنفسهم يودون أن يرسلوا رسلا إلى أقاربهم وأصحابهم على الأرض لكى يتوبوا ويرجعوا . ألم يكن هذا هو الطلب الذى طلبه الغنى عندما قال : « أسألك إذاً يا أبت أن ترسله إلى بيت أبى ... حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا إلى موضع العذاب هذا ... » (لو ١٦ : ٢٧ — ٣١) .

وأمر آخر قد فات بونيفاس ، وهو أنه حاول كما يحاول الكثيرون هنا أن يرى الله مقيدا سجينا بقيود وقوانين ونواميس نفرضها نحن على أنفسنا وعلى الله نفسه . إننا نريد أن نقيس الله بمقاييسنا ونراه بعيوننا الأرضية . إن الله أكبر وأعظم من أن نراه أو نعرف مواصفاته أو مدى قدرته وحكمته : « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ، ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرا ... » (رو ١١ : ٣٣) .

الفريق الثانى : أما الفريق الثانى من اللاهوتيين فإنه يسلك فى طريق آخر غير الطريق الذى سلك فيه الفريق الأول ، وبناء على ذلك فهو يفسر الآيات التى يستند إليها الفريق الأول تفسيرا آخر ، فهو يرى فى كلمة الجحيم بالجمع أو كلمة الشيول (SCHEOL) ليس الجحيم بحسب مفهوم العهد الجديد (متى ٨ : ١٢ ، ١٣ : ٤٢ ، ٥٠ ، ٢٢ : ١٣ ، رؤ ٢٠ : ١٥) . بل أن كلمة شيول تعنى فى العهد القديم المكان الذى كانت تذهب إليه الأرواح بعد الموت كما يقول أيوب : « لأنى أعلم أنك إلى الموت تعيدنى وإلى ميعاد كل حى » (أى ٣٠ : ٢٣ ، تك ٣٧ : ٣٥ ، مز ٣٠ : ٣ ،

١٠ ، ٨٦ : ١٣ ، إش ٣٨ : ١٧) • فالعهد القديم وصف القبر بالهاوية ، بالحفرة ، بالبئر ، بالجب ••• الخ • والفكر الذى كان يسيطر على اليهود فى ذلك العصر هو أن كل الأموات يذهبون إلى الشيول • ولكن فى أثنـاء كتابة العهد الجديد كانت تنتشر فكرة أخرى هى أن الأبرار فقط هم الذين يذهبون إلى الفردوس •

فالمسيح بعد موته ذهب إذاً إلى الفردوس مثل كل الأبرار • فمن الواضح أن الشيول لا تعنى الجحيم بل مكان الانتظار أو القبر حيث ترقد الأجساد ، وجسد يسوع بقى فى هذا المكان من يوم الجمعة مساء إلى يوم الأحد فجرا • لقد أنزل جسد المسيح إلى الهاوية إلى القبر وهذا ما يعنيه الرسول عندما يقول : « وأما أنه صعد فما هو إلا أنه نزل أيضا إلى أقسام الأرض السفلى » ، أى أنه نزل إلى القبر ودفن فعـلا وأن موته كان موتا حقيقيا •

ولقد أشار كلفن فى كتاباته إلى نزول المسيح إلى الجحيم ، وهـو يعتقد بأن الآلام التى قاساها السيد فى صلبه وموته توازى الجحيم فى شدتها • لقد مات موتا حقيقيا • أما بخصوص قوانين الايمان التى تتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن نزول المسيح إلى الجحيم ، فهـذه حقيقة لا تنكر •

ولكن هذه الجملة : « ونزل إلى الجحيم » لم تظهر فى هذه القوانين إلا فى القرن الرابع أو الخامس (١) فان الكنيسة فى تلك العصور الأولى أضافت هذه الجملة (ونزل إلى الجحيم) إلى قوانين الايمان لكى تعبر

(١) انظر كتاب
Jean Calvin. L'institution Chrétienne Livre Second pp. 266 - 274.

انظر كتاب علم اللاهوت النظامى — دار الثقافة المسيحية : ص ١٣٠٤ ، القاهرة •

بها عن حقيقة موت المسيح ، وأنه نزل فعلا إلى المكان الذى كان ينزل إليه الأموات ، لكى تصور بها درجة الاتضاع الذى قبل المسيح أن يتحمله من أجلنا .

إن الذين يتمسكون بنظرية نزول المسيح إلى الجحيم يقولون إن الهدف من نزوله هو أن يخلص الذين ماتوا قبل صلبه ، ولكن الكتاب المقدس يعرفنا بأن الذين ماتوا (فى الايمان) قبل صلب المسيح انتقلوا إلى النعيم كما هو واضح من قصة ألعازار والغنى ثم من قصة التجلى (لو ١٦ : ١٩ ، مر ٩ : ٢ — ٨) .

فما هو إذاً قصد الرسول بطرس عندما يتكلم عن ذهاب المسيح إلى السجن وتبشيره للأرواح هناك ؟ (١ بط ٣ : ١٨ — ١٩) « ... مماتا فى الجسد ولكن محيى فى الروح ، الذى فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح ... » ؟ يعتقد البعض أن مفتاح الآية هو فى عبارة (محيى فى الروح ، الذى فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن ... » أى أن الروح ، روح المسيح ، كان يعظ ويوبخ ويعمل فى أيام نوح بينما كان نوح يقوم بعمل بناء الفلك علامة ظاهرة ملموسة على غضب الله من ناحية، وعلى خلاصه أيضا من ناحية أخرى .

إن معاصرى نوح كانوا يعيشون فى سجن الخطية والعصيان والتمرد (تك ٦ : ٥ — ٨) ، ولهذا السبب فقد أراد الله أن يعاقبهم عقابا شديدا صارما بالطوفان . ولكن قبل أن تنفجر ينابيع الأرض وقبل أن تهطل أمطار السماء ، أمر الله نوحا بأن يبنى الفلك . ولقد كان الفلك والفترة التى بنى فيها علامتين تعبران عن محبة وأناة الله كما عن غضبه وعقابه. فى هذه الفترة التى كان يبنى فيها الفلك ، كان روح المسيح يعمل فى نوح

وفى بنيه ، لكى يعظ ويوصل عن طريقهم وبواسطتهم كلمة النجاة والخلاص للنفوس التى كانت سجينة فى سجن الخطايا والذنوب . فإن المسيح أزلى الوجود ، الموجود قبل الدهور ، كان هو الواعظ (محيى فى الروح الذى فيه ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن) للذين فضلوا الشر على الخير ، والخطية على البر ، وبذلك أصبحوا مسجونين وعبيدا لهذا الشر والخطية . ولذلك فقد ذهب إليهم المسيح بروحه قبل التجسد ووعظهم لكى يعطى لهم فرصة أخيرة قبل بدء الطوفان . والذين يتمسكون بهذا الرأى يرجعون إلى بطرس نفسه الذى يقول : « ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحا ثامنا كارزا للبر إذ جلب طوفانا على عالم الفجار » (٢ بط ٢ : ٥) ، فقد كان روح المسيح يعمل فى نوح وهو يبنى فى الفلك ، العلامة الظاهرة الملموسة لمحبة الله وغضبه ، لكى يعظ النفوس التى تحيط به والتى كانت سجينة الخطية(١) .

ووليم باركلى يقدم لنا فى شرحه لهذه الأعداد (١ بط ٣ : ١٨ — ٢٠) عدة نظريات يستحسن الرجوع إليها لضيق المجال عن مناقشتها هنا . ولكنه فى شرحه للنظريات العديدة يقول :

١ — إن نزول المسيح إلى الهاوية يعنى بأن المسيح قد مات فعلا وحقيقة ، وقد مر فى هذا المر المخيف .

٢ — إن قيامة المسيح تعنى أيضا نصرته الحقيقية .

٣ — إن نزوله إلى الهاوية وتبشيره هناك يعنى بأن بشارة الانجيل ستصل إلى كل بقاع الكون(٢) .

(١) انظر كتاب علم اللاهوت النظامى ص ٩٠٧ .
(٢) انظر W. Barclay. The Letters of James and Peter Ch. 3, 18 - 20.

وقبل أن نترك هـذا الموضوع نود أن نذكر القـارىء أن بعض المفسرين قد ظنوا بأن الشخص الذى بشر فى أيام نوح ليس هو المسيح بل هو أخنوخ . ولقد بنى هؤلاء المفسرون نظريتهم هذه على الأهميـة الكبرى التى يحتلها أخنوخ فى تعاليم اليهود . وكتاب أخنوخ أصـدق شاهد على ذلك . ولقد ترجم موفات (١ بط ٣ : ١٩) بالعبارات الآتية : « مماتا (المسيح) فى الجسد ولكن محيى فى الروح ، وبالروح ذهب أيضا أخنوخ فكرز للأرواح التى فى السجن اذ عصت قديما ...» (١) .

فلقد أدخل موفات كلمة أخنوخ فى هذا النص لكى يدلل بهـا على أن الذى كان يقوم بعملية الكرازة ليس المسيح بل هو أخنوخ . ولـكى نفهم هذه المشكلة ، يجب علينا أن نرجع إلى المصدر لنرى كيف ولدت هذه الفكرة . فالتقليد اليهودى يعرفنا بأن أبناء الله المذكورين فى تكوين (٦ : ١ ـــ ٤) هم نوع من الملائكة الساقطين الذين عاقبهم الله بطردهم من الجنة ثم ألقى بهم فى السجن إلى يوم القضاء (٢ بط ٢ : ٤ ، يهـوذا ١ : ٦) ، ونفس التقليد يعرفنا بأن أخنوخ ذهب إلى الجحيم لكى يعلن لهذه الأرواح قضاء الله عليهم (٢) .

وبناء على هذا التقليد فإن الذى ذهب إلى الجحيم ليعلن حـكم القضاء على الأرواح التى عصت وتمردت قديما ليس هو المسيح ولكنـه أخنوخ . على أية حال إن هذا الفصل وبعض الفصول الأخرى الخاصة بهذا الموضوع مثل (١ بطرس ٤ : ٦) من الفصـول الصعبة جـدا . وصعوبتها كامنة فى حقيقة أنها قليلة جدا وقصيرة جدا ولا تعطى لنا أية تفاصيل مطولة تسمح لنـا بأن نلم بالموضوع إلماما كافيا لشرحه بطريقة واضحة .

---

(١) راجع ترجمة موفات لهذا الفصل ثم وليم باركلى ١ بط ٣ : ١٩ .
(٢) انظر كتاب Jean - Claude Marcot. Les Epitres de Pierre
ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ Ch. 3 & 4. Labor Fides.
انظر كتاب أخنوخ الفصل السادس .

الجــزء الثالث

عقيدة الكنيسة
والهرطقات في القرنين الأول والثاني

الفصل الأول : إيمـان الرسـل .
الفصل الثـانى : كنيسة القرنين الأول والثانى .
الفصل الثالث : اكليمندس الرومانى .
الفصل الرابع : بوليكاربوس .
الفصل الخامس : ايريناوس .
الفصل السادس : يوستينوس الشهيد .
الفصل السابع : تاتيانوس .
الفصل الثامن : اثيناغورس وثيوفيلوس .
الفصل التاسع : ميلتون الساردسى .

الفصل الأول

إيمان الرسل

حاولنا أن نشرح فى الجزء الأول من هذا الكتاب فكرة المسيا ، وكيف أن هذه الفكرة ولدت وتطورت فى اليهودية على مر العصور ، وكيف أن اليهود فى كل حقبة من حقبات تاريخهم كانوا ينتظرون مسيا ، منقذا ومخلصا : وبناء على ذلك فقد رأوا فى أحيان كثيرة ، فى البعض من قادتهم أمثال موسى ، يشوع ، دبوره ... المنقذين والمخلصين من يد الأعداء ، نوعا من المسيا المنتظر ، ولقد وجدت فكرة المسيح المخلص والمنقذ من يد العدو ، تربة صالحة فى أيام السبيين الأول والثانى ثم فى أيام الاضطهاد الذى شنه الملك أنطيخوس أبيفان الرابع ضد اليهود وضد الناموس . على أن هذه العقيدة أى ظهور مسيا محارب يدافع عن الشعب اليهودى المضطهد المستعمر ، ويسحق أعداءه ويدوسهم تحت قدميه ، انتشرت على نطاق واسع فى القرن الأول ، أى فى أثناء وجود السيد الرب على الأرض .

إن التمسك بهذه العقيدة هو الذى دفع الكثيرين من اليهود للانضمام الى الأحزاب السياسية الدينية التى كانت تحارب الرومان للحصول على الاستقلال السياسى الذى يؤدى بهم الى تأسيس دولة ثيوقراطية .

فعندما جاء المسيح إلى الأرض كان معظم هذه الأحزاب الدينية والسياسية التى سبق أن تكلمنا عنها ، كانت تنتظر المسيا ، ولكنه المسيا المحارب المقاتل الذى يحرر شعب اليهود من الاستعمار . جـاء المسيح إلى خاصته التى كانت تنتظر ظهوره ولـكن خاصته لم تعرفه ، فحتى تلاميذه أقرب الناس إليه ، الذين أكلوا وشربوا معه لم يستطيعوا فى بادىء الأمر التمييز بينه وبين المسيا السياسى الذى كان ينتظره اليهود. وهنا نلاحظ الأمر الغريب العجيب وهو أن الأمة التى كانت تنتظر المسيا بفارغ الصبر ، عندما جاءهم المسيا يتمشى فى شوارعهم ويتحدث إليهم ويأكل ويشرب معهم ، لم يدركوا بأنه المسيا الحقيقى ، وذلك لأنهم قـد وضعوا بعقيدتهم فى مسيا حربى عسكرى ، غشـاوة على أعينهم فلم يعرفوه . ألم يحدث نفس هذا الأمر مع إثنين من تلاميذه ، فقـد سار معهما حوالى ١٢ كيلو متر (ستين غلوه) أى حوالى ساعتين من الزمن يتحدث إليهما عن المكتوب ، ولكن : « أمسكت أعينهما عن معرفتـه » (لو ٢٤ : ١٢ ـ ٤٣) . فكم من المرات يقترب فيها السيد منا ويمشى معنا فى الطريق ، وتعجز أعيننا عن معرفته . إن السيد فى أمانته التى لا تحد ولا تقاس ، يأتى إلى شـعبه على مر العصور بطرق مختلفـة متنوعة ، ويمشى معهم فى الطريق . إن ما يقوى إيمان المؤمن هـو أن السيد يأتى إليه فى الظروف المظلمة المخيفة والمرعبة ، ويمشى معـه حتى وإن كان هذا المؤمن لا يشعر فى بداية الأمر بوجوده ، فإنه يسير معه فى هذا الطريق الصعب الوعر ، إلى أن تتفتح عيناه ، وعندئذ ، وعندئذ فقط يدرك حقيقة هامة جدا غابت عن فكره . فقبل القيامة كانت عقيدة التلاميذ تتلخص فى هذا الاعتراف الذى نطق به تلميذا عمواس : « ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل » . وكلمة « يفدى » هنا لا تعنى ما نفهمه نحن حاليا : أى فداء الخاطىء من خطاياه ، بل تعنى أن يخلص أو ينقذ أو يحرر . وكأنى بهما يقولان ' لقد وضعنا فى المسيح آمالنـا نفهم هذه المشكلة ، يجب علينا أن نرجع إلى المصدر لنرى كيف ولدت

مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك » (لو ٢٤ : ٢١) أى لا رجاء من هذه الناحية • ولكن بعد هذه المقابلة لا يغير المسيح مفهوم تلميذى عمواس فقط ، بل أيضا مفهوم كل التلاميذ • وهنا يدركون هذه الحقيقة الهامة التى كلفوا بإعلانها ونشرها ليس فقط بين الشعب اليهودى بل بين الأمم أيضا • ولهذا السبب كانت كلمات الرب لتلاميذه فى إحدى المرات الأخيرة التى تقابل فيها معهم هى : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ١٩ ، ٢٠) •

سنحاول بنعمة الله فى هذا الجزء من الكتاب أن نشرح عقيدة الكنيسة فى شخص ربنا يسوع المسيح من القرن الأول إلى القرن الرابع• فالمسيح الذى تنبأ عنه سمعان الشيخ بهذه الكلمات : « هذا (يسوع) قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) ظل وسيظل تلك العلامة التى تقاوم •

وفى دراستنا لهذه الحقبة من الزمان سنركز جهودنا على توضيح كيف ومتى ولدت المعتقدات المختلفة المتنوعة الخاصة بشخصية المسيح يسوع ، وهذا ما يدعى فى علم اللاهوت بالكريستولوجية (CHRISTOLOGIE)[1] • فلقد ظهرت خلال هذه الفترة تعاليم مختلفة متنوعة كانت نتيجة حتمية لعقيدتين هامتين ومتناقضتين وهما :

١ ـ العقيدة الأولى :

عقيدة الذين يرون فى شخص يسوع إنسانا وإنسانا فقط ابن مريم

(١) (Christologie) هى التعاليم الخاصة بشخص المسيح •

ويوسف ، ولقد رفعه الله بسبب تقواه إلى درجة الكرامة ، وهذه الجماعة تسمى الإبيونيين (EBIONISTES) •

٢ ـ أما الجماعة الثانيـة :

فقد علمت بأن المسيح لم يتجسد بصورة حقيقية ، إذ أن جسـده الذى كان يظهر به أمام الناس ، لم يكن إلا خيالا لأن الجسد مادة ، وكل مادة رديئة • على أية حال ستكون لنا الفرصة فيما بعد لدراسة هاتين العقيدتين اللتين كانتا بمثابة الأم لكل العقائد والتعاليم والهرطقات التى انتشرت فى الكنيسة فى الشرق وفى الغرب • فمن هاتين العقيدتين خرجت تعاليم ماركيون ثم تعـاليم الانتحاليـة MODALISME والتبنى (ADOPTIONISME) وتعاليم بولس السميساطى وأريوس وبولوناريوس ونسطور وأتيخوس • ولقد كانت هذه التعاليم وتعاليم أخرى كثـيرة بمثابة السكاكين الحادة والسيوف القاطعة التى جرحت جسـد الرب يسوع المسيح ومزقته خالقة منه بدعا وطوائف وأحزابا وشيعا وكنائس • هذا الجسد ، أى الكنيسة التى من أجلها صلى السيد فى أيامه الأخيرة على الأرض قائلا : « ••• ليكونوا واحدا كما أننا واحد » (يو ١٧ : ٢٣) أصبح كنيسة ممزقة منقسمة يهاجم بعضها بعضا بسبب هـذه التعاليم التى سنحاول شرحها فى هذا البحث •

عقيدة الرسل والكنيسة الأولى فى المسيح يسوع

ومع أننا سوف لا نقف كثيرا عند هذه النقطة الخاصة بتعـاليم الرسل والكنيسة الأولى فيما يختص بشخص ربنا يسوع المسيح ، لأن هذا الموضوع يحتاج فى معالجته إلى كتاب آخر ، إلا أنه من الضرورى أن نلقى نظرة عاجلة سريعة على مفهـوم الرسل والكنيسة الأولى • والسؤال الذى يطرح نفسه من أول وهلة عندما نتعرض لدراسة هـذا

الموضوع هو : ما هى عقيدة الرسل والكنيسة الأولى فى شخص يسوع المسيح ؟

هل كان الرسل يؤمنون بمسيانية المسيح بالمعنى الذى فهمه كثير من اليهود والتلاميذ قبل قيامته من الأموات ؟ أى هل كان الرسل يؤمنون بمسيانية يسوع وارساليته لخلاص الشعب اليهودى من قبضة الرومان واسترداد القوة وتأسيس دولة ثيوقراطية تحكم بالناموس ؟

لقد رأينا فى الجزء الثانى أن التلاميذ كانوا يشاركون معاصريهم فى كثير من الأحلام والأمانى المسيانية ، بل أن هذه الأمانى والأحـــلام المسيانية التى كانت تسيطر على كثير من اليهود فى تلك الفترة ، كانت قد تأصلت وتعمقت فى قلوب وأذهان التلاميذ لدرجة أنهم حتى فى لقائهم الأخير مع السيد يسألونه هذا السؤال الذى إن دل على شىء فانما يدل على تمسكهم بفكرة رد الملك لإسرائيل واقتناعهم العميق بها : « أما هم المجتمعون فسألوه قائلين يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك لإسرائيل؟» (أع ١ : ٦) .

ولكن الذى غير مفهوم التلاميذ فى هذا الموضوع هو الروح القدس نفسه الذى وعد به يسوع لكى يكون معلما ومرشدا لتلاميذه بعد انفصاله عنهم (مت ١٠ : ١٩ ، ٢٠ ، يو ١٤ : ١٦ ، ٢٦ ، ١٥ : ٦ ، ١٦ : ١٣ ــ ١٧) . ومما لا شك فيه أن قيامة المسيح من الأموات ومقابلته للتلاميذ حيا آكلا وشاربا معهم ، ملموسا ومحسوسا ومنظورا منهم : أى أن حواسهم كلها أدركت قيامته من الأموات ، كانت برهانا قويا لا يـــرد وحجة ناطقة لا ترفض ، على سلطان المسيح المطلق حتى على المـــوت . إن هذه الحادثة العظيمة ، حادثة القيامة من الموت غيرت الكثير والكثير جدا من مفهوم التلاميذ الذين رأوا بعيونهم يسوع محاكما ومضروبا ومهانا ثم مصلوبا ومماتا على الصليب وموضوعا فى قبر جديد . وهم

أنفسهم أيضا الذين رأوا نفس المسيح مقاما من بين الأموات . لقد كانت هذه الحادثة صدمة كهربائية عنيفة ، إذ أنها حقيقة تفوق كل الادراك والتفكير البشريين ، ولأن هذه الحقيقة كانت كصاعقة هزت معتقدات التلاميذ وأفكارهم ، فقد طلب السيد منهم بعد أن سألوه هذا السؤال في اللحظة الأخيرة قبل صعوده : « هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ » ، بأن يمكثوا في أورشليم إلى أن ينالوا قوة من العلاء .

ويرى المسيح أتباعه بعد حادثة الموت والقيامة في حالة اضطراب وانزعاج ممزوجين بالفرح والغبطة ، بل والانتصار ، وعندئذ يقول لهم : لا تتركوا أورشليم . وكأني به يوحي لهم بأن يذهبوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها ... « هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته » (أع ١: ١٢ — ١٤) .

لقد مكث أتباع يسوع في هذه العلية عشرة أيام ، أي من يوم الصعود إلى يوم حلول الروح القدس . ومما لا شك فيه أن الرسل والذين مكثوا معهم في العلية كانوا يقضون أوقاتا طويلة في الصلاة والتأمل ، التأمل فيما نطق وعلم به السيد في أثناء حياته . وفي نهاية هذه الفترة ، فترة الخلوة والصلاة والتأمل العميق في العلية ، حل الروح القدس على هؤلاء الرجال والنساء . وهنا ، وهنا فقط يحدث التغيير الكلي والجذري في حياة الرسل ومعتقداتهم وسلوكهم فالروح القدس قد ملأهم بالايمان والشجاعة .

ملأهم بالشجاعة :

وهنا نلاحظ الفرق الشاسع الذي لا يقاس في سلوك بطرس أمام

جارية عندما أنكر سيده قبل امتلائه بالروح القدس (متى ٢٦ : ٢٩ ــ ٥٧) ، وموقفه بعد امتلائه بالروح . فهو لا يكتفى بالقاء عظة أمــام الشعب ، بل يعظ الرؤساء أيضا مقدما شهادة لامعة عن حياة المســيح سيده : « ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل . ورئيس الحياة قتلتموه الذى اقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك ... » (أع ٣ : ١٤ ــ ١٦) ... « لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا ... » (أع ٤ : ١٩ ــ ٢٢) .

وهنا نلاحظ ليس فقط شجاعة بطرس فى إعلانه هذا الأمر ، بل أيضا تغيير مفهومه الخاص بالمسيح . وهذا واضح من خطابه الذى ألقاه على الآلاف المؤلفة يوم الخمسين ، وخاصة هذه الكلمات : « ... فليعلم يقينا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتــم ربا ومسيحا » (أع ٢ : ١٤ ــ ٣٦) . إن الاعــلان الذى نطق به بطرس قبل هذا الاختبار ــ أى اختبار القيامة وحلول الروح القدس ــ كان بوحى من الآب دون أن يدرك بطرس معناه العميق (مت١٦:١٧) ولهذا السبب عينه فان بطرس نفسه بدأ ينتهر السيد عندما سمعه يتكلم عن آلامه وصلبه وموته ، ولذلك قال الرب لبطرس بعد هذا الاعتراف العظيم الذى جاء من الله والذى فهمــه بطرس بطريقة جســدية مادية خاطئة بحسب المفهوم الإسرائيلى لابن الله : « اذهب عنى يا شيطان » (متى ١٦ : ١٣ ــ ٢٨) .

ولكن الآن وبعد أن حل الروح القدس الذى وعد به السيد وأنه سيعلمهم كل شىء ، ينطق بطرس بارشاد الروح القدس بهذا الاعلان العظيم : أن يسوع هو رب ومسيح . ولم يستطع بطرس أن ينطــق بإعلان كهذا عن فهم وادراك إلا بارشاد الروح القدس وقيادته ، وكما يقول الرسول بولس : « وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس » (١ كو ١٢ : ٣) .

وهنا نلاحظ التغيير الشامل الكلى فى عقيدة الرسل بخصوص المسيح ، ولقد حدث هذا التغيير بفضل عمل الروح القدس ، الروح القدس الذى وعد به السيد تلاميذه ، فبعد القيامة ، وبعد فرصة التأمل والصلاة فى العلية ، وبعد الامتلاء بالروح القدس ، نرى هذا التغيير الجذرى فى مفهوم الرسل لشخص يسوع • فالمسيح المقام من الأموات لم يصبح بعد المسيا المنتظر بحسب المفهوم اليهودى والذى سينقذ ويخلص الشعب الإسرائيلى المذل من الاستعمار والاستعباد لكى يؤسس دولة ثيوقراطية ، بل إن يسوع الناصرى أصبح الآن فى عيونهم بعد القيامة وبعد حلول الروح القدس ربا ومسيحا مخلصا وفاديا ، فهو ملك بل ملك الملوك ، وملكه بلا انقضاء وسلطانه بلا حدود ، ولكن هذا الملك هو ملك روحى ، فلا داعى إذا بأن يتصارع ويتخاصم الرسل على من هو الذى سيكون الأول فى ملكوت الله ، أو من هو الذى سيكون عن يمينه أو عن يساره ، فبعد أن قابل الرسل الرب المقام من الأموات ، وبعد أن قضوا عشرة أيام فى العلية ، وبعد أن امتلأوا بالروح القدس تغيرت نظرتهم وعقيدتهم فى شخص يسوع ، فهم الآن على استعداد للانطلاق والتبشير ليس بيسوع كما فهموه فى بادىء الأمر وكما فهمه كثيرون ، بل التبشير بيسوع المخلص من الخطايا • هذا ما قد أقره واعترف به الرسل أن يسوع الناصرى هو المسيح ، هو ابن الله الحى • وهذا الأمر واضح كل الوضوح فى العهد الجديد بصفة عامة وفى رسائل بولس الرسول بصفة خاصة •

المسيح فى رسائل بولس الرسول :

إن بولس الرسول هو أول من دون رسائله • وعلى ما يظن أن أول رسالة كتبت فى حوالى سنة ٥٢ (رسالة كورنثوس) وآخر رسالة كتبت فى حوالى سنة ٦٦ أو ٦٧ ب م •

وهذه الرسائل تحتوى على تعاليم عامة ، ولكن معظمها يقدم لنا بعض العقائد عن المسيح • والدارس المدقق يجد فى رسائل بولس ما يمكننا أن نسميه بقوانين الايمان ، ونقصد بعبارة « قوانين الايمان » الجمل أو العبارات التى يظن أن الرسول حاول بها أن يلخص الايمان المسيحى • ولقد استعملت الكنيسة الأولى هذه العبارات وهذه الجمل عند قبولها الذين كانوا ينضمون إلى المسيحية ويطلبون العماد • والرسول بولس ترك لنا عددا كبيرا من صيغ الايمان ، منها : « وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس » (١ كو ١٢ : ٣) ، « ولكن لنا إله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ونحن له • ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به » (١ كو ٨ : ٦) « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم • آمين » (٢ كو ١٣ : ١٤) « لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت •• » (رومية ١٠ : ٩ — ١١) • ويمكننا أن نضيف الى هذه القوانين التى وضعها بولس ، قانون الايمان الذى يذكره سفر الأعمال : « فأجاب وقال أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله » (أع ٨ : ٣٧ ، أع ٨ : ١٦ ، ٢ كو ١ : ٢ ، ف ٢ : ١١) •

لقد نطق الرسول بولس بهذه العبارات وعبارات أخرى لكى يلخص بها محتوى الايمان المسيحى ، واستعملت الكنيسة الأولى هذه العبارات كقوانين للايمان ، وكان على كل طالب للعماد والانضمام للكنيسة ، أن يردد هذه الآيات كاعتراف منه بأن يسوع الناصرى هو المسيح الرب •

ورسائل الرسول بولس تحتوى على مجموعة أخرى من التعاليم المختصة بالمسيح ، فهو يعتقد بأن المسيح هو :

١ — صورة الله : « الذى هو صورة الله غير المنظور بكر كل

خليقة » (كولوسى ١ : ١٥ ــ ٢٠) . وما أكبر الفرق بين المسيح صورة الله النقية الطاهرة الذى أطاع الآب حتى الموت موت الصليب والعار ، وآدم الذى خلق على صورة الله ، فشوه هذه الصورة بعصيانه وابتعاده. (١ كو ١٥ : ٤٩ ، ٢ كو ٤ : ٤ ، رومية ٥ : ١٢ ــ ٢١) .

٢ ــ **سابق الوجود** ولقد شدد الرسول بولس على حقيقة أن المسيح أزلى الوجود ، فإن ظهور يسوع الناصرى فى فلسطين لم يكن هو بداية وجود المسيح ، بل هو موجود قبل كل موجود ، وكل ما فى الكون وجد به وله : « فإنه فيه خلق الكل ما فى السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى » (كولوسى ١ : ١٥ ــ ١٩ ، ١ كو ٨ : ٦ ، أف ١ : ٩ ، ١٠ ، فى ٢ : ٥ ــ ١١) . وهنا يتفق الرسول بولس مع إنجيل يوحنا عندما يقول : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله ... » (يو ١ : ١ ــ ٥) . وكاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول : « كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثا لكل شىء الذى به أيضا عمل العالمين » (عب ١ : ٢ ــ ٤) .

٣ ــ **السيد** (KUPIOS = KYRIOS) : إن استعمال هذا اللقب قديم جدا ، فقد استعمله الهلينيون ليصفوا به شخصية الإله أو لوصف الإله المتسلط . وكذلك استعمله اليهود الناطقون باللغة اليونانية لكى يترجموا اسم الله . كما أن الرسل استخدموا نفس الاصطلاح عندما كانوا يتكلمون عن يسوع المسيح ، لكى يصفوا به سيادة الرب يسوع على الكون كله . (١ كو ١٢ : ٣ ، رو ١٠ : ٩ ، ١ كو ٨ : ٦ ، ٢ كو ١٣ : ١٣ ، ١ تيمو ٦ : ١٥) .

وعلى ما يظن فإن الرسول بولس عندما أعطى لقب « سيد » (KYRIOS) المسيح كانت صورة الامبراطور الرومانى « السيد » على الامبراطورية المترامية الأطراف حاضرة فى ذهنه . فلقد عبد الرومان

أباطرتهم كآلهة وأعطوا لهم لقب « سيد » والرسول بولس يستخدم هذا الاصطلاح « سيد » للمسيح •

على انه يميز سيادة المسيح عن كل سيادة أخرى مهما سمت وارتفعت : «لأنه ملك الملوك ورب الأرباب» (١ تيمو ٦ : ١٥) • فعندما كان أعضاء الكنيسة الأولى ينطقون بكلمة « السيد » (KYRIOS) كانوا يقصدون بها إعلان سيادة المسيح على كل السيادات الأخرى ، أى على سيادة الأباطرة أنفسهم • ولهذا السبب نشأ الاضطهاد القاسى المؤلم ضد المسيحيين الذين رفضوا تقديم العبادة للأباطرة ، إذ أن قياصرة الرومان لم يستطيعوا التمييز بين العبادة التى كان على كل مسيحى أن يقدمها لسيده وربه يسوع المسيح وحده ، وبين الاحترام الذى كان يكنه كل مسيحى للحكام ، فان المسيحى كان يرى فى لقب «السيد» (KYRIOS) السيادة التى يجب أن تمنح للمسيح ، وللمسيح وحده ، لأنه هو «السيد» الذى يسيطر على الكون كله •فإن كان لقب « السيد » قد أستعمل فى الكنيسة المسيحية الأولى لكى يفرق ويميز بين سيادة المسيح التى يجب أن تكون فوق كل السيادات الأخرى ؛ فإنه استعمل أيضا للدلالة على لاهوت المسيح • ولهذا فإن بولس يستخدم هذا الاصطلاح لكى يعبر به عن عقيدته فى المسيح بأنه الله الذى ظهر فى الجسد : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) • وفى رسالته إلى أهل فيلبى يقدم لنا لحنا جميلا وتعليما فى غاية العمق عن المسيح الذى هو نفسه صورة الله : « أخلى نفسه آخذا صورة عبد ••• لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم ••• » (فى ٢ : ٥ ـ ١١) • والرسول يصف فى هذه الأعداد حالتى المسيح قبل التجسد وبعده ، فالمسيح موجود قبل عملية التجسد ، فقبل أن يكون يسوع الناصرى كان هو الله ، « فى البدء كان الكلمة » أى أن وجود المسيح ، وجود « اللوغوس » الكلمة (LOGOS) كان سابقا لوجود يسوع الناصرى ، ففى هذا الأخير قد

حل ملء اللاهوت وليس العكس ، كما يظن البعض بأن يسوع الناصرى قد ارتفع عن طريق تقواه إلى درجة الكرامة والعظمة فأصبح إلها . فإن كان الرسول بولس يقول : « أعطاه اسما فوق كل اسم » ، فإن هذا لايعنى بأن الله رفع المسيح معطيا إياه اسما لم يكن له من قبل أو رفعه إلى درجة لم يكن قد وصل اليها سابقا ، بل فى اعطائه هذا الاسم يعيده إلى الدرجة التى كان عليها قبل ذلك . أو بعبارة أصح ، إن الله يعلن جهاراً أو علانية أن يسوع الناصرى هو نفسه « اللوغوس » ، أى الله الذى كان مخفيا فى الجسد وغير معروف من النـاس ، وأصبح الآن معروفا ومعترفا به كالسيد الذى يجب أن تسجد له كل ركبة وأن يعترف كل لسان بسيادته المطلقة الكونية .

والرسول بولس أعطى للمسيح ألقابا أخرى فى رسائله ، غير التى ذكرناها آنفا مثل صورة الله ، والسابق الوجود و « السيد » . فيعطى له أيضا لقب « ابن الله » (رو ١٥ : ٦ ، أف ١ : ٣ ، ٢ كو ١ : ٣ ، غـلا ٤ : ٤) والفرق شاسع كبير فى انتساب المسيح كابن الله ونسبتنا نحن لله كآب ، فإن كل الذين قبلوا المسيح كمخلص وفاد ، منحوا بنعمته أن يصيروا أولاد لله ، أى أن الله يتعامل معهم كما يتعامل مع أولاده ويحبهم كما يحب أولاده . على أن هذا التعبير ودرجة البنوية التى منحت لهم لا تجعلهم مشاركين للـه فى الجوهر . أما بنوية المسيح للـه فتختلف الاختلاف كله عن هذا ، فإن المسيح هو ابن الله بالطبيعة فهو شريك له فى الطبيعة وفى الجوهر .

ولقد أعطى بولس الرسول ألقابا أخرى للمسيح ، مثل آدم الأخير والإنسان الثانى (١ كو ١٥ : ٤٥ ، رو ٥ : ١٢ ــ ٢١) « الذى صار من نسل داود » (رو ١ : ١) المخلص ، الفادى ... الخ .

وكاتب رسالة العبرانيين يعطى للسيد ألقابا أخرى فهو يقدم لنـا

المسيح الجالس عن يمين أبيه وكالوارث لكل شيء وهو أيضا : « بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته » (عب ١ : ١ — ٤) ، « والذى به أيضا عمل العالمين » (عب ١ : ٢) ولقد شدد كثيرا كاتب هذه الرسالة على أن المسيح هو رئيس كهنة (عب ٢ : ١٧ ، ٥ : ٥ — ١٠ ، ٦ : ٢٠ ، ٧ : ٢١ ، ٨ : ١) .

ومع أن الكاتب يقدم لنا المسيح كالجالس عن يمين الآب وكصورة الله الكاملة ، وبهاء مجد الآب ورسم جوهره ، فإنه يقدمه لنا أيضا إنسانا متألما ومجربا كأى إنسان يتألم ويتجرب « من ثم ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شيء لكى يكون رحيما .. لأنه فى ما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجربين » (عب ٢ : ١٧ — ١٨) ... « لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثى لضعفاتنا بل مجرب فى كل شيء مثلنا بلا خطية » (عب ٤ : ١٥) ، « الذى فى أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع وطلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت ، وسمع له من أجل تقواه ، مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به » (عب ٥ : ٧ — ٨) .

هذه الآيات تعطى لنا صورة واضحة وصريحة عن ناسوت المسيح ، الناسوت الذى ولد من مريم العذراء وعاش فى فلسطين وأكل وشرب ونام واستيقظ وتألم وجاع وعطش .. «مجرب فى كل شيء مثلنا بلا خطية » ، إن عبارة « مجرب فى كل شيء مثلنا » ، تعنى بأن يسوع فى حياته الأرضية كان معرضا مثلنا لكل التجارب مهما كان نوعها وشكلها . وكلمة بلا خطية لا تشير إلى غياب التجربة بل إلى النصرة التى حصل يسوع عليها بالرغم من كل التجارب التى كانت تحيط به وتهجم عليه فى كل لحظة من لحظات حياته . لقد كان يسوع الناصرى موضوعا للتجارب كأى إنسان آخر لأنه كان فى تكوينه الطبيعى البيولوجى كأى إنسان آخر ، وفى تكوينه البيولوجى لم ينقصه شيء ما كان السبب فى أن يكون يسوع بلا خطية ، أو بعبارة أخرى : إن الطبيعة البشرية التى أخذها

يسوع لم تكن طبيعة مختلفة عن كل الطبائع البشرية ، ومجردة من بعض الغرائز والميول التى يتمتع بها كل انسان والتى تدفع الانسان إلى ارتكاب الخطية والابتعاد عن الله ، وأنه لهذا السبب كان المسيح بلا خطية ، لغياب الدوافع للخطية ، بل إن الطبيعة البشرية التى أخذها المسيح هى نفس طبيعة كل إنسان ، وهى طبيعة آدم ليس قبل السقوط بل بعده ، وهنا يظهر الفرق الشاسع بين آدم الأول وآدم الأخير (رو ٥ : ١٢ ــ ٢١) ٠

فالأول سقط بالرغم من الامتيازات العديدة التى كان يتمتع بها آدم ، أما آدم الأخير (المسيح) فقد انتصر على كل أنواع التجارب بالرغم من وجود طبيعة آدم بعد السقوط فيه ٠ فان كان المسيح يقول : « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) ، وكاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول : « بلا خطية » فإن عصمة يسوع من الخطية لا ترجع إلى غياب العوامل التى كانت تدفعه إلى ارتكابها أو الى نقص فى تكوينه البيولوجى ، فلم يكن مجربا بها لسبب هذا النقص الطبيعى ، بل على العكس كان مكونا تكوينا طبيعيا كاملا ٠ ولهذا فإن النواميس الطبيعية أو الغرائز الطبيعية كانت موجودة فيه كما هى موجودة فى أى انسان آخر ، فإن نصرته على الخطية لا ترجع إذن إلى عامل عضوى أو نقص طبيعى ، بل إلى حقيقة أن الذى كان فى هذا الجسد والذى كان يسيطر عليه ويقوده هو « اللوغوس » الله نفسه ، ولا يمكن لله أن يخطىء لأنه لا يمكن أن يكون الله ضد نفسه ٠ فالمسيح ، قد جاء « فى شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد » (رو ٨ : ٣) أى أنه هجم على الخطية وهزمها فى معقلها ٠ فلو جاء المسيح فى جسد يختلف عن أجسادنا وفى طبيعة تختلف عن طبيعتنا لأصبح غريبا عن جنسنا ، ولكنه على العكس من ذلك كان مجربا فى كل شىء مثلنا ٠ والاختلاف بينه وبيننا هو أنه بالرغم من اشتراكه معنا فى نفس الطبيعة ، إلا أنه لم يسلك فى

نفس الطريق الذى نسلك فيه ، فقد عمل فى أيام جسده ما نفشل نحن فى عمله يوميا ، كما أنه لم يعمل قط ما نقوم نحن يوميا بعمله .

المسيح فى مفهوم يوحنا :

إنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن نقف فى بحثنا هذا عند كل نقطة لدراستها دراسة وافية عميقة ، لأن الموضوع واسع ومتشعب ، ولذلك سنكتفى هنا كما فعلنا فى دراستنا لمفهوم بولس لشخص المسيح ، ببعض النقاط الهامة التى توضح لنا مفهوم يوحنا للمسيح«اللوغوس» .

إن يوحنا وبولس يتفقان فى تعاليمهما عن المسيح . إلا أن الأول يركز على شخص المسيح بينما الثانى يركز على عمله ، وما قام به من أجلنا . فالسؤال الذى يريد بولس معالجته فى رسائله هو ماذا عمل المسيح ؟ وأما يوحنا فقد حاول فى إنجيله ورسائله أن يجاوب على سؤال : من هو المسيح ؟

وللاجابة على هذا السؤال : من هو المسيح ؟ يبدأ يوحنا إنجيله بالقول : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله .. » (يو ١ : ١ ـــ ٥) . بهذه المقدمة الدسمة العميقة يبين يوحنا أن الكلمة أو اللوغوس هو كائن أزلى لا بداية لبدايته ، بل هو بداية كل بداية . والبداية التى ليست لها بداية هى معادلة لوجود الله ، لأنه هو نفسه الله . بهذه الكلمات يدحض الرسول يوحنا كل الهرطقات التى ظهرت فيما بعد والتى سنتكلم عنها فى حينها ، وهى الهرطقات التى علمت أن المسيح كائن بشرى له بداية وله نهاية ، أو الهرطقات التى تقول بأنه كان يوجد وقت ما لم يكن «اللوغوس» موجودا فيه ...

ويستعمل يوحنا الاصطلاح « الكلمة » أو « اللوغوس » . وهذا الاصطلاح الذى يذكر لأول مرة فى العهد الجديد سيتردد بلا ملل فى

المجامع المسيحية وسيملأ فيما بعد صفحات كتب العقائد المسيحية . إن الاصطلاح « لوغوس » فى المفهوم اليهودى يحمل فى طياته معنى أعمق مما تحمله الكلمة فى لفظها البسيط ، « فاللوغوس » بالنسبة لليهود هـو القوة الخلاقة (تك ۱ : ۳ ـ ٦) : « قال الله ليكن نور فكان نور » (مز ۳۳ : ٦ ، ۱۰۷ : ۲۰) كما أن هذا « الكلمة » هو أيضـا حكمة الله (أم ۸ : ۲۲ ـ ۳۱) .

وأول من استخدم هذا الاصطلاح « لوغوس » (LOGOS) هو هيراقليطوس . ومن الغريب كما يقول وليـم باركلى ، أن هيراقليطوس اليونانى الذى استخدم هذا الاصطلاح فى القرن السادس قبل الميـلاد (٥٦٠ ق م) ، ويوحنا الرسول الذى استخدمه أيضا ، عاشا كلاهما فى مدينة أفسس . ولقد أسس هيراقليطوس فلسفته على المبدأ القائل بأن كل شىء يتغير (لا يمكن الاستحمام مرتين فى نهر جار) والذى ينظم هذا الكون المتغير ويسيطر عليه ويوجه حركاته وسيره هو عقل الله ، ولا تقع حادثة فى هذا الكون على الصعيد الفردى أو الصعيد الكونى دون أن يكون « اللوغوس » هو العامل فى إحداث هذه الحادثة ، فهو الذى يؤهل الانسان أيضا لعمل الخير وتجنب الشر ، والذى يساعد الانسان على فهم الحقيقة ...

ولقد درس فيلو اليهودى الاسكندرى هذا الاصطلاح فى عرف كل من اليهود واليونان ، وهو يعتقد بأن «اللوغوس» هـو أقدم شىء فى العالم إذ أنه الإله الذى به خلق العالم ، بل هو فكر الله الذى عن طريقه يحكم الله هذا العالم . وقد قال : إن الله هو ربان هذا الكون وبيـده « اللوغوس » ، كالدفة ، الذى عن طريقه يحرك ويدير كل هذا الكون . فاللوغوس هو الذى يدفع الانسان على التفكير والقوة والعمل ، هـو الذى يساعد الانسان على الفهم والادراك ، هو الوسيط بين الله والعالم ،

هو الكامن الذى يسمح للنفوس بأن تجلس أمام الله.... (١) • ولقد اعتقد الرواقيون بأن الكلمة « لوغوس » هو قوة الله الخلاقة الذى يقود ويسيطر على الكون كله ويحفظ نظامه •

وعلى ما يظهر أن يوحنا كان يعرف هذه الأفكار المنتشرة فى عصره وفى مدينته أفسس ، وربما لهذا السبب ، يستعمل يوحنا اصطلاحا معروفا ومنتشرا فى ذلك الوقت وهو « اللوغوس » لكى يشرح به تجسد ابن الله • فلم يكن معقولا ولا مفهوما أن يقدم الرسول المسيح لليونان كالمسيا المنتظر ، لأن كلمة المسيا كانت غير معروفة عند اليونان •

وكأنى بيوحنا يخاطب معاصريه وخاصة اليونانيين بالقول : أيها القوم إن فلاسفتكم يبحثون فى دراساتهم وفلسفتهم عن « اللوغوس » لكى يعرفوا من هو وأين يوجد وماذا يعمل ؟ وها أنا آت اليكم لأكلمكم عن اللوغوس الحقيقى ، لأنى أعرفه بل تقابلت معه شخصيا وأريد أن أقدمه إليكم (أع ١٧ : ٢٢ — ٣١) • إن اللوغوس الذى يحلم فلاسفتكم بأنه بعيد كل البعد عن البشر ويختلف عنهم الاختلاف كله ، قد جاء إلى أرضنا وسكن بيننا ، بل صار إنسانا مثلنا : « والكلمة صار جسدا » • وهنا يدخل يوحنا فكرة جديدة على المفهوم اليونانى الخاص «باللوغوس» أعنى أن اللوغوس صار جسدا ، « عقل الله » ، الله نفسه صار جسدا • وهذا الأمر أى أن اللوغوس يصير جسدا كان أمرا غريبا بل مستحيلا بالنسبة لليونان •

فإن كان يوحنا قد أدخل فكرة جديدة على المفهوم اليونانى باستعماله كلمة « لوغوس » لكى يطبقها على المسيح ، فإنه أراد أيضا معالجة هرطقة كانت تهدد العقيدة المسيحية وهى الهرطقة الغنوسية التى تنادى بأن

---

(١) انظر تفسير انجيل يوحنا لوليم باركلى الاصحاح الأول من ١٤ — ٢٠.

المادة رديئة وأما الروح فهو صاف صالح ونقى • وبما أن العالم مادى والله صالح ، فلا يمكن أن يخلق المادة التى تعتبر شرا ، وبناء على ذلك فإن العالم المادى قد خلقه إله آخر ردىء وهو عدو الله الصالح • فلقد رفض الغنوسيون حقيقة تجسد المسيح ، ولهذا السبب عينه شدد الرسول يوحنا ، ليس فى انجيله فحسب بل فى رسائله أيضا ، على أن المسيح صار جسدا يلمس وينظر ، بل أن كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان (يو ١ : ٣) ، فإن الذى خلق هذا العالم ليس إله ردىء بل الله نفسه ، بل أكثر من ذلك أن اللوغوس ، عقل الله ، صار جسدا ، صار إنسانا • وعلى أية حال ستكون لنا الفرصة للتكلم عن جماعة الغنوسيين فى حينه •

وإن كان يوحنا قدم لنا المسيح كاللوغوس ، كعقل الله العامل والمحرك والمنظم للكون ، فإنه يشدد كثيرا على الوحدة القائمة بين الآب وبين الابن • فمع أن الابن غير الآب إلا أنه فى الآب والآب فيه ، وكل ما للآب هو له ، ومن رأى يسوع فقد رأى الآب (يو ١٤ : ٨ — ١٤ ؛ ١٠: ١٢،٣٨ : ٤٩ ؛ ١٤ : ٣٠ — ٢١ ، ١٧ : ٢٠ — ٢٤) • فى هذه الفصول شدد يوحنا كثيرا على الوحدة التى تربط الآب بالابن ، وهذه الوحدة تختلف عن كل الوحدات التى نعرفها • إنها تختلف عن الوحدة التى تربط الأمم المتحالفة معا ، وتختلف عن الوحدة التى تربط أفراد العائلة ، بل تختلف أيضا عن وحدة الآب بالابن أو الأم بالابنة أو الابن فى نفس العائلة ، لأن وحدة الله الآب بالله الابن أقوى وأعمق وأمتن من كل هذه الوحدات • إذ أن هذه الوحدة قوية وعميقة لدرجة أنه هو والآب واحد ومن رآه فقد رأى الآب تماما ••• إن وحدة الآب والابن ليست وحدة أدبية بل جوهرية ، لأن الابن هو من جوهر الآب •

ولقد أعطى الرسول يوحنا ألقابا عديدة أيضا للابن : فهو نور العالم ، فالذى قال فى العهد القديم « ليكن نور » (تك ١ : ٣) عندما

جاء ملء الزمان أرسل ابنه كنور حقيقى لكى ينير العالم (غل ٤ : ٤ يو ١ : ٩ ، ١٠ ، ٨ : ١٢ ، ٩ : ٥ ، ١٢ : ٤٦ ، ١ يو ١ : ٧) .

ثم دعاه أيضا « بالحياة » ، فهو الحياة وواهب الحياة . ثم « حمل الله » الذى يحمل خطايا العالم «والباب» ،«والراعى الصالح»، « والطريق » ، « والحياة والحق » ، « والقيامة » ، « والكرمة » ... الخ .

لقد لقب بحق كثيرون من اللاهوتيين يوحنا « بيوحنا اللاهوتى »، لأنه تكلم كثيرا عن لاهوت المسيح ، غير أنه لم يهمل قط ، فى كلامه عن لاهوت المسيح ، ناسوته . بل يمكننا أن نقول بأن الذى دفع الرسول إلى أن يكتب إنجيله ورسائله ، هو الخطر الذى كان يتهدد عقيدة ناسوت المسيح . فإن كان قد كتب إنجيله لكى يقدم « اللوجوس » أو « اللوغوس » إلى العالم اليونانى الذى كان يجهل اللوغوس الحقيقى ، فإن الغرض الأساسى لكتاباته سواء الإنجيل أو الرسائل ، هو معالجة بعض الهرطقات التى بدأت تظهر فى ذلك الوقت . ومنها بدعة الغنوسية (GNOSE) أى « العارفين » التى نادت بأن ظهور المسيح على الأرض فى الجسد لم يكن ظهورا حقيقيا، والجسد الذى كان يبدو للناس جسداً، لم يكن إلا خيالا ، إذ أنه من المستحيل أن « اللوغوس » يأخذ جسدا ماديا مثل أجسادنا المادية لأن المادة شر ، وكيف أن اللوغوس يلتصق بما هو شر ؟ إنه أطهر من أن يلتصق بالمادة الخاطئة النجسة ، ولذلك فعندما ظهر على الأرض فى مظهر الانسان ، لم يكن هذا الظهور حقيقة واقعية ، فظهوره فى هذه الحالة يشبه ظهور الملاك فى هيئة إنسان ، وفى حقيقة الأمر ليس هو بانسان بل هو ملاك فى صورة إنسان .

ولا يمكننا أن نتعرض لكل معتقدات الغنوسيين ونظرياتهم

المعوِّلة المعتدة بخصوص المعرفة وأنها السبيل الوحيد للخلاص ، ثم نظرية الخير والشر ، وإله الخير وإله الشر • ولكن لكى نفهم الهرطقة التى كان يحاربها القديس يوحنا يجب علينا أن نذكر شيئا عن تعاليمهم•

الغنوسية : (GNOSE) :

ما هو رأى الغنوسيين فى المسيح ؟ قبل أن نبدأ فى شرح عقيدة الغنوسيين وماذا رأوا فى المسيح ، يجدر بنا أن نعرف من هم الغنوسيون ؟

إن كلمة « غنوس » أو الغنوسية هى كلمة يونانية وتعنى المعرفة أو العلوم الخاصة بالأمور الروحية أو الإلهية • ومن الصعب تعريف وتحديد وشرح كل نظريات هذه الجماعة التى انتشرت فى كل حوض البحر الأبيض المتوسط ودعيت بأسماء عديدة مختلفة نسبة للذين تزعموا قيادتها مثل سيمون (أ ع ٨ : ٩ — ٢٤) وسرنت فالنتيوس وبليدينوس وتراتس وكاثينيوس وأوفينوس ••• الخ • والمصادر التى تكلمنا عن هذه الشيعة كثيرة مثل يوستينوس وإيريناوس وهيبوليتوس وأبيفانوس • وبما أننا نتكلم عن المصادر التى تتحدث عن الغنوسية ، فلا يمكننا أن نهمل الاكتشاف العظيم لمكتبة ضخمة زاخرة بكتب الغنوسية •ولقد حدث هذا الاكتشاف فى سنة ١٩٤٥ فى نجع حمادى (فى جمهورية مصر العربية) • وتحتوى هذه المكتبة الغنوسية على ٥١ مخطوطا ، ولقد ترجم حتى الآن أكثر من ٦ مخطوطات من هذه المكتبة ، ومنها إنجيل الحقيقة ، وإنجيل توما ، والقيامة ، وانجيل فيلبس ، وبعض المكاتيب الأخرى التى لا تحمل عناوين •••

ومع أن الغنوسية تشمل عدة مذاهب إلا أنها تشترك فى شيء واحد وهو المعرفة ، وهذه المعرفة تأتى عن طريق الالهام • فبهذه المعرفة

نستطيع الوصول إلى ادراك وفهم من نحن وما هو مصدرنا وأصلنا وما هى الغاية التى نسعى اليها ؟ وبهذه المعرفة أيضا نستطيع الوصول إلى الخلاص من الأشياء الحسية التى تربطنا بالمادة • فالمعرفة تحل فى تعاليم الغنوسيين محل الايمان فى تعاليم الرسول بولس ، فإن الانسان لا يخلص عن طريق الايمان الذى يمنحه الله للانسان فى المسيح ، بل عن طريق المعرفة ، المعرفة التى تنير وترشد إلى الطريق الحقيقى ، فلا خلاص عن طريق الايمان ، ولا عن طريق الأعمال ، بل عن طريق المعرفة والبحث والتعمق • ويدعى الغنوسى بأنه يملك الحقيقة والمعرفة الكاملتين وفى إمكانه أن يسلمها لتلاميذه •

والغنوسية هى خليط من الأفكار الفلسفية الدينية الهلينية ، والازدواجية الفارسية ، واليهودية والمسيحية • ولقد حاولت الغنوسية بمزيجها الغريب المتنوع ، شرح أصل ومصير الروح التى كانت فى البداية فى عالم سماوى منير ، ولكنها سقطت فجأة من هذا العالم المنير إلى الأرض حيث أصبحت سجينة الجسد الحساس • ولقد تأثر الإله الأعظم تأثرا كبيرا لسقوط الروح إلى عالم المادة وسجن الشرارات الإلهية فيه • ولذلك فقد أرسل المخلص لكى يخلصها من هذا السجن ، واتخذ هذا المخلص مظهر إنسان ، لأن الإله لا يمكنه أن يتحد بالمادة المرئية ، واستطاع بهذه الطريقة أن يعلن للعارفين (للغنوسيين) أصلهم، أى أنهم من عالم سماوى ، وعندما أتم هذه المهمة صعد بالقرب من الآب ، وبذلك فقد فتح الباب أمام الشرارات المنيرة التى ستصعد هى بدورها أيضا إلى المخلص عندما تتخلص من السجن الجسدى •

ويعتقد كل من سيمون وبنط (M. SIMON ثم A. BENOIT) بأن الغنوسية المسيحية بدأت فى القرن الأول ولكنها ازدهرت وانتشرت فى القرن الثانى • وأبو الغنوسيين هو سيمون الساحر

الهرطوقى الأول كما يسميه الكاتبان ، وأرض الغنوسية الخصبة هى مصر (١) .

وأما بونيفاس (BONIFAS) فيظن بأن عقيدة الغنوسيين انتشرت وسط الشعب اليهودى المسبى فى بابل . إذ أن البعض من الذين كانوا مسبيين فى بابل ، اندمجوا وسط الشعب البابلى وتعودوا بعوائدهم ودرسوا تعاليمهم ومعتقداتهم وتأثروا بها وخاصة التعاليم المختصة بأصل العالم وتكوينه من أصل الشر والخير . والنظريات الغنوسية التى تصف لنا خلق الكون ، ثم إله الخير وإله الشر ، بل الآلهة المتعددة ، نظريات كثيرة لا تحصى . ولقد كان هناك أنصار وأتباع لهذه الشيعة بين الوثنيين وبين من يدعون بأنهم مسيحيون أو يهود .

ونقتبس هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر سرنت (CERINTHE) اليهودى الغنوسى،ومع أن المعلومات التى وصلت إلينا عن حياته وعن شخصيته غير أكيدة مائة فى المائة ، إلا أنها تحتوى على الكثير من الحق ، وعلى ما يظن أن سرنت عاش فى آسيا الصغرى فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى المسيحى . والقديس إريناوس (IRENEE) فى القرن الثانى حوالى سنة ١٤٠ ب.م) يذكر بأن سرنت كان يقطن نفس المدينة التى كان يقيم فيها القديس يوحنا الرسول . ويقال إنه فى يوم من الأيام ذهب القديس يوحنا للاستحمام فى أحد الحمامات العامة ، وعندما عرف بأن سرنت موجود فى داخل الحمامات رفض الدخول خوفا من أن أساسات الحمامات تتزعزع

(1) Le Judaism et le Christianisme Antique : Par M. Simon et A. Benoit. Presses Universitaires de France. 108 Boul.. St. Germain Paris VI.

والكاتبان يذكران قائمة من الكتب لعلاج مشكلة الغنوسية ، فعلى الدارس الذى يريد التوسع فى دراسة الموضوع أن يرجع لهذه القائمة فلا داعى لتكرارها هنا .

وتسقط على رأس المستحمين للانتقام الإلهى من شره (١) •

تعاليم سرنت :

كان يعتقد بأن الله وحده مطلق ، وكماله يفوق كل وصف ، ثم يرى من الناحية الأخرى المادة الغير المنظمة والتى تشبه الخواء والخراب ، وكانت تفصل بين الله والمادة هوة عظيمة • ولقد كان من المستحيل أن يتصل الله بهذه المادة دون أن يخفض نفسه ، ولكن بما أنه هو الخالق لهذا العالم ، فقد أخرج من ذاته سلسلة من الكائنات الروحية التى تنقص عنه قليلا فى الكمال ، لكى تكون وسيطة بينه وبين المادة ، وهذه الكائنات هم الملائكة • ولقد كان إله اليهود (DEMIURGE) نصف إله وهو آخر هذه الكائنات الغير الكاملة والأقصى بعداً عن الله ، وهو الذى قام بعملية تنظيم العالم وهو أيضا الذى خلق الانسان • ولقد أعطى الإله اليهودى ناموسه الغير الكامل للانسان • وبما أن هذا الناموس الذى أمر به كان غير كامل ، فقد وعد الانسان بمسيا ، على أن هذا المسيا لم يكن هو نفسه أيضا كاملا • ولأجل ذلك فقد أرسل الله السامى ، إلى العالم واحدا من الملائكة الأوائل الذين خرجوا منه أولا • ولقد اتحد هذا الملاك بيسوع فى لحظة العماد •ولقد أوحى الملاك ليسوع بسر الآب الذى خرج منه ، كما أعطى له أيضا الناموس الكامل والمعرفة الحقيقية حتى يعلنها للناس لكى يخلصوا بها• هذه هى نظرية سرنت •

وتوجد نظريات أخرى كثيرة وعديدة تشرح مذهب الغنوسيين وعقيدتهم • والذى يهمنا فى هذا البحث هو النظريات التى تتكلم عن الازدواجية ، أى وجود الخير والشر ، ووجود إله الخير وإله الشر ، وأن

(1) Francois Boniffas Tome 1 pp. 76 - 82.
راجع نفس الصفحات من نفس الكتاب •

المادة هي شر ، فلقد علم بعض الغنوسيين بوجود مملكتين أو سلطتين أبديتين :

١ ــ مملكة النور :

والتى يحكمها ويسيطر عليهما الإله السامى الخير المعروف • ولقد خرجت من هذا الإله قوات متنوعة الدرجات ، وآخر إله خرج من الإله العظيم هو إله اليهود •

٢ ــ مملكة الظلام أو مملكة المادة :

ويحكم هذه المملكة ويسيطر عليها إبليس (١) ، وتعاونه فى الحكم جماعة من الشياطين متنوعة الدرجات أيضا •

ومن هذه النظريات السابقة الذكر يتضح بأن كثيرين من الغنوسيين قد علموا أولا : الازدواجية أى وجود إله الشر وإله الخير • ثانيا : علموا بأن المادة شر ، فالاتصال بالمادة وبما هو مادى شر • وإله الخير الإله السامى بعيد كل البعد عن المادة الشريرة •

ولقد دخل إلى الكنيسة المسيحية عند نشأتها جماعة من الغنوسيين الذين حاولوا أن يوفقوا بين فلسفتهم وعقيدتهم فى المادة التى كانوا يعتبرونها شرا ومن صنع إله الشر ، وبين لاهوت المسيح « المسيا » الذى ظهر على الأرض • وكانت المشكلة التى تعترض سبيل أولئك الذين أرادوا أن يتمسكوا بالتعاليم الغنوسية هى صعوبة قبول فكرة أن المسيح أخذ جسدا كأجسادنا ، فان اتحاده بالجسد واتحاده بالمادة هو شر وخطية • وسنرى فيما بعد أن فالنتينوس (VALENTIN)

(١) انظر كتاب بونيفاس المجلد الاول ص ٧٦ ــ ٩٩ (النص الفرنسى)

علم أن المسيح لم يأخذ جسداً بشرياً مادياً كأجسادنا ، لأن المادة خطية، لدرجة أنه علم بأن خروج المسيح من رحم مريم العذراء لم يفض عذراويتها ، لأن مرور المسيح من رحمها كان كاختراق النور للمواد الشفافة أو المياه للثوب ... الخ .

كانت هذه التعاليم الغنوسية التي تعلم بأن المادة شر ولا يمكن للأرواح الطاهرة النقية الصافية أن تسكن فيها ، منتشرة ومعروفة ليس فقط في كنيسة أفسس حيث كان الرسول يوحنا مقيماً ، بل في آسيا الصغرى وفي أماكن أخرى .

ولهذا السبب فقد حاولنا أن نذكر القارئ ببعض تعاليم هذه الطائفة . التي عندما اطلع القديس يوحنا على عقيدتها وتعاليمها هب مهاجماً هذه العقيدة وهذه التعاليم التي انتشرت في مدن كثيرة وخاصة في مدينته أفسس . والقديس إريناوس (ولد حوالي سنة ١٤٠ ب.م) يعرفنا بأن إنجيل يوحنا موجه بطريقة مباشرة إلى كتابات سرنت اليهودي الاسكندري (١) ، وعلى أية حال فإننا لا نعرف بالضبط ما إذا كان إنجيل يوحنا موجهاً لسرنت مباشرة أم لا ، ولكننا نعلم جيداً ، من أسلوب الانجيل والرسائل التي كتبها يوحنا ، أنها كانت تهدف إلى مهاجمة العقيدة الغنوسية . والقارئ المدقق لكتابات يوحنا يلاحظ ، بلا جهد كبير ، أن الرسول شدد كثيراً على حقيقة أن يسوع المسيح قد جاء إلى العالم في جسد . ولقد قال (A. GRILLMEIER)

« إنه لا يوجد في العهد الجديد أي كتاب آخر يذكر بتكرار وبشدة لا يعرف الكلل . حقيقة هذا الكائن السابق الوجود وطبيعته البشرية (٢)

(1) A. Grillmeier. Le Christ dans la Tradition. Chrétienne de L'Age Apostolique A. chalcédoine (451) p. 51.

(٢) انظر كتاب A. Grillmeier ص ٥٣ .

فالرسول يوحنا يبدأ إنجيله بهذه العبارة المعروفـــة : « فى البدء كان الكلمة (LOGOS) والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١). فبهذه العبارة يريد الرسول أن يؤكد حقيقة غاليـــة على قلبه ، وهى أن «اللوجوس » الكلمة كان من قبل كل بدء وسابقا لكل وجود ، بل أن كل ما وجد ، به قد وجد . وينتقل يوحنا من هذه النقطـــة الهامـــة وهى وجود الابن أو وجود اللوجوس أو اللوغوس ، السابق لكل وجود . إلى نقطة هامة جدا : هى نقطة الهجوم على الغنوسيين ، فيقول : «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيـــد من الآب مملوءا نعمة وحقا » . ففى الأعداد (١ ــ ٥) يتكلم يوحنا عن وجود اللوجوس السابق لــكل الأشيـــاء ، وأمـــا فى هـــذا العـــدد (١ : ١٤) فهو يعلن حقيقة أخرى ، وهى كالسهم القاتل الموجه إلى قلب العقيدة الغنوسية لقتلها والقضاء عليها ، وخاصة عندما يقول : « والكلمة صار جسدا » . والرسول يستعمل هنا كلمتى (LOGOS) « الكلمة » ، ثم كلمـــة (SARX) . وهذه الاخيرة ((SARX) أى جسد) هى التى عبر بهـــا الغنوسيون عن المادة ، فالجسد هو المادة ، وبالتالى فهو شىء ردىء . لهذا السبب لم يقبل الغنوسيون الذين انضموا إلى المسيحية عقيدة أن (SARX = LOGOS) أى عقيـــدة أن « الكلمة صار جسداً » . وكيف يمكن أن اللوغوس يتحد بجسد ، بمادة شريرة ؟ ولذلك فهم يعتقدون بأن الجسد الذى أخذه المسيح لم يكن جسداً حقيقيا ماديا كأجسادنا ، بل مظهر جسد أى هيئة جسد « ... صائـــرا فى شبه الناس ... » (فى ٢ : ٧) .

ولدحض هـــذا التعليم الغنوسى ، قـــام الرسول يوحنـــا بكتابة الإنجيل والرسائل التى تشرح لنا أن يسوع المسيح لم يأخذ جســـدا بل « صار جسداً » ... وعبارة صار جسدا أقوى بكثير من عبارة أخذ جسدا . لأن عملية التجسد لم تكن عملية لبس ثوب على آخر ، بل هى

عملية اتحاد كلي وجزئي دون أن تطغى أو أن تلاشى طبيعة الواحد طبيعة الآخر . فالمسيح صار جسدا ، صار فعلا وحقا إنسانا . وهذا يعنى بأن المادة الجسد SARX الذى رفضه الغنوسيون واعتبروه شرا ، صار جزءا من السيد « والكلمة صار جسداً » . ولكي يشدد الرسول على حقيقة ناسوت المسيح رافضا عقيدة الغنوسيين كتب يقول: « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ... » (يو ١ : ١ — ٤) . ويكرر الرسول يوحنا هنا مرة ومرات حقيقة أزلية المسيح . ثم يؤكد أن هذا المسيح الأزلي هو نفسه الذى تجسد ، ولم يكن جسده خيالا أو شبحاً أو طيفاً . بل حقيقة مؤكدة ؛ لا يعرف الشك طريقه اليها ، إذ أن يده ويد التلاميذ الآخرين لمست هذا الجسد ، وعيونهم رأته . ولذلك فهو يقول : « بهذا تعرفون روح الله ، كل روح يعترف بيسوع أنه جاء فى الجسد فهو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسدفليس من الله.وهذا هو روح ضد المسيح»(١يو٤:٢—٧). والرسول يشدد كثيرا على حقيقة جسد المسيح فى وصفه لقصة القيامة ومقابلة التلاميذ له حتى بعد الموت : « ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه ... ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى وهات يدك وضعها فى جنبى ... » (يو ٢٠ : ٢٠ ، ٢٧) ، وهنا ينفى الرسول تعاليم الغنوسيين التى ادعت بأن المسيح ظهر فى جسد غير حقيقى . فهذه النصوص ونصوص كتابية أخرى تعرفنا بدون أى التباس أن المسيح صار جسدا وسكن بيننا كواحد منا ، كان يفرح ويحزن ، يجوع ويعطش ، يبكى ويتألم لأنه قد صار فعلا وحقا جسدا (يو ١١ : ٣٥ ، ١٢ : ٢٧ ، ٢٣ : ٢٧) .

ولكى يشرح هذه الحقيقة ، أى أن المسيح صار فعلا جسدا ، كتب الرسول يوحنا إنجيله ثم رسائله معلنا أن الذى كان فى البدء ، تنازل

وجاء إلى أرضنا وصار شريكا للبشر فى بشريتهم . وهنا يضم يوحنا صوته مع بولس القائل : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » (١ تيمو ٣ : ١٦) .

فإن كان الرسول قد كتب إنجيله ورسائله لمعالجة مشكلة الغنوسية التى بدأت تنتشر فى كنائس آسيا ، إلا أن هذه الهرطقة لم تكن الهرطقة الوحيدة التى ظهرت فى كنيسة العصر الأول . بل ظهرت تعاليم أخرى كثيرة فى الكنيسة الأولى تخالف تعاليم الرسل. والرسول أشار إلى هذه التعاليم التى كانت تهدد سلامة الايمان المسيحى ، ولقد سمى الذين ينادون بهذه التعاليم : « أضداد المسيح » أو المسحاء الكذبة (١ يو ٢ : ١٨ــ ٢٢ ، ٤ : ٣ ، ٢ يو ٧) ثم « أنبياء كذبة » (١ يو ٤ : ١) «الكذابون» ، ثم الذين رفضوا الايمان بمسيانية المسيح وأنه ابن الله (١ يو ٢ : ٢٢ ، ٤ : ١٥ ، ٢ يو ٧) . كما أن الرسول يوبخ الذين رفضوا عقيدة التجسد (١ يو ٤ : ٣ ، ٢ يو ٧) فقد حاول هؤلاء القوم فصل يسوع التاريخى ويسوع ابن الله ، وأنكروا بأن الله قد جاء فعلا فى الجسد (٤ : ٣ ، ٥ : ٦) .

ولقد انتشرت فى الكنائس ضلالات أخرى حذر يوحنا من الوقوع فيها ، ولقد أشار الرسول إلى هذه الضلالات عندما كتب سفر الرؤيا (كتب فيما بين سنتى ٨٥ ــ ٩٥ ب.م) . فقد انتشرت فى كنيسة أفسس أعمال النقولاويين (رؤ ٢ : ١ ــ ٧) . كما انتشرت فى كنيسة سميرنا تعاليم الذين كانوا يدعون بأنهم يهود وليسوا يهودا (رؤ ٢ : ٨ ــ ١١) ، أما كنيسة برغامس فقد تمسك بعض أعضائها بتعاليم بلعام وبتعاليم النقولاويين (رؤ ٢ : ١٢ ــ ١٧) .

هذه عينة من التعاليم المتنوعة المختلفة التى بدأت تجد طريقها إلى الكنيسة الأولى ، والتى كانت تهدد نقاوة التعليم الرسولى الصحيح .

لقد كانت هذه التعاليم المخالفة لتعاليم المسيح والرسل كالديدان الصغيرة التى تختفى فى باطن الأرض وتتغذى بجذور النباتات المثمرة فتقضى عليها تماما • وسنرى فيما بعد كيف أن هذه البدع والهرطقات ولدت أيضا بدعا وهرطقات أخرى أكثر خطرا وأشد شرا منها •

إن الذى دفع القديس يوحنا إلى أن يكتب انجيله ورسائله هو ظهور بعض الهرطقات التى بدأت تشق طريقها إلى الكنيسة المسيحية المبتدئة • فكما سنرى فيما بعد أن الكنيسة كانت مهددة من الناحية العقائدية بخطرين داهمين : الخطر اليهودى والخطر الوثنى • والرسول يوحنا الذى عاش إلى ما يقرب من نهاية القرن الأول استطاع أن يرى ظهور بعض هذه الهرطقات وأن يقاومها بشدة وثبات • فقد كتب الانجيل ورسائله لكى يشرح بطريقة واضحة وصريحة أن يسوع الانسان الناصرى هو ابن الله ، هو اللوغوس الأبدى « الكلمة صار جسدا » • فإن كان الرسول يوحنا قد شدد كثيرا على أن « اللوجوس » صار جسدا وأصبح كواحد منا ، وبهذا التشديد والتأكيد يريد أن ينفى عقيدة الغنوسيين، فإنه لا يهمل أيضا أن يحذر ويعلم ضد عقيدة أخرى هى عقيدة الإبيونيين • فهو يكتب ضد هؤلاء بالقول : « من هو الكذاب إلا الذى ينكر أن يسوع هو المسيح» (١ يو ٢:٢٢) • إن جماعة من المتمسكين بالناموس والتقاليد والعادات قد خرجت من كنيسة أورشليم تنادى فى الكنائس المسيحية بالعودة إلى الناموس : « وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الاخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا » (أع ١٥ : ١) يعتقد البعض أن الذين كانوا ينادون بهذه المبادىء هم جماعة الإبيونيين (EBIONISTES) ، أو على الأقل هم الذين ظهرت منهم جماعة الإبيونيين فيما بعد• ولقد تضاربت الآراء فى هذه الجماعة ، فالبعض قال بأن هذا المذهب لا يدعى بهذا الاسم (EBIONISTES) لأن مؤسسه يسمى إبيون ، ولكن حقيقة الأمر أن كلمة أبيون تعنى فى العبرية « فقيرا » وجمعها إبيونيم أى فقراء • وهنا

نتساءل ما هو نوع فقرهم ؟ هل هو فقر مادى أو علمى ؟ يقول جريلميير (GRILLMEIER) ربما دعيت هذه الجماعة بهذا الاسم « فقراء » لضحالة ذكائهم وبساطة أفكارهم وسذاجتهم فيما يختص بعقيدتهم فى شخص المسيح، وللأسف الشديد لانملك من كتاباتهم إلا بعض المقتطفات البسيطة القليلة والتى تدعى إنجيل الإبيونيين (١) • والإبيونيون يؤمنون بأن يسوع هو مختار الله ، بل أنه هو النبى الحقيقى ، على أنهم يرفضون ميلاده العذراوى ويقولون بأنه ابن مريم ويوسف، كما يرفضون أيضا وجود المسيح السابق قبل التجسد • وبناء على ذلك فهو لم يولد من الروح القدس ولا من الله ، بل خلق كما خلقت الملائكة ورؤساء الملائكة ، ولكنه أعظم منهم جميعا فى الدرجة • فهم يعترفون إذا بناسوت المسيح ، ولكنهم ينكرون لاهوته • ولذلك فقد رأى بعض المفسرين بأن يوحنا كان يشير الى هذه الجماعة عندما كتب هذه الكلمات : « من هو الكذاب إلا الذى ينكر أن يسوع هو المسيح » (١ يو ٢ : ٢٢) •

فلقد أنكر الإبيونيون أن يسوع هو المسيح ، أى أنهم قالوا إن الانسان يسوع ابن مريم ما هو إلا يسوع ابن مريم ويوسف وليس يسوع المسيح ، المسيح اللوجوس الإله • ولهذا السبب عينه يكتب الرسول يوحنا محذرا من تعاليم هذه الجماعة التى ظهرت فى عصره •

وهنا نلاحظ أن الرسول نفسه الذى يتكلم عن المسيح سابق الوجود ، الكلمة ، الذى هو ملء اللاهوت ، وصورة الله ، هو نفسه الذى يعلم بأن المسيح هذا صار جسداً وحل بيننا وأن يسوع الناصرى ابن مريم الذى عاش فى فلسطين هو هو المسيح « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) •

(١) انظر كتاب Grillmeier ص ١١٣ — ١١٦ .
انظر أيضا قائمة الكتب التى تتكلم عن هذه الجماعة فى نفس الكتاب ص ١١٣ — ١٢٠ .

الفصــــل الثانى

كنيسة القرنين الأول والثانى

تمهــيد :

فى الفصل السابق رأينا بعض الدوافع التى دفعت الرسول يوحنا إلى أن يكتب إنجيله ورسائله ، وهو ظهور جماعة الغنوسيين ثم انتشار تعاليمهم فى الكنائس ، كذلك ظهور جماعة الإبيونيين وبعض المذاهب الأخرى التى يشير إليها الرسول فى سفر الرؤيا (رؤ ٢ : ١ — ٢٨) • إن هذه التعاليم ، قد ظهر بعضها فى عصر الرسل ، والبعض الاخــر ظهر فى عصر الرسول يوحنا الذى عمر إلى نهاية القرن الأول ، ولذلك فقد استطاع أن يكتب ضد هذه التعاليم وأن يدافع عن الإيمان القويم معترفا بأن يسوع المسيح هو ابن الله « الكلمة صار جسدا » •

على أن عصر الرسل قد انتهى بانتقال آخر رسول إلى المــجد ، وأطل القرن الثانى على الكنيسة بسحابة أخــرى من الشهود الــذين سيحملون المشعل كما حمله الرسل بشجاعة وإيمان •

وسحابة الشهود (عب ١٢ : ١) التى حلت محل الــرسل ، هى جماعة الآباء الذين عاشوا فى القرون الأولى ، ولقد حاول هؤلاء الآباء ، ليس فقط الدفاع عن الإيمان الصحيح الذى تسلموه من الــرسل بل

عملوا أيضا على انتشاره فى العـالم . وكما رأينا فى الفصول السابقة عقيدة الأجيال المختلفة المتنوعة على مر العصور فى شخص المسيا ، ثم فى شخص ربنا يسوع المسيح ، سنحاول أيضا بنعمة الله أن نتبع نفس النظام التاريخى العقائـدى الذى نهجنا على منواله ، أى أن نذكـر التواريخ والأماكن التى حدثت خلالها وفيها الأحداث . فلقد سبق أن رأينا فى الجزء الثانى من هـذا الكتاب ماذا اعتقد أو رأى الناس فى المسيا أو فى يسوع المسيح على مر العصور ؟ ثم من هو يسوع المسيح ؟ وسنواصل هنا البحث فى نفس الأسئلة : ما هى عقيدة آبـاء كنيسة العصور الأولى من المسيحية ؟ ما هى تعاليمهم وعقيدتهم فى شخـص يسوع المسيح ؟ وما هى الهرطقات التى ظهرت فى أيامهم وكيف حاربوها مدافعين عن الايمان السليم ؟ وللاجابة على هـذه الأسئلة ، سنحاول دراستها من الناحية التاريخية والعقائدية . ونقصد بذلك أننا سنبدأ هذا البحث بتناول بعض الشخصيات من الآباء مبتدئين من أول القرن الثانى إلى القرن الرابع ، وسنتعرض فى هذا البحث لمـا قاله بعض الآباء فى هذه الحقبة من الزمان عن شخص يسـوع المسيح ، وما هى الهرطقات التى ظهرت .

وبما أن الغرض من هذا الكتاب هو توضيح وشرح المفاهيم المختلفة على مر العصور عن شخص ربنا يسوع المسيح ، فقد رأينا أنه من المفيد بل من الضرورى أن نعطى فكرة تاريخية عن أصل ومكان وتاريخ بعض الشخصيات التى سنتعرض لتحليل تعاليمها ، سواء كانت شخصيات الآباء أو بعض الهراطقة . وذلك لا لكى نذكر القارىء الكريم بالعقيدة المسيحية أو الهرطقة التى ظهرت فقط ، بل لكى يعرف أيضا متى وكيف وأين ولدت ، ومن هم الآباء الذين هبوا لمحـاربة التعاليم الضالة وعلمـوا التعاليم الصحيحة السليمة .

فبعد أن رحل الرسل من عالمنا هذا إلى عالم المجد ، تولت جمـاعة

من الآباء المؤمنين قيادة الكنيسة والسهر عليها ، ويطلق على هذه الفترة التى جاءت بعد العصر الرسولى مباشرة اسم ما بعد العصر الرسولى ، (POSTE APOSTOLIQUE) ، وهى الفترة التى سنتحدث عنها وعن رجالها الذين بنعمة الله ومساعدته استطاعوا أن يحملوا بشجاعة منقطعة النظير مشعل الايمان الذى تسلموه من الرسل لكى يسلموه بدورهم إلى الأجيال التالية . ولقد تحمل هؤلاء القديسون فى سبيل توصيل الرسالة الرسولية التى تسلموها من الرسل أنفسهم ، لا التعب والمشقة فقط ، بل أيضا الاضطهاد والاستشهاد الذى راح ضحيته عدد كبير من آباء الكنيسة الأولى الذين لم يحسبوا نفوسهم غالية عندهم فى سبيل إعلان شخص ربنا يسوع المسيح للعالم الذى كانوا يعيشون فيه .

ولذلك ، فنحن الذين نعيش فى القرن العشرين الوارثين لهذا التراث المقدس العظيم ، ننظر إلى هؤلاء الآباء الرسوليين (LES PERES APOSTOLIQUES) إلى سحابة الشهود ، بكثير من الاحترام والتعظيم لأنهم حافظوا أو على الأقل حاولوا المحافظة على الايمان الصحيح لتوصيله للأجيال اللاحقة . وهذه الأجيال التالية لعصر ما بعد الرسل ، مدينة لهم ويجب أن تعترف بدينها لآباء تلك الفترة . وكتاباتهم تراث عظيم وثمين تملكه الكنيسة كلها . فأغناطيوس الأنطاكى وبوليكاربوس ويستينيوس وتاتانوس وإيريناوس وكبريانوس وأثناسيوس العظيم وأغسطينوس كل هؤلاء القديسين وآخرون معهم الذين حاربوا وحوشا كاسرة ودافعوا عن الايمان ونادوا ببشارة الانجيل هم ملك للكنيسة كلها ، والكنيسة كلها مدينة لهم وتعترف بفضلهم وجهادهم . وعندما أقول الكنيسة كلها أقصد الكنيسة على اختلاف طوائفها ومذاهبها : كاثوليكية وأرثوذكسية وبروتستانتية ــ فإن هذه الطوائف كلها تحنى الرأس احتراما وتقديرا لما قام به هؤلاء الآباء الأبطال ، فى نشر بشارة الخبر السار والدفاع عنها .

وبناء عليه ، فما تركه هؤلاء الآباء هــو ملك وتراث للـكنيسة كلها وليس لكنيسة واحدة فقط وهى فخورة به • فمع أن تعليمهم ومعتقداتهم لم تصل إلى نقاوة وسلامة تعاليم الرسل ، إلا أنهم حاولوا ، بقدر الامكان وعلى قدر ما قد أعطى لكل منهم من النعمة والموهبة أن يحتفظوا للأجيال التالية بتعاليم رأوا أنها أقرب ما تكون من عقيدة وتعليم الرسل •

وفى بحثنا هذا سوف لا نتعرض لمعتقدات كل الآباء أو فى كل المواضيع ولا حتى لـكل معتقـــدات الآباء فيمـا يخـص « الـكرستولوجى » (CHRISTOLOGIE) أى التعاليم والمعتقدات الخاصة بالمسيح • ولكن سنحاول عرض وتحليل بعض تعاليم الآباء وتعاليم الهراطقة الكرستولوجية التى تعرضت لها الكنيسة فى تلك الفترة • فلا يغيب عن بالنا أن موضـــوع بحثنا هو يسوع المسيح على مر العصور ، وهنا نكرر نفس السؤال الذى سألناه تكرارا ومرارا : ما هو مفهوم الآباء وكنيسة العصور الأولى عــن شخص ربنا يسوع المسيح ؟

عندما انتهى العصر الرسولى بانتقال جميع الرسل إلى المجد ، وجدت الكنيسة الناشئة نفسها أمام مسئولية ضخمة ، ومهمة عظيمة وشاقة ، وهى إعلان يسوع المسيح كسيد ومخلص ليس لليهود فقط بل للأمم أيضـــا • ولم تكن مهمة إعلان يسوع المسيح أو التبشــير به كسيد ومخلص ورب للعالم ، بالأمر الهين السهل ، إذ أن التربة التى ألقيت عليها بذور المسيحية كانت تربة ملآنة بأعشاب ونباتات أخرى • فلقد بشر الرسل والذين حملوا المشعل بعدهم بيسوع المسيح المخلص ، بشروا بهذا الخبر وسط اليهود الذين كانوا يؤمنون بوجود الإله الواحد السامى العظيم ، المرتفــع الذى ترتعب وتهتز الجبال من حضوره ، ولا يوجد إله غيره لا فى السماء ولا على الأرض • فعندما بدأت الكنيسة الأولى إعلان ألوهيــة يســـوع المسيح ، اعتبرت اليهودية هذا الأمر تجديفا عظيما على يهوه لأنه لا يوجد

إله آخر غيره • وذلك لأن هؤلاء اليهود ظنوا بأن الكنيسة الأولى جعلت من يسوع الناصرى إلها معادلا ليهوه • ولم يفهموا أن الكنيسة الأولى وخاصة الرسل لم يحاولوا أن يرفعوا الانسان يسوع المسيح إلى درجة الألوهية ، بل أنهم نادوا وأعلنوا أن يهوه نفسه ، الله بعظمته وسموه ، قد ظهر فى الجسد : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن أمر التبشير بيسوع المسيح للأمم أمرا سهلا ، إذ أن الخطر كان عظيما وداهما أيضا : والخطورة هنا لم تكن كامنة فى أن الأمم يرفضون ألوهية المسيح كما فعل اليهود ، بل أن العكس هو الصحيح ، فإن كثيرين من هؤلاء الأمم كانوا معتادين على عبادة عدة آلهة (أع ١٤ : ٨ — ٢٨) • فالخطر الداهم الذى كان يتهدد التعاليم الكرستولوجية (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) هو أن هؤلاء الأمم يعتبرون شخص المسيح كواحد من هذه الآلهة التى لا تحصى ولا تعد فى دياناتهم الكثيرة •

ولهذا لم تكن مهمة آباء الكنيسة الأولى مهمة سهلة ، ولقد قابلوا صعوبات لا حصر لها ، وخاصة الآباء الذين لقبوا بالآباء « المدافعين » (APOLOGISTES) • لأنهم عندما كانوا يعلنون بأن يسوع المسيح هو مخلص العالم ، كانوا يحاربون عدة جهات فى وقت واحد ، فقد كان عليهم أن يبشروا العالمين اليهودى والوثنى ليقبلا المسيح المخلص • وبعد أن يقبل هؤلاء سيادة يسوع ، كان من اللازم تنظيف عقول اليهود من الأفكار اليهودية المسيانية بحسب الجسد ، وتقديم يسوع المسيح كالمسيا الروحى والمخلص للعالم • ثم تنظيف عقول الأمم الملآنة بالخرافات الوثنية ، وتعليمهم أن يسوع المسيح ليس واحدا من هذه المجموعات الالهية التى يعبدونها ويعرفونها[1] • وبالاختصار كان على المدافعين

(١) راجع كتاب E. Haag. Histoire des dogmes chrétiens

(APOLOGISTES) شرح عقيدة التوحيد ، أو وحدة الله التى يؤمن بها اليهود ، ثم شرح الكرستولوجى بطريقة تختلف عن مفهوم الوثنيين لآلهتهم . ولقد كان هؤلاء المدافعون معرضين فى كل لحظة السقوط فى الأخطاء العقائدية لتعقد المشكلة[1] . ولذلك فقد حاول بعض الآباء المدافعين المحافظة على عقيدة التوحيد (MONOTHEISME) كأساس جوهرى ، فاضطروا إلى أن يبحثوا عن حلول أخرى لمشكلة الكرستولوجى. كما أنه كان من الضرورى أيضا أن تشرح المسيحية للوثنيين بطريقة واضحة ومعقولة فى مفهومها للكرستولوجى . كانت النقطة التى يجب التأكيد عليها وايضاحها هى أن المسيح كان فى حضن الله ، بالقرب من الله ، كان الله نفسه ، ومع ذلك فهو يختلف أيضا عن الله ، وإلا لسقطت الكنيسة فى المذهب اليهودى التوحيدى الذى خرجت منه ، أو سقطت فى إحدى الديانات المنتشرة فى ذلك الوقت[2] .

ماذا رأى معلمو القرنين الأول والثانى فى المسيح يسوع ؟

سنحاول أن نشرح فى هذا الفصل مفهوم بعض الآباء للمشكلة الكرستولوجية ، وسنتبع فى هذا البحث نظاما تاريخيا وعقائديا بقدر الامكان . أى أننا سنتناول بالتحليل والشرح الموجز بعض الأفكار لبعض الآباء بحسب ظهورهم فى التاريخ ، والهرطقات التى ظهرت فى عهدهم .

١ ــ اغناطيوس الأنطاكى (IGNACE D'ANTIOCHE) :

إن مدينة أنطاكية مدينة عظيمة ، ولقد أخرجت رجالا عظاما . ففى هذه المدينة دعى التلاميذ مسيحيين لأول مرة فى التاريخ: «ودعى التلاميذ

(١) A. Harnack. History of Dogma. Vol. 2 pp. 1 - 38, 71, Vol. 3 سبق اقتباسه .

(٢) Marc lods 1 - 14, pp. 32 - 37.

مسيحيين فى أنطاكية أولا » (أع ١١ : ٢٦) ، فلقد جاء إليها عدد كبير من المسيحيين • ويقول هارنك المؤرخ العقائدي الشهير فى أحد كتبه عن تاريخ العقائد ما يمكن تلخيصه فى الآتى :

منذ أن ظهرت المسيحية تعرضت لعدة تيارات عقائدية يمكن تلخيصها فى اتجاهين : الاتجاه الأول هو الذى يرى فى يسوع الانسان الذى اختاره الله وأسكن فيه روحه ، وبعد أن انتصر هذا الانسان يسوع على التجارب ثبته الله بقوة وجعله سيدا ورباً هذا هو تعليم أتباع مذهب التبنى (أو المسيح المتبنى) (CHRISTOLOGIE ADOPTIENNE)
وأما الاتجاه الثانى فيدعى المسيح الروحى
(CHRISTOLOGIE PNEUMATIQUE OUDULOGOS)

وهذا الفريق يرى فى يسوع روحا سماويا هى أسمى وأرفع روح بعد الله ، ولقد لبس يسوع جسدا ، ثم رجع إلى السماء بعد أن أكمل عمله على الأرض •

لقد تعرضت الكنيسة منذ نشأتها لهذين النوعين من العقائد :

١ ـــ الانسان الذى أصبح إلها •

٢ ـــ الكائن الالهى الذى ظهر فى صورة بشر[1] •

هـــذه هى المشاكل الكرستولوجية التى تعرضت لهـــا الكنيسة منذ نشـــأتها ، والتى كان على آباء الكنيسة وقادتهـــا أن يشرحوها بدقـــة ووضوح •

ولنتقدم الآن خطوة أخرى لكى نرى بعض هـــذه المشاكل وموقف بعض الآباء منها :

(١) A. Harnack. Précis de l'histoire. pp. 1 - 12.

لقد قام اليهود أولا باضطهاد الكنيسة بطريقة عنيفة (أع ١١ : ٩)، ولم يبدأ الرومان فى اضطهاد المسيحيين إلا بعد ذلك الوقت بكثير، إذ أن الامبراطورية الرومانية تسامحت وتساهلت مع ديانات شعوب البلاد التى كانت تسيطر عليها، ولذلك تركت لليهود حريتهم الدينية فى العبادة. ولأن حكام البلاد لم يستطيعوا فى بداية الأمر التفريق بين المسيحية واليهودية، فقد اعتبروها شيعة أو مذهبا من الشيع اليهودية، ولذلك فقد تركوا لها نفس الحرية التى كان يتمتع بها اليهود. ولكن عندما انفصلت المسيحية عن اليهودية، وأصبحت ديانة مستقلة عن الديانة اليهودية، بدأت السلطات الرومانية فى اضطهادها اضطهادا عنيفا، لا للدفاع عن الديانة اليهودية بل لأن الرومان فهموا المسيحية فهما خاطئا. فلقد انتشرت الاشاعات بأن هذه الديانة ضد الامبراطور لأنها لا تتعبد له. ثم انتشرت اشاعات أخرى تقول بأن جماعة المسيحيين يقدمون فى عبادتهم أطفالا كمحرقة لإلههم. وذلك لأنهم لم يفهموا جيدا فكرة فريضة العشاء الربانى «من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه» (يو ٦ : ٥٦). أما التهمة العظمى التى وجهت الى المسيحيين فهى أنهم يتعبدون لإله يدعى يسوع، أى أنهم يخضعون لسلطة أخرى، لسيد (KYRIOS) آخر غير الامبراطور. ولهذه الأسباب قام الرومان باضطهاد المسيحيين الذين كانوا قد انتشروا فى طول الامبراطورية وعرضها فمن ضمن الكنائس النامية الناجحة فى ذلك الوقت والتى مرت بهذه الفترة العصيبة، فترة الاضطهاد، كانت كنيسة أنطاكية. ويظن بعض المؤرخين بأن بطرس الرسول هو الذى أسس كنيسة أنطاكية[1]. ولقد قبل أغناطيوس الايمان على يديه. وقبل أن ندخل فى تعاليم أغناطيوس اللاهوتية وعقيدته فى شخص الرب يسوع يحسن بنا أن نتعرف عليه ...

(١) انظر كتاب دكتور اسد رستم : كنيسة مدينة الله : انطاكية العظمى، الجزء الاول ص ٤٩ — ٨٠.

أغناطيوس الأنطاكى :

ولد القديس أغناطيوس فى سنة ٣٥ ب م ، ويحتمل أنه من أصل سورى يونانى • وقد قبل الايمان على يد الرسل مباشرة فى أثناء اقامة بعضهم فى أنطاكية • ويقول الدكتور أسد رستم بأنه قد اتخذ لنفسه لقب « ثيوفوروس » أى حامل الإله تيمنا وتبركا • ويعتبر أغناطيوس ثانى أساقفة كنيسة أنطاكية(١) التى نصب فيها فى سنة ٦٩ أو فى سنة ٧٠ ب م • كان هذا الأسقف أسقفا غيورا ممتلئا بروح الله ، فكان يعمل بنشاط وعزم لانتشار ملكوت الله • ولم تخف أو ترعب هذا البطل سحب الاضطهادات التى بدأت تظلم الجو وتحجب نور الشمس فى ذلك الوقت •

لقد شن الامبراطور تراجانوس اضطهادا ضد المسيحيين ، فاستجوب حاكم سوريا أغناطيوس عن إيمانه بالمسيح ، فلم ينكر سيده بل اعترف به جهارا أمام الجميع وأمام الحاكم الرومانى الذى أوثقه بالأغلال وسلمه لعشرة من قادة الحراس ثم أرسله إلى روما للمحاكمة هناك • وفى طريقه إلى روما أراد أن ينهج على منوال بولس الرسول (أع ٢٠ : ١٧ — ٣٨) فكان يدعو بعض الخدام والاخوة فى البلاد التى كان يمر بها ، لكى يعزيهم ويقوى ايمانهم • فلقد تقابل أغناطيوس فى أثناء هذه الرحلة مع الأسقف الشاب بوليكاربوس أسقف مدينة سميرنا ، كما أنه استطاع أن يكتب عددا من الرسائل ويرسلها إلى بعض الكنائس فى آسيا الصغرى واليونان ومقدونية(٢) • وعندما علمت بعض الكنائس بمروره بها خرجت لاستقباله بأعظم الاستقبال • وكانت هذه الرسائل التى أرسلها أغناطيوس إلى الكنائس تفيض بالمحبة والاخلاص لسيده ثم لشعب الله •

(١) د. رستم جزء اول ص ٥٠ •

(٢) انظر كتاب Johannes Quasten Traduction. La Porte : Initiation aux Peres de l'Eglise pp. 75 - 77.

وعندما وصل إلى روما وجد عددا كبيرا من المسيحيين فى انتظاره ، وكانت طلبته الأولى لهم أن لا يحاولوا اعاقة مقابلته مع السيد الرب بأى وساطة لدى الحكام ، فإن غايته العظمى هى أن يكون شهيدا وشاهدا لسيده .

ففى سنة ١٠٧ فى احتفال صاخب مازح ، حيث كانت تحتفل الامبراطورية الرومانية بنصر الامبراطور تراجانوس على أعدائه ، ألقى عدد كبير من الأسرى والمجرمين ، من بينهم القديس العظيم أغناطيوس ، للوحوش الضارية المفترسة . ويقال إن الاخوة فى روما جمعوا عظامه وأرسلوها إلى أنطاكية فدفنت هناك .

مؤلفات القديس أغناطيوس :

لم يبق لنا من كتاباته إلا السبع الرسائل التى كتبها إلى : كنيسة أفسس ، ثم رسالة الى كنيسة مغنيزيا والرسالة إلى كنيسة فيلادلفيا ، والرسالة إلى كنيسة سميرنا ثم الرسالة إلى كنيسة ترالس ، ثم كتب رسالة إلى أسقف كنيسة سميرنا بوليكاربوس الذى استقبله فى أثناء مروره بسميرنا استقبالا حافلا مشرفا . وأخيرا رسالته إلى روما . وأهم هذه الرسائل هى رسالته إلى كنيسة روما . ولقد حث أعضاء الكنائس فى هذه الرسائل التى استعمل فيها أسلوب القديس بولس ، على الطاعة والخضوع للقادة الروحيين . ثم طلب من كنيسة روما وأعضائها أن لا يقوموا بأى مجهود للسعى لدى الحكام لانقاذه من الموت . فعندما تغرب شمسه هنا ستشرق فى عالم آخر حيث تبدأ الحياة الحقيقية التى لا نهاية لها . وكذلك كتب يقول : أهلا بأسنان الوحوش المفترسة التى ستصنع منى خبزا شهيا للمسيح . (رسالته لأهل رومية ١ : ٢ ، ٢ : ١ ، ٥ : ١) .

تعاليم أغناطيوس الكرستولوجية ، أو ما هى عقيدته فى المسيح يسوع ؟

عندما نقرأ رسائل القديس أغناطيوس نشعر كما لو كنا ندرس رسائل بونس أو يوحنا ، فهو يقدم لنا شخص المسيح كما قدمه أيضا بولس • إن «الله ظهر فى الجسد»، ظهر فى هيئة إنسان • والرسائل السبع التى سبقت الاشارة إليها تحتوى على تعاليمه الخاصة بالله والخاصة بالمسيح(١) •

ففى رسالته إلى أهل ترالس ، يعرفنا بأن موت المسيح وقيامته هما من الحقائق التى حدثت فعلا وحقيقة ، وأنهما يؤديان إلى الخلاص • وفى نفس الرسالة يقول : إن المسيح قد صار فعلا إنسانا • وهنا يتمسك أسقف أنطاكية بالعقيدة الرسولية الغالية على قلب يوحنا الرسول • فكما سبق القول إن الغنوسية كانت منتشرة فى ذلك الوقت ، وقد هاجمها يوحنا الرسول فى إنجيله ورسائله • وهنا يقوم أسقف أنطاكية بمهاجمة نفس العقيدة بالتشديد على حقيقة أن المسيح صار إنسانا (الرسالة إلى ترالس ٩ . والرسالة إلى سميرنا ١ : ١) وإن كان يشدد على ناسوت المسيح موضحا بأن الكلمة صار جسدا وحل بيننا ، فهو لا يهمل بأى حال من الأحوال أن يسوع هذا هو الله ، ولم يتردد أسقف أنطاكية فى أن يعطى لقب « الله » للمسيح ، فان كان يوحنا قد ذكر بأن المسيح هو الله ثلاث مرات ، فإن أغناطيوس أعطى هذا اللقب « الله » للمسيح عدة مرات وفى أحيان كثيرة ، وبهذا فهو يحارب رافضا عقيدة الإبيونيين التى لا تعترف بلاهوت المسيح ، كما يرفض أيضا عقيدة الغنوسيين التى ترفض ناسوت المسيح • ولقد استطاع معلم أنطاكية العظيم أن يتكلم عن ناسوت المسيح وعن لاهوته دون أن يمزجهما مزجا كليا أو أن يفصلهما فصلا تاما الواحد عن الآخر ، فمع أن عقيدة الطبيعتين لم تكن قد ظهرت

(١) انظر كتاب Grillmeier ص ١٢٧ •

بعد بالطريقة التى ستظهر بها فى الفترة التالية، إلا أننا نشعر بأن تعاليم أغناطيوس كانت فى نفس الاتجاه الذى انتهجته الكنيسة فى القرنين الثالث والرابع • ومن الأمور الواضحة فى تعاليمه ، عقيدته عن الجسد (الساركس) ، وعن الكلمة « اللوغوس » الذى اتحد بالساركس : « الكلمة صار جسدا » ، فهذا الاتحاد الذى تم فى المسيح بين اللوغوس والساركس ، بين الكلمة والجسد كان واضحا فى تصرفات المسيح ، فهو كان يتعب ويأكل ويشرب لأنه كان إنسانا ، وكان يعمل المعجزات لأنه الله• كان يوجد توافق واتحاد بين اللوجوس والساركس ، وهذا ما سيدعى فيما بعد بالـ (LA COMMUNICATION DES IDIOMES) ويعنى أن كلا اللاهوت والناسوت كانا متحدين وعلى صلة مستمرة الواحد مع الآخر، وأنه يوجد اتحاد وانسجام لا انفصال (رسالته إلى سميرنا ٤ : ٢) وخاصة رسالته إلى أفسس ١ : ٨ ، أف ٧ : ٢ ورسالته إلى بوليكاربوس ٣ : ٢) • ويقول أغناطيوس ، لكى يشرح المصدر الالهى البشرى فى المسيح ، بأنه أصبح مخلوقا بالتجسد وغير مخلوق باللاهوت • مان الجسد الذى ولد من مريم العذراء يربط يسوع بالبشرية ، ولكن الكلمة الذى صار جسدا أى اللوغوس ، هو من الله ، بل الله نفسه ، وهو الذى يربط المسيح بالله (رسالته إلى أهل مغنيزيا ١ : ٢ ، سميرنا ٣ : ١ ، فيلادلفيا ٢ : ٢) كل هذه الفصول تشدد بطريقة واضحة وصريحة على اتحاد الكلمة « اللوجوس » بالساركس أى بالجسد ، وكان الاثنان يعملان فى اتحاد وانسجام وتوافق •

يرى أغناطيوس ناحية أخرى فى المسيح ، فهو الحياة الجديدة لأنه يعطى المؤمن حياة جديدة ، فهو يلاشى الحياة القديمة ويخلق فى الانسان عالما جديدا (رسالته لأفسس ٤ : ٤ ، ١٩ : ٣) •

ولقد شدد أغناطيوس أيضا على عمل المسيح الخلاصى ، فهو يعلن

أن قصد الله الأساسى هو خلاص البشر ، ولذلك فقد أرسل أولا أنبياءه إلى اليهود ، ولقد تمت كل هذه الانتظارات فى المسيح (رسالته الى مغنيزيا ٩ : ١ ، ٢) • إن أغناطيوس مثل بولس يعتبر أن المؤمن هو هيكل الله الساكن فيه (١ كو ٣ : ١٦ ، ١٧ ، ٦ : ١٩) •ولذلك فقد أعطى لنفسه لقب ثيوفيلس (THEOPHILE) « حامل الله » ، ويرى أيضا فى المسيح الطبيب الوحيد الذى يشفى الانسان من أمراضه الروحية •

إن هذه الرسائل السبع التى كتبها القديس أغناطيوس تعد من الكنوز العظيمة ، لأنها تعطى لنا فكرة عن تمسك الكنيسة المسيحية فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى بالتعاليم الرسولية[1] وكيف أن خدامها أمناء لله ولكلمته استطاعوا أن يقاوموا كل انحراف فى التعليم وأن يتمسكوا بالحق الالهى العظيم لكى يسلموه للأجيال التالية صحيحا نقيا، فلقد مات أغناطيوس شهيدا ولكنه يتكلم بعد •

(١) للتوسع فى هذا الموضوع ارجع الى (١) A. Grillmeier ص ١٢٧ — ١٣٠ ، (٢) J. Lebcert ص ٥٧ — ٥٩ ، (٣) J. Quasten ص ٧٥ — ٧٧ د • رستم الجزء الاول من ص ٤٩ — ٥٨ مجلة Le Christianisme 5. 12. 1977 No. 46.

الفصل الثالث

إكليمندوس الرومانى

إننا نجهل أين ومتى ولد القديس أكليمندوس الرومانى ، فلا نعرف شيئا عن طفولته ولا عن شبابه ولا عن البيئة التى نشأ فيها •

ومع أن الجزء الأول من حياته غير معروف لنا ، إلا أن الجزء الثانى كان حافلا بالنشاط والعمل فى حقل المسيح • فلقد نصب أكليمندوس الرومانى أسقفا على روما فى أيام حكم دومتيانوس (DOMITIEN) ويعرفنا إيريناوس الذى قام بعمل أقدم قائمة لأساقفة روما ، بأن أكليمندس هو ثالث خلف للقديس بطرس الرسول (انظر ايريناوس ADV. HAER. 3, 3, 3) • ولكن ما نأسف له هو أن ايريناوس لم يقل لنا شيئا عن متى بدأ ولا متى أنهى خدمته الأسقفية • أما المؤرخ الكنسى أسابيوس (EUSEBE) فهو يحدد لنا بداية ونهاية خدمة أكليمندس الأسقفية • فهو يعتقد بأنه ثالث أسقف لروما بعد القديس بطرس ، وقد جلس على كرسى الأسقفية الرومانية فى السنة الثانية عشرة لحكم دوميتيانوس إلى السنة الثالثة لحكم تراجانوس • وهذا يعنى أن أكليمندس كان أسقفا لروما من سنة ٩٢ إلى سنة ١٠١ ب م[1] • ثم أن

---

(١) Eusébe. Hist. Eccl. 3. 15, 34.

ترتليانوس يعرفنا بأن الذى رسمه أسقفا لروما هـو القديس بطرس نفسه ، وأبيفانوس يؤكد حقيقة هذا الأمر(١) • ويتمسك أسقف ليـون (إيريناوس) بأن أكليمندس عاش فى عصر الرسولين بولس وبطرس وأنه كان يعرفهما جيدا • ويؤيد هذا الرأى كـل من اللاهوتى الاسكندرى أريجانوس وأسابيوس (EUSEBE) بل يعتقدان بأنه كان شريكا للرسول بولس فى الخدمة ، وأنه هو نفس الشخص الذى يتكلم عنه الرسول بقوله: «نعم أسألك أنت أيضا ياشريكى المخلص ساعد هاتين اللتين جاهدتا معى فى الانجيل مع أكليمندس أيضا وباقى العاملين معى الذين أسماؤهم فى سفر الحياة » (فى ٤ : ٣) • (٢) فالرسول يذكر عددا من الذين كانوا يتعاونون معه فى الخدمة ، ويظن بأن أكليمندس المذكور هنـا هو نفس الشخص الذى صار أسقفا لروما فى سنة ٩٢ • على أن هذا الرأى يحتاج إلى برهان تاريخى • ويعتقد دين كاسيوس (DION CASSIUS) أن أكليمندس هو القنصل تيطس فلافيوس من عائلة الامبراطور وقد حكم عليه بالاعدام فى سنة ٩٥ أو ٩٦ لاعتناقه المسيحية(٣) •

كتابات أكليمندس :

كتب القديس أكليمندس رسالة إلى أهل كورنثوس ، وهذه الرسالة تعتبر فى غاية الأهمية خصوصا لأنه قد ثبت بطريقة لا تعرف الشك صحتها ونسبتها إلى أكليمندس • فإذا استثنينا كتب العهد الجديد ، تعتبر رسالة أكليمندس إلى أهل كورنثوس من أقدم الكتابات المسيحية التى تعطى لنا صورة عن معتقدات وحياة الكنيسة بعد انتقال الرسـل • فعلى ما يظهر أن النزاع والانشقاقات التى بدأت فى كنيسة كورنثوس فى عهد الرسول بولس (١ كو ٣ : ١ ــ ٢٣) ما كانت إلا بذورا أعطت ثمارها

(١) انظر كتاب J. Quasten ص ٣٢ •
(٢) انظر كتاب J. Quasten ص ٣٢ •
(٣) انظر كتاب J. Quasten ص ٣٢ •

الرديئة والكثيرة فى هذه الكنيسة فى أيام أكليمندس حتى أن كثيرين من أعضاء هذه الكنيسة تمردوا على رعاتها وطردوا البعض منهم . ولذلك تدخل أكليمندس محاولا أن يهدىء من شدة العاصفة التى كادت تقوض ظهر الكنيسة فى كورنثوس والتى أصبحت عثرة لغير المؤمنين . ويحتمل بأن أكليمندس قد تدخل لحل المشكلة المحلية فى الكنيسة الكورنثوسية بعد أن طلبت منه هذه الكنيسة التدخل لحل مشكلتها .

وتحتوى رسالة أكليمندس إلى أهل كورنثوس ، على مقدمة ثم جزئين رئيسيين . والمقدمة تصف حالة كنيسة كورنثوس المزدهرة النامية سابقا ، والمنقسمة الممزقة حاليا . ثم يتعرض الكاتب فى جزئى الرسالة لمعالجة مشاكل كنسية ولاهوتية وتعليمية كثيرة ، فهى تتكلم عن اقامة بطرس الرسول فى روما وزيادة بولس لأسبانيا واستشهاد الرسولين كما أنها تتكلم أيضا عن الاضطهادات التى شنها نيرون على المسيحيين .

تاريخ كتابة الرسالة :

إن الرسالة تذكر اضطهاد نيرون لكنيسة روما (٤ : ٥) ، وبعد وصفه لهذه المحنة التى مرت بها كنيسة المسيح فى روما فى أيام نيرون يذكر أكليمندس أن الكنيسة الحالية تمر بمحنة قاسية . وربما يشير الكاتب إلى الاضطهادات التى شنها دوميتانوس فى سنة ٩٥ أو ٩٦ . وبناء على ذلك فإنه من المحتمل أن الرسالة كتبت بين سنتى ٩٦ ، ١٠٠ بعم .

ولا يوجد شك فى أن كاتب هذه الرسالة هو أكليمندس بالرغم من أنه لا يذكر اسمه فيها . وعنوان هذه الرسالة هو « كنيسة الله فى روما » ، أو « كنيسة الله المقيمة فى روما » .

ويستعمل الكاتب صيغة الجمع للمتكلم ، ولقد أجمع آباء القرون الأولى على أن الكاتب هو أسقف روما أكليمندس (١) . وحاليا توجد

(١) Eusèbe Hist... Eccl. 4, 23, H, 3, 16.

هذه الرسالة فى المتحف البريطانى •

وبما أن هذه الرسالة لم تقابل اعتراضات تذكر ، فى حقيقة نسبتها الى أكليمندس الرومانى ، فقد قام البعض فى القرن الثالث بكتابة رسائل أخرى ونسبوها إلى نفس الشخص (أكليمندس) حتى تستطيع أن تشق طريقها بسهولة إلى الكنائس المسيحية ، ومنها :

١ ــ رسالة أكليمندس الثانية إلى أهل كورنثوس :

وهى رسالة لا تمت بأية صلة إلى أكليمندس لأن محتوياتها وأسلوبها وعباراتها برهان كاف لابعادها عن أسقف روما •

٢ ــ خطابان موجهان إلى الغير المتزوجين :

وفى هذين الخطابين يبين الكاتب مزايا وفوائد العزوبية • وتوجد كتابات أخرى نسبت إلى أسقف روما ، على أن آباء الكنيسة لم يعترفوا إلا بالرسالة الأولى •

تعاليم القديس أكليمندس :

إن القديس أيريناوس عندما يتكلم عن تعاليم أسقف روما أكليمندس ، يعرفنا بأن هذا الأخير قد احتفظ لنا بنقاوة وسلامة تعاليم الرسل •

والرسالة تظهر اطلاع القديس أكليمندس ومعرفته الواسعة بالعهد القديم ، فهو يشرح لنا قصد الله لخلاص العالم الذى نفذه فى شخص ابنه ربنا يسوع المسيح ويعمل الروح القدس معطيا هذه المهمة للرسل (رسالته إلى أهل رومية ٤٢ : ١ ــ ٣) •

وعندما نقرأ رسالة القديس أكليمندس يسيطر علينا نفس الشعور الذى نشعر به عندما نطلع على رسائل أسقف أنطاكية فى وصفه لاتضاع وارتفاع المسيح فى التجسد والموت والقيامة • فأسقف روما يتتبع اثر خطوات بولس عندما يتكلم عن شخص المسيح ، فهو يقدمه لنا كما وصفه الرسول بولس بالقول : « فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو غنى ، لكى تستغنوا أنتم بفقره» (٢كو٨:٩، فى ٢:٥ ــ ١١) • فلقد جاء المسيح فقيرا لا يملك شيئا مع أنه الغنى ، بل هو ذاك الذى أخضع نفسه واتضع اتضاعا عظيما لدرجة أنه صار فى هيئة عبد (فى ٢ : ٥ ــ ١١) فمع أنه كان يمكن له أن يظهر فى هيئة العظمة والتجبر والتغطرس ، لكنه اختار طريق التواضع وانكار الذات (رسالته ١٦ : ٢) • ومع أنه يقدم لنا المسيح كذاك الذى اتضع اتضاعا كاملا كليا ، فإنه يصفه أيضا « بالسيد » ، فإن لقب « سيد » هو اللقب اللائق والمناسب للمسيح مثل « الله » و« معلم » و« رب » •

وأسقف روما يؤمن بأن الابن موجود مع الآب ولقد أرسل إلى العالم كرئيس كهنة •

من هذا نلاحظ أن أسقف كنيسة روما تمسك بتعاليم بولس الرسول فيما يختص بشخص الرب يسوع • فلقد رأى فيه إنسانا وإلها ، وفى نفس الوقت فهو الذى كان غنيا وافتقر من أجلنا ، وهو المعادل لله ، اتضع وأخذ صورة عبد •

إن دراسة كتابات القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية وكتابات القديس أكليمندس أسقف روما بخصوص التعاليم الكرستولوجية (التعاليم المختصة بشخص المسيح) فى غاية الأهمية لأنهما يعتبران القنطرة المباشرة التى تربط الرسل بكنيسة القرون التالية • إذ أنه من المحتمل

جدا ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، أنهما كانا فعلا على اتصال مباشر وشاهدى عيان لبعض الرسل . ولهذا السبب تحتل كتاباتهما فى تاريخ العقائد المسيحية مكانة مرموقة هامة (١) .

(١) Bard, RSR. 12 (1922) 73 - 85.

ولدراسة هذا الموضوع بتعمق راجع المراجع الآتية :

L. Sanders. L'Hellenism de St. Clément de Rome Et. le poulinism louvain 1943, p. 19 - 33.

وتوجد قائمة كتب فى كتاب J. Quasten يجب الاطلاع عليها .

F. Louvel. Les Ecrit des Pères A postolique.

الفصل الرابع

بوليكاربوس (ST. POLYCRPE)

عنــدما نتكلم عن الأشخاص الذين يحتمل أنهم فازوا بالمقــابلة الشخصية مع الرسل أو كانوا شهود عيان لهم ، لا يمكننا أن نهمل ذكر القديس بوليكاربوس أسقف مدينة سميرنا .

ولد بوليكاربوس سنة ٦٩ فى مدينــة سميرنا ولا نعرف شيئًا عن شبابه أو الجو العائلى الذى نشأ فيه ، وهل تربى ونشأ فى عائلة مسيحية أو وثنية .

على أنه توجد بعض الوثائق التى تكاد تكون مؤكدة بأن القديس بوليكاربوس تعرف على بعض الرسل أو على الأقل ، كان تلميذا لأحدهم وهو القديس يوحنا الرسول الشيخ . ويقال إنه كان يجلس عندأقدام الرسول يوحنا عنــدما كان يعلم أو يعظ لكى يلتقط الــدرر التى كانت تتساقط من فمه .

ويقول أسابيوس إن الرســل أنفسهم هم الذين عينوه أسقفا على مدينة سميرنا ، ولهذا السبب كان يتمتع باحترام الكثيرين من الخــدام ويحتل المكانة المرموقة بينهم (١) . ولقد كان أسقفا لهذه المدينة عندما

---

(١) انظر اريناياس
Eusébe. Hist ... Eccl. 5, 20, 5, 11 Adv. Haer. 3, 3, 4
Irénée Adv Haer. (ص ٩٠ — ٩٢) الجزء الأول — طبعة فرنسية .

مربها القديس أغناطيوس فى طريقه إلى الاستشهاد ، وسلم له رسالته المشهورة ، وطارت سمعته الحسنة ومعرفته العميقة إلى روما وسمع بها البابا أنيست(ANICET) أسقف روما •ولذلك فقد دعاه للذهاب إلى هناك فى سنة ١٥٥ ب م للنظر فى بعض المسائل الكنسية خصوصا مشكلة تحديد تاريخ القيامة • ومع أن هذه المقابلة لم تحقق الهدف المقصود وهو الوصول إلى اتفاق لتحديد يوم ثابت لعيد القيامة ، فقد ظلت روابط المحبة المسيحية القوية تربط بين قلبيهما •

لقد عاد القديس بوليكاربوس إلى مدينة سميرنا بعد رحلته إلى روما ، وكانت مدينة سميرنا تمر فى ذلك الوقت بفترة اضطهاد مرير عنيف• ويبدو أن الاضطهاد الذى تنبأ به يوحنا الرسول فى سفر الرؤيا فى خطابه الموجه إلى كنيسة سميرنا كان قد بدأ يتحقق فعلا •••• فلقد كتب الرسول إلى هذه الكنيسة يقول : « هوذا إبليس مزمع أن يلقى بعضا منكم فى السجن لكى تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام ••• » (رؤ٢: ١٠) ، فلقد حل جزء من أيام الاضطهاد العشرة هذه عندما قام الحاكم استاتيوس كوادراتوس STATIUS QUADRATUS باضطهاد الكنيسة فامر باحضار راعى كنيسة سميرنا الشيخ الوقور بوليكاربوس • وعندما رأى الحاكم هذا الشيخ الجليل الوقور ، يبدو أن الشفقة عرفت طريقها إلى قلبه وأراد أن ينقذه من الموت فقال له : « أقسم لى بأن تلعن المسيح وأنا أطلق سراحك الآن » • فأجاب القديس بلا تردد وبشجاعة منقطعة النظير بهذه الكلمات التى سجلها له التاريخ ، وهى أيضا فخر الكنيسة ، كشهادة حية له قائلا : « منذ ستة وثمانين عاما وأنا له وأخدمه ولم يسىء إلى أبدا ولا باساءة واحدة ، فكيف يمكن إذا أن أجدف على ملكى ومخلص ؟! » •

ثم تحول إلى الجلادين الذين كانوا يعدون العدة لتسميره على

الخشبة التى كانت معدة لحرقه . وقال : « اتركونى هكذا ، فإن الذى يعطينى القوة لكى أحتمل النيران ، هو نفسه الذى سيعطينى القوة لكى أظل فى مكانى بلا حركة دون أن أسمر بمساميركم »(٢) .

وهكذا قبل الرجل الشيخ العظيم المـوت فى ٢٢ فبراير سنة ١٥٦ مستشهدا لأجل ذاك الذى من أجله ومن أجلنـا أيضا مات ونحن بعـد خطاة .

تعاليم بوليكاربوس :

لقـد كتب بوليكاربوس رسالة إلى أهل فيلبى ، وتحتوى هـذه الرسالة على بعض تعاليم بوليكاربوس . والقديس ايريناوس يقول بأن بوليكاربوس قد أرسل عدة رسائل إلى الكنائس المحيطة بسميرنا وإلى زملائه الخدام فى المنطقة . وللأسف الشديد لم يبق لنا من هذه الرسائل إلا رسالته إلى أهل فيلبى(١) . ويعتقد هاريسون (P.N. HARRISON) بأن رسالة بوليكاربوس إلى أهل فيلبى فى شكلها الحـالى تحتوى على رسالتين مكتوبتين فى حقبتين مختلفتين من الـزمن . فالرسالة الأولى لا تحتـوى إلا على الفصلين الثالث عشر والرابع عشر مـع مذكـرة تفسيرية ، ثم رسائل القديس أغناطيوس التى طلبتها منه كنيسة فيلبى ، وبعد عشرين سنة من ارسال الـرسالة الأولى (الفصلين الثالث عشر والرابع عشر) أرسل بوليكاربوس بقية رسالته من الفصـل الأول إلى الثانى عشر . ويحتمل أن هذه الرسالة كانت مكتوبة على ورق البردى .

---

(١) انظر كتاب J. Quasten ان تاريخ موت القديس بوليكاربوس من النقاط الغير المتفق عليها ، إذ ان البعض يظن بأنه استشهد فى سـنة ١٧١ والبعض الآخر فى سنة ١٧٧ .

(٢) انظر اسابيوس Eusèbe Hist. Eccl. 5, 20, 8 ; 3. 36, 13 - 15.

وقد حاول بوليكاربوس معالجة عدة مواضيع فى هـذه الرسـالة ، منها : النظام أو الترتيب الكنسى ، الصدقة ، ثم علاقة الكنيسة بالدولة . ولكن الذى يهـمنا فى بحثنا هـذا هو مفهـومه عن شخص المسيح أى تعاليمه الكرستولوجية . إن بوليكاربوس اتبع آثـار خطـوات معلمـه القديس يوحنا ، فلقد سبق أن رأينا أن يوحنا الرسـول كتب إنجيله ورسائله مدافعا عن لاهوت وعن ناسوت المسيح . وبوليكاربوس الذى تشبع بأفكار يوحنا يواصل الجهاد ضـد الغنوسيين وضـد الإبونيين . فهو يكتب قائلا : « من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء فى الجسد فهو ضد المسيح ، ومن لا يعترف بالصليب فهو من الشيطان ، وكل من يحول أقوال الـرب إلى رغباته الشخصية ، وكل من ينـكر القـيامة والدينونة فهو بكر إبليس » (رسالته الى أهل فيلبى ٧ : ١) . ونلاحظ هنا أن الجزء الأول من هذا الاقتباس قريب جدا من قول الرسول يوحنا حيث يقول : « وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جـاء فى الجسد فليس من الله .. » (١ يو ٤ : ٣) . ولا شك أن بوليكاربوس يواصل نفس المعركة التى شنها يوحنا الرسول ضد الذين ينكرون لاهوت المسيح وضد الذين ينكرون ناسوته . خاصة أن هذه البـدع انتشرت انتشارا كبيرا فى طول البلاد وعرضها فى ذلك الوقت . وكما أن الرسول يوحنا قد عرف المعلم الكاذب سرنت ، وقد كتب رسائله ضـد تعاليمه ، فإن البعض يعتقد أن بوليكاربوس تقابل هو أيضا مع هرطوقى آخر فى عصره لايقل خطورة عن سرنت وهـو ماركيون MARCION . ويقول لنا إيريناوس إنه عندما تقابل الاثنان معا ، سأل ماركيون بوليكاربوس قائلا : « أتعرفنى ؟ » ، فأجاب بوليكابوس بالقول : « بلا شك . وكيف يمكن أن أجهل بكر الشيطان »[1] .

ففى عهد بوليكاربوس بـدأت التعاليم المختلفة المتنوعة المختصة

(1) انظر Irenée Adv., Haer 3, 3, 4. (ذكر سابقا) .

بشخص المسيح يسوع تهز الكنيسة وتهدد سـلامة عقيدتها وإيمانها فى المسيح • ولكن الذى وعد تلاميذه بأنه سيكون فى كنيسته وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، هو أمين وأمانته لا تتوقف على عدم أمانتنا لأنه أمين وسيظل أمينا إلى الأبد ، يقوى كنيسته فى ضعفها ويسندها فى سقوطها لأنه محبة أبدية قد أحبها • ولذلك جاء هو نفسه لتأسيسها ، وحمل الرسل مسئولية بنيانها والتعليم فيها ؛ كما عمل ويعمل بروحه فى القديسين وفى المؤمنين لكى يواصلوا تبليغ الرسالة إلى الذين لم تصل إليهم •

لقد كان بوليكاربوس من سحابة الشهود الذين قدموا شهادة حية قوية ولامعة لسيدهم وربهم •

الفصل الخامس

إيريناوس (SAINT IRENEE)

لم يستطع المؤرخون أن يحددوا بالضبط تاريخ ميلاد أسقف ليون (LYON) • ولذلك فقد ظنوا أنه ولد بين سنتى ١٣٠ و ١٥٠بم• ولكن الأمر الذى لا يعتريه الشك هو أن إيريناوس قد عرف القديس بوليكاربوس شخصيا فى مدينة سميرنا التى هى مسقط رأسه • ولذلك فان إيريناوس يعتبر حلقة هامة جدا فى السلسلة حيث لا يفصل بينه وبين الرسل إلا حلقة واحدة منها أو جيل واحد هـو القديس بوليكاربوس • فقـد كان إيريناوس شاهد عيان لبوليكاربوس • وهـذا الأخير كان تلميذا للقديس يوحنا تلميذ المسيح • وإيريناوس نفسه هـو الذى عرفنا بأنه كان من الذين يسمعون عظات القديس بوليكاربوس فى مدينة سميرنا • فهو يقص هذا فى خطاب كان قد أرسله إلى صديق يدعى فلورنيس (FLORINUS) شارحا لصديقه كيف كان يتمتع متلذذا فى أيام شبابه بسماع عظات القديس بوليكاربوس إذ أن هذا الأخير (بوليكاربوس) كان يروى على سامعيه القصص الحلوة العذبة التى يصف فيها علاقته بالقديس يوحنا والتلاميذ الآخرين الذين قد رأوا السيد ، وكيف كان يتذكر كلماتهم والأشياء التى كان

يسمعها منهم بخصوص السيد ومعجزاته وتعاليمه •

ومع أن إيريناوس يصف فى هذا الخطاب لصديق شبابه ، فهو لا يتكلم عن طفولته أو عائلته • ولذلك فإننا نجهل تماما ما إذا كان قد تربى فى عائلة مسيحية أو وثنية ؟ ولكننا نعرف أنه أصبح أسقفا لمدينة ليون فى سنة ١٧٧ بعم • كما أننا نجهل كيف ومتى أصبح إيريناوس مسيحيا ؟ هل تجدد على يد بوليكاربوس أو على يد شخص آخر ؟ • ونجهل أيضا الأسباب التى دفعته إلى الهجرة إلى ليون • ولقد أرسلته كنيسة (ليون) إلى روما ، وعند عودته خلف أسقف المدينة بوتن (POTHIN) الذى استشهد فى الاضطهادات التى قام بها الوثنيون ضد الكنيسة •

. . . .

عندما جلس إيريناوس على كرسى أسقفية ليون كرس جزءا كبيرا من جهوده ووقته للكرازة وتبشير بلاد الغال (فرنسا حاليا) إذ كان يعرف لغتهم معرفة جيدة • ثم كرس جزءا آخر من وقته للدرس والكتابة شارحا ومبينا الايمان المسيحى الصحيح ومدافعا ضد الغنوسيين وهرطقاتهم •

لقد كان إيريناوس رجل المصالحة ، ولقد ظهرت فيه هذه الروح عندما أراد أسقف روما فيكتور أن يقطع علاقاته مع كنائس آسيا التى كانت لا تتفق وعادات روما وطقسها فيما يختص بالاحتفال بعيد القيامة ، فقد تدخل حالا إيريناوس لتوطيد العلاقات وعدم قطع الشركة لسبب بعض الاختلافات التى لا تمس نقاطا حيوية أو جوهرية فى الايمان (راجع اسابيوس ٥ ، ٢٤ : ١٧) •

اننا نجهل تاريخ موته الذى قد يكون بين سنتى ١٩٠ و ٢٠٢ بعم فى أثناء الاضطهادات التى شنها سبتيموس سفريوس - SEPTIME) SEVERE) ، فاسابيوس المؤرخ الكنسى لا يذكر شيئا عن موته • إلا أن جريجوار من تور (GREGOIRE DE LA TOURS) يقول إنه مات شهيدا (أنظر HISORIA FRANCORUM 1 : 17) •

كتاباته :

كتب القديس إيريناوس كتبا كثيرة جدا خصوصا المصنفات التى كتبها ضد جماعة الغنوسيين ، ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الكتب إلا كتابان ، ولقد كتب إيريناوس مؤلفاته فى لغته وهى اليونانية ، ولكن هذين الكتابين كتبا باللغة اللاتينية ، ويعالج إيريناوس فى كتابه الأول (من هذين الكتابين) مشكلة الغنوسية ، ويتعرض لها من الناحية التاريخية ومن الناحية العقائدية ، أما الكتاب الثانى ويدعى « شرح تعليم الرسل » فيحاول أن يشرح فيه محتويات الايمان المسيحى الصحيح ، فهو يتكلم عن قضية الثالوث وسقوط الانسان والتجسد والفداء ثم يقدم لنا يسوع كابن داود .

ولقد احتفظ لنا ببعض المقتطفات من كتاباته كل من هيبوليتوس وأسابيوس وابيفانوس .

تعاليم ايريناوس الكرستولوجية :

لكى نفهم تعاليم القديس إيريناوس اللاهوتية المختصة بشخص المسيح ، يجب علينا أن نذكر الأحداث التاريخية العقائدية ، فلقد سبق أن أشرنا إلى انتشار الغنوسية فى بلاد كثيرة ، كما عرفنا أيضا أن الرسول يوحنا قد كتب إنجيله ورسائله ضد تعاليم الغنوسيين وضد بعض التعاليم الأخرى غير الصحيحة ، وعندما ظهر القديس بوليكاربوس تلميذ يوحنا أتبع أيضا آثار معلمه فى محاربة هذه البدعة التى كانت منتشرة فى بلاد عديدة وخاصة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وعلى ما يبدو أن تعاليم الغنوسيين وصلت إلى ليون ، المنطقة التى جاء ليبشر فيها السميرنى ، ولذلك فقد قام إيريناوس بالهجوم على هذه

التعاليم التى حاربها سابقوه • فمعظم ما كتبه فى « الهرطقات المختلفة » (ADVERSUS, HAERESES) كان ضد تعاليم هذه الجماعة ، إذ أنه حلل ناقدا كل هـذه التعاليم ، لأن كثيرين من الغنوسيين كانـوا يرون فى المسيح واحدا من الآلهة المتعددة التى خرجت من الاله الأعظم السامى • وكان هدف مجىء المسيح إلى الأرض هـو أن ينقذ الانسان الذى كان سجينا وعبدا للمـادة ، فإن رسـالة اللوغوس هى أن يعلم ويرشد الانسان الساقط إلى المعرفة الحقيقية ، وعن طريق هذه المعرفة يخلص •

لم يقبل إيريناوس هذه التعاليم عن المسيح ، ولكنه قبـل أن يبدأ فى شرح مفهومه لعقيدة اللوغوس ، يحتج بشدة ضد اللاهوتيين الذين يقدمون شروحات مطولة ومفصلة عن أصـل ومنبع ابن الله ومصدره ووجوده ، كما لو كانوا حاضرين فى يوم ميلاده • ثم يقـول إن هـذه الأشياء لا يمكن وصفها لأنها تفوق كل وصف ، والانسان لا يمكنه أن يفهمها أو يشرحها ولا أحد يعرف سر ميلاد ابن الله إلا الآب والابن (راجع كتابه ADV. HAE. 11 : 28) •

ولكن بالرغم من هذه الملاحظة التى ينتقد بهـا الذين حاولوا تقديم شروحات طويلة ومفصلة عن سر التجسد ، فإنه هو نفسه يدخل فى هذه التفاصيل مقدما لنا مفهومه عن المسيح • فما هى عقيدته فى المسيح ؟

لقد ركز إيريناوس فى تعليمه على ما يدعى بالـ (Sotériologie) أى كل ما يختص بقضية الخلاص ، فإن كنا نـرى اللاهوتى اليونانى يؤكد بشدة على مشكلة الخلاص الذى تم فى شخص المسيح يسوع ، فذلك لأن عددا من الغنوسيين كانوا يعلمون بأن المسيح هو واحد من العـوالـم (EONS) أو الآلهه التى خـرجت من الاله الأسمى

ونزل لكى يخلص الانسان أو بالمعنى الأصح لكى يحرر الشرارات الالهية السجينة فى الانسان . والخلاص بحسب مفهوم هؤلاء الغنوسيين ليس هو عودة العالم الأرضى المنظور والانسان الساقط روحا وجسدا ، إلى الله ، بل هو رجوع الشرارات أو الذرات الالهية التى سقطت من فوق ، إلى اللاهوت . وهذه العودة لا تتم إلا عن طريق « الغنوس » أى المعرفة وهى التى تعطى الخلاص ، والمسيح هو الذى يساعد الانسان على الوصول إلى هذه المعرفة . هذا هو الخلاص الذى نادى به الغنوسيون .

وإيريناوس وعظ بأن المسيح جاء فعلا للخلاص ، ولكن هذا المسيح الذى يتكلم عنه الغنوسيون ليس هو نفس مسيح الانجيل ، بل هو واحد من الآلهة الكثيرة ، أما مسيح الانجيل فهو مسيح واحد فريد وقد جاء لفداء الانسان . فإن كان الغنوسيون يتكلمون عن مسيح جاء من فوق ولا يمكن له أن يلتصق بالمادة لأنها شر وخطية ، فإن مسيح الانجيل صار جسدا . وهو يقول : « إن لم يكن المسيح إنسانا حقا وإلها حقا لأصبح خلاصنا مستحيلا » . وعندما جاء المسيح إلى عالمنا لخلاصنا أخذ جسدا حقيقيا كأجسادنا لأن الرسول يقول : « الكلمة صار جسدا » . وهنا يظهر إيريناوس رفضه لعقيدة الدوسيتيين (الذين يؤمنون بأن المسيح كان إلها فقط) . ويؤكد أسقف ليون بشدة على حقيقة أنه كان من الضرورى بل من اللازم لاتمام عملية الفداء والتجسد ، وجود مخلص ، وأن يكون هذا المخلص مشتركا فى اللاهوت ومشتركا أيضا فى الجنس البشرى . كان لابد وأن يكون إلها وإنسانا فى نفس الوقت ، حتى يستطيع أن يصالح الانسان والله . فقد كان المسيح إذن هو الوسيط المؤهل للقيام بهذه العملية ، عملية الوساطة بين الله الذى لا يمكن أن يدنى منه ، وبين الانسان الخاطىء (راجع J. LIEBAERT P. 67.) .

والذى يدرس كتابات القديس إيريناوس يلاحظ أنه شدد كثيرا على أعمال المسيح وخاصة أعماله الفدائية . فإن أسقف ليون قد أعطى الأولوية فى كتاباته للبحث عن أعمال المسيح الفدائيـة والخلاصية ، دون أن يهمل اهمالا كاملا الأسئلة المختصة بأصل وجوهر المسيـح . (راجع كتابة (ADV. HAER. 3, 166) .

ونلاحظ هنا أن القديس إيريناوس لا ينهج المنهج الذى اتبعـه الرسول يوحنا بل يسلك الطريق الذى سـلكه بولس الرسول ، إذ أن يوحنا تكلم عن الذى كان من البدء الذى فى حضن الآب ، جوهر الآب ، وأما الرسول بولس فقـد ركز بالحرى على عمل المسيح الذى مـات من أجلنا الذى قدم نفسه كذبيحة حية مرضية : آدم الأخير ....

والمقارنة التى قام بعملها إيريناوس بين آدم الأول وآدم الأخير تعتبر من أهم المواضيع اللاهوتيـة الكرستولوجيـة التى كتب فيها . وكرجل كتابى رجع إلى المكتوب لكى يشرح الفرق بينه وبين الوثنيين . ولقد إتخذ أساسا لبحثه رومية (٥ : ١٢ ــ ٢١ ، ١ كو ١٥ : ٢١ــ٢٢ ، ٤٥ ــ ٤٩) .

(١) وهــو يرى فى آدم الأول أنه إنسان مأخــوذ من أرض بكر والمسيح أيضا ولد من بكر عذراء .

(٢) إن سقوط آدم الأول تسبب عن عصيــان إمرأة عذراء وهى حواء ، كذلك مجىء المخلص إلى العالم عن طريق امرأة عذراء من جنس آدم وحواء وهى مريم .

(٣) إن الوسيلة المستعملة لسقوط آدم كانت ثمرة شجرة ،والمسيح

قام باصلاح هذا السقوط بواسطة الصليب الذى صنع من أخشاب الشجرة أيضا •

(٤) لم يستطع آدم الأول أن يقاوم رغبة الأكل من الشجرة الممنوعة ، أما المسيح فقد قاوم الشيطان الذى جربه بتجربة مشابهة على الجبل (تجربة الخبز) •

(٥) لقد سقط آدم الأول بسهولة فى فخ الشيطان الذى أغواه بأن يكون معادلا لله ، بينما انتصر ابن الانسان على هذه التجربة ، غير محاولا لا بالقوة ولا بالمكر أن يثبت معادلته لله (فى ٢ : ٦ — ١١) •

لقد حاول إيريناوس ، بهذه العناصر الكتابية وخاصة المقتبسة من رسائل بولس ، أن يبين الفرق بين آدم الأول وآدم الأخير — أى المسيح — فهو يرى فى شخص المسيح صورة الله الكاملة • فمع أن آدم قد خلق أيضا على صورة الله ، لكن آدم الأخير هو صورة الله حقيقة • ولقد قام المسيح : آدم الأخير ، خير قيام بالدور الذى كان على آدم الأول أن يقوم به • ولقد نجح آدم الأخير على طول الخط فيما قد سقط فيه آدم الأول •

ولكن بالرغم من هذه المقارنة التى يجريها إيريناوس بين آدم الأول وآدم الأخير ، والتى تبين لنا بأنه تتبع تعاليم الرسول بولس ، فإنه يوجد اختلاف بين مفهوم بولس ومفهوم إيريناوس لمشكلة الخطية والفداء • ولقد كتب الأستاذ لودز (LODS) (١) بخصوص هذا الموضوع يقول : « يوجد اختلاف هام بين مفهوم بولس ومفهوم إيريناوس ، يرجع أصله إلى مفهوم بولس للخطية ، ثم للفداء ، فبولس

(١) Marchods ص ٩٢ — ٩٥ •

يرى أن المسيح لم يصلح غلطة آدم فقط ••• بل عمل ما لم يستطع آدم أن يقوم بعمله بسبب طبيعته الجسدية وبسبب خطورة عصيانه ، فهناك انفصال وفرق عظيم بين آدم ويسوع • فالفداء ليس رجوع إلى الوراء، إلى خليقة مجددة ، ولكن الفداء هو خليقة جديدة لتأسيس ملكوت الله• ولهذا السبب فالمسيح هو السابق المتفوق على آدم » •

أما إيريناوس فيعتقد بأن الخطية هى غلطة أدبيـــة ، وأن آدم تصرف عن جهل ، فغلطة آدم نتجت إذن عن جهل وعدم نضوج ، فكان من الضرورى أن يقوم هذا الجهل وأن تصلح هذه الغلطة • وهنا تبدأ عملية آدم الأخير ، أى اصلاح ما أفسده آدم الأول • هذا هو الفرق بين مفهوم إيريناوس ومفهوم بولس • (راجع ADV. HAER. 3, 21. 10 - 22. 4., 5, 21, 1 - 2.)

ويلخص لنا لودز (LODS) عملية الخلاص التى قام بها السيد بحسب مفهوم إيريناوس فى النقاط الثلاث الآتية : إن اتحـــاد الله فى المسيح كان لأجل فدائنا •

(١) لأنه لو كان ذاك الذى انتصر على عدو الانسان ليس بانسان، لأصبح انتصاره بلاقيمة •

(٢) ولو لم يكن الله نفسه هو المانح لهذا الخلاص لأصبح هــذا الخلاص مهددا وغير مضمون •

(٣) ولو لم تتم عمليـــة مصالحة الانســـان مع الله لظـــل الانسان مائتا (١) •

(١) انظر Lods pp. 92 - 5 Adv. Haer. 3.18.7

ولهذا كان من الضرورى أن يكون الوسيط هو المسيح لأنه يستطيع عن طريق ارتباطه بالله أن يمثل الانسان ، وعن طريق ارتباطه بالانسان يستطيع أن يمثل الله . وبهذا يستطيع أيضا أن يجرى عمل المصالحة وأن يرجع السلام والصداقة بين الاثنين . فهو الذى يستطيع أن يقود الانسان إلى الله ثم يعرف الانسان بالله .

وهنا نرى المسيح المتجسد فى طبيعته الإلهية والبشرية يقوم بعملية الفداء ، وبعملية المصالحة . فالإله المتجسد هو الذى يجذب البشرية إلى الآب لكى تعرفه ، وفى نفس الوقت فابن الله الذى فى حضن الآب ، هو الذى يعلن الله للبشرية . ولقد كتب يقول : « فيه (فى المسيح) نزل الله إلى الإنسان ، وهو أيضا (المسيح) رفع الإنسان إلى الله ... »(1) .

وبعملية الفداء هذه نفذ الله قصده بالنسبة للانسان ، فالبشرية التى سقطت وأخطأت فى آدم الأول ، تجددت الآن فى آدم الأخير . فالمسيح هو الذى أعطى لهذه البشرية الساقطة والمبتعدة ، خلاصها وهو الذى صالحها مع الله (راجع IRENEE ADV. HAER. 3. 18, 1, 5, 14, 2.)

مما سبق يتضح جليا أن أعمال المسيح الفدائية قد احتلت المكانة الأولى فى تعاليم القديس السميرنى . ولكن هذا لا يعنى أنه لم يتكلم عن شخصية المسيح وجوهره . صحيح أن قديسنا إهتم كثيرا بشرح أعمال المسيح ولكنه لا يهمل قط التكلم عن المسيح ، عن جوهره وأبديته ومساواته للآب ، إذ أنه من جوهر الآب ، ثم عن ناسوته ، وأنه إنسان كامل .

وبخصوص عقيدته فى علاقة الآب بالابن أو عملية الانبثاق — أى

(1) انظر إيريناوس Adv. Haer. 3, 2, 6, 7, 1. 2

ولادة الآب للابن ـ فهو يعترف بأن هذا الأمر سر عظيم ولا يستطيع أن يشرحه ، ويجب قبول هذا السر بالايمان (ADV. HAER 2.28.6) ومع ذلك فقد حاول أن يشرح ما يؤمن به فيقول : « إن الله كائن وهو الذى ظهر عن طريق الابن الذى هو فى الآب والذى فيه الآب » (ADV. HAER 2, 6, 3) • إن هذه الجملة تعبر عن تمسك أسقف ليون بوحدة الآب بالابن وهى وحدة ليست أدبية بل جوهرية ، فإن اللوغوس كان فى الله والله كان فيه • « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) •

وهذه الوحدة الموجودة بين الآب والابن هى وحدة أبدية ، أو بمعنى آخر إن وجود الابن موازى فى الزمن لوجود الآب ، فالمسيح أزلى الوجود (ADV. HAER. 4, 20) • وهنا يختلف إيريناوس عن بعض المعلمين فى الشرق الذين علموا بأن وجود الابن لم يكن أبدياً• ولقد كانت له الشجاعة أن يعلن هذه الحقيقة التى لم يستطع أن يعلنها القديس يوستينوس ، إذ أننا نجد نوعا من التذبذب فى شرحه لأبدية الابن • فمع أنه يتكلم عنه كالعامل مع الله فى الخليقة والذى وجد قبل الخليقة ، إلا أنه لا يقول صراحة بوجود الابن الأبدى أو بالوجود الموازى لوجود الآب • أما إيريناوس فقد علم بوضوح لا يعتوره الشك ، بأبدية الابن ووحدته مع الآب •

وبما أن معظم كتاباته كانت تهدف لمحاربة الغنوسية وتفنيد عقيدتهم ، فإنه لم يهمل أن يتكلم عن جسد يسوع • فإن اتحاد المسيح بالجسد هو أولا وقبل كل شيء اتحاد حقيقى وفعلى ، وليس كما يقول الغنوسيون أن المسيح كان خيالا • فعندما يقارن إيريناوس آدم الأول بآدم الأخير • يقول « إن المسيح آدم الأخير كان لحما ودما من دمنا ، كان إنسانا بكل ما تحمله الكلمة من معنى (ADV. HAER. 5, 14, 2)

فعندما تجسد ابن الله صار فعلا إنسانا . كان يتألم ويفرح ويعطش ويشرب ويجوع ويأكل ... وليس كما يظن بعض الغنوسيين بأن لا الآلام ولا الجوع ولا العطش ولا أية قوة أخرى طبيعية لها سلطان على المسيح ، لأنه كان مجردا من الطبيعة البشرية الخاضعة لقوى الطبيعة وتأثيرها . بل على العكس ، فالمسيح « اللوجوس » صار مثلنا لكى يصيرنا مثله (IRENEE ADV. HEAR. 19, 3) ولكن فى صيرورته مثلنا لم يفقد لاهوته بل ظل هو هو نفس المسيح الواحد » . إن هذه العبارة الأخيرة ستصير عبارة مشهورة ومعروفة فى مجمع خلقدونية إذ أنها ستسجل فى قرارات هذا المجمع حوالى سبع مرات (١) . يلوم البعض القديس إيريناوس لأنه تكلم كثيرا عن الجسد واللوجوس فى المسيح كما لو كان لا يوجد أى شيء آخر غيرهما(٢) . ومما لا شك فيه أنه شدد كثيرا على وجود اللوجوس والجسد فى المسيح ، وذلك لأنه كان مضطرا فى دفاعه ضد الغنوسيين إلى أن يشدد مرارا وتكرارا على هذه الحقيقة . ولكن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال بأن معلم ليون ينكر وجود روح المسيح . فهو يذكر بطريقة واضحة أن للمسيح روحا بشرية كأرواحنا (راجع إيريناوس (ADV. HAER 3, 22, 1 .) .

إن القديس إيريناوس رفض كل عقيدة تؤدى الى الفصل أو التقسيم فى الله أو اللوغوس . فهو يرى الوحدة الكاملة والجوهرية بين الله الآب والله الابن ، بين اللوجوس وبين الجسد . ومع ذلك فإنه اضطر مرارا كثيرة إلى أن ينسب ما هو للجسد وما هو للطبيعة الالهية للطبيعة الالهية . وذلك لأن الكتاب المقدس نفسه استعمل هذا الأسلوب فى التحدث عن المسيح ، فإن الله الذى سكن فى الجسد لم يلاش ما فى الجسد الذى سكن فيه من صفات مختصة به . كذلك الجسد الذى كان الله فيه ساكنا

(١) A. Grillmeier p. 146
(٢) A. Grillmeier p. 148

لم يلاش هذا اللاهوت • فهناك أفعال وتصرفات فى شخص المسيح لا يمكن أن ننسبها للجسد ، كما توجد صفات وأعمال فى المسيح لا يمكن نسبتها لله (راجع إيريناوس .ADV. HAER. 3, 9, 3, 12 ; 5, 17, 3, 21) •

فمع أن إيريناوس لم يكن لاهوتيا خلاقا أو مجددا لأفكار جديدة ، إلا أنه كان الرجـل الذى اسـتطاع أن يتمسـك بالايمـان الصـحيح الذى استلمه من الرسل • ولقد حاول فى كتاباته وفى حياته الرعـوية أن ينادى بهذا الحق الثمين وهو أن يسوع المسيح آدم الأخير قد جاء لكى ينقذ ويخلص ما قد هلك • لقد جاء المسيح فى جسـد الخطية لكى يهزم الخطية فى الجسـد ويحرر الانسان تحـريرا كامـلا من الخطية وعبوديتها • انه جاء لخلاص البشرية كلها •

بعض المراجع لدراسة حياة وتعاليم القديس ايريناوس :

1. W. Volker. THLZ 72, 1947 (170 - 173).
2. A. Benoit St. Irénée. Paris 1960.
3. A. Houssiau La Christologie de Saint Irénée. Louvain, 1955.
4. E.C. Blackman. Marcoln and his influence. London 1949.
5. J. Daniélou, Saint Irénée et Les Origines de la Theolgie de L'histoire.
6. D'nuger, Christ's Role in the Universe according to S. Irenaeus. Franciscan Studies 26 (1945) 3 - 10. 114 - 137.
7. F. R. M. Hitchcock, Irenaeus of Lugdunum. A Study of His Teaching. Cambridge, 1914.
8. A. d'Ales, La Doctrine de la recapitulation en St. Irénée. R. SR6 (1916) 185 - 211.
9. L. Cristiani St. Irénée, évêque de Lyon, Paris 1927.
10. A. Verriéle. Le plan du salut d'apres St. Irénée. RSR. 14 (1934) 493 - 524.
11. Eugene de Faye. Gnostiques et Gnosticisme. Etude Critiques de documents du gnosticisme Chretian aux 11 et 111 siecle. Bible ecole Hautes etudes Paris 2e Paris.
12. Irénée. Adversus. Haereses.

راجع ما كتبه القديس ايريناوس نفسه

الفصل السادس

يوستينوس الشهيد

(SAINT JUSTIN LE MARTYR)

سنبدأ فى هذا الفصل سلسلة جديدة من سحابة الشهود الذين كرسوا حياتهم وعلمهم ومعرفتهم لذاك الذى قدم حياته بسخاء من أجلنا . إن هذه السلسلة من سحابة الشهود الذين سندرس حياتهم ومفهومهم لشخص المسيح يسوع ، لم يتمتعوا بمقابلة الرسل والتتلمذ عند أقدامهم كما كان الحال مع القديس أغناطيوس ، وأكليمندس الرومانى ، وبوليكاربوس وبابياس الهيرابولسى . ولكن هؤلاء الأشخاص قد تقابلوا مع السيد بطرق مختلفة متنوعة ؛ فغير حياتهم ، وعندئذ كرسوها له .

ومن بين هؤلاء الأشخاص الذين يجب على كل دارس لعلم العقائد المسيحية أن يدرس حياتهم وأفكارهم اللاهوتية ، نذكر القديس الشهيد يوستينوس .

القديس الشهيد يوستينوس SAINT JUSTIN LE MARTYR

إن يوستينوس يعتبر من الرجال العظام الذين استخدموا أقلامهم السيالة ومعرفتهم الواسعة الفياضة فى الدفاع عن المسيحية التى

اضطهدها كثيرون من الرومان ونبذها كثيرون من اليهود .

ولد يوستينوس حوالى سنة ١٠٠ أو سنة ١٠٥ فى نابلس وهى سكيم القديمة فى فلسطين ، من أبوين وثنيين من أصل يونانى . فلقد تربى وشب فى الديانة الوثنية،على أن يوستينوس كان منذ صباه شغوفا بالقراءة والاطلاع ، مولعا بالبحث وطلب المعرفة أينما وجدت . ولذلك فقد بحث عن هذه المعرفة عند الرواقيين كما يقول لنا هو نفسه بأنه التحق بمدرسة رواقية (١) : ثم درس فلسفة الأكاديميين والفيثاغوريين، ولكن كل هذه الدراسات العلمية والفلسفية لم تستطع أن تروى نفسه المتعطشة وقلبه الملتهب ، كما أنها لم تستطع أن تقنع بأى حال من الأحوال عقله الذى كان يفكر ويبحث . فإن الرواقية لم تستطع أن تشرح له بطريقة مقنعة « ذات الله » كذلك الأفلاطونية التى كان يتمسك بها ، لم تستطع هى أيضا أن تجيب على كل استفهاماته العديدة . وهكذا كان يوستينوس يسبح فى بحر من الفلسفة والعلم والآراء المتناقضة المختلفة دون الوصول إلى المعرفة الحقيقية .

وفى يوم من الأيام بينما كان يروح عن نفسه متنزها على شاطىء البحر،تقابل مع رجل شيخ، شرح له أن الفلسفة الأفلاطونية لا يمكنها أن تشبع قلب الانسان ولا أن تروى نفسه المتعطشة ، وأشار عليه بأن يدرس كتابات الأنبياء فهى وحدها التى تعلن لنا الحقيقة . ويقول يوستينوس إن الرجل قال له أشياء كثيرة أخرى ، وبعد ذلك تركه وانطلق ولم يره من بعد ذلك ، ويواصل روايته قائلا : ولكن بعد رحيله شعرت فجأة بنار تلتهم روحى ورغبة لا تقاوم لدراسة الأنبياء وحياة أصدقاء المسيح ، وفى دراستى لهذه الكتب وجدت أنها هى الفلسفة الحقيقية والصحيحة ، وتمنيت من كل قلبى أن الجميع يعرفون ما

(١) انظر يوستينوس Dialog... 2 - 8.

عرفت(١) • ولقد قبل يوستينوس المسيح مخلصا وفاديا لحياته وطلب العماد فى حوالى الثلاثين من عمره •• وإن كان البحث والقراءة ومقابلة هذا الشيخ قد لعبت دورا هاما جدا فى تغيير الشاب الوثنى ، فإنه يعترف أن شجاعة المسيحيين واقدامهم على الموت بلا تردد ، كانا سببا من الأسباب الهامة التى دفعته إلى التفكير والتأمل فى حياة هؤلاء ثم قبوله للمسيح(٢) •

بعد أن حصل يوستينوس على التجديد الذى يحتمل أنه قد حدث فى مدينة أفسس ، كرس حياته للدفاع عن المسيحية ، الا أنه لم يترك الثوب الذى كان يرتديه عادة فلاسفة اليونان • وبدأ يطوف البلاد كمعلم متجول إلى أن وصل إلى روما حيث فتح هناك مدرسة فى عهد انطونيوس التقى (ANTONIN LE PIEUX) (١٣٨ — ١٦١)•وكان من بين تلاميذه تاتيانوس (TATIEN) الذى سيصير فيما بعد من المدافعين عن المسيحية •

ويحتفظ التاريخ لنا بقصة محاكمة القديس يوستينوس مع ستة أشخاص آخرين ، ونستشهد هذه القصة بما سجلته المحكمة التى قامت بالنظر فى هذه القضية • فالقضية تعرفنا بأن يوستينوس قد زج به فى السجن مع ستة آخرين من المسيحيين بأمر حاكم روما « جانيوس راستيكوس » (Q JUNIUS RUSTICUS) فى عهد الامبراطور مرقس أوريليوس (MARC AURELE) الفيلسوف الرواقى • وهذا هو نص الحكم الذى نطق به الحاكم : « إن القانون ينص على أن كل من لا يقدم ذبائح للآلهة ، وأن كل من لا يخضع لأوامر الامبراطور ، يضرب بالعصى وتقطع رأسه » • وبناء على ذلك فقد تم حكم الاعدام فى يوستينوس ورفقائه

(١) انظر يوستينوس Dialog. 8.
(٢) انظر يوستينوس Dialog. 2, 12, 13.

الستة في سنة ١٦٥ في روما .

كتاباتـــه :

إن أوسابيوس (EUSEBE) المؤرخ الكنسى المعروف يقول إن يوستينوس قد ترك عدة مؤلفات فى غاية الأهمية (١) ، ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه المؤلفات الكثيرة إلا ثلاثة كتب كتبت فى مجلد واحد وهى :

(١) دفاعان عن المسيحية ضد الوثنيين .

(٢) حواره مع تريفون (TRYPHON) اليهودى .

١ ـــ الدفاع الأول : ولقد وجه القديس يوستينوس دفاعه الأول عن المسيحية إلى الامبراطور انطونينوس بيوس فيما بين سنتى ١٤٩، ١٦٠. ففى المقدمة لهذا الدفاع (الفصل ١ ـــ ٣) يلتمس يوستينوس أن يحكم الامبراطور بنفسه فى قضايا المسيحيين ، لأن الذين يقومون بالنظر فى قضاياهم فى المحاكم ، لا يراعون العدل فى الحكم ، وفى الجزء الثانى من الدفاع (الفصل ٤ ـــ ١٢) يلوم موقف الحكومة الرسمى ازاء المسيحيين، ثم يشرح أن كلمة مسيحى تشبه تماما كلمة فيلسوف ، فهى لا تحمـــل فى طياتها إدانة أو براءة ، فلا يجب إذن عقاب المسيحى لأنه مسيحى . فإن كانوا قد رفضوا السجود أو عبادة الآلهة الأخرى ، فذلك لأنهـــم

---

(١) Eusêbe. Hist. Eccl. 4 : 18.

(٢) راجع بخصوص هذا الموضوع (دفاعه ٢ : ٤) ثم الكتب المذكورة أدناه:
Apol. 2 : 4.
W. F. Blunt. The Apologies of Justin Martyn.
B. L. Gildersleeve, Apologies of Justin. Hartyn.
Pautigny les Apologies.

يخشون إلههم • كما أن عقيدتهم وإيمانهم يدفعانهم الى عمل الخير ، ولذلك فهم أفضل العناصر كمواطنين صالحين • والجزء الثالث (من الفصل ١٣ — ١٧) يحتوى على دفاع عظيم عن المسيحية ، فيه يسرد بطريقة مطولة العقيدة المسيحية والعبادة والأساس التاريخى لها •

(٢) الدفاع الثانى : ويبدأ شهيدنا هذا الجزء بحادثة حدثت فى روما ، وهى أن حاكم روما أوربيكوس قد أمر بقطع رؤوس ثلاثة من المسيحيين ، والجريمة التى دفعت الحاكم لاصدار هذا الحكم على المسيحيين الثلاثة هى أنهم مسيحيون • ويطلب يوستينوس من الرأى العام الرومانى بأن يكون حكما فى هذا الأمر ثم يحتج بشدة ضد تعسف الحكام وموقفهم من المسيحيين •

(٣) المكتوب الثالث : هو الحوار الذى دار بينه وبين تريفون اليهودى وهو أقدم وثيقة حوار بين المسيحيين فى تلك الفترة ، وللاسف لا نملك كل مادار فى هذا الحوار•ويحتمل أن الحوار دار بين يوستينوس وتريفون فى أفسس فى يومين متتاليين (أنظر أسابيوس : تاريخ الكنيسة ٤ : ١٨ ، ٦) • ويبدأ الشهيد فى هذا الحوار بمقدمة (الفصل ٢ — ٨) يشرح فيها بالتفصيل الدراسات التى درسها ثم اهتدائه للمسيحية • وفى الفصول من ٩ إلى ٤٧ يقدم عقيدة المسيحى فى العهد القديم موضحا أن المسيحية هى الناموس الجديد والأزلى للبشرية جميعا والجزء الثانى من ٤٨ إلى ١٠٨ يحتوى على بعض البراهين التى حاول بها القديس تبرير عبادة المسيح كإله • والجزء الثالث من ١٠٩ — ١٤٢ يعرفنا فيه بأن كل الأمم التى تقبل المسيح وتؤمن به وتتبع ناموسه تحتل مكان إسرائيل فهى إسرائيل الجديد •

ولا يمكننا الجزم بأن هذا النص المسجل فى الحوار بين يوستينوس

وتريفون قد سجل جملة جملة ، ولكن هذا لا يعنى أن هذا الحوار لم يحدث، بل قد حدث فعلا ، وقد تكلم عنه أسابيوس فى كتاباته كما سبقت الاشارة إلى ذلك •

ولقد كتب يوستينوس بعض المؤلفات الأخرى الكثيرة ولم يتبق لنا منها إلا بعض العناوين التى ذكرها الكتاب اللاحقون فى كتاباتهم ، مثل كتاباته ضد ماركيون التى ذكرها إيريناوس (أسابيوس تاريخ الكنيسة ٤ ، ٨ ، ١١) ، ثم خطابه ضد اليونان (أسابيوس ٥ ، ٤ ، ١٨ ، ٣ ، ٤) ، وتعاليمه عن الروح (أسابيوس ٤ ، ١٨ ، ٤) •

من هـذا الحوار ومن كتاباته الدفاعية يمكننا أن نصل إلى النقطة المهمة والأساسية فى بحثنا : ما هى عقيدة يوستينوس فى شخص المسيح ؟

ما هى تعاليم يوستينوس المختصــة بالمسيــح ، ما هو مفهومــه (الكرستولوجى) ؟

لقد تكلم القديس فى كتاباته عن الله ، ثم عمـل مقارنة بين مـريم وحواء ، وكتب أيضا عن الملائكة والشياطين وعن الخطية الأصلية وعن العماد والعشـاء الربانى وعن مواضيع أخرى • ولكن الذى يهمنا هنـا هو مفهومه لشخص المسيح يسوع •

اللوجوس (اللوغوس) :

إن اللوجوس فى عرف القديس يوستينوس هو القنطرة التى ألقيت على الهاوية الفاصلة بين الله والانسان ، فدور هذه القنطرة أو اللوجوس هو الوساطة بين الله والانسان •

فالله لا يتصل بالعالم إلا عن طريق اللوغوس ، فهو الوسيط الذى

عن طريقه يعلن الله ذاته ثم يقود النفوس إلى الرب •

ولقد حاول يوستينوس أن يشرح أصل اللوجوس ، فهو يعتقد بأنه كان ساكنا فى الله كقوة ، وهذه القوة انبثقت أو خرجت من الله قبل الخليقة • ولقد قام (اللوجوس) بعملية الخلق • ولكى يوضح عملية انبثاق اللوجوس من الآب استعمل بعض التشبيهات والصور •

إن انبثاق الابن من الآب لا يعنى أن اللوجوس جرد الآب من لاهوته ، أو نزعه عنه ، فإن الانسان يفكر فى الكلمة التى ينطق بها قبل أن يخرج لفظ الكلمة من المتكلم • فالكلمة الملفوظة لا تجرد الانسان الذى نطق بها من جوهره كانسان أو تقلل أو تنقص كيانه ووجوده الجسمانى • إن انبثاق الابن من الآب يشبه أيضا توليد النار من النار وهذه العملية لا تنقص من كمية أو قوة النار الوالدة ولا تجردها من قوتها وكيانها (راجع حواره ٦١ ، ٢ ، ١٢٨ ، ٤) •

وعندما يقوم الانسان بعمل ما فلا ينقص هذا من تكوينه أو جوهره (بهذه الصور : لفظ الكلمة من لافظها ، توليد النار من نار ، القيام بعمل) • عبر يوستينوس عن انبثاق الابن من الآب بأنه انبثاق داخلى فى الله ذاته • ويتفق أيضا وقول الرسول يوحنا : « كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان » (يو ١ : ٣) فإن اللوجوس الذى انبثق من الآب قبل خلق العالم هو نفسه الذى خلق العالم (راجع الدفاع الثانى ١ : ٢ ، حوار ٦١ : ١) ، والذى كان أيضا مع الله قبل أن يخلق هذا العالم ، ولقد لفظه ــ أخرجه ــ الله من ذاته خارجا عنه لكى يقوم بعملية الخليقة والعناية (حوار ٦٢ : ٤) ففى عرف قديسنا أن اللوجوس الابن هو العامل فى الخلق • ولكى يؤيد فكرته هذه يقتبس (١ كو ٨ : ٦ ، كولوسى ١ : ٦ أم ٨ : ٢) (انظر الدفاع الثانى ١ : ٢، حوار ٦١ : ٣ ــ ٥ ، ٦٢ : ٤ ، ١٢٩ : ٣) • ثم يشير يوستينوس إلى

استعمال الجمع فى (تك ١ : ٢٦ ، ٣ : ٢٢) « نعمل الانسان على صورتنا وكشبهنا » فالله يشرك اللوجوس فى عملية الخليقة .

ومع أن الشهيد يعتقد بأن اللوجوس انبثق من الله ، ولكنه يؤمن أنه يتمتع بوجوده الذاتى والمتميز بالطبيعة عن الله السامى . ويعتقد البعض بأن يوستينوس كان يحارب بطريقة خفيفة لكن بثبات ووضوح ، بعض المسيحيين الذين كانوا يتمسكون بفكرة أغناطيوس التى ترفض فصل أى شىء عن لاهوت الآب . فهم يقولون إن قوة الله اللوجوس لا يمكن أن تقطع ولا تفصل عن الآب ، فإنه لا يمكن قطع أو فصل نور الشمس على الأرض من الشمس التى فى السماء . ففى استطاعة الله أن يبثق قوته عندما يريد وأن يحضرها مرة ثانية فيه عندما يشاء ذلك ، ويجيب يوستينوس قائلا بأن اللوجوس متميز عن الآب ليس فقط فى الاسم بل فى العدد أيضا (حوار ١٢٨ : ٣ ، ٤) . ولقد ظن بعض اللاهوتيين أن يوستينوس قد أضعف أبدية اللوغوس بحواره (رقم ٦٢ : ٤) .

وعندما تعرض القديس يوستينوس لشرح علاقة الآب بالابن لم يستطع أن يتجنب السقوط فى مشكلة التابعية أو الخضوع (SUBORDINATIANISME) أى تابعية الابن للآب أو خضوع الابن للآب لأن الآب أعظم وأسمى منه ، فقد كتب يقول : « إن اللوغوس أصبح ابنا إلهيا ، ولكنه خاضع للآب (حوار ٦١) . وستكون لنا الفرصة للتكلم عن هذه العقيدة عندما نتعرض لشرح أفكار أريجانوس اللاهوتية فى هذا الموضوع .

من أهم المواضيع اللاهوتية التى عالجها يوستينوس موضوع اللوغوس . وفى شرحه لهذه العقيدة يرى بعض الروابط التى تربط

المسيحية بالوثنية • فلقد علم بأن اللوغوس لم يظهر بطريقة واضحة وشفافة إلا فى المسيح وحده ، ومع ذلك فإن بذوره (اللوجوس) قد انتشرت فى البشرية جميعها • ولقد وجدت هذه البذور ، بذور اللوجوس فى كل كائن بشرى •

وبناء على ذلك فإن اللوجوس قد أرشد وقاد ليس فقط أنبياء العهد القديم بل حتى فلاسفة الوثنيين • فكل الذين سلكوا بحسب ارشاد اللوغوس الالهى الذى كان يعمل فيهم،هم فى الحقيقة مسيحيون، فهل يمكننا أن نعتبر المفكرين الذين سلكوا بارشاد هذا اللوجوس أمثال هيراقيلطوس والفيلسوف الرواقى ميزونيوس (دفاعه ١ : ٤٦) ملحدين ؟ فإن كل المبادىء الحسنة والقوانين العادلة التى علم بها وسنها الفلاسفة ؛ كان المصدر والمرشد إليهما هو اللوجوس • ومما لا شك فيه أن هذه التعاليم وهذه المبادىء التى أوحيت إلى هؤلاء الفلاسفة ناقصة وغير كاملة ، لأن معرفتهم عن اللوجوس كانت جزئية وناقصة وغير كاملة • والمسيحى وحده هو الذى يملك هذه المعرفة الكاملة التى تأتى بطريقة مباشرة من اللوجوس الذى أظهر نفسه لهم (دفاعه ٢ : ١٣ ، ٢ : ١٠ ، دفاعه ١ : ٤٤) فلا معرفة كاملة إذن ولا ادراك تام للمبادىء السامية إلا فى المسيح،ويلخص أدولف هرنك عقيدة يوستينوس الكرستولوجية فى هذا القول : إن المسيح هو اللوجوس والناموس (١) •

ومع أن يوستينوس يعتبر من لاهوتى القرن الثانى العظام ، ومن الرجال الأتقياء المتعمقين فى الدرس والبحث والمعرفة ، ومن الذين أيضا بدرسهم وتعمقهم استطاعوا أن يدافعوا بكتاباتهم وعظاتهم وحياتهم عن الحق الإلهى ، إلا أن البعض من تعاليمه قد تعرضت للنقد لأنه بالرغم

(١) ص ١٣١ A. Grillmeier

من دراساته العميقة ومعرفته الواسعة للكتاب المقدس ، فإن التعاليم الأفلاطونية تركت تأثيرا عميقا عليه لم يكن من السهل محوه • بل إن الدارس المدقق لكتاباته الدفاعية والحوار يشتم فى بعض الأحيان رائحة وثنية فى تعليمه عن اللوجوس وطريقة الانبثاق ، فإن خروج اللوجوس من الآب يشبه إلى حد ما خروج اللوجوس (بعض الأرواح) من الإله العظيم فى المفهوم الوثنى الغنوسى ، كما أن يوستينوس يعتقد بأن الابن أدنى من الآب ، وأن الروح القدس أقل من الابن ، فقد كتب يقول : « إن الله اللوجوس هو إله وسيد أقل من الله الخالق للكون ، وعندما يتكلم عن الثالوث يضع الله السامى فى المرتبة الأولى والمسيح فى المرتبة الثانية والروح القدس فى المرتبة الثالثة (دفاع ١ : ١٣ ، ٣ : ٤) •

مما لا شك فيه أن الدراسات الفلسفية الكثيرة التى درسها القديس يوستينوس قبل تجديده ، تركت فى تعاليمه بعض الآثار الوثنية ، على أن هذا لا يقلل من عظمة الرجل الذى عاش ومات لأجل المسيح •

الفصــل السابع

تاتيانوس ، TATIEN

قبل أن نختم هذه الحقبة فى تاريخ العقائد المسيحية ونبدأ حقبة أخرى ، يحسن بنا أن نذكر بعض الأسمـاء التى لعب أصحابها دورا هاما فى تاريخ العقيدة المسيحية والدفاع عنها . فلقد سبق أن رأينـا تاريخ حياة وتعاليم كل من أغناطيـوس الأنطاكى وأكليمندس الرومانى وبوليكاربوس وإيريناوس ثم يوستينوس ، وكيف قبل هؤلاء المسيح كمخلص وسيد لحياتهم . ثم عرفنا أيضا أفكارهم وتعاليمهم بخصوص المسيح . ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء للتذكـير فقط ودون الدخول فى التفصيلات الدقيقة الخاصة بتاريخ حياتهم وعقائدهم كل من تاتيانوس السورى وثيوفيلوس الأنطاكى وميليتون الساردسى ، إذ أن هـؤلاء المعلمين وآخرين أيضا قد عاشوا وعلموا فى القرن الثانى .

١ ــ تاتيانوس السورى (TATIEN. LE SYRIEN) :

ولد تاتيانوس فى سنة ١١٠ فى سوريا من عائلة وثنية ، ولقد كان شغوفا بالعلم جادا فى البحث عنـه . ولهـذا الغرض فقـد ترك بدوره سوريا واتجه إلى بلاد اليونان لكى يدرس أفكارهم وفلسفتهم ، وبعد أن أقـام فى اليونان فترة من الزمن ، إنطلق إلى روما لـكى يستقى من

علمهم ويروى نفسه المتعطشة من فلسفتهم وديانتهم . ولكنه بعد أن درس هذه الديانات والفلسفات خاب ظنه ولم يستطع أن يحصل على السلام الذى كان ينشده ويبحث عنه لكى يروى به نفسه . وفى روما تقابل مع القديس يوستينوس فتتلمذ على يديه ، ولقد وصل النور إلى تاتيانوس عن طريق الدراسة والبحث العميق والصلاة ، وكان فى فترة البحث والدراسة يتردد على المدرسة التى كان يدرس فيها القديس يوستينوس .

وبالرغم من أن تاتيانوس هو تلميذ القديس يوستينوس ويحتمل كثيرا أنه قد تجدد على يديه ، إلا أننا نجد فرقا كبيرا بين الاثنين ، ليس فقط فى التعليم والعقيدة بل فى الذوق وفى المبادىء . إن يوستينوس كان يبحث دائما عن الحقيقة ليس فقط فى الكتب المقدسة بل أيضا فى كتابات المفكرين الآخرين . أما تلميذه السورى فقد ضرب عرض الحائط بكل العلوم والفلسفات الأخرى غير المسيحية ، فإنه يرفض رفضا باتاً كل الفلسفات اليونانية . لقد أظهر يوستينوس فى دفاعه عن المسيحية احتراما عظيما وتقديرا كبيرا للفلسفات غير المسيحية ، بينما كان تاتيانوس ضد كل ما يمت بصلة للحضارة اليونانية وفنها وعلمها واللغة نفسها .

ولقد أسس تاتيانوس مذهب جماعة الممتنعين ، فلقد امتنعوا عن الزواج لاعتباره زنى فى نظرهم ، وامتنعوا عن أكل اللحوم بأى شكل كان ، وامتنعوا عن شرب الخمر حتى فى العشاء الربانى ولذلك استعملوا الماء بدلا من النبيذ للافخارستيا . (١)

---

(١) لمعرفة كيف كان تاتيانوس يبحث عن الحق فى الديانات الأخرى ولم يجده راجع كتاب د. أسد رستم ص ٧٢ الجزء الأول ،
I. Quaston p. 249 - 250

كتاباته :

لم يبق لنا من كتاباته إلا كتابان :

الكتاب الأول :

يدعى « محاضرة لليونان » (LES DISCOURS AUX GRECS) ولا نعلم بالضبط تاريخ كتابة هذا الكتاب ، ويحتمل أنه كتب خارج روما بعد موت يوستينوس أكتبه قبل تجديده أو بعده ، لا نعلم ؟ لقد ظن بعض العلماء بأن هذا الكتاب لا يهدف إلى الدفاع عن المسيحية ولا إلى تبرير موقف الكاتب لتجديده ، بل إنه يحث فيه الجماهير على الالتحاق بمدرسته • وفيه يعطى صورة سوداء للفلسفة والدين وتصرفات اليونان وسلوكهم التى يعتبرها الكاتب بلا معنى وغير أخلاقية وبلاقيمة•

والكتاب يحتوى على أربعة أجزاء يحتوى كل جزء على عدة فصول• ويتكلم عن الكون فى المفهوم المسيحى ، عن اللوجوس وعلاقته بالآب ، خلق الانسان والقيامة والدينونة الأخيرة ، خلق الملائكة ، ثم يتكلم عن الحرية وسقوط الملائكة ، خطية آدم وحواء ، الملائكة الأشرار والشياطين(١) •

الكتاب الثانى :

يدعى الدياطسرون (LE DIATESSARON) ويمكن أن نسميه « ما تحتويه الأربعة » • أما بقية ما كتبه تاتيانوس فقد ضاع • ولقد ذكر الكاتب فى دفاعه ثلاثة كتب من هذه الكتب الضائعة ، كما أن بعض الكتاب ذكروا بعضا من فصول كتب أخرى قد ضاعت أيضا •

إن تاتيانوس قد استعار بعض الأفكار التى علم بها معلمه

(١) Quasten p. 51 - 53, 54.

يوستينوس مثل اللوجوس الذى يشبـه الكلمـة التى تشرح الفكرة ، والنار الخارجة من نار ، اللوجوس هو العامل فى الخليقـة ، أى الذى خلق به العالم . ولكن بالرغم من أن اللاهوتى السورى قـد استعمـل بعض العبارات التى استعملها اللاهوتى الفلسطينى ، إلا أن تاتيانوس قد شط فى تعليمه إلى أبعد من معلمـه ، فقد آمن مثل يوستينوس بأن اللوجوس كان عاملا فى الخليقة ، « فهو العمل الأول للآب » أو العمل البكر للآب . إن هذه الجملة غامضة وتهدف فى معناها إلى أن اللوجوس ولد قبل الأزمنـة وليس قبل كل الأزمنـة ، وهـذا يعنى أنه أول كل المخلوقات : وفى هـذا الفصل يعطى تاتيانوس تاريـخ اللوجوس فى مرحلتين :

فى المرحلة الأولى كان اللوجوس مختفيا فى الله ، فقبل الخليقة كان لا يمكن تمييزه عن الله.

وفى المرحلة الثانية يبدأ بالخليقة عندما يخرج اللوجوس عاملا ، وبعبوره فى هذه المرحلة يصبح الخارج من الآب ، وهنا يبدأ عملـه فى تنظيم المادة المختلطة فى العالم .

لقد سبق أن أشرنا إلى عدم وضوح يوستينوس بخصوص عقيدته فى أزلية اللوغوس ، فلم يتكلم بوضوح عن أزليته ، بل ترك هذا الأمر غامضا ، أما تاتيانوس فمع أنه يتكلم عن هذا الموضوع بكلمات غامضة وغير واضحة مائة فى المائة ، إلا أنه يستشف من عباراته الغامضة بأن اللوغوس ولد قبل الأزمنة وليس قبل كل الأزمنة . أو بعبارة أخـرى يمكننا أن نفسر فكر تاتيانوس بأن اللوجوس كان غير موجود فى زمن ما، فى زمن بعيد جدا فى الأزل .

وهنا نلاحظ ظهور التربة التى ستنمو فيهـا ، فيما بعد ، أنـواع كثيرة من الهرطقات المختصة بشخص المسيح وعدم أزليته .

بعض المراجع للدراسة :

1. A Puech, Recherches sur le Discours aux Grecs de tatien, Paris 1903. 107 - 158.

2. J. Le Blanc, Le logos de tatien, Athenagose et Theophile : Annales de Philosophie Chretienne 149 (1905) 634 - 639.

3. R. M. Grant, Patristica. Vc3 (1949) 225 - 229, idem, the Date of Tatian's Oration : HTHR. 46. (1953) 99 - 101. The Heresy of Tatian JTSTN. S. 5 (1954) 62 - 68.

4. J R. Harris, The Diatessaron of Tatian. A Preliminary Study, London 1890.

5. M. Maher. Recent Evidence for the four Gospels : Being the Diatessaron of Tatian (circa 160) ... Edinburgh 1894.

انظر كتاب Quasten فهو يعطى قائمة طويلة ومفيدة بخصوص هذا الموضوع .

الفصل الثامن

أثيناغورس وثيوفيلوس

عندما نتكلم عن المدافعين (APOLOGISTES) الذين اعتنقوا المسيحية ودافعوا عنها بكتاباتهم وحياتهم فى نهاية القرن الثانى ، لا يمكن أن ننسى شخصيات أخرى كثيرة غير التى تعرفنا عليها فى الصفحات السابقة،وكيف يمكننا أن ننسى أثيناغوراس الأثينى(ATHENAGONE D'ATHENES) الذى كان معاصرا لتاتيانوس . والذى كان يعتبر من أصحاب الأقلام السيالة والأسلوب السلس الرقيق . وكان أثيناغوراس قريبا فى تفكيره وأسلوبه ومعتقداته من يوستينوس ، بعيدا فى هذه أيضا من تاتيانوس ، فهو من أبلغ المدافعين المسيحيين الأولين . كان يحب الفلسفة والشعر ، وكتاباته مليئة بالاقتباسات الشعرية والفلسفية . وكل ما نأسف له هو أننا لانعرف إلا القليل عن حياته ، ولقد كتب أثيناغوراس ما يدعى بـ « التماس لأجل المسيحيين » . (LA SUPPLIQUE AU SUGET DES CHRESTIENS) . ولقد وجه هذا الالتماس إلى الامبراطورين مرقس أوريليوس (الآب) وليسيوس أوريليوس سنة ١٧٦ (الابن) . ويحتوى هذا الكتاب على عدة أجزاء :

١ ــ المقدمة : (من الفصل ١ ــ ٣) وفيها يشرح الكاتب هدف

رسالته ، وهو أن المسيحيين يضطهدون ويعذبون بطريقة غير إنسانية وغير عادلة • ويلتمس أن تفحص قضايا المسيحيين بدقة وعدل • ويجب أن لا يكونوا فيما بعد ضحية للواشين بهم • وفى الفصل ٤ — ٣٦ حاول الكاتب ان ينفى التهم الثلاث التى أراد بها الوثنيون تشويه المسيحية ، وهى :

(١) الذندقة أو الكفر • (٢) أكل لحوم البشر •
(٣) عقدة أوديب •

وفى الفصل ٣٦ يعالج الكاتب مشكلة القيامة ، ويهمنا أن نعرف أن الكاتب يتكلم عن الانسان المكون من روح وجسد ، وموت هذين العنصرين اللذين سوف يتحدان فى القيامة •

ولقد تكلم أثيناغوراس فى كتابه عن : (١) وحدة الله (كتابه — الالتماس الفصل ٨) ، (٢) الروح القدس (التماس ١٠) ، (٣) الثالوث (الالتماس ١٠) ، (٤) الملائكة (الالتماس ١٠) ، (٥) الوحى (التماس ٧) ، (٦) العزوبية (التماس ٣٣) ، (٧) الزواج (التماس ٣٣) ، (٨) الزواج لا يمكن فصله أو ازالته حتى بالموت (التماس ٣٣) •

ما هو مفهوم اثيناغوراس الكرستولوجى ؟

إن الكاتب اليونانى يتبع إلى حد ما أفكار القديس يوستينوس فيما يختص بالدور الذى قام به اللوجوس فى الخليقة • ويقتبس كسابقيه (أم ٨ : ٢٢ — ٢٩) لكى يثبت أن اللوجوس كان يعمل هو أيضا خالقا فى أثناء الخليقة •

ويعتقد الأستاذ لودز (LODS) بأن الفصل العاشر من كتاب أثيناغوراس يحتوى على تيارين مزدوجين .

١ ــ إن استخدام الحكمة ، الابن المذكور (أمثال ٨ : ٢٢) هــو كمنجز لأعماله فى الخليقة ....

٢ ــ عندما ندرس هذا الفصل (SUP. 10) الذى يتكلــم عن الحكمة أو الابن نشعر كما لو كان أثيناغوراس يتكلم عن صفة من صفات الله الآب . فإن الله السامى كان من الأبد عاقلا ، زكيا ، قويا ... فالابن هو ذكاء الآب ، حكمة الآب (راجع SUP. 10. 12. 24) ، فقد ظهر كالطاقة العاملة أو الفــكرة الخالقــة ... ، فكأن أثيناغوراس يرى فى اللوجوس ليس شخصا بل صفة من صفات الله(١) .

أما بونيفاس فيعتقد بأن أثيناغوراس حاول بتعليمه أن يزيل الحاجز الذى أقامه أتباع يوستينوس بتعليمهم أن اللوغوس هو فكرة إلهيــة وأبدية ، الكلمة فى وقت الخليقة ولأجلها . فإن اثيناغوراس يعتقد بأن اللوغوس كان منذ الأبد فى الله ، فهو الفكرة والقول ، هو الذكاء والنشاط الحكمة الذى يفهم ، والارادة ، هو أيضا الطاقة الذى ينفذ (SUP. 10) وأن خلق العالم ما هو إلا نتيجة هذا الفكر وهذا النشاط الإلهى .ولقد ظل اللوغوس بعد الخليقة ما كان عليه قبلها ، أى أنه الفكر والنشــاط والطاقة الإلهية الذى يحكم العالم ويرشد البشر .

ولا شك أن هذه النظرية تعرض شخصية اللوغوس للاختلاط بل للتلاشى فى الله ، وهى انزلاق نحو السبلينية(٢) التى سنتكلم عنها فيما بعد .

وبما أننا نتكلم عن عقيدة بعض المدافعين وإيمانهم فى شخــص المسيح فى القرن الثانى ، فلا يمكننا أن ننسى :

---

(٢) Lods. p. 36

(١) Bonifas p. 287 - 288.

ثيوفيلوس الأنطاكي :

لا نعرف الكثير عن حياته ولا عن تجديده ، غير أن أسابيوس المؤرخ الكنسى الذى بدأ فى كتابة تاريخ الكنيسة فى بداية القرن الرابع، يعرفنا بأن ثيوفيلوس كان الأسقف السادس لكنيسة أنطاكية (EUSEBE HIST. ECCL. 4. 20) • ومن كتابات الأسقف الأنطاكى، نعرف أنه ولد بالقرب من الفرات من والدين وثنيين(١) • وكانت ثقافته ثقافة يونانية وثنية ، وبعد الدراسة الطويلة للكتب المقدسة والتأمل العميق ، تجدد • ولقد نصب أسقفا على مدينة أنطاكية فى عهد مرقس أورليوس ، أى فى النصف الأخير من القرن الثانى •

ويحتمل أن ثيوفيلوس توفى بعد سنة ١٨٠ لأنه يذكر فى كتاباته مرقس أوروليوس الذى توفى فى ١٧ مارس سنة ١٨٠ •

كتاباته :

لم تصلنا من كتابات سادس أسقف لكرسى أنطاكية إلا ثلاثة كتب هى التى تسمى « ضد أوتوليكوم » (AD AUTOLYCUM) ويحتمل أن هذه الكتب قد كتبت بعد سنة ١٨٠ • إذ أن الكتاب الثالث يحتوى على تاريخ العالم وينتهى بموت الامبراطور مرقس أورليوس الذى مات فى ١٧ مارس ١٨٠ كما سبقت الاشارة إلى ذلك •

ويدافع الأسقف عن المسيحية وعن إيمانها فى ثلاثة كتب ، كتبها ردا على اعتراضات صديقه الوثنى أوتوليكوس (AUTOLYCUS) • وفى الكتاب الأول يتكلم الكاتب عن جوهر الله الذى لا نراه إلا بعين الروح • كما أنه يتكلم فى نفس الكتاب عن الوثنية ، ثم يشرح الفرق بين الاكرام الذى نقدمه للامبراطور والعبادة التى نقدمها لله (كتابه

(١) Quasten, 267.

الأول ١ : ٢) ثم يتكلم عن القيـامة (١ : ١٤) • وفى الـكتاب الثانى يتكلم ثيوفيلوس عن تعاليم الأنبيـاء الذين تنبـأوا بوحى من الروح القدس وعن غباوة الديانة الوثنية وشعرائها • أما الكتاب الثالث فهـو يقدم لنا سمو وارتفاع الديانة المسيحيـة على الديانـات الأخرى من الناحيتين الأدبية والأخلاقية •

ولقد كتب أسقف أنطاكية كتبا أخرى ضاعت • ويذكر أسابيوس من هذه الكتب المفقودة :

كتابا ضد هرطقـة هرموجن (HERMOGENE) ، وكتابا ضـد هرطقة ماركيون (MARCION) وعدة كتب تعليمية وشرح إنجيل يوحنا والأمثال (انظر أسابيوس ٤ : ٢٤) • كل هذه المؤلفات ضاعت ولم يبق لنا منها إلا الثلاثة كتب التى أشرنا إليها •

تعاليم ثيوفيلوس الخاصة بشخص المسيح :

جدير بالذكر أن أول شخص استعمل كلمة الثالوث (TRIAS) فى تاريخ العقيدة المسيحية هو أسقف أنطاكية • ولقد استعمل هـذا الاصطلاح فى صيغة غريبة[1] هى « ثالوث الله » ، كما أنه يرى فى الأيام الثلاثة السابقة لخلق الشمس ، اشارة إلى الثالوث •

أما بخصوص تعاليمه الكرستولوجية ، فإن كاستين (QUASTEN) يعتقد بأن تيوفيلوس هو أول كاتب ومدافع من الكتاب المسيحيين ، الذى ميز بين اللوغوس فى الداخل LOGOS INTERIEUR OU JAMMENENT

(١) انظر كتاب Lods p. 36.

واللوغوس فى الخارج أو منطوقا (LOGOSEMIS OU PROFERE) (١)

وعندما نرجع إلى كتابات ثيوفيلوس فاننا نجده يحاول أن يشرح بأن اللوغوس أو الكلمة كان فى الله ، فى حضن الله ، وهذا ما يسميه ثيوفيلوس بالكلمة فى الداخل أى أن اللوغوس (الكلمة) كان فى الله ، فى داخل الله . ولكن عندما نطق الله هذا الكلمة ، هذا اللوغوس ، خارجا عنه فهو الكلمة المنطوق أو الخارج من الله (انظر كتابه ٢ : ١٠) (٢) ، وثيوفيلوس يعتقد بأن هذا اللوغوس المنطوق هو ذاك الذى كان يتحدث مع آدم فى الجنة ، وهو أيضا الذى كان يتشاور مع الله (انظر كتاب ٢ : ٢٢) .

وهنا نتساءل : ألا تحمل هذه النظرية ونظرية الكلمة فى داخل الله والكلمة منطوقا خارج الله ، خطرا يهدد أبدية اللوغوس ؟

إن ثيوفيلوس اتبع فى بقية تعاليمه نفس الخط الذى اتبعه المؤلفون الآخرون أمثال يوستينوس وأثيناغوراس ، عندما يتكلم عن طبيعة اللوغوس ، فهو يقتبس (أمثال ٨ : ٢٧ ــ ٢٩) لكى يثبت أن الحكمة أو الابن ولد للاشتراك فى عمل الخليقة .

كما يلاحظ فى تعاليم ثيوفيلوس الخاصة بالمسيح نوعا من التبعية أو الثانوية (عقيدة أن الابن أقل من الآب أو تابع له) . ومع ذلك فقد علم بأن عملية الكلمة المنطوق أو اللوجوس لم يفرغ نفسه أو يخلى نفسه من اللاهوت عندما صار كلمة منطوقا خارجا عن الله (كتاب ٢:٢٢) (٣) .

---

(١) انظر المراجع المشار اليها هنا
G. Bardy (Introd... Athénagore Sc., p. 56.
(٢) G. Bardy (Introd... Athénagore Sc., 1943, p. 52 - 6.
(٣) G. Bardy (Intred... Théophile 1948, p. 40 - 43.

الفصل التاسع

ميلتون الساردسى

وبما أننا فى مجرى الحديث عن المدافعين الذين دافعوا بأقلامهم وحياتهم عن المسيحية وعن إيمانهم بالمسيح ، فلا يمكننا أن نغفل ميلتون الساردسى (MELITON DE SARDES)

كان ميلتون أسقفا لكنيسة ساردس التى ذكرت فى سفر الرؤيا : « واكتب إلى ملاك الكنيسة التى فى ساردس..» (رؤ ٣ : ١) . ولقد كان واحدا من الأساقفة المدافعين فى القرن الثانى . وهذا واضح من الخطاب الذى كتبه أسقف أفسس بوليكارب إلى البابا فيكتور (حوالى ١٨٩ – ١٩٩) واصفا فيه نجوم آسيا اللامعة والأبطال العظام فى الايمان الذين رقدوا فى الرب منتظرين القيامة ، ومنهم ميلتون الأعزب الذى كان يحيا كليا وجزئيا فى الروح وللرب (راجع (EUSEBE HIST., ECCL. 5. 24, 5 .

خارجا عن هذه الشهادة التى سجلها لنا المؤرخ الكنسى أوسابيوس، لا نجد أية وثائق تاريخية تتحدث عن هذا الرجل وعن حياته . وإن كنا لا نعرف إلا القليل والقليل جدا عن حياته ، إلا أنه يبدو أن أسقف ساردس قد كتب كثيرا ، وللأسف الشديد ضاع معظم ما كتبه ميلتون ،

(م ٣٠ – تاريخ الفكر المسيحى)

ولكن لحسن الحظ ، قد اقتبس من كتاباته بعض الكتاب المتأخرين •

ففي سنة ١٧٠ قدم دفاعا عن المسيحيين إلى الامبراطور مرقس أوريليوس ، ولم يتبق لنا من هذا الدفاع إلا بعض الاقتباسات التي اقتبسها أوسابيوس ، والخاصة بالعلاقة التي يجب أن تكون بين الكنيسة والدولة • فهو يعتبر من أوائل المدافعين المسيحيين الذين نادوا بضرورة التعاون والترابط بين الكنيسة والامبراطورية
. (EUSEBE. HIST. ECCL. 4, 26, 7 - 8)

ولقد اكتشف بونر (C. BONNER) عظة لميلتون (١) ألقاها الواعظ بمناسبة أسبوع الآلام • والكلمات الأولى في هذه العظة ، توحي لنا بأنها ألقيت بعد قراءة فصل من العهد القديم ، فهي عبارة عن تفسير قصة خروج الاسرائيليين من مصر • ويقارن الواعظ عملية ذبح خروف الفصح الذى نحره الاسرائيليون ووضعوا دمه على بيوتهم، بموت حمل الله الذى رفع خطية العالم ، فالمسيح بموته أعطى الخلاص للمسيحيين كما أن موت خروف الفصح كان علامة على نجاة الاسرائيليين من الغضب والهلاك • ومع أن العظة مركزة على عمل المسيح الفدائي والخلاص (SOTERIOLOGIE) إلا أن الواعظ يتكلم أيضا عن الصفات الأخرى في السيد • فإن فكرة لاهوت المسيح ووجوده السابق لكل وجود تسيطر على تعاليم ميلتون ، وفي توكيده الشديد على لاهوت وأزلية المسيح ، لا ينسى ناسوته فهو يعترف بأنه ولد من عذراء وصار إنسانا حقيقيا مثل كل إنسان • والاقتباس الآتي يبين لنا مفهومه المختص

---

(١) لقد ظن بعض العلماء أن هذه العظة لا تمت بصلة الى ميلتون فان نوتن (P. Nautin) لا يتفق مع بونر (Bonner) على صحة نسب هذه العظة كما أن بترسون (E. Peterson) يرجع تاريخ تأليفها الى القرن الثالث .... وتوجد بعض الاقتباسات من هذه العظة في نسخ سريانية وقبطية ويونانية (راجع
. (Quasten p. 274, 275

بالمسيح : « لأنه ولد كابن وسلك كحمل وذبح كشاة ودفن كانسان وقام من الأموات كاله فهو إله وإنسان بالطبيعة .. فهو آب لأنه قد ولد وهو ابن لأنه مولود ، وهو كشاة لأنه ذبح أو تألم ودفن لأنه إنسان وقــام لأنه الله . هذا هو يسوع المسيح الذى له المجد فى كل العصور » . إن هذا النص يبين عقيدة ميلتون فى المسيح بأنه إله وإنسان ولكن البعض اتهم كاتب هذا النص بالمودالزم (MODALISME) (١) ، فان الكاتب يتكلم عن نفس الشخص فى هذا الفصل كما لو كان هو هو نفسه الآب والابن ، ثم الشاة التى ذبحت ... ولكن الدارس لكل العظة والاقتباسات الأخرى التى اقتبسها بعض الكتاب من النصوص التى ضاعت ، يتضح له بأن ميلتون يميز بين الآب وبين الابن(٢) . ولقــد أعطى كاتب هذه العظــة الألقاب الآتية للمسيح : الابن ، المسيح ، السيد ، الله . ثم مرة واحدة « اللوغوس » ، ثم إنسان ، الحمل ، شاة ...

ولكى يشرح إيمانه فى أزلية المسيح وفى وجوده قبل كل الأشياء ، كتب يقول : هو (المسيح) بكر الله ، ولد قبل بزوغ نجمة الصبــح ، فهو الذى أمر بأن يشرق النور وأن يطلع النهار ، وهو الذى فصــل الظلام عن النور ، وهو الذى علق الأرض واضعا أساساتها الأولى ... وهو الذى نظم العالم (٣) .

وكما سبق القول إن ميلتون يرى فى المسيح المخلص الذى يخلص شعبه من خطاياهم وينقذهم من عبودية الشيطان ويحررهم من سلطة الخطية وسلطانها ، كما فعل يهوه بشعب إسرائيل ، فقــد أنقذهم من أرض العبودية وحررهم من سلطان فرعون ، وكما أن علامة الدم على

(١) سندرس هذه المشكلة فى الفصول القادمة (الآب ظهر فى العهد القديم كآب وهو نفسه الذى ظهر فى يسوع المسيح كابن وهو الذى ظهــر كروح قدس ، لا يوجد اذن ثلاثة اقانيم بل ثلاثة طرق مختلفة للظهور .

(٢) J. Liebaert. p. 63 - 65.

(٣) Quasten 276.

بيوت الاسرائيليين كانت دليلا على نجاتهم ، فإن أرواحنا قد ختمت بعلامة الدم ، علامة لخلاصنا ، والمسيح فصحنا الجديد هو الذى قدم نفسه لكى يفدى شعبه ويخلصهم من خطاياهم(١) .

ولقد رفض ميلتون فى عظته تعاليم الغنوسيين كما رفضها الآباء المدافعون ، فهو يؤكد بأن المسيح صار فعلا إنسانا آخذا جسدا حقيقيا ، فهو يقول : « فهو (المسيح) الذى صار جسدا فى « بطن » العذراء والذى لم تكسر عظامه على الخشبة ... » (QUASTEN 276) .

ولقد أكد بشدة على ناسوت المسيح وعلى لاهوته . ومع أن كلمة ناسوت أو طبيعة فى هذه الحقبة من الزمن ، كانت لا تحمل نفس المعنى الذى سوف تحمله فى القرون الثالث والرابع والخامس ، إلا أنها ترددت كثيرا فى عظة ميلتون . ولذلك فإن هذه العظة تعتبر بالنسبة لمن يدرس تاريخ الفكر المسيحى فى غاية الأهمية ، إذ ثبتت صحة نسبها إلى ميلتون فى نهاية القرن الثانى .

كتاباته الأخرى :

بخلاف هذه العظة التى أكتشفت حديثا والتى يتكلم فيها عن المسيح وعن الخطية الأصلية ثم الروح ، والكنيسة ، والدولة ، قد كتب بعض الكتب الدفاعية التى ضاعت ، ثم كتب كتابين ١ ، ٢ — عن الفصح (كتبا حوالى سنة ١٦٦ — ١٦٧) . ٣ — كتاب عن الحياة المسيحية والأنبياء . ٤ — عن الكنيسة . ٥ — يوم الرب . ٦ — إيمان الانسان . ٧ — الخليقة . ٨ — طاعة الايمان . ٩ — الحواس . ١٠ — الروح والجسد . ١١ — كرم الضيافة .

(١) Quasten 277.

١٢ ــ المعمودية • ١٣ ــ الحقيقة • ١٤ ــ الايمان وميلاد المسيح • ١٥ ــ النبوة • ١٦ ــ المفتاح • ١٧ ــ الشيطان • ١٨ ــ رؤية القديس يوحنا • ١٩ ــ الله المتجسد ٢٠ ــ تجسد المسيح • ٢١ــ ستة كتب عن الناموس والأنبياء • ولقد احتفظ أسابيوس بمقدمة هذا المجلد (EUSEBE HIST. ECCL. 4, 26, 13 - 14) .

بعض المراجع التى تساعد الدارس على دراسة افكار ميلتــون العقائدية .

(١) انظر كتاب Quasten فهو يعطى قائمة ببعض المراجع المهمة .

2. C. Bonner, The Homily on the Passion, by Melito Bishop of Sardes, London, Philadelphia 1940.

3. M. Testuz. Melton de Sardes. Homelie sur La Pane.

4. H. Chadwick, A Latine Epitome of Melito's Homily on the Pascha JTHS NS2 (1960) 76 - 82.

5. P. Nautin. Le Dossier d'Hippolyte et de Meliton dans les florileges dogmatique et les historiens modernes : Patristica 1 Paris 1953, 53 - 56.

(٦) انظر كتاب Grillmeier يعطى ايضا بعض المراجع الهــامة عن ميلتون من ص ١٣٦ — ١٤٠ .

الجزء الرابع

آباء الكنيسة
والهراطقة في القرن الثالث

الفصل الأول : الغنوسية والماركيونية
الفصل الثاني : البنويون
الفصل الثالث : اكليمندس الاسكندرى
الفصل الرابع ترتليانوس
الفصل الخامس : كبريانوس
الفصل السادس أوريجانوس
الفصل السابع : هيبوليتوس
الفصل الثامن : نوفاتيانوس
الفصل التاسع : ديونيسيوس الاسكندرى
الفصل العاشر : الانتحالية
الفصل الحادى عشر : بولس السميساطى
الفصل الثانى عشر : لوقيانوس
الفصل الثالث عشر : آريوس
الفصل الرابع عشر : القديس اثناسيوس
الفصل الخامس عشر : الأسقف أبوليناريوس

الفصل الأول

الغنوسية والماركيونية

رأينا فى الصفحات السابقة جماعة المدافعين الذين حاولوا أن يدافعوا عن الايمان المسيحى بأقلامهم وحياتهم • ورأينا أيضا بعض معتقدات هؤلاء الآباء والقادة فى شخص المسيح ، إذ أن كلا منهم حاول أن يشرح مفهومه وعقيدته فى شخص يسوع المسيح ، لجماعة اليهود أولا ثم لجماعة الوثنيين ثانيا • وكما سبق أن قلنا إن الكنيسة منذ نشأتها كانت مهددة بخطرين عظيمين : الخطر الأول : اليهود الذين كانوا يرفضون كل عقيدة توحى من الداخل أو من الخارج بعدم وحدة الله ، ولقد ظهرت المسيحية فى بادىء الأمر لليهود غير المتعمقين ، كبدعة عن وحدة الله ، إذ أنها تعطى لقب « الله » للمسيح • أما الخطر الثانى الذى كان يتهدد المسيحية وعقيدتها فى شخص المسيح فهو اعتبار الوثنيين لشخص المسيح كإله ضمن الآلهة الكثيرة العديدة ، وبذلك يصبح المسيح بالنسبة لهؤلاء الوثنيين ليس الله السامى العظيم والمحب الذى نزل إلينا وأصبح واحدا منا ، بل إلها أو واحدا من الآلهة •

ولهذا السبب هب الآباء الرسوليون يدافعون بشدة عن لاهوت وناسوت المسيح • ولقد قام بعضهم بالكتابة لليهود لشرح علاقة المسيح

بالعهد القديم وكيف أن النبوات كانت تشير وتتنبأ عن المسيح الذى جاء وحمل خطايانا وأثقالنا • والبعض الآخر قام بالكتابة للأميين والفلاسفة مبينا لهم بأن اللوغوس الحقيقى الذى يدير هذا الكون ويسيطر عليه هو شخص المسيح يسوع الذى صار جسدا وحل بيننا ورأيناه ولمسناه•• وعندما شنت الاضطهادات المريرة ضد المسيحيين ، قام بعض المدافعين بتقديم الالتماسات بل الاحتجاجات ضد الحكام الذين كانوا يضطهدون المسيحيين ليس لأية جريمة ارتكبوها ، غير كونهم مسيحيين •

وكانت الكنيسة فى القرنين الأول والثانى تشبه سفينة صغيرة فى محيط كبير هائج مضطرب ، تلطم أمواجه العالية القوية بشدة وبلا رحمة هذه السفينة الصغيرة ، ولقد كانت أشد هذه الأمواج خطرا وعنفا على حياة الكنيسة وعلى عقيدتها ، هى أمواج التعاليم الضالة التى بدأت منذ القرن الأول تهدد الكنيسة بلطمات عنيفة وقوية •

ولنحاول الآن أن نسرد بعض هذه التعاليم الضالة التى تعرضت لها الكنيسة فى القرنين الأولين :

١ ــ الغنوسية :

فى الحديث عن مفهوم الرسول يوحنا لعقيدة اللوجوس ، تكلمنا عن جماعة الغنوسيين وكيف أنهم رفضوا عقيدة مجىء المسيح فى جسد بشرى لأن الجسد مادة وكل ما هو مادة هو شر (انظر ٢٠٣ ــ ٢١٠ من هذا الكتاب) ولذلك لا نريد أن نكرر ما سبق أن قلناه بخصوص جماعة الغنوسيين • ولكن الذى يضطرنا للرجوع إلى الحديث عن الغنوسيين ، هو استمرار وجودهم وقوة نفوذهم وانتشار تعاليمهم ليس فقط فى العالم ، بل فى الكنيسة نفسها ، وأصبحت تعاليمهم خطرا ليس على العالم بل على الكنيسة • إذ أن بعضا من أعضاء الكنيسة

المسيحية قبلوا التعاليم الغنوسية ونادوا بهـا . ولقد كانت التربة فى الكنيسة مهيأة تماما لنمو هذه العقيدة فيها ، لأن معظم أعضاء الكنيسة المسيحية الأولى سواء من اليونان أو من الرومان ، كانوا مثقفين بالثقافة اليونانية ومتأثرين بها ، وأى يونانى مثقف بالثقافة اليونانية كان لايقبل فكرة أن الله خلق المادة ، فالمادة هى سجن للروح ، ولا اتصـال للـه بالمـادة . والفيلسوف اليونانى سلس (CELSE) يظن أنه لا يمـكن أن الله يتصـل بالمـادة ويأمرها كما يعتقـد المسيحيـون واليهـود (C. CEB. 6 - 60, 61) . ، فالمـادة كانت تعتبر شرا . ولهـذا السبب فقد رفض كثيرون من الوثنيين الغنوسيين عقيدة أن الله السامى العظيم خلق هذا العالم وأن المسيح أخذ جسدا .

وضد هذه التيارات الوثنية ، أعلنت الكنيسة بوضوح وصراحـة إيمانها فى الله الخالق ، الـذى خلق كل شىء بما فى ذلك المادة نفسها ، فبولس الرسول يقول : « لأنه وإن وجد ما يسمى آلهة سواء كان فى السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون . لكن لنـا إلـه واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ونحن له . ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به » (١ كو ٨ : ٥ ، ٦) .

وهنا يشدد الرسول بولس على حقيقة أن كل الأشياء آتية من الله، أى أنه الخالق للكون وما فيه ، وكل ما خلق قد خلق بيسـوع المسـيح ابنـه .

ولقد حاولت الكنيسة فى العصور الأولى أن تنادى وتعلم بهـذه الحقيقة[1] بل شددت فى تعاليمها ، وفى قوانين الايمان فيما بعـد على

(١) إن الكنيسة الأولى والآباء الرسوليين نادوا بهـذا الأمر وشددوا عليه (انظر المراجع الآتية) :

أمرين مهمين : عما أن الله خالق السموات والأرض وأن يسوع المسيح ابنه ولد من عذراء ، وصار إنسانا حقيقيا .

وإن كانت الكنيسة قد شددت على هذين الأمرين ، أى أن الله هو نفسه الذى خلق العالم المادى وأن يسوع المسيح صار فعلا جسـدا ، فذلك لأن الغنوسية كانت منتشرة فى الأوساط الوثنية ، وبدخول الوثنيين فى الكنيسة عند قبولهم للمسيحية ، حاولوا أن يحتفظوا هم أيضا بأفكارهم ومعتقداتهم الوثنية ، كما رغب اليهود الدخلاء إلى المسيحية فى الاحتفاظ بالتقاليد والعادات والنواميس اليهودية بعد تجديدهم وقبولهم المعمودية (أع ١٥ : ١) .

ولقد كان الخطر داهما وعظيما عندما أراد بعض الوثنيين الذين قبلوا المسيحية الاحتفاظ بأفكارهم وعقائدهم الوثنية فى الكنيسة . ومن المعروف أن بعض المدارس الغنوسية كانت تعلم بوجـود نوعين مـن الالوهية : ١ ــ النوع الأول هو الإله السامى أو العظيم ، وهـذا الإله السامى أو العظيم يرأس سلسلة كثيرة الحلقات من الآلهة أو الرياسات أو « العوالم » (EONS) . وكل هؤلاء الآلهة المتميزين الواحد عن الآخر فى الدرجة والسلطان ، قد انبثقوا سواء من هذا الإله الأعظم أو خرجوا الواحد من الآخر . وكل هذه الكائنات الالهية سواء كانت منفردة منعزلة ، الواحد عن الآخر أو كانت أزواجا أزواجا فانهـا كونت كلهـا معـا ما يدعى (LE, PLEROME CELEST) أى المجموعة الالهية أو الملء الالهى ، أو الطقم الالهى . ولقد حدث خلل فى هذا الطقم الالهى لسقوط أحد هذه الكائنات الالهية ، ولكن هذا الكائن الالهى الذى سقط

= Clém, 19, 2 ; 20. 11 ; 59. 9 ; 60 - 1. ; Hermas, Mand 7. 1 Did 10 ; 3 ; Justin 1 Apol. 16. 3, 10 ; Act. Justin 2.56 Irenneé Ad V. Haer 1.10. 1 ; 111, 1, 24. Test. De praesé 13.2 ; 365.

سيرد إلى رتبته وطهارته الأصلية عندما تتم عملية الفداء • وضد هذه المجموعة الالهية السماوية ، ٢ ــ يوجد نوع ثان من الالوهية وهو يشبه النوع الأول من ناحية النظام والتكوين ولكن يختلف عنه من ناحية النوع لأن الذى يرأس هذه المجموعة هو إلــه شرير ، الإله الذى خلق المادة ، نصف الإله ، وقد ساعد هذا الاله وتعاون معه الآلهة الأشرار والمخربون • والصراع بين إله الشر وأعوانه وبين إله الخير وأعوانه ، صراع مستمر وعنيف(١) •

١ ــ بازليدوس :

ومن الغنوسيين المعروفين فى القرن الثانى نذكر الغنوسى السورى بازليدوس (BASILIDE) الذى بدأ تعليمه فى حوالى سنة١٣٠ ب م وقضى معظم حياته تقريبا فى مصر (بالاسكندرية) ، ونظريته عن الله وعن المادة طويلة ومعقدة ولكن الذى يهمنا من نظريته هو الجزء الخاص بالمسيح فهو يعتبر المسيح كواحد من المجموعات الالهية الكونية وهــو من الأرواح السامية(٢) •

٢ ــ فالنتينوس :

ويوجد شخص آخر يعتبر من ألمع الشخصيات الغنوسية فى عصره وهو فالنتينوس (VALENTIN) لا نكاد نعرف شيئا عن حياته ولا عن شخصيته ، وكل ما يقوله أبيفانوس عنه ، هو أنه يحتمل أنه كان مصريا ، درس الفلسفة فى الاسكندرية على يد بازليدوس السورى • ولقــد جاء إلى روما فى أيام أنطونيوس بيوس (حوالى سنة ١٣٨ ــ ١٦١) وقــام بالتدريس فى روما ثم قبرص • ويدعى فالنتينوس بأنه استلم تعاليمه من إثنين من تلاميذ الرسول بولس(٣) ونظريتــه طويلة جــدا ومعقدة

(١) انظر كتاب Lods ص ٥٣ ــ ٥٥ •

(٢) انظر كتاب بونيفاس Bonifas ص ٧٨ ــ ١٠٢ فهو يذكر عــدة نظريات غنوسية (الطبعة الفرنسية) •

(٣) انظر كتاب Haag ص ١٢٠ ــ ١٢٤ •

ويعوزنا الوقت لو دخلنا فى تفصيلاتها الدقيقة ، فهو يؤمن بوجـود إله سامى جدا وبوجود آلهة كثيرين آخرين . كما أنه يؤمن أيضا بوجـود نصف الاله أو إله اليهود الذى لا يعرف الاله العظيم .

ولقد علم فالنتينوس بأن المسيح السماوى اتحد بالمسيا النفسى الذى وعد به نصف الاله أو إله اليهود وعندئذ جاء المسيح السـماوى فى هيئة إنسان بشرى وعلم الناس الروحيين وأعلن لهم عن الإله الحقيقى وعن كيفية الاتحاد به .

ولقد علم فالنتينوس والفالنتينون بعـده أن المسيح السماوى لم يتخذ جسدا حقيقيا بشريا ، بل هيئة إنسان . كما أنهم علموا أيضا بأن المعرفة (الغنوس) هى الأساس فى الحصول على الخلاص ، أى الخلاص من المـادة وسيطرتها وقوتها . فالمسيح هو الذى يعلن للانسان ما هى المعرفة التى عن طريقها يمكنه أن يصل إلى مصدره الالهى الذى سـقط منـه .

وبما أننا فى معرض الحديث عن الهرطقات التى ظهرت فى بدايـة القرن الثانى والتى هددت الكنيسة وعقيدتها فى شخص المسيح ، يجدر بنا أن نذكر أيضا شخصا آخر لا يقل خطورة عن بازليدوس وفالنتينوس وهـو :

٣ — ماركيون : MARCION

ولد ماركيون فى حوالى سنة ١٢٠ فى مدينة سينوب التى تقع على شاطىء البحر الأسود . والذى يميز هذا الشاب عن بعض الهراطقـة الذين تكلمنا عنهم سابقا والذى يميزه حتى عن بعض المدافعين أنه نشأ وتربى فى جو مسيحى تقى . فقـد كان أبوه أسقفا بمدينة سينوب . وبالرغم من أنه نشأ فى هـذه البيئة المسيحية المدققة ، فقد انحرف من

الناحية العقائدية وعلم تعاليم لا تتفق والكتب المقدسة .

ولد ماركيون وتلقى تعليمه فى مدينة سينوب وبقى فيها إلى أن أصبح شابا يافعا ، ولقد وصفه الذين تكلموا عن حياته التى لا نعرف عنها إلا القليل ، بأن ماركيون كان شابا ذكيا ، بل آية فى الذكاء . ولم يدفع به هذا الذكاء إلى الكبرياء والابتعاد عن حياة التقشف بل كان رجل صلاة وتقشف وتأمل وتقوى[1] ، وكانت عائلته تحتل مركزا اجتماعيا واقتصاديا مرموقا . وماركيون نفسه كان تاجرا ناجحا جدا وقد استطاع بذكائه واجتهاده وأمانته تكوين ثروة طائلة من عمله . فقد كان يملك عددا كبيرا من المراكب التى كان يؤجرها لنقل السلع .

ويبدو أن أسقف سينوب (أبا ماركيون) وماركيون لم يكونا على وفاق . بل إن الخلاف كان واسعا وخطيرا بين الآب وابنه لدرجة أن الأسقف حرم ابنه من الاشتراك فى كنيسته . وعلى أثر هذ النزاع العقائدى العائلى ترك ماركيون بيت أبيه متجها إلى روما فوصل إليها فى حوالى سنة ١٤٠ فى أيام حكم أنطونيوس بيوس (ANTONIN LE PIEUX) . وحال وصوله الى هذه المدينة انضم الى كنيسة فيها ، بل وأظهر غيرة وحماسة فى التعليم والعمل . ولكن مجلس هذه الكنيسة المحلية لاحظ عدم أرثوذكسية تعاليمه وانحراف عقيدته فيما يختص بالكرستولوجى (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) وفى تعاليم أخرى . ولذلك فقد طلبت الكنيسة فى روما من الشاب المتحمس للتعليم والتبشير بأن يقدم إقرار إيمان عن ما يعتقده وما يؤمن به . وكانت النتيجة أن ماركيون قد قطع (حرم) من عضوية هذه الكنيسة فى يوليو ١٤٤ .

ويظن أن ماركيون كان يتردد على مدرسة سردون (CERDON) الغنوسى فى روما . فقد كانت التعاليم الغنوسية منتشرة ومعروفة ليس

(١) انظر قائمة الكتب التى سنذكرها فى آخر هذا الفصل عن ماركيون وتعاليمه وعن بعض المعلمين المضلين الآخرين ...

فقط فى آسيا ولكن فى روما أيضا • وقبل أن نعرض معتقدات ماركيون نريد أن نلفت نظر القارىء الى نقطة هامة ، وهى أن كثيرين من اللاهوتيين ومن مؤرخى تاريخ العقائد المسيحية ، يعتقدون بأن ماركيون كان غنوسيا ، غير أننا نشك كثيرا فى غنوسيته • فمع أن تعاليمه تبتعد كثيرا عن تعاليم الكتاب المقدس ، إلا أنها تختلف أيضا عن تعاليم الغنوسيين (انظر كتاب لوذز LODS ص ٥٥ — ٥٨) فكما يقول (LODS) «أنه كان فى بداية الأمر مسيحيا بل مفسرا للكتاب المقدس » •

والذى شغل بال ماركيون ليس مشكلة الخير والشر فى العالم ، وأصل الشر فيه ، كما فعل الغنوسيون الذين تخيلوا وتصوروا عوالم كثيرة متعددة وآلهة متنوعين ، إله الخير وإله الشر ••• لكى يجدوا حلا لمشكلة وجود الشر فى العالم ، بل الذى شغل باله هو الفرق القائم بين إله اسرائيل وإله يسوع المسيح • وسنرجع الى هذه النقطة فيما بعد •

بعد أن أصدرت الكنيسة حرمانها للشاب ماركيون ، لم يقف هذا الأخير مكتوف اليدين ازاء هذا القرار ، بل استعمل معرفته الكتابية ودراسته وحماسته • وبما أنه كان غنيا ماديا فقد استخدم أيضا ماله فى نشر تعاليمه • وكان يختلف عن الغنوسيين فى العقيدة بخصوص الازدواجية (إله خير وإله شر) ، وكان يختلف عنهم أيضا فى طريقة نشر تعاليمه وتأسيس طائفته ، فإن المعلمين الضالين السابقين (أمثال بازليدوس وفالنتينوس وكاربوكراتس وساتيرينوس وآخرين) لم يؤسسوا إلا مدارس لكى تعلم معتقداتهم وتعاليمهم • أما ماركيون ، فبعد انفصاله عن كنيسة روما ، أسس كنيسته الخاصة ووضع لها دستورا هرميا يبدأ بالأساقفة كرأس ، ثم يليهم فى هذا النظام الهرمى ، الكهنة ويأتى فى نهاية الهرم الشمامسة •

ولقد اتبع الماركيون فى طريقة عبادتهم ليتيرجية(١) تشبه إلى حد كبير الليتيرجية الكاثوليكية ولذلك فقد انضم إليهم عدد كبير جدا أكثر من أى مذهب غنوسى آخر • فالقديس يوستينوس يقول لنا إنه بعد مرور عشر سنوات على حرمان ماركيون أنتشرت كنيسته فى أنحاء العالم وأستمرت حتى القرن الخامس الذى شاهد عددا لا بئس به من الكنائس الماركيونية فى الشرق وخاصة فى سوريا ، بل ان بعضا من هذه الكنائس ظل قائما الى بداية العصور الوسطى(٢) •

فما هى اذن تعاليم ماركيون التى استطاعت أن توقع الكثيرين فى شراكها ؟

لقد خلت تعاليم ماركيون من الازدواجية التى تكلم عنها فلاسفة اليونان والهراطقة ، أى وجود الإله العظيم السامى والذى منه خرجت سلسلة طويلة من الآلهة أو العوالم ، ثم الإله الشرير الذى خرجت منه أيضا سلسلة أخرى من الآلهة والعوالم الشريرة •••

وهاتان المجموعتان من الآلهة تحارب الواحدة الأخرى • ومع أن تعاليم ماركيون خلت من هذه الازدواجية (إله صالح ضد إله شرير) ، إلا أنها نادت بنوع آخر من الازدواجية ، فلقد علم ماركيون بوجود إلهين : ١ — الاله العظيم السامى أو الإله المحب ، وهذا الاله غير معروف من العالم ومخفى عن عينيه ، لأنه لا صلة له بالعالم وليس هو الخالق

(١) الليتيرجية : هى نظام العبادة فى الكنائس الطقسية الكاثوليكية والارثوذكسية مثل القداس والالحان ، والمزامير ، وقراءة فصول معينة . والكنائس المصلحة تستعمل نفس الاصطلاح لتشير به إلى الخدمة فى الكنيسة من صلاة وترنيم وقراءة فصول كتابية ووعظ ...

(٢) انظر كتاب Quasten ص ٣٠٥ — ٣١٠ •

له . ٢ ـ أما الإله الثانى فليس مساويا لهذا الإله بل أقل منه درجة، ولا يعتبر شريراً كما نرى في نظام الغنوسية الازدواجية بل هو إله عادل ولكنه سريع الغضب ومنتقم ، يحارب ويسفك دماء أعدائه بلا رحمة ولا شفقة . هذا الإله المنتقم هو الذى قام بعملية الخليقة ، وبعد أن خلق هذا العالم اختار منه شعبا لكى يكون شاهدا له ، وهو الشعب اليهودى الذى أعطى له الناموس . ولقد عاقب بصرامة وشدة الذين تعدوا على هذا الناموس وترك بقية الشعوب الأخرى فريسة للمادة والوثنية . هذا الاله هو إله اليهود والذى لا يعرف ، بل يجهل تماما ، وجود الاله السامى العظيم المحب .

وهنا يختلف ماركيون عن الغنوسيين الذين يؤمنون بوجود قوة صالحة (إله الخير) وقوة شريرة (إله الشر) ، فإن ماركيون يعتقد بوجود الالهين : إله اليهود العادل والمنتقم الجبار ثم الاله المحب السامى العظيم . ولقد ظل هذا الأخير مخفيا وغير معروف من الناس الى السنة الخامسة عشرة من حكم الامبراطور طيباريوس عندما ظهر المسيح فى بلاد اليهودية فى هيئة بشرية ، وبدأ يعلن للبشر السر العظيم عن الاله المحب الذى يجهله البشر والاله اليهودى . إذ أنه من المستحيل على الناموس الذى أعطاه الاله اليهودى أو الطبيعة أن يعلنا الاله السامى المحب ، لأن معرفته تفوق ادراكهما ، ولأنه ليس هو الصانع لهما . فالمسيح وحده هو الجدير بأن يعلن هذا الأله المحب . ولقد تمت هذه العملية ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ فى السنة الخامسة عشرة من حكم طيباريوس وفى أثناء حكم بيلاطس البنطى . ويقول كاستن (QUASTEN) : إن ماركيون يعتقد بأن المسيح ليس هو المسيا الذى تنبأ عنه العهد القديم ، وليس هو ذاك الذى ولد من العذراء مريم ، فإن المسيح لم يعرف فى حقيقة الأمر ، ميلاداً ، ولا نمواً ، ولا حتى المظهر لهذه الأحداث . إن المسيح الحقيقى هو ذاك الذى ظهر بطريقة فجائية

فى عهد طيباريوس الامبراطور ، ومن هذه اللحظة فقد أصبح المسيح فى هيئة بشرية واحتفظ بهذه الهيئة البشرية بحسب الظاهر الى موته على الصليب •

أما بونيفاس فيظن بأن ماركيون كان يعتقد بأن الله السامى المحب والذى يفوق فى الدرجة إله اليهود ، قد ظهر هو نفسه فى يسوع المسيا الذى أرسله إله اليهود فنزل الإله السامى المحب بنفسه على يسوع فى وقت العماد ، وهذه العملية يمكن أن تسمى عملية التجسد ، وهى تختلف عن التجسد الذى فهمته الكنيسة فى النقاط الآتية :

(١) إن ماركيون فهم أن عملية التجسد تمت وقت العماد وليس وقت الحمل •

(٢) وهذا التجسد ما هو الا مظهر ، لأن ماركيون لا يؤمن باتصال ما هو الهى بما هو مادى (وهنا يظهر أثر الغنوسيين) • إلا أن ماركيون لم يكن غنوسيا على الأرجح •

(٣) يعتقد ماركيون أيضا بأن الذى تجسد فى يسوع المسيح هو الله نفسه وليس ابنه الكلمة الأبدية •

ولقد كان الهدف من هذا التجسد هو أن يحرر البشر من ناموس الاله الأدنى مرتبة ، إله اليهود • ولكى يقودهم الى الخلاص • ولهذا السبب فقد غضب إله اليهود وأثار اليهود ضد يسوع فقبضوا عليه ، ثم حكموا عليه بالموت ، وبعد الموت ذهب المسيح مباشرة الى الهادس لإعلان الانجيل للوثنيين والى أسرى الاله اليهودى ، وبعد أن قام بهذه المهمة التبشيرية صعد مباشرة الى السماء دون قيامة على الأرض • وفى

اليوم الأخير سيحكم على إله اليهود وسيطرحه فى الهادس(١) .

ومن الواضح أن ماركيون يعلم بوجود الهين ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، الإله الطيب المحب السامى العظيم ، والذى لا علاقة له بالعالم أو بالمادة ، ثم الاله العادل سريع الغضب والانتقام وهو أقل درجة من الاله المحب . والذى أعلن لنا وجود الاله المحب هــو المسيح . فالإله المحب أظهر نفسه فى يسوع المسيح . ولقد فصل ماركيون فصلا كاملا بين الاله السامى المحب وبين إله اليهود الأدنى ، فإله اليهود هو الذى خلق العالم وأعطى الناموس . ولذلك فقد رفض ماركيون رفضا كليــا وجزئيا ليس الناموس فقط بل كل العهد القديم لأنه اعتبره كتاب ذلك الاله الذى يحب الانتقام وليس كتاب الاله المحب السامى . فالعهــد القديم كله بلا قيمة بالنسبة له هذا هو موقفه بالنسبة للعهد القديم .

أما موقفه من العهد الجديد فلم يتمسك الا بعشر رسائل من رسائل بولس الرسول ، وحذف كل الكتابات الأخرى الموجودة فى العهد الجديد الا إنجيل لوقا بعــد أن حذف منه أيضا نصــوصا كثيرة جدا . وحتى الرسائل البولسية التى احتفظ بها أو اعترف بصحتها لم تنج من الحذف . فقد حذف من هذه الرسائل نصوصا كثيرة ، كما أنه حــذف أيضا من إنجيل لوقا كل النصوص التى تشير الى الآب المحب كخالق أو أن الإله الخالق هو أبو ربنا يسوع المسيح ، لأنه يؤمن بأن آب ربنا يســوع المسيح ليس هو الله الخالق ، أى إله اليهود ، بل هو الآب المحب العظيم الذى لا علاقة له بإله اليهود . ولذلك فقد حذف كل النبوات التى اقتبسها الرسول بولس من العهد القديم وكل النصوص التى تشير إلى بنــوية المسيح لله الخالق أو صانع السماوات والأرض .

(١) انظر كتاب بونيفاس (Bonifas) ص ٩٩ ــ ١٠٢ (الطبعة الفرنسية)

ويعتقد ماركيون بأن اليهود المسيحيين زوروا الأناجيل وأدخلوا عليها عناصر كثيرة من معتقداتهم الشخصية • ولهذا الغرض فلقد دعا المسيح الرسول بولس لكى يعطى الانجيل الصحيح ويشرح الايمان الحقيقى ، لأنه هو الشخص الوحيد الذى فهم الحقيقة ونادى بها • ولكن عظات بولس ظلت هى أيضا غامضة وغير مفهومة من الشعب إلى أن جاء ماركيون لشرحها وتوضيحها • ولقد منحته كنيسته فى روما الحق فى وضع قائمة بالكتب القانونية(١) ولقد وضع على رأس هذه القائمة سفر غلاطية الذى اعتبره أساسا للايمان ، إذ أن الرسول يرفض فيه انحرافات بطرس وميوله التهودية ورجوعه الى الطقوس والناموس • فالتلاميذ كانوا يهودا وتأثروا بالأفكار والمعتقدات اليهودية التى لا قيمة لها •

ولهذا السبب فقد علم تلاميذه بأن تعاليمه الشخصية التى يلقيها عليهم جديرة بالثقة أكثر من تعاليم الرسل أنفسهم الذين تأثروا باليهودية بل ظلوا فى قرارة نفوسهم يهودا متمسكين بالعقيدة اليهودية • ولقد رأى المعلم الضال فى لوقا (٥ : ٣٦) تفسيرا لمذهبه ، وهو أن الانجيل خبر جديد ، وأما العهد القديم فهو بال لا قيمة له ، ويجب طرحه خارجا وعدم التمسك أو العمل به ، كذلك فقد رأى فى لوقا (٦ : ٤٣) أن الشجرة الجيدة التى تعطى أثمارا جيدة هى أبو ربنا يسوع المسيح ، أى الآب المحب الطيب الصالح ، أما الشجرة التى تعطى أثمارا رديئة فهى إله موسى • ولذلك فقد بالغ كثيرا فى استعماله لرسالة بولس لأهل غلاطية ، لدرجة أنه تصور كما لو كان إله موسى أى الاله العادل ، إله الناموس ، هو ضد المسيح والنعمة •

ولذلك فقد قام ابن أسقف سينوب بحرب شعواء ضد الناموس

(١) انظر كتاب Harnack, Precis de L'Histoin ص ٢٧ — ٣٠

والعهد القديم وضد إله العهد القديم ومن هنا جاءت الخطورة ، لأن ماركيون علم بوجود الهين : الاله المحب والاله العادل • ولهذا السبب انقسمت الكنيسة فى روما وتبع ماركيون عدد لا بأس به • وعندما انفصل ماركيون وأتباعه عن كنيسة روما ، علم هو نفسه بأنه لا خلاص خارج عن كنيسته وعن تعاليمه (انظر كتاب كاستن ص ٣٠٧) • ويعتقد البعض بأن ماركيون قد رجع عن تعاليمه الضالة قبل موته ولكنه توفى قبل أن ينفذ هذا القرار بطريقة عملية(١) • ولكننا لا نعتقد أن ماركيون قد رجع عن تعاليمه الضالة لعدم وجود المراجع التى تتكلم عن ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن النجاح الذى لاقاه هذا المذهب فى القرن الثانى لا يوحى بهذه التوبة •

مما سبق أن قلناه عن ماركيون وعقيدته وإيمانه فى شخص المسيح، يتضح الخطر الكبير الذى كان يهدد الكنيسة لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضا • فان ماركيون كان فى بادىء الأمر عضوا فى الكنيسة وابن أسقف ، ولكنه انحرف بعيدا عن الايمان الصحيح وأسس كنيسة تعتقد بمعتقداته وتضل بضلاله •

ولهذا السبب فقد قام المدافعون المعاصرون له بالدفاع عن الايمان القويم مفسرين الحق الالهى بأمانة واستقامة • ويعتقد البعض أن القديس بوليكاربوس تلميذ الرسول يوحنا تقابل مع ماركيون ، بل يعتقد البعض الآخر بأن زيارة بوليكاربوس لروما سنة ١٥٥ كانت سببا فى رجوع الكثيرين من وراء ماركيون(٢) •

ويرجع الفضل فى معرفتنا لبعض عقائد ماركيون الى المدافعين الذين سجلوا لنا فى دفاعهم عقيدته ، أمثال القديس إيريناوس

(١) انظر كتاب د. أسد رستم الجزء الأول ص ٦٥ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

وترتليانوس ... لأن كل ما كتبه ماركيون نفسه قد ضاع ولم يبق لنا شيء منه . وكل ما نعرفه عن تعاليمه ، هو ما دونه لنا المدافعون فى دفاعهم عن العقيدة الصحيحة . فلقد ضاع الكتاب الوحيد الذى كتبه ماركيون والذى أشار إليه بعض المدافعين فى دفاعهم ويدعى المتناقضات (LES ANTITHESES) كما ضاع أيضا الخطاب الذى كتب فيه إقرار إيمانه الذى طلبته منه كنيسة روما . ولكن بالرغم من أن كل كتابات ماركيون قد ضاعت ولم يبق منها شيء ؛ إلا أن المدافعين قد اقتبسوا اقتباسات عديدة من كتاباته سمحت لنا بأن نعرف عقيدة ماركيون ، ومن هذه الاقتباسات استطعنا أن نعرف أن الكتاب المقدس الذى اعترف به ماركيون كان لا يحتوى إلا على اثنى عشر سفرا : ١٠ رسائل من رسائل بولس الرسول وإنجيل لوقا ثم كتابه الذى يدعى المتناقضات (LES ANTITHESES)

وأمام هذه الهرطقة لم تقف الكنيسة صامتة بل هبت مدافعة عن الايمان الصحيح الذى تسلمته من الرسل والذى أرادت أن تسلمه أيضا للاجيال القادمة صحيحا نقيا لا عيب ولا غش فيه . ولقد أصدرت كنيسة روما حكمها ضد ماركيون وكنيسته . وهنا نرى لأول مرة ــ تقريبا ــ فى تاريخ الكنيسة المسيحية هذا النوع من الانشقاق فى الكنيسة الذى أدى إلى انفصال بعض الأعضاء عنها بل الى خروجهم عليها ومحاربتهم لها ولعقائدها . نعم لم تكن هذه المرة هى الأولى التى نرى فيها انشقاقا فى الكنيسة ، فحتى فى أيام الرسل كان الانشقاق والنزاع يسممان جو الكنيسة فى كورنثوس (١ كو ٣ : ١ ــ ٢٣) ؛ ولكن للمرة الأولى تقريبا نرى شخصا يتزعم جماعة من الكنيسة ثم يثور على تعاليم الكنيسة وعقائدها . ولذلك يمكننا أن نسمى ماركيون لوثر الزائف .

ولقد أصدرت الكنيسة حكمها ضد هذا المعلم المضل ، لأنها رأت

الخطر الداهم فى تعاليمه • فإن كان العلماء قد انقسموا حاليا فيما إذا كان يمكن وصف ماركيون بالغنوسية أم لا ، إلا أنهم اتفقوا جميعا على أن تعاليمه كانت تبتعد كل البعد عن روح الكتاب المقدس • وكيف لا تبتعد تعاليم ماركيون عن الكتاب المقدس ، وهو قد حاول أن يمحو الكتاب المقدس خصوصا العهد القديم ومعظم أسفار العهد الجديد ؟ كما أن تعاليم ماركيون التى كانت تختلف بعض الشىء عن تعاليم الغنوسيين ، اشتملت أيضا على كثير من المعتقدات والأفكار الغنوسية التى كانت تشكل خطرا عظيما على الكنيسة • وكيف لا تشكل تعاليم ماركيون خطرا على العقيدة المسيحية وهو يؤمن بوجود إلهين لا يعرف أدناهما أسماهما ؟ ! !

على أن ماركيون قد قدم خدمة جليلة للكنيسة ، فبخروجه عليها وعلى تعاليمها خصوصا عندما رفض قبول العهد القديم ، وعدم استعماله لأسفار العهد الجديد التى كانت منتشرة فى الكنائس ولكنها لم تكن محددة قد فتح عينى الكنيسة على أمر خطير عظيم ، وهو جمع وتحديد أسفار العهد الجديد التى كانت متداولة ومقروءة فى الكنائس ، ولكنها لم تكن قد جمعت بعد فى كتاب واحد بالشكل الذى هى عليه الآن • كما أنه فتح عينى الكنيسة والمدافعين أيضا على أن الهجوم ضد الكنيسة وضد شخصية المسيح لا يأتى من الخارج فقط أى من اليهود ومن الوثنيين ، بل أن التعاليم الضالة يمكنها أن تنمو وتكبر فى الكنيسة وتجد فيها تربة صالحة •

إن انشقاق كنيسة ماركيون وخروجها على كنيسة روما لم يكونا إلا بداية لسلسلة طويلة من الانشقاقات والانقسامات التى ستمزق على مر العصور ، بلا رحمة ولا شفقة ، جسد المسيح ، الكنيسة • ولكن شكرا لله لأن الواعد كان أمينا لقوله : « وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ : ١٨) •

بعض المراجع الهامة لدراسة ماركيون وتعاليمه :

توجد فى هذا الكتاب قائمة بعدة كتب عن نفس الموضوع .

1. Quasten. Initiation aux Peres de l'eglise pp. 305 - 310.
2. V. Ermoni, Marcion dans la litterature Amenieme Rocher. 1 (1896) 461.
3. A. Harnack, Marcion. Das Evangelium von frenden Gott (Tu 45) Leiqrzig 1921.
4. E. Bosshardt, Essai sur l'originalité et la probité de Tertullien dans son traité contre Marcion. Lausanne 1921.
5. A., D'Ales Marsion. La Réforme Chretienne au 11 e siecle RSR. 13 (1922) 137 - 168.
6. Couchond, Jo Marcion's Gospel One of the Synoptics ? HY (1936) 263 - 377.
7. A Loisy, Marcion's Gospel : A Reply : HY (1936) 378 - 387.
8. W. F. Howard, The Anti-Marcionite Prologue to the Gospels: Exp. T' 47 (1936) 534 - 538).
9. J. Knox, Marcion and the New Testament, Chicago 1942.
10. F. C. Backman, Marcion and His Influence. London 1948.
11. J. Liebaert. Histoire des Dogmes p. 45 - 47.
12. R. S. Willson, Marcion. A Study of a second-Century Heretic. London 1933. G. Bardy, Marcion. D. B. Supp. v., 1957 Col. 882 - 77.
13. M. Loda. op. cit.. 55 - 58.
14. Justin. 1 Apol. 61. 3, 10. Irenee Adv. Haer 1, 3.6, 10, 1., 3, - 16.5, 20.1.
15. Irénée Adv. Haer. 4, 9.1, 2, 3, 25.3.

١٦ ــ راجع كتاب د. أسد رستم الجزء الأول من صفحة ٦٣ ــ ٦٥ .

17. A. Harnack. Precis de L'histoire. Traduit par Eugene Choisg. Paris Librairie Fishbacher. 33 Rue de Sein 1893. p. 27 - 31.

الفصــــل الثانى

البنويون

(LES ADOPTIANISTES)

البنويون هم الذين يعلمون بأن يسوع لم يكن ابن الله بالطبيعـة بل بالتبنى . فمع أنهم ينادون بالميلاد العذراوى إلا أنهم رفضوا أزلية المسيح كما أنهم اعتقدوا بأن يسوع كان وظل إنسانا عاديا ، مع استثناء حادثة الميلاد العذراوى ، الى أن جاء يوم العماد حيث نزل عليه الروح القدس ، أى المسيح نزل على الانسان يسوع ووشحه بقوة علوية لعمل المعجزات .

ومـن الذين علموا بهـذا التعليم ونادوا به رجـل شرقى يدعى ثيودوتيوس (THEODOTE) . جاء الى روما فى نهاية القرن الثـانى (١٨٩ ـ ١٩٩) فى أيام الأسقف فيكتور أسقف روما . وكل ما نعرفه عن ثيودوتيوس الدباغ الشيخ البيزنطى ، أنه كان شرقيا ومثقفا ثقافة عظيمة ويجيد اللغة اليونانية . والمصادر التاريخية التى تتكلم عنه هى (HIPPOLYTE, PHILOS.. 7.35 - 36) ثم EUSEBE HEV, 28 ويذكره أيضا (EPIPHANE PAN. 59) ولا ننسى (THEO DORET HAER FABUL 2.5 - 6)

ومن الواضح من الناحية التاريخية أن ثيودوتيوس جاء الى روما بعد ماركيون (١٤٠ ب م) ولذلك فقد وجد تربة مهيأة لالقاء بذور الهرطقات فى كنيسة روما . إننا لا نجهل أن الفرق كبير وعظيم بين تعاليم ماركيون الرافضة للعهد القديم ولكل حركة تهودية ، وبين تعاليم ثيودوتيوس الذى حاول التمسك بالعهدين القديم والجديد ، والرجوع إليهما لاثبات عقيدته منهما ، ثم تمسكه باليهودية .

فقد رجع كثيرا الى كل من العهدين ، وبنوع خاص الى مزمور (٢ : ٧) لكى يثبت عقيدته « ... قال لى أنت ابنى أنا اليوم ولدتك » ثم قول الرسول بولس « ... لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم ... » (فى ٢ : ٥ – ١١ ، لو ١ : ٣٥ ، ٣ : ٢١ ، ٢٢ ، تث ١٨ : ١٥ ، ار ١٧ : ٩ ، اش ٥٣ : ٢ ، متى ١٢ : ٣١ ، يو ٨ : ٤٠ ، أع ٢ : ٢٢ ، ١ تيمو ٢ : ٥) (١) .

فما هو اعتقاد ثيودوتيوس فى شخص المسيح ؟

لقد كان الشيخ الشرقى يعلم فى روما بأن يسوع لم يكن بالطبيعة ابنا لله بل إن الله قد تبناه ، وهذا يعنى أن يسوع ابن مريم الذى ولد بطريقة معجزية فى الناصرة ، بدأ وجوده كما يبدأ أى انسان آخر وجوده من لحظة الميلاد . إلا أن الانسان يسوع يختلف عن كل انسان آخر بحادثين مهمين . الحادث الأول هو : الميلاد العذراوى ، أما الحادث الثانى : هو لحظة عماد يسوع . فثيودوتيوس يعتقد بأنه فى تلك اللحظة، وفى تلك اللحظة فقط ، أصبح يسوع ابن الله بالتبنى . فعندما « نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلا أنت ابنى الحبيب بك سررت » (لو ٣ : ٢٢) أصبح يسوع من هذه

(١) انظر كتاب A. Harnack. Precis de L'histoire ص ١١١ – ١١٦ .

اللحظة ابنا لله بالتبنى ، وليس بالطبيعة • ولهذا فقد سمي ثيودوتيوس وأتباعه بالبنويين (LES ADOPTIANISTES) • فعند العماد أعلن الله بطريقة رسمية وعلنية أن هذا الانسان يسوع هو ابنه ، ولقد تبناه من هذه اللحظة لكى يكون ابنا له • وفى هذه اللحظة أيضا ، أى فى لحظة التبنى نزل الروح القدس على يسوع أو نزل المسيح على يسوع فأصبح يسوع المسيح ابن الله بالتبنى •

ومن هذه اللحظة أيضا أدرك يسوع الناصرى بأنه ابن الله بالتبنى• ولقد قام يسوع بعمل المعجزات لأنه امتلأ بقوة علوية أهلته لاجراء هذه المعجزات • وكان يسوع مثاليا فى حياته وتصرفاته مطيعا لله فى كلشيء، إلا أنه لم يكن ابنا لله بالطبيعة ، أى يشارك الله فى طبيعته الالهية ، بل ابنا بالتبنى • ويعتقد ثيودوتيوس بأن الروح القدس حل على يسوع فى ميلاده بطريقة خفية ولكن حادثة العماد كانت عبارة عن الاعلان الظاهرى الرسمى الذى شهد به الله بأن يسوع الناصرى هو ابنه • فبحلول الروح القدس بطريقة خفية وقت ميلاده وبحلول الروح القدس بطريقة علنية (أو نزول المسيح) عليه وشهادة الآب له ، أصبح يسوع ابن الله بالتبنى • لأن كاتب المزامير يقول : « ••• أنت ابنى أنا اليوم ولدتك » • وبهذه الطريقة ــ أى بالتبنى ــ رفع الله يسوع الى أعلى الدرجات كما يقول كاتب الرسالة إلى الفيلبيين : « ••• لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم ••• » •

ولقد تمت عملية الرفعة هذه عندما أقام الله من الأموات بقوته وعظمته ابنه الذى تبناه ، فبالقيامة توج الله يسوع ابنه بكل مجد وعظمة ومنحه اسما يفوق كل الأسماء وسلطانا لا يتعداه سلطان • على أن كل ما وصل إليه يسوع من سلطان ومجد وعظمة وصل اليه بفضل ذاك الذى منحه هذا السلطان وهذا المجد وهذه العظمة •

فلقد اعتقد ثيودوتيوس بأن يسوع بدأ كانسان ، ثم أن الله هو الذى تبناه ورفعه الى هذه الدرجة مانحا له اسما فوق كل اسم . وهنا نلاحظ فى هذا التعليم نوعا من الغنوسية ، فكما سبق القول فان الغنوسيين علموا بأن المسيح السماوى جاء فى شبه انسان . فان كان ثيودوتيوس قد علم بأن يسوع كان فعلا إنسانا وإنسانا حقيقيا ، لكنه علم أيضا بأن الروح القدس أو المسيح نزل عليه عند العماد . ففى تعليمه نجد مزيجا من الدوسيتية(١) والإبيونية . ولقد اتهمه أبيفانوس بأنه دسوتى(٢) ، ومع أن الاتهام فيه شىء من المبالغة إلا أنه لا يخلو من الحقيقة .

ومع أن أسقف روما فيكتور قد حكم بضلالة هذا التعليم وادانة معلمه ، فإن هذا الحكم لم يستطع أن يوقف سريان التيار وانتشاره فى روما وخارجها . بل ان تلاميذه وأتباعه قد أخذوا على عاتقهم مواصلة الجهاد فى نشر تعليمه ومذهبه ومن تلاميذه يذكر لنا التاريخ ثيودوتيوس آخر ، ثم ناتاليوس الذى أصبح أسقفا لكنيسة فى روما فى سنة ٢٠٠ ب م (EUS. HEV, 28. 12) ثم أرتيمون الذى احتفظ أوسابيوس بخطابه (EUS. HEV. 28)

ومع أن ثيودوتيوس بدأ المناداة بمذهب البنوية فى نهاية القرن الثانى ، فإن تعاليمه هذه لم تكن إلا ثمرة للبذور التى ألقيت فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى . ولكى يكون هذا الأمر واضحا فى أذهاننا نقول إنه منذ أن سأل يسوع فى قيصرية فيلبس قائلا : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » أصبح هذا السؤال يتردد على أفواه

(١) الدوسيتية كلمة يونانية تعنى يظهر أو يتراءى ، وتعنى هنا بأن المسيح ظهر فى هيئة جسد وليس فى جسد حقيقى يلمس ويحس ...
(٢) أنظر كتاب A. Grillmeier ص ١١٥ .

الكثيرين على مر العصور وفى كل مكان • بل إن شخصية المسيح نفسه أصبحت حجر عثرة لسقوط وقيام الكثيرين ، كما تنبأ بذلك سمعان الشيخ : « ••• إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى اسرائيل ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) فمنذ أن ظهر المسيح على أرضنا والناس يتساءلون قائلين : من هو ؟ ومع أن الآب قد أعطى الجواب لبطرس عندما قال : « أنت المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٦) ، فإن البعض من الناس انقسموا فى الاجابة على هذا السؤال • ويرجع سبب انقسامهم إلى الثقافة التى تثقفوا بها والبيئة التى نشأوا فيها والأديان التى اعتقدوا بها وعاشوا فيها(١) •

فعندما حاول هؤلاء الناس أن يجيبوا على هذا السؤال : « من هو يسوع المسيح ؟ » انقسموا فى اجاباتهم • وكما سبقت الاشارة فإن الكنيسة نشأت أولا فى بيئة يهودية وكان التلاميذ أنفسهم يهودا • فعندما بشروا بيسوع المسيح وسط الأمم كاله ، كانت الخطورة هى أن تقبل الأمم المسيح المخلص كأحد الآلهة الكثيرين المنتشرين والمعروفين عندهم ، وأن يصبح المسيح بالنسبة للأمم واحدا من العوالم الالهية التى نادت بها الغنوسية • وهنا تظهر خطورة الغنوسية أو الدوسيتية (أو الدوسونية) •

أما الخطر الثانى الذى كان يهدد العقيدة المسيحية ، فهو تمسك بعض اليهود الذين قبلوا الايمان المسيحى ، بالناموس • فان هؤلاء اليهود المتنصرين حاولوا هم أيضا بدورهم الاجابة على هذا السؤال : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » • فالجماعة الأولى التى قبلت تعاليم الرسل ، ضمت صوتها مع صوت بطرس بالقول : « أنت

1. A. Harnack. History of Dogma Vol. 3 p. 20 - 32.

هو المسيح ابن الله الحى » • ولكن ظهرت جماعات أخـرى عديدة فى الكنيسة المسيحية نفسها ، لم تقبل هذا الاعتراف ، وعلى الخصوص أقوال الرسول بولس التى تشير الى لاهوت المسيح ووجوده السابق لكل وجود ، « اللوغوس » ، الكلمة الأبدى ، الذى به كل شىء كـان وبغيره لم يكن شىء مما كان • فإن هذه الجماعات قبلت المسيحية ودخلت فيها ولكنها أرادت أن تحتفظ بناموس موسى ، بل أنها وجدت فى أقوال المسيح نفسه سندا يؤيد زعمهم هذا ، أى التمسك بناموس موسى • ألم يقل السيد « ••• لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ••• » (مت ٥ : ١٧ ، ١٨) • فمنذ البـداية ظهرت هذه الجماعات فى داخل الكنيسة نفسها وأرادت المحافظة على الناموس والتقليد والصيام والعادات التى كان يتبعها اليهود • ومن هذه الجماعات :

١ ــ جماعة الاخوة « الضعفاء » الذين يتكلم عنهم الرسـول بولس (١ كو ٨ : ٩) •

٢ ــ الاخوة الكذبة الذين يذكرهم نفس الرسول فى الرسـالة إلى أهل غلاطية (غل ٢ : ٤) والذين كانوا يتمسكون بالختان كأمر ضرورى للخلاص •

٣ ــ المعلمون الكذبة الذين ظهروا فى كولوسى وأفسس (أف ٤ : ١٤) •

٤ ــ الناصريون ، ومع أن هذه الجماعة الأخيرة قد تمسكت بلاهوت المسيح والميلاد العذراوى وعمل المسيح الفدائى ، إلا أنهم تمسـكوا

أيضا وبشدة بالناموس الموسوى والتعاليم الربانية والوطنية ، فقد كانوا ينتظرون تأسيس مملكة يهودية اسرائيلية .

٥ ــ ثم جماعة الإبيونيين(١) وهم يشبهون الى حد كبير الاخوة الكذبة الذين ذكرهم الرسول بولس (غل ٢ : ٤) ، ولقد ظهرت هذه الجماعة بعد سنة ٧٠ ب م أى بعد سقوط أورشليم . ولقد تضاربت الآراء على تسميتهم بهذا الاسم كما أشرنا الى ذلك سابقا ، فإن ترتليانوس يعتقد بأن اسمهم مشتق من اسم المؤسس لطائفتهم وهو إبيون ، ويشك فى هذا الأمر كثيرا ، لأن يوستينوس وإيريناوس وأريجانوس لا يذكرون شيئا عن هذه الشخصية .

أما بخصوص عقيدة هذه الجماعة ، فقد تمسكوا بالختان ، والناموس والتقاليد لخلاص الأمم . واعتبرا يسوع كالمسيا ولكنه فى نفس الوقت إنسان ومجرد انسان عادى ولد ولادة طبيعية من مريم ويوسف . ولقد حصل على نعمة خاصة فى أثناء العماد . ولا يرون فى أعمال المسيح إلا أعمالا تعليمية كاملة ومكملة لأعمال موسى . كما أنهم يؤمنون بمجىء المسيح الثانى بل ينتظرونه بفارغ الصبر لكى يمحو بهذا المجىء الثانى عثرة الصليب المخجلة . وهم لا يقبلون بولس كرسول حقيقى .

إن هذه الجماعة شددت كثيرا على ناسوت المسيح وأنكرت لاهوته، وكانت لا ترى فى يسوع الا مجرد انسان . وعندما تدرس بالتدقيق عقيدتهم فى يسوع ، نلاحظ تمسكهم باليهودية بل بالمسيانية المنتصرة على العدو . فإن انتظارهم للمجىء الثانى للمسيح لم يكن انتظار الكنيسة الهائمة المنتظرة لمقابلة عريسها المحبوب ، بل انتظار المسيا

---

(١) انظر كتاب Bonifas ص ٦٨ ــ ٧١ .

الذى بمجيئه الثانى سيزيل لطخة العار التى تركها الصليب على وجوه هؤلاء الذين ينتظرون مجيء ملكوت الله بقوة ...

ومــع أنهم كانوا يرون فى المسيح مجــرد إنسان إلا أنه كــان إنسانا عظيما ، فهو مختار الله بل هــو النبى الحقيقى . وبما أنهم أنكروا الميلاد العذراوى ، فقد حذفوا من كتابهم الأصحاحين الأولين من إنجيل متى ، وأنكروا أيضا أن المسيح سابق الوجود أو أنه ابن الله بالطبيعة . ويعلمون بأن المسيح لم يولد من الله بل أنه خلق كأحــد رؤساء الملائكة ، وهو يملك ليس على الملائكة فقط بل على كل الخــلائق لأنه هو ذاك الذى له كل السلطان ، ويؤمنون أيضا بأن لحظة العمــاد كانت حاسمة بالنسبة ليسوع ، لأنه فى هذه اللحظة رفعــه اللــه فوق الخليقة(١) .

إن هذه الآراء كانت منتشرة ومعروفة فى وسط اليهود المتنصرين ، والذى يقرأ رؤية راعى هرماس (LE PASTEURE D'HERMAS) يستطيع أن يدرك بدون عناء التأثير اليهودى الذى يسيطر على الكاتب فى تفسيره لمفهوم ابن الله والروح القدس (٢) .

فإن راعى هرماس يعتقد بأن الروح الذى أسكنه الله فى جســد يسوع لا يعتبر شخصا إلهيا ولكن قوة إلهية .

من هذا يتضح أن مذهب البنويين الذى نادى به ثيودوثيوس فى نهاية القرن الثانى لم يكن جديدا على الكنيسة ، بل كان كالزوان الذى

---

(١) انظر كتاب A. Grillmeier ص ١١٢ — ١٢٤ .
(٢) انظر A. Grillmeier ص ١١٥ .

ينمو مع النباتات الصالحة فى نفس الحقل • ومما لا شك فيه أن هذا الزوان الذى زرعته يد العدو فى الحقل ، سيظل هكذا موجودا فيه ويكبر مع النباتات الأخرى • وصلاتنا ليس بأن السيد يرسل منجله فيجتث هذه النباتات الرديئة ، بل أن يرسل روحه القدس لكى يبكت على خطية وعلى بر وعلى دينونة ، وعندئذ تتغير القلوب فيخرج من الآكل أكل ومن الجافى حلاوة(١) •

اللالوغوسيون (ALOGES)

وبما أننا نتكلم عن البنويين الذين لا يعترفون بأزلية يسوع ولا بمشاركته لله فى الطبيعة الالهية ، يجدر بنا أن نذكر طائفة أخرى قد اتفقت من الناحيــة العقائدية مع البنويين ، وهى جماعة اللالوغوسيين (ALOGES) وهذا الاصطلاح (ALOGES أو ALOGES) يعنى الأذكياء وفى نفس الوقت يعنى المنافسين لعقيدة « اللوغوس » ، أى الذين لا يعترفون أو لا يقبلون عقيدة « اللوغوس » • وكان يرأس هذه الجماعة كاهن رومانى يدعى غايوس (GAIUS) ظل على قيد الحياة الى سنة ٢٠٠ ب•م (٢)ولقد قام غايوس بحربشعواء ضد جماعة المونتانيين (LES MONTANISTES) (٣) •

ولقد نادى غايوس وجماعته بكثير من المبـادىء التى تبناهـا البنويون وهى أن يسوع ولد ميلادا عذراويا ولكنه لم يكن ابن اللــه

(١) ولدراسة هذا الموضوع بتوسع راجع كتاب A. Grillmeier فهو يعطى قائمة ممتازة لبعض الكتب التى تعالج هذه المشكلة ص ١١٢ — ١٢٤ . كذلك كتاب Lods الذى يعطى قائمة أخرى تستحق الدراسة ص ٣٧ — ٤١ .

(٢) انظر كتاب لودز (Lods) ص ٣٩ .

3. A Harnack History of Dogma Vol. 3, p. 14 - 19.

بالطبيعة بل أصبح ابنا لله عن طريق التبنى فى وقت العماد • ويدعون بالالوغوسيين لأنهم رفضوا عقيدة «اللوغوس» ولهذا السبب لم يقبلوا انجيل يوحنا ولا سفر الرؤيا • ولقد ظنوا بأن سرنت اليهودى نسب هذين الكتابين إلى الرسول يوحنا • وبرفضهم لهذين الكتابين وخاصة إنجيل يوحنا فقد رفضوا لاهوت المسيح إذ أنهم لا يعترفون الا بناسوته : وناسوته فقط • ولقد شددوا كثيرا على ناسوت المسيح ، وبناء على ذلك فإن هذه الجماعة لا تعترف بأن المسيح كان موجودا منذ الأزل مع الله ، بل ان بداية وجوده هى ميلاده •

إننا نجهل الكثير عن هذه الجماعة وعن مدى نجاح أو فشل تعاليمهم ، فلا نعرف بالضبط متى توقفت هذه الحركة عن العمل ومن الذى استطاع أن يوقفهم ويخرجهم من آسيا • فالمصادر التى تتكلم عنهم لا تعطى لنا تفصيلات واضحة • فلقد ذكرهم كل من :

1. EPIPHANE (PAN 51)
2. EUSEBE HE 2, 25. 6 - 7, 3, 28 1 - 2 ; 4, 20 - 3
3. HIPPOLYTE, KEPHALAIA KATA GAIOU

الفصل الثالث

أكليمندوس الاسكندرى

بعد أن رأينا فى الصفحات السابقة بعض المعلمين الذين ضلوا الطريق فى تعاليمهم الخاصة بشخص المسيح يسوع ، أمثال الغنوسيين وبازليدوس وفالنتيوس وساتيرنيوس وماركيون والبنوويين ثم اللالوغوسيين ... لنواصل الآن رحلتنا العقائدية بسلسلة أخرى من المعلمين الذين قاموا بدور هام عظيم فى تاريخ الفكر المسيحى القديم ولنبدأ هذه السلسلة بـ :

أكليمندس الاسكندرى : (CLEMENT D'ALEXANDRIE)

هو تيطس فلافيوس أكليمندس الاسكندرى . ولد ، على ما يحتمل، فى أثينا (بلاد اليونان) من أبوين وثنيين فى سنة ١٥٠ ب م ، ونجهل تاريخ قبوله للمسيحية ، كما نجهل أيضا تفاصيل الدوافع التى دفعت به لاتخاذ هذا القرار ، أى قرار قبوله للمسيحية . لقد أنهى تعليمه الثانوى فى أثينا . كان منذ طفولته محبا للعلم شغوفا به مولعا بالبحث عنه أينما وجد ومهما كلف . ولهذا السبب فقد ترك وطنه الأول أثينا وجال يبحث عن العلم فى كل من جنوب ايطاليا وسوريا ثم فلسطين . وكان الغرض من هذه الرحلة هو مقابلة أشهر المعلمين وتحصيل العلوم كيفما استطاع

...

أن يحصل عليها . وهو نفسه الذى سجل لنا هذا الأمر فى كتابه (STROM. 1, 1, 2) . على أن هذه الرحلة التى بدأ بها من أثينا لم تنته فى فلسطين بل فى الاسكندرية ، هذه المدينة العظيمة التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت كمركز علم وكملتقى لحضارات مختلفة متنوعة . فبسبب موقعها الجغرافى أصبحت الاسكندرية أثينا الثانية ، لأنها ربطت الثلاث القارات المعروفة فى ذلك الوقت . ولهذه الأسباب أصبحت الاسكندرية جامعة يلتقى فيها المعلمون والطلبة ، ولذلك فقد كثرت فيها المدارس الفلسفية والدينية . فعندما كان المرء يدخل هذه المدينة كان يشعر كما قال بونيفاس : « بأن كل الديانات وكل الفلسفات الماضية وكل التعاليم الكاذبة وكل التعاليم الصحيحة وكأنها على موعد فى هذه المدينة ، إذ أن كل المدارس كانت ممثلة فيها »(١) .

إلى هذه المدينة التى كانت تعتبر مدينة جامعية ، مع الفارق الكبير بينها وبين مدننا الجامعية الحالية لأن معلمى هذه الجامعة (الاسكندرية) كانوا مقيمين فيها وعلى استعداد بصفة مستمرة أن يتقابلوا مع طالبى العلم والنقاش معهم : جاء أكليمندس الى مدينة العلم باحثا عن العلم وعن الحق ليحصده من حقول الاسكندرية ويلتقطه من أفواه معلميها . وكطالب للعلم والمعرفة التحق بالمدرسة اللاهوتية التى كانت تدعى « مدرسة التعليم المسيحى » التى قام بتأسيسها وادارتها بانتينوس (PATENE) . وعلى ما يظن ، قبل أكليمندس المسيحية على يدى بانتينوس ، وبعد عماده أصبح الذراع الأيمن لمدير هذه المدرسة والمساعد الجدير بأن يحتل هذا المنصب . فإن بانتينوس ترك إدارة هذه المدرسة لتلميذه النابغة أكليمندس ، وذهب لنشر الانجيل(٢) . فى خارج مصر .

(١) انظر كتاب بونيفاس Bonifas ص ١٣٩ — ١٤٠ .
(٢) كان بانتينوس (Pantène) وثنيا رواقيا قبل المسيحية ، وهو الذى أشعر بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى سنة ١٧٩ وقام بالتعليم فيها

تولى أكليمندس ادارة المدرسة اللاهوتية بعد رحيل أستاذه بانتيوس ، ويظن البعض أن أكليمندس خلف بانتيوس فى حوالى سنة ١٩٠ (انظر بونيفاس ص ١٣٩) ، على أن البعض الآخر يظن أنه لم يصبح المسئول عن هذه المدرسة إلا فى حوالى سنة ٢٠٠ ب م (انظر QUASTEN ص ١٢) • ولقد اضطر إلى أن يترك مصر لسبب الاضطهادات القاسية المرة التى اجتاز فيها مسيحو مصر تحت حكم سبتيميوس سفريوس (SEPTIME, SEVERE) • ويقول كاستن إنه لجأ إلى أورشليم عند ألكسندر تلميذه والذى احتل فيما بعد كرسى أسقفية أورشليم ، ومات هناك فى سنة ٢١٥ دون أن يرى مصر مرة أخرى (انظر QUASTEN ص ١٢) • على أن بونيفاس يقول إن أكليمندس أضطر إلى أن يهجر مصر لسبب الاضطهادات ولكنه رجع إليها واستأنف تعليمه فيها إلى أن مات فى أرضها فى سنة ٢١٧ (انظر بونيفاس ص ١٣٩ ــ ١٤٠) •

كتابات اكليمندس :

كان أكليمندس من الشخصيات اللامعة ، ومن الكتاب الذين تركوا لنا كنوزا عظيمة ، تبدو أهميتها فى نقل الأفكار اللاهوتية والتعاليم التى علم بها والتى انتشرت فى تلك الحقبة من الزمان • وإن كنا لا نقبل كل ما علم به هذا المعلم ، إلا أن تعاليمه تبين لنا نوعا من العقائد والأفكار التى نادى بها البعض وانتشرت فى الكنيسة فى القرنين الثانى والثالث •

مدة سنوات ، ولقد قابل تعليمه نجاحا كبيرا . ثم ترك ادارة المدرسة لتلميذه اكليمندس وذهب إلى العربية لنشر الانجيل فيها بل وصل فى رحلته التبشيرية هذه الى الشرق الاقصى . وبعد ذلك رجع الى الاسكندرية حيث مات فيها . نجهل الكثير من حياته وكتبه . على اننا نعرف بان كلا من اكليمندس واريجانوس كانا من تلاميذه (انظر كتاب بونيفاس ص ١٣٩) .

ومع أن أكليمندس كان كاتبا مشهورا ومفكرا عميقا عظيما ، إلا أنه يحتاج الى التنظيم والترتيب فى الكتابة ، فلم يعرف أن ينظم ولا أن يرتب أفكاره بطريقة منطقية ، وهذا ما توحى به الكتب العديدة التى تركها . ولقد ملأت هذه الكتب الفراغ الذى نجهله عن حياته ، فمن بين سطورها نستطيع أن نتصوره رجلا واسع الاطلاع وكثير المعرفة . وكتاباته العديدة التى سنذكر البعض منها ، تظهر كفاءة هذا الرجل العلمية . فقد كان ملما بعلوم الفلسفة والشعر والأثريات والأساطير والآداب . فستجد فى مؤلفاته ١٥٠٠ اقتباس من العهد القديم ، ٢٠٠٠ اقتباس من العهد الجديد و ٣٦٠ اقتباس من بعض كتب العلماء والفلاسفة[1] .

والدارس لتاريخ العقائد يلاحظ بلا عناء التشابه الكبير بين الشهيد يوستينوس والمعلم أكليمندس فى أشياء كثيرة ، وبنوع خاص موقفهما من العلوم والفلسفات الوثنية ، فإن كان يوستينوس يؤمن بوجود بذور اللوجوس فى تعاليم وفلسفات اليونان ، فإن معلم الاسكندرية يذهب فى هذا المجال مذهبا أبعد من ذلك . فلقد قارن فلسفة اليونان بالعهد القديم نفسه عندما كانت تعد البشرية لمجيء المسيح . على أنه نبر بشدة بأنه بالرغم من أهمية الفلسفة ، إلا أنها لا تستطيع بأى حال من الأحوال أن تحل محل الوحى الالهى . إن الفلسفة لا يمكنها إلا أن تعد الطريق أمام الايمان (انظر كتابه STROM. 1, 5, 28 ، STROM, 2, 2, 8, 4) .

وأكليمندس يعتقد بأنه لا تناقض بين العلم والدين ، بل ان الأول هو خادم أمين ومساعد عظيم له أهمية لا تقدر ، على شرط معرفة استخدامه استخداما حسنا . فإن المسيحية هى تاج ومجد كل الحقائق التى تكتشفها كل المذاهب الفلسفية المختلفة (انظر المجلد الثانى

(1) انظر كتاب Quasten ص ١٣ .

(QUASTEN. 14 • ولذلك فقد حاول أكليمندس أن يعالج فى كتاباته ليس المشاكل اللاهوتية والدينية فقط ، بل تعرض أيضا لبعض المشاكل الاجتماعية والفلسفية التى كان يواجهها المجتمع المعاصر • فإن الكنيسة يجب أن لا تغفل عينها عن هذه المشاكل • ولذلك فقد استحق عن جدارة لقب « رائد العلوم المسيحية » (انظر كتاب QUASTEN المجلد الثانى ص ١٣) ، فهو صاحب المبادرة فى دفع الكنيسة الى دراسة العلوم الغير المسيحية واستخدامها (انظر BONIFAS ص ١٤٠) •

ولقد ترك لنا معلم الاسكندرية مجموعة ضخمة من الكتب اللاهوتية العقائدية والتفسيرية والدفاعية ، والكتب الأدبية أيضا ، التى بقى بعضها إلى الآن وضاع البعض الآخر ، ومن أهم هذه الكتب :

(١) « حث لليونان » (L'EXHORTATION AUX GRECS)

يحاول الكاتب أن يحث اليونان على التجديد وقبـول اللوغـوس الحقيقي الذى تنبأ عنـه الأنبياء والذى ظهـر فى شخص المسيح • ثم يناشدهم أن يتركوا عبادة الأوثان وقبول التعاليم الحقيقية التى تنادي بها المسيحية (أنظر كتابه PROTREPTIQUE 11, 117, 3 - 4) ، فإن هذا الكتاب يمكن اعتباره كتابا دفاعيا عن المسيحية •

(٢) « المهذب أو المعلم » (LE PEDAGOGUE) ، ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة مجلدات ، وهو عبـارة عن تكملة لكتابه السابق « حث لليونان » ، وفيه يقدم بعض النصائح للذين قبلوا الايمان المسيحى ، ويشرح بالتفصيل أن « اللوجوس » هو المعلم الذى يرشد الذين تجددوا إلى الطريق السليم الصحيح الذى يجب أن يسلكوا فيه • فإن الدور الذى يقوم به اللوجوس هو دور روحي وليس ثقافيا ، فهو يؤهل النفس لحياة روحية سامية وفاضلة (راجع كتابه PAED.. 1, 1, 14) وهـو

معلم الأطفال ، الأطفال الذين قبلوا المعمودية وتجددوا (PAED 1, 6, 26.1) ومما لا شك فيه أن هذه الجملة الأخيرة « قبلوا المعمودية وتجددوا » توحي للبعض كما لو كان التجديد أو الفداء هما نتيجة لقبول الانسان للمعمودية ، أو كما لو كانت المعمودية هي السبب في هذا التجديد والفداء . وفي الواقع فإن الأمر يختلف عن ذلك تماماً ، فإن أكليمندس كان يخاطب وثنيين ، ولذلك فإن ما يريد أن يقوله في العبارة السابقة ، هو أن عملية التجديد أو قبول الايمان المسيحي كانت تسبق أي عملية أخرى . فعندما كان يتجدد الانسان الغير المسيحي ويدرك عملية الفداء التي تمت في المسيح ، فعندئذ وعندئذ فقط كان يعمد . والعماد كان علامة ظاهرية واعترافا جهاريا أمام الجميع على الايمان الخفي الذي عن طريقه قبل الانسان المسيح كمخلص وفاد ...

(٣) « الطرازة أو الحياكة » LES STROMATES ON TAPISSERIES وتحتوي هذه السلسلة على ثمانية كتب . ويتعرض الكاتب في هذه المجموعة لمعالجة أمور كثيرة ودراسة مواضيع مختلفة متنوعة ، كالعلاقة بين الديانة المسيحية والديانات والمذاهب الفلسفية الأخرى . وهو يدافع عن الفلسفات اليونانية ويعتقد بأن العناية الالهية قد منحت هؤلاء الفلاسفة هذه الفلسفات ، كما منح الله العهد القديم لليهود . على أن هذه الفلسفات لا تعادل ، بلا شك الوحي المقدس ولا تحل محله . (راجع STROM 1, 5, 28 ; 2, 2, 8, 4) .

(٤) كتابان عبارة عن اقتباسات من كتب الغنوسيين والتعليق عليها (انظر QUASTEN 23)

(٥) عظة عنوانها : « من هو الغني الذي سيخلص ؟ » (مرقس ١٠ : ١٧ — ٣١) .

مؤلفاته المفقودة :

أهم ما فقد من مؤلفات أكليمندس هو تفسيره للكتاب المقدس بعهديه وعنوان هذا التفسير الذى يحتوى على ثمانية مجلدات هو « مسودة » (HYPOTYPOSES = CROQUIS) • ولقد أشار إلى هذا التفسير أوسابيوس (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 6, 14, 1) ، كما أن أوسابيوس يذكر أيضا أن أكليمندس كتب كتابا آخر عن الفصح (EUSEBE HIST. ECCL. 6, 13, 9)

ونفس المؤرخ (أوسابيوس) يتكلم عن كتاب آخر يدعى « حث للمتعمدين حديثا » ، ثم يذكر محاضرتين لأكليمندس عن الصوم والنميمة •••

بعد أن عرفنا بعض الأشياء عن المعلم الاسكندرى ومؤلفاته ، حان الوقت لأن نطرح السؤال الذى هو صلب بحثنا وهدفه ، وهو ما هى تعاليمه الكرستولوجية (التعاليم المختصة بالمسيح) •

كان أكليمندس معاصرا للقديس إيريناوس ، وهذا الأخير كتب الكثير ضد الغنوسيين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك • فإن كان إيريناوس قد حارب الغنوسيين فى عقيدتهم التى كانت منتشرة ، فلا بد أن اللاهوتى المصرى قد تعرض لهذه المشكلة • وكيف لا تعترض مشكلة الغنوسية هذا الرجل وهى قد نمت وترعرعت فى الاسكندرية لأنها وجدت لها تربة طيبة صالحة فى هذه المدينة ؟ ! لقد حارب أكليمندس الغنوسية كما حاربها إيريناوس ، وكان يعرف أيضا خطر الهلينية الذى كان يهدد المسيحية كما كان يعرفه أيضا إيريناوس • على أن القديس اليونانى (إيريناوس) كان رجل الكتاب والتقليد أما أكليمندس فكان رجل الكتاب والعلوم والفلسفة •

ولهذا السبب فان هجوم اللاهوتى المصرى ضد الغنوسية يختلف

عن هجوم اللاهوتى اليونانى . فأكليمندس كان يعرف خطر الغنوسية المزيفة على المسيحية وعلم ضدها . كما أنه هاجم أيضا ، كباقى المدافعين فى عصره ، الهراطقة والهرطقة الغنوسية ، إلا أنه ميز ما يسميه الغنوسية المزيفة والغنوسية الحقيقية . لقد علم أتباع الغنوسية (المعروفة) الهرطوقية بعدم إمكان التوفيق بين العلم والايمان ، أما أكليمندس فعلى العكس من ذلك ، فقد اعتقد بأن المؤمن الحقيقى ما هو إلا ثمرة انسجام الايمان والمعرفة ، فالايمان (PISTIS) هو بداية الفلسفة أو المعرفة (GNOSIS) (انظر STROM ; 1, 20, 100 ; 2, 4, 15)
ومع أنه يعطى أهمية كبرى للمعرفة (الغنوسية) إلا أنه يعطى الأولوية للايمان . ولقد شدد كثيرا على أن الفلسفة والعلم هما خادمان للايمان ويساعدان على اكتشاف الكنوز المخفية فى الكتاب .

إن المحاولة التى قام بها أكليمندس فى التوفيق بين ما يسميه الغنوسية الحقيقية والايمان ، سببت له بعض المشاكل العقائدية إذ أنه تطرف فى بعض الأحيان فى تعاليمه عن الغنوسية . ومما لا شك فيه أن العلوم والفلسفات الوثنية الكثيرة التى درسها والبيئة التى نشأ فيها أكليمندس ، تركت فيه أثرا عميقا لم يكن من السهل محوه محوا تاما . والدارس لكتابات اللاهوتى المصرى يلاحظ بعضا من هذا التأثير الغنوسى فى تعاليمه .

تعاليمه الكرستولوجية :

ومع أن أكليمندس يتمسك بالأفكار التى علم بها القديس يوستينوس بخصوص اللوجوس ، إلا أنه نادى بأفكار أخرى غير التى علم بها يوستينوس . ففى شرحه لعقيدة « اللوجوس » ينهج نفس المنهج الذى سلكه يوستينوس ، أى يبدأ بظهورات اللوجوس فى العهد القديم . فإن الظهورات التى يكلمنا عنها العهد القديم ، كانت ظهورات اللوجوس ، وكانت كل هذه الظهورات تعد للظهور الأعظم ، أى التجسد .

ففي خلال فترة العهد القديم كان اللوغوس يظهر نفسه بطرق مختلفة متنوعة ، « ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة مولودا تحت الناموس ... » (غل ٤ : ٤) . على أن هذا الظهور الأخير أى التجسد يختلف تماما عن الظهورات السابقة ، فهو شيء جديد من نوعه فكما أن الله قد اختار شعبا جديدا ، وعهدا جديدا فانه يظهر هذه المرة لشعبه بطريقة جديدة . (انظر PAED. 1, 59, 1) .

ويعتقد اللاهوتي الاسكندرى بأن اللوغوس الذى ظهر بطرق عديدة فى العهد القديم والذى ظهر فى نهاية الزمان فى يسوع المسيح هو نفسه الذى كان يرشد الفلاسفة بنفس الطريقة التى كان يرشد بها أنبياء العهد القديم تقريبا (انظر STROM. 1, 5, 28 ; 5, 12, 81, 4 - 82, 4)

واللوغوس لا يبدأ بهذه الظهورات التى يتكلم عنها العهد القديم ، بل هو الذى خالق هذا العالم ، كل ما يوجد فى الكون به وله قد وجد ، وهو أيضا الذى مع الآب والروح القدس يكون الثالوث الالهى ، وهو الذى عن طريقه أيضا نستطيع أن نعرف الآب (انظر نفس الشاهد أعلاه) ، فلا الظهورات إذن ولا عملية التجسد كانت بداية وجود اللوغوس ، إذ أنه كان موجودا مع الآب قبل أن توجد كل هذه الكائنات . وعملية التجسد التى قام بها اللوغوس لم تنقص شيئا من عظمته وسموه ، العظمة والسمو اللذين يتصف بهما الآب . بهذه النقطة استطاع معلم الاسكندرية أن يخطو خطوة للأمام وأن يسجل تقدما على الذين سبقوه من المدافعين أمثال يوستينوس وغيره ، الذين بالغوا كثيرا فى وصف عظمة الآب وارتفاعه ، مما ترتب عليه التقليل من سمو اللوجوس ، فإن دخول اللوغوس فى التاريخ أصبح مركزا للتاريخ ومكملا لظهورات العهد القديم . ومجيئه أيضا الى العالم هو اظهار محبة الآب للعالم (انظر PAED., 1, 8, 2 ; PROTR. 116, 1) .

ومن هذا نلاحظ أن أكليمندس يعترف بنوع من المساواة فى العظمة بين الآب والابن .

ويرى معلم الاسكندرية فى اللوغوس شمسا جديدة تشرق بنورها على العالم . فهو الذى بنوره استطاع أن يعلن لنا الآب بطريقة واضحة ومضيئة ، لأنه نور العالم ، وبنوره نستطيع أن نرى الآب (انظر PROTR 113, 2) . فبعملية التجسد أصبح الابن منظورا ومدركا فى حيز الأشياء التى نراها وندركها بحواسنا (انظر STROM. V, 39, 2 ; 16, 5) .

فهو يتمسك بكلمات الرسول يوحنا : « والكلمة صار جسدا » (يو ١ : ١٤) . وهذا الكلمة هو نفسه الذى ولد من الآب قبل كل الدهور ، « لوغوس » واحد مولود من الآب ، وبهذا ينفى أكليمندس الادعاءات الغنوسية التى كانت تعلم بوجود عدة « عوالم » أو مسايا أو مسحاء (انظر EXC. . THEOD. 7, 4 ; 8, 1) . فهو أيضا صورة الآب (انظر كتابه STROM 5, 34, 1) ، ولم يصبح صورة الآب بفضل التجسد وبسببه ، بل منذ الأزل وقبل كل بداية كان صورة الله الغير المنظور ، (انظر كتابه STROM 5, 38, 7) .

فاللوجوس الذى هو صورة الله ،هو أيضا سيد هذا الكون والمشرع للبشرية ، كما أنه المخلص للجنس البشرى والمعطى الحياة الجديدة ، وهذه الحياة تبدأ بالايمان وتنمو فى العلم والتأمل ، وتصل فى نهاية المطاف ، عن طريق المحبة ، الى الخلود والتأله (انظر كتاب PROTREPT 11, 88, 114) .

إن الدارس لكتابات معلم الاسكندرية يمكنه أن يلاحظ بلا جهد ، أنه شدد كثيرا على لاهوت المسيح ، ولذلك فقد اتهمه البعض بأنه دسوتى (DOCETE) (١) . ومما لا شك فيه أن الذى دفع البعض الى اتهامه

(١) الدسوتى : هو الشخص الذى يؤمن بلاهوت المسيح وينكر حقيقة ناسوته ؛ فبعض الغنوسيين انكروا ناسوت المسيح عندما علموا بأن المسيح كان فى هيئة إنسان ولم يكن إنسانا حقيقة .

بالدسوتية هو النصوص العديدة التى نجدها فى كتاباته ، والتى يشتم منها رائحة الدسوتية . وخاصة الأفكار التى أخذها عن الغنوسية الفالنتينية ، فلقد سبق أن أشرنا إلى أن فالنتينوس قد علم بأن المسيح قد ظهر فى شبه جسد وليس فى جسد حقيقى ، لدرجة أن مرور الجنين يسوع من رحم أمه ، لم يفض عذراويتها ، فقد كان مروره كمرور شعاع الشمس عبر الزجاج ... ولقد نادى معلم الاسكندرية بأفكار تشبه إلى حد كبير هذه الأفكار الغنوسية . فنجد فى تعاليمه بعض الأفكار الغريبة ، مثلا : أن المسيح لم يكن محتاجا لعملية هضم الطعام ولا لعملية التبرز (انظر كتابه STROM 3, 7, 59, 3) .

وهناك نص آخر يدل على التأثير العميق الذى تركته الغنوسية فى تعاليمه ، ففى شرحه ليوحنا : « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة » (١ يو ١) يشير إلى بعض التقاليد التى تقول بأن الرسول يوحنا قد غمس يده فى جسد المسيح ولم تقابل يده أية مقاومة إلا قوة اللاهوت (انظر ص ٩٢ ، ٩٣ J. LIEBAERT) .

ولقد تركت الرواقية أيضا بدورها تأثيرا لا يستهان به على تعاليمه . ونلاحظ هذا فى مفهومه لمشكلة آلام المسيح . هل المسيح كان يتألم ويجوع ويعطش كبقية البشر ؟ فهو يظن أن المسيح كان فوق كل هذه المؤثرات الحسية . فلم يكن للعطش أو للجوع أو للآلام أى سلطان عليه، لأن القوة الالهية قد حلت فيه محل هذه الدوافع ، واللاهوت سيطر عليه بطريقة كلية لدرجة أن هذه المشاعر والعواطف والتأثيرات الحسية لم يعد لها أى سلطان عليه (انظر كتابه STROM : 6, 9, 71, 3, 6, 49. STROM. 6, 135, 1 - 4) .

ويتعرض المعلم المصرى لمشكلة لاهوتية أخرى ، وهى الدور الذى يقوم به اللوجوس فى الجسد ؟ من الذى يحكم ويسيطر ويدير ويوجه

هذا الجسد : أهو اللوجوس أم الجسد ؟ إنه يعتقد بأن اللوغوس الذي سكن فى هذا الجسد هو الذى يسيطر عليه ، يوجهه ويديره حيثما شاء ، لأن قوة الروح أو مايسميه بالانسان الداخلى أو اللوجوس هــو الذي يسيطر على الانسان الخارجى • فإن اللوجوس يتدخل فى الجسد لتغييره وادارته والسيطرة عليه (راجع كتابه STROM 6, 135, 1 - 4 ; 3 1, 2 ; 3, 7, 59, 3) .

من هذه النصوص التى أشرنا إليها ومن نصوص أخرى فى كتابات أكليمندس ، استنتج البعض بأنه كان دسوتيا ومما لا شك فيه أن هــذه النصوص تدل فعلا على روح دسوتية إذا أخذناها منفردة منعزلة عــن الفصول الأخرى التى تتكلم عن ناسوت المسيح • فإن الدسوتى الحقيقى لا يؤمن بحقيقة جسد المسيح ولا يتكلم عن وجوده • أما معلم الاسكندرية فبالرغم من تشديده على لاهوت المسيح فإنه لم يهمل الكلام عن ناسوته فهو يؤمن بأن اللوجوس المتجسد هو الله وإنسان ، الذى منحنا الحيــاة (انظر كتابه PROTRET 11, 88, 114) • بل أن أكليمندس قد علم بأن اللوجوس الذى هو سابق لكل وجود ، هو هو نفسه الذى سكن فى شخص يسوع المسيح التاريخى • وهو نفسه أيضا الذى حل فى الجسد وارتبط به (راجع كتابه STROM 5, 105, 4 ; 5, 38, 6) .

فأكليمندس لم ينكر إذن حقيقة جسد المسيح كما فعل الغنوسيون، بل أشار الى هذا الجسد الحقيقى فى كتاباته العديدة • فليس من السهل إذن القول بأن أكليمندس كان دسوتيا ، ولكنه حاول أن يوفق بين التعاليم الغنوسية الوثنية وبين الغنوسية المسيحية ، وفى هذه المحاولة قد شــدد كثيرا على اللاهوت معطيا له الأولوية العظمى • ولهذا السبب عندما كان يتعرض فى تفسيره أو تعليمه لشرح عقيــدة حلول « اللوجوس » فى الجسد ، فانه كان يبالغ فى ابراز ملامح اللاهوت فى الصورة التى كان يرسمها عن التجسد لدرجة أن القارىء لا يرى فى أحيان كثيرة إلا اللاهوت

الذى غمس فيه يوحنا يده والذى لا يخضع للجوع أو للعطش أو للآلام ، وتتلاشى صورة يسوع الناصرى الانسان الذى كان يعطش ويجوع ويتألم .

ومما لا شك فيه أن أكليمندس المسيحى المتجدد فى الاسكندرية كان يحتفظ فى داخله بجزء من أكليمندس الفيلسوف اليونانى الذى درس الفلسفات اليونانية الوثنية بمذاهبها المختلفة المتنوعة ، وبالرغم من ذلك لا يمكننا أن نعمم هذا المبدأ على كل ما كتبه هذا الرجل المثقف المطلع ليس فقط على الفلسفات الوثنية بل على الكتب المقدسة ، ويكفينا أن نلقى نظرة على ما كتبه لكى نعرف كفاءة الرجل العلمية والكتابية فى شتى المواضيع . فلقد كتب كتبا عن الكنيسة ومكانتها وماهى (انظر PAED 1, 6, 42 ; 3, 12, 89, 1. STROM 7.16, 107 ; 15, 89 ; 7 ; 76, 76)

(وعن الدرجات فى الكنيسة STROM 6, 13, 107) ثم كتب عن العماد (انظر ; STROM 3, 12, 87) ، ثم كتابه المعنون بعنوان : « من هو الغنى الذى سيخلص (1 ; 23) وكتب أيضا عن الأفخارستيا · ما هو سر الأفخارستيا بالنسبة له ، هل هو تقديم الذبائح ، أو الحضور فى الاجتماعات الدينية أو تناول العشاء الربانى أو هو انسحاق القلب وتقديمه للرب كذبيحة حية مرضية لله ؟ يبدو بأن معلم الاسكندرية فضل هذا الرأى الأخير (انظر . (STROM 7, 3, 14 - 15 ; 7, 6, 32 ; PAED 1, 6, 42, 3 - 43, 2 ولقد كتب أيضا يعالج موضوع الخطية والتوبة (انظر . (STROM, 2, 13, 56 - 57, 4 ; 2, 13. 58 - 59 ; PAED 1, 8, 67

ثم كتب عن الزواج والعزوبية (انظر STROM 3, 12, 82 ; 712, (10, PAED 1,4

مراجع للذين يريدون دراسة شخصية أكليمندس الاسكندري :

1. J. Quasten. Initiation aux peres de l'Eglise 2e vol. (Les Editions du Cerf).

من صفحة ١٢ ــ ٤٩ يعطى الكاتب قائمة ضخمة جدا بمراجع فى غاية الأهميـــة .

2. A. Grillmeier. Le Christ dans La tradition Chretienne. De L'âge apostolique a Chalcedoine (451) (Les editions du cerf)

توجد ايضا قائمة بكتب تختص بهذا الموضوع من صفحة ١٨٧ ــ ١٩٢ .

3. J. Liebaert. Histoire des Dogmes. L'incarnationdes Origines au Concile de Chalcedoine (Les Editions du cerf).

قائمة الـكتب فى صفحة ٩٢ ــ ٩٣.

4. F.R.M Hitchcock. Clements of Alexandria. London 1899.
5. J. Patrick. Clements of Alexandria 1914.
6. R.B. Tolinton. Alexandrine teaching on the Universe. New York, 1932.
7. E. De, Faye. Clement d'Alexandrie 2e ed., Paris 1906.
8. R.E. Witt. The Hellenism of Clement of Alexandria. c 925 (1931) 195 - 204.
9. J. Moingt. La Gnose de Clément d'Alexandrie dans ses rapports avec la foi el la philosophie. RSR 37 (1950) 195 - 251, 38 (1951) 82 - 118.
10. V. Ermoni. The Christologie of Clement of Alexandria. YTHST 5 (1904) 125 SQ.
11. H. A Wolfson. Clements of Alexandria on the generation of the Logos. Church & History 20 (1951)' 3 - 17.

الفصل الرابع

ترتليانوس

عندما ندرس تاريخ الكنيسة ، نرى أن المسيحية قد انتشرت خلال القرنين الأول والثانى ليس فقط فى أورشليم وأنطاكيا ومصر وروما وأفسس وسميرنا ، وبلاد الغال (فرنساحاليا) ولكنها وصلت أيضا إلى أفريقيا ، بل أن هذه الأخيرة تمخضت وولدت ليس فقط مؤمنين عاديين قبلوا المسيح يسوع كمخلص ورب لحياتهم وتصرفاتهم ، بل أن أفريقيا ولدت أبطالا فى الايمان أصبحوا كالنجوم اللامعة فى سمائها الزرقاء الصافية ، فبشروا شعبها بالانجيل وعلموه الايمان الصحيح الذى تسلموه من خدام الرب الأمناء • ومن بين هذه النجوم الأفريقية اللامعة ترتليانوس وكيبريانوس ، وأغسطينوس وآخرون •

ترتليانوس :

واسمه بالكامل فى اللاتينية هو كنتينوس سيبتينوس فلورنتوس ترتليانوس QUINTUS, SEPTINUS, FLORENT, TERTULLIANUS ومسقط رأس هذا الرجل قارطجنة (CARTHAGO) • وهى مدينة أثرية قديمة فى شمال أفريقيا أسسها الفينيقيون فى حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ولا تبعد كثيرا عن تونس الحالية •

ولد ترتليانوس فى حوالى سنة ١٥٥ ــ ١٦٠ من والدين وثنيين ، وكان أبوه يحتل مركز رئيس فرقة الوالى الرومانية فى هذه المدينة • وفى هذه المدينة الوثنية نشأ الشاب ترتليانوس وتردد على مدارسها وتتلمذ على أيدى معلميها • ثم توجه بعد ذلك إلى روما لكى يدرس الحقوق فنجح فيها نجاحا ملحوظا • وبعد أن أنهى دراسة الحقوق ظل مقيما فى روما وقتا من الزمن يمارس فيها المحاماة ، حيث طارت شهرته كالبرق ، فأصبح محاميا مشهورا قديرا ، وكان المعلم الأفريقى متزوجا ، ولا نعرف الكثير عن زوجته • إلا أن كتاباته تحتوى على كتاب قد كتبه إلى زوجته ، وفيه ينصحها بعدم التزوج مرة ثانية إذا شاءت العناية الالهية بأن يغادر قبلها الحياة الأرضية • ولكن إن لم تستطع احتمال الترمل فليكن زوجها مسيحيا حقيقيا متدينا • (انظر كتابه . (AD. UXOREM

تختلف الظروف التى تجدد فيها ترتليانوس عن الظروف التى تجدد فيها كل من القديس يوستينوس وأكليمندس فكما سبقت الاشارة فإن هذين الأخيرين قبلا الرب يسوع كمخلص وفاد لهما بعد بحث طويل ودراسة عميقة وتفكير ناضج ، أما الذى قاد المعلم الأفريقى للمسيح فهو الشجاعة المنقطعة النظير التى أظهرها الكثيرون من الشهداء عندما استقبلوا الموت ليس فقط بلا خوف أو انزعاج ، بل أيضا بفرح وابتهاج •

فإن موقف هؤلاء الشهداء عند استشهادهم وتقديمهم الشهادة الحسنة اللامعة لشخص ربنا يسوع المسيح غير حاسبين نفوسهم ثمينة عندهم ، كان لهذا الموقف البطولى الأثر العميق على المحامى الأفريقى • ولقد سجل لنا هو نفسه هذه الانطباعات فى كتابه (AD. SCAFULAM 5) فإن شجاعة المسيحيين الأولين الذين كانوا يستقبلون الموت بلا تردد

ولا خوف ، دفع رجل القانون ترتليانوس إلى أن يفكر فى دراسة الانجيل والتعرف على هذه الديانة • ويحتمل أنه تجدد فى حوالى سنة ١٩٣ • ومنذ ذلك الوقت بعد أن قبل المسيح مخلصا وفاديا ، كرس نفسه وحياته للدفاع عن هؤلاء المسيحيين الذين كانوا بلا مدافع أرضى ، فإن معظم كتابات هذا المدافع المحامى تحتوى على كتابات دفاعية عظيمة جدا • ومن أشهر هذه الكتب كتبه الدفاعية (LES ECRITE APOLOGETIQUE) ففى سنة ١٩٧ كتب كتابين يشرح فيهما بلباقة نادرة نقد لاذع وثبات لا تهزه العواصف ، موقف المسيحية من الدولة وموقف الدولة من المسيحية •

ففى هذين الكتابين حاول المحامى المدافع أن يشرح ليس فقط للحكام الذين كانوا يضطهدون المسيحيين بوحشية وبلا شفقة ، بل للشعب أيضا أن هؤلاء ليس لهم الحق فى اضطهاد مواطنين صالحين كالمسيحيين : فلقد بين فى دفاعه عن المسيحيين أن الجهل هو المسئول الأول عن موقف الحكام والشعب فى اضطهادهم للمسيحيين • فإن المسيحيين ليسوا بأعداء الدولة أو الامبراطور ولا أعداء الجنس البشرى كما اتهمهم البعض بذلك • وكيف يمكن أن تلاميذ ذاك الذى أوصى بأن نحب الأعداء ، أن يكونوا أعداءا للدولة أو للجنس البشرى ؟ (انظر كتاب APOLOGIE 29 - 1 - 7) فبعد أن ينفى المحامى الشهير تهمة أن المسيحيين أعداء للدولة ، يطالب بحرية الدين ، وأنه ليس من حق الأممى أن يحاكم المسيحى لأن الأول أممى والثانى مسيحى ، وأن المسيحية لا يجب أن تكون جريمة يحاكم عليها الذين ينتمون إليها (انظر كتاب الدفاع (AUX PAIENS 1 - 19) .

وعلى ما يظن أن ترتليانوس رجع بعد تجديده إلى وطنه قارطجنة ليخدم سيده هناك • ومع أنه لا يذكر فى كتاباته أنه رسم كاهنا إلا أن

جيروم يؤكد هذا الأمر(١) .

ولقد احتل هذا الكاهن المحامى مكانة عظيمة جدا فى التعليم والتهذيب والارشاد . إذ قد أسند إليه عند عودته إلى مسقط رأسه « التعليم المسيحى » أى الاهتمام بتعليم المسيحيين وغير المسيحيين الحقائق والعقائد المسيحية .

غير أن علاقته بالكنيسة الكاثوليكية قد ساءت بسبب تشجيعه لجماعة المونتانيين (MONTANISME) ولقد انضم رسميا إلى هذه الجماعة فى سنة ٢٠٧ ب م ، ويبدو أن ترتليانوس كان له النفوذ القوى والتأثير الفعال على هذه الطائفة لدرجة أنه أصبح رئيسا لجماعة فيها ، بل إن هذه الجماعة انتحلت اسمه فدعوا أنفسهم : « الترتليانوسيين » . ولقد ظلت هذه الجماعة قائمة فى قارطجنة أو « كارتاج » إلى وقت ظهور القديس أغسطينوس .

لايمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ موت ترتليانوس ، إلا أنه من المؤكد أن موته لم يكن قبل سنة ٢٢٠ ب م (انظر J. QUASTEN P. 294)
لقد مات ترتليانوس ولكن تعاليمه التى تركها لنا وكتاباته العديدة جدا ، وجدت فى قلوب الشعب والمعلمين تربة صالحة فنمت فيها وترعرعت ، فأتت بأثمارها الكثيرة على مر العصور والأجيال . فاذا استثنينا القديس أغسطينوس ، لأصبح ترتليانوس ، فى الكنيسة اللاتينية الكاتب الأول ذا الشهرة اللامعة والمعرفة الكتابية واللاهوتية العميقة والقانونى المحنك والفيلسوف المفكر والدارس المنقب والمتعمق . فقد درس بجانب دراسته للحقوق ، والآداب ، اللاتينية واليونانية والفلسفات المختلفة فى عصره .
وكما قال عنه جريلمير GRILLMEIER « إن كثيرين من اللاهوتيين

(١) Frederic Delforge. Soixante te moins de Jésus - Christ Le Christianisme au Vingtième siecle p. 10 .

يعتقدون بأن التعــاليم اللاهوتية الــكرستولوجية الغربية تقدمت على التعاليم اللاهوتية الكرستولوجية الشرقية بعدة قرون بفضل ترتليانوس» (انظر GRILL. P. 166) .

ويمكننا أن نضيف عدة شــهادات واقتباسات من كتــابات كتاب كثيرين كتبوا عن هذا الرجل وتعليمه وتأثيره على جيله والأجيال التالية ، ولكننا نكتفي بتلخيص ما كتبــه كاستن (QUASTEN) عنه فيقــول : « أسلوبه يدل على تمكنه من اللغة اللاتينية ، وعلى مقدرته الخطابية .. فقد استطاع أن يصنع بل أن يخلق اصطلاحات غير معروفة وغير موجودة من قبل ، لكي يعبر بها عن أفكاره وتعاليمه ... فإن هذه المقدرة اللغوية ساهمت مساهمة عظيمة وفعالة في تاريخ الكنيسة المسيحية اللاتينية في شمال أفريقيا ... » (انظر QUASTEN 296 - 297) .

كان ترتليانوس رجل القانون والعلم حازما في قراراته ، ثابتا في تعاليمه وإيمانه ، لا يتــردد في الدفاع عن إيمــانه ولا في الدفاع عن المظلومين ، ولو كان هذا الأمر يغضب الرؤساء ويعرض حياته لخطــر الموت . ألم يكتب دفاعه ضد الحكام والأباطرة ؟ موضحا لهم موقف المسيحي من المجتمع الذي يعيش فيه ؟ (راجع AUX, PAIENS « إلى الأمم » ؛ APOLOGIE) .

ومع أن ترتليانوس تعلم وتهذب بكل العلوم التي درسها كل من يوستينوس وأكليمندس إلا أن موقفه منها يختلف الاختلاف كله عــن هذين المعلمين . فلقد سبق أن أشرنا إلى أن يوستينوس يعتبر أن بذور اللوجوس وجدت في فلاســفة اليونان والوثنيين تربة نمت فيهــا . فاللوغوس أرشد فلاسفتهم ومعلميهم . ثم أن أكليمندس الاسكندري قد ذهب في هذا المجال إلى أبعد من ذلك لدرجة أنه علم بأن الدور الذي

قام به الفلاسفة الوثنيون هو نفس الدور الذى لعبه الناموس عند اليهود . أما ترتليانوس فهو على عكس ذلك تماما . فهو يرفض زواج الفلسفة والدين ، فلقد كتب ما ملخصه... ماذا تعمل أثينا مع أورشليم؟ أيوجد اتفاق بين الكنيسة والأكاديمية ؟ أيوجد انسجام بين الهراطقة والمسيحيين ؟ ... لنبتعد عن كل محاولة لعمل مزيج من المسيحية والرواقية أو الأفلاطونية ... وبعد أن امتلكنا المسيح يسوع ، لا نريد فيما بعد مناقشات هدفها حب الاستطلاع ، ولا نحيد عن الانجيل ، ولا نريد أن نضيف إلى إيماننا معتقدات أخرى (راجع DE PRAESCR 7) .

فترتليانوس لا يريد إذن الرجوع إلى الأركان الضعيفة لكى يفهم عن طريقها وبواسطتها إنجيل المسيح . ويقول فى موضع آخر : أيوجد اتفاق بين المسيحى والفيلسوف ؟ بين تلميذ اليونان وبين تلميذ السماء ؟ بين الانسان الذى يبحث عن الشهرة وبين الذى يريد أن يصل إلى الحياة ؟ بين الذى يتكلم وبين الذى يعمل ، بين الذى يبنى وبين الذى يهدم ... بين الذى يفسد الحق والذى يعلمه ؟ (أنظر APDI, 46) ولقد لقب سقراط بلقب مفسد الشباب . وأما يوستينوس فقد قال عن سقراط بأنه مسيحى (انظر APOL. 46 ; DE PRAESER) .

وبالرغم من هذا الهجوم على العلوم والفلسفة فهو يعتقد بأن بعض الفلاسفة قد وصلوا إلى جزء من الحق وفكروا بطريقة صحيحة بناءة أمثال سنكا الفيلسوف وآخرين (أنظر DEAN., 20) .

ويعتقد البعض بأن موقف ترتليوانس من الفلسفة والعلوم ما هو إلا انعكاسا لتعاليم المونتانيين التى تأثر بها تأثرا عميقا .

كتابات ترتليانوس :

إن تأثير هذا الرجل ككاتب ، ومعلم وقانونى ومدافع عن الايمان ،

كان عظيما جدا ولا يمكن قصره على جيله أو كنيسته فحسب ، بل لقد تخطى الحدود وعبر الأجيال • ويعوزنا الوقت لو أردنا أن نسرد هنا كل كتاباته بالتفصيل لأنها كثيرة جدا ، ولذلك سنكتفى بالاشارة إلى البعض من كتاباته مع التعليق البسيط ، ثم سنعطى فى نهاية الفصل قائمة ببعض المراجع التى تساعد الدارس على التوسع فى دراسة هذه الشخصية العظيمة • وكم نتمنى أن يقوم البعض بدراسة جدية ودقيقة لبعض آباء الكنيسة أمثال أغناطيوس الأنطاكى ، وأكليمندس الرومانى، وبوليكاربوس ، وإيريناوس ، وأكليمندس الاسكندرى ••• الخ •

١ ـ الكتابات الدفاعية :
(LES ECRITS APOLOGETIQUES DE TRETULLIEN)

(أ) من كتبه الدفاعية الكتابان اللذان كتبهما فى سنة ١٩٧ وهما يعالجان نفس المشكلة أى الدفاع عن المسيحيين وعن حقوقهم كمواطنين أكثر اخلاصا وأكثر نشاطا وحبا للوطن من أى مواطن آخر • والكتاب الأول يسمى « للأمم » (AUX NATIONS)

(ب) أما الكتاب الثانى ويسمى « دفاع » (APOLOGIE) فيعتبر من أهم ما كتب ترتليانوس • فقد حاول فى هذا الكتاب أن يصل إلى قلوب حكام المقاطعات الرومانية لا لمهاجمتهم واظهار غطرستهم وظلمهم فى الحكم ، بل لقيادتهم للمسيحية واقناعهم بها •

فإن كان ترتليانوس يهدف من هذا الكتاب إلى الدفاع عن المسيحيين وعن حقوقهم ، إلا أنه لم ينس قط الناحية العقائدية ، فقد تكلم عن الروح ، روح الانسان الساكنة فيه ، من أين جاءت ومتى خلقت ؟ (انظر (APOL. 17, 1, 4 - 6 .

(ج) خطابه المفتوح إلى الحاكم أسكابولا (SCAPULA)

لقد وجه المدافع هذه الرسالة كخطاب مفتوح الى الحاكم اسكابولا (حاكم فى أفريقيا سنة ٢١١ — ٢١٣) الذى كان يضطهد المسيحيين بوحشية وبلا رحمة ، ووصلت وحشيته فى الاضطهاد الى أنه كان يأمر بالقاء بعض المسيحيين للوحوش الضارية المفترسة • كما أنه أمر بالقاء البعض الآخر فى النار المتقدة • وعلى ما يظن أن هذه الرسالة المفتوحة كتبت فى سنة ٢١٢ ، إذ أنه يشير إلى خسوف الشمس الذى حدث فى ١٢ أغسطس ٢١٢ كعلامة على غضب الله • ويحتوى هذا المكتوب على خمسة فصول •

(د) كتب كتابا آخر يسمى « ضد اليهود » (CONTRE LES JUIFS) • والذى دفعه إلى كتابة هذا المصنف حوار دار بين مسيحى وبين دخيل يهودى على المسيحية ، ففيه يتكلم عن المسيح الملك الذى ملكه بلا نهاية وبلا حدود • كما أنه يوضح بأن النبوات التى تنبأ بها الأنبياء تحققت فى المخلص •

٢ — كتبه الجدلية :

(أ) حق الهراطقة فى استعمال الكتاب (LA PRESCRIPTION DES HERETIQUES) • لقد حاول ترتليانوس أن يشرح قانونيا أن الهراطقة لا يملكون حق استعمال الكتاب المقدس (راجع فصل ١ — ١٥) •

(ب) كتابه ضد ماركيون (ADVERSUS MARCIONEM) :

يعد هذا الكتاب أضخم ما كتبه ترتليانوس من ناحية الحجم ، كما أنه فى غاية الأهمية لأنه يعتبر وثيقة تاريخية لدراسة هرطقة ماركيون• ويحتوى هذا الكتاب على خمسة مجلدات ؛ وفيه يفند الكاتب عقيدة

وأفكار ماركيون وخاصة الازدواجية الموجودة بين إله العهد الجديد وإله العهد القديم . والكاتب نفسه يعرفنا بأن المجلد الأول كتب في السنة الخامسة عشرة من حكم الامبراطور سفريوس أى في سنة ٢٠٧ ، كما أن بقية المجادات ظهرت بعد فترة قصيرة من ظهور المجلد الأول (راجع Mar. 1, 15) .

(جـ) كتابه ضد هرموجن (CONTRE HERMOGENE) :

وهو رسام غنوسي من كارتاج أو قارطجنة ، كان يعتقد بأن المادة أزلية كأزلية الله ، فلا بداية لها ولا نهاية . فهي إذن مثل الله بل مساوية له . ولقد حارب ترتليانوس هرموجن موضحا ضلال عقيدته ، ويبدو بأن ثيوفيلوس الأنطاكي سبق أن كتب مصنفا ضد هرطقة هرموجن (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 4, 24) .

(د) كتاب ضد الفالنتينوسيين أو الفالنتينيين
(CONTRE LES VALENTINIENS) :

وهو عبارة عن كتاب نقد لاذع لمذهب الغنوسيين الفالنتينوسيين ، ويقتبس الكاتب كثيرا من كتابات القديس إيريناوس (الكتاب الأول ADV. HAER.) ، ثم يقتبس أيضا بعض الاقتباسات من القديسين يوستينوس الشهيد ، وميلتيادوس (MILTIADE) .

(هـ) كتابه عن العماد :

إن هذا الكتاب يعتبر من الوثائق الثمينة والتاريخية التى تكلمنا عن ليتورجية العماد (نظام العماد) وفاعليته .

(و) كتابه عن العقارب .

(ز) جسد المسيح :

يحتوى على مجلدين يكمل أحدهما الآخر ، وفى هذا الكتاب الذى يسمى جسد المسيح (جسم المسيح) (CHAIR DU CHRIST) حاول ترتليانوس أن يشرح بطريقة واضحة ومقنعة للمؤمن حادثة قيامة الجسد • ويقول الكاتب (ترتليانوس) بأن الهراطقة أنكروا حقيقة جسد المسيح ، وهو يشير بذلك إلى أربعة مذاهب معروفة فى وقته وهى الماركيونية والأبليسية (APELLE) والبازيليدوسية (BASILIDE) والفالنتينوسية (VALENTIN) فكل هذه المذاهب الغنوسية تقبل وتعترف بحقيقة المسيح الروحية ، ولكنها لا تقبل حقيقة جسده أو على الأقل إن البعض منها يشك فى وجود جسد حقيقى للمسيح • ولقد كانت الأسئلة التى تشغل بال هذه الطوائف الغنوسية هى : هل كان للمسيح جسد ؛ وما هو نوع هذا الجسد ومن أين جاء ؟ ولقد حاول ترتليانوس أن يجيب على هذه الأسئلة فهو يعتبر أن ميلاد المسيح حقيقة واقعية لا شك فيها ، وبهذا رفض تعاليم ماركيون الدسوتية وكذلك عقيدة الغنوسيين • فالمسيح لم يأخذ طبيعته من الملائكة مع أنه يدعى ملاك الرب ، ولا من النجوم كما يعتقد (APELLE) ولا من أية مادة روحية أياً كانت كما ظن فالنتينوس ، بل إنه كان مثلنا تماما فى كل شىء ما عدا الخطية ، ومع ذلك فهو لم يولد عن طريق زرع بشرى • فإن جسد آدم الأول وجسد آدم الأخير لم يعرفا زرعا بشريا (انظر كتابه DE CARNE CHRIST 1, 17 كما أن ترتليانوس يرفض أيضا قول الغنوسيين القائل بأن المسيح لم يأخذ شيئا من العذراء ، فهم لا يقولون إن المسيح ولد من العذراء بل ولد عن طريق العذراء أو فى العذراء (انظر DECAR 23) .

(ح) قيامة الأجساد :

وهو يتكلم فى هذا الكتاب عن الطوائف التى تنكر القيامة مثل طائفة الصدوقيين وجماعة الهراطقة وجماعة الوثنيين • ويقول إن الجسد خلقه الله وفداه المسيح ويجب أن يدان فى الآخرة مع الروح •

ـــ كتابه ضد براكسياس (CONTRE PRAXEAS) :

كتب المعلم الأفريقي هذا الكتاب ضد عقيدة أنتشرت في ذلك الوقت تدعى « الانتحالية » (MODALISME ثم PATRIPASSIEN) وستكون لنا الفرصة فيمابعد للحديث عن هذه الشيعة . على أن كتاب ترتليانوس موجه لشخص يدعى براكسياس (PRAXEAS) قبل تعاليم هذه الشيعة ونادى بها . وقد كتبه في حوالي سنة ٢١٣ وتتلخص التعاليم التي نادى بها براكسياس فيما يأتي :

إن الآب هو نفسه الذى نزل في بطن مريم العذراء وولد منها ، وهو أيضا نفسه الذى تألم ، فالآب هو نفسه يسوع المسيح (انظر:PRAX 1) ورفض ترتليانوس هذه العقيدة ، ويعتبر ما كتبه دحضا لهـذه الهرطقة في غاية الأهمية ، فهو أول كاتب لاتيني ، يستعمل الاصطلاح «الثالوث» وكتابه ضد باركسياس (ADV. PRAX) في غاية الأهمية أيضا لأنه يحاول شرح الوحدة القائمة بين الآب والابن والروح القدس ، وهذه الوحدة مؤسسة على التميز وليس على الانقسام ، أى أنه يجب التمييز بين الآب والابن والروح القدس دون فصلهم الواحد عن الآخر .

ومع أن المعلم الأفريقي حـاول جاهدا الابتعـاد عن السقوط في الهرطقات التي كانت تهدد الكنيسة ، فقد انزلق انزلاقا خفيفا نحـو عقيدة التابعية (SWBORDINATIANISME) عندما تعرض لشرح علاقة الآب بالابن .

(ط) كتابه عن الروح :

إن هذا الكتاب يعد من أضخم كتبه حجما إذا استثنينا كتابه ضـد ماركيون . ففي هذا الكتاب يرفض أيضا الهرطقات المنتشرة كمـا أنه يـرفض فكرة الوجـود السابق للروح ، فهو يؤمن بن الروح والجسد

يصلان معا وفى نفس الوقت إلى الجنة • (انظر كتابه الزوج AME 7)
كما يعتقد أيضا بأن كل الأرواح تذهب بعد الموت إلى الهاوية ولا يفلت من الدخول فيها إلا أرواح الشهداء المختومة بدم الشهادة ؛ فهى التى تذهب مباشرة بعد الموت إلى الفردوس (انظر AME 55)

٢ ــ كتاباته عن النظام والآداب والتقشف :

فقد كتب تحت هذه المجموعة عدة كتب نذكر أسماءها فقط :
١ ــ إلى الشهداء ٢ ــ الملاهى ٣ ــ زينة النساء أو مظهر النساء ٤ ــ الصلاة ٥ ــ الصبر ٦ ــ التوبة ٧ ــ كتاب إلى زوجته ٨ ــ حث على الطهارة ٩ ــ التزوج بامرأة واحدة ١٠ ــ كتاب عن غطاء وجه العذارى ١١ ــ التاج ١٢ ــ الهروب فى أثناء الاضطهاد ١٣ ــ عبادة الأصنام ١٤ ــ الصوم ١٥ ــ التواضع •

بجانب هذه الكتب توجد عدة كتب أخرى كتبها هذا الرجل العظيم ولكنها ضاعت للأسف الشديد • وقد ذكر هو نفسه البعض منها فى مؤلفاته التى سبقت الاشارة إليها كما أن بعض الكتاب المتأخرين أمثال جيروم قد أشاروا إلى هذه الكتب •

ولقد حاول البعض إلصاق اسمه ببعض الكتب ، ولكنهم لم ينجحوا فى هذا الأمر •

تعاليم ترتليانوس :

إن تعاليمه متعددة الفروع وواسعة وكثيرة جدا كما سبقت الاشارة

(١) La Morogamie

إلى ذلك ؛ فلا يمكننا أن نتعرض لكل تعاليمه ولا حتى لجزء بسيط منها ، ولكن الذى يهمنا فى هذا البحث هو أفكاره الكرستولوجية ، وماذا كان يرى فى المسيح ؟

إن ترتليانوس كتب الكثير عن شخص المسيح ، عن « اللوغوس » ، عن ابن الله . إلا أنه كان مضطرا إلى أن يدافع عن الثالوث ، وفى دفاعه عن هذه العقيدة كان مضطرا بطبيعة الحال إلى أن يتكلم عن المسيح . ولكى نفهم تعاليم هذا الرجل والمواضيع التى حاول معرفتها ، يجب علينا أن نلقى نظرة على الظروف التى كانت تحيط به ، فإنه وجد فى ظروف مشابهة ، إن لم تكن أكثر تعقيداً من الظروف التى وجد فيها الكثيرون من الآباء المدافعين ، فكان يحارب إذن فى عدة جهات فى وقت واحد . إذ أنه كان يدافع عن عقيدة التجسد محاولا أن يشرح هذه العطية للدخلاء من الوثنية ، وللوثنيين أنفسهم ، هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة ، وكانوا مشدودين إلى فكرة أن يسوع المسيح هو واحد من هذه الآلهة العديدة . كان يحارب أيضا ضد اليهود الدخلاء وغير الدخلاء الذين لم يروا فى يسوع المسيح إلا مجرد إنسان . كان يناضل أيضا ضد جماعة أخرى من اليهود رأت فى لاهوت المسيح تهديدا عظيما لوحدة اللاهوت وهى جماعة « وحدة الله (MONARCHIANISME) وفوق هذا كله كان عليه أيضا أن يحارب الهرطقات الموجودة فى داخل الكنيسة وفى خارجها ، مثل أتباع ماركيون وفالنتينوس وغيرهما .

لقد قام إذن بحرب شعواء ، لا هوادة فيها ضد هؤلاء أجمعين . وكان عليه أن يتسلح لكى يستطيع لا أن يصمد فقط ضد هجمات العدو ، بل أن يقوم هو بنفسه بعمليات هجوم ضد التعاليم الضالة والهرطقات الكاذبة فيهدمها هدما ويدك قصورها الشامخة العالية . ولهذا السبب فقد حاول أن يخترع مصطلحات جديدة وعديدة لكى تعبر عن تعاليمه اللاهوتية دون أن يبتعد عن المكتوب .

ومن المشاكل اللاهوتية الضخمة التى تعرض لمعالجتها فى كتابه الذى كتبه ضد باركسياس (PRAXEAS) مشكلة الثالوث ، ومما لا شك فيه عندما يتكلم أى لاهوتى عن الثالوث لا بد له بأن يتكلم عن شخص المسيح يسوع . والذى دفع اللاهوتى الأفريقى إلى الكتابة فى هذ الموضوع هو انتشار التعاليم التى تسمى « بالمواد السيم » (MODALISME) ويمكننا أن نترجم هذا الاصطلاح بكلمة ، هيئة أو طريقة أو شكل ، أو انتحال .

وملخص هذه العقيدة التى كان يعلم بها باركسياس (PRAXEAS) فى روما وانتشرت أيضا فى قارطجنة أو كارتاج ، هو أن المسيح هو الله الآب ، فالمسيح ما هو إلا مظهرا من مظاهر الله أو بمعنى آخر ، فإن الله واحد وهذا الإله الواحد ظهر فى يسوع المسيح فى هيئة إنسان . وهو نفسه ظهر فيما بعد فى شكل الروح القدس وحل على المؤمنين . فالآب والابن والروح القدس ما هم الا أسماء لا أقانيم[1] وفى حقيقة الأمر لا يوجد إلا شخص واحد وهو الله الذى استعمل طريقة معينة فأصبح ابنا أو أخذ شكل الابن ، وبطريقة أخرى أصبح هو نفسه الروح القدس. وهذا الآب هو الذى تألم ، ولذلك فقد سميت هذه الجماعة بالـ (PATRIPASSIANISME) «أى الآب الذى يحتمل الآلام أو الذى يشعر بالآلام » . والذى دفع هؤلاء الى اختلاق هذا المذهب هو إيمانهم « بوحدة الله » (MONARCHIANISME) ، فلقد رأوا فى مذهب الآب والابن والروح القدس نوعا من التعدد لا يمكن معه أن يكون هؤلاء الثلاثة إلها واحدا ، ولذلك فقد نادوا بأن الإله الواحد ، الله الآب ظهر بطرق مختلفة ، ظهر بهذه الطرق الثلاثة دون أن يتحول الى ثلاثة آلهة ، بل هو نفس الإله ، نفس الآب الذى اتخذ هذه الطرق الثلاثة المختلفة .

(1) كلمة « أقنوم » لم تكن معروفة ومنتشرة فى ذلك الوقت بالطريقة التى عرفت بها فى نهاية القرن الثالث .

ومما لا شك فيه أن ترتليانوس نادى هو أيضا بوحدة الله ، ولكن هذه الوحدة هى وحدة الأقانيم ، فإن الله هو آب وابن وروح قدس ، هؤلاء الثلاثة أقانيم هم إله واحد ، الله الواحد المثلث الأقانيم من جوهر واحد . فهو يقول أؤمن بأنه يوجد جوهر واحد فى الثلاثة (انظر DE PUD. 21, 12) . وكما سبق أن أشرنا فإن ترتليانوس هو أول كاتب لاتينى يستعمل الاصطلاح « التثليث » . وفى كلامه عن التثليث ، كان أول شخص أيضا استعمل الاصطلاح (PERSONA) الذى يمكن أن نسميه « أقنوما » (انظر ADV., PRAX. 12) هذا الاصطلاح سيلعب دورا هاما جدا فيما بعد فى المناقشات والمجادلات العقائدية فى أثناء انعقاد المجالس المسكونية .

تعاليمه الكرستولوجية :

ما هى عقيدته فى اللوجوس ، فى المسيح ؟

مما لا شك فيه أن تعاليم ترتليانوس عن شخص المسيح تعتبر تقدما عظيما وخطوة واسعة بالنسبة لسابقيه . وبالرغم من ذلك فلم يستطع أن يهرب من الشرك الذى سقط فيه الكثيرون من سابقيه ، وهو مشكلة التابعية (SUBORDINATIANISME) فإن هذه المشكلة قد أتاهت المدافعين من قبله ، فلقد حاول هؤلاء المدافعون شرح عقيدة اللوغوس ومتى وكيف ظهر ، قد حاولوا التمييز بين الكلمة الداخلى أو الساكن فى الله LE VERBE INTERNE OU IMMANENT EN DIEU . وبين الكلمة الخارج أو المنطوق من الله أو الذى نطق به الله . وترتليانوس يعتقد بأن ظهور أو ميلاد اللوغوس بدأ بالتدريج ، فمع أنه يستعمل كلمة « حكمة » (SAGESSE) عند التكلم عن الكلمة ، والحكمة والكلمة صفتان يوصف بهما الأقنوم الثانى ، إلا أنه يميز بين الميلاد الأول لهذا الأقنوم ، الحكمة ، قبل الخليقة وبين الميلاد الكامل فى لحظة

الخليقة ، عندما نطق الله هذا اللوغوس وأصبح الكلمة ، في هذه اللحظة أصبح الكلمة منظورا وكاملا ، فعندما قال الله ليكن نور ، كان هذا هو الميلاد الكامل للكلمة الذى خرج من الله ، الذى انبثق منه - فإن هذا الكلمة كان ساكنا فى الله ، كحكمة ، كفكر (أم ٨ : ٢٢) • ولكن عند عملية الخليقة خرج هذا الحكمة ، وظهر هذا الكلمة اللوجوس من الله ، أو أن الله أخرج أو بثق منه هذا الكلمة ، فإن الكلمة قد انبثق من الله لكى يعمل معه فى خلق العالم (أم ٢٢ : ٢٧) ويهذه العملية — أى عملية انبثاق أو خروج اللوغوس أو الكلمة من الله ، أصبح الله الآب أبا وأصبح اللوجوس المنبثق منه أو المولود منه ابنا • فهو الابن البكر لأنه ولد قبل كل خليقته بل إنه الابن الوحيد ، إذ أنه الوحيد الذى ولد من الله (انظر كتابه ADV, PRAX 7) ويواصل ترتليانوس شرحه بالقول بأنه بناء على ما سبق فالابن كابن ليس أزليا (انظر HERMOG 3 EP. 321) .

ومع ذلك فان اللوغوس هو هو نفسه قبل وبعد الخليقة،وترتيليانوس لا يريد بهذه العبارة الأخيرة أن يقول بأن الابن هو شخص يختلف عن شخص اللوجوس ، بل إن صفة الابن أو الاصطلاح « ابن » لم يكن منذ الأزل بل كان نتيجة عملية انبثاق الابن من الآب •

وبما أن الابن انبثق أو خرج من الآب فهذا الأخير هو الجوهر الكامل أو الكلى ، وبناء على ذلك فإن الابن هو سيل من هذا الكل ، الآب هو كلى الجوهر (TOTA SUBSTANTIA EST) بينما الابن هو جزء من هذا الكل (DERIVATION TOTIUS ET PORTIO) .

ويستشهد ترتليانوس بكلمات المسيح التى تقول : « لأن أبى أعظم منى » (يوحنا ١٤ : ٢٨) • وتظهر فكرة التابعية أو أولوية الآب على

(م ٣٤ — تاريخ الفكر المسيحى)

الابن أو سمو الآب على الابن فى التشبيهات الكثيرة التى أعطاها لشرح هذه العقيدة ، فهو يقول بأن خروج الابن من الآب يشبه تماما خروج شعاع الشمس من الشمس . هكذا نطق الله الكلمة ، فإن الفرع يخرج من جذع الشجرة والنهر من الينبوع والشعاع من الشمس ، كل هذه الأشياء خارجة من مصادر ، ومولودة منها . وبناء عليه فإننا نقول بلا تردد بأن الفرع هو ابن الجذع ، والنهر هو ابن الينبوع والشعاع هو ابن الشمس ، فإن المصدر هو أب لما ولد منه . وهكذا يمكننا أن نطبق نفس الشيء على الكلمة الذى دعى ابن الله ، فالفرع لم ينفصل عن الشجرة أو عن الجذع والنهر لم ينفصل عن المنبع ولم ينفصل الشعاع عن الشمس : فإن الجذع والفرع هما شيئان متميزان ولكنهما متحدان (راجع كتابه ADV. PRAX 8) .

من هذا يتضح أن ترتليانوس لا يفرق بين جوهر الينبوع وجوهر النهر ، أو الجذع والفرع ، هكذا فإن الابن هو من نفس جوهر الآب وخارج منه ، وبما أنه خارج منه فهو خاضع له ، إن الابن هو جزء من الآب دون أن يتجزأ الآب . وهذا لا يعنى أن جزءاً فقط من الابن لاهوت، كلا ، بل إن الابن كله لاهوت ، لأنه خارج من جوهر الله ، من لاهوت الله ؛ فهو إذن الله الأب هو ملء اللاهوت ؛ والابن خارج من هذا الملء (انظر APOL 21. 2)

فمع أن المعلم الأفريقى قد أعطى المكانة الأولى فى الثالوث للآب والمكانة الثانية للابن والمكانة الثالثة للروح القدس(1) إلا أنه أكد كثيرا ويشدة على حقيقة أن هؤلاء الثلاثة من جوهر واحد (PRAX 9) ومن هذا الجوهر انبثق الابن اللوغوس والروح القدس ، هؤلاء الثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس ، جوهر واحد ووحدة واحدة يكونون الله المثلث الأقانيم .

---

(1) انظر كتاب Gillmeier. P. 170

ولقد رفض اليهود عقيدة الثالوث ، لأنهم خشوا قيام نوع من الصراع والانفصال والغيرة بين أفراد الثالوث ، الأمر الذى ترويه لنا الأساطير الوثنية ، أما ترتليانوس فيرى وحدة الثالوث بطريقة تختلف كل الاختلاف عن كثرة تعدد الآلهة فى الوثنية ، فانه فهم فكرة « الوحدة » فى الثالوث (MONARCHIA) ، بأن الله الآب يظل سيدا للكون ويحتفظ بهذا السلطان ، ومع أنه محتفظ بهذا السلطان فقد منحه للابن وهذا الأخير يستعمل هذا السلطان فى العالم لكى ينفذ به ما يريده الآب • وكل ما يريده الابن لا يختلف عن ما يريده الآب ، فلا نزاع إذن بين الآب والابن • لأن ما يريده الآب هو ما يريده الابن وينفذه الروح القدس • فلا صراع إذن فى داخل الله ، وكل ما يوجد فى هذه الوحدة المثلثة هو الانسجام والتوافق والمحبة •

يتعرض ترتليانوس لمشكلة أخرى مختصة بالمسيح وهى طبيعته •

ما هى هذه الطبيعة التى أخذها المسيح ؟ أهى طبيعة سماوية ملائكية أم أرضية بشرية ؟

فهو يعرفنا بأن نور الله الذى تنبأ عنه الأنبياء فى القديم ، والذى انتظرته الأجيال مدة طويلة ، نزل إلى بطن العذراء وصار جسدا • وفى ميلاده ولد إلها وإنسانا معا • فإن هذا الجسد الذى تكون عن طريق الروح القدس والذى تغذى ونما وتكلم وعلم وعمل هو المسيح • (انظر APOL. 21, 14) • فإن كان اللوغوس أو الكلمة صار جسدا ، فما هى طبيعة العلاقة بين الجسد وبين اللوغوس ؟ وهل التجسد يعنى تغيير أو تحول الروح « اللوغوس » إلى جسد • أم أن الروح يظل غير متغير ويلبس فقط الجسد ؟ إن ترتليانوس يسمى هذه الحالة بعد التجسد حالة مزدوجة (UN DOUBLE STATUS) (انظر PRAX 11) وهو يعنى بذلك وجود طبيعتين فى شخص المسيح ، ولقد شدد بوضوح

على وجود هاتين الطبيعتين فى شخص المسيح • ففى المسيح توجد الطبيعة الالهية وتوجد الطبيعة البشرية ، اتحاد الإلهى بالبشرى وفى هذا الاتحاد الالهى البشرى ، « اللوغوس » ، (PRAX 27) يسوع احتفظت كل طبيعة بمميزاتها الخاصة بها •

وإن هذا الاتحاد الالهى البشرى تم فى شخص واحد ، فى أقنوم الابن • على أن الروح المتجسد ، وهو الابن متميز عن الآب ، أى أنه ليس هو الآب ، كما أنه متميز أيضا عن الجسد الذى لبسه ، أى أنه ليس هو الجسد (انظر PRAX 27) فالروح والجسد هما إذن جوهرا المسيح متميزان وغير مختلطين مع أنهما متحدان • وهو برفض أيضا الأفكار الروائية التى تعلم بأن اتحاد الجسد بالروح ينتج عنه شىء آخر من نوع آخر ، مزيج من الروح والجسد ، فلا هو روحا ولا هو جسدا • أما ترتليانوس فقد تمسك بعقيدة الطبيعتين فى شخص واحد ، شخص المسيح يسوع ، الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية : فالروح لم يتحول إلى جسد بل إن « اللوجوس » صار جسدا • واحتفظ كل منهما بمميزاته الخاصة به ، فالجسد لا يصبح روحا ولا الروح يصبح جسدا ، بل إن الكلمة صار جسدا ، فى صيرورته جسدا لم يلاش ما للجسد من مميزات خاصة به ، والجسد بدوره لم يخف كلية اللاهوت فى داخله ، فإن كلا منهما يقوم بالعمل الخاص به • فاللوجوس كان يعمل المعجزات ، من شفاء المرضى ، وقيامة الأموات ، واخراج الشياطين ••• الخ ، أما مميزات الجسد فكانت ظاهرة أيضا فى الجوع والعطش والآلام ، والاضطراب والحزن والبكاء ، والفرح ••• الخ • هذا هو المسيح : طبيعتان ، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية متحدتان بلا اختلاط كلى أو امتزاج (انظر PRAX 27) .

وبهذا أراد ترتليانوس أن يهاجم تعاليم بعض الوحدويين

(MONARCHIENS) الذين علموا بأن المسيح كان كائنا مكونا من الآب ومن الانسان يسوع فى شخص واحد هو المسيح . وفى هذا المسيح الابن الذى هو اللاهوت والابن الذى هو الناسوت ، الواحد يدعى المسيح والثانى يدعى يسوع . ويعترض المعلم الأفريقى على هذا التعليم بالقول بأنه لا يمكن تقسيم اللاهوت والناسوت بين الآب والابن فالابن ليس الجسد ، ولكن الابن اتحدت فيه هاتان الحقيقتان ، أى اللاهوت والناسوت دون خلطهما أو مزجهما مزجا كليا (PRAX 27, 1) فإن اللوجوس موجود فى الله وله كيانه ، ولكن عندما لبس اللوجوس جسدا ، أو بالعبارة الأصح عندما صار جسدا ، أصبح للابن حالتان : حالة اللاهوت وحالة الناسوت ؛ أو بعبارة أخرى أنه بعد التجسد أصبح للمسيح طبيعتان ، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية ، وهنا يمكن أن نقول بأنه عن طريق هذا الاتحاد الالهى والبشرى فى الأقنوم الثانى ، يوجد فى المسيح طبيعتان وجوهران . جوهر اللاهوت « اللوغوس » الذى انبثق أو خرج من الله ثم جوهر الناسوت الذى أخذه من مريم العذراء .

ولقد شدد ترتليانوس على هاتين الحقيقتين فى المسيح : الله « اللوغوس » نفسه هو الذى كان فى يسوع ، وجسد يسوع لم يكن جسدا خياليا أو ملائكيا أو هيوليا سماويا بل كان جسدا مثل أجسادنا وله روح أيضا مثل أرواحنا . ولقد كان تكوين يسوع الطبيعى كتكوين أى شخص آخر مكون من روح وجسد . ولا يمكن أن يكون المسيح إنسانا حقيقيا إن لم يكن مكونا من روح وجسد مثل أرواحنا وأجسادنا (انظر DE RESURT CARNE, 40) . وبما أن المسيح كانت له روح مثل أرواحنا وكان يتألم مثلنا فقد صرخ على الصليب من شدة ما عاناه فى الصليب .

ويعتقد ترتليانوس بأن موت المسيح تم عندما انفصلت روحه عن جسده (انظر MAR 4, 42, 6) .

إن ترتليانوس كان يعمل جاهدا لكى يهدم التعاليم المضلة التى نادى كل من الغنوسيين والماركيونيين الذين علموا بأن المسيح لم يكن له جسد حقيقى بشرى بل إنه ليس جسدا سماويا ، فهو لم يولد من العذراء كما يعتقدون ، بل ولد عن طريق العذراء (أو فى العذراء) ولقد علم فالنتينوس ، كما سبقت الاشارة ، بأن مرور الطفل يسوع من رحم أمه كان كمرور المياه عبر ثوب دون أن تمزقه ، فالعذراء مريم ظلت عذراء حتى بعد ميلاد يسوع . أما ترتليانوس فلا يقبل هذا الفكر ويرفض رفضا باتا عذراوية مريم بعد الميلاد . ويعتبر بأن التمسك بعذراوية مريم المستمرة بعد الميلاد يعتبر تعليما غنوسيا ، وكان جسد يسوع الذى هو من رحم مريم العذراء فى أثناء الميلاد لم يكن جسدا حقيقيا . (انظر (DE CARNE CHRISTI 23, 7 ; ADV. OCCARC. 4. 19, DE MONO, 8).

ونحن نظن أن ترتليانوس على حق فى هذا الأمر ، وندعو الكنيسة الكاثوليكية التى تقدمت فى الناحية العقائدية تقدما ملحوظا تحسد عليه بأن تعيد النظر وتدرس ليس فقط هذه العقيدة الخاصة بعذراوية مريم المستديمة بل مواضيع عقائدية أخرى تقف حتى الآن فى طريق وحدة الكنيسة التى يريدها المسيح بأن تكون واحدا كما أنه والآب واحد .

والاله المحب القدير الذى سار مع كنيسته عبر الأجيال يستطيع أن يفتح عيوننا وقلوبنا فتمتلىء من محبته وعندئذ لا نسعى إلا لغرض واحد هو مجد المسيح وحده وانتشار ملكوته فى العالم .

بعض المراجع عن تعاليم وشخصية ترتليانوس :

1. Adolphe Harnack. Precis de L'histoire. Traduit par Eugene Choisy. Paris. Societe Arrongme. 33 Rue de Seine 1893.
2. J. Liebaert., L'incaruation des origines au concile de Chalcedoine : Les editions du Cerf. pp. 85 - 92.
3. A. Grillmeier. pp. 166 - 184. ذكر سابقا

راجع هذه الصفحات فهو يعطى قائمة لكتب قيمة عن هذا الموضوع .

4. Marc Lods. p. 42. ذكر سابقا
5. J. Quasten. pp. 293 - 402. ذكر سابقا

راجع ايضا هذا الكتاب فانه يحتوى على قائمة مراجع هامة جدا .

6. J. F. Bethune-Baker, Tertullian's use of substantia, nature and persons : YTHST 4 (1903). 440 - 442.
7. C. Dodgson, Library of Fathers 10 oxford.
8. A. D'Ales. La Theologie de Tertullien. Paris 1905.
9. R. E. Roberts. The Theology of Tertullian. London 1929.
10. J. Morgan. Importance of Tertullian in the Development of the Christian Dogma. London 1928.
11. J. Berton. Tertullien le Schismatique. Paris 1928.
12. T. H. Brandy. Tertullian's Ethic. Gutersloh, 1929.
13. B. B. Warield, Studies in Tertullian and Augustine. Oxford, 1930, 1 - 109.
14. J. Riviera. Tertullien : le dogme de la redemption. Louvaine 1931, 140 - 164.

الفصل الخامس

كبريانوس CYPRIEN

فى دراساتنا لتاريخ الفكر المسيحى والعقائد لا يمكننا أن ننسى عملاقا آخر ظهر فى أفريقيا ، وبالتحديد فى قارطجنة أو كارتاج ، مدينة اللاهوتى العظيم ترتليانوس ، وهو القديس كبريانوس .

وسوف لا نقف طويلا عند حياة هذا الرجل العظيم الشهيد أو تعاليمه ، فبالرغم من عظمة حياته الرعوية وشجاعته فى قبول الاستشهاد ، وبالرغم أيضا من كتاباته الكثيرة والتى كان لها تأثيرها العميق على الشعب ، فإننا لا نرى جديدا فى تعاليمه ، فهو لا يختلف فيها كثيرا عن ترتليانوس . فقد كان معجبا به كل الاعجاب لدرجة أنه كان يدرس مؤلفاته يوميا ويقول جيروم عنه : «لقد تعود أن لا ينهى يومه قبل أن يكون قد قرأ بعض النصوص من كتابات ترتليانوس » ، وكان يقول لسكرتيره : «تكرم وأعطانى المعلم » . وكان يقصد بذلك ترتليانوس . (انظر JEROME DE VIR ILL 53) .

وكما سبق القول إنه لا يختلف كثيرا فى تعاليمه عن ترتليانوس . وهو الأمر الذى يهمنا فى دراساتنا لتاريخ العقائد المسيحية ، ولهذا السبب لا داعى للدخول فى شرح تعاليمه ، ولكن للاستفادة التاريخية نلقى نظرة عاجلة على حياة هذا الشهيد .

ولد كاسيليوس كبريانوس CAECILIUS' CYPRIANUS بين سنتى ٢٠٠ ، ٢١٠ فى أفريقيا . وعلى ما يحتمل فى كارتاج (قارطجنة) ، ولقد نما وترببى فى عائلة غنية جدا ومثقفة . ولقد اشتهر بالخطابة القوية المقنعة وبالبلاغة والفصاحة . على أنه كان يشمئز كل الاشمئزاز من الانحطاط فى الآداب والأخلاق العامة والخاصة ، وعافت نفسه الفساد الذى كان يسيطر على الحكومة ، وينتشر فى اداراتها وفى المجتمع بصفة عامة .

لهذه الأسباب كان يبحث كبريانوس عن حياة أفضل ومثل أعلى وأخلاق أرقى . وهنا هيأ الرب له بأن يتقابل مع كاهن تقى ، اتخذ كبريانوس اسمه بعد العماد وهو كاسيليوس ، الذى قاده إلى قراءة الكتاب المقدس ، وعملت النعمة بروح الله فيه ، فتجدد هذا الغنى ، الفاحش الغنى ، فأعطى كل ثروته للفقراء (انظر JEROME DE VIR ILL., 67) وبعد التجديد كرس نفسه للخدمة وفى سنة ٢٤٩ اختاره شعب كارتاج أسقفا لمدينتهم .

وما كاد يجلس على كرسى أسقفية أفريقية الشمالية ، حتى اندلعت الاضطهادات المؤلمة والشنيعة التى شنها الامبراطور دسيوس DECIUS أو DECE . وكانت هذه الاضطهادات فى غاية العنف والقسوة حتى شملت كل مسيحى الامبراطورية بجملتها ، فلأول مرة يتعرض المسيحيون لاضطهادات عامة تشمل كل الامبراطورية . لأن الامبراطور دسيوس أراد أن يعمم الديانة الوثنية ، ولذلك طلب من كل مواطن رومانى أن يقدم ذبائح للوثن(١) .

---

(١) كان دسيوس امبراطورا على روما من سنة ٢٤٨ — ٢٥١ (انظر كتاب Quasten p. 404 - 405.

وذهب ضحية لهذا الاضطهاد عدد كبير من المسيحيين الذين بسبب تمسكهم بالايمان ولشهادتهم الحسنة ليسوع المسيح ، اضطروا للاستشهاد • أما الأسقف كبريانوس فقد كان فى مكان آمن يستطيع منه أن يقود حركة المقاومة وأن يشجع المؤمنين الى التمسك بإله الآلهة ورب الأرباب •

وعندما انتهى كابوس الاضطهاد فى سنة ٢٥١ باغتيال الامبراطور دسيوس ، بدأت كنيسة أفريقيا تتنفس الصعداء • ولكن هذه الفرصة لم تكن إلا كحلم حلو قصير ، فقد بدأت الاضطهادات من جديد • ونفى الأسقف كبريانوس بعيدا عن كارتاج فى ٣٠ أغسطس ٢٥٧ • وعندما رجع بعد عام من المنفى : كان يعلم جيدا أن اقامته فى هذه المدينة ، بل بقاءه فى هذا العالم قصير جدا • لذلك فقد كان يعد نفسه للموت ، ولم يستغرق هذا الاعداد وقتا طويلا ، ففى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٢٥٨ قطعت رأس هذا الأسقف الشهيد العظيم بالقرب من مدينة كارتاج(١) •

---

(١) انظر كتاب Quasten 403 - 407

الفصل السادس

أوريجانوس (ORIGENE)

فى رحلتنا العقائدية التاريخية نتقابل مع شخصية أخرى لعبت فى تاريخ الفكر المسيحى دورا هاما جدا • بل دورا حاسما ومصيريا بالنسبة للتعاليم اللاهوتية التى كانت فى دور التكوين والتطوير فى ذلك الوقت • إن هذه الشخصية الفذة هى شخصية المعلم العظيم أوريجانوس المصرى، وقد كتب عنه كاستن (QUASTEN) يقول : « لقد وصلت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية إلى أوج عظمتها فى عهد خليفة أكليمندس ، وهو أوريجانوس • فلقد كان معلما لامعا وكتلة من المعرفة فى الكنيسة القديمة• فهو رجل ذو شخصية ترفعت عن كل ضعف ، وقد حصل كمية كبيرة جدا من المعرفة والعلم جعلته من أكبر المفكرين والخلاقين فى العالم اللاهوتى كله (انظر QUASTEN P. 40) •

ولحسن الحظ ، قد حفظ لنا التاريخ وثائق لا بأس بها عن هذا الرجل وعن حياته • والفضل فى ذلك يرجع إلى المؤرخ الكنسى الشهير أسابيوس (EUSEBE) الذى كرس لأوريجانوس جزءا مهما جدا فى المجلد السادس لتاريخ الكنيسة • كما أن القديس جيروم تكلم أيضا عنه (انظر JEROME DE VIR ILL 64, 62) • وذكره فوتيوس (PHOTIUS)

فى إحــدى رسائله (PHOTIUS, BIBLIOTH COD 118 EPIST 33)

إن هذه الوثائق ووثائق أخرى تعرفنا بأن أوريجانوس المصرى ، وبالتحديد الاسكندرى ، لم يكن وثنيا . فقد كان أبــوه ليونيداس (LEONIDE) رجلا تقيا يعرف الكتب المقدسة ، وفى الوقت نفسه كــان مثقفا ومطلعا على كتابات الوثنيين ، فلقد نشأ أوريجانوس منــذ نعومة أظفاره فى جو مسيحى تقى ، يشتم كل يوم رائحــة الصلاة والتــأمل والقراءات الكتابية التى كان يحرص أبوه كل الحرص على تسليمها لأولاده . وهنا يتميز أوريجــانوس عن كثيرين من المدافعــين واللاهوتيين الذين سبقوه ، إذ أنه ولد وتربى فى جو مسيحى تقى فاضل .

ولد أوريجانوس لونيداس فى حوالى سنة ١٨٥ فى مدينة الاسكندرية، وكان بكرا لعائلة كبيرة العدد . وفى سن السابعة عشرة اجتاز هذا الشاب التقى الرقيق الاحساس فى اختبــار أليم قاس ، عنــدما بدأ سفريوس (SEVERE) اضطهاداته العنيفة ضد المسيحيين (سنة ٢٠٢) والتى راح ضحيتهــا والده الرجــل التقى لونيداس ، وكثيرون آخــرون من المسيحيين . ويعرفنا أسابيوس بأن أوريجانوس الشــاب كان يريد أن يلحق بأبيه لكى يتمتع معه بشرف الاستشهاد ، وفى عشية اليــوم الذى استشهد فيــه لونيداس حاولت أمــه أن تقنعــه بكل الوسائل الممكنة بالعدول عن هذا القرار فلم تفلح ، ولذلك خبأت كل ملابسه فى الليل وفى الصباح لم يجد ثوبا واحدا للذهاب للمحكمة . وعندئذ كتب خطابا إلى أبيه يشجعه على الاستشهاد ويقول له حرفيا : « لا تغير رأيك بسببنا » (راجع QUASTEN 88) .

بعد استشهاد لونيداس ، صادرت الدولة كل أملاكه فلم يبق لهــذه العائلة التقية من متاع الحياة إلا دهنة زيت (٢ مل ٤ : ٢) هى عبقــرية الشاب أوريجانوس وعلمه . واستخدم هذا الشاب المعلم دهنــة الزيت

هذه فى بادىء الأمر باعطاء بعض الدروس الخصوصية للأطفال • وبهذا العمل البسيط المتواضع كان الرب يعده لعمل أعظم ولمكان أسمى • فلقد حدث أن الاضطهادات العنيفة المريرة التى كانت تجتازها كنيسة المسيح ، اضطرت الكثيرين إلى الهروب من نيرانها المحرقة ، حتى هرب بعض القادة • ومن الذين هربوا من وجه السيف ، الذى كان يحصد بلا شفقة شبابا وشيوخا ، المعلم أكليمندس • وبعد هروبه أصبحت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية الشهيرة ، مهددة ليس فقط بروح الفوضى وعدم النظام ، بل بالإغلاق أيضا • وكيف يمكن أن تغلق هذه المدرسة التى كانت تعد العمود الفقرى والمحرك ليس بالنسبة للكنيسة المصرية فحسب ، بل للكنيسة الجامعةولهذا السبب ، عين الأسقف ديمتريوس DEMETRIUS الشاب النابغة العالم أوريجانوس مديرا لهذه المدرسة • وكانت مقدرة أوريجانوس العلمية تفوق بمراحل كثيرة عمره الزمنى • فعندما تعين مديرا لهذه المدرسة العظيمة كان فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد استطاع هذا الشاب أن يديرها بحكمة فاقت حكمة الشيوخ ، وكانت المسئوليات العديدة التى ألقيت على عاتقه ، محركا ودافعا له الى الانتاج اللاهوتى والأدبى ، الذى صار ثروة عظيمة لا تقدر للكنيسة على مر العصور •

ولم يكن أوريجانوس مديرا ولاهوتيا وأديبا فقط ، بل كان أيضا رجلا نفيا استطاع أن يترجم عمليا بحياته اليومية وتصرفاته مع الناس معنى الحياة المسيحية • ولقد قال عنه المؤرخ أسابيوس : « كانت حياته خير مفسر لأقواله » (انظر EUSEBE, HIST. ECCL, 6, 3, 7)

كان مدير مدرسة الاسكندرية يحيا حياة التقشف والابتعاد عن اللذات العالمية • ويمكن أن نقسم حياته التعليمية إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى فى حياته التعليمية ، تبدأ فى سنة ٢٠٣ عندما كلفه أسقف الاسكندرية بادارة المدرسة وتنتهى هذه الفترة فى سنة ٢٣١ •

لقد استطاع هذا المعلم الشاب بعد أن استلم ادارة مدرسة اللاهوت بالاسكندرية أن يغزو لا الأوساط المسيحية فحسب . بل أيضا الأوساط الوثنية التى أظهرت اهتماما كبيرا بتعاليمه ، فجاء إليه الكثيرون من مسيحيين وغير مسيحيين يتتلمذون على يديه .

وكانت المواد التى تدرس فى هذه المدرسة كثيرة ومتنوعة ، فلم يقتصر المعلم المصرى على تعليم الكتاب واللاهوت ، بل كان يقوم أيضا بتدريس الطبيعة والحساب والهندسة والفلك ، والفلسفة وخاصة الفلسفة اليونانية. غير أن المعلم شعر بأن المجهود الذى يقوم به والمسئوليات العديدة الكثيرة تفوق مقدرته البشرية ولذلك فقد طلب من تلميذه هراكلاس HERACLAS أن يساعده فى العمل ، فأسند إليه تعليم المواد الابتدائية والتحضيرية . أما هو فقد كرس وقته للتدريس فى قسم المتقدمين فى الدراسة ، أى لتدريس اللاهوت والكتب المقدسة والفلسفة .

ولم يكن أوريجانوس سجينا فى مدينة الاسكندرية العظيمة ولمدرستها الشهيرة ، بل كان يتغيب مرات كثيرة عن التدريس فيها لقيامه ببعض الرحلات . فإن المؤرخ أسابيوس يعرفنا بأن هذا الشاب المعلم قام برحلة إلى روما فى سنة ٢١٢ لكى يرى الكنيسة القديمة جدا ، كنيسة روما . وهناك تقابل مع اللاهوتى الشهير المعروف والذى سيلعب هو أيضا دورا لا يستهان به فى تاريخ الفكر المسيحى والعقائد ، وهو الكاهن الكاثوليكى « هيبوليتوس » HIPPOLYTE ويحتمل أنه ناقش معه بعض المشاكل اللاهوتية . ثم فى سنة ٢١٥ قام برحلة أخرى ، ولكن فى هذه المرة إلى الشرق ، وبالتحديد إلى العربية ، إذ أن حاكمها الرومانى رجاه أن يحضر إلى بصرة لكى يعلمه شيئا عن المسيحية . ويحتمل أن يكون هذا الحاكم هو فورينوس جليانوس (FURNIUS, JULIANUS) .

ثم قام برحلة أخرى تعليمية إلى فلسطين ، ففى سنة ٢١٦ أمر

كاراكالا (CARACALLA) يغلق المدارس وسلبها ، فاضطر المعلم المصرى إلى الهجرة إلى قيصرية فلسطين • فرحب به الأساقفة هناك ترحيباً عظيماً، بل طلبوا منه أن يقوم بالوعظ والتعليم فى مدارسهم وكنائسهم وعندما علم أسقف الاسكندرية بهذا الأمر انهال باللوم على زملائه الأساقفة فى قيصرية فلسطين لأنهم سمحوا لعلمانى غير مرتسم أن يعلم فى حضرتهم • وطلب من أوريجانوس العودة حالا إلى الوطن • وقبل أوريجانوس أمر أسقفه ديمتريوس ورجع إلى الاسكندرية لاستئناف العمل •

ومع أن وسائل الاعلام كانت محدودة وبطيئة فى ذلك العصر ، وليس كما هو الحال فى وقتنا الحاضر ، إلا أن شهرة هذا المعلم الشهير انتشرت بسرعة عجيبة ليس فقط إلى آذان قادة الكنيسة والحكام فحسب ، بل وصلت أيضا إلى الأباطرة •

فإن والدة الامبراطور ألكسندر سفريوس (ALEXANDRE, SEVERE) طلبت أن تسمع هذا المعلم المسيحى الاسكندرى ، فحضر المعلم المصرى إلى أنطاكيا محفوفا بحرس امبراطورى • ولا نعلم النتيجة التى وصلت إليها هذه المقابلة إذ أن المؤرخ أسابيوس لا يقول لنا شيئا فيما إذا كانت « بولبه ماميه » قبلت الايمان أم لا • ويحتمل أن هذه الرحلة تمت فى حوالى سنة ٢٢٤[1] (انظر EUS. HIST. ECCL 6, 34)

ولقد أرسله الأسقف ديمتريوس إلى بلاد اليونان لكى يدحض هرطقة ظهرت هناك • وبعد أن أنهى المعلم مهمته التى كلف بها ، توقف فى طريق العودة فى أورشليم لكى يرى أصدقاءه هناك • وعندئذ أراد الأساقفة

(١) لقد اختلفت الآراء فى تحديد تاريخ هذه الزيارة وللتوسع فى الموضوع انظر Quasten p. 50 - 50 ، كتاب د. أسد رستم ص ٩٤ — ١٠٢ ، المراجع المذكورة فى هذا الكتاب .

والكهنة والشعب الاستفادة من وجود هذا العالم الشهير . ولكن المشكلة التى اعترضته هى أنه لم يكن كاهنا . ولكى يتجنب كل من ألكسندر أسقف أورشليم وثيوكتيستوس (THEOCTISTE) أسقف قيصرية اللوم الذى وجهه إليهما أسقف الاسكندرية لأنهما سمحا لعلمانى بالوعظ فى كنائسهما فقد قاما بسيامة أوريجانوس كاهنا حتى يتمكن الشعب كله من الاستفادة من وعظه وتعاليمه وعندما علم ديمتريوس بخبر سيامة أوريجانوس كاهنا غضب جدا واعترض على هذه السيامة التى اعتبرها باطلة . وعلل الأسقف ديمتريوس اعتراضه بأن أوريجانوس لم تتوفر فيه الشروط التى يجب أن تتوفر فى الكاهن وذلك لأنه قد خصى نفسه .

وفى الواقع يبدو أن هـــذا الشاب الذى نشأ فى جو تقى جدا متمسك بالمكتوب ، قد طبق بطريقة حرفية وعملية فى شبابه المبكر كلمات المسيح الواردة فى متى (١٩ : ١٢) : « لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل » .

على أن المؤرخ أسابيوس يعلق على موقف ديمتريوس بالقـــول : « عندما رأى ديمتريوس أن أوريجانوس أصبح رجلا عظيما شهيرا ومعروفا لدى العـــالم كلـــه ، لعبت المشـــاعر البشرية دورهـــا فى قلبه (انظـــر EUSEBE HIST. ECCL. 6, 8, 4 وطلب ديمتريوس أسقف الاسكندرية انعقاد المجمع ، ولقد قطع هذا المجمع المعلم العظيم من عضويته فى كنيسة الاسكندرية . ثم اجتمع مجمع آخر فى نفس المدينة سنة ٢٣١ وقـــرر قطعه (شلحه) من الكهنوت .

وفى سنة ٢٣٢ عندما تنيح الأسقف ديمتريوس وجلس على كرسى أسقفية الاسكندرية أحد تلاميذه ومساعديه وهو هراكلاس (HERACLAS) ظن أوريجانوس أن الأمور قد تغيرت وحاول الرجوع إلى بلاده الحبيبـــة

ليشرب من نيلها العذب الحلو اللذيذ ، الذى إذا شرب أجنبى منه لا بد أن يرجع مرة أخرى ليشرب منه ثانية ، فجاء هو الوطنى لكى يشرب من هذه المياه التى هو أحق الناس بها ،ولكى يقوم بالتعاليم التى كان يرى بلاده فى أشد الحاجة اليها • ولكن للأسف الشديد فان الأسقف الصديق هراكلاس جدد الحرمان ضد أوريجانوس ، ولهذا فقد اضطر الى العودة إلى قيصرية فلسطين ••• ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية فى حياته •

أوريجانوس فى فلسطين :

عندما رجع المعلم العظيم إلى فلسطين وجد القلوب والكنائس مفتوحة أمامه ، ولم يقم أسقف قيصرية أى حساب للحرمانات التى نطق بها زميله الاسكندرى ، فطلب من أوريجانوس هذه المرة ليس التعليم فى الكنائس فقط بل أيضا أن يؤسس مدرسة لاهوت • وفعلا تأسست مدرسة اللاهوت التى قام بالتدريس فيها وادارتها المعلم المصرى لمدة عشرين عاما، قام خلالهاهذا الرجل،الذى لايعرف اليأس والتعبطريقهما اليه، بالتعليم والتهذيب والارشاد ، وهكذا أصبحت هذه المدرسة بفضله منارة عظيمة فى محيط واسع كبير ترشد السفن إلى البر الأمين • وبفضلها وبفضل الذين تخرجوا منها انتشرت المسيحية فى هذه المنطقة ، وبدأت نهضة روحية مسيحية وحركة فكرية ثقافية ، كانت مصر فى أشد الحاجة اليهما • ولقد تخرج فى هذه المدرسة رجال عظام أمثال غريغوريوس العجائبى الذى لم يتفق مع أوريجانوس فى بعض العقائد ، ثم واثينودوروس وفرميليانوس • ففى هذه المدرسة ألقى غريغوريوس العجائبى خطابه الوداعى لتعاليم أوريجانوس ، وبهذا أعلن غريغوريوس انفصاله الرسمى عن جماعة أوريجانوس وعدم اتباعه لتعاليمه (انظرQUASTEN P. 52)

ولقد تعرض المعلم المصرى لعذابات تقشعر منها الأبدان فى أثناء

(م ٣٥ — تاريخ الفكر المسيحى)

الاضطهاد المريع الذى شنه الامبراطور دسيوس (DECE) (٢٤٩ ــ ٢٥١) والذى شمل الامبراطورية كلها تقريبا ، فقد قيد بسلاسل ثقيلة فى يديه ورجليه وعنقه وزج به فى سجن مظلم وكوى بالحديد ، وكان هم القاضى أن يحتفظ به حيا ليطيل عذابه ... ولكنه رغم هذه الآلام المبرحة ظل الرجل أمينا لسيده (انظر EUS. HIST. ECCL. 6, 39, 5)

كان لهذا الاضطهاد والعذابات التى أضعفت جسده تأثيرها العميق والكبير على صحته حتى بعد أن خرج من السجن ، فمات هذا المعلم المصرى العظيم فى صور ودفن فيها فى سنة ٢٥٣ بعد أن جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعى ...

كتابات أوريجانوس :

ربما يعتقد القارىء أنى أبالغ عندما أقول إنه لو بقيت كل كتابات أوريجانوس ، لكان كتاب فى حجم هذا الكتاب لا يكفى لذكر أسماء الكتب والمواضيع التى قام بدراستها ومعالجتها . ولكى نبرر هذا القول سأذكر حقيقة أخرى قد يندهش لها القارىء أكثر ، وهى أن القديس جيروم يعرفنا بأن المؤلفات التى كتبها هذا العبقرى المصرى حوالى ٢٠٠٠ كتاب (ألفى كتاب) (انظر ADV. RU 2, 22 . وأما ابيفانوس (EPIPHANE) فقد قال : إن عدد كتبه يزيد على ستة آلاف كتاب (انظر EPI. HAER, 64, 63) . على أن المعروف لدينا من هذه الكتب ثمانمائة كتاب فقط هى التى ذكرها القديس جيروم فى خطابه إلى بولا (PAULA) .(انظر EPIST, 33) .

والسؤال الذى يفرض نفسه فرضا ، هو كيف يمكن لرجل مهما أوتى من مقدرة علمية وجسمية وثقافية أن يصل إلى بناء هذه الأهرامات الضخمة التى لا يمكن تنفيذها ماديا ؟ هل كانت الأرقام التى ذكرناها ،

ما هي إلا أرقام صفحات الكتب التي كتبها ؟ أى أن كتبه تحتوى على ٢٠٠٠ صفحة وليس ٢٠٠٠ كتاب كما يعتقد جيروم ؟ أو ٦٠٠٠ صفحة ، وليس ٦٠٠٠ كتاب كما يظن أبيفانوس ؟ فمن الناحية العملية لو كرس أوريجانوس حياته كلها للكتابة دون أن يقوم بأى عمل آخر غير الكتابة ، فلا يمكنه أن يصل الى هذا الرقم ! ! !

عندما نلقى نظرة سريعة على تعاليمه وكتبه ، سنعرف أن هذه الأرقام كانت فعلا كتبا . أما كيف استطاع ماديا — أى من ناحية الوقت والمال — أن يبنى هذه الاهرامات الشامخة ، فذلك أن صديقا له يدعى أمبرواز (AMBROISE) كان غنيا جدا وقد تجدد على يده وترك الغنوسية بفضل تعاليمه . هذا الرجل طلب من أوريجانوس أن يسجل كل تعاليمه . ولهذا الغرض قام بتمويل سبعة أشخاص من الذين يجيدون الكتابة السريعة ، لمتابعة المعلم المصرى فى أثناء قيامه بالتعليم والقاء المحاضرات والمناقشات والأنشطة الأخرى . وكانوا على ما يبدو يتناوبون العمل على دوريات مختلفة : ولقد سهلت هذه العملية تسجيل ما علم به هذا المعلم . وما نأسف له ، هو أن هذه الأهرامات العلمية قد اختفت غالبيتها الساحقة ولم يبق لنا منها إلا عناوينها وبعض المقتطفات والاقتباسات التى اقتبسها الكتاب الذين جاءوا بعده . (انظر EUSEBE HIST, ECCL. 6, 33, 1 - 2)

فما هي إذن كتبه ؟

مما سبقت الاشارة اليه ، يتضح أنه لا يمكننا الدخول فى هذا المحيط العميق ، وذكر أسماء كل الكتب التي كتبها والتعليق عليها . ولذلك سنكتفى بذكر بعض الكتب فقط .

يعتبر أوريجانوس أعظم معلم ومفسر للكتاب المقدس ، ولم يسبقه فى ذلك مفسر ولا شارح للكتاب فى كل تاريخ الكنيسة إلى عصره ، فاستحق

عن جدارة لقب مؤسس العلوم الكنسية ، (انظر QUASTEN P. 58) .

١ ــ ومن الأشياء العظيمة التى قام بعملها والتى كرس لهـا جزءا كبيرا من حياته ، ما يدعى بالكسابلا(BIBLE SEXTUPLE) أى الكتاب المقدس ذى الأعمدة الستة • فلقد قام بوضع العهد القديم كله فى كتـاب ذى أعمدة ستة ، ولقـد وضع فى العمـود الأول النص العبرى بأحرف عبرية • وفى العمود الثانى نفس النص العبرى بأحرف يونانية لتسـهيل عملية النطق ، وفى العمود الثالث يذكر الترجمة اليونانية التى قـام بها أكيلا اليهودى فى زمن هادريانوس (HADRIEN) ، وفى العمود الرابع الترجمة اليونانية التى ترجمها سيماك(SYMMAQUE) المعاصر لسبتيميوس سفريوس ، وفى العمود الخامس وضع الترجمة السبعينية ، وفى العمود السادس وضع ترجمة ثيودوثيانوس (THEODOTIEN) اليهودى التى قام بعملها فى سـنة ١٨٠ ب م • وللأسف الشديد لم يبق من هـذه التحفة العظيمة إلا بعض النصوص •

٢ ــ كتب تفسيرا لكل أسفار الكتاب المقدس ، ولكن للأسف الشديد لا يوجد حاليا تفسير كامل لأى كتاب من هذه الكتب • فلم يصل إلينـا من التفسير الذى كتبه عن متى فى ٢٥ كتابا إلا ثمانية كتب • ولا نملك أيضا إلا ثمانية كتب من ٢٢ كتابا لتفسير إنجيل يوحنا • ولقد كتب ١٥ كتـابا لتفسير الرسالة إلى رومية لم يبق منها إلا بعض الاقتباسات والمقتطفات التى اكتشفت حديثا فى طرة سنة ١٩٤١ (جنوب القاهرة بحوالى ١٥ كيلو متر) • أما بخصوص العهد القديم فلا نملك إلا جزءا من شرح نشـيد الانشاد فى ٤ كتب من تسعة •

وهناك الكتب التى فقدت كلها تقريبا وهى ١٣ كتابا لتفسير سفـر التكوين ، ٤٦ كتابا لتفسير ٤١ مزمورا ، ٣٠ كتابا لتفسير سفر اشـعياء ، ٥ كتب لتفسير المراثى ، ٢١ كتابا لتفسير حزقيال ، ١٥ كتابا لتفسير الأنبياء

الصغار ، ١٥ كتابا لتفسير إنجيل لوقا ، ٥ كتب لتفسير رسالة غلاطية .

٣ — توجد أيضا مجموعة أخرى من الكتب وهى كتاباته الدفاعية وأهم ما كتبه أوريجانوس فى الدفاع هو كتابه ضد سلس (CELSE) ثم ٤ كتب عقائدية .

وأهم ما كتبه فى العقائد كتابه الذى يدعى :

٤ — المبادىء الأولى (LES PREMIERS PRINCIPLE) : وهذا المجلد يعتبر تقريبا الكتاب الأول من نوعه ، الذى يحاول فيه الكاتب شرح العقيدة اللاهوتية بطريقة نظامية ومسلسلة . ويحتوى هذا الكتاب على أربعة مجلدات . ففى المجلد الأول أو الكتاب الأول يتعرض اللاهوتى المصرى لشرح العالم غير الطبيعى ووحدة الله والثالوث . وفى الكتاب الثانى يتكلم عن العالم الطبيعى وخلق الانسان ، السقوط ، والفداء ، والقيامة ، والدينونة . وأما فى الكتاب الثالث فهو يتكلم عن اتحاد الجسد بالروح والصراع القائم بين الجسد والروح . وفى الكتاب الرابع يتعرض لمشكلة الكتب المقدسة .

٥ — إن الحفريات التى تمت فى طرة سنة ١٩٤١ ، كشفت لنا عن كتاب يحتوى على نقاش دار بينه وبين هراقليطوس فى بصرة فى العربية ، عندما دعاه أخوة الكنيسة للذهاب إلى هناك لاصلاح الموقف وارشاد هراقليطوس (HERACLIDE) إلى الصواب . وكان موضوع الحوار « الثالوث » (انظر HER 164, 9) .

نضيف إلى ذلك عظاته التى لا تحصى والتى لم يبق لنا منها إلا ٢٠ عظة فقط (انظر QUASTEN P. 60 - 62) .

ثم توجد كتب أخرى كثيرة لم يبق منها شىء بتاتا ، أو لا نملك منها

إلا القليل ، ونذكر هنا البعض من عناوينها : القيامة ، خليط ، الصلاة ، حث على الاستشهاد ، المراسلات •

وكما سبق القول لا يمكننا أن نذكر كل ما كتبه هذا اللاهوتى العظيم• ونتمنى أن يتخصص أحد الشباب فى دراسة حياة هذا الرجل وتعليمه ، لكى يقدمه للعالم العربى تقديما أفضل وأشمل وأعمق من هذه العجالة التى لا تلمس إلا القليل من بحر حياته •

المسيح يسوع فى مفهوم أوريجانوس

تعاليمه الكرستولوجية :

ما هى عقيدة أوريجانوس فى شخص المسيح يسوع ؟ إن اللاهوتى المصرى علم هو أيضا بلاهوت وناسوت المسيح ، واستعمل الاصطلاح « الله الانسان » (انظر كتابه DE PRINC 2, 6, 3)لكى يدل به على أن الله لم يكن الله فقط بعد التجسد ، بل كان إنسانا أيضا • على أن تعاليم أوريجانوس تعرضت لنقد لاذع شديد • وقبل أن ندخل فى التفصيلات الكرستولوجية نرى أنه من الضرورى أن نلقى نظرة سريعة على مفهوم أوريجانوس للروح ، لأن ذلك يساعدنا على أن نفهم عقيدته فى «اللوغوس» أى الكلمة •

كان أوريجانوس — على العكس من معلمه أكليمندس ويوستينوس — يرجع كل شىء ليس إلى اللوغوس بل إلى الله • فإن أوريجانوس شدد على حقيقة أن الله هو الأول ، وهو النشاط والطاقة والحياة ، فهو الخالق الذى عن طريق الكلمة خلق كل الأشياء • فهو يعمل وينتج عن طريق الكلمة أى «اللوغوس»الذى يستخدمه فى عملية الانتاج والخلق•(أنظر كتاب

• ([1]) (BONIFAS VOL. 1, P. 150 - 153 HARNACK P. 100 - 103

وعملية الخلق كما يراها أوريجانوس عملية طويلة ، ولكن يمكن أن نلخصها فى المراحل الآتية : كما سبق القول إن الله فى تعاليم أوريجانوس هو الأول ، وهو الله الخالق الذى كان منذ الأبد خالقا • فكل ما هو موجود خلقه الله عن طريق كلمته أى «اللوغوس»• ولكن العالم الذى نراه الآن والذى نحن منه ، ليس هو نفس العالم الذى خلقه الله فى البداية عن طريق كلمته ، اللوغوس • فإن الله خلق فى البداية عنصرين هامين جـداً ساهما فى تكوين العالم ، ومنهما تكون العالم الحالى •

العامل الأول أو العنصر الأول هو : الأرواح ، فإن الله خلق الأرواح كخلائق تتمتع بحرية كاملة ، ولقد دعا هذه الأرواح للاتحـاد مع « كلمته » : « اللوغوس » ، وعن طريق اتحادها مع اللوغوس تتحد أيضا مع الله • وكانت هذه الأرواح كلها من جوهر إلهى ومتساوية فى الذكـاء والقدرة والعمل ومعرفة الله ومحبته • ولقد دعوا كلهم إلى نفس المصير• لكن كان ينقص هذه الخلائق أو الأرواح شيء واحد وهو عمل الخـير ، الذى يتوقف على استعمال الحرية التى منحها لهم الله • فقد تركهم أحرارا لاختيار الخير أى الاتصال بالله والحياة معه أو اختيار الشر والحيـاة بعيداً عنه •

أما العنصر الثانى الذى تكون منه العالم فهو المـادة • فالمـادة إذن هى خليقة الله (وهنا يرفض أوريجانوس الغنوسية المتطرفة) ، ولـكن المادة التى خرجت من بين يدى الله منذ الأبد تختلف كل الاختلاف عـن المادة الحالية ، المادة الكثيفة الجامدة الثقيلة • فالمادة عندما خرجت من بين يدى الخالق كانت مادة خفيفة منيرة ، لامعة شفافة سائلة ، كـاملة مهيأة لسكن الروح ، هذا الروح الذى كان لا بد أن يعمل من هذه المـادة

(١) انظر فى نهاية هذا الفصل المراجع كاملة .

مسكنا يليق بعمل الخير • لقد كانت المادة إذن عند خروجها من يد الله قبل الروح غير كاملة ، إن المادة والروح لم يكونا إلا ما سيصيران عليه بعد اختيارهما للخير أو للشر بحسب الحرية التى منحت لهما • فالكون بكل ما فيه ما هو إلا النتيجة الحتمية للاختيار الذى قامت به هذه الأرواح •

والذى حدث كما يظن أوريجانوس أن بعضا من هذه الأرواح التى خلقها الله ، اختارت بحرية كاملة الاتحاد بالله ، وباللوغوس ، وبناء عليه فقد أظهرت محبتها وارتباطها الوثيق بالله • وهذه الأرواح تدعى الملائكة ، أى الطبقة المنيرة السماوية الممجدة • على أن بعض الأرواح الأخرى ثارت على الله ، وانفصلت عنه وعصت أوامره ، بل أعلنت حربا شعواء ضده وهم الشياطين ، الذين حكم عليهم بالسكن فى المناطق المظلمة والنجسة ، وهى التى تثير الاضطراب وعدم الانسجام فى العالم •

وتوجد طبقة ثالثة من الخلائق ، وهذه الطبقة لم تتحد بالله كما فعل الملائكة ، ولم تعلن حربا ضد الله كما فعل الشياطين ، ولكنها أخذت موقفا وسطا ، فلقد تركت الله وانطوت على نفسها وأحبت ذاتها ، وهذه هى جماعة البشر • فإن الجسد والعالم الأرضى ، اللذين تسكنهما الأرواح البشرية هما النتيجة والعقاب لسقوط هذه الأرواح البشرية •

إن عملية السقوط كمايراها أوريجانوس ليست عملية وحيدة وفريدة ونتيجتها جماعية فى التاريخ ، ولكنها عملية فردية ، فإن كل نفس بشرية قد سقطت من العالم الالهى السابق ، فان أرواح البشر مخلوقة من زمن بعيد ، منذ خليقة الأرواح الملائكية والشياطين • فالأرواح البشرية سابقة إذن فى وجودها للأجساد التى تسكن فيها على الأرض الآن • وسكن الأرواح فى الأجساد يعد عقابا لهما على تصرفاتها فى العالم السابق •

ومن هنا ننتقل الى الفكرة الرئيسية والهامة فى موضوع دراستنا وهى عملية التجسد . فأوريجانوس يعتقد بأنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الالهية بجسد بشرى ، ولكى تتم هذه العملية ــ عملية الاتحاد الالهى البشرى ــ كان لا بد من وجود وسيط . والوسيط الذى يلجأ اليه هو الروح البشرية الموجودة والمخلوقة قبل خلق الجسد ، فإن الروح بطبيعتها تحتل مكانا وسطا ، ففى استطاعة الروح الاتحاد بالله لكونها روحا وفى استطاعتها أيضا أن تتحد بالجسد لهذا السبب عينه . والأغرب من ذلك فى مفهوم أوريجانوس بخصوص أبدية الأرواح أو وجودها السابق ، هو أن عملية الاتحاد التى تمت بين اللوغوس وروحه البشرية ، قد تمت بعد الخليقة مباشرة ، إذ أن اللوغوس عند تجسده كان لا بد له أن يأخذ روحا بشرية ، وقد تمت هذه العملية ليس عند التجسد ، بل لقد حدث الاتحاد بين اللوغوس وبين روحه البشرية بعد الخليقة مباشرة ، أو بمعنى أدق إن عملية الاتحاد هذه تمت بين اللوغوس وروحه فى لحظة السقوط ، لأن الله دعا كل الأرواح المخلوقة بعد الخليقة للاشتراك والاتحاد معه ، على أن يكون هذا الاتحاد نابعا من قلب محب وارادة حرة للاختيار .

ولم يوجد بين كل هذه الأرواح « الوسطى » إلا روح واحدة قد التصقت باللوغوس بطريقة قوية متينة ثابتة لا تعرف الانفصام . ولأن هذه الروح قد التصقت باللوغوس بهذه الرابطة القوية فلم تعرف طريق السقوط الذى هوت فيه كل الأرواح الأخرى ، وظلت ساكنة فى السماء ومتحدة باللوجوس . ولذلك عندما جاء ملء الزمان وعندما أرسل الله ابنه مولودا من إمرأة ، فإن هذه الروح التى كانت متحدة باللوجوس قبل التجسد صارت روحا للانسان يسوع بعد التجسد(١) . « لقد اتحد

(١) انظر ــ بخصوص هذا الموضوع ــ المراجع التى سنذكرها فى نهاية هذا الفصل ، ثم انظر كتاب
Bonifas Vol. 1, pp. 151 - 159, 337 - 338

اللوجوس بالجسد عن طريق روح بشرية ، وهذه الروح هى نفس طاهرة لم تعرف السقوط (انظر هرنك PRECIS DE L'HISTOIRE ص ١٠٥ ـ ١١٠) .

إن هذه الروح التى قبلت باختيارها الشخصى وبمحبتها العظيمة، الاتحاد باللوجوس والالتصاق به ، هى نفسها باتحادها مع اللوجوس حلت فى الانسان يسوع ، أو بعبارة أخرى صارت الروح البشرية ليسوع الناصرى . فإن هذه الروح التى كانت متحدة باللوجوس قبل التجسد ، أصبحت الوسيط بينه وبين جسد يسوع الذى سكن فيه اللوجوس .

والسؤال الذى يعترض سبيلنا هو الآتى : ما هو نوع العلاقة القائمة بين اللوجوس وبين هذه الروح والجسد اللذين لبسهما ؟ إن العلاقة بين اللوجوس وبين الروح قائمة على المحبة والانسجام والطاعة، لأن هذه الروح قد قبلت ، منذ خلقها وبملء حريتها هذا الطريق،أى طريق لم تعرف السقوط (انظر هرنك CONTRE CELSE, 1. 32). وعندما سكن اللوجوس فى هذا الجسد، فى يسوع الناصرى، وهو انسان كامل من ناحية تكوينه أى روح وجسد ، كان اللوجوس ابن الله يعمل فى الانسان يسوع لكى يرفعه ويسمو به .

ومع أن أوريجانوس يقول إن الروح التى اتحد بها اللوجوس لم تعرف السقوط (انظر BONIFAS 337 - 338) فهو يقول أيضا إن هذه الروح تشبه تماما أرواحنا (انظر كتابه DE PRINC., 2, 6, 5) وإلا كيف كان يمكن للمسيح أن يخلص أرواحنا لو أخذ روحا تختلف عن الروح التى يجب أن يخلصها . ولكن على الرغم من ذلك فمع كونها شبيهة تماما بأرواحنا فإنها ظلت طاهرة قبل السقوط عن طريق اختيارها الشخصى الحر باتحادها باللوجوس ، كما ظلت أيضابعد اتحادها بالجسدطاهرة نقية وبلا خطية.

وكان اللوجوس يرفع ويؤله تدريجيا الروح التي اتحد بها ، وكانت الروح ترفع وتؤله هي أيضا بدورها الجسد الذي سكناه •

ويستعمل أوريجانوس مثل الحديد والنار لكي يشرح عملية اتحاد اللاهوت بالناسوت • فإن الحديد لا يحمر ولا يتحول إلى نار إلا بفعل النار • هذا هو تأثير اللاهوت على الروح وعلى الجسد ، فإذا كان الحديد قد إحمر وتحول إلى نار ، فالفضل في ذلك يرجع إلى النار ، وإلى النار وحدها • فإن تأله روحه وجسده تدريجيا يرجع إلى اللوغوس الذي سكن فيهما ورفعهما إلى هذه الدرجة ، درجة اللاهوت (انظر كتابه DE PRINC., 2, 6, 3 ; 2, 8, 2 ; 2, 6, 5)•

من الاقتباسات السابقة وخاصة ما قاله في كتابه ضد سلس (CONTRE CELSE 3, 41) يتضح بأن أوريجانوس يؤمن بأن روح المسيح وجسده كانا يرتفعان ويتحولان تدريجيا الى درجة اللاهوت فهو يقول : « إن روح المسيح ، وحتى جسده ، تألها باتصالهما بالكلمة « اللوغوس » • ويقول هرنك ان أوريجانوس كان يؤمن بأن اللوجوس لم يكن سجين الجسد بل كان له السلطان أن يمارس ما كان يقوم به سابقا ، بل كان يواصل اجتماعاته بالأرواح الطاهرة•وخلال هذه الحياة على الأرض كان اللوجوس يمجد ويؤله بالتدريج الروح وهذه الأخيرة كانت بدورها تمجد وتؤله الجسد (انظر هرنك PRECIS DE L'HISTOIRE ص ١٠٥ — ١١٠) •

وهنا يبدو لنا الخطر المنزلق الوعر الذي كان يهدد أوريجانوس• فمع أنه يكرر مرارا كثيرة ، وخاصة في شرحه للنصوص الآتية (يو ١٠ : ١٨ ، ١٢ : ٢٧ ، ١٣ : ٢١ ، متى ٢٦ : ٢٨) • أن هذه النصوص تدل على ناسوت المسيح (انظر كتابه DE PRINCE., 2, 6, 3) إلا أنه يقول أيضا في بعض كتاباته بل في أماكن عديدة سبقت الاشارة إليها ، بتأليه جسد المسيح •

ومن هذا يتضح أن هذا المعلم الذى نشأفبيئة تشبعت بالغنوسية، كان يريد أن يعمل من الغنوسية الوثنية غنوسية مسيحية ؛ كما حاول ذلك قبله أكليمندس الاسكندرى • والدارس المدقق لتعاليم هذا الرجل يلاحظ ذلك بلا عناء ، وخصوصا فى شرحه لنظرية الخلق • لا ننكر بأنه استبعد الغنوسية التى تعتبر أن الله السامى لا علاقة له بالخليقة والمادة ، عندما اعترف بأن الله هو الخالق . على أنه يعترف بأن العالم الذى خلقه الله ، خلقه من مادة تختلف عن ما هو عليه الآن ، مادة خفيفة شفافة نقية ••• الخ •

وهناك نقطة أخرى تبرهن على أن الرجل ، بالرغم من أنه نشأ فى وسط مسيحى ، كانت لا تزال بعض رواسب الوثنية باقية فيه ، أو ربما كان لرغبته فى ايجاد حل وسط يجذب عن طريقه الغنوسيين ، علم بأن روح المسيح قد خلقت منذ الأزل • كذلك أيضا رأيه فى نظام الخليقة ، نشتم منه رائحة غنوسية • فمع أنه يستعمل العبارة «إنسان الله» عندما يتكلم عن يسوع المسيح لكى يشير إلى لاهوته وناسوته ، ولكن التصريحات التى سبقت الاشارة إليها تبين لنا أنه يريد أن يرفع جسد هذا الانسان يسوع إلى درجة اللاهوت • وهذا خطر عظيم •

والقارىء المدقق لتعاليم أوريجانوس يشتم منها كل أنواع الهرطقات ، إلا أنه استطاع أن يهرب من الكثير منها • فقد قال عنه هرنك ما معناه : « كان يمكن أن يتهم أوريجانوس بأنواع كثيرة من الهرطقات ، ولكنه أستطاع أن يفلت منها بسبب الاحتياطات التى اتخذها » • (هرنك ص ١٠٩ ذكر اعلاه) فلقد كان اهتمامه الأعظم وشاغله الشاغل هو ابراز صورة اللاهوت «اللوغوس» ، الله •

إن اللاهوت طغى حتى كاد يخفى الناسوت تماما ، فمع أن الناسوت كان ظاهراً أمام العين المجردة ، ولكن فى تعاليم أوريجانوس

نكاد لا نرى إلا اللاهوت ، أو ناسوتا فى طريقه إلى التأله . وهنا نتساءل أين إذن الله الانسان ؟ أين يوجد ناسوته إذا كان اللوغوس يؤله الروح والجسد معا ؟

إننا لا ننكر فضل أوريجانوس فى ادخال عقيدة الروح فى التعاليم الكرستولوجية ، فلقد كان الأول الذى علم بهذه التعاليم فى الكنيسة الشرقية ، عندما قال إن مخلصنا أراد أن يخلص الانسان روحا وجسدا (راجع DE PRINC., 4, 2, 4) ولكن للأسف الشديد ، إن تمسكه بفكرة الروح ، قادته إلى أفكار غريبة عن الكتاب المقدس وعن المسيحية . على سبيل المثال : عقيدته فى أن وجود الأرواح سابق لوجود الأجساد . أى أن الروح موجودة قبل الجسد الذى تحل فيه وتسكنه . ومن أفكاره الغريبة أيضا أن الخلاص هو خلاص يشمل الجميع كونيا (COSMIQUE) فالمسيح الفادى لا يفدى الجنس البشرى فحسب ، بل حتى الملائكة الساقطين (انظر BONIFAS VOL. 1, P. 154) .

وبما أننا رأينا فيما سبق علاقة اللوجوس بالروح وبالجسد ، وكيف أن اللوجوس يعمل على رفع وتأليه الروح ، والروح بدورها تعمل على رفع وتأليه الجسد . يجب أن نسأل هذا السؤال : ما هى العلاقة القائمة بين اللوجوس وبين الآب ؟ من هو اللوجوس بالنسبة للآب ؟

لقد سبق أن عرفنا بأن علاقة اللوجوس بروح المسيح البشرية قد بدأت عند السقوط وبالتحديد عندما اختارت الروح بمحض ارادتها الاتحاد ، عن طريق المحبة والطاعة الكاملة ، باللوجوس . ولهذا السبب ظلت هذه الروح الوحيدة فى السماء ولم تسقط إلى السجن الأرضى .

وهكذا ظلت هذه الروح متحدة باللوجوس إلى يوم التجسد ، اليوم الذى فيه حلت فى الانسان يسوع المسيح • فالانسان الكامل من الناحية الطبيعية مكون من روح عاقلة وجسد • وفى مفهـوم أوريجانوس أن الأرواح موجـودة ومخلوقـة قبل الأجساد ، وكل الأرواح سجينة فى الأجسام • أما روح المسيح فكانت فى السماء مع اللوجوس إلى يـوم حلولهما معا فى الانسان يسوع الناصرى ، فإن الانسان يسوع الناصرى كان يتكون اذن مثل كل انسان من روح عاقلة وجسـد ، ثم اللوجوس كان فى هذا الانسان يسوع الناصرى وبالتالى فهو « الله ـــ الانسان »•

وهنا نطرح السؤال الذى طرحناه سابقا ، وهو : ما هى العلاقـة القائمة بين اللوجوس والله ؟ أو بطريقة أخرى ما هى العلاقة القائمـة بين الله الآبوالله الابن ؟ منهو الآب بالنسبة للابن ومن هو اللوجوس بالنسبة للآب ؟

إن أوريجانوس يعلـم بأن اللوغوس انبثق من الآب ، وهـذا الانبثاق لا يعد تقسيما فى ذات الله ، بل إن هذه العملية ـــ أى عمليـة الانبثاق أو خروج الابن أو اللوجوس من الآب ـــ هى عملية روحية • فالابن هو صورة الله الغير المنظـورة وهو أيضا حكمـة الله • فالابن بالنسبة للآب هو الحق • أما بالنسبة لنا فهو الذى يقودنا إلى الحق (انظر DE PRINC, 1, 2, 6) • وهـذا الابن هـو ابن أزلى لا بداية له ، فإنه موجود منذ الأزل ولا يوجـد وقت ما لم يكن الابن موجوداً فيه (انظر DE PRINC, 1, 2, 9 ; 2, 4, 4, 1) •

وكأنى بأوريجانوس يرفض مقدما الأفكار التى نادى بها فيمـا بعد أريوس ، الذى علم بأنه يوجد وقت ما لم يكن الابن موجودا فيه، كما أنه يرفض عقيدة التبنى ، أى أن يسوع أصبح ابنا بالتبنى وليس بالطبيعة (أنظر DE PRINC., 1, 2, 4) •

ثم يقول : « وبما أن الحكمة (الكلمة أو اللوجوس) انبثق من الله فهو الله ، ومولود من جوهر إلهى (انظر كتابه SAP., 7, 25). ولكى يعبر أوريجانوس بطريقة صحيحة وواضحة فقد صاغ الاصطلاح الذى سيلعب دورا كبيرا فى تاريخ العقيدة المسيحية وخاصة فى مجمع نيقية (سنة ٣٢٥) وهو «أموزيوس» (OMOOUSIOS) ، والذى يعنى أن طبيعة الابن من طبيعة الآب . فبحسب هذا التعبير ، الابن من نفس جوهر الآب .

إذا اكتفينا بالاقتباسات السابقة فقط يمكن أن نقول مع كاستن (QUASTEN) بأن تعاليم أوريجانوس الكرستولوجية تقدمت بخطوات واسعة إلى الأمام ، على تعاليم المعلمين الذين سبقوه . على أننا نلاحظ أنه قد ترك لنا بعض النصوص فى أماكن كثيرة أخرى فى كتاباته لا تتفق وأقواله التى سبق أن أشرنا اليها بخصوص وحدة الجوهر وذاتيته . ويقول لودز (LODS) فى تعلقه على مفهوم أوريجانوس للوغوس إن الوسيط بين الله والناس ما هو إلا إلهـا ثانيا (أو ثانويا) فى عرف أوريجانوس ، هـو ابن ، ولـكنه مختلف عن أبيـه فى الطبيعة ، ومن المستحيل مساواته مـع الآب ، فهو أقل منه درجة أى تابع للآب . لا يملك اللاهوت بل يتقبله من الآب ، فهو الله بالاشتراك فى لاهوت الآب (انظر IN JOB 2, 2, 8) الآب وحده هو الله بذاته ، أما الابن فهو إله من درجة أدنى ..... (انظر LODS P. 43) .

ويواصل لودز تعليقه بالقول بأنه توجد عبارات أخرى فى كتابات اللاهوتى الاسكندرى تدل على نفس المعنى كقوله (DEUTEROS THEOS') أى إله ثان أو ثانوى (انظر CONT. CELSE 5, 35) بل انه يختلف عن الآب ليس فقط فى تميزه كشخص آخر(IN JOB. 10 21 PAGE 143. 76) بل فى الجوهر أيضا (انظر DE 15, 1) .

ومما لا شك فيه أن هذه العبارات التى ذكرها لودز ، وعبارات أخرى كثيرة ، خطيرة المعنى ثقيلة النتيجة ، قد أفلتت من قلم أوريجانوس . ولهذا السبب فقد اتهمه البعض بهرطقة التابعية (SUBORDINATATIANISME) أى أن الابن أقل من الآب فى الدرجة وتابع له . فالقديس جيروم يصفه بالتابعية دون أى تردد . على أن غريغوريوس العجائبى والقديس أثانسيوس المصرى يبرآنه منها . كذلك بعض الكتاب الحديثين أمثال رنيون وبرات (REGNON, PRAT). فهما لا يوافقان على هذه التهمة (انظر QUASTEN VOL. 1. P. 95) .

ومن هذا يتضح أن البعض يبرر اللاهوتى المصرى من هذه الهرطقة والبعض الآخر يرى فى كتاباته ميلا صريحا للتابعية . والذى دفع البعض إلى أن يروا فى أوريجانوس نوعا من هرطقة التابعية هى النصوص التى سبقت الاشارة إليها ، وخاصة النص الآتى : « ونحن الذين نؤمن بكلام السيد الذى يقول : بأن الآب الذى أرسله هو أعظم منه» ، والذى لا يسمح بأن يلقب «بالصالح» ... ناسب هذا اللقب للآب ... فانه بهذا يدين الذين يمجدون الابن بافراط ، فنحن نؤمن بأن المخلص والروح القدس يفوقان كل الأشياء المخلوقة ، فى العظمة والسمو بلا وجه للمقارنة ، كذلك الآب يفوقهما فى العظمة والسمو بدرجة سموهما وتفوقهما على كل الخلائق الأخرى (انظر IN JOB, 13, 15).

إن هذا التصريح خطير وغريب ، لأن أوريجانوس قد رفض عقيدة «المود السيم» (MODALISME) بل انه تكلم عن الثالوث مرات كثيرة فى كتاباته . (JOH., 5, 17 ; P. 14, 257 ; 10, 139, 270 ; IN JES HOM 1, 4, 1 ; CUATT 15, 31 PAG 13, 1345....)

وبالرغم من رائحة الهرطقات العديدة التى يمكن ان نشتمها عندما

نقوم برحاة فى حدائق كتاباته ، فقد كان أوريجانوس لاهوتيا عظيما ، فهو الذى أدخل فى التعاليم اللاهوتية الشرقية عقيدة روح المسيح • ومما لاشك فيه أنه بالغ فى ذلك وارتكب أخطاء عظيمة عندما علم بوجود الأرواح قبل وجود الأجساد • وهو الرجل الذى نادى أيضا بفكرة وساطة اللوغوس بين البشر وبين الله ، فباتخاذه روحا بشرية كأرواحنا وجسدا بشريا كأجسادنا ، أصبح إنسانا ، وفى نفس الوقت هو اللوجوس ، اللاهوت • بهذا الامتياز (إله ــ إنسان) استطاع أن يربط الله بالانسان • وأوريجانوس يرجع كثيرا فى تعاليمه إلى فكرة الروح واتحادها بالجسد،فإنه يعتقد بأن الروح هو صورة اللوغوس،واللوغوس هو صورة الله • كما أنه رأى فى شخص المسيح المخلص والفادى • وهنا أيضا قد تطرف، فى فهم نظرية الخلاص : إذ أنه ظن بأن عملية الخلاص مقدمة للكون كله ، والفرصة متاحة للشياطين أيضا •

وهو يعتقد أن الكون كله سيخلص فى النهاية ، ولكن بما أن الأمر متوقف على حرية الخلائق واختيارها ، فيكفى أن تحدث حادثة عصيان وعدم قبول الطريق الذى يؤدى للخلاص ، فتبدأ عملية الخلق من جديد ••• وهكذا تستمر هذه العملية ، أى خلق عالم جديد ثم سقوط ثم فداء • وهكذا دواليك ••• دون نهاية (انظر كتاب BONIFAS VOL. 1. P. 155) •

بالرغم من كل هذه الأخطاء اللاهوتية ، وبالرغم أيضا من خلطه بعض التعاليم الغنوسية والرواقية والأساطير الوثنية بتعاليمه المسيحية، فقد كان لأوريجانوس تأثير عميق على كنيسة القرون الأولى • فبعد موته قادت جماعات لاهوتية تؤيد آراءه وتنادى بها ، كما أن جماعات أخرى رفضت هذه الآراء ، وبين هاتين الجماعتين قامت المجادلات التى

(ع ٣٦ ــ تاريخ الفكر المسيحى)

تدعى فى تاريخ الفكر المسيحى «المجادلات الأوريجانوسية» التى ظهرت فى سنة ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٥٠ ، فقد كان ضد تعاليم أوريجانوس كل من متوداوس الفيلبى وبطرس الاسكندرى (METHOD DE PHILIPPES ET PIETRE D'ALEXANDRIE) ولقد دافع عن تعاليمه بامفيلوس القيصرى (PAMPHILE, DE, CESAREE) وبعد ذلك جاء فى سنة ٤٠٠ إبيفانس السلامينى (EPIPHANE DE SALAMINE) ثم بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس لمهاجمة تعاليم أوريجانوس فأصدر قرارا سنودسيا ضد هذه التعاليم . على أن السنودس (المجمع) الذى عقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٤٣ أصدر قرارا بخمسة عشرة حرمنا على البعض من تعاليم أوريجانوس ، ولقد وقع على هذه الحرمانات البابا فيجيل (VIGILE) وكل البطاركة (انظر QUASTEN P. 50) بالرغم من هذا كله فقد لعبت تعاليم أوريجانوس دورا عظيما فى حياة الكنيسة الأولى وتركت أثرا عميقا فى كثيرين من الآباء والمعلمين . وكم نتمنى لو أن الذين ينبشون بطون الأرض ، يكتشفون بعضا من مئات الكتب التى تركها هذا المعلم المصرى العظيم ، لتعطى لنا صورة مكتملة الجوانب عن تعاليمه بنوع عام ، وعن مفهومه لشخص المسيح بنوع خاص .

بعض المراجع لدراسة حياة وتعاليم اوريجانوس :

1. Adolphe Harnack. Précis de l'histoire. Traduit par Eugène Choisy. pp. 98 - 111 (Paris Librairie Fischbacher).
2. J. Liebaert. L'incarnation de origines au concile de Chalcedoine (Les editions du cerf) pp. 93 - 107.
3. Francois Bonifas. Histoire des dogmes. de l'eglise chretienne. Tome 1. pp. 143 - 159, 337 - 338 (Librairie Fischbacher).
4. A. Grillmeier. Le Christ dans la tradition chretienne de l'âge apostolique à chalcédoine (451) Les éditions du cerf) pp. 192 - 202.
5. J. Quasten. Initiation aux peres de l'Eglise. tome 2 (traduction de l'anglais par J. Laporte) (Les éditions du cerf) pp. 49 - 122.
6. T. De Regnon. Etude de theologie positive sur la sainte trinite. Premiere serie, deuxieme serie, 1892, troisieme serie Paris 1898.
7. F. Prat. Origene le théologien et L'exégàte. 3e ed. Paris 1907.
8. G. Bardy, La regle de foi d'origene : RSR9 (1919) 162 - 196).
9. R. Cadiou. Introduction au système d'origene. Paris 1932
10. J.J. Maydieu. La procession du logos d'apres le commentaire d'origene sur l'errangile de saint Jean : BLE 35 (1934) 3 - 16, 49 - 70.
11. W. Fairweather. Origen and Greek Patristic Theology. N.Y. 1901.
12. H. Crouzel. Théologie de L'image de Dieu chez Origéne. Paris 1950 (71 - 142).
13. B. F. Westcoott, Origene : Dictionary of Christian Biography 4, 96 - 142.
14. G. L. Prestige. Fathers and Heretics. London, 1948 (43 - 66).

١٥ ــ الدكتور اسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكيا العظمى ، منشورات النور ــ بيروت لبنان ــ الجزء الأول من ص ٩٤ ــ ١٠٢ .

الفصل السابع

هيبوليتوس

تمهيــــد :

ما هى عقيدة الكنيسة الغربية فى شخص المسيح يسوع ؟ كيف فهم الغربيون عملية التجسد ؟ من هــو يسوع الناصرى بالنسبة للـكنيسة الغربية ؟

فى عرضنا لتطور الفكر المسيحى عبر التاريخ فى السؤال : «من هو يسوع المسيح » ، رأينا آراء مختلفة متنوعة . ولقد سبق أن رأينا أن السؤال الذى سأله السيد لتلاميذه فى قيصرية فيلبس : « من يقــول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » قد طرح على الـكنيسة الأولى ثم على الكنيسة فى الأجيال اللاحقة . وما يزال هذا السؤال يطرح نفسه على الكنيسة كلها أينما كانت .

وفى دراستنا لتطور الفكر المسيحى حاولنا أن نرى الاجابات المختلفة الكثيرة ، التى أجابت بها الكنائس والجماعات والأفراد . وبما أن هــذا السؤال قد طرحه السيد على تلاميذه ، وكان ينتظر منهم جوابا يعبر عن إيمانهم وعقيدتهم فى شخصه . فإن نفس السؤال طرح أيضا وما يزال يطرح على كل الكنيسة فى كل زمان وفى كل مكان .

ولذلك فقد حاولت كل جماعة مسيحية أينما وجدت أن تجاوب على هذا السؤال . وفى الاجابة على هذا السؤال : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان؟ » (متى ١٦ : ١٣) تضاربت الآراء واختلفت الأفكار . وظهرت المدارس الفكرية التى ولدت فيما بعد الطوائف الدينية ، فإن المدارس الفكرية والمذاهب الدينية ظهرت عندما ظهرت الاجابات المختلفة المتنوعة على سؤال السيد . إذ أن البعض قد رأى فى يسوع الناصرى ، المسيح ، اللوجوس ، الله الذى ظهر فى الجسد والبعض الآخر رأى فيه إنسانا ومجرد إنسان . ولكنه إنسان نبى ـ على أن البعض الآخر رأى فيه إنسانا وصل إلى درجة اللاهوت بعد العماد ...

والجدير بالذكر أن معظم هذه الآراء والأفكار والمدارس قد ظهرت فى الشرق ، بل يمكن أن نقول بأن الأغلبية الساحقة قد ظهرت فى الشرق .

فإن الاسكندرية قامت بدور رئيسى هام جدا فى تاريخ الفكر المسيحى . ففى الاسكندرية تأسست أول مدرسة مسيحية لتدريس علوم اللاهوت ، المدرسة التى أسسها بانتينوس فى سنه ١٧٩ . فحتى المدرسة الثانية (مدرسة قيصرية) والتى ولدت بعد نصف قرن من تأسيس مدرسة الاسكندرية ، كان مؤسسها مصرى أيضا وهو أوريجانوس الذى تتلمذ على يدى أكليمندس الاسكندرى ، وهذا الأخير كان تلميذا لبانتينوس .

ففى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة فى الشرق فى ثورة فكرية وفلسفية وعقائدية ، كانت كنيسة الغرب تجهل الكثير عن بعض التطورات اللاهوتية التى وصلت إليها أختها فى الشرق . فمع أن الكنيسة الرومانية لم تكن كنيسة منطوية على ذاتها ، بل كانت كنيسة حية نشطة جدا ، استطاعت أن تعلن رسالة الانجيل بلا خوف بل بشجاعة عظيمة لكثيرين ، إلا أنها ظلت من الناحية التعليمية واللاهوتية بلا انتاج فكرى يذكر ، حتى

بداية القرن الثالث . فبينما كانت كتب دفاع الشرقيين عن المسيحية وعن إيمانهم بالمسيح منتشرة فى طول الامبراطورية وعرضها ، لا نرى فى الغرب إلا نوعا من الاهمال ، أو ربما نوعا من الاعتماد والرجوع إلى ما قد قامت به الكنيسة الشرقية فى دفاعها عن الايمان المسيحى ، وشرحها لايمانها فى شخص المسيح . ولقد ظلت كنيسة الغرب فى هذا النعاس التعليمى اللاهوتى الى بداية القرن الثالث . ويرجع ذلك الى حقيقة أن الكنيسة الرومانية اهتمت كثيرا بتنظيم الكنيسة من الناحية الادارية والقانونية والاجتماعية والتبشيرية .

ففى بداية القرن الثالثظهر مكتوب دفاعى كتبهمينوكيوس فيلكس (MINUCIUS FELIX) وبالرغم من سلاسة الأسلوب وفصاحة الكاتب ، فإنه لا يلمس الايمان المسيحى إلا من بعيد جدا . على أن هـذا المكتوب لم يكن المكتوب الأول فى الكنيسة الرومانية ، فلا يمكن أن ننسى أكليمندس الرومانى وآخرين ممن كتبوا عن الايمان المسيحى ، ودافعوا عنـه ، ولكنهم كانوا قليلين عندما نقارنهم بكتاب ومدافعى الشرق . ومـن بين المعلمين الذين ظهروا وعلموا فى روما عن شخص المسيح نذكر :

هيبوليت أو هيبوليتوس : (HIPPLYTE)

ولم يكن ظهور هيبوليتوس فى بداية القرن الثالث شبيها بظهـور المعلم المصرى بانتينوس فى الاسكندرية أو أوريجانوس . فإنه لم يقم بتأسيس مدرسة تحمل كلمة مدرسة بكل ما فى الكلمة من معنى . بل قام فقط بنشر تعاليمه اللاهوتية . وجدير بالذكر أن حتى هذا المعلم الرومانى يحتمل أنه كان شرقى الأصل . فإن كاستن (QUASTEN) يعتقد بأن هيبوليتوس لم يكن رومانيا ولا لاتينيا ، فان معرفته المدهشة للفلسفة اليونانية منذ بدايتها إلى عصره ، كذلك معرفته أيضا للمبادات السرية اليونانية والشخصية اليونانية ، تدل على أنه كان من أصل شرقى . كما

يلاحظ أيضا قرابة ملموسة بينه وبين تعاليم الاسكندرية ، فيما يخص عقيدة اللوغوس • فهو يونانى فى تعبيراته وأفكاره ، ويعتبر أيضا آخر كاتب مسيحى رومانى كتب باليونانية •

يحتمل أن هيبوليتوس ولد فى ساردينيا (SARDAIGNE) بين سنتى ١٧٠ ، ١٧٥ ب م ، ورسم كاهنا فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية •ولقد نقل فوتيوس (BIB. COD. 121 PHOTIUS) عن فمه أنه كان تلميذاً للقديس ايريناوس اليونانى • ويحتمل أيضا أن المعلم الرومانى تقابل وتناقش مع اللاهوتى المصرى أوريجانوس عندما قام هذا الأخير بزيارته لروما سنة ٢١٢ • بل إن جيروم يعتقد بأن العظة المعنونة بعنوان : «اجلال أو تسبيح للسيد مخلصنا» قد ألقاها هيبوليتوس فى روما فى حضرة أوريجانوس •

فإن كان هيبوليتوس تلميذا للقديس ايرينايوس فلابد أنه أتبع آثار خطوات معلمه فى محاربة الهرطقات التى كانت منتشرة فى هذا الوقت والتى قاومها بشدة القديس إيريناوس •

كان هيبوليتوس عميق الفكر ، متسع الاطلاع ، امتدت معرفته الى عدة فروع مختلفة من العلوم ، ولقد توجت هذه المعارف فى هذا الرجل بهبة الوعظ •فقد كان خطيبا مفوها • ومع أنه قد طرق فى تعاليمه وأبحاثه أبوابا لم يطرقها المعلم المصرى ، ومع أنه أيضا أنتج فى كتاباته انتاجا ضخما جدا ، إلا أنه لم يستطع أن يصل إلى نفس الدرجة التى وصل اليها أوريجانوس فى عمق الفكر والتجديد المستمر •

وتوجد نقاط كثيرة متشابهة فى حياة المعلمين • فلقد رأينا أن سوء التفاهم الذى نشب بين معلم الاسكندرية وأسقفه ، أدى إلى قطع الأول

من الكنيسة وحرمه . هكذا هبت هذه العاصفة أيضا بين المعلم الرومانى وأسقفه كاليستوس (CALLISTE) . ولكن على وجه آخر ، فعندما حاول البابا كاليستوس تسهيل الأمور أمام الراجعين للايمان بعد ارتدادهم عنه لسبب الاضطهادات العنيفة القاسية ولأسباب أخرى . فقد ثار هذا المتقشف ثورة عارمة ضد البابا واتهمه بالليونة التى ستهوى بالكنيسة وتقاليدها الرسولية الى الحضيض . بل وصل به الأمر الى اتهام البابا بهرطقة السابلينية(١) . وتفاقمت الأمور بين الكاهن وأسقفه . والتف حول هيبوليتوس جماعة من كنيسة روما وانفصلوا عنها واختاروه أسقفا ؛ فأصبح أول الذين يسميهم التاريخ فيما بعد بأضداد البابا (ANTIPAPES) . . واقد استمر هذا الانقسام فى الكنيسة الرومانية حتى فى أيام البابا أربانيوس (URBAIN) ٢٢٣ — ٢٣٠ والبابا بونتينوس (PONTIEN) (٢٣٠ — ٢٣٥) وظل هذا الانشقاق قائما الى أن تقابل كل من البابا بونتنيوس وهيبوليتوس فى ساردينيا (SARDAIGNE) فى المنفى ، ويبدو أنهما تصالحا .

فى ٢٨ سبتمبر سنة ٢٣٥ استقال بونتينوس لكى يسمح للكنيسة الرومانية أن تختار خليفة له . كما أن هيبوليتوس تنازل هو الآخر عن منصبه وموقفه واتحدت الكنيسة الرومانية وتبددت الغيوم التى انتشرت فى سمائها ، وانتخب انتروس (ANTEROS) بابا لها . ومات هيبوليتوس وبونتنيوس فى جزيرة « الموت » وقد أمر البابا فابيانوس (FABIEN) (٢٣٦ — ٢٥٠) باحضار جسديهما الى روما . فدفن بونتنيوس بجوار القديس كاليستوس فى ناووس (مقبرة الباباوات) ، كما أن هيبوليتوس دفن هو الآخر فى مقبرة فياتبورتينا (VIA TIBURATIAN) واحتفل بدفنهما فى نفس اليوم وهو ١٣ أغسطس سنة ٢٣٦ أو ٢٣٧ ، ففى هذا

(١) سنرى فيما بعد عقيدة وتعاليم السابلينية .

اليوم تحتفل الكنيسة باستشهاد القديس هيبوليتوس •

كتابات هيبوليتوس :

ومع أن الكتب التى كتبها هيبوليتوس عديدة جدا ، إلا أنها واجهت نفس المصير الذى واجهته كتابات الكاتب المصرى أوريجانوس • ولا نملك حاليا إلا عددا قليلا جدا من كتاباته اليونانية • ولكن وصلت إلينا بعض كتاباته فى لغات أخرى مترجمة الى اللاتينية ، والسريانية ، والقبطية والعربية والأثيوبية •••

ومن أهم ما كتب المعلم الرومانى : المجموعة التى تتكون من عشرة كتب والتى تدعى :

(PHILOSO PHOUMENA OU, REFUTATION DE TOUTES LES HERESIES). « رفض كل الهرطقات » :

ولقد ضاع — لسوء الحظ — من هذه المجموعة الكتابان الثانى والثالث • أما بقية هذه المجموعة فقد اكتشفها منواد ميناس (MINOIDE MYNAS) فى سنة ١٨٤٢ مكتوبة باليونانية فى أسلوب القرن الرابع عشر • وعندما قام ميللر (M.E. MILLER) بطباعتها فى سنة ١٨٥١ نسبها إلى أوريجانوس ولكن فى الطبعة التى قام بها دنكر (DUNKER) فى سنة ١٨٥٩ نسب هذه المجموعة بطريقة واضحة ونهائية إلى هيبوليتوس لأن مؤلف هذه المجموعة يذكر فى مقدمتها كما فى فصلين آخرين بأنه هو الكاتب لكتاب « جوهر الكون فى تاريخ العالم » ومن المؤكد أن كاتب هذين الكتابين هو هيبوليتوس (انظر QUASTEN ص ١٩٣ — ١٩٩) • لقد ضاع الكتابان الثانى والثالث من هذه المجموعة ، فالكتاب الأول عبارة عن تلخيص لتاريخ الفلسفة اليونانية ، وهو ركيك الأسلوب •

أما الكتاب الرابع فيتكلم عن الفلك وعن السحر ••• والجزء الثانى من هذه المجموعة يحتوى على الكتاب الخامس الى الكتاب التاسع • ولقد حاول المؤلف أن يشرح العقيدة الصحيحة رافضا ومفندا آراء الهراطقة ؛ ولذلك فان هذا الجزء يعتبر فى غاية الأهمية لأنه يعطى لنا فكرة عن تاريخ الهرطقات الغنوسية • وفى الكتاب العاشر من هذه المجموعة : يقدم أنا سجلا تاريخيا لليهود ثم تفسيرا العقيدة الصحيحة • ويحتمل أن هذه المجموعة كتبت بعد موت البابا كاليستوس ، إذ أن الكاتب يذكر أن البابا كاليستوس مات سنة ٢٢٢ ؛ عندما كان هيبوليتوس يقوم بكتابتها • إن هذه الكتب لم يذكرها الكاتب نفسه فى قائمة كتبه ولا أسابيوس فى تاريخ الكنيسة (٦ : ٢٢) ولا جيروم •

٢ ــ كتب هيبوليتوس كتابا آخر يدعى (LE SYNTAGMA) وأسابيوس يعنونه بعنوان « ضد كل الهرطقات » (انظر (EUSEBE. HIST. ECCL. ويذكر المؤلف ٣٢ هرطقة •

٣ ــ ضد المسيح (ANTICHRIST) : وهو الكتاب العقائدى الوحيد الذى وصل إلينا كاملا • والكتاب موجه الى شخص يدعوه هيبوليتوس الأخ المحبوب ثيوكيلوس • ويعطى الكاتب ملخصا لهذا الكتاب فى الفصل الخامس • ويشرح فيه الكيفية التى سيأتى بها ضد المسيح ؛ ومن هو ضد المسيح ، وفى أى وقت سيأتى •

٤ ــ كتب تفسيرية : لقد كتب عدة كتب تفسيرية للمهدين ، وكان يتبع فى تفسيره نفس الطريقة المجازية التى اتبعها معلم الاسكندرية • على أنه يجدر بنا أن نذكر هنا أن هيبوليتوس هو الوحيد الذى أعطى لنا فى كتابه الرابع لتفسير سفر دانيال تحديدا لبعض التواريخ التى لم يذكرها أحد من الآباء فهو يظن بأن المسيح ولد يوم الأربعاء ٢٥ ديسمبر

فى السنة الثانية والأربعين من حكم الامبراطور أغسطس ، وأنه مات فى يوم ٢٥ أبريل •

٥ ـ كتاب عن الفصح : كتبه فى حوالى سنة ٢٢٠ •

٦ ـ كتب وعظية : وليس من السهل التمييز بين كتبة الوعظيـة والتفسيرية ، لأن معظم تفاسيره تنهج المنهج الوعظى •

٧ ـ عظات أو تعاليم ضد الهرطقة •

٨ ـ كتاب ضد اليهود •

٩ ـ التقليد الرسولى : وهذا الكتاب ذو أهمية عظيمة ، فهو يحتل الدرجة الثانية بعد الدسقولية • لأن الكاتب يصف لنا نظام الكنيسـة القديمة فيتكلم عن النظم والفرائض التى كانت تمارسها الكنيسة فى هذا الوقت : العشاء الربانى ، العماد ، الدرجات الكهنوتية •

إن هذه الكتب التى ذكرناها ليست إلا بعضا من كتابات هيبوليتوس العديدة جدا : ولقد ضاع الكثير منها • وجيروم يذكر لنا عدة كتب أخرى لا نعرف شيئا عن محتوياتها لأنها ضاعت تماما مثل كتاب عن الـكون ، كتاب بعنوان ضد اليونان ، كتاب عن أفلاطون (انظر PHILO. 10 : 32) ثم كتابه ضد هراطقة أرتيمون (ARTEMON) الذى ذكره أسابيوس (HIST. ECC. 5 : 28) وكتابه عن القيامة الذى ذكره جيروم (DE VISILLE, 61) .

كما ينسب أيضا الى هيبوليتوس قائمة الكتاب المقدس التى اكتشفها موراتارى (MURATORI) فى سنة ١٧٤٠ •

تعاليم هيبوليتوس الكرستولوجية :

كيف فهم هيبوليتوس فكرة اللوجوس أو المسيح ؟

إن معلم روما قد سلك فى نفس الطريق الذى سلك فيه يوستينوس وتاتيانوس وأثيناغوراس وثيوفيلوس وترتايانوس ، فى تعاليمه عن يسوع المسيح . إلا أنه شدد أكثر منهم جميعا على عقيدة التابعية (١) (SUBORDINATIANISME) اذ أنه لم يكتف بالتمييز بين الكلمة الداخلية أو الكائنة فى الله والكلمة المنطوقة كما فعل ثيوفيلوس . بل قدم نظرية تختلف نوعا ما عن كل النظريات التى سبقت الاشارة إليها فيما يختص باللوغوس . ويعتقد هيبوليتوس أن عملية ظهور اللوغوس كانت عملية تطورية مرت بعدة مراحل يمكننا أن نلخصها فى ثلاث :

١ ـ المرحلة الأولى :

فمنذ البدء وقبل الخليقة كان الله وحيدا مع ذاته . ومع ذلك لم يكن قط وحيدا ! ، لأن الله لم يتجرد قط من التفكير والعقل والحكمة والطاقة . فقد كان الله وحيدا ولكنه فى نفس الوقت « جمعا » (انظر كتابه ضد نيوتس NOETOS (10 - 11)) . كان « جمعا » لأن الفكر أو العقل أو بعبارة أصح « اللوجوس » كان فيه ، كان فى داخله ، فعندما كان الله وحيدا فى البداية وقبل بداية كل البدايات ، لم يكن فى حقيقة الأمر وحيدا إذ أن الفكر (اللوغوس ، الكلمة LE LOGOS كان ملازما له ، فقد كان اللوغوس إذن فى الله كالفكر فى الانسان .

وبما أن الله موجود قبل كل الوجود فاللوغوس موجود أيضا قبل

(١) فكرة أن الابن تابع للآب وخاضع له ، وانه اقل منه درجة ، فالآب أعظم من الابن وبناء عليه فان الابن اقل من الآب .

كل الوجود وأزليته مساوية تماما لأزلية الله ولا يوجد وقت ما لم يكن اللوغوس غير موجود فيه ، لأنه لا يمكن أن نتصور الله بلا حكمة أو بلا عقل لأن اللوغوس هو فكر الله ، هو العقل الذى كان ساكنا فيه بطريقة غير منظورة أو معروفة إلا منه . فالمرحلة الأولى لوجود أو ظهور اللوغوس هى المرحلة التى كان فيها الكلمة أى اللوغوس ، كفكر الله ، أو الله مفكرا (انظر كتابه (PHILO, 10. 33, ثم NOEL - 10) .

٢ ــ المرحلة الثانية :

إن الله المفكر رأى فى علمه السابق خلق العالم وبدأ فى تنفيذ هذه الخطة بتكليف اللوغوس بالقيام بهذه العملية . ولكى يقوم الكلمة : اللوغوس ، بعملية الخليقة مع الله ، فلقد أخرجه الله من ذاته أو نطقه خارجا عنه . فان هذا الفكر الداخلى الذى كان كامنا فى الله أصبح بعد عملية الانبثاق وقبل الخليقة حقيقة منظورة معروفة خارجا عن الله . ففى عملية الانبثاق أو عندما نطق الله اللوغوس وأخرجه خارجا عنه ، أصبح الفكر الذى كان كامنا فى الله ، وفى داخله ، خارجا عنه . وهذا الفكر الذى أصبح خارجا عن الله هو « اللوغوس » ، وبما أنه خارج من جوهر الله نفسه فهو إذن بكره ، وهو أيضا نفس الله ، على أنه ليس الله فى ذاته وبذاته . فهو النور الخارج من النور والشعاع الخارج من الشعاع .

فإن الله الذى كان يملك فى داخله اللوغوس فى وقت ما قبل الخليقة ، قد بثق أو أخرج من داخله الكلمة أى اللوغوس : كصوت أو كنور أو كشعاع . وعندئذ أصبح فكر الله الذى كان مخفيا فيه ، حقيقة خارجة عنه . فقبل هذه العملية أى عملية اللفظ أو الانبثاق ، لم يكن اللوغوس إلا فكرا فى داخل الله ، أما بعد عملية الانبثاق أو الخروج أصبح اللوغوس خارجا عن الله أو أمامه يراه وجها لوجه . وفيما بعد ، أى بعد

الخليقة ؛ صار منظورا وملموسا ليس فقط للـه بل منظورا أيضا من الخلائق • فبعد الخليقة التى ساهم فى عملها اللوغوس والتى من أجلها ولحاقتها لفظه الله خارجا عنه أو أخرجه خارجا عنه ، يقوم الكلمة أى اللوغوس بدور آخر ، هو العناية والقيادة ، فهو يعمل على تنفيذ إرادة الله • وهو أيضا الذى يقود البشر ويرشدهم الى الطريق الصحيح • وهو أيضا الذى ظهر للآباء والأنبياء فى العهد القديم (انظر كتاباته الآتية . (PHILO 10 : 33 ; CONTRE NOETOS 10 - 11, HIPP - HAER 14, (NAUTION 257. 5 - 7 ; 10 NAUTIN 257. 4 -

ويسمى هيبوليتوس هذه المرحلة التى كان يتراءى فيها اللوغوس أو الكلمة لبعض الأنبياء وبعض الآباء مرحلة « اللوغوس أساركس » (LOGOS ASARKOS) أى اللوغوس بدون جسد (أنظر (PHILO, 10 - 33 ; HIPPOL., DE CHRISTO ET ANTICHR, 4 ED. ACHERIS).

٣ ــ المرحلة الثالثة :

وتبدأ المرحلة الثالثة فى تطور اللوغوس عندما يأمر الله كلمته : اللوجوس ، بأن يشارك البشر حياتهم مشاركة كاملة وحقيقية • وعندئذ يطيع الابن اللوغوس أمر الآب فيتجسد ويصبح لوغوس ـ جسد (LOGOS - SARX) أو (LOGOS, ENSARKOS) أى اللوغوس فى الجسد أو الكلمة فى الجسد : « الكلمة صار جسدا » • فيدخل اللوغوس فى جسد شبيه بأجسادنا تماما ومن نفس « عجينتنا » • والدليل القاطع على أن الابن : اللوغوس ، كان من نفس طبيعتنا البشرية أنه كان خاضعا لقوانين طبيعتنا ، إذ أنه كان يجوع ويعطش ويتألم ويحزن ويبكى ويفرح • بل انه تألم حتى الموت وذاق فعلا الموت • على أنه انتصر فى نهاية الأمر على هذا الموت بقيامته • ففى يسوع المسيح توجدطبيعتان،

يوجد الكائن الالهي « اللوغوس » ، ثم الانسان الذي اتحد به اللوغوس في شخص يسوع (انظر PHILOS., 10. 33, 34) .

في هـذه المراحل الثلاث التي ذكرناها أعلاه يلخص هيبوليتوس مفهومه لتطور اللوجوس ، فإنه يؤمن بأن اللوجوس كان في البدء فكر الله الكامن فيه ، وعندما نطق أو أخرج الله هذا الفكر ، هذا الكلمة خارجا عنه ، صار الكلمة الموجود أمامه والمنظور والمعروف ليس من الله فحسب بل منظورا ومعروفا من الخلائق أيضا ، ولقد أصبح هـذا الكلمة ، اللوجوس ، منظورا ومعروفا وملموسا بطريقة حسية عندما لبس جسدا وصار إنسانا .

ولقد أراد اللاهوتي الروماني بهـذه النظرية أن يهدم تعاليم « المودالسيم » (MODALISM) التي سنتعرض لشرحها بالتفصيل فيما بعد ، فإن هذه الجماعة اعتقدت بأن الآب والابن والروح القدس ليسوا هم ثلاثة أقانيم ، بل ثلاث هيئات أو طرق فيها أظهر الله نفسه فإن الله الآب هو نفسه الله الابن هو نفسه الله الروح القدس ، فقد ظهر كالله الآب في أيام الآباء ثم ظهر كالله الابن في يسوع المسيح في أيام التجسد وأخـيرا ظهر كالله الروح القدس في يوم الخمسين وفي أيام تأسيس الكنيسة . ولكي يهدم هيبوليتوس هذه النظرية التي لا تميز البتة بين الآب والابن والروح القدس ، والتي تنادي بأن هذه الألقاب ، أب ابن وروح قدس ، ما هي إلا أسماء قد أعطيت لنفس الشخص لكي تشرح ثلاث هيئات أو مراحل مر بها نفس الشخص . فقد شدد على التمييز بين الأقانيم وأنها لا تعبر عن حالة أو عن هيئة أو مرحلة وجد فيها ، أو لبسها أو مر بها نفس الشخص ، بل أن هـذه الأقانيم الثلاثـة حقيقة إلهية ، وأن الآب ليس هو الابن ولا الابن هو الروح القدس ، فان هؤلاء ثلاثة أقانيم وليسوا ثلاث هيئات أو طرق ظهر بها الله الآب .

ومما لا شك فيه أن هيبوليتوس كان على عين الصواب عندما حاول أن يميز أقنوم الآب عن أقنوم الابن وعن أقنوم الروح القدس ـ فان هؤلاء الثلاثة هم جوهر واحـــد ولكنهم ليسوا أقنوما واحـــدا بل ثلاثة أقانيم آب وابن وروح قدس • فمع أنه كان محقا كل الحق فى التوكيد الشديد على التمييز بين الثلاثة الأقانيم إلا أنه لم يستطع أن يبعــد قدميه عن منحدرات الانزلاق الخطيرة •

فإن مفهومه للوغوس كان يتعارض مع مفهوم الموداليسم الخاطىء كمــا أنه كان يتعارض أيضــا مع مفهــوم كل من البــابا زيفرنيوس (ZEPHYRIN) ثم البابا كاليستوس (CALLISTE) اللذيـــن كانا يدافعان عن الايمان البسيط التقليدى ، والخطأ الأول الذى وقع فيه هيبوليتوس هو اعتقاده بعملية النمو أو التطور فى شخص اللوغوس • فهو قدم لنا فى بادىء الأمر اللوغوس كفكر الله ، كعقل الله ، وهــذا الفكر يتطور الى حقيقة واقعية خارجا عن الله ، ابن الله ، وهذا الابن يتطور ايضا بطريقة أكثر واقعية وحسية عندما يأخذ جسدا ، عندما صار انسانا • فمع أن المعلم الرومانى يعترف بحقيقة مهمة جدا لم يعترف بها بعض الآباء المدافعين وهى أزلية هــذا اللوغوس • إلا أنه يعترف بوجود نوع من النمو والتطور أو التغيير فى اللاهوت نفسه • (أنظر HIPPO. NOET., 10 - 11) •

والخطأ الثانى الذى ارتكبه هيبوليتوس هو تعليمه بأن مبــلاد اللوغوس أو انبثاقه هو عملية حرة كخلق الله للخليقة ، وليست عمليــة حتمية عضوية لا مفر أو مهرب منها • فعندما بثق الله اللوغوس خارجا عنه فإنه لم يقم بهذا العمل لأنه كان عملا حتميا والزاميا أو عضــويا وضروريا ، بل لقد قام الله بهذا العمل عن طريق حريته ، فهو عمل حر ، بل ذهب أبعد من ذلك عندما قال : « ••• لو أراد الله أن يجعلك إلهــا لاستطاع ذلــك وهناك مثال الكلمة (اللغوس) ••• » (انظر كتابه PHILOS., 10, 33, 7) •

وتوجـد نقطة أخرى يجب لفت نظـر القارىء إليهـا وهي أن هيوليتس يعتقد بأن اللوجوس لم يدع بطريقة صحيحة ورسمية ابنا لله إلا بعد التجسد ، فمع أنه يؤمن بأن وجود اللوجوس معاصر لوجود الله (PREEXISTANT) ، فهو والله (COEXISTANTS) موجودان منذ الأزل ، إلا أنه يعتقد بأن لقب الابن لم يعط بصفة رسمية وحقيقية إلا بعد التجسد أي بعد الميلاد من العذراء • صحيح أن عملية الانبثاق أو عملية خروج اللوجوس من الله تعد عملية ولادة(GEMERATION) فاللوجوس يمكن أن يدعى ابنا بعد خروجه من الآب ، إلا أن عمليـة الولادة هذه لم تكن عملية ولادة كاملة إلا بعد أن ولد من العذراء مريم بطريقة منظورة ملموسة معروفة • بهذه العملية أصبح اللوجوس ابنا لله (انظر HIPPOL. NAUTIN 241. 26 - 242 - 8) •

والمعلم الروماني لا يـريد أن ينـكر بنوية اللجوس كما فعـل « البنويون »(ADOPTIONISTES) بل كان جل قصده هو أن اللوجوس لم يدع ابنا بطريقـة صحيحة ومنظورة إلا بعـد التجسد (انـظر (HIPPOL. HAER. NAUTIN 259, 14 - 21) •

ولم يستطع معـلم روما الهروب من الخطـأ الذي سقط فيـه الكثيرون من المدافعين والمعلمين الذين سبقوه ، فقد انزلق كسـابقيه في منحدر « التابعية » (SUBONDINATIANISME) • إن هيبوليتوس تطرف في دفاعه ضد جماعة الموداليسم ، فلكي يثبت لهم أن الآب ليس هو الابن وأن هذا الأخير ليس هو الروح القدس • وأن الله الواحد هو ثلاثة أقانيم ، وأن الأقانيم الثلاثة متميز الواحد منهم عن الآخر بالرغم من أنهم وحدة واحدة وجوهر واحد ، فلكي يبرهن على هذا التميز القائم بين الثلاثة الأقانيم اضطر الى أن يقول ما معناه أن اللوجوس ليس فقط

(م ٣٧ — تاريخ الفكر المسيحى)

أقنوما متميزا عن الآب ولكنه أقل منه • لأنه ما هو إلا صوت الآب ، وما هو إلا انعكاس النـــور السماوى ••• ومع أنه لا يوجد انقســام فى اللاهوت فهو يختلف عن الآب (انظر NOET., 11) وهو يقول عندما يتعرض لشرح عملية الانبثاق : « هكذا ظهر آخر » خارجا عنه (عــن الله) • ولكنى عندما أقول « آخر » لا أقصد أنه يوجد إلهان ، بــل بالعكس لا يوجد إلا نور الأنوار (انظر NOET, 11) وهنا ينضــم هيبوليتوس فى تفكيره إلى ترتليانوس (انظر TERTULLIEN ADV. PRAX. 8, 9) •

وقد اتبع أيضــا معلمه إيريناوس فى تعاليمه الخاصة بعقيــدة الخلاص (SOTRIOLOGIE) فهو يعلم بأن المسيح قد أخذ جسدا حقيقيا من مريم العذراء ، جسدا كأجسادنا ومن نفس العجينــة التى صنع منها كل انسان ، فلو كان المسيح من طبيعة تختلف عن طبيعتنــا ، كيف إذن يمكن لنا أن نتبع خطواته ، وهو من طبيعة سامية مختلفة عن طبيعـــتنا وكيف يمكن أن يكون من طبيعة أخرى ؛ وهو قد تجرب بكل تجارب البشر إلا الخطية فهو الاله الانسان الذى جاء لكى يخلصنا ، ويجدد عهودنا مع الله ، جــاء المصالحة ولقد جاء فى جســد حقيقى (ENSARKOS) وهكذا استطاع أن يخلص الانسان كله (راجــع PHILO 10.33 : 34) • إن مجىء الابن الى العالم هــو إعلان محبة الله الجديدة للعالم • وبطريقة جديدة للعالم : « لأنه هكذا أحب اللـــه العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا ٣ : ١٦) •

بعض المراجع لدراسة حياة وتعاليم هيبوليتوس :

1. J. Quasten. **Initiation aux pères. Vol. 2.** Traduction de L'anglaise par J. Laporte. (Les editions du cerf) p. 193 - 252.

راجع هذا الكتاب لأنه يحتوى على مراجع فى غاية الاهمية بخصوص هذا الموضوع .

2. A. D'Alès, **La théologie de saint Hippolyte.** Paris 1906 2e ed.
3. G. Bardy. **La Vie Spirituelle d'après les Pères de trois premiers siecles.** Paris 1935 (149 - 159).
4. G. Bardy. **L'enigme d'Hippolyte.** Melange de Scinece Religieuses (1948) 53 - 88.
5. C. C. Y. Bunsen, **Hippolytus And His Age.** London, 1854, 4vol.
6. C. Wordsworth. **St. Hippolytus and the Church of Rome in the Early part of the third century.** London 1953.
7. B. Capelle. **Le Logos, fils de Dieu, dans la theologie d'hippolyte** : RTAMQ (1937) 109 - 124.
8. B. Altaner. **Precis de Patrologie,** Mulhouse 1961.
9. A. Grillmeier. **Le Christ dans la tradition Chrétienne De l'âge apostolique a Chalcédoine (451)** (Les editions du cerf).

راجع هذا الكتاب والمراجع الموجودة فيه فى غاية الاهمية ص ١٦٠ — ١٦٦ .

10. Marc Lods ; **Précis d'histoire de la theologie chretienne du IIe au début du IVe Siecle.** Editions Delachaux et Niestlé. Neuchatel. p. 41 - 42.
11. J. Liebaert. **Histoire des dogmes.**

راجع من صفحة ٨٠ — ٨٢ .

١٢ — راجع كتابات هيبوليتوس نفسه .

الفصل الثامن

نوفاتيانوس NOVATIEN

لقد حاولنا فى الصفحات السابقة أن نشرح مفهوم المعلم الرومانى هيبوليتوس لشخص المسيح . ولا يمكننا القول بأن تعاليمه كانت تمثل العقيدة العامة التى تعترف بها كل كنيسة روما ، وخاصة بأن هيبوليتوس انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أنه رجع اليها فى نهاية حياته . على أن تعاليمه تمثل عينة من التعاليم المختصة بشخص المسيح والتى كانت منتشرة فى تلك المنطقة وفى تلك الحقبة من الزمن . وقبل أن نترك روما وأن نترك هذه الحقبة من الزمان فى تاريخ الفكر المسيحى ، يليق بنـــا أن نلقى نظرة سريعة على تعاليم معلم رومانى آخر هو :

نوفاتيانوس : الذى يشبه هو أيضا ــ الى حد كبير ــ هيبوليتوس. فإن كليهما انفصل عن الكنيسة الرومانية وكليهما أيضا حرم منها . على أنه جدير بالذكر أن الخلافات التى فصلت بين هذين المعلمين هيبوليتوس ونوفاتيانوس . وبين أساقفتهما كان معظمها مختص بالنظام الكنسى ، والقليل بل والقليل جدا كان متعلقا ببعض الأمور العقائدية .

كان نوفاتيانوس كاهنا فى الكنيسة الرومانية ، وعلى ما يبدو كان يصبو بشغف الى درجة الأسقفية ، ولذلك فقد انتهز فرصة الانقسامات

التى كانت تسيطر على كنيسة روما وطلب من ثلاثة أساقفة ، أو بعبارة أصح أرغم مهددا ثلاثة أساقفة ، على وضع اليد عليه ورسامته أسقفا (انظر EUSEBE. HIST. ECCL. 6, 43, 9 ; QUASTEN p. 255)
وهكذا تجدد الانقسام فى كنيسة روما ، وبدأ الصراع بين البابا كورنيليوس الذى نصب فى سنة ٢٥١ وبين نوفاتيانوس وأتباعه • ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل النزاع الذى قام بينهما لأنه يتعلق بمشكلة قبول أو عدم قبول الأعضاء الذين ارتدوا عن الايمان فى وقت الاضطهاد كما أنه يتعلق ببعض المشاكل الأخرى التى تمس نظام الكنيسة ، والتى لا تمس بطريقة مباشرة موضوع دراستنا ، فلنترك إذن البحث فى موضوع النزاع ولنسأل هذا السؤال الذى هو مركز بحثنا : ما هى أفكار نوفاتيانوس الكرستولوجية ؟ ما هى عقيدته وإيمانه فى شخص المسيح يسوع ؟

لقد جاء نوفاتيانوس بعد هيبوليتوس وعلم فى روما فى الوقت الذى انتشرت فيه تعاليم الدوسوتية ، والموداليسم وعقيدة التبنى (LE DOCETISME, LE MODALISME ET L'ADOPTIANISME)
فكان على نوفاتيانوس أن يحارب هذه التعاليم التى غزت روما فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث • ولهذا فقد كتب كتبا عديدة ، ولكن أشهر هذه الكتب من الناحية العقائدية كتابه عن « الثالوث » (DE TRINITATE) ففى هذا الكتاب حاول المعلم الرومانى شرح عقيدة الثالوث وعلاقة كل أقنوم بالآخر ، ولكن الذى يهمنا فى هذا الكتاب هو مفهومه للوجوس أو للابن • أو كيف فهم هذا اللاهوتى مشكلة التجسد ، وما هى علاقة الآب بالابن وبالروح القدس ؟

لقد سبق أن رأينا بأن هيبوليتوس حاول أن يميز بين الآب والابن والروح القدس وأكد بشدة على هذا الأمر بسبب انتشار المذاهب

الثلاثة التى أشرنا اليها . ولهذا السبب عينه ــ أى انتشار الدوسوتية والموداليسم (الانتحالية) (١) وعقيدة التبنى ــ فقد اضطر نوفاتيانوس الى اتباع نفس النظام فى تعاليمه . إلا أنه شدد أكثر من سابقيه على التمييز بين الآب والابن والروح القدس . وأن المسيح كان انسانا حقا وإلها حقا منذ الأزل .

فلكى يحطم عقيدة « الانتحالية أو الهيئة (MODALISME) وعقيدة التبنى وعقيدة الدوسوتية ، فقد علم بأن اللوجوس ليس هو الآب بل كان مع الآب قبل كل بداية . فالكلمة كان ساكنا فى الآب منذ الأزمنة البعيدة التى لا يمكن تحديدها أو اخضاعها للزمن لأن وجود الكلمة أى اللوغوس فى الآب سابق للزمن . وإلا فلا يكون الآب أبا منذ الأبد . فمع أن الابن موجود قبل كل الوجود ، وأن كل ما هو موجود قد وجد به . إلا أن الآب هو أصل الابن هو المنبع الذى نبع منه اللوجوس لأن الآب لا أصل له .

أما الابن فيستمد أصله ووجوده من الآب . وبناء على ذلك فالآب سابق للابن بالنسبة لكونه أبا وإلا لما أصبح أبا . فأصل الابن هو الآب الذى انبثق أو ولد منه ، والابن أو الكلمة هو أيضا وبكل تأكيد الله ويدعى الابن أو الأقنوم الثانى . وهذا الابن أو الكلمة هو أقل من الله . إنه يحتل الدرجة الثانية فى الثالوث ، لأن الآب موجود من ذاته وبذاته أما الابن فمنبثق من الآب الذى هو مصدره ومنبعه (انظر كتاب DE TRINITATE 17 - 31) .

ولكى يثبت لجماعة الانتحاليين أن المسيح ليس هو الآب ، بل هو

(١) نترجم هنا كلمة (Modalisme) بالانتحالية او الهيئة ، إذ أن اتباع هذا المذهب يعتقدون بأن الآب نفسه انتحل هيئة انسان او انتحل عدة هيئات .

أقنوم آخر غير الآب يرجع الى سفر التكوين (٢١ : ١٧) « ونادى ملاك الله هاجر من السماء ... » ، فهو يعتقد بأن الملاك الذى نادى هاجر هو المسيح . فان الذى نادى هاجر ليس هو الله الآب بل هو المسيح ، الذى هو أيضا الله ولكنه ليس الآب ، وبهذا أراد نوفاتيانوس التمييز بين الله الآب والله الابن الذى هو هذا الملاك .

وفى محاولته لاثبات الفرق بين الآب والابن ، أو بعبارة أدق فى محاولته التمييز بين الآب والابن وتحطيم عقيدة الانتحالية أو الهيئة . فقد سقط فى نفس الأخطاء التى سقط فيها بعض الآباء وخاصة هيبوليتوس ، إذ أنه علم بأن الابن متميز عن الآب والدليل على ذلك هو أن الآب أعظم من الابن وهذا الأخير أقل من الآب ، كما أن الروح القدس أقل من الابن (انظر كتابه عن الثالوث DE TRINITATE 27) فهو يقول : « إن البراقليطوس أخذ رسالته من المسيح ؛ فاذا كان قد استلمها من المسيح فيكون هذا الأخير (المسيح) أعظم منه . فلو لم يكن أعظم منه لما استلم رسالته منه ... (نفس الكتاب DE TRIN. 18) .

كان هم نوفاتيانوس الأعظم وشاغله الشاغل منصبان على مقاومة الهرطقات التى انتشرت فى عصره وخاصة هرطقة الانتحالية التى نادت بأن الله واحد والآب والابن والروح القدس ما هم إلا أسماء وليسوا أقانيم ، ولهذا السبب فقد حاول المعلم الرومانى بكل الوسائل أن يميز الأقانيم بعضها عن بعض . وفى محاولته التمييز بين هذه الأقانيم التى تكون وحدة واحدة هى الله ، ابتعد للأسف الشديد عن هذه الوحدة ، وهو ما كان يتحاشاه الانتحاليون أنفسهم . فإن هؤلاء الانتحاليين (LES MODALISTES) نادوا بأنه لا يوجد إلا إله واحد وهو الله الآب الذى ظهر بهيئات متعددة عبر التاريخ ، وفى تمسكهم بهذه العقيدة أرادوا الهروب من السقوط فى خطأ تعدد الآلهة . وأما نوفاتيانوس فقد هاجم هذه الجماعة وعلم بأن الآب والابن والروح القدس ما هم إلا

ثلاثة أقانيم وليسوا ثلاثة آلهة مختلفين فى الجوهر • ولكن عندما حاول شرح هذه العقيدة فقد ارتكب أخطاء لاهوتية لا تقل فى خطورتها عن أخطاء الانتحاليين •

وكأنى بالمعلم الرومانى يتصور الثالوث كهرم قاعدته الآب ووسطه الابن وقمته الروح القدس • فالآب هو الأصل والقاعدة ، الذى يرتكز عليه كل البناء ، والذى منه يخرج الابن الذى كان معه قبل كل بداية وهو خاضع له ولا يعمل إلا ارادته وينفذ أوامره ، وأيضا هو أقل من الآب • أما الروح القدس فهو خاضع أيضا للابن وأقل منه ومرسل من الابن ومأمور بأمره • (انظر DE TRIN. 18 ; 27 ; 71) •

ولم يستطع الهروب من منزلق آخر أو على الأقل لم يكن بعيدا عن الانزلاق فى منحدر آخر وخطير ، ففى دفاعه ضد الهرطقة الدوسوتية وفى محاولته إثبات حقيقة التجسد وأن ابن الله أى اللوجوس الذى هو الله ، قد أخذ فعلا جسدا حقيقيا وبشريا ، قد أضطر فى بعض الأحيان الى أن يفصل أو يميز بطريقة قاطعة بين ابن الله وابن الانسان ، أو على الأقل فإنه يشعر القارىء بأنه يفصل ابن الله من ابن الانسان ، فقد انتقد بشدة الذين لا يميزون بين ابن الله وابن الانسان ويخلطون ابن الله بابن الانسان (انظر DE TRIN. 24,) •

وبالرغم من أن نوفاتيانوس يتــكلم عن وحــدة ابن اللـــه بابن الانسان ، أى أن االوجوس أخذ فعلا جسدا (يو ١ : ١٤) مثل أجسادنا إلا أنه لا يتكلم عن روح المسيح • فحتى عندما يتكلم عن موت المسيح لا يذكر أيضا شيئا عن الروح (انظر DE TRIN. 13) ولكنه يتــكلم بوضوح عن الاتحاد الذى تم بين ابن الله وابن الانسان ، فهو إلـــه وإنسان معا • (انظر DE TRIN. 11 ; 24 ; 26 ; 21)

هكذا رأى نوفاتيانوس شخص المسيح يسوع •

بعض المراجع لدراسة حياة وتعاليم نوفاتيانوس :

1. J. Quasten. Initiation aux peres de L'Eglise Vol. 2. Les editions du cerf. p. 253 - 277.

راجع هذا الكتاب لأنه يعطى قائمة كتب فى عدة ملفات مختلفة ومهمة جداً للباحث .

2. A. Grillmeier. ذكر سابقا ص ١٨٤ — ١٨٧

3. J. Liebaert ذكر سابقا ص ٨٣ — ٨٥

4. H. Moore, The Treatise of Novatian on the Trinity (SPCK). London 1919.

5. C. B. Daly. Novatian and Tertullian. Irish Theological Quaterly 19 (1952) 33 - 43.

6. A D'Ales Novatien. Etude sur la theologie romaine au milieu de 111e siecle. Paris 1925.

7. R. Favre. La Communication des idiomes dans l'ancienne tradition latine : BLE, 37 (1936) 130 - 145.

8. C. Mohrmann. Les origines de la latinite chretienne a Rome: VCS (1949) 67 - 106. 163 - 183.

٩ — الدكتور أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى .
الجزء الأول ص ١١١ — ١١٨ (منشورات النور — بيروت لبنان) .

ملاحظة : كان نوفاتيانوس أول لاهوتى رومانى يكتب باللغة اللاتينية (انظر Quasten p. 253)

الفصل التاسع

ديونيسيوس الاسكندرى

DENYS D'ALEXANDRIE

عندما ترك أوريجانوس مدرسة الاسكندرية واستقر فى قيصرية ، تولى إدارة المدرسة من بعده أحد تلاميذه الذى صار أسقفا للكنيسة المصرية وهو هيراكلاس (HERACLAS) . وعندئذ دعى أحد تلاميذ أوريجانوس المعجبين به والمتمسكين بتعاليمه لادارة هذه المدرسة وهو ديونيسيوس . على أن هذا الأخير اختير أيضا أسقفا للكنيسة المصرية (من سنة ٢٤٨ — ٢٦٥) .

لقد ولد ديونيسيوس وشب فى عائلة وثنية غنية جدا . ولقد كان منذ صباه شغوفا بالعلم محبا للاطلاع يبحث عن الحق والمعرفة . ووجد هذا الحق الذى كان يبحث عنه فى الكتب المقدسة عن طريق الاطلاع والبحث ، ولقد ذكر هو نفسه هذا الأمر فى كتاباته (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 7, 1, 1 -3) .

رسم ديونيسيوس أسقفا فى سنة ٢٤٨ وبعدها مرت الكنيسة المسيحية — ليس فى مصر فقط بل فى كل الامبراطورية تقريبا — فى بودقة التجارب الممحصة إذ أن الامبراطور دسيوس شن حربا شعواء على

الكنيسة . واضطر الأسقف إلى الهروب ثم عاد الى الاسكندرية بعد موت الامبراطور دسيوس . وفى أثناء حكم الامبراطور فالريانوس (VALERIEN) نفى الأسقف المصرى الى ليبيا ، وبعد عودته من المنفى تعرضت البلاد المصرية لتجربة أخرى لا تقل فى شراستها وقسوتها عن التجارب السابقة ، وهى الحرب الأهلية ثم وباء الطاعون . وبعد حياة جهاد وصبر وعمل وكفاح مات الأسقف ديونيسيوس فى سنة ٢٦٥ فى أثناء انعقاد مجمع أنطاكيا ولم يستطع حضور جلساته بسبب مرضه . وسمى أسقف الاسكندرية بديونيسيوس العظيم أو الكبير لعظمة جهاده وصبره فى التجارب .

كان تأثير هذا الأسقف عظيما ليس فقط على أبراشيته فى مصر بل امتد نفوذه وتأثيره الى خارج البلاد . فلقد حاول أن يفض النزاع الذى كاد يمزق كنيسة روما وكتب الى نوفاتيانوس رسالة يحثه فيها على الرجوع الى الكنيسة (انظر EUSEBE HIST. ECCL., 6, 45) .

كما أنه كتب كتبا عديدة لمعالجة بعض المواضيع التى كانت تتعرض لها كنيسة عصره . فلقد كتب كتابا عن الطبيعة وكتابين عن المواعيد . وكان الغرض من هذين الكتابين هو تصحيح بعض الآراء التى نادى بها الأسقف المصرى نيبوس (NEPOS) الذى رفض تعاليم أوريجانوس الاستعارية والمجازية ، وكان يؤمن بقبول المواعيد المذكورة فى الكتاب بطريقة حرفية لا مجازية . وبناء على ذلك قال إن الألف السنة التى يتكلم عنها سفر الرؤيا (رؤ ٢٠ : ٢ ــ ٦) لابد وأنها ستتحقق حرفيا (انظر أوسابيوس HIST. ECCL. 7 ; 24, 1 - 3) . ولقد ذهب الأسقف بنفسه الى مقر الأسقف نيبوس (NEPOS) ودعا الاخوة الى حوار مفتوح دام ثلاثة أيام لكى يقنع هذا الأسقف بأخطائه . (انظر أوسابيوس HIST. ECCL. 7, 25, 6 - 8) .

ثم كتب أربع رسائل ضخمة الى سميه بابا روما والتى فيها دافع عن التهمة التى اتهمه بها بعض كهنته ، بأنه ليس أرثوذكسيا • فشرح أسقف الاسكندرية لزميله أسقف روما البابا ديونيسيوس إيمانه وعقيدته فى المسيح ، وهنا نسأل هذا السؤال الذى هو صلب بحثنا ما هى عقيدة أسقف الاسكندرية وما هى تعاليمه الكرستولوجية ؟ ماذا رأى فى المسيح يسوع ؟

كان ديونيسيوس تلميذا غيورا ومتحمسا لتعاليم أوريجانوس ، ولقد تأثر به تأثرا عظيما • ولذلك لا نجد فرقا كبيرا بين تعاليم هذين المعلمين المصريين • فإن الأسقف المصرى نادى كمعلمه أوريجانوس بأن اللوجوس هو إله « ثان » أو ثانوى أو أقل درجة من الآب ، فاللوغوس خرج من الآب أى أنه غير مساو للآب • واتهمه البعض بأنه فى احدى المناقشات الخاصة قد تلفظ ببعض التعبيرات التى يشتم منها رائحة الهرطقة • مثل قوله بأن المسيح لم يكن بالطبيعة ابنا لله • ولكنه خليقة يختلف جوهرها عن جوهر الله ، فان علاقة الابن بالآب شبيهة بعلاقة الكرمه بالكرام والسفينة بصانعها • وعندما وصلت هذه الأخبار الى مسامع الأسقف سميه فى روما ، كتب البابا ديونيسيوس الرومانى الى ديونيسيوس المصرى رسالة رقيقة ولكنها حازمة يرفض فيها التعبيرات والتشبيهات التى استعملها والتى تحمل فى طياتها انقساما فى جوهر اللاهوت ، لأن اللاهوت غير منقسم الذات والابن مولود منذ الأزل ، وهما من نفس الجوهر • ويقال إن ديونيسيوس الرومانى هو الذى استعمل الاصطلاح الذى سيكون له النصر العظيم فى مجمع نيقية وهو (HOMOOUSIA) أى من نفس الجوهر[1] ،غير أن البعض يظنون بأن أول من استعمل هذا الاصطلاح هو أوريجانوس •

---

(١) انظر كتاب لودس ص ٤٤ ، ٤٥ Lods (ذكر سابقا) .

وعندما نرجع الى كتابات الأسقف المصرى نفسها نلاحظ تأثير تعاليم أوريجانوس عليه ، ولكنه لا ينكر أزلية الابن فهو يقول : « لا يوجد زمن ما لم يكن فيه الله أبا ، ولا توجد لحظة ما حرم فيها الآب من اللوغوس ؛ من الحكمة ، من القوة ... على أن الابن لا يستمد وجوده من نفسه بل من الآب ... وبما أن الآب أزلى فالابن أزلى أيضا • إنه نور من نور ... وبما أن الله نور فالمسيح لمعانه ، وبما أن الله روح ، لأن الكتاب يقول « الله روح » (يو ٤ : ٢٤) فيليق أن ندعو الابن نفخته (انظر (EUSEBE, HIST. ECCL. 7. 26, 2 • ويرجع ديونيسيوس الى سفر الأمثال (٨ : ٣٠) « كنت عنده صانعا وكنت كل يوم لذته فرحة دائما قدامه » لكى يثبت أن كل الأشياء قد صنعت ووجدت باشتراك اللوجوس وهو موجود قبل كل هذه الأشياء •

فبالرغم من أن أسقف الاسكندرية قد اتبع أستاذه أوريجانوس فى عقيدة التابعية إلا أنه شدد على أزلية الابن •

وبما أننا نتكلم هنا عن بعض معلمى الاسكندرية الذين لعبوا دورا هاما جدا فى تاريخ الفكر المسيحى وصياغته فاننا لا ننسى المعلم ثيوغونستوس (THEOGNOSTE) الذى خلف الأسقف ديونيسيوس فى إدارة مدرسة الاسكندرية من سنة ٢٦٥ — ٢٨٢ (انظر .PHOTIUS BIBL COD. 106) •

ثم تولى ادارتها بعده المعلم بياريوس (PIERIUS) (انظر EUSEBE 7. 32. 27) • الذى كان يتصف بالتقوى والعلم ، ولذلك فقد سمى أوريجانوس الصغير • وجاء من بعد أوريجانوس الصغير للاشراف على هذه المدرسة « بطرس الاسكندرى » (PIERRE DE L'ALEXANDRIE) ظل يعلم فيها الى أن أختير أسقفا لكنيسة

الاسكندرية فى حوالى سنة ٣٠٠ ب م • ولقد مات هذا الأسقف شـــهيدا فى سنة ٣١١ • ومع أن المؤرخ الكنسى أسابيوس يقرظه تقريظا عظيمـــا (انظر أوسابيوس (HIST. ECCL. 7. 32, 31) • إلا أنه لا يذكر شيئا عن كتاباته ويرجع ذلك الى أن الأسقف بطـــرس الاسكندرى وتعـــاليم أوريجانوس تالا على طرف النقيض • ولكن لحسن الحظ وصلتنا بعض تعاليمه عن طريق ليوس البيزنطى (LEONCE DE, BYZANCE) ثم عن طريق مجمع أفسس (سنة ٤٣١) • فان بطرس علم بوجود طبيعتين فى المسيح • فلقد كتب قائلا : « فكل هذه الأشياء وغيرها من آيات ومعجزات تدل على أنه كان الله الذى صار إنسانا ••• فقد كان اللـــه بالطبيعـــة وإنسانا بالطبيعة أيضا » • (انظـــر VEONT., CONTRA NESTON ET EUTYCH, 1)

فلقد شدد الأسقف بطرس على حقيقة وجود الطبيعة البشرية كاملة فى المسيح ووجود الطبيعة الالهية كاملة أيضا فيه •

كما أنه رفض كليا أفكار أوريجانوس الخاصة بوجود الروح قبل الجسد إذ أن أوريجانوس كان يؤمن بأن الأرواح خلقت دفعة واحدة فى البداية كما سبق أن شرحنا ذلك •

بعض المراجع عن حياة وتعاليم ديونيسيوس :

1. J. Quasten. 2e vol. P. 124 - 132.

انظر هذا الكتاب الذى سبق ذكره عدة مرات لأنه يحتوى على قائمة مراجع فى غاية الأهمية : ومراجع انجليزى وفرنساوى وألمانى .

2. C. L. Feltoe. **The letters and Other Remains of Dionysius of Alexandria** (CPT), Cambridge, 1904.

3. C. L. Feltoe. **St. Dionysius of Alexandria,** Letters and treatises (SPCK) London 1918.

4. J. Burel. **Denys d'Alexandrie, Sa vie, son temps ses oeuvres.** Paris, 1910.

5. P. S. Miller. **Studies in Dionysius the Great of Alexandria Diss.** Erlangen 1933.

6. P. Morize. **Denys D'Alexandrie.** Paris 1881.

7. Marc. Lods p. 44 - 46. (ذكر سابقا).

8. L. B. Radford. **Three teachers of Alexandria : Theognostus, Pierius and Peter. A study in the Early History of Origenism and Anti-Origenism.** Cambridge 1908.

الفصل العاشر

الإنتحالية (LE MODALISME)

لقد سبق أن رأينا فى العرض التاريخي العقائدى آراء بعض آباء الكنيسة ومعلميها ، وكيف فهم هؤلاء على مر العصور وفى أماكن مختلفة شخصية الرب يسوع المسيح ، أو بعبارة أصح ماذا كان جواب هؤلاء القادة والمعلمين عبر التاريخ وفى أماكن مختلفة ، على سؤال السيد : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » (متى ١٦ : ١٣) .

لقد رأينا أجوبة الكنيسة الأولى ثم أجوبة كنيسة القرنين الأول والثانى ، وأجوبة كنيسة القرن الثالث ، وفى أثناء عرضنا لتعاليم بعض المعلمين وعقائد بعض الطوائف والجماعات التى ظهرت فى هذه القرون الثلاثة الأولى ذكرنا الاصطلاح موداليسم (MODALISME) وشرحناه شرحا سريعا غير مفصل .

فما هى إذن عقيدة الموداليسم ومتى وأين ظهرت ؟

عندما نتتبع تاريخ الفكر المسيحى وخاصة التعاليم المختصة بشخص الرب يسوع المسيح ، نلاحظ ظهور عدد كبير جدا من المذاهب والطوائف والمعلمين الذين حاولوا الاجابة بطريقة أو بأخرى على سؤال السيد : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » . ففى الاجابة

على هذا السؤال رأى البعض فى يسوع الانسان نبيا بل أعظم من نبى ، فقد رأوا فيه « النبى » .. على أنه ظل نبيا وكان إنسانا ومات إنسانا. ورأى البعض الآخر فى يسوع « النبى » الذى وصل بتقواه وطاعته الكاملة لله إلى درجة اللاهوت فأصبح ابنا لله بالتبنى . واعتقد بعض آخر أن المسيح قد جاء من السماء ، وقد شبه للناس بأنه بشر ، وفى حقيقة الأمر لم يكن جسد المسيح إلا خيالا . وظن البعض الآخر بأن الله واحد سام عظيم ولا يمكن تقسيمه لأنه وحدة واحدة ولقد نادى بهذا التعليم الجماعة التى تدعى جماعة « الوحدوية » أو الوحدويين (MONARCHIANISME) . وكان أعضاء هذه الجماعة من اليهود المسيحيين . وكان همها هو عدم تقسيم أو تجزئة الله فإن الله واحد .

واشترك فى هذه العقيدة ، وحدة الله وعدم تجزئته ، بعض المعلمين وبعض القادة ، فتمخضت هذه الجماعة وولدت طائفة تدعى المودااليسم (LE MODALISME) وكلمة المواداليسم تعنى الطريقة أو الهيئة : الظهور بطريقة معينة أو انتحال هيئة أو طريقة أو شكلا للظهور أمام الناس . وقبل أن ندخل فى شرح عقيدة هذه الطائفة وبأية طريقة أجابوا على سؤال السيد فى قيصرية فيلبس ، يحسن بنا أن نتعرف أولا على بعض قادتها .

كانت التعاليم الخاصة بعقيدة وحدانية الله منتشرة ومتعمقة فى الأوساط اليهودية المسيحية ، وكان يتزعم هذه الحركات فى القرن الثانى حوالى سنة ١٨٠ عدد لا بأس به من المعلمين ومنهم نوتوس السميرنى (NOETUS DE SMYRNE) ثم انتشر هذا المذهب فى روما فى أيام البابا زفيرينوس (ZEPHYRIN) (١٩٩ - ٢١٧) ولقد تعمقت جذوره وتأصلت فى المجتمع الرومانى بفضل تعاليم ونشاط بعض أتباعه

(م ٣٨ - تاريخ الفكر المسيحى)

مثل ايمونوس وكليمندس وبراكسياس (EPIGONE, CLEOMENE, PRAXEAS) ولقد ذهب بعضهم إلى أفريقيا لنشر هذه التعاليم ، وتقابلوا مع المعلم الأفريقى الشهير ترتليانوس (حوالى ١٥٥ ــ ٢٢٥) على أن أشهر شخصية وأبرزها فى جماعة الانتحاليين (MODALISTES) هو الكاهن سابليوس (SABELLIUS) الذى ولد فى نهاية القرن الثانى ومات فى سنة ٢٦١ ، فقد كان معاصرا للمعلم المصرى أوريجانوس (١٨٥ ــ ٢٥٤) ؛ وكان ليبى الجنسية علم فى روما واستقر بها .

ولقد تأثر سابليوس بأفكار وتعاليم جماعة الوحدانيين (MONARCHIANISME) والمختصة بوحدة الله . ولقد بدا له كما بدا لهذه الجماعة أن عقيدة الثالوث فى الله الواحد عقيدة صعبة وغير معقولة . وكيف يمكن أن الله الواحد الذى لا يمكن أن يقسم أو أن يجزأ ، أن يكون أبا وابنا والروح القدس فى نفس الوقت . إن هذه الفكرة كانت مرفوضة رفضا كليا من اليهود وصعبة الفهم على الوثنيين .

ولتسهيل هذه العقيدة لليهود أولا وللوثنيين ثانيا ، وجد سابليوس شرحا بسيطا قد أغوى الكثيرين فى عصره ومازال حتى الآن طعما جذابا لبعض اللاهوتيين المصريين (١) . وتتلخص نظرية الكاهن سابليوس فى الآتى :

قبل بداية كل بداية كان الكائن الالهى (LA MONADE DIVINE) وحدة مطلقة محصنة لا تتنوع ولا درجات ولا اختلاف ولا تميز فيه ، إذ أنه وحدة واحدة ووحيدة . كان الراحة والصمت الأبديين ،

(١) انظر W. Pannenberg. Esquisse d'une Christologie Les Editions du cerf p. 150 - 152.

ومع أنه الصمت والراحة فهو ملىء بالطاقات والقوات الخلاقة والمجيبة، وهو أيضا قدير على الكلام وقطع الصمت • وبما أنه قدير على الحركة والعمل والتفكير والكلام والذكاء فيمكن أن نسميه الاوغوس أو فيه اللوغوس ، لأنه مصدر الحياة ومصدر الكلام ومصدر العمل والحركة وهذه هى المرحلة الأولى للكائن الالهى •

أما المرحلة الثانية فتبدأ بعد خلق العالم واتصال الإله بالعالم المخلوق • وهنا يعرض نظريته الجديدة عن الوحدة الإلهية التى لا يمكن أن تتجزأ أو تنقسم :

فهو يؤمن بأن الله الأزلى الذى خلق العالم وكل ما فيه ، خرج عن صمته وعن راحته بخلقه لهذا العالم ، وعندما خلقه ، أصبح الله الآب الخالق وهو جوهر واحد وشخصا واحد ووحدة واحدة • وهو أيضا أى الله الآب هو الذى أعطى الناموس لموسى وأوحى للأنبياء وقاد شعبه وقطع معهم العهود • فهو إذن نفس الشخص منذ بدء الخليقة إلى وقت التجسد • وهنا فى عملية التجسد تبدأ المرحلة الثانية بعد الخليقة ، فإن الله نفسه أو بالعبارة الأصح الله الآب ، نفس الجوهر ونفس الشخص ، هو الذى تجسد فى الانسان يسوع الناصرى •

فالذى تجسد فى يسوع الناصرى ليس الابن أو اللوجوس بالمعنى الذى فهمه الآباء ، بل الآب نفسه هو الذى انتحل شخصية الابن وأصبح الابن • ففى لحظة التجسد أخذ الآب نفسه جسدا ، أى نفس الشخص الذى كان يعمل فى أثناء الخليقة وبعدها والذى أعطى الناموس وأوحى للأنبياء وقاد شعبه ، هو هو الذى أخذ جسدا وصار ابنا • وعندما أخذ هذا الجسد وصار فى هذه الهيئة ، هيئة الإنسان أصبح ابنا ، أى الشخص الذى كان أبا أصبح ابنا • وهكذا ظل الله الآب الابن شخصا

واحداً وجوهرا واحدا . هذا الشخص هو أيضا الذى تألم وصلب ومات . وهنا أضيف الى إسمهم اسما آخر غير الانتحالية أو الهيئة وهو (PATRIPASSIENS) أى الذين يؤدنون بآلام الآب . فإن الآب هو الذى كان يعمل فى فترة العهد القديم ، وهو نفسه الذى انتحل شخصية الابن أو أخذ هيئة الابن وقام بعملية الفداء فتألم وصلب ومات وقام .

وتبدأ المرحلة الثالثة بعد الخليقة بحلول الروح القدس على التلاميذ وقيادته للكنيسة . فالروح الذى حل على التلاميذ يوم الخمسين والذى يرشد المؤمنين ويقدس حياتهم ، هو أيضا نفس الشخص الذى كان يعمل فى العهد القديم كآب ويعطى العهود . والذى قام بعملية الفداء والمصالحة كابن هو نفسه الذى يقدس المؤمنين ويقود الكنيسة ويرشدها كروح قدس . فالله الآب ظهر فى هيئة الآب أو انتحل شكل الآب من بدء الخليقة الى التجسد وفى التجسد أخذ الآب هيئة الابن فعمل كمصالح وفاد ، وبحلول الروح القدس أخذ الآب الذى هو الابن هيئة الروح القدس فعمل مقدسا ومرشدا .

فسابليوس يؤمن بوجود شخص واحد إلهى قام بأدوار ثلاثة فى ثلاث حقبات من الزمن . ولكى يؤيد أفكاره ، رجع إلى الكتاب المقدس كما رجع إليه معظم الهراطقة وكل المحافظين ، فهو يرى فى قول اشعياء : « أنا الرب وليس آخر . لا إله سواى ، نطقتك وأنت لم تعرفنى » (اش ٤٥ : ٥) ، « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) ، « أنا والآب واحد » (يو ١٠ : ٣٠)، صدقونى « أنى فى الآب والآب فى » (يو ١٤ : ١١) .

لقد لاقى سابليوس نجاحا عظيما جدا لدرجة أن مذهب الانتحالية أو الهيئة يدعى أيضا بالسابلينية نسبة إلى سابليوس . وما ساعد على

نجاح هذه التعاليم وانتشارها ليس فقط فى الأوساط المثقفة بل أيضاً فى الأوساط البسيطة والعامة ، هو بساطة هذه التعاليم وابتعادها عن التعقيدات والتحليلات الفلسفية ، بل إن هذه التعاليم ظهرت لكثيرين ، ليس فقط من البسطاء بل من قادة الكنيسة وأعمدتها ، بأنها تعاليم سهلة وأرثوذكسية . فإن سابليوس لم ينكر فى أية لحظة من اللحظات لاهوت الآب أو لاهوت الابن أو لاهوت الروح القدس . ثم ان هذا التعليم حافظ على وحدانية الله ، الله الذى لا يمكن أن يتجزأ أو ينقسم . فلقد أراد سابليوس بملاشاة الأقانيم : أقنوم الآب والابن والروح القدس ، أن يتجنب عملية التقسيم والتجزئة التى يتعرض لها المتمسكون بوجود ثلاثة أقانيم فى الثالوث . وبدل أن يعلم بوجود ثلاثة أقانيم فى الثالوث علم بأن الله الواحد الوحيد الموحد الجوهر انتحل أو استعمل أو استخدم ثلاث طرق مختلفة لاعلان نفسه للبشر . فالتنوع لايوجد إذن فى جوهر الله وذاته ، بل فى الطرق التى استعملها لكى يظهر نفسه للبشر عن طريقها . فبحسب مفهوم الكاهن الليبى ، فإن الله مثلث الأقانيم بل مثلث الطرق .

كان سابليوس يهدف بهذه التعاليم إلى المحافظة محافظة كاملة على وحدة الله من ناحية وعلى لاهوت المسيح من ناحية أخرى ، وهى المشكلة التى كانت تعانى وتقاسى منها كنيسة العصور الأولى . فإن اليهود المتنصرين لم يقبلوا بسهولة مساواة المسيح بالله . الأمر الذى بدا لهم عقيدة وثنية مصدرها تعدد الآلهة . ولكن سابليوس حاول بهذه التعاليم أن يبين لهم بأن إله ابراهيم واسحق ويعقوب وإله العهد القديم هو نفسه ، وليس شخصا آخر أو أقنوما آخر كما تدعى الكنيسة المسيحية ، هو الذى ظهر فى يسوع ، والروح القدس هو أيضا نفس الشخص قد ظهر بطريقة أخرى وبهيئة أخرى لقيادة الكنيسة . نفس الاله انتحل أو استعمل هذه الطرق الثلاث لكى يظهر للناس ويتكلم

معهم . ولهذا فقد دعى أتباع هذا المذهب بالانتحاليين (LE MODALISTES) .

ومع أن هذا المذهب يبدو جذابا وبسيطا للتعليم والفهم ، وقد انغوى به كثيرون فى القرون الأولى ، وما زال منصبا كشرك أيضا للكثيرين فى العصر الحاضر ، إلا أن كثيرين من آباء الكنيسة وقادتها أدركوا خطورة هذه التعاليم ودانوها وحكموا برفضها ، لأنهم رأوا فيها ملاشاة تامة لشخص الابن وعمله الفدائى ، ثم ملاشاه كاملة أيضا لوجود الثالوث . لأن سابليوس لا يؤمن بوجود الثالوث ، أى وجود الأقانيم الثلاثة آب وابن وروح قدس فى الله الواحد ، بل يؤمن أن الله الواحد قد ظهر بثلاث طرق مختلفة كآب وابن وروح قدس . وهناك أمر آخر وهو أن سابليوس علم بأن الله قام بالأدوار الثلاثة فى الثلاث الحقبات من الزمن كآب وكابن وكروح قدس .

أما الكنيسة المسيحية فتعلم بأن الله مثلث الأقانيم آب وابن وروح قدس موجودون كلهم قبل كل بداية ويعملون معا . الله الآب مع اللوجوس خالقان والروح القدس الذى كان يقود الكنيسة فى إسرائيل فى العهد القديم يقودها أيضا فى العهد الجديد : فالله ثلاثة أقانيم وليس ثلاثة طرق للتعبير . على عكس ما اعتقد سابليوس بأن الأقانيم ما هى إلا ثلاثة طرق أو ثلاثة أسماء للتعبير عن ما قام به الله فى خلال هذه المراحل الثلاث .

إن تعاليم سابليوس لاقت نجاحا عظيما كما سبق القول ، بل إن تعاليمه انتشرت بين الأساقفة أنفسهم فى روما ، لدرجة أن المذهب الانتحالى أصبح تقريبا مذهبا رسميا . ولكن البابا كاليسوس (CALLISTE ٢١٧ — ٢٢٢) أصدر حرمانا ضد سابليوس وأتباعه . ويظن البعض أن سابليوس ظل فى روما بعد حرمانه واستمر فى نشاطه

وعمله في الكنيسة التي كان يقوم برعايتها ، وأن بقاءه في روما سهل عليه الاتصال بكنائس الشرق ونشر تعاليمه فيها(١)على أن البعض الآخر يعتقد بأن سابليوس ذهب بعد حرمانه الى مصر حيث وجد عددا كبيرا من أتباعه هناك(٢)•ويقال إن تعاليم هذا اللاهوتي الليبي انتشرت بسرعة عظيمة في مصر وخاصة بعد موت أوريجانوس ؛ لدرجة أن الوعظ عن المسيح وعن ابن الله أصبح نادرا جـدا • على أن الأسقف المصرى ديونيسيوس قام بحملة شعواء ضد هذه التعاليم ، وكذلك أيضا اللاهوتي الروماني هيبوليتوس وعدد كبير في الشرق وفي الغرب كتبوا ضدها • وبالرغم من ذلك فإن مذهب الانتحالية (٣) انتشر بسرعة عظيمـة وفي مناطق كثيرة •

(١) انظر كتاب Adolph Harnack. History of Dogma vol. 3

(٢) انظر كتاب Lods p. 40 - 4.

(٣) لقد حاولنا أن نترجم كلمة (Modalisme) بكلمة الانتحالية أو الهيئة أو المظهر ولكننا نفضل كلمة « الانتحالية » .

بعض المراجع عن مذهب الانتحاليين :

1 Hippolyte Contre Noetos.
2. Hippolyte Phillos. 9. 7. 11.
3. Tertullien Adv. Praxeas.
4. Lods. P. 40 - 41. ذكر سابقا
5. François Bonifas. Histoire des Dogmes de l'eglise chretienne. Tome 2. pp. 31 - 36.
6. W. Pannenberg. Esquisse d'une chritologie les editions du cerf.
7. A. Harnack. History of dogma. Vol. 3e pp. 81 - 100.
8. M. E. Haag. Histoire des dogmes chretienns. Libraire-Editeur. 10 Rue de La Monnaie 1862 pp. 140 - 146.

الفصل الحادى عشر

بولس السميساطى

PAUL DE SAMOSATE

كانت التعاليم الوحدانية (MONARCHIANISME) أو الانتحالية (MODALISME) منتشرة فى الغرب وفى الشرق . ولقد وجدت تربة خصبة فى الأوساط اليهودية المسيحية ؛ إذ أن كثيرين من اليهود المتنصرين وجدوا فى هذه التعاليم توافقا وانسجاما مع معتقداتهم فيما يختص بوحدة الله وعدم تقسيمه إلى أقانيم . فإن نوئتوس (NOETUS) نادى بوحدانية الله فى نهاية القرن الثانى ، وفى بداية القرن الثالث ظهرت جماعة الانتحاليين (MODALISTES) وعلى رأسهم الكاهن الليبى سابليوس كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

ولقد لاقت هذه التعاليم نجاحا عظيما وملحوظا فى الأوساط اليهودية المسيحية ، لدرجة أنها انتشرت ليس بين بعض العلمانيين والكهنة فقط ، بل سيطرت أيضا على بعض الأساقفة فى الغرب وفى الشرق . وهنا نرى الأسقف بولس السميساطى واحدا من ضحاياها .

كان بولس خطيبا مفوها وسياسيا ماهرا ماكرا أو إداريا محنكا . ولذلك فقد احتل مركزا مرموقا يحسد عليه فى مملكة الملكة « زينب أو

زنوبية » (ZENOBIE) • ويظن أنها عرفت بميلها لليهود • ويحتمل أيضا أنها كانت تعرف ولو جزئيا بعض أفكار بولس السميساطى الذى كان يشغل مكانا مرموقا فى الدولة • وبما أنها كانت تهدف إلى انفصالها عن روما ، فقد رأت فى بولس أداة سياسية فعالة ، ولهذا السبب فقد ساعدت بنفوذها وسلطانها بولس للوصول إلى كرسى أسقفية أنطاكيا فى سنة ٢٦٠ • ويظن أيضا أن الأسقف الأنطاكى (بولس) نهج نفس المنهج الذى رسمته الملكة زينب وهو مناصبة الرومان العـداء • وكان الأسقف الأنطاكى يتمتع بسلطة دينية ومدنية فى نفس الوقت ، إذ أنه ظل حتى بعد وصوله إلى الأسقفية يمارس مهمة الاشراف على الأمور المالية والجباية فى الدولة (١) •

ما هى تعاليمـــه ؟

إن أسابيـوس المـؤرخ الكنسى ، يعرفنـا بأن انحراف بولس السميساطى ظهر حالا بعد أن نصب أسقفا • إذ انه علم تعاليم لا تتفق وتعاليم الكنيسة (أسابيوس HIST. ECCL., 7, 27, 2) والمصادر التاريخية التى تحتوى على تعاليم الأسقف الأنطاكى قليلـة • ولكن لحسن الحظ فإن كـلا من بولس البيزنطى والامبراطور يوستفيانوس وبطرس الشماس قد احتفظوا لنا ببعض الشذرات من الحوار الذى دار بينه وبين الكاهن مالكيون (MALCHION) إذ أن هذا الأخـير هو الذى اكتشف وأعلن هرطقة الأسقف • فما هى هرطقته ؟

كما سبقت الاشارة كانت التعاليم الوحدانية والانتحالية منتشرة فى ذلك الوقت ، وبما أن هذه التعاليم كانت تنمو وتترعرع فى الأوساط

(١) انظر كتاب J. Quasten pp. 166 - 167 (vol.2)
وكتاب رستم الجزء الأول ص ١١٨ — ١٢٠ •

اليهودية المسيحية فإنها وجدت فى شخص بولس السميساطى الذى كان متأثرا بهذه التعاليم فلاحا ماهرا ، وفى الملكة زينب التى عرفت بعطفها على اليهود تربة خصبة . ومن الصعب تحديد عقيدته بطريقة واضحة صحيحه لأن معظم الوثائق التى نملكهـا عن تعاليمه هى الحجج التى قدمها الذين لم يتفقوا معه فى أفكاره . فيحتمل بأن أسقف أنطاكية كان يعلم بأن الله واحد ، أى أقنوم واحد وفى هذا الأقنوم يمكننا أن نميز اللوجوس والحكمة ، وهما عبارة عن صفتين وليسا أقنومين . ولقـــد خرج اللوغوس من الله . أو انبثق منه منذ الأزل . ويمكن تسمية هذا اللوجوس والحكمة ، وهما عبارة عن صفتين وليسا أقنومين . ولقـــد أو قوة غير شخصية وليس أقنوما مميزا عن الله . ويعتقد بأن اللوغوس هو الذى كان يعمل فى الأنبياء ويرشدهم وهو أيضا الذى كان يعمل فى ابن داود المولود من العذراء ، يسوع الناصرى ، فيسوع إنسان مثلنا تماما ، فمع أنه أعظم من موسى والأنبياء ولكنه إنسان كامل ، ولقد حل اللوجوس فى هـــذا الانسان يسوع ولذلك فمن الضرورى التمييز بين اللوجوس وبين يسوع ، فإن الأول أعظم من الثانى (١) ، إذ أن يسوع بشرى ومثلنا فى طبيعته ، ومريم لم تحمل فى بطنها اللوغوس بل حملت يسوع البشرى وهكذا ظل هـــذا الانسان يسوع إنسانا مثلنا لا فرق بينه وبين أى إنسان آخر إلى يوم عماده الذى فى أثنائه وعن طريقـــة أوحى له بطريقة خاصة بأنه المسيح الذى حل فيه اللوجوس ، وارتبط بيسوع الناصرى برباط المحبة القوية .

ولقد استطاع المسيح بفضل رباط المحبة القوية أن ينتصر ليس فقط على الخطية بل انتصر أيضا على خطية أجـداده ؛ ولهذا السبب فقد أصبح فاديا ومخلصا لأنه تمم مشيئة الله بطريقة كاملة . وبفضل

(١) انظر Quasten pp. 166 - 168.

هذه المحبة القوية ، فقد ارتبط بربط وثيقة ثابتة . ولأن يسوع قد سلك بأمانة وتدقيـق أمام الله ولأن اللوجوس قد اتحد به فقد رفعه الله كمكافأة له وأعطاه اسما فوق كل اسم .

ولقد حذف بولس كل الترانيم التى تصف المسيح كإله أزلى(١) موجود قبل وجود العالم وتأسيسه . ويعتقد كاستن (QUASTEN) بأنه من المحتمل أن بولس كان يعلم تعاليم انتحالية (MODALISTE) لا تقبل عقيدة الثالوث ، أى وجود ثلاثة أقانيم فى الله . والاقتباس الذى اقتبسه لينوس يظهر أن بولس اكتفى بأن يسمى الآب بالله الذى خلق كل الأشياء والابن الذى صار إنسانا ، وأن يسوع كان أفضـل وأعظـم من موسى والأنبيـاء ، ولـكنه لم يـكن الـكلمة (انظـر LEONCE DE SECTIS, 3, 3) (٢)

فمن هذه الاقتباسات واقتبسات أخرى يتضـح أن التهمة التى وجهت الى الأسقف الأنطاكى تهمة مزدوجة . التهمة الأولى هى إيمانه بعقيدة الانتحاليين ، فهو لا يؤمن بوجود الثلاثة الأقانيم بل بوجود اله واحد ووحيد له ثلاث صفات وليس ثلاثة أقانيم . والتهمة الثانية التى اتهم بها هذا اللاهوتى السورى (أصلا من سوريا) هى عقيدته بالبنوية (ADOPTIONISME) . أى أن يسوع لم يصبح ابن الله إلا بعد العماد وبعد أن أعلن الآب أنه تبنى هذا الانسان يسوع ليكون ابنا له .

والخطر فى الاتجاهين ، الانتحالى والتبنى ، عظيـم هدام . فإن خطر الانتحالية كما سبقت الاشارة كان يهدف الى مـلاشاة عقيـدة

---

(١) Adolphe Harnack. Precis de L'Histoire p. 112 - 133.
(٢) انظر نفس المؤلف Harnack : History of Dogma vol. 3 pp. 34 - 50.



الثالوث ، لا وجود لثلاثة أقانيم بل هذه الأقانيم ما هى إلا طرقا قد انتحلها الله ليظهر نفسه فى العالم . أما خطر التبنى فهو أيضا هدام للايمان ولعقيدة « الكلمة صار جسدا » . فإن اللوجوس أى الكلمة لم يصر جسدا ، بل إن الله قد تبنى الانسان يسوع الناصرى فى وقت العماد ومن هذه اللحظة أصبح ابنا ليس بالطبيعة ولكن بالتبنى . فإن الله رفع هذا الانسان يسوع إلى درجة اللاهوت عن طريق التبنى الغير الطبيعى ، ويكمن وراء هذا التعليم تسم آخر ، هو وجود ابنين لله ، كما أشار إلى ذلك المؤرخ اللاهوتى هارنك (HARNACK HIST. OF DOGMA (PP. 42 - 50) احتوت تعاليم بولس السيمساطى على الهرطقات الانتحالية والتبنى والأرطومونية (ARTEMONISME) .

فالعقيدة المسيحية كانت إذن مهددة أو بالمعنى الأصح إن شخصية المسيح كانت باهتة وغير ظاهرة بالطريقة التى تليق به . ومما لاشك فيه أن هرطقة هذا الأسقف كانت واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، ولكن من كان يجرؤ على اتهام ذلك الأسقف الذى قبض بيديه على سلطتين عظيمتين . فلقد أمسك بيد السلطة الروحية كأسقف لمدينة أنطاكية ، ثم قبض باليد الأخرى على السلطة الزمنية ، إذ أنه كان يعتبر المشرف على خزينة الملكة زينب ومستشاراً لها .

ولكن بالرغم من هذا السلطان المزدوج الذى وشح به فإن الرب يقيم لنفسه شهودا أمناء فى كل جيل وعصر يستطيعون أن يعلنوا الحق عاليا متمسكين به ومضحين من أجله مهما كان الثمن غاليا ومكلفا . فإن هؤلاء الشهود أقامهم ويقيمهم وسيقيمهم الرب لكى يعلنوا عبر الأجيال لكل عات ومتمرد ومتغطرس ، قائلين : « يانبوخذ نصر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر » ... (دانيال ٣ : ١٦ ــ ١٨) .

فلقد أقام الرب شخصا غيورا تقيا لمقاومة هذا الأسقف الذى عرف ليس بالهرطقة فى التعليم فقط أيضا بل بسوء السلوك • إذ أنه نهج فى حياته منهج الملوك والحكام ، فكان عالميا فخورا طموحا •••• فكانت مهمة الأخ ماليكون (MALCHION) الكاهن مهمة حساسة بل خطيرة • ففى مهاجمته لتعاليم الأسقف كان يهاجم فى وقت واحد رئيسه الروحى ورئيسه المدنى أيضا • وكان هذا الكاهن عالما ومنطقيا • فكانت يقول إن الفضل يرجع إلى مالكيون فى إدانة بولس والنصرة عليه (انظر • QUASTEN VOL. 2. A 166) •

وهذا لا يعنى أن مالكيون كان وحيدا فى صراعه ضد هذا الأسقف وأنه لم يكن إلا هذا الرجل وحده أمينا لله ، كما ظن ايليا النبى فإن « الرب أبقى فى اسرائيل سبعة آلاف ، كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » (١ مل ١٩ : ١ — ٢١) •

ولقد تمثلت هذه البقية الأمينة للتعاليم الصحيحة فى الكاهن المعلم مالكيون ودودنون وانضم إليهما عدد لا بأس به من أساقفة وكهنة وعلمانيين مثقفين ثقافة يونانية ورومانية •

يظن أن لينوس أسقف طرسوس هو الذى دعا لعقد هذا المجمع للنظر فى أمر الأسقف بولس (١) واجتمع المجمع (السنودس) فى سنة ٢٦٤ فى أنطاكيا نفسها ، ويحتمل أن الذى رأس هذا المجمع هو يونس نفسه فلم يصل المجتمعون إلى نتيجة عملية (٢) ولقد أعقب هذا المجمع مجمع آخر انتهى إلى نفس النتيجة التى انتهى إليها المجمع الأول (٣)•

(١) انظر كتاب د. أسد رستم الجزء الأول ص ٢٢٣ .
انظر كتاب هارنك Harnack. Hist. of Dogma vol. 3 p. 38.
(٢) نفس المؤلف هارنك ص ٣٩ •
(٣) انظر أيضا كتاب Quasten vol. 2. p. 166.

ويقول الدكتور أسد رستم أن الذين اجتمعوا فى المجمع الأول رغبوا فى الاستفادة من علم ديونيسيوس الاسكندرى وحكمته ودرايته وشهرته فدعوه إلى الاجتماع معهم فى أنطاكيا . وأراد ديونيسيوس أن يلبى هذه الدعوة ويعيد الوحدة إلى صفوف كنيسة المسيح ولكنه اعتذر عن الحضور نظرا لتقدمه فى السن، وحض الأساقفة على التقوى وخوف الله (د . أسد رستم ص ١٢٣ : ١٢٤) .

وبالرغم من النتيجة الغير المشجعة التى وصل إليهما المجمعان السابقان ، وخاصة المجمع الثانى الذى جاء إليه ممثلون من أقطار العالم المسيحى كله ، والذى دعى بالمجمع الأعظم ، فإن الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الهرطقة والضلال ، لم تستطع صدمة هذين المجمعين أن تضعف من عزيمتهم ، فقد تابعوا النضال لاعلان الحق الإلهى . ولذلك فقد بذلوا الجهد الجهيد لعقد مجمع آخر ، وفعلا انعقد مجمع آخر فى سنة ٢٦٨ فى أنطاكيا أيضا . وقد تضاربت الآراء فى عدد الذين حضروا فى المجمع،فقال البعض إنهم كانوا حوالى ٧٠ أو ٨٠ نائب(انظر (ATHANASE, DES SYNOD. 43 HILAIRE DE SYNOD P. 86 . وقال البعض الآخر إنهم كانوا حوالى ١٨٠ نائب (انظر HARNACK HIST. OF DOGMA VOL. P. 38)

ولم يجهل أعضاء هذا المجمع (السنودس) فكر بولس الثعلبى وخبرته الطويلة وتحنكه فى الأمور السياسية والدبلوماسية ، ولذلك فقد طلبوا من الكاهن ملكيون العالم ومدرس المنطق الشهير المعروف بعلمه وخبرته وتقواه القيام بالنقاش وطرح الأسئلة على الأسقف الأنطاكى . ولقد سجل الحوار أشخاص تمرنوا على الكتابة السريعة ، وبعد النقاش الطويل استطاع هذا الكاهن بلباقته وعلمه إظهار هرطقة الأسقف وفساد تعاليمه وضلال عقيدته . فحكم المجمع بقطعه من

الكنيسة وعينوا ! أسقفا آخر بدلا منه(1)•ولقد كتب كل الرعاة المجتمعين رسالـــة إلى كل من ديونيسيوس أسقف رومـــا وماكسيموس أسقف الاسكندريه وكذلك إلى كل كنائس المقاطعات والبلاد الأخرى شارحين هرطقـــة وفســـاد عقيـــدته وســـوء ســـلوكه • (راجـــع أســـابيوس HIST. ECCL. 7, 29, 1 - 30, 1)

ولكن للأسف الشديد فإن بولس السميساطى لم يخضع لقرار السنودس ولم يقبل قرار الخلع فظل فى منصبـــه كأسقف لأن الملكـــة زينب أيدته ، فظلت أوامره نافذة معمولا بها ، وكأنه لم يحدث شىء• ولم يغير قرار السنودس شخصية بولس ولا تعاليمه • وقد استمرت الأمور تسير على ماكانت تسير عليه لمدة أربع سنوات أخرى •

ولكن عندما تولى أوريليانوس الحـــكم وسقطت الملكـــة زينـــب وسلطانها ، تغيرت الأمور وزال سلطان ونفوذ الأسقف الأنطاكى بزوال سيدته وحاميته •

وعندئذ بدأت الكنيسة تتنفس الصعداء بعد أن تحررت من أسقف هرطوقى طاغ ، ولقد ظنت فى ذلك الوقت بأنها تخلصت تخلصا نهائيـــا من الهرطقات والتعاليم الضالة بحكمها على بولس السميساطى وقطعه من الكنيسة ، ولم تعلم بأن بولس لم يكن إلا واحدا من موكب طويل من الهراطقة والمعلمين الكذبة الذين سيوجهون سهامهم السامة لـــكى يقتلوها ويقضوا عليها • لم تعلم هذا ••• لكنها علمت يقينا بأن الذى وعدها قائلا : « وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » أمين وعادل وسيحقق وعده لها بالرغم من ضعفها وعدم أمانتها •

(1) يعتقد د. أســـد رستم بأن دومنوس هـــو الذى انتخب أسقفا لمدينة انطاكيا بدلا من بولس (انظر كتاب د. رستم الجزء الأول ص ١٢٧) •

بعض المراجع لدراسة حياة وتعاليم بولس السمسياطى .

1. Eusebe. Histoire Ecclesiastique. 7, 27, 2.
2. Saint Hilaire (De Synod 581, 86).
3. Leonce (De Sectis 3, 3).
4. H. J. Lawlor. The Sayings of Paul of Samosata. JTHST 19 (1917 - 1918) 20 - 45, 115 - 120.
5. H. de Riedmatten, Les Actes du Proces de Paul de Samosate (Paradosis 6) Fribourg 1952.

(٦) راجع كتاب Quasten ص ١٦٦ — ١٦٨ يحتوى على قائمة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع . ذكر سابقا .

(٧) راجع كتاب الدكتور اسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكيا العظمى — الجزء الأول من ص ١١٩ — ١٣٠ .

8. M E. Haag. Histoire des dogme Chrètiens. ذكر سابقا
9. A. Harnack. History of Dogma Vol 3 pp. 34 - 50.
10. J. Liepaert. Histoire des dogmes. ذكر سابقا

الفصل الثاني عشر

لوقيانوس LUCIEN

إن كنيسة أنطاكية قد حاولت هي أيضا الاجابة على هذا السؤال الذي طرحه السيد في قيصرية فيلبس : « من يقول الناس إني أنا ابن الانسان ؟ » وكنيسة أنطاكية كنيسة قديمة ، إذ أن أعضاءها هم « .. الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس فاجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية » ... (أع ١١ : ١٩) .

كما أنه في أنطاكيا دعى التلاميذ لأول مرة في التاريخ بمسيحيين : « ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكيا أولا » (أع ١١ : ٦) . والتقليد الكنسي الأنطاكي يرجع تأسيس كنيسة أنطاكيا إلى القديس بطرس نفسه (١) فكان على هذه الكنيسة أن تجاوب هي أيضا على نفس السؤال المطروح : « من يقول الناس ...» مثل أخواتها في الاسكندرية وفي قيصرية وقارطجنة وروما . وهذا ما حاول القيام به أساقفتها ومعلموها وقادتها وأعضاؤها . ومع أن هؤلاء الأساقفة والمعلمين والقادة — لم

(١) راجع كتاب د. أسد رستم : كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى . الجزء الأول ص ١٩ — ٢١ .

يهملوا الناحية التعليمية والعقائدية فى كتاتيبهم : فإن مدرسة أنطاكيا اللاهوتية لم تظهر إلا فى الجزء الثالث من القرن الثالث . والذى قام بتأسيس هذه المدرسة والتعليم فيها هو :

لوقيانوس :

يعتقد البعض بأن لوقيانوس من سميساط أى بلد بولس السميساطى ، فعندما أصبح هذا الأخير أسقفا استدعى لوقيانوس الرجل العالم المثقف ورسمه كاهنا وأوكل إليه مهمة التعليم فى مدينة أنطاكيا (انظر د . أسد رستم نفس المجلد ص ١٤٤) .

ونجهل الكثير عن حياة وتعاليم هذا الرجل ، ولكن ما قد وصل إلينا يعطى لنا فكرة ولو جزئية عن حياته وتعاليمه .

وهارنك يقدمه لنا كشخصية بارزة لامعة ، ومثقف ثقافة عظيمة(١) وكان يجيد اللغة العبرية ، ولذلك فقد قام بتصحيح ترجمة العهد القديم (انظر JEROME, PRAEF. JMPARHL., ADV. RUF 2, 27) . وجيروم يشير أيضا إلى كتيب قد كتبه لوقيانوس ، على أنه لا يذكر محتويات هذا الكتيب (JER., DE VIR, ILL 77) .

إن لوقيانوس كان يتبع نظاما يختلف عن النظام الذى كانت تتبعه مدرسة الاسكندرية فى تعليمها ، فهذه الأخيرة كانت أمينة لطريقة أوريجانوس التفسيرية ، أى التفسير المجازى . وبناء على ذلك فإن هذا التفسير كان يرى السيد فى كل مكان فى الكتاب المقدس . أما مدرسة أنطاكيا فقد اتجهت ناحية التحليل للفصول الكتابية مستعينة بعلم اللغة والقواعد والتاريخ . فمدرسة أنطاكيا اتبعت نظاما يمكن أن

(١) A. Harnack. History of Dogma vol. 4. pp. 1 - 6.

نسميه الطريقة العلمية • أما مدرسة الاسكندرية فقد اتبعت نظاما يمكن أن نسميه الطريقة الروحية • وربما لهذا السبب نجد أن التفاسير التى قامت بانتاجها مدرسة أنطاكيا عمرت وقتا أطول من التفاسير التى أنتجتها مدرسة الاسكندرية ، إلا أنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت الذى ظهرت فيه مدرسة أنطاكيا كطفل رضيع يحبو على يديه ورجليه ، كانت مدرسة الاسكندرية قد وصلت إلى أوج عظمتها ، فانتشرت تعاليمها ليس فى الاسكندرية فقط بل فى بلاد كثيرة أخرى بفضل اوريجانوس والمدرسة التى قام بتأسيسها فى قيصرية •

ما هى تعاليم لوقيانوس الكرستولوجية ؟

قبل أن نتكلم عن تعاليم لوقيانوس العقائدية ، نرى أنه يجدر بنا أن نشير إلى حقيقة أن المعلم الأنطاكى كان يتمتع بشهرة عظيمة ، لا لثقافته الواسعة واجادته للغة العبرية فقط ، بل لأنه كان يحيا حياة لا تشوبها شائبة ، فقد كان مترفعا عن الدنايا ونزيها ولقد مارس حياة التقشف ، على العكس تماما من ولى نعمته الأسقف بولس السميساطى، وكان أيضا غيورا لله وانتشار ملكوته ودافع عن الايمان بكل ما وهب من مقدرة علمية ، وختم حياته بالاستشهاد فى يوم ٧ يناير ٣١٢ على يد الامبراطور مكسيمنوس دايوس (MAXIMIN DAIA) بعد أن قاسى عذابات تفوق الوصف (انظر RUFINC HIST. ECCL. 9. 6)

وأسابيوس المؤرخ الكنسى يقدم لنا صورة منيرة رائعة عن مقدرته العلمية وعن حياته التقشفية ، ثم عن دفاعه واستشهاده (انظر أسابيوس HIST. ECCL. 9, 6, 3 وكتاب أسد رستم الجزء الأول ص ١٧٩) •

ولكن للأسف أن المعلم الأنطاكى شوه الصورة التى ذكرناها أعلاه بتعاليمه المنحرفة • فعلى ما يعتقد أن الأسقف بولس ترك بتعاليمه أثرا

عميقا جـدا على الشاب لوقيانوس السيساطى ، وأن هذا الأخـير لم يقبل فقط هذه التعاليم البونسية بل نادى بها وعلمها فى مدرسة أنطاكيا. وفساد عقيدته لم يكن خطرا على هذا الشخص ـ لوقيانوس ـ وحده، بل كان سما مميتا لمدرسة كاملة ؛ أى مدرسة أنطاكيـا ، بل ان هـذا الداء القاتل امتد فعله إلى أجيال عديدة وبلاد مختلفة متنوعة .

فإن الوثائق التاريخية تعرفنا بأن لوقيانوس كان خلفا للأسقف بولس السميساطى فى تعليمه لعقيدته . وأبا ومصدرا وينبوعـا لتعاليم أريوس . فإن هذا الأخير (أريوس) كان فخورا بأنه تلميذ للوقيانوس، لدرجة أنه كان يصف نفسه بالقول أريوس اللوقيانوسى (١) .

والخطاب الذى أرسله أسقف الاسكندرية بعد عشر سنوات من وفاة لوقيانوس إلى كل أساقفة مصر وسوريا وآسيا وكبادوكية ، يعرفنا بأن لوقيانوس كان خليفة لبولس وأبا لآريوس . إذ أن أريوس اعتنق أفكار المعلم الأنطاكى ونادى بها ، كما أن لوقيانوس اعتنق هرطقة بولس وعلم بها . أنظر (THEODORE. HIST. ECCL. 1, 4, EPIPHARE, HAER., 69, 9)

وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن الهرطقة الأريوسية التى هددت كيان الكنيسة ، والتى أدت فيما بعد إلى انقسامات خطيرة ومؤلمة والتى نعانى من نتائجها حتى الآن ، لم تولد فى مصر بل قد حبل بها وولدت فى أنطاكية ثم ظهرت فى الاسكندرية عنـدما قام بالمناداة بهـا أريوس الليبى تلميذ لوقيانوس الأنطاكى .

ولقد علم لوقيانوس بنفس التعاليم التى علم بها أستاذه بولس

(١) انظر كتاب Quasten Vol. 2 p. 171.

من قبل بعد أن أضاف إليها بعض الاضافات الطفيفة • فهو يؤمن بأن الله واحد وحيد لا مساو له • وهو الخالق لكل الأشياء ، وكل ما هـو خارج عنه فهو مخلوق • فهو الذى خلق الحكمة أو اللوجوس • وهـذه الحكمة أو هذا اللوجوس أو الكلمة أخذ جسدا بشريا لا روحا • وبمـا أن ابن الله تألم وجاع وعطش واضطرب ، فإنه أخـذ فعلا جسـدا بل كان يسوع (إنسانا حقيقيا • والخطورة هنا ليس فى تعاليمه بحقيقة ناسوت المسيح بل أن الخطورة كامنة فى المناداة بأن يسوع كان إنسانا وابنا بالتبنى فقط وليس ابن الله بالجوهر •

والمسيح هو الشخص الذى عرفنا بالله والذى ارتفع إلى المجـد بعد أن أظهر طاعة كاملة ومحبة عارمة لله • ويحتمل أنه علم أيضا نفس العقيدة التى نادى بها أستاذه وأسقفه ، المختصة بالتمييز بين يسوع وبين اللوجوس • والخطأ فى هذه العقيدة هو التفريق بين ابن الله وابن الانسان ، بين اللاهوت وبين الناسوت ، وكأنه يوجد ابنان لله لا ابن واحد • وبهذا فقد مهد لوقيانوس الطريق لأريوس وللهرطقة الأريوسية التى ستظهر بعد استشهاد المعلم الأنطاكى بما لا يزيد عن عشر سنوات •

ونعرف من خطاب الأسقف ألكسندر الاسكندرى الذى أشرنا إليه سـابقا ، بأن لوقيانوس ظل محروما فى أثناء الفتـرة التى تولى فيهـا الجلوس على كرسى أنطاكية الثلاثة الأساقفة الذين خلفوا على التوالى الأسقف بولس السميساطى (أنظر THEODORET HIST. ECCL. 1, 4)

لقد انتصر الامبراطور أوريليانوس على أعدائه وهزم الملكة زينب وكسر شوكتها ، فزال بزوال سلطانها الأسقف بولس ، لأن الامبراطور نفذ قرارات مجمع (سنودس) سنة ٢٦٨ • ولا نعلم شيئا من أخبـاره بعد ذلك • على أن البعض يعتقد بأن أتبـاع بولس كانوا يواصلـون

اجتماعاتهم فى الخفاء (1) .

إن كنيسة أنطاكيا شعرت بعد تدخل الامبراطور فى النزاع وإبعاد الأسقف بولس عن رئاستها ، بل الكابوس الذى كان جاثما على صدرها قد انزاح وأن الهرطقة التى كانت تهدد الكنيسة كلها اختفت الى الأبد . ظنت الكنيسة ذلك عندما نفذ الامبراطور أوريليانوس فى سنة ٢٧١ قرارات مجمع (سنودس) سنة ٢٦٨ . ولكنها لم تعلم بأنه كان فى داخل الكنيسة ثعالب صغيرة مختفية تعمل فى الخفاء على افساد الكروم : «خذوا لنا الثعالب ، الثعالب الصغار المفسدة الكروم » .. (نشيد الأنشاد ٢ : ١٥) .

(1) انظر Loofs, F. Paulus, 182

بعض المراجع عن حياة وتعاليم لوقيانوس الأنطاكى :

1. Eusebe. Hist. Eccl., 9, 6, 3, Rufin. Hist. eccl. 9, 6, Jerome De vir ill., 77, Theodoret. Hist., eccl. 1, 4,

2. G. Bardy. Le discours apologetique de Saint Lucien d'Antioch (Rufin, H. E. 9. 9) RHE 22 (1925) 487 - 512.

3. G. Bardy. Recherches sur saint Lucien d'Antioche et son ecole. Paris 1936.

(٤) راجع كتاب Quasten vol. 2 ص ١٧٠ تجد قائمة بكتب هامة عن نفس الموضوع .

(٥) راجع أيضا الجزء الأول من كتاب د. أسد رستم من ص ١٤٣ — ١٤٧ . يذكر قائمة هامة أيضا بكتب تخص الموضوع .

6. A. Harnack. History of Dogma. Translated from the third German edition by E. B. speirs D.D. and James Miller B. D. Volume IV. pp. 1 - 6.

7. A. Harnack. Precis de L'histoire pp. 176 - 179 (ذكر سابقا)

الفصل الثالث عشر

أريوس ARIUS

كان لوقيانوس المعلم الأنطاكى غيورا على الدين يدافع عنه بكل قوته وعلمه ، لا يخاف من وعيد ولا ينغوى بوعود . ولذلك فقد نادى بمعتقداته التى كان يؤمن بها ويعلمها . وللأسف الشديد أن معظم هذه التعاليم كانت تصطبغ بالصبغة الهرطوقية ، وبالرغم من أن هذا المعلم كان هرطوقيا فى تعاليمه ومعتقداته ، فقد تمسك بها تمسكا وثيقا وقت الاضطهاد الذى شنه مكسيمنيوس ضد المسيحيين فى سوريا . فألقى القبض على هذا المعلم لأنه مسيحى وسجن فى نيقوميدية ، وقاسى فى سجنه أنواعا من العذاب تقشعر لها الأبدان ، ويعجز صاحب القلم السيال عن وصفها على حقيقتها . فقد ضرب وجلد ووضع على صاجات ساخنة وحرم من الأكل والشرب ، وبالرغم من هذه العذابات الشنيعة كان جوابه لمعذبيه : « أنه مسيحى » .

فلقد كان المسيحيون فى الامبراطورية الرومانية موضوع اضطهادات عنيفة وقاسية فى أوقات كثيرة وفى أماكن مختلفة ، وقد اجتاحت بعض المناطق مثل سوريا ومصر . حتى بعد قرار العفو الذى أصدره الامبراطور بقلاريوس فى سرديكة فى سنة ٣١١ والذى كان

يحتوى على وقف الاضطهادات عن المسيحيين انظر (EUSEBE HIST ECCL. 8, 17) .

فمنذ ظهور المسيحية مرت الكنيسة بأوقات عاصفة وبأوقات هادئة إلى أن جاء قسطنطين (١) وأصدر ليكينيوس ما يسمى بمعاهدة ميلان التي تضمنت حرية الأديان . وعندئذ أعلن الامبراطور ليس فقط حرية العبادة بل إعادة أملاك الكنائس التى قد صادرتها السلطات السابقة ، وعمل أيضا على مساعدة الكنائس وترميمها وبنائها .

وهنا بدأت الكنيسة تتنفس الصعداء وتشعر بالحرية التى كانت تتوق إليها من زمن بعيد . فمع أن الكنيسة لم تصبح فى هذا الوقت ديانة الدولة كما يظن البعض خطأ ، ولكنها كانت تتمتع بامتيازات عظيمة جدا ويكفى أنها صارت مساوية فى الحقوق لباقى الديانات الأخرى الموجودة فى الامبراطورية . وقد أصبحت الكنيسة فيما بعد كنيسة الدولة ، وهنا تتحد القوتان العظيمتان : القوة الروحية والقوة الزمنية ، الله وقيصر ! !

فى هذا الوقت الذى كانت تتمتع فيه المسيحية بالحرية ، ظهر تلميذ المعلم الأنطاكى :

أريوس الليبى :

ولد ونشأ فى عائلة مسيحية أم وثنية : لا نعلم عن ذلك شيئا ؟

---

(١) يعتقد البعض بأن قسطنطين قبل المسيحية أو على الأقل منح الحرية للمسيحيين بعد أن رأى رؤية طلب منه فيها أن يرسم علامة الصليب قبل إقدامه على معركة حربية كان لا بد له أن يخوضها ، وقد كسب فعلا المعركة بعد أن فعل ما طلب منه (انظر Eusebe. Vita Constantini 1, 28 - 30 ، كتاب د . اسد رستم ، الجزء الأول ص ١٨٠-١٨١

كل مانعرفه هو أنه ليبي الجنسية درس اللاهوت فى مدرسة أنطاكيا على يد المعلم لوقيانوس (انظر BONIFAS VOL. 2 P. 36) • ثم جاء بعد ذلك إلى الاسكندرية ورسم هناك شيخا فى كنيسة بنكاليس (انظر كتاب هارناك A. HARNACK HIST OF DOGMA VOL. 4 PP. 6 - 15) . أو كاهنا (انظر كتاب بونيفاس المجلد الثانى ص ٣٦) • ولقد أجمع الكتاب على أن أريوس كان عالما مثقفا ، وواعظا مفوها وزاهدا متقشفا ، وعالما فى التفسير ، فاستطاع هذا الشاب العالم المتقشف الزاهد أن يجذب حوله جماعة من أهل الاسكندرية ، وعلى الأخص من الرهبان والراهبات الذين وجدوا فى أسلوبه الوعظى والتعليمى تجديدا وابتكارا يختلف عن العظات التى تعودوا على سماعها .

وكان أريوس يهاجم فى عظاته تعاليم سابليوس التى كانت تهاجمها كنيسة الاسكندرية ، ولكنه بدأ يهاجم أيضا عقيدة أزلية الابن وانبثاق جوهره من الآب • إذ أنه اعتقد أن هذه العقيدة تقود إلى السابلينية (انظر بونيفاس ٢ : ٣٧) •

١ - ولذلك فقد علم بأن الله إله واحد غير مولود أزلى • أما الابن فهو ليس أزليا ، إذ أنه قد وجد وقت ما لم يكن الابن موجودا فيه ، ومن المستحيل أن يوجد الابن قبل خلق العالم ، ومع ذلك فهو ليس أزليا

٢ - إن هذا الابن الغير الأزلى والغير المولود من جوهر الآب خرج من العدم مثل كل المخلوقات الأخرى بحسب قصد الله ومشيئته •

٣ — إن المسيح الذى يعبده المسيحيون ليس إلها ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة ، كلى العلم ، كلى القدرة ، عديم التغيير ••الخ

٤ ـــ إن معرفة الابن محدودة وليست مطلقة ، ولا يستطيع أن يعلن لنا الآب بطريقة كاملة .

٥ ـــ إن الله خلق الكلمـــة ، الابن لأجلنـــا ، لأنه عندما أراد أن يخلقنا ، خلق كائنا يدعى الكلمة ، أو الحكمة لكى نكون على صورتـــه . فلو أراد الله أن لا يخلقنا لأصبـــح وجود الابن مستحيـــلا . فالابن مخلوق مثل كل الخلائق ، متغير ، غير أزلى ، ليس كلى العلم ، ولقـــد كان حرا أن يظل صالحـــا كما خرج من بين يـــدى الله أو أن يرتد إلى الشر مثل الشيطان . على أن الله قد سبـــق وقرر بأن يسلك الابن فى طريق الصلاح . ولهذا فقد منحه مجدا إلهيا . وهذا المجد الإلهى ما هو إلا هبة من الله ، وعن طريق هذا المجد الممنوح ارتفع الابن فـــوق كل الخلائق . (انظر كتاب بونيفاس ٢ : ٣٦ ـــ ٤٠) .

كان ألكسندروس هو أسقف الاسكندرية فى ذلك الوقت . ولقـــد وصفه بونيفاس بالقول بأنه كان شيخا ضعيفا ومريضا . ولو لم يـــكن بجانبه الشاب ايفانسيوس اثناسيوس المتقد غـــيرة وحماسة ، لمـــرت الأمور دون أن يعرها أحد اهتماما كبيرا (بونيفاس ٢ : ٤١) . ونظن أن بونيفاس يبالغ فى وصفه أسقف الاسكندرية ، ومما لا شـــك فيـــه أن أثناسيوس كان كتلة من الايمان والغيرة والتقوى ، وقد قام بدور هـــام جدا فى هذا الصراع العقائدى . إلا أن أسقف الاسكندرية ألكسندرس لم يهمل هذا الأمر ، بل عندما سمع بتعاليم أريوس استدعاه وناقش معه هـــذه المشكلة ، وأخـــيرا عنـــدما رفض أريوس الخضوع طلب ألكسندروس عقد مجمع (سنودس) فى حوالى ٣٢٠ أو ٣٢١ وقد حضره حوالى مائة أسقف مصرى وليبى للنظر فى قضية أريوس (انظر كتاب HARNACK (HIST OF DOGMA VOL. PP. 7 - 10)

ولقد عرض الأسقف ألسكندروس على المجمع (السنودس) بدعة

الكاهن أريوس ، فناقشوها معا ولم يتبع أريوس فى آرائه إلا أسقفان ليبيان ، وهما ثيوفاس وسكوندس (هارنك تاريخ العقيدة الجزء الرابع ص ٨ - ١٠ H. HIST. OF DOG.) . وبعض القسوس وبعض الشمامسة (أو ٦ قسوس و ٦ شمامسة) (انظر كتاب د . أسد رستم الجزء الأول ص ١٩٤) وقرر المجمع قطع الكاهن أريوس من الخدمة .

وعندما صدر قرار الحرمان وجد أريوس أن الجماعة التى تلتف حوله وتقول بقوله وتؤمن بإيمانه فى الاسكندرية قليلة جدا . وتعد على الأصابع . ولذلك فقد ثبت أنظاره على الخارج . ولقد سبق أن ذكرنا أن أريوس درس فى أنطاكيا على يدى المعلم لوقيانوس ، وبناء على ذلك فهو كان يعرف البعض من الذين نادوا بتعاليم معلم أنطاكيا، خصوصا أنه نادى هو نفسه بها . بل كان فخورا بتتلمذه على يدى لوقيانوس . فيحتمل إذن أنه كان يعرف أو كان على صلة ببعض زملائه فى زمن التلمذة ، والذين كانوا يشايعون لوقيانوس فى عقائده أمثال أسابيوس أسقف نيقوميدية وأسابيوس أسقف قيصرية فلسطين ، وغريغوريوس أسقف بيروت ، وثيودوتوس أسقف اللاذقية وآخرون ... فجاء أريوس إلى قيصرية فلسطين وشرح لمؤرخ الكنيسة العظيم أسابيوس أسقف هذه المدينة موقفه وعقيدته . وكان أوسابيوس عالما مشهورا فى تاريخ الكنيسة والآباء ويتمتع بمكانة عظيمة فى المنطقة كلها . إلا أنه كان يميل إلى تعاليم لوقيانوس دون المجاهرة بها . ونصح أوسابيوس أريوس بأن يكتب إلى سميه أسقف نيقوميدية ، فكتب إليه ثم ذهب لمقابلته . وبعد أن إطلع أوسابيوس أسقف نيقوميدية على أفكار وتعاليم أريوس كتب هو بدوره إلى عدد كبير جدا من الأساقفة ، حاضا إياهم على الوقوف بجانب أريوس وتأييده (انظر THEODORET. HIST. ECCL. 1. 5,)

دعا أسقف نيقوميدية إلى عقد مجمع فيها للنظر فى قضية أريوس، واجتمع المجمع وقرر قبول أريوس الكاهن وأتباعه فى الشركة . ولقد كتب المجمع إلى الأسقف ألكسندروس بأن يرفع الحرمان عن أريوس كما طلب أيضا من أريوس بأن يكتب إلى أسقفه موضحا عقيدته وإيمانه، وكتب فعلا أريوس إلى أسقفه رسالة رقيقة ولبقة معترفا فيها بأنــه لم يعلــم ولم ينــاد بغير ما نادى به أسقفه (انظر EPIPHANE, HAER. 69, 7)

ويعتقد بونيفاس بأن مجمعين قد انعقدا فى كل من بيت عنيا وفى فلسطين لبحث مشكلة أريوس وطالب كلاهما برجوع أريوس ولــكن ألكسندروس رفض هذا القرار المجمعى ، فانفصل أريوس مع أتباعــه عن الكنيسة (انظر ص ٤٢ BONIFAS. 2 VOL)

ويظن هارنك أن سنودس بيت عنيا هو المجمع الذى حــكم فيــه أريوس إلى درجته وخدمته . فلقد انعقد هــذا المجمــع بأمر وتحت رئاسة زميل أريوس فى التلمذة وهو الأسقف أوسابيوس النيقوميدى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت العلاقات بين الأسقف المصرى والأسقف النيقوميدى غير طيبة ، وهذان الأمران لعبا دورا لا يهمــل فى موضوع اريوس ، إلا أنهما لم يكونا جوهريين (١) . ومع أن المجمــع اتصل بأسقف الاسكندرية لكى يوافق على قرار المجمــع (السنودس) ولكى يقبل اريوس فى الخدمة . إلا أن ألكسندروس رفض هذا القرار رفضا باتا . وحالما وصلت إليه هذه الأخبار ، رأى فيها تصدعا فى وحدة الكنيسة التى هى جسد المسيح والتى يجب أن تحتــل المكان الأول فى المجامع . ولذلك فقد أرسل عددا كبيرا جدا من الرسائل الى الأساقفة شارحا لهم قضية أريوس وركز بشدة على وحدة الكنيسة .

(١) A. Harnack Hist. of Dogma vol. 4 pp. 8 [illegible]

أما أريوس فقد انتهز هذا القرار السنودسي الذى أصدره مجمع نيقوميدية في صالحه ، وعاد إلى الاسكندرية مع جماعة من أتباعه وبدأ نشاطه في الخدمة • ولقد ألف أريوس في أثناء الفترة التي أقامها في نيقوميدية كتابه المعروف «بالثالية» (THALIA)

كان أريوس كاتبا وشاعرا ، فألف بعض الترانيم العقائدية التي انتشرت بين جميع طبقات المجتمع المصرى ، وسرت العدوى ليس فقط في مصر بل في بلاد أخرى ، وتزعمها جماعة من تجار الانشقاقات والانقسامات أمثال استيريوس الذى جال في بلاد الشرق مناديا ومبشرا بالبدعة الأريوسية•(انظر نفس المرجع لعرنك من ص ١٨ — ٢٣ من المجلد الرابع ثم كتاب د • أسد رستم الجزء الأول ص ١٩٧) •

وعلى ما يظهر فإن نجم أريوس بدأ يلمع من جديد ليس فقط في مصر وفي موانى الاسكندرية حيث كان يتغنى البعض ، على الأخص الملاحون الذين كانوا يحملون ويفرغون السفن ، بالترانيم العقائدية التى كتبها أريوس والتى كان يصف فيها علاقة الآب بالابن ، بل إن شهرته امتدت إلى بلاد كثيرة فى الشرق وأصبح أتباعه وأعداده كثيرين • وبهذا فقد اتسعت شقة الخلاف واستفحلت إذ أن كلا من الجانبين حاول أن يجذب إليه العدد الأكبر وخصوصا من الأساقفة ذوى النفوذ والتأثير على المستويين السياسى والدينى • ولذلك فقد كتب كل من الطرفين رسائل عديدة وخطابات طويلة يشرح فيها عقيدته وموقفه مدعيا بأنه على حق ، وأنه لا يسلك إلا على الصراط المستقيم والايمان القويم• بل إن كلا من الطرفين رجع إلى الكتاب المقدس واقتبس آياته التى تؤيد وجهة نظره •

ولم تكن هذه المجادلات عبارة عن ثرثرة كلامية ومعارك خطابية

وهجمات عظيمة ، كما ظن الامبراطور قسطنطين ذلك ، بل إن الأمر كان أخطر من ذلك بكثير ، إذ تولدت الأحزاب وشاعت الاضطرابات • وهنا انقسمت الكنيسة ليس فى مصر فقط بين أتباع ألكسندروس الأسقف وأتباع الكاهن أريوس ، بل إن هذا الانقسام قد انتشر أيضا فى كنائس كثيرة فى الشرق كله ، بين الأساقفة وبين الشعب •

لقد ظهرت هذه الاضطرابات والانقسامات فى الكنيسة الشرقية فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الامبراطور قسطنطين يشعر بالاطمئنان الجزئى والسلام على وحدة الامبراطورية • إذ أنه بذل كل غال ورخيص للوصول الى عرش هذه الامبراطورية الرومانية وتوحيدها ، وقد وصل إلى هذا الهدف بعد موقعة خريسوبوليس التى فيها سويت الأمور بينه وبين ليكتيوس وأصبح سيدا للموقف فى سنة ٣٢٣ — ٣٢٤ • وهنا يظهر خطر جديد لتمزيق هذه الامبراطورية ، ومع أنه ظن فى بداية الأمر بأن هذه الانقسامات والاضطرابات ما هى إلا نزاعات ومعارك كلامية ، لكنه أدرك حالا أن هذه النزاعات والانقسامات تهدد سلامة الامبراطورية تهديدا جديا وخطيرا •

ومن المؤسف والمؤلم والمحزن أن هذه الانقسامات والاضطرابات ظهرت فى الكنيسة بصورة بشعة ، فأصبحت كنضال بين حزبين سياسيين، بل كحرب بين جيشين ، يقاتل أحدهما الآخر على مسمع ومرأى من الوثنيين ، الذين كانت الكنيسة تريد أن تكتسبهم وتضمهم إلى ديانة يسوع المسيح ، ديانة الحب والسلام ، وأى حب وسلام ؟ !!!

لم يقبل الامبراطور قسطنطين هذه الصورة البشعة التى ظهرت بها المسيحية•وفى حقيقة الأمر لم يكن رفضه لهذه الصورة الغيرالمشرفة

للمسيح ، نابعا من غيرته للمسيح وللمسيحية فقط بل كان يرى فى هذه الانقسامات والمعارك اللاهوتية عاملا خطيرا وهداما لوحدة الامبراطورية الرومانية . ولهذا السبب فقد استشار الامبراطور صديقه العزيز الأسقف هوسيوس (HOSIUS) ، واتفق الاثنان على أن يكتب الامبراطور شخصيا إلى كل من ألكسندروس أسقف الاسكندرية وإلى أريوس داعيا اياهما إلى ترك المجادلات العقيمة التافهة والرجوع إلى الصلح والسلام والبنيان . وحمل هذه الرسالة الأسقف هوسيوس نفسه لكى يناقش الأشخاص المعنيين بالأمر فى مشكلة الانقسام الخطيرة . وتعتبر هذه الرسالة من أهم الرسائل الدينية التى كتبها قسطنطين . (راجع HARNACK HIST. OF DOG. VOL. 4. 13 - 15)

ومع أن هذه الرسالة لم تأت بالنتائج التى كان ينتظرها الامبراطور ، إلا أن رحلة هوسيوس ومقابلته لبعض الأطراف الداخلة فى النزاع مثل ألكسندروس وأريوس ثم أسقف نيقوميدية ، قد سمحت له بأن يكون صورة متكاملة الجوانب للموقف . وهنا نظهر اقتراح عقد مجمع مسكونى فى نيقية للبت فى هذا الأمر .

ولقد تضاربت الآراء حول من هو الذى دعا لعقد هذا المجمع . فهارنك يعتقد بأن الذى أخذ مبادرة اجتماع مجمع مسكونى هو الأسقف هوسيوس نفسه (HARNACK HIST. OF DOG. VOL. 4 P. 13 - 15) إلا أن البعض الآخر يظن بأن الذى فكر فى عقد مجمع مسكونى هو أسقف الاسكندرية ألكسندروس (انظر PHILOSTROGE. HIST ECCL. 1, 7) أما المؤرخ الكنسى أسابيوس فهو يعتقد بأن الذى دعا لاجتماع مجمع نيقية هو الامبراطور قسطنطين نفسه . على أى حال لقد أمر الامبراطور بعقد هذا المجمع بعد أن ولدت فكرته .

مجمع نيقية : (LE CONCILE DE NICEE)

كما أن الآراء اختلفت على تحديد من هو الذى أخذ المبادرة لعقد مجمع نيقية ، فلقد اختلفت أيضا فى تعيين رئيس هذا المجمع العظيم ، الذى وان لم يكن أول مجمع فى تاريخ الكنيسة ، إلا أنه أول مجمع مسكونى . فلقد ظن البعض بأن الذى رأس هذا المجمع هو فستاثيوس أسقف أنطاكيا . واعتقد البعض الآخر بأن الذى رأس هذا المجمع هو الأسقف هوسيوس صديق الامبراطور ومستشاره ، وخصوصا أن اسمه كان أول الموقعين ، ورأى البعض الآخر فى أسابيوس المؤرخ الكنسى رئيسا لهذا المجمع (١) . ويتسائل هارنك قائلا : من هو الذى رأس هذا المجمع؟ أهو فستاثيوس أو أسابيوس القيصرى أو هوسيوس . لا نعلم بالضبط . إلا أنه من الواضح الجلى أن هوسيوس كان يحتل مركزا هاما جدا ، وقام بدور حاسم فى مجمع نيقية (٢) .

والأمر الذى لا شك فيه أن هذا المجمع العظيم عقد فى مدينة نيقية ورأسه أحد الأساقفة وحضر الافتتاح الامبراطور قسطنطين نفسه .

وكم كان المنظر غريبا وعجيبا ومدهشا ، بل مؤثرا للغاية عندما اجتمع هؤلاء الأساقفة وكان يعرض بعضهم على بعض التشوهات الجسدية وآثار الجروح والضربات والجلدات التى تركتها فترة الاضطهادات العنيفة القاسية.والآن كل شىء قد تغير بل إن الامبراطور نفسه حاضر معهم يأمر جيشه بحراستهم والعناية بهم .

وبدأ مجمع نيقية جلساته فى ١٩ يونيو ٣٢٥ ، ولقد اختلف

(١) انظر كتاب د. أسد رستم الجزء الأول ص ٢٠١

(٢) Harnack. Hist. of Dog. vol. 45 - 51.

المؤرخون أيضا على عدد الممثلين فى هذا المجمع . فهرنك يعتقد بأن عدد الأساقفة كان يتراوح بين ٢٥٠ — ٣٠٠ ، ثم يتعرض لخطاب القديس أثناسيوس الذى يذكر فيه بأن عدد الأساقفة ٣١٨ أسقف ، إلا أنه يقول إن هذا الخطاب تحوم حوله الشكوك (انظر HARNACK. HIST. OF DOGMA VOL. 4. 45 - 51) واحتلت كنائس الشرق فى هذا المجمع المكانة الأولى ، بل إن الأغلبية الساحقة من أعضائه جاءت من الشرق ولم يأت من الغرب إلا أربعة أو خمسة أشخاص . لم يوجد أى ممثل لكنيسة بريطانيا . وناب عن كنيسة أسبانيا شخص واحد ، كما ناب عن كنيسة بلاد الغال (فرنسا) شخص واحد كما ناب عن كنيسة روما شخصان (نفس المرجع هرنك IBID. 45 - 51) .

ويمكننا أن نلاحظ وجود ثلاثة أحزاب فى هذا المجمع :

(١) الحزب المصرى وعلى رأسه الأسقف ألكسندروس وأثناسيوس وانضم إلى هذا الحزب ممثلو الغرب وهم أقلية .

(٢) حزب أريوس اللوقيانوسيون (أتباع لوقيانوس) وعلى رأسه الأسقف أسابيوس النيقوميدى . وهذا الحزب لا يضم هو الآخر إلا أقلية من أعضاء المجمع . ولكنها أقلية متحمسة .

(٣) وأما الحزب الثالث فيمكن أن نسميه الحزب المحايد أو أتباع أوريجانوس وعلى رأسه أسابيوس القيصرى مؤرخ الكنيسة المعروف . وقد اشتهر بالعلم والاتزان والمعرفة (انظر BONIFAS 1 VOL. 1, P. 42 - 45) ، ثم هرنك (HAR. HIST. OF DOG. 4. 45 - 51) . ويقول هارنك بأن أغلبية الأساقفة الذين كانوا يمثلون الكنائس فى هذا المجمع كانوا على درجة متوسطة من العلم (IBID 50) .

هذه الصورة تعطينا فكرة : ولو جزئية عن هذا المجمع المسكونى الأول العظيم الذى نظر فى قضية أريوس وتعاليمه • ولقد بدأ رئيس المجمع بتحية الامبراطور وشكره على اهتمامه وعنايته بالكنيسة ثم دعا المجمع إلى فحص القضية التى من أجلها انعقد هذا المجمع •

فعرضت أمام الآباء المجتمعين تعاليم أريوس التى نادى بهـا ، ولقد قرأوا بعض الفصول من كتابه الذى يدعى «المثالية» لكى يقارنوا تعاليمه بتعاليم الكتاب المقدس وتعاليم الآباء •

ويعتقد البعض بأن الآباء المجتمعين فى المجمـع سدوا آذانهـم اشمئزازا ، حال سماعهم هذه التعاليم الهرطوقية (¹) واكتفوا بهـذه البينات المقروءة للحكم عليه • على أن بعض المؤرخين يظن أن المجمع طلب استحضار أريوس واستجوابه • والأمر المؤكد المحقق هـو أن مجمع نيقيه كان يضم ثلاثة أحزاب كما سبقت الاشارة • فبعد عرض القضية واتهام أريوس بالهرطقة ، قام الحزب الموالى له وعلى رأسه أسقف نيقوميدية بالدفاع عن الكاهن الليبى وعن عقيدته • وبعد جدال عنيف ونقاش طويل اقترح أسقف نيقوميدية وحزبه الذى كان يؤيـد أريوس نصا لقانون الايمان • ولكن المجمع رفض قانون الايمان الذى اقترحه الأسقف أسابيوس النيقوميدى • وهنـا تغيرت الأوضـاع ، فعندما رفض المجمع قبول قانون الايمان الذى اقترحه الأسقف أسابيوس فإنه رفض فى الوقت نفسه هرطقـة أريوس إذ أن هذا القانـون كان يحتوى على كثير من تعاليم أريوس • وجدير بنا أن نلفت نظر القارىء إلى الدور الذى قام به الشماس أثناسيوس فى هذا المجمع • فمع أن البعض يظن أن أثناسيوس لم يشترك فى المناقشات التى دارت فى مجمع

(١) انظر Saint Athanase. Epist. Ad. Epist. Aegypti 13.

نيقية ، وأن الأساقفة فقط هم الذين تفاوضوا فى هذه القضية وهم وحدهم الذين اتخذوا القرارات (١) ، فإننا نعتقد مع البعض الآخر من المؤرخين بأن الدور الذى قام به القديس أثناسيوس فى هذا المجمع كان دورا هاما جدا وحاسما (٢) .

ولقد رأى الأريوسيون فى شماس الاسكندرية مدافعا عنيدا عن الحق الكتابى وعن تعاليم الرسل والآباء ، فوهنت عزائمهم وخارت قواهم وسيطر عليهم اليأس ، ولهذا السبب فقد انضم حزب أريوس الذى فقد الأمل فى الحصول على النصر ، إلى حزب الأغلبية ، حزب أتباع أوريجانوس وهو الحزب الذى كان يتزعمه أسابيوس القيصرى . وكان هذا الحزب يعتبر حزبا محايدا وكان يضم أغلبية أعضاء مجمع نيقية .

أراد الأسقف أسابيوس القيصرى رئيس هذا الحزب أن تكون له الكلمة الأخيرة والحل المقبول المرضى من جميع الأحزاب . وكان الأسقف القيصرى يتمتع بشهرة عظيمة لمعرفته الواسعة بكتابات الآباء والتقاليد وتاريخ الكنيسة ، ولذلك فقد انتهز فرصة رفض المجمع لقانون الايمان الذى قدمه سميه ، واقترح قانونا آخر للايمان . ولقد حاز هذا القانون قبول الكثيرين فى المجمع . ولكن عند مناقشته ، ومعارضة الحزب المصرى لبعض أجزائه ظهرت الأخطاء اللاهوتية التى كان يخفيها هذا القانون ، وعلى ذلك فقد اقترح ادخال بعض التصويبات والتعديلات على قانون إيمان أسابيوس القيصرى .

وهنا قدم حزب الاسكندرية وعلى رأسه الأسقف ألكسندروس

---

(١) Bardy G., Origines de l'arianisme, Fliche et Martin.

(٢) انظر كتاب بونيفاس Bonifas الجزء الثانى ص ٤٣ — ٤٥ .

والشماس أثناسيوس قانون إيمان لا يعتبر قانونا جديدا بل هو عبارة عن توضيح وتنقيح القانون الذي اقترحه أسابيوس . ولقد ظن البعض أنه في حقيقة الأمر ، أن أسابيوس قد استوحى جوهر نص قانونه هذا من قانون إيمان كان ألكسندروس ينوي تقديمه . وعندما تعرض المجلس لمناقشة قانون الايمان الذى اقترحه أسابيوس أدخلت عليه بعض التعديلات والعبارات التي تعتبر في غاية الأهمية . فإن البعض يعتقد بأن الامبراطور قسطنطين وبايحاء من صديقه الأسقف هوسيوس، اقترح ادخال الاصطلاح (HOMOOSIOS) (١) .

وناقش المجلس قانون الايمان المنقح الذى قدمه وفد الاسكندرية والذي يشدد فيه على أن يسوع المسيح هو الابن الوحيد المولود من الآب ، أى من جوهر الآب والمساوى له فى كل الكمالات الإلهيه . كما أن الآباء تمسكوا بعقيدة أن الابن مولود من الآب ولكنه غير مخلوق . وهنا استبعدوا بطريقة واضحة وصريحة تعاليم الأريوسية التي كانت تنادى بعدم مساواة الابن للآب ، وأن الابن مخلوق كباقي الخلائق . ولقد اعترض أتباع أريوس على ادخال الاصطلاح « هوموسيوس » أى الابن من جوهر الآب (LE FILS EST CONCUBSTANTIEL DU PERE) وقالوا إن هذه العبارة لا توجد في الكتاب المقدس وغريبة عليه ، وبناء على ذلك يجب رفضها . ولكن أثناسيوس وأتباعه ردوا على هذا الاعتراض بالقول إنه صحيح أن هذا الاصطلاح غير موجود حرفيا في الكتاب المقدس لكنه معنويا مأخوذ من الكتاب ، وانظر (BONIFAS VOL. 2 P. 43 - 45) وأن الكتاب المقدس يتكلم على أن الابن خارج من جوهر الآب وبناء على ذلك فإن كان هذا الاصطلاح

(١) هوموسيوس كلمة يونانية تعنى بأن جوهر الابن من جوهر الآب أى أنهما متساويان في الجوهر ، انظر كتاب Harnack. Hist. of Dog. Vol. 4. 50 - 54

غريبا على الكتاب لفظيا ولكنه مستوحى منه معنويا .

وبعد نقاش طويل استقر الرأى على قبول قانون الإيمان المنقح ، وهو كالآتى :

«نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق كل الأشياء ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الآب ، المولود الوحيد ، أى من جوهر الآب ، إله من إله ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء فى السماء وعلى الأرض ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسد وتأنس وتألم وقام أيضا فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء . وسيأتى من هناك ليدين الأحياء والأموات . وبالروح القدس . وأما الذين يقولون إنه كان زمان لم يوجد فيه وإنه لم يكن له وجود قبل أن ولد وإنه خلق من العدم أو إنه من مادة أخرى أو جوهر آخر أو إن ابن الله مخلوق أو إنه قابل التغيير أو متغير فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية » (١) .

ووافق مجمع نيقية على قانون الايمان هذا ، ووقع عليه المجتمعون حتى الأريوسيون أنفسهم إلا أسقفان مصريان هما ثيوناس وسكوندس ، ثم حكم بهرطقته تعاليم أريوس .

وبما أن الامبراطور كان يسعى من وراء هذا المجمع إلى وحدة الامبراطورية ، فقد أمر بحرق كتب أريوس ونفيه (٢) .

---

(١) انظر كتاب علم اللاهوت : صدر عن دار الثقافة المسيحية ــ الفجالة ــ القاهرة . ص ١٧٠ وقانون الايمان المستعمل حاليا فى الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية مذكور فى ص ١٧٣ من نفس الكتاب المذكور أعلاه .

(٢) Harnack. Hist. of Dog. vol. 4 p. 54 - 59

إن هذا المجمع يعتبر حدثا تاريخيا هاما جدا فى تاريخ العقيدة المسيحية لأنه فى هذا المجمع تقرر مسكونيا أن الابن مساو للآب فى الجوهر . كما أن هذا المجمع يعتبر أيضا مجمعا تاريخيا هاما بالنسبة لكنيسة الشرق بنوع عام وبالنسبة لكنيسة مصر بنوع خاص ، إذ فيه استطاع أسقف الاسكندرية ألكسندروس وشماسه التقى المتحمس مع كل الوفد المصرى إعلان الحق الالهى ، والتمسك به والدفاع عنه . وهارنك يشير الى هذه الدقيقة بالقول : « لقد كان مجمع نيقية الخطوة الأولى التى اتخذها أسقف الاسكندرية ، والذى به أظهر أولوية الشرق على الغرب (١) .

لقد قرر مجمع نيقية بأن قانون الايمان الذى أصدره هو القانون المعبر عن الايمان المسيحى الحقيقى . وبناء على ذلك فمن يخالف تعاليم هذا القانون يخالف الايمان المسيحى ويجب حرمه . ولذلك فقد حرم المجمع أريوس وأتباعه ، ونفى مع بعض مؤيديه أمثال أسابيوس النيقوميدى وثيوغونيوس النيقى .

وعندما حرم هذا المجمع المسكونى أريوس وأتباعه ، تنفس الامبراطور قسطنطين الصعداء وظن أن الخطر الذى كان يهدد الامبراطورية من الناحية الدينية قد انزاح . كما أن الكنيسة وخصوصا كنيسة مصر شعرت بأن هذا العقاب الذى أنزل بأريوس ومشايعيه عقاب إلهى ، فقد انتصرت الكنيسة فأبواب الجحيم لن تقوى عليها . ولكن للأسف الشديد فإن كثيرين من الأساقفة والآباء الذين اشتركوا فى أعمال هذا المجمع عادوا الى أبرشياتهم وكنائسهم وبدأوا من جديد ينادون بالتعاليم التى كانوا يعلمون بها من قبل هذا المجمع المسكونى . ولقد سبب هذا الأمر اضطرابات كثيرة ومعارك كرستولوجية جديدة ، واجتماعات محلية ومسكونية . فلم يستطع إذن مجمع نيقية أن يحل المشكلة حلا

(٢) Harnack Hist. of Dog. vol. 4. p. 59

نهائيا ، وظلت وستظل نبوة سمعان الشيخ نافذة المفعول : « ... ها إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى اسرائيل ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) .

بعد هذا العرض التاريخى العاجل الذى من أجله اجتمع مجمع نيقية، يحسن بنا الآن أن نلقى نظرةعلى تعاليمأريوس الخاصةبشخص المسيح. وبما أن بحثنا مركز على شخص المسيح يسوع على مر العصور ، فاننا نطرح على أريوس نفس السؤال الذى سأله السيد لتلاميذه فى قيصرية فيلبس : « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان » ؟ (متى ١٦ : ١٣) .

لقد حاول أريوس الليبى أن يجيب هو أيضا على سؤال السيد ، فما هو جوابه ؟

تعاليم أريوس الكرستولوجية (تعاليم أريوس الخاصة بشخص المسيح):

ماذا رأى أريوس فى يسوع المسيح الناصرى ؟

كان المعلم الليبى خطيبا مفوها وواعظا مشهورا ، استطاع بأسلوبه السلس وعلمه الواسع أن يجتذب الكثيرين الى كنيسة بنكاليس التى كان يرعاها فى الاسكندرية . كما أنه استطاع بمهارة ولباقة أن يهاجم فى بداية خدمته الرعوية تعاليم سابليوس التى قاومتها بشدة كنيسة الاسكندرية. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى ، التف حوله جماعة من الرهبان والراهبات ومن الشعب الذين أعجبوا فى بداية الأمر بوعظه وتعاليمه التى كان يهاجم فيها عقيدة سابليوس الهادمة للثالوث . ولكنه عندما بدأ الوعظ والتعليم عن الابن . فقد انزلق كما انزلق قبله الكثيرون ، إلا أن سقوطه كان عظيما . فكما سبقت الاشارة أنه أراد فى بداية الأمر أن يهاجم عقيدة

سابليوس التي لا تعترف بوجود أقانيم فى الثالوث ، فحاول أن يشرح الاختلاف والتمييز الموجود بين الآب والابن وأنهما ليسا شخصا واحدا كما علم بذلك سابليوس بل أن الابن يختلف اختلافا كليا وجزئيا عن الآب ، فهو يؤمن بأن الله وحده هو الاله الواحد الغير المولود والأزلى ، موجود بذاته وبدون تدخل أى سلطان آخر . وأما عقيدته فى الابن فيمكننا أن نلخصها فى الآتى :

١ ـ إن الابن ليس أزليا إذ أنه يوجد وقت ما لم يكن الابن موجودا فيه ، فمع أن الابن موجود قبل وجود الخليقة ، وهذه الأخيرة قد أوجدت به ، إلا أنه غير أزلى .

٢ ـ إن الابن غير أزلى وهـو خليقة الله الآب مثل كل الخـلائق الأخرى ، إلا أنه سابق لها .

٣ ـ الابن ليس من جوهر الآب بل من جوهر آخر فقد خرج مـن العدم بحسب مشيئة الله وقصده .

٤ ـ الابن متغير وليس ثابتا .

٥ ـ إن معرفة الابن للآب محدودة وليست مطلقة ولا يستطيع أن يعلن لنا الآب بطريقة كاملة .

٦ ـ إن الله الآب قد خلق الابن لأجلنا لأنه عندما أراد أن يخلصنا فقد خلق كائنا يدعى الكلمة أو الحكمة لكى نكون على صورته . فلو لم يرد الله خلق الخليقة لأصبح وجود الابن مستحيلا .

٧ ـ إن المسيح الذى يتعبد له المسيحيون ليس إلها ولا يملك الصفات الالهية المطلقة مثل : كلى القدرة ، كلى العلم ، كلى الحكمة وعديم التغير ، أزلى ... الخ .

٨ ـ وبناء على ذلك فهو ليس إلها بذاته ومن ذاته ولكنه ارتقى إلى

هذه الدرجة عن طريق رفع الله الآب له (١) .

ويعتقد أريوس بأن الروح القدس هو أيضا أدنى من الابن وهو مخلوق أيضا (انظر HARNACK. PRECIS DE L'HIST. 180 - 181) .

ولقد حاول هرنك أن يلخص عقيدة أريوس فى نقطتين هامتين :

(١) كان أريوس يرى فى الله الآب إلها عظيما ساميا نائيا وبعيدا عن البشر وعن كل المخلوقات . وكان هذا الاله السامى يريد الاقتراب من هذه الخليقة .

(٢) فخلق الكلمة أى المسيح الذى هو أول كل الخليقة والذى أصبح عن طريق النعمة الممنوحة له من الله ، ثم عن طريق مثابرته وسعيه نحو الكمال إلها . فقد نال درجة اللاهوت بالتبنى (انظر هرنك HIST. OF DOGMA VOL. 4. P. 40 - 50)

مع أن أريوس كان يعتقد بأن الابن قد احتل أسمى مكان ووصل الى أعلى درجة فى الارتفاع ، إذ أنه قد أعطى كل سلطان وله تسجد كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب (ف ٢ : ١٠) ، إلا أنه كان يعتقد أيضا بأن هذا السمو الذى وصل اليه الابن وهذا المجد الذى كلل به ، وهذه العظمة التى عظم بها ، كل هذه ما هى إلا هبة وعطية من الله الآب للابن ، لأنه هكذا مسرة الآب .

---

(١) انظر الكتب الآتية :

Harnack Précis de l'histoire 179 - 185.
Harnack. Hist. of Dog. vol. 4. 23 - 50.
M. E. Haag. Hist des Dog, Chnè Pre Parties 148 - 151.
Bonifas. Hist. des Dog. vol. 2. 37 - 40.
وعلم اللاهوت النظامى — دار الثقافة المسيحية ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

ولقد وصل أريوس الى درجة القول بأنه يمكن أن نقول إن الابن هو الله أو إله أو حتى إله قوى ... الخ (انظر HARNACK. HIST. OF DOG. VOL. 4. 18 - 20) .

وقد يبدو للقارىء أنه يوجد تناقض ظاهر فى كلام أريوس هنا وفيما ذكرناه سابقا عندما قلنا بأنه يؤمن « بأن المسيح الذى يتعبد له المسيحيون ليس إلها ولا يمالك الصفات الإلهية المطلقة مثل كلى القدرة ، كلى العلم ، كلى الحكمة وعديم التغير ... الخ » .

ولكن فى حقيقة الأمر لا يوجد أى تناقض فى عقيدة أريوس . وهنا تكمن الهرطقة . فهو يعتقد بأنه يمكن القول بأن الابن هو إله ، بل وإله قوى ... ولكن هذا الاله القوى العظيم الذى ارتفع فوق كل رياسة وسلطان ، قد وصل الى هذه الدرجة ليس لأنه عظيم وسام وإله منذ الأزل أو لأنه هو نفسه مصدر كل سمو وعظمة وسلطان ، بل لأن الآب الذى خلقه وجعله بكر كل خليقة قد منحه هذه العظمة وهذا السلطان . فالمسيح الذى يتعبد له المسيحيون ليس إلها ، بمعنى أنه لم يكن إلها منذ الأزل ولم يكن موجودا منذ الأزل ، بل إن الله قد خلق هذا الابن فى زمن معين ثم تبناه ورفعه معطيا له اسما فوق كل الأسماء، ودرجة تفوق كل الدرجات . فعن طريق هذا التبنى وعن طريق هذه الرفعة التى وصل إليها الابن بعد أن رفعه الآب يمكن أن ندعوه إلها .

على أن الابن لم يكن البتة ، لا من الأصل ولا بالطبيعة ، إلها . فجوهر الابن يختلف الاختلاف الكلى والجزئى عن جوهر الآب . ولذلك فقد رفض أريوس الاصطلاح الذى استعمل فى مجمع نيقية عن مساواة جوهر الآب بجوهر الابن وهو (HOMOOSIOS) « متساو فى الجوهر » . فالله الآب شىء والابن الذى أصبح عن طريق التبنى إلها شىء آخر .

ويقول هرنك إن تعاليم أريوس انتشرت بسرعة فى المعهد القسطنطينى بين الوثنيين المتعلمين وأنصاف المتعلمين الذين انضموا إلى الكنيسة فى ذلك الوقت ، لأنها كانت تتفق الى حد كبير مع بعض الأفكار الوثنية التى تنادى بأن الله واحد سام ولا يمكن مقارنته بأحد ، والذى عنه خرجت عدة آلهة (انظر هرنك HIST. OF DOGMA VOL. 4. 40 - 50) .

فأريوس إذن يرفض مساواة جوهر الابن بجوهر الآب . والآب وحده هو الله الأزلى ، الذى لا يمكن مساواته بأحد . ولكى يدعم حجته ، فقد رجع الى الكتاب المقدس فاقتبس عدة نصوص منها : « انظروا الآن . أنا أنا هـو وليس إلـه معى ... » (تث ٣٢ : ٣٩ ، ٦ : ٤ ، أم ٨ : ٢٢ ، مز ٤٠ : ٨) .

ومفهوم أريوس للتبنى يختلف أيضا عن مفهوم الكنيسة ، فهـو يدعو يسوع ابن الله ولكن هذا التبنى لا يعنى أن الابن خرج من جوهر الآب ، وبالتالى فهو مساو له فى القدرة وفى الجوهر ، بل ان الله قد تبنى الابن كما يتبنى شخص طفلا . فهذا الأخير يصير ابنا شرعيا ووارثا لـه ولكنه يختلف عن الآب فى الجوهر ، فالابن وصل الى درجـة التبنى عن طريق الاعلان الالهى : أى أن الله تبنى يسوع المسيح فأصبح ابنا بالتبنى وليس بالطبيعة .وهنا نلاحظ أن أريوس سلك نفس الطريق الذى سلكه البنويون (LES ADOPTIONISTES) . ولكى يؤيد فكرته هذه رجـع أيضا الى الكتاب فاقتبس (لو ٢ : ٥٢ ، ٣ : ٢١ ــ ٢٢) . ولكى يثبت أيضا أن الله قد رفع يسوع الى درجة سامية ، اقتبس النصوص الآتية : (أ ع ٢ : ٣٦ ، ١ كو ١٥ : ٢٨، فى ٢ : ٦ ــ ١١ ، عب ١ : ٤ ، ٣ : ٣). كما أنه رجع الى الكتاب أيضا عندما حاول اثبات أن الابن قد خلق وكان بكر كل خليقة : « الذى هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة » (كو ١ : ١٥) ، ولكى يبين أن الآب أعظم من الابن رجع الى يوحنا (١٤ :

٢٨) : « لأن أبى أعظم منى » ، ولكى يبرهن على أن الابن كان يضطرب ويخاف عوخاضعا للطبيعة البشرية اقتبس (يو ١٢ : ٢٧ ، ١٣ : ٢١ ، متى ٢٦ : ٣٩) •

من هذا يتضح بأن أريوس كان لا يؤمن بأزلية الابن ولا بمساواته فى جوهر الآب ، ولهذا السبب فان قانون الايمان النيقوى شدد على هذه النقطة معلنا أزلية الابن ومساواته لجوهر الآب • فهو يقول : « نؤمن بإله واحد ••• وبرب واحـــد يسوع المسيح ابن الله المولود من الآب المولود الوحيد أى من جوهر الآب ••• مولود غير مخلوق مســاو للآب فى الجوهر ••• »

والخطأ الذى وقع فيه أريوس والذى وقع فيه الكثيرون أيضا ، هو أنه اعتبر الآيات التى تتكلم عن ناسوت الابن ، كما لو كانت تتكلم عن شخص الابن كليا وجزئيا • ولقد غاب عن ذهنه أن هذا الانسان يسوع الناصرى ابن مريم الذى ولد وعاش وتألم وجاع وعطش ثم فى نهايـــة المطاف صلب ومات ثم قام من الأموات ، هو نفسه الذى يقول عنه يوحنا : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) « ••• قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن » (يوحنا ٨ : ٥٨ ، ١٧ : ٥ ، رؤا ١ : ٨ ، ٢٢ : ١٣) •

والآيات التى سمى الابن فيها بأسماء إلهية كثيرة وعديدة (منهـــا ما جاء فى يو ١ : ١ ، ٢٠ : ٢٨ ، أع ٢٠ : ٢٨ ، رو ٩ : ٥ ، ٢ تس ١ : ١٢ ، تى ٣ : ١٦ ، عب ١ : ٨ ، ١ يو ٥ : ٢٠ ، اش ٩ : ٦ ، مت ١ : ٢٣) •

ولقد ادعى أريوس بأن الابن محدود العلم ، ومما لا شك فيه أن ابن الانسان ــ يسوع الناصرى ــ الناسوت محدود العلم ، ومحدود المعرفة

والقوة،إذ أنه كان ينمو بطريقة طبيعية وعادية كما ينمو ويكبر أى طفل آخر . (لو ٢ : ٥٢ ، مر ١٣ : ٣٢) . إلا أن هـذا الانسان ـ يسـوع الناصرى ـ لم يكن مجرد يسوع الناصرى فقط ، بل كان «الله الذى ظهر فى الجسد» ، هذا هو السر العظيم الذى يفوق كل ادراك . إذ أنه «عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد» (١ تيمو ٣ : ١٦) . فكل ما رآه أريوس هو الجسد والجسد فقط . ولم يستطع أن يرى الله الذى كـان ساكنا فى الجسد ... وفى هذا الجسد كان الله ، كان اللوغوس الذى يرى كل شىء ويعلم كل شىء . فهو يقول عن نفسه : « كل شىء قد دفـع إلى من أبى وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن اراد الابن أن يعلن له » (مت ١١ : ٢٧ ، لو ١٠ : ٢٢،يو ٢: ٢٣ ـ ٢٥، يو ١ : ٢٧، رؤ ٢ : ١٣) . كل هذه الآيات تثبت أن المسيح كان يتمتع بمعرفة كاملة شاملة ليس فقط لمـا سيحدث ، بل كان يعرف نفسه كما يعرف الآب معرفة جيدة . ولذلك فهو الوحيد الذى يستطيع أن يعلن هذا السر ويعرفنا بالآب . فهو ليس كما يدعى أريوس بقوله : « إن معرفة الابن للآب محدودة وليست مطلقة ، ولا يستطيع أن يعلن لنا الآب بطريقة كاملة » . وكما أن المسيح كان يتمتع بمعرفة كاملة عـن نفسه وعن الآب فهو كان يتمتع أيضا بقدرة غير محدودة (عب ١ : ٣ ، رؤ ١٠ : ١٨ ، ١١ : ١٧) .

ويكفى أن نلقى نظرة ولو سريعة على حياته ومعجزاته ، فهى خير دليل على قدرة ذاك الذى تعجب التلاميذ من قدرته : « فخافوا وتعجبوا قائلين فيما بينهم من هو هذا . فإنه يأمر الرياح أيضا والمـاء فتطيعه » (لو ٨ : ٢٥) .

إن الشواهد الكتابية التى تشير الى لاهوت وناسوت المسيح كثيرة وعديدة ، يعوزنا الوقت لو حاولنا أن نقتبسها كلها . ولقد رجع إليها آباء الكنيسة فى رفضهم للهرطقات التى ظهرت فيها . وإن ألكسندروس أسقف

الاسكندرية كان واعيا كل الوعي ومدركا كل الادراك لخطورة الهـرطقة الأريوسية . وكما يقول عنه هرنك إنه كان يعتبر أن هذه الهرطقــة من أبشع الهرطقات التي عرفها التاريخ المسيحي ، إذ أنهـا هرطقة ضـد المسيح ... وأن أريوس وأتباعه أعداء الله ... وقاتلو لاهوت المسيح (انظر هرنك HIST. OF DOG. VOL. 20 - 23) .

إن أريوس لم يكن الأول ولن يكون الأخير الذي يهاجم عقيدة لاهوت الابن . فحتى بعد موته سـيقوم أريوسيوس كثيرون ينهجون منهجـه ويسلكون في نفس الطريق الذي سلك فيه ، وينادون بتعاليمه بل ينادون بتعاليم أخرى أكثر ضلالا ... ويهاجمون التعاليم الصحيحة ، وهكذا لا نقول إن الكنيسة تنقسم من جديد ، بل نقول إنها تستمر في انقسامها الى أحزاب وجماعات ، ينهش بعضها بعضا .

ولكن الذي يطمئن قلب المؤمن هو أن رب الكنيسة وعد أن يكون فيها ويقودها الى الشاطىء الآمن . وهذه الهجمات ما هي إلا أمواجا ، وحتى وإن كانت أمواجا عاتية قوية ، وتستمر طويلا في لطمها لهذه السفينة ، فإنها تلطم صخرة راسخة قوية . إنها تلطم صخرة راسخة قـوية فلا تزحزحها من مكانها قيد أنملة ، بل تتمزق عليها فلا يبقى لها قوة ولا أثر لأنه مكتوب : « الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية... ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » (مت ٢١ : ٤٢) ، « أبواب الجحيم لن تقوى عليها » (مت ١٦ : ١٨) .

بعض المراجع التى تعالج موضوع أريوس ومعتقداته والنزاع النيقوى :

1. Francois Bonifas. Histoire des dogmes de l'eglise Chrétienne. Tome 2. pp. 36 - 50. ذكر سابقا
2. A. Grillmeier. Le Christ dans La Tradition Chrétienne.... pp. 215 - 225. ذكر سابقا
3. Bardy. Origines de l'arianisme. Fliche et Martin. 3 : 69 - 83.
4. Bardy. Recherches sur Saint Lucien d'Antioche et son école. Paris 1936.
5. H. M. Gwatkin. Studies of Arianisme, Cambridge 1900.
6. Epiphane, Ancoratus 33, 4 : ed. K. Holl. Ges 1, 42. pG 43, 77AB.
7. Sozomène. Hist., Eccl. 1, 15.
8. Philostorge, Hist. eccl., 2, 2, 1, 7.
9. Eusèbe vit. Con., 3., 7.
10. Theodoret. His Eccl. 1, 8.
11. Harnack. Hist of Dog. translated from the third German edition by E. B. Speirs D. D. and James Miller B. D. Volume 4 p.p. 15 - 50.
12. A. Harnack. Precis de L'histoire Traduit par E. Choisy. Paris Librairie Fischbacher Societe anonyme 33 rue de Seine 1893. p.p. 176 - 194.
13. M. E. Haag. Hist., des Dogmes Chretiens 1re partie p.p. 148 - 152.

(١٤) علم اللاهوت النظامى ــ دار الثقافة المسيحية ــ الفجالة القاهرة ص ٢٨٣ ــ ٣٥٥ .

(١٥) شرح أصول الايمان ، تاليف د. ق. اندراوس واطسون والدكتور القس ابراهيم سعيد . دار الثقافة المسيحية ــ القاهرة ص ٤٦ ــ ٥٠ ، ١٤٧ ــ ٢١٠ .

(١٦) الدكتور أسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكيا العظمى ــ الجزء الأول ص ١٩٣ ــ ٢٠٣ .

الفصل الرابع عشر

القديس أثناسيوس

ATHANASE

إن السؤال الأول الذى يخطر على بالنا بعد هذا العرض العقائدى التاريخى الموجز لمشكلة اريوس هو الآتى : ماهو موقف الأساقفة والآباء بعد مجمع نيقية ؟ هل استطاع الأساقفة والآباء المناداة والتعليم بالقرارات التى اتخذها مجمع نيقية ؟

لقد انفض هذا المجمع بعد أن نظر أيضا فى بعض القضايا الأخرى التى كانت تشغل آباء الكنيسة . على أن القضية العظمى والمشكلة الكبرى كانت قضية أريوس وأتباعه ، الذين علموا بتعاليم لا تتفق وروح الكتاب ولذلك فقد تقرر فى هذا المجمع قبول قانون الايمان الذى يعلم بأزلية الابن وأن جوهره مساو لجوهر الآب ، ولا يوجد أى اختلاف فى جوهر الاثنين (HOMOOSIOS)

وعندما قبل مجمع نيقية الاعتراف بأزلية الابن ومساواته فى جوهر الآب ، فقد اعترف ، بل أعلن جهارا انتصار الأرثوذكسية[1] التى كان يتزعمها كل من أسقف الاسكندرية ألكسندروس وشماسه العظيم

(١) كلمة أرثوذكس تعنى ذى الرأى المستقيم .

أثناسيوس • ولقد أراد الامبراطور أن يستأصل الداء من أصله فأمر يحرق كتب أريوس (أنظر هرنك HIST. OF DOG. VOL. 4. 55 - 60) حتى يتجنب « المماحكات » العقائدية التى تؤدى الى الانقسامات والأضطرابات السياسية فى الامبراطورية • ثم أمر بنفى اريوس وأتباعه واعتبارهم ألد أعداء المسيح • وهنا شعر الأرثوذكسيون بانتصار عظيم، لايفوقه انتصار • وكيف لا يشعرون بانتصار عظيم • ومجمع نيقية قد سحق الهرطقة التى كانت تهدد الكنيسة كلها • كما أن الامبراطور شعر أيضا بالاطمئنان على سلامة الامبراطورية ووحدتها وأن خطر الانقسام قد زال وأن شبح المعارك الحزبية قد انزاح •

هذه هى انطباعات الامبراطور وانطباعات الكثيرين من الأساقفة الأرثوذكسيين بعد قرارات مجمع نيقية •

ولكن للأسف الشديد كانت الحقيقة الواقعة تختلف الاختلاف كله عن القرارات السنودسية والمجمعية • فقد رجع الأساقفة بعد مجمع نيقية الى ابرشياتهم والقسوس الى كنائسهم ، وبدأ كل منهم يعلم ماكان يعلم به قبلا•بل إن البعض تطرف فى الهرطقة التى•فاقت هرطقة أريوس نفسه • فمع أن أريوس وبعض أتباعه نفوا،إلا أن الأريوسية بنت عشها فى حدائق كثيرين من الأساقفة والرعاة •

وهكذا بدأت غيوم الانشقاق تصعد من جديد فى جو الكنيسة ، فعكرت صفاءها وشوهت شهادتها ، وحجبت عنها جزئيا شمس البر والتمتع بنوره ، فإن الأحزاب التى كانت فى مجمع نيقية ، ظهرت من جديد بعد هذا المجمع ، واستأنفت نشاطها مستغلة كل الوسائل للوصول إلى نشر تعاليمها وهدم تعاليم الأحزاب الأخرى •

ويرجع السبب فى ذلك الى تأثير أم الامبراطور هيلانة وأخته

قسطنطينـــة وحاشيتهما الاكليريكية ، فان أم وأخت الامبراطور كانتا أريوسيتين •ولذلك فقد عملت هيلانة على اقناع قسطنطين بأن أريوس واتباعه أبرياء ولا يستحقـــون : بأية حال هـــذا الحكم القاسى ، ومن الواجب النظر فى قضيته مرة أخرى لانصافه واصلاح هـــذه الغلطـــة المشيمه • واقد استطاعت بالحاحها ولجاجتها على الامبراطور أن تؤثر عليه لكى يرجع أسابيوس أسقف مدينة نيقوميدية الى أبرشيته ، وفعلا رجع أسابيوس الى أبروشيته فى سنة ٣٢٨ (انظـــر كتـــاب بونيفاس TOME 2. 77 - 50 كتاب هرنك HIST. OF DOG. VOL. 4. 62 - 66 ثم كتاب الدكتور أسد رستم الجزء الأول ص ٢٠٧) •

وعندما رجـــع الأسقف النيقوميدى الى أبروشيته ، بدأ نشـــاطه ونفث سمومه ضد تعاليم مجمع نيقية ، على أنه بدأ ينفث سمومه هذه بطريقة خفية وغير مباشرة • وكان أسابيوس يتمتع بسلطة عظيمة وتأثير قوى على الحاشية الامبراطورية • ولذلك فقـــد استطاع عن طـــريق دبلوماسيته المحكة ، ومكره ومراوغته ، ثم استغلاله لنفوذه وعلاقاته ببعض الشخصيات فى البلاط ، وخصوصا أخت الامبراطور التى أوصت أخاها قبل موتها باصلاح الغلطة التى ارتكبت فى مجمع نيقية فى الحكم الغير العادل الذى صدر ضد أريوس ، لقد استغل أسابيوس النيقوميدى كل هذه الطرق لاثبات براءة أريوس وإعادته الى منصبه • ولذلك فقد قدم أسابيوس مع بعض الأساقفة قانون إيمان يدل ظاهره على الأرثوذكسية التى لا غش فيها ، والتمس من الامبراطور العفو عن أريوس لأن هـــذا القانون الذى قدم هو قانون إيمان أريوس الذى يشرح فيـــه إيمانـــه وعقيدته فى شخص الابن ، وهو قانون سليم وأرثوذكسى ولا تشـــوبه شائبة ، بحسب الظاهر • عندئذ أصدر الامبراطور قسطنطين أمره بارجاع أريوس الى كنيسته ، وطلب من أسقف الاسكندرية اعادته الى منصبه •

كان الأسقف ألكسندروس العجوز الذى وصفه البعض بالضعف ، قد رحل الى عالم الأبدية ، وخلفه فى الجلوس على كرسى الأسقفية فى الاسكندرية الشاب التقى الورع المملوء غيرة وحماسة الشماس أثناسيوس الذى نصب أسقفا لهذه المدينة العظيمة يوم ٨ يونيو سنة ٣٢٨ •

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل حياة هـذا القديس البطل العظيم الذى كرس حياته لخدمة الرب ومجده ، لأن هذا الأمر يحتاج وحـده لمجلد ، وكم يكون مفيدا ونافعا أن يكرس شخص من الدارسين وقتـا ليكتب بحثا عن حياة وجهاد القـديس أثناسيوس • فقـط نشير بأن أثناسيوس ولـد حوالى ٢٩٦ ثم رسم شماسا فى سـنة ٣١٩ وارتقى الأسقفية فى سنة ٣٢٨ • ولم يصل أثناسيوس الى هذه الدرجة بسهولة وبلا مقاومة ، فمع أنه كان محبوبا من الشعب ومذكى منه كل التذكية ، إلا أنه قد وجدت حفنـة من الكهنة وعلى رأسـهم ملاتيوس فى عهـد ألكسندروس ، ثم يوحنا أرتف فى عهده لم يوافقوا على تنصيبه أسقفا وقاوموه كل المقاومة • وتداخلت عناصر أجنبية فى المقاومة ضد الأسقف الجديد • فإن أسابيوس أسقف نيقوميدية كان يعتبر أثناسيوس خصما قويا عنيـدا يجب التخلص منـه بأية وسيلة ممكنة حتى يستطيع نشر الأريوسية فى الشرق • وكان متأكدا من أن ارتقاء أثناسيوس الشـاب الغيور التقى لعرش أسقفية الاسكندرية يعنى القضاء العاجل المؤكد على الأريوسية • ولهذا فقد عمل على إثارة الفتن وتكوين الأحزاب واشـعال نار العـداء بين أثناسيوس وبين بعض الـكهنة المصريين • ويظـن أن أسابيوس لـم يكن بريئا من حياكة التهمة التى اتهم بها يـوحنا أرتف أثناسيوس لدى الامبراطور قسطنطين • فان يوحنـا أرتف قد اتهـم القديس أثناسيوس بأنه فرض الضرائب على المؤمنين وأنه قد أمر بكسر كـأس الأفخارستية الذى كان يستعمله الكاهن اسخيراس •

ولم يترك الامبراطور هــذا الأمر بلا تحقيــق فاستدعى أسقف الاسكندريه وأظهر هذا الأخير براءته، وأكاذيب الكاذبين المحتلين، فرجع الى أبروشيته فى سنة ٣٣٢ كريما شريفا مرفوع الرأس .

وعندما فشلت هذه المؤامرة الرخيصة ومؤامرات أخرى ، لم يفشل أعداء الأسقف الأمين المجاهد فى ايجــاد حيلة أخرى ، وكانت الفرصة الذهبية لنصب هذا الشرك لاصطياد النسر القوى ، هو أمر الامبراطور بارجاع أريوس الى مركزه فى الاسكندرية . فان أعداء أثناسيوس كانوا يعلمون يقينا أنه لا يمكنه أن يقبل هذا القرار الامبراطورى ولن يخضع له . وفعلا فان رجل الله العظيم لم يخش الامبراطور وسلطانه ، بــل خضع لمــا أملاه عليه سيده فى روح الصلاة والتعبد (أع ٤ : ١٩ — ٢٢). ولذلك فقد رفض أمر الامبراطور ولم يقبل أن يرجع أريوس الى الخدمة المقدسة ، وهو يعلم بأنه ثعلب مفسد للكروم وأن مؤيديه ذئاب خاطفــة لا تشفق على الخراف .

ولقد انتهز أعداء أثناسيوس هذه الفرصة وعقدوا مجمعا للنظر فى أمر عودة أريوس للخدمة .

مجمــع صــور :

اجتمع هذا المجمع فى صــور فى سنة ٣٣٥ تحت رئاســة الأسقف أسابيوس القيصرى مؤرخ الكنيسة (انظر هرنك HIST. OF DOG. VOL. 4. 62 - 66 ولقد جاء أثناسيوس من الاسكندرية مع خمسين أسقف لحضور هذا المجمع (السنودس) ، ولكن الوفد منع من الدخول الى المجمع بحجة أن الوفد المصرى غير مدعو للاشتراك فى أعمال المجمع

(انظـــر كتـــاب JEAN MARIE LEROUX. ATHANASE D'ALEXANDRIE P. 21) . إلا أنه يحتمـل أن أثناسيوس حضر جزءا من هذا المجمع .

وكنا ننتظر أن يكون موضوع البحث فى هذا المجمع (السنودس) الذى عقد فى ذلك الوقت بالذات هو مشكلة العقيدة والتحقق من قانون إيمان أريوس والتأكد من صحته وسلامته . وهل قبل أريوس فعلا قانون الايمان النيقوى الذى رفض الاعتراف به فى سنة ٣٢٥ ، أم مازال مصرا على اعتقاده الشخصى فى ابن الله ؟ فان المجمع (السنودس) لم يتعرض البتة لبحث أية مشكلة لاهوتية فى اجتماعه هذا ، بل إن البحث فيه كان مركزا على النظر فى الاتهامات المقدمة ضد أسقف الاسكندرية ، وكانت هذه الاتهامات كثيرة وعديدة . ولكنها كانت كلها أيضا أكاذيب وافتراءات مصطنعة ضد أسقف الاسكندرية . فمن ضمن هذه الاتهامات التى حاولوا الصاقها به هى : أنه أمر بقتل أحد الأساقفة المصريين المعارضين لسياسته وهو الأسقف أرسينوس (ARSENIOS) ، ولقد أحضر أحد الشهود ذراعا مملحا وادعى بأنه ذراع الفقيد أرسينوس . وعندئذ تقدم اثناسيوس وسأل قائلا من منكم يستطيع أن يقسم بأنه يعرف أرسينوس جيدا وأن هذا الذراع ذراعه ؟ فتقدم بعض الأساقفة وأقسموا بأنهم يعرفونه جيدا ، وأن هـذه ذراعه . فطلب أثناسيوس السماح لشاهد بالدخول ، وعندما دخل هذا الشاهد كانت الدهشة عظيمة وخيبة الأمل كبيرة ، لأن هذا الشاهد لم يكن إلا أرسينوس نفسه بذراعين سليمتين .

وبالرغم من فشل هذه الحجة فشلا ذريعا مخجلا فقد أصر بعض أعضاء هذا المجمع على الوصول الى الهدف الذى من أجله قد اجتمعوا ، وهى إدانة أثناسيوس وخلعه من الكرسى . فاتهموه باتهامات أخـرى

رخيصة لا أساس لها ، مثل أنه أمر بكسر كأس الأفخارستيا الذى كان يستعمله الكاهن أسخيراس أحد معارضى أثناسيوس ، كما أتهم أيضا بأنه على علاقة غير شريفة بأمرأة سيئة الأخلاق (١) ولكنهم لم يستطيعوا تقديم الدليل على أية حجة من هذه الحجج(٢) •

وعندما أدرك القديس أثناسيوس أن هدف المجمع ليس هو البحث عن الحقيقة بل أن يصدر حكما تعسفيا ضده ، فقد انطلق الى الامبراطور سرا لكى يرفع دعواه اليه • وانتهز المجمع هـذه الفرصة فحكم على أثناسيوس غيابيا ، ثم أريوس وحكم بارجاعه الى مركزه •

وطلب أثناسيوس مقابلة الامبراطور إلا أن هـذا الأخير رفض المقابلـة • وفى اصراره وعنـاده المقـدس انتهز فرصـة خـروج الامبراطور للنزهة وعرض عليه قضيته ، وتظاهر الامبراطور باجـراء العدل فطلب أن يحضر اليه وفد من مجمع صور ، فجاء لتمثيل هـذا المجمع أسابيوس النيقوميدى وأسابيوس القيصرى وأربعة آخرون ، (انظر كتاب د• أسد رستم الجزء الأول ص ٢١٣ ـــ ٢١٤) • وكانت التهمة الوحيدة التى أتهم بها القديس أثناسيوس هى أنه هدد بعـدم تصدير قمح الاسكندرية الى القسطنطينية ، الأمر الذى أغاظ وأغضب الامبراطور كثيرا ، إلا أن الامبراطور لم يكن فى حاجة للاغاظة والغضب ضد هذا الرجل الذى يحاول فصل السلطة الدينية عن السلطة الروحية ، ولذلك فقد صدق قسطنطين الامبراطور على الحكم الذى أصدره مجمع صور والذى اشتمل على خلع أثناسيوس من كرسية ونفيـه واعـادة أريـوس الى مكانته وقبوله فى الكنيسة •

(١) انظر كتاب Bonifas Tome 2 48 - 51
(٢) ثم كتاب J. M. Leroux. Athanase d'Alexandrie 22

ونفى القديس العظيم الى تريفز TREVES وهى مدينة ألمانية حاليا . ولقد ثار الشعب المصرى ضد هذا القرار . ولكن هذه الثورة العارمة لم تغير شيئا من قرار الامبراطور . فقادوا القديس أثناسيوس الى المنفى فى سنة ٣٣٥ . ولم يكن هذا النفى إلا حلقة فى سلسلة طويلة وثقيلة كان على رجل الله أن يحملها على كتفه بصبر وشكر وثبات وعزم . لأنه كان موقن فى داخله أن الجريمة التى ارتكبها والتى من أجلها يحاكم وينفى ، هى دفاعه عن لاهوت الابن وعن أزليته . ولهذا لم تستطع القوات الأرضية أن تزحزح هذا الرجل الصامد كالصخر ولو قيد أنمله ، لأنه كان يضع نصب عينيه هذا القول : « طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الانسان ... » (لوقا ٦ : ٢٢) .

انتصار أريوس وموته :

إن القرارات التى أصدرها مجمع صور بشلح الأسقف أثناسيوس ونفيه ، ثم اعطاء يمين الشركة لأريوس وارجاعه الى منصبه كخادم ، كانت تعد نصرا عظيما لأريوس ولأتباعه .

وبما أن الكنيسة فى مصر قد رفضت كليا وجزئيا قرارات هذا المجمع (إلا حزب المعارضة) فقد رفضت بالطبع رجوع أريوس الى الاسكندريه ، ولذلك فقد نصب رسميا فى كنيسة فى أورشليم (انظر كتاب بونيفاس BONIFAS JOME 2. 49) .

وبعد تنصيبه فى أورشليم ، ذهب الى القسطنطينية ودخلها مع جماعة من أتباعه فى موكب انتصارى ضخم . ولكن هذا الانتصار لم يكن إلا كيقظينة يونان ، ففى نفس اليوم بينما كان يسير فى شوارع مدينة القسطنطينية مع بعض أتباعه ، شعر بألم شديد فى بطنه ، فترك

أصدقاءه ودخل الى مكان هادئ، لقضاء حاجته ، فاندلقت أحشاؤه ومات فى الحال فى سنة ٣٣٦ . ولقد تضاربت الآراء فى سبب موته ، فان أتباعه اتهموا الأرثوذكسيين « بسمه » . وأما الأرثوذكسيون فقد رأوا فى هذا الموت المفاجئ السريع قضاء إلهيا عادلا على أريوس الهرطوقى . ولكن المحايدين لم يروا فى موته إلا عملية تسمم وليست قضاء إلهيا ، بل إن موته يرجع الى عملية طبيعية وهى اصابته بمرض الدوسنتاريا . المرض الذى لم يستطع أريوس العجوز الذى تجاوز الثمانين من عمره مقاومته والتغلب عليه(١) .

موت الامبراطور قسطنطين :

مات الامبراطور قسطنطين فى ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ ، ولم يطلب أن يعمد إلا فى اللحظات الأخيرة من حياته ، ولقد عمده الأسقف أسابيوس النيقوميدى (انظر كتاب ص ٥٠ BONIFAS JOMES 2) .

ولقد ترك الامبراطور ثلاثة أبناء ورثة للامبراطورية فحكموها معا . فتولى ابنه الامبراطور قسطنطين الثانى الغرب . أما الابن الثانى وهو قسطنديوس فحكم الشرق ، أما قسطنس فقد تولى حكم البرية وجزءا من أفريقيا . ولقد كان قسطنديوس الذى حكم الشرق أريوسيا، وأما قسطنطين الثانى وقسطنس فكانا أرثوذكسيين .

وبعد أن تولى هؤلاء الأباطرة الثلاثة زمام الحكم فى الامبراطورية أصدروا قرارا باعادة الأساقفة المنفيين ويعتقد ليرو (LEROUX) بأن الامبراطور قسطنطين الثانى هو صاحب المبادرة فى اطلاق سراح الأساقفة المنفيين ، وكان يهدف من ذلك الى إثارة الشغب والاضطرابات فى الأجزاء التى كان يحكمها أخوه قسطنديوس فى الشرق (انظر كتاب LEROUX ATHANASE D'ALEXANDRIE 25) .

---

(١) انظر كتاب BONIFAS JOME 2. 49 .

وليكن ما يكون فى أمر هذا القرار فقد رجع أثناسيوس إلى وطنه فى ٢٣ نوفمبر ٣٣٧ واستقبله الشعب استقبالا رائعا عظيما بعد غياب طال الى حوالى سنتين • وعندما علم الأريوسيون وأصدقاؤهم بخبر وصول أثناسيوس الى الاسكندرية اضطربوا وبدأوا حالا فى حياكة المكايد وتدبير المؤامرات وحبك التهم لاقصاء بطل الايمان فى أسرع وقت ، بعيدا عن هذه المدينة • وكان على رأس المعارضين فى عودة أثناسيوس الى الاسكندرية أسابيوس أسقف نيقوميدية الذى أصبح أسقفا للقسطنطينية وكان كما سبقت الاشارة قوى التأثير ، طويل الذراع ، يتمتع بنفوذ عظيم فى البلاط الامبراطورى •

ولقد كتب أعداء أثناسيوس الى الأباطرة ثم الى أسقف روما يوليوس يدعون أن الشعب المصرى لا يرغب فى عودة أثناسيوس ، وأنه ثائر غاضب على هذه الأوضاع ويجب اقصاؤه بأقرب سرعة • ولقد اتهموا أثناسيوس أيضا بأنه منع توزيع القمح على فقراء مصر وأخذه لنفسه •

ولكن الأساقفة المصريين الأرثوذكسيين اجتمعوا فى نفس السنة ٣٣٨ وأظهروا تأييدهم الكامل لأثناسيوس وابتهاجهم بعودته • ويحتمل بأن أثناسيوس قد اتصل بأصدقائه الرهبان لكى يقوموا بمظاهرة فى صالحه ، وعندئذ جاء القديس أنطونيوس نفسه من الصحراء لكى يؤيد صديقه الأسقف أثناسيوس (انظر كتاب LEROUX ص ٢٦ المذكور سابقا) •

وكان لهذه المظاهرة تأثير عميق على نفسية الشعب وعلى نفسية مؤيدى الأسقف لأن أنطونيوس كان مكرما فى أعين كل الشعب • وكان رد أسقف روما على هذه الدعايات المغرضة ضد أسقف الاسكندرية هو

الدعوة لعقد مجمع مسكونى فى روما للبت فى هذه المماحكات ، ولكن الأساقفة الأريوسيين رفضوا هذا الاقتراح ، بل احتجوا بشدة على دعوة عقد مجمع مسكونى لينظر فى قضية شرقية قد سبق أن أصدر حكما فيها مجمع شرقى .

وكان رد فعل روما على هذا الاحتجاج شديدا ؛ بل إن أسقف روما أظهر فى هذه الفرصة أولوية روما على بقية الأسقفيات الأخرى (١) وأرسل خطابا شديد اللهجة الى أسابيوس ، وعندما استلم أسابيوس أسقف القسطنطينية هذا الخطاب أراد بأن يلطف من موقفه وأن يكتسب الكثيرين الى جانبه(٢) فحاول أن يجمع حوله جماعة من المعتدلين ولذلك فقد عقد مجمعا فى أنطاكيا فى سنة ٣٤١ وقدم فيه مع حزبه قانون إيمان، يعتبر حلا وسطا بين قانون الايمان النيقوى والعقيدة الأريوسية . وبما أن مؤلفى قانون الايمان هذا (أسابيوس وحزبه) كانوا يهدفون إلى مقاومة قانون إيمان نيقية ، ولكن بلباقة وبطريقة خفية ، وفى الوقت نفسه مد يد المساعدة للأريوسيين ، فقد اجتهدوا فى ايجاد بعض الصيغ والعبارات التى استعملت فى مجمع نيقية فى تعظيم وتمجيد يسوع المسيح ، ولكنهم تجنبوا استخدام بعض الاصطلاحات الأساسية والهامة التى استعملها مجمع نيقية مثل « وهو مساوللآب فى الجوهر » ، وظنوا أنهم بذلك يفلحون فى جذب الأريوسيين والأرثوذكسيين لقبول هذا الحل الوسط . ولقد قرر هذا المجمع خلع القديس أثناسيوس وتعيين غريغوريوس فى محله (٣) .

وعندئذ لجأ أسقف الاسكندرية الى روما لكى يعرض قضيته على

(١) Batiffol. p, Paix Const., 422 - 431
(٢) انظر أيضا كتاب Leroux p. 27
(٣) انظر كتاب Bonifas Jome 2 p. 50

الأسقف يوليوس ، فاستقبله هذا الأخير خير استقبال وعقد مجمعا ألغى قرارات مجمع أنطاكيا .

وهنا نرى الكنيسة منقسمة من جديد الى حزبين :

١ — الذين يؤيدون قانون إيمان نيقية وهم الغربيون وأثناسيوس والذين يرفضون قانون الايمان النيقوى وهم الشرقيون وعلى رأسهم أسابيوس النيقوميدى ، إلا أن حزب أسابيوس كان يضم المعتدلين أيضا .

وفى حقيقة الأمر كانت توجد ثلاثة أحزاب أو تيارات لاهوتية :

١ — حزب أثناسيوس أو حزب الأرثوذكسيين المتمسكين بقانون إيمان نيقية .

٢ — حزب الأريوسيين وكان على رأس الحزب فى بداية الأمر أسابيوس النيقوميدى قبل أن يغير اتجاهه جزئيا .

٣ — ومن هذين الحزبين ولد الحزب الثالث الذى يدعى الحزب النصف الأريوسى SEMIARIEN وكان على رأس هذا الحزب أسابيوس القيصرى،ولقد تكون هذا الحزب من الذين رفضوا عقيدة أريوس وعقيدة أثناسيوس . ولقد حاول أتباع هذا الحزب ايجاد حل وسط للمشكلة الكرستولوجية . فقد رأوا فى الابن صورة الله ، بل هو الله بالطبيعة ولكنه ليس من طبيعة الله الآب ، ولقد رفضوا — مثل ما فعل الأريوسيون — اصطلاح : « مساو للآب فى الجوهر » (١) .

---

(١) انظر كتاب
M. E. Haag. Hist. des. Dog. Chr. Pre Partie 178 - 183

مجمع ساردیكا :

أصبح قسطنطين الامبراطور الوحيد فى الغرب بعد أن قتل أخوه قسطنطين الثانى • ولقد سئمت نفسه الانشقاقات والاضطرابات التى قسمت الكنيسة والتى كانت تهدد وحدة الامبراطورية ، ولذلك فقد اتفق مع أخيه امبراطور الشرق قسطنديوس على عقد مجمع للنظر فى هذه المشاكل •

وعقد المجمع فى مدينة ساردیكا (SARDIQUE) على حدود الامبراطوريتين فى سنة ٣٤٣ • وكان الهدف منه هو ارجاع السلام والوحدة الى الكنيسة والى الامبراطورية ، ولكن للأسف الشديد قد ساد الأضطراب والانقسام فى هذا المجمع قبل أن يجتمع • فلقد وصل أولا الى مكان الاجتماع الأسقف أثناسيوس فى صحبة الوفد الغربى ومن بينهم الأسقف هوسيوس (HOSIUS) الذى كان رئيسا لمجمع نيقية ، ويبدو أنه أختير أيضا لرئاسة مجمع ساردیكا • وبدأ المجمع أعماله قبل وصول الحزب الأسابيوسى • وعندما وصل الأسابيوسيون وعرفوا بأن أثناسيوس له الحق فى التصويت والاشتراك فى أعمال هذا المجمع احتجوا على ذلك بحجة أن أثناسيوس قد خلع من الخدمة بقرار من مجمع أنطاكيا • وتركوا ساردیكا وذهبوا الى مدينة أخرى تدعى فليبوبوليس وهناك عقدوا مجمعا آخر ، وهكذا بدأ المجمعان أعمالهما فى مدينتين مختلفتين ، وأصدر كل منهما قراراته :

فإن مجمع ساردیكا الذى حضره القديس أثناسيوس قد أكد من جديد تمسكه بقانون إيمان نيقية وارجاع أثناسيوس إلى منصبه ، وقطع باسيليوس أسقف أنقرة وغريغوريوس أسقف الاسكندرية •

أما مجمع فيليبوبوليس فقد رفض قبول قانون الأيمان النيقوى وأقر

ثانية قانون الايمان الأنطاكى ، ثم أصدر الحكم بخلع أثناسيوس ومركلوس ، وقطع يوليوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطبة .

ومن هذا نلاحظ أن فجوة الخلاف قد اتسعت بين هذه الأحزاب الدينية .

وكان حزب الأسابيوسيين يتمتع بمساعدة الامبراطور قسطنديوس وكثرة العدد . وعلى الرغم من ذلك فقد كان حزبا مفككا لأنه كان يضم فى داخله المعتدلين الذين حاولوا ايجاد حل للمشكلة ، وتقريب أثناسيوس من أريوس ، كما كان يضم أيضا فى داخله الأريوسيين المتطرفين ، وكان كل منهم ينتقد الآخر بشدة . فلم تكن هناك رابطة عقائدية تربطهم معا إلا اتفاقهما على رفض عقيدة « مساو للآب فى الجوهر » . أما الحزب النيقوى فكان على العكس يتمتع بروابط قوية وثيقة وحدت صفوفه . فلقد كانت عقيدة مساواة الابن للآب فى الجوهر عقيدة أساسية يجب التمسك بها وتعليمها ، كما كان هذا الحزب الأرثوذكسى يمتاز أيضا بأن أثناسيوس الرجل العظيم هو المدافع عن هذه العقيدة . ولقد وقفت الكنيسة اللاتينية الرومانية بجانبه فأيدته فى جهاده وإيمانه .

ولقد تغيرت الأوضاع عندما ثارت الجنود الرومانية وهجمت على الامبراطور قسطنس وقتلته فى سنة ٣٥٠ وأصبح بذلك قسطنديوس الامبراطور الوحيد على الشرق وعلى الغرب .

وعندئذ أراد الامبراطور قسطنديوس اذلال الغرب والذين يتعاونون معه (١) أمثال أثناسيوس والأساقفة الأرثوذكسيين فى مصر وفى

(١) انظر كتاب Harnack. Hist. of Dog. vol. 4. 70 - 73.

غيرهـا . وانلك دعا لعقد مجمع فى ميلانو فى سنة ٣٥٥ وعندما اجتمع الأساقفة هناك طلب منهم الموافقة على أصدار الحكم بخلع أثناسيوس أو النفى للجميع . ولقد رفض البعض التوقيع على اصدار الحكم بخلع أثناسيوس أمثــال أسقف روما ليباريوس (٣٥٢ ــ ٣٦٦) الذى خلف الأسقف يوليوس (٣٣٧ ــ ٣٥٢) . ولكن الأغلبية الساحقة وقعت على هذا القرار تحت تأثير الضغط والتهديد . وعندئذ أمر الامبراطور بنفى أثناسيوس ، ولم يقبل الرجل الشجاع هذا الأمر بل شعر أنه ليس من حق الحاكم أن يتدخل فى الأمور الدينية التى لا يفهم فيها شيئا . فاغتاظ الامبراطور وثار ثورة عارمة ضد هذا القديس وارسل قوة عسكريةمكونة من حوالى ٥٠٠٠ جندى مسلحين للقبض على الأسقف وقيادته الى المنفى، وعندما وصل الجيش الى الكنيسة التى كان القديس أثناسيوس يقيــم الصلاة فيها وجدوها تعج بالعابدين . ولقد توسل الكثيرون الى الأسقف بأن يهرب وينجو بحياته الثمينة والضروريةللكثيرين ، فرفض أثناسيوس وعندما فشلت هذه التوسلات تدخل بعض الرهبان واختطفوه خطفــا وهربوا به الى الصحراء . ولقد ثار الشعب كله ضد السلطات الحاكمة وضد أمر الامبراطور ولكن هذا الأخير لم يعر هذه الثورات والمظاهرات أ ى اهتمام بل أمر الحكام بالبحث عن أثناسيوس وتسليمه ، ولكن كــل المسعى باء بالفشل ولــم يستطــع حاكم الاسكندريــة القبض على أثناسيوس لأن كل الشعب كان مؤيدا له ، ولقد وجد أثناسيوس ملجــأ آمنا عند الرهبان واستطاع القديس العظيم أن يكتب فى هذه الفرصــة بعضا من الكتب ، بل كان يذهب من حين الى آخر خفية إلى الاسكندرية ليتفقد الرعية ، وهكذا ظل على هذه الحال ست سنوات من ٣٥٥ــ٣٦١ . ولقد عين الامبراطور أحد موظفى المالية أسقفا بدل أثناسيوس ، فقابل الشعب هذا الأمر بالسخط والغضب والاحتقار .

وهجر الشعب الكنيسة التى كان يصلى فيهــا الأسقف الجديــد

جورجيوس ، وأغاظ هذا التصرف الأسقف فطلب من البوليس احضار الذين ذهبوا إلى الصحارى والمقابر لاقامة الصلاة فيها فحاصر البوليس هذه المقابر وقبض على الكثيرين وألقى بهم فى السجون (انظر كتاب LEROUX ذكر سابقا ص ٣٩ ، ٤٠) .

وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت العصيب تشبه سفينة فى بحر هائج صاخب تلطم أمواجه العاتية القاسية هذه السفينة التى كادت تتحطم وتتكسر وتختفى فى اليم العميق . ولقد رأى الأريوسيون المتطرفون والأريوسيون المعتدلون أن النصر حليفهم ، ولذلك تطرف البعض منهم فى تعليمه أمثال آيتوس (AETIUS) ثم أيونوميوس (EUNOMIUS) فقد علم كل منهما بأن الابن له بداية فهو مخلوق مثل باقى الخلائق لأنه إذا كان الابن أزليا أى لا بداية له ، فهذا لا يعنى أنه من جوهر الله الآب فهو يشبه الله ولكن ليس من جوهره ، وهذا التشابه الموجود بين الآب والابن هو بحسب إرادة الآب[1] لأنه إذا كان الابن أزليا كما يعتقد الأرثوذكسيون فهذا يعنى أنه هو نفسه أصل وعلة وجوده ، وبناء على ذلك فهو ليس من نفس الجوهر الذى منه الله الآب بل من جوهر يشبه هذا الجوهر . ولقد اعترض الذين لا يقبلون أزلية الابن بالقول : إذا كان الابن مولودا فهو غير أزلى ؛ وإذا كان أزليا فهو غير مولود . وبناء على ذلك فقد رأوا أن قانون الايمان النيقوى غيرمعقولويجب تصحيحه . وهكذا عقد مجمع جديد فى أنقرة فى سنة ٣٥٨ ، ويحتمل أن باسيليوس أسقف هذه المدينة هو الذى دعا لانعقاده[2] . ولقد كان باسيليوس من حزب الأريوسيين المعتدلين الذين حاولوا أن يكونوا نقطة الالتقاء والتوافق بين الأريوسيين المتطرفين وبين الأرثوذكسيين .

(١) انظر كتاب 183 - 178 M. E. Haag
(٢) Epiphanios. Haeres. 73

(م ٤٢ — تاريخ الفكر المسيحى)

ومن المعروف أن الذين كانوا يسيطرون على هذا المجمع هم جماعة أنصاف الأريوسيين أو المعتدلين (LES SEBI - ARIENS) الذين يؤمنون بأن الابن من مشابه لجوهر الآب . على أنهم لا يقبلــون ولا يعترفون بفكرة أن الابن من نفس الجوهر الذى منه الآب . إنه مــن جوهر مشابه لجوهر الآب وليس من ذات الجوهر الذى منه الآب .فهم يرفضون هنا العقيدة الأساسية التى تمسك بها الأرثوذكسيون فى الشرق وفى الغرب ، والتى أقرها مجمع نيقية والتى من أجلهــا أيضا يحــارب ويناضل البطل الباسل والقديس الشجاع أثناسيوس ، وهى حقيقــة «مساو للآب فى الجوهر ولقد استبدلــوا الاصطلاح الذى قبلــه مجمع نيقية : « مساو للآب فى الجــوهر » بالاصــطلاح : « مشابه للآب فى الجوهر » . وبذلك فقد رفضوا عقيدة الأرثوذكسيين كما أنهم رفضوا أيضا عقيدة الأريوسيين المتطرفين التى تعلم بأن الابن مخلوق من العدم كبقــية الخلائق . فهم (المعتدلون) يقولون بأن الابن مولود من الآب قبل كل الدهور بحسب قصد الله ومشيئته . فالابن بحسب هذا المفهوم «النصف الأريوسى» يحتل مكانا وسطا بين الله وبين الخليقة (انــظر كتاب (BONIFAS - TOME 2. 52 - 54 . ومن الطبيعى ، فقــد رفض الأرثوذكسيون هذه العقيدة كما رفضها أيضا المتطرفون خصوصا أن عناصر جديدة دخلت فى الحزب الأريوسى المتطرف فدفعه أكثر الى الانزلاق والابتعاد عن الأرثوذكسية وعن حزب المعتدلين ، ولقــد علم هؤلاء المتطرفون تعاليم أكثر خطورة وأبشع هرطقة من التعاليم التى علم بها أريوس نفسه .

وهنا تزداد الفجوة اتساعا ويصبح الانقسام خطراً يهدد سلامة الامبراطورية . لأن الانقسام لم يعد بين الأرثوذكسيين المتمسكين بقانون الايمان النيقوى وبين الذين يرفضون قبوله ، بل لأن الانقسام سيطر أيضا على هذا الحزب الأخير .

وهنا تظهر من جديد الحاجة الملحة ، والتى تعودت عليها الكنيسة وهى الحاجة الى انعقاد مجمع آخر ليفصل فى هذه المشاكل العقائدية التى تهدد بانتسام الامبراطورية والكنيسة • ولقد نصح الامبراطور بعض المغرضين من الأريوسيين الذين خشوا بأن يكونوا أقلية فى المجمع بعمل مجمعين : مجمع فى الشرق فى سلفكية (فى تركيا) حيث يتنافس فيه المجتمعون باللغة اليونانية ؛ ومجمع فى الغرب فى ريمينة (فى ايطاليا) ويتناقش فيه المجتمعون باللغة اللاتينية • ويدأ مجمع ريمينة أعماله فى يونيو ٣٥٩ • ولقد جاء لحضور هذا المجمع ٤٠٠ أسقف ؛ جاءوا لحضوره راغبين أو مرغمين ؟ فعلي ما يظن أنهم جاءوا مرغمين على ذلك بالأمر الامبراطورى أو على الأقل أرغم عدد كبير منهم على الحضور (انظر كتاب LEROUX 41 - 43 ذكر سابقا) •

ولقد حضر مجمع سلفكية مائة وخمسون أسقفا من الشرق • وهكذا اجتمع المجمعان منعزلين الواحد فى الشرق والآخر فى الغرب ، لتسهيل التفاهم وتوفير المال كما اقترح البعض على الامبراطور الذى طلب من الأسقف مرقس أسقف أرسوز بعمل قانون إيمان لكى يناقشه المجمعان • وسيحمل هذا القانون فيما بعد اسم : «قانون الايمان المؤرخ» ، ودعى بهذا الاسم لأن الأسقف مرقس ذكر أولا وقبل نص القانون موافقة الامبراطور على هذا الاجتماع ثم ذكر أيضا السنة والشهر واليوم الذى تمت فيه هذه الموافقة •

ومحتويات هذا القانون تتفق واتجاهات الأريوسيين المعتدلين • فقد استبدل عبارة « مساو للآب فى الجوهر » بعبارة «مشابه للآب فى الجوهر » ، كما أنه أقر بأن الابن مولود قبل الدهور • ولقد سبق أن أشرنا الى عقيدة الأريوسيين المعتدلين ، إلا أن هذا القانون يشير ولأول

مرة إلى نزول المسيح الى الجحيم (١) •

ورفضت أغلبيـــة مجمع ريمنيـــة القانون المؤرخ وطالبت بتطبيق القانون النيقوى ، إلا أن الأقلية (٨٠ أسقفا تقريبا) قبلت التجـــديد والأوامر الامبراطورية • ولقد كان أمر الامبراطور واضحا ومحـــددا للذين يشرفون على هذا المجمع : العمل سواء باللين أو بالشدة ، على أن ينضم المجمع كله الى حزب الأقلية•ولقد قام ممثل الامبراطور ف المجمع بتنفيذ هذا الأمر خير قيام • وانتهى الأمر بأن معظم أعضاء مجمع الغرب قبلوا هذا القرار بسبب الضغط الامبراطورى •

أما مجمع الشرق فقد انقسم على ذاته لأن الأغلبية فيه لم تقبـــل قانون الايمان المقترح • ومع أن الأغلبية ف مجمع الشرق ظلت تحـــادي القديس أثناسيوس إلا أنها لم ترد قبول قانون إيمان جديد قد ينتج عنه انقسامات جديدة وهرطقات أخرى •

وأمام اصرار هذا المجمع وعدم قبوله التوقيع على قانون الايمان المؤرخ ، فقد أمر الممثل الامبراطورى بأنهاء أعمال المجمع بعد ثلاثةأيام من بدايته• وذهب وفدان عن المجمعين الىالقسطنطينية لمقابلة الامبراطور ولقد ظن الأساقفة الشرقيون بأن أساقفة الغرب تبنوا نفس الموقف الذى اتخذوه ، ولكن خيبة الأمل عندهم كانت عظيمة عندما عرفوا بأن أساقفة الغرب وقعوا على قانون الايمان المؤرخ • ولقد استعمل البوليس العنف مع أعضاء مجمع سلفكية حتى انضم معظم أعضائه الى أعضاء مجمـــع ريمنيه بعد أسابيع قليلة • وف أول ينـــاير سنة ٣٦٠ وقـــع الوفدان ف القسطنطينيةعلى قانون الايمان المؤرخ(انظركتاب LEROUX 40 - 43

(١) انظر المراجع المذكورة هنا

Socrates. Hist. eccl. 2, 34.
Saint Hilaire, Frag. Hist., 15, 3.
Saint Athanase, De Synode 8.

المذكور سابقا) ، وأرسلت رسالة بذلك الى جميع أساقفة المسكونة •كما هددت السلطات كل من لا يوافق على هذا القرار ، وبالرغم من ذلك فقد امتنع عن التوقيع على قانون الايمان عدد لا بأس به •

ومع أن أثناسيوس كان منفيا وبعيدا عن المجمع لكنه كان قوى التأثير عظيم السلطة ولذلك فقد طلب من الوفد المصرى والليبى التمسك بالايمان النيقوى وعدم الانضمام الى أى قانون إيمان آخر• وبناء على ذلك فلم يوقع أغلبية ممثلو مصر وليبيا على هذا القرار •

عندما وقعت الأغلبية الساحقة على قانون الايمان المؤرخ ، فكأنى بها توقع على وثيقة اعدام القانون النيقوى ، وبناء عليه فانها تعلن انكار أزلية ابن الله • وأمام التهديد بالنفى والخلع عن المراكز السامية العظيمة ، اختارت الأغلبية الساحقة الطريق الواسع الرحب المطوء بالاكرام والتعظيم والمجد الأرضى • وبهذا ولأجل هذا أيضا وقعت الأغلبية الساحقة على قانون « الايمان المؤرخ » الذى أمر به الامبراطور والذى كان يسعى من ورائه الى توحيد الامبراطورية وتجنبها الانقسام• ولذلك فقد استعمل القسوة والشدة والاضطهاد والنفى لكى يصير هذا القانون مقبولا من الجميع • وهكذا مر النيقاويون (المتمسكون بقانون إيمان نيقية) الأرثوذكسيون بفترات عصيبة وأوقات صعبة : انتشرت خلالها الأريوسية بطريقة سريعة وسهلة •

ولكن هذه الفترة لم تكن إلا عشرة أيام الضيق التى تكلم عنها الرائى : « هوذا إبليس مزمع أن يلقى بعضا منكم فى السجن لكى تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام» • (رؤيا ٢ : ١٠) • فلقد تغيرت الأحوال جزئيا عندما مات الامبراطور قسطنديوس فى ديسمبر ٣٦١ وأوصى هو نفسه بأن يتولى بعده يوليانوس بن يوليوس • ومع أن الامبراطور

الجديد لم يكن محبا ومشجعا للمسيحية إلا أنه أظهر روح التسامح جزئيا وخصوصا للأساقفة المنفيين وأمر بعودتهم الى أوطانهم • ولذلك رجع القديس أثناسيوس الى الظهور بعد أن اختفى فى الصحراء أكثر من ست سنوات • ولقد انتهز الأسقف الاسكندرى فرصة عودة أساقفة المنفى ، وعقد مجمعا فى أثناء مرورهم بالاسكندرية لكي يتشاوروا معا فى الأمور التى حدثت فى أثناء نفيهم وخصوصا موضوع الأريوسيين • وكان بعض الأساقفة الأرثوذكسيين لا يريدون قبول الأريوسيين فى الكنائس ويطالبون بمحاربتهم • على أن أثناسيوس كان يميل لمد يد المصالحة للأريوسيين الذين يقبلون قانون الايمان النيقوى • وهكذا أراد أثناسيوس فور وصوله الى رعيته المحبوبة : البدء فى البناء والعمل ، ولكن للأسف الشديد لم يمض على وصوله للاسكندرية إلا ثمانية شهور حتى صدر أمر امبراطورى بالقبض على أثناسيوس ، فثار الشعب ثورة عظيمة جدا ضد هذا القرار•ولكن الامبراطور الوثنى لم يعر هذه الثورة أى اهتمام وأصر على نفيه من جديد • أما القديس أثناسيوس فكان يعزى شعبه بالقول : ما هذه إلا غيوما ستختفى قريبا • وانطلق رجل الجهاد إلى أصدقائه فى الصحراء للاختفاء هناك • ولم تستطع قوات الامبراطور الوصول اليه أو التعرف على مكانه • وظل هكذا مختفيا إلى أن قتل الامبراطور يوليانوس فى ٢٦ يونيه ٣٦٣ ، فرجع أثناسيوس كعادته نشيطا قويا لا يعرف الفشل طريقه إليه •

وعندما تولى عرش الامبراطورية جوفيانوس أو يوفيانوس كتب فى سنة ٣٦٣ كتابا رقيقا ولطيفا جدا الى أثناسيوس يدعوه فيه لزيارته والاقامة فى القصر الامبراطورى بعضا من الوقت وكان الامبراطور جوفيانوس أرثوذكسيا متمسكا بالقانون النيقوى ، وفعلا لبى الأسقف الاسكندرى الدعوة الامبراطورية •

إلا أن هذا الامبراطور لم يعمر طويلا فقد مات فى ٣٦٥ واستولى بعده على زمام الأمور الامبراطور فلنس VALENS الذى أصدر حالا أمرا امبراطوريا ينفى كل الأساقفة الذين سبق أن نفاهم قسطنديوس، كما أنه أعطى أمرا خاصا بأن هذا القرار ينطبق أيضا على أثناسيوس فلابد من نفيه .

وهكذا نفى هذا الرجل العظيم للمرة الخامسة ، ولكنه هذه المرة اختار مخبئا أكثر قربا من المدينة ومعد بالوسائل للراحة والرفاهية أكثر من المرات السابقة . فلم يذهب الى الصحراء بل اختبأ فى فيلا أحد أصدقائه فى ضواحى الاسكندرية ، حيث قضى فيها حوالى سنة، ولا نعلم بالضبط الظروف التى دفعت شعب الاسكندرية فى أول فبراير ٣٦٦ للذهاب الى مقر مخبئه والهتاف بحياته وتأييده . وأمام هذا الأمر الواقع اضطر الامبراطور الى أن يسمح له باستئناف عمله الرعوى فى مدينة الاسكندرية .

وهكذا تنتهى فترة النفى التى استمرت حوالى ٢٠ سنة من حياة رجل الله المجاهد فى سبيل الايمان الصحيح فقد كان أسقفا لمدينة الاسكندرية لمدة ٤٥ عاما قضى منها عشرين عاما فى المنفى .

والدارس لتاريخ حياة هذا القديس العظيم والبطل المجاهد يلاحظ — بلا شك — انطباعا خاصا قد انفرد به عن كثيرين من القديسين الذين يكلمنا عنهم التاريخ ، فقد تعودنا أن نرى أو نتصور القديسين يعيشون فى جو من التأمل الروحى السماوى ، لا صلة لهم بما هو أرضى، يقضون ليلهم فى الصلاة والتأمل ونهارهم فى العمل والوعظ. ومما لا شك فيه أن القديس أثناسيوس كان رجل صلاة وكانت له شركة عظيمة وقوية مع الرب . لكن الأمر الذى ميز هذا القديس عن كثيرين هو أنه اندمج

فى المجتمع ودافع فيه عن الحق الالهى ،لقد تحدى أقوى وأعظم القوات الأرضية فى وقته غير هياب للنفى أو للموت . ولم يعرف الفشل واليأس طريقهما الى قلبه الذى امتلأ أولا بالمسيح ابن الله ففاض غيرة وحماسة وحبا له ؛ ولذلك أصبحت نفسه غير ثمينة عنده .

ومع أن البطل المجاهد فى سبيل انتصار قانون الايمان النيقوى استطاع فى نهاية حياته أن يتمتع ببضع سنوات من الهدوء نسبيا إلا أنه لم ير اليوم الذى فيه انتصر قانون الايمان النيقوى الذى قبله مجمع القسطنطينية فى سنة ٣٨١ والذى جاهد من أجله كل حياته .

مجمع القسطنطينية :

اجتمع هذا المجمع فى مدينة القسطنطينية فى سنة ٣٨١ للبت فى الأمور العقائدية التى كانت تشغل أذهان الكثيرين . وعلى ما يظن أن الامبراطور ثيودوسيوس هو الذى دعا لعقد هذا المجمع المسكونى ، وكان يضم حوالى مائة وخمسين أسقفا وتولى رئاسة جزء من هذا المجمع الأسقف غريغوريوس النزينزى أسقف القسطنطينية . ولقد قرر آباء المجمع المسكونى الثانى قبول قانون الايمان النيقوى ثم أضافوا إليه بعض الفقرات لتوضيحه وشرحه . ويحتمل أن المجمع المسكونى الثانى قد أضاف بعض العبارات غير الموجودة فى قانون الايمان (هذا احتمال) مثل : « ... الروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له وممجد ، الناطق بالأنبياء » كما أن هذا القانون يوجز المادة المختصة بيسوع المسيح فى الجزء الأول ولكنه يتوسع فى المادة الثانية ثم يضيف بعض التفاصيل . ونلاحظ أيضا أن قانون إيمان المجمع المسكونى الثانى يضيف هذه العبارات : غفران الخطايا ، الكنيسة ، القيامة ، الحياة الأبدية . نجد هذه العبارات فى قانون إيمان الرسل ولكنها غير موجودة فى قانون إيمان نيقية . ولا يذكر

هذا القانون الحرمان المذكور فى القانون النيقوى ثم يشدد على عقيدة الروح القدس ومساواته للآب .

وبعد أن نظر المجمع المسكونى الثانى فى بعض المشاكل الأخرى ، أنهى أعماله وأرسل رسالة شكر للامبراطور . واعتمد الامبراطور قرارات هذا المجمع الذى اعتبره مجمعا أرثوذكسيا . وبهذا القرار نرى الأرثوذكسية وقد انتصرت من جديد . هذا هو القرار الذى جاهد من أجله حقا ، والوصول إليه رجل الله العظيم القديس أثناسيوس ، نعم ! إنه لم ير هذا اليوم الذى انتصرت فيه الأرثوذكسية واعترف فيه بها . إلا أنه رأى قبل موته علامات كثيرة كانت تشير الى قرب يوم الانتصار هذا . ولذلك فقد انطلق قديس الاسكندرية العظيم على هذا الرجاء فى يوم ٣ مايو سنة٣٧٣ لكى يتلاقى مع ابن الله وجها لوجه . ويمكننا أن نقول عن ذلك الرجل «وإن مات أثناسيوس يتكلم بعد» .

إن المجمع الذى اجتمع فى القسطنطينية فى سنة ٣٨١ قبل قانون الايمان النيقوى بعد أن أدخل عليه بعض التعديلات والاضافات ، وهذا هو نص قانون الايمان الذى نسب الى مجمع القسطنطينية «نؤمن بإله واحد ، آب ضابط الكل . خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعد الى السماء وجلس عن يمين الآب وأيضا يأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وبالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن

مسجود له وممجد ، الناطق بالأنبياء ، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا • ونترجى قيامة الموتى والحياة فى الدهر العتيد • آمين » •

وقد قبل مجمع توليدو الذى عقد فى أسبانيا سنة ٥٨٩ نص القانون بعد أن غير الجملة الآتية : « وأومن بالروح القدس الرب والمحيى المنبثق من الآب والابن ••• » ، أى أن الروح القدس لم ينبثق من الآب وحده بل انبثق من الابن أيضا • وقبلت كل الكنائس الغربية والكنائس الانجيلية فيما بعد هذا النص الذى يتكلم عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن ورفضته الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية •

بعد أن أنهى مجمع القسطنطينية المسكونى الثانى أعمانه تنفس الامبراطور ثيودوسيوس وقادة الكنيسة الصعداء ، وشعروا كما شعر الامبراطور قسطنطين وقادة الكنيسة بعد قبول قانون الايمان النيقوى فى سنة ٣٢٥ بسرور وارتياح عظيمين،لأنهم ظنوا بأن مجمع نيقية استطاع أن يستأصل الهرطقة من جذورها وأن يعيد الوحدة الى الامبراطورية والى الكنيسة المهددتين بالانقسام والاضطراب ! !

فهل استطاعت الامبراطورية والكنيسة أن تصلا الى هذه الوحدة المنشودة بعد المجمع المسكونى الأول ؟ ! وهل ستستطيع الامبراطورية والكنيسة أن تصلا الى هذه الوحدة المنشودة بعد مجمع القسطنطينية المسكونى الثانى ؟ وهذا ما سنحاول دراسته فى المجلد الثانى •

وقبل أن نترك هذه الحقبة التى حدثت فيها تطورات كثيرة وجذرية فى تاريخ الفكر المسيحى،نود أن نلفت نظر القارىء الكريم الى شخصية أخرى لعبت دورا هاما وكبيرا فى تاريخ الهرطقات وهى شخصية الأسقف أبولوناريوس APOLLINAIRE (٣١٠ — ٣٨١) •

الفصل الخامس عشر

الأسقف أبوليناريوس

APOLLIN-AIRE

كان أبوليناريوس أسقفا للاذقية وصديقا حميما للقديس أثناسيوس، وفى بدء حياته كان يقف بجانب الأسقف المصرى[1] يصارع بجانبه ويناضل نضاله ضد الذين رفضوا قانون الايمان النيقوى. ولذلك فلقد نزل خبر انحراف أبوليناريوس العقائدى على أثناسيوس نزول الصاعقة، وفى حقيقة الأمر كان أسقف اللاذقية يريد أن يجد حلا سلميا للمشكلة اللاهوتية التى تعرضت لها الكنيسة فى ذلك العصر. فكما سبق أن رأينا أن الكنيسة انقسمت بعد مجمع نيقية الى أحزاب وجماعات ومدارس، وكان سبب الانقسام هو نفس السؤال الذى طرحه المسيح على تلاميذه. « من يقول الناس إنى أنا ابن الانسان ؟ » فإن الذين كانوا يتمسكون بقانون الايمان النيقوى وعلى رأسهم أسقف الاسكندرية علموا بأن الجواب على هذا السؤال هو : « أنت هو المسيح ابن الله الحى؟» «من ذات جوهر الآب متساو مع الآب فى الجوهر». والذين لم

(١) انظر كتاب Leroux p. 50

يقبلوا قانون إيمان نيقية انقسموا الى أحزاب ، فالبعض رأى فى المسيح نبيا والبعض الآخر رأى فيه ابنا لله لا بالطبيعة بل بالتبنى ، أى أن الله تبنى يسوع المسيح وبناء على ذلك فقد رفعه الله الى أعلى درجات المجد والعظمة ... فالصراع العقائدى الذى كان يسيطر على الأحزاب المتعارضة فى ذلك الوقت تلخص فى عدم الاتفاق على جوهر المسيح فيما إذا كان من نفس جوهر الآب أو من جوهر آخر ، وفيما إذا كان مخلوقا كبقية الخلائق أم هو نفسه الخالق والأزلى الذى لا بداية له وأن بنوته معاصرة تماما لأبوة الآب . هذه هى الأسئلة والمشاكل التى تعرضت لها الكنيسة بعد مجمع نيقية . وهنا يظهر أسقف اللاذقية الذى تمسك بالقانون النيقوى لأنه يعتقد بأن اللوغوس أزلى.فإن كان يؤمن بأزلية الابن فما هى هرطقته إذن ؟

كان مفهوم أبولوناريوس للانسان يشبه الى حد كبير مفهوم يوستينوس الذى تأثر تأثرا كبيرا بالأفلاطونية التى كانت تعلم بأن الانسان مكون من ثلاثة عناصر : ١ ــ الجسد ، (SOMA) ٢ ــ النفس ، (PSYCHE) ٣ ــ الروح (PREUMA)

ولقد حاول الأسقف اللاذقى أن يستفيد من هذه النظرية الأفلاطونية لكى يحل بها المشكلة اللاهوتية التى كانت تمزق الكنيسة ولم يعلم أن نظريته الجديدة عرضته لخطر آخر . فإن أبولوناريوس علم بأن المسيح يتكون من ثلاثة عناصر: الجسد والنفس واللوغوس. فالذى كان يحرك الجسد هو طاقة حيوية عاقلة فيه . واللوغوس ، الكلمة حل فى المسيح محل الروح (AME) . وهنا نرى التأثير الأفلاطونى واضحا، فإن الأفلاطونية علمت كما سبقت الاشارة بأن الانسان يتكون من جسد ونفس رروح عاقلة . وفى تعليم أبولوناريوس نرى بأن اللوغوس حل محل الروح العاقلة . فهو يرفض إذن وجود روح عاقلة فى المسيح ولكى

يؤيد بدعته هذه فقد رجع الى الكتاب المقدس كما رجع اليه كل الأرثوذكسيين والهراطقة على السواء • فهو يقتبس قول الرسول يوحنا : « والكلمة صار جسدا ••• » معلقا على عبارة : « صار جسدا » بالقول بأن الرسول لا يقول إن الكلمة صار « روحا » بل صار جسدا(١) فإن « اللوغوس » ابن الله الأزلي اتخذ لنفسه جسدا ، وفى اتخاذه هذا الجسد ، فقد حل محل الروح ، فالمسيح إذا بلا روح عاقلة لأن الكلمة أو اللوغوس أو ابن الله الذى اخذ جسدا حل محل هذه الروح العاقلة •

وهو يعتقد بأنه كان من الضرورى بل من اللازم أن يجرد المسيح من روح بشرية عاقلة •وذلك لأنه لو كان للمسيح روح بشرية مثل كل البشر لما كان ممكنا له أن يصل الى درجة القداسة الكاملة ، لأن الخطية مرتبطة وعالقة بالروح البشرية ، فحيث يوجد إنسان مكون تكوينا كاملا من جسد ونفس وروح ؛ فهناك تسكن وتكمن الخطية • والذى يميز يسوع عن كل البشر والذى أهله لأن يكون قديسا لا عيب فيه هو أن « اللوغوس » حل محل الروح • ويواصل أبولوناريوس اعتراضه على وجود روح فى المسيح بالحجة الآتية :

إن قبول فكرة وجود روح فى المسيح تخلق لنا مشاكل لا تحل ، ومنها : إن وجود روح بشرية فى المسيح يفترض أن هذه الروح تتمتع بالحرية والارادة والتصرف والسلوك ، هذه الامتيازات التى تتمتع بها كل الأرواح البشرية ، وهذه الأشياء عينها لا تتفق وإرادة اللوغوس فى أحيان كثيرة عند استعمالها - وهنا ينشأ الصراع والنضال وعدم التوافق وعدم الانسجام بين اللوغوس ، الكلمة ، وبين الروح البشرية فى المسيح، وهذا الأمر لا يمكن قبوله بأية حال من الأحوال فى المسيح ، وكيف يمكننا أن نقبل وجود صراع ونضال وتناقض فى داخل المسيح ؟ وحلا لهذه

(١) انظر كتاب Bonifas Tome 2. 91 - 92

المشكلة فقد اقترح أبولوناريوس عدم وجود روح بشرية في المسيح لأنه لا يمكن قبول فكرة وجود صراع أو تناقض في شخص المسيح . ويقدم أسقف اللاذقية حجة أخرى فيقول إن قبول فكرة وجود روح في المسيح تقودنا بطريقة لا تقبل الرفض ، إلى الاعتراف بوجود مسيحين . اللوغوس ، الكلمة ، ابن الله من ناحية ، ثم الانسان المكون تكوينا بيولوجيا نفسيا روحيا من ناحية أخرى .

وأبولوناريوس يعتقد أن عملية التجسد قد تمت عندما اتحد ابن الله أو اللوغوس بطبيعة بشرية لتكوين وحدة أساسية التي عن طريقها وبها تكون الكائن الالهي البشري ، وبعد هذا الاتحاد أصبح الانسان المكون أو المركب إنسانا سماويا (١) . وأسقف اللاذقية لا يعني بعبارة «الانسان السماوي» عند كلامه عن المسيح أن جسده قد نزل من السماء، كما فهم البعض ذلك خطأ بل العكس فإنه يعلم بأن المسيح أخذ طبيعته البشرية والجسدية من مريم العذراء ولم تصبح إلهية إلا بعد اتحادها باللاهوت . ولكي تكون عملية الاتحاد بين الله والانسان يسوع قوية وأساسية وكاملة لا يعوقها أي عائق ، يجب نفي الروح من هذا الانسان السماوي ، لأن اللوغوس الكلمة حل محلها فالعناصر التي تكون منها الانسان السماوي هي اللاهوت من فوق ، ثم الناسوت من الناحية البشرية ، إلا أن هذا الناسوت خال من الروح البشرية . وهذا الكائن المركب من اللوغوس ومن الطبيعة البشرية الناقصة يكون الكائن الكلي ، أي المسيح (٢) .

(١) انظر هذه المراجع بخصوص نفس الموضوع
Apoll. Ep. Ad. Dionys. Al : Ed. Leitzmann 256 - 257.
Apoll. Ep. Ad. Dionys. Al : Ed. Leitzmann 256 - 257.
Apoll. Ad. Sarapion., fragm. 160

(٢) انظر كتاب Apoll., De Unions : éd., L. 187. 7 - 114

وهو يعتقد أن اتحاد اللوغوس بالجسد يشبه الى حد كبير اتحاد النفس البشرية بالجسد البشرى ، فإن الروح تتحد بالجسد وهى التى تسيطر عليه وتديره ، كذلك فان اللوغوس ابن الله قد احتل فى تجسيده مكان الروح : فهو الذى يعمل فى الجسد ويسيطر عليه . والعقبة الكبرى التى ظهرت أمام أبولوناريوس هى أن وجـود روح فى المسيح يفرض بالضرورة نوعا من الصراع وعدم التوافق لأن الروح لها رغباتها وميولها التى لا تتفق تماما مع رغبات وميول اللوغوس .

ومن خطابه الذى أرسله الى الامبراطـور جوفيانوس يـلاحظ أنه كان متمكنا من عقيدته (١) فقد حاول شرحها بطريقة سهلة مقبولة ، ويقول(جريلميير GRILLMEIER بصد ذلك : ص ٢٦٠) « لـم يستطع أحد قبله أن يشرح هذه العقيدة بهذه السهولة والوضوح » .

مما لا شك فيه أن أبولوناريوس استطاع أن يقدم أفكاره اللاهوتية بطريقة جذابة وسهلة وواضحة لأنه كان كاتبا ماهرا وشاعرا مشهورا فى عصره وبيئته. ولكن انكاره لوجود روح فى المسيح يعد هرطقة، أدانتها الكنيسة وحكمت بحذفها من تعاليمها. فعدم قبوله لفكرة وجود روح فى المسيح يعنى أن تكوين المسيح البشرى كان ناقصا وغير كامل.لأنه اعتبر أن الروح هى التى تسيطر على الجسـد وتديره ، وهى أيضـا مركز الانفعالات والتى توجه التصرف والسلوك . فإذا كان جسد المسيح قد جرد من هذه الروح وأن اللوغوس حل محلها فى هذا الجسد فلا يمكننا فى هذه الحالة أن نقول، إن المسيح قد تجرب بكل التجارب التى يمر بهـا الانسان المركب تركيبا عاديا . فإن عدم قبول فكرة وجود روح فى المسيح يعنى إزالة مركز الارادة والسلوك والتصرف . وبنـاء على ذلك فـإن

(١) انظر كتاب J. Liebaert

المسيح لم يتعرض فى حياته الأرضية لأية تجربة أيما كانت، لأن اللوغوس الذى حل محل الروح كان يقود جسدا مجردا من كل إرادة . وهـذا يتعارض مع المكتوب الذى يعرفنا بأن الله ظهر فى الجسد : وهذا الجسد لم يكن جسدا مجردا من الروح كما ظن الأسقف أبولوناريوس بـل كان جسدا حقيقيا وكاملا من حيث تكوينه ، فإن كنا نرى يسوع يبكى بحزن، يتألم بفرح . يضطرب بالروح ... فإنه كان يمـر بهـذه الأحاسيس والمشاعر والانفعالات لأنه كان إنسانا كامل التكوين . ولأنه كان كامل التكوين فقد جرب فى بشريته كما يجرب أى انسان آخر . فالرسـول يقول : « لأنه فى ما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجربين » (عب ٢ : ١٨)«لأن ليس لنا رئيس كهنة غيرقادر أن يرثى لضعفاتنا بل مجرب فى كل شىء مثلنا بلا خطية » (عب ٤ : ١٥ ، ٧ : ٢٦ ، ٩ : ١٤ ، يـو ٨ : ٤٦ ، ٢ كـو ٥ : ٢١ ، ١ يو ٣ : ٥) . بل ان كاتب الرسـالة إلى العبرانيين أكد بشدة على هذه الحقيقة فى قوله : «من ثم كان ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شىء » ؛ (عب ٢ : ١٧) ، فكيف يمكن له أن يـكون مشابها لإخوته فى كل شىء إذا كان المسيح لا يتمتع بوجود روح بشرية فيه.ورب معترض يقول،إذا كان من الضرورى أن يشبه المسيح إخوته فى كل شىء لكان من الضرورى أيضا أن يخطىء لكى تكون المشابهة كاملة والتجسد حقيقيا ، وهنا نرى عظمة يسوع وقداسته وقدراته . نعم أنه كان يشبه إخوته فى كل شىء ، أى أنه كان مكونا تكوينا كاملا من الناحية النفسية والطبيعية ومعرضا لكل أنواع التجارب التى يتعرض لهـا أى إنسان مثله ، لقد استطاع ــ وهو الوحيد فى ذلك ــ أن يقول متحديا لليهود : « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) وهذا لايعنى أن الجسد والروح كانا لا يعملان فى المسيح كما يعمل الجسد والروح فى أى إنسان آخر لدفعه للخطية ولارتكابها، بل أن المسيح كان مجربا فى جسده وروحه كأى إنسان آخر ، والرسول يقول : « ... فالله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد » (رو ٨ :

٣ ، غلاطية ٣ : ١٣) ، فانتصار المسيح على الخطية وقهره لها لا يرجع بأيه حال من الأحوال الى غياب الروح البشرية من يسوع ، كما يعتقد أبولوناريوس ، بل يرجع الى حقيقة واحدة : وهي أن الذى كان يعمل فى هذا الانسان يسوع الناصرى المكون من روح عاقلة وجسد طبيعى ، هو أن اللوغوس ابن الله حل فى هذا الانسان . فقداسة يسوع وكمال تصرفه وسمو أخلاقه ومثالية حياته لا ترجع الى غياب الروح منه ولا حتى الى غياب العامل الذكرى فى الحبل به من عذراء ، وإن كان صحيحا أنه حبل به من عذراء بطريقة معجزية ، ولكن السبب الوحيد فى كماله هو : «عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد » أى أن الله نفسه حل فى الانسان يسوع المسيح .

فإن انتصار يسوع الناصرى على الخطية وعلى التجارب لا يرجع إذن إلى غياب روح بشرية ميالة إلى السقوط فى الخطية ، بل يرجع بالحرى الى وجود «اللوغوس» فيه ؛ ووجود اللوغوس فى الانسان يسوع الناصرى لم يلاش الناسوت بل كان يوجهه ويرشده ويقوده .

لقد رفضت الكنيسة بدعة أبولوناريوس منذ أول ظهورها ، لأنها تؤمن بأن المسيح جاء لا لكى يخلص الجسد فقط ، بل ليخلص الانسان كله روحاً وجسداً ، فلو لم يكن للمسيح روح كبقية البشر لأصبح من المستحيل أن يخلص أرواح البشر . ولقد كرر هذه الحقيقة مشدداً عليها أوريجانوس المصرى وترتليانوس(١) وتكلم عنها فيما بعد غريغوريوس النزينزى(٢) .

(١) انظر Weigenborg Stud. Pat. 3 (1961) 327 - 328

(٢) Greg. Naz. Ep. 101 Ad, Cledon. PG. 37, 181-C- 184A.

إن مجمع الاسكندرية الذى اجتمع فى سنة ٣٦٢ للنظر فى قضية الذين ترددوا الاعتراف بقانون الايمان النيقوى، بحث هذه المشكلة أيضا، ولقد صدرت أحكام بهرطقة تعاليم أبولوناريوس فى : (١) المجمع (السنودس) الرومانى الذى عقده البابا دماسوس سنة ٣٧٧ • (٢) وفى المجمع (السنودس) المصرى الذى اجتمع فى الاسكندرية سنة ٣٧٨ • (٣) وفى المجمع الأنطاكى فى سنة ٣٧٩ • (٤) وفى المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية فى سنة ٣٨١ • وبالرغم من ذلك فقد ظلت هذه التعاليم منتشرة حتى إلى ما بعد سنة ٤٢٠ • وهكذا ظهرت هرطقة جديدة فى الكنيسة ولم تكن للأسف الشديد الأخيرة •

ولقد تعودت الكنيسة فى خلال هذه القرون الأربعة الأولى أن تلتقط أنفاسها وأن تتنسم الصعداء فى كل مرة كانت تحكم فيها فى مجمع رسمى على هرطقه عن الهرطقات أوعلى ضلاله من الضلالات ظنا بأنها قد قضت على هذه الهرطقة وعلى هذه الضلالة بالحكم الذى استطاعت أن تصدره فى مجمع كنسى ضد هذه التعاليم • ولكن للأسف الشديد لم يكن لهذه الأحكام الكنسية والمجمعية إلا تأثير جزئى ، بل فى أحيان كثيرة كانت هذه الأحكام المجمعية الكنسية ضد الهرطقات التى ظهرت فى تاريخ الفكر المسيحى ، بمثابة الدعاية لهذه الهرطقات وللتعاليم المضلة • ولهذا السبب ولأسباب أخرى انتشرت بعض التعاليم التى حكمت الكنيسة بحرمانها ، فهكذا انتشرت تعاليم الغنوسيين وتعاليم ماركيون وتعاليم البنويين وتعاليم الانتحاليين وتعاليم بولس السميساطى وتعاليم لوقيانوس وتعاليم أريوس وأتباعه ••• الخ •

إن الفترة التى مرت بها الكنيسة فى القرون الأربعة الأولى كانت فترة صعبة معقدة ، إذ أن معظم الهرطقات التى ظهرت فى تاريخ الفكر المسيحى بخصوص التعاليم الكرستولوجية ، ظهرت فى هذه الحقبة من

الزمن ، ومما لاشك فيه أن هرطقات وتعاليم مضلة قد ظهرت فى القرون الأخرى وستتعرض لها فى المجلد الثانى ، إلا أن أغلبية التعاليم المضلة التى ظهرت فى تاريخ العقائد المسيحية قد ظهرت خلال هذه القرون الأربعة . بل منذ نشأة الكنيسة ، جاء إليها العدو ليلا : منتهزا فرصة نيام الناس وزرع زوانا فى وسط الحنطة (مت ١٣ : ٢٤ — ٣٠) ، ولقد نما هذا الزوان فى نفس التربة وفى نفس الحقل أسوة بالنباتات الجيدة التى بذرها صاحب الحقل وكبر هذا الزوان بجانب النباتات الجيدة الطيبة وأعطى أثماره الرديئة المدمرة والمخربة . ولقد سبق أن رأينا فى دراستنا لهذه الفترة ، الأثمار الرديئة والمرة التى أنتجها هذا الزوان : « تعاليم مضلة » وابتعادا عن الحق الالهى وانقساما مريرا محزنا فى جسد المسيح أى الكنيسة ، التى فى محاولتها للاجابة على سؤال المسيح : « من يقول الناس إنى انا ابن الانسان ؟» (مت ١٦ : ١٣) انقسمت إلى جماعات وأحزاب وطوائف وكنائس يحارب بعضها بعضا باسم الله ولأجله،وهو من كل هذا برىء. وهكذا نرى أن نبوة سمعان الشيخ قد تحققت فى خلال هذه القرون الأربعة بل لا تزال تتحقق أيضا منذ أن نطق بها الى يومنا هذا ، أى أن المسيح : « قد وضع لسقوط وقيام الكثيرين ... ولعلامة تقاوم » (لو ٢ : ٣٤) أى أنه صار حجر عثرة يسقط عليه الكثيرون ،بل للأسف الشديد الأغلبية الساحقة ، ذلك لأن الأغلبية الساحقة رأت فى المسيح عثرة وجعلته أيضا عثرة ! !

ولكن بالرغم من هذا كله ، بالرغم من الزوان الذى ينمو فى وسط النباتات الجيدة فى حقل السيد ، وبالرغم من التعاليم المتفشية والمضلة التى تعرضت وستتعرض لها الكنيسة فى كل مكان وزمان ، وبالرغم من الزوابع العاصفة والقاصفة التى تهب بشدة وبعنف على السفينة الصغيرة ، فإن الذى يطمئن قلب المؤمن والذى يمنحه السلام الكامل

والضمان للمستقبل ، هو أن سيد هذه السفينة المهددة بالعواصف والرياح موجود فى وسطها،فلن تهلك•لأنه هو نفسه الذى اعطى كلمته لكنيسته ، فوعده لها القائل : « وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (مت ١٦ : ١٨) وعد صادق وأمين ، والذى وعد الكنيسة بالنصرة والغلبة على العدو صلى أيضا من أجل وحدتها وحفظها من الانقسام والانشقاق ، فلقد طلب فى صلاته الوداعية قائلا : « ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب فى وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتنى » (يو ١٧ : ١) • إن أمنيـــة المسيح العظمى هى أن تختفى الانشقاقات والانقسامات البغيضة التى لا تلد إلا الكراهية وعدم التفاهـــم وعدم الانسجام • إنه يريد كنيسة واحدة متحدة بالروح ، متخذة عبرة من الانشقاقات والانقسامــات التى مزقت فى الماضى وتمزق فى الحـــاضر أيضا جسد المسيح الذى هو الكنيسة ، فإن كان المسيح يريد كنيســة صحيحة الايمان سليمة العقيدة جوابها على سؤاله فى قيصرية فيلبس : «أنت هو المسيح ابن الله الحى » فإنه يريد أيضا كنيسة حية متفاعلة مع المجتمع وفى المجتمع الذى توجد فيه وخادمة له لأن سيدها قد جـــاء ليخدم لا ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين ،أين هذه الكنيسة؟ !! هل عندنا ينظر المسيح إلى كنيسته اليوم فى القرن العشرين يرى فيها سحابة من الشهود ؟ ليساعدنا الرب لكى نكون شهودا أمناء لشخصه الـــكريم • آمـــين •

فى المجلد الثانى سنواصـــل بعون الله إذا شـــاءت إرادته رحلتنا العقائدية التاريخيـــة عن آخـــر القرن الرابع إلى القـــرنين السادس والسابـــع •

بعض المراجع للدراسة عن أريوس وأثناسيوس ومجمع نيقية :

1. A. Harnack. History of Dogma. Volume IV. p. 6 - 71.
2. A. Harnack. Precis de L'histoire. 176 - 194.
3. M. F. Haag. Histoire des dogmes Chretiens. 1re partie p. 148 - 182.
4. F. Bonifas. Histoire des Dogmes de L'Eglise Chretienne. Tome 2. 36 - 65.
5. H. M. Gwatkin. Studies of Arianism. London 1900.
6. M. Richard. Saint Athanase et La Psychologie du Christ Selon Les Ariens. Mel, SCRE L4 (1947) p. 5 - 54.
7. G. Voisin. La doctrine Christologie de St. Athanase. Rev. Hist. E. 1 (1900) 226 - 248.
8. P. Glatier. St. Athanase et L'ame Humaine du Christ. Greg. 36 (1955) 553 - 589.
9. J. M Leroux. Athanase d'Alexandrie. Eglise d'Hieret d'aujourd'hui. Les editions ouvrieres.

كتب القديس أثناسيوس :

1. Apologie Contre Leariens.
2. La Circulaire aux eveques.
3. Les Quatre discours contre Le Ariens.
4. Apologie l'Empereur Constance.
5. Apologie du Christianisme contre Le Paiens.
6. L'incarnation du verbe.
7. La vie de St. Antoine.
8. Apologie Sur Sa Fuite.

مجمع نيقية (انظر)

1. Bardy. G. Origines de L'Arianisme, Fliche et Martin 3,80 - 90.
2. Theodoret. Hist. 1. 7, 8 (ذكر سابقا)
3. Baynes. N. H. Journal of Roman Studies 1928, p. 279 f.
4. Eusebe vit. cont. 3. 7, 10, 9.
5. Rufin Hist. eccl., 10, 3.
6. Philostorge, Hist. eccl. 1,8.
7. Sozomene, Hist. Eccl. 1, 17.
8. Basile, Epist. 81.

(٩) علم اللاهوت النظامى . دار الثقافة المسيحية ص . ب ٤٣ القاهرة من صفحة ١٦٦ ــ ١٧٦ ، ٢٩٩ ــ ٣٠٦ .

(١٠) الدكتور أسدرستم مؤرخ الكرسى الأنطاكى : كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى . الجزء الأول من صفحة ١٩٩ ــ ٢٠٥ .

بعض مراجع عن أبولوناريوس واثناسيوس .

1. G. Voisin. L'apollinarisme, Louvain - Paris 1901.
2. C. A. Raven Apollinarism. An Essay on the Christology of the Early Church, Cambridge 1923.
3. A. Grillmeier.
4. A. Gaudel. La Theologie du Logos Chey Saint Athanase. Rev SRQ (1929) 524 - 539.
5. E. Weigl. Christologie. v. Tode d'Ath. 9 - 13.
6. Apollinaire, Ep. Ad. Dionys. A1, éd., Lietzmann 256 - 257, 49.
7. H. de Riedmatien. Apollinarist Christology 240 - 248
F. Bonifas. Tome 2, 91 - 94.
8. Jean Denielou Et Henri Marron. Nouvelle Histoire de l'Eglise Ed. Seuil 380 - 386.

9. Epiphane. Adv. Haer, 77, 20
10. J. Liebaert. Hist. des Dogmes 143 164.

(١١) شرح أصول الايمان : تأليف الدكتور القس ابراهيم سعيد والدكتور القس أندراوس واطسون . دار الثقافة المسيحية ص . ب ٤٣ الفجالة القاهرة . مصر ص ١٥٣ .